

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم التاريخ

اتجاهات كتابة السيرة النبوية في العراق

خلال القرن الرابع عشر الهجري

رسالة أعدها:

علي بن حسن أحمد بانافع

لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إشراف الأستاذ الدكتور

سعد بن موسى محمد الموسى

١٤٣٣هـ / ١٤٣٤هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

عنوان البحث: **"اتجاهات كتابة السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر الهجري"**

المقدمة: وأتحدث فيها حول أهمية الدراسة، وأسباب اختياري للموضوع، ومنهج البحث المستخدم في هذه الدراسة، والوسائل التي ساعدتني على إنجازها، والصعوبات التي واجهتني أثناء الإعداد والكتابة.

التمهيد: وأُلقي نظرة خاطفة على الاتجاهات السياسية والفكرية في الساحة العراقية خلال القرن الرابع عشر الهجري، ولمحة سريعة حول منهج المحدثين والمؤرخين الأوائل في كتابة السيرة النبوية وتاريخ صدر الإسلام.

الفصل الأول: العوامل المؤثرة في اتجاهات كتابة السيرة النبوية في العراق خلال ق١٤هـ ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعدد المدارس التاريخية الحديثة وأثرهما في كتابة السيرة النبوية.

المبحث الثاني: تعدد الملل والنحل وأثرهما في كتابة السيرة النبوية.

المبحث الثالث: الاستشراق والتغريب وأثرهما في كتابة السيرة النبوية.

الفصل الثاني: اتجاهات كتابة السيرة النبوية في العراق خلال ق١٤هـ ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: أهل السنة والجماعة. المبحث الثاني: اتجاه الفرق الإسلامية المخالفة لأهل السنة والجماعة.

المبحث الثالث: الاتجاه القومي. المبحث الرابع: الاتجاه العلماني. المبحث الخامس: الاتجاه الماركسي.

الفصل الثالث: تقييم جهود مؤلفي السيرة النبوية في العراق خلال ق١٤هـ ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مدى الالتزام بالأمانة العلمية والموضوعية في الكتابة والنقل.

المبحث الثاني: قيمة نتاجهم العلمي.

الخاتمة: عرض النتائج والحقائق الذي توصلت إليها في نهاية الدراسة.

أهم النتائج والحقائق التي توصل إليها الباحث:

أولاً: إن اتجاهات الكتابة في السيرة النبوية وإن حاولت التزام الحيدة والموضوعية، فإنها تمثلها في بعض الأحيان، أو تتمسح بها في أحايين كثيرة، حيث ظهرت نزعات مخالفة سرعان ما تحولت إلى اتجاهات حاولت استغلال التأليف في السيرة؛ لأجل الترويج لشتى الغايات المذهبية الضيقة والطائفية الممقوتة.

ثانياً: غياب أو تغييب المنهج القرآني في دراسة السيرة النبوية، فقد ظهرت روايات وأخبار كان يفترض في الباحثين دراستها وتمحيصها على ضوء الكتاب والسنة، غير أنها ـ وللأسف ـ مرَّت من دون أن تعرض عليه، ولا زالت تلحق الأذى بالسيرة وبنبوة نبينا ﷺ، خاصة أخبار "إسلام أبي طالب" و "واقعة الغدير" وغيرها، وفي الوقت نفسه تغيب وقائع تاريخية هامة أو تذكر بطريقة هامشية، ولعلَّ أوضح مثال على ذلك: "ظاهرة الوحي" و "الخوارق والمعجزات".

ثالثاً: لا زالت كتب السيرة أسيرة المنهج التقليدي الحولي، وهو منهج ـ إن كان يخدم السيرة في بعض الحالات ـ فهو يؤدي إلى تمزيق أوصالها، وتبدو معه الوقائع غير مترابطة، ونسيجاً مفكَّكاً لا يجمعه جامع، ولم يشذ عن هذا المنهج سوى عدد محدود قد يكون في مقدمتهم الدكتور عماد الدين خليل في دراسته للسيرة.

رابعاً: إن الدراسة العلمية الصحيحة للسيرة النبوية اليوم تقوم على تجريد صحيح الآثار والأخبار أولاً؛ ثم على حسن فهمها واستيعابها والوقوف على فقهها ودلالتها بعد صياغتها بأسلوب علمي رصين.

خامساً: إن كثرة المؤلفات المتعلقة بالسيرة النبوية تبرز أهمية التمييز بين الكتابات السديدة الأصيلة وبين مختلف الكتابات المختلقة حول هذا الموضوع، يدفعها الحقد على نبي الإسلام ﷺ، أو الجهل بمقام النبوة، أو الرغبة في الشهرة والنجومية؟!

إعداد الباحث: علي حسن بانافع. **إشراف**: أ.د. سعد موسى الموسى.

Abstract

The Title: The Trends of Writing the Biography of the Prophet Muhammad (PBUH) in Iraq During the Fourteenth Century AH.

Introduction: It includes the reasons why I chose this topic, its importance, the methodology used in the study and the factors that helped me as well as the obstacles I faced during the preparation and writing of this paper.

Preface: A glance at the political and intellectual trends in Iraq during the fourteenth century AH , and a glimpse at the methods of writing which the early pioneer historians and storytellers used in writing the biographies of the Prophet (PBUH) and the beginning of Islam era.

First chapter: The factors that influenced the trends of writing the biography of the Prophet (PBUH) in Iraq during the fourteenth century. It includes three studies:

١- The abundant number of modern schools of history and their impact on the writing of the biography.
٢- The abundant number of religious sects and deceits and their impact on the writing of the biography.
٣- Orientalism and Westernization and their impact on the wiring of the biography.

Second chapter: The trends of writing the biography of the Prophet (PBUH) during the fourteenth century AH. It includes five studies:

١- Sunni Muslims. ٢- Trends of sects contrary to Sunni Muslims. ٣- The national trend. ٤- The secular trend. ٥- The Marxist trend.

Third Chapter: Evaluating the efforts of the authors of the biography of the Prophet (PBUH) in Iraq during the fourteenth century AH. It includes two studies:

١- The extent of the integrity and objectivity of writing and imparting.
٢- Value of their literature.

Conclusion: The facts and findings of this paper.

The most important facts and findings of this paper:

١- Although the trends of writing the biography of the Prophet (PBUH) tried to be neutral and objective sometimes, some opposing tendencies emerged and turned to separate trends which tried to use the writing of the biography of the Prophet in promoting for various doctrinal purposes and repulsive sectarianism.
٢- The absence or absenting of the Qura'anic Methodology in the study of the biography of the Prophet (PBUH) as some narrations and tales emerged that researchers should have studied and examined, in light of the Holy Qura'an and Sunnah, but they haven't and they continue to harm the biography of the Prophet (PBUH) and the prophecy of our Prophet (PBUH) specially tales like "Abo Talib became a Muslim" and "Alghadeer incident" and other tales, whereas other historical incidents were absented or marginally mentioned like "The Revelation Phenomenon" and "Preternatural incidents and miracles".
٣- Biographies of the Prophet (PBUH) are still following the traditional method of occurrence which is of great help to the biography in some cases, but it leads to shredding the biography apart so incidents seem incoherent, with the exception of some authors like Emaduddeen Khaleel in the biography which he wrote.
٤- The accurate scientific study of the biography of the Prophet (PBUH) today stands on abstracting the right narrations and tales first then understanding and comprehending them, studying, examining and phrasing them in a solid scientific way.
٥- The abundance of written biographies points at the importance of the differentiation between the correct and authentic writings and other fabricated writings derived from those who hate the Prophet (PBUH), their ignorance or the desire for publicity and fame.

The researcher: Ali Hassan Ba nafe **Supervised by**: Prof. Saád Musa Al-Musa

المقدمة:

وأتحدث فيها حول أهمية الدراسة، وأسباب اختياري للموضوع، ومنهج البحث المستخدم في هذه الدراسة، والوسائل التي ساعدتني على إنجازها، والصعوبات التي واجهتني أثناء الإعداد والكتابة.

الحمد لله الذي جعلنا من أمة محمد ﷺ، وممن آمن به وصدقه، وممن سار على هداه واهتدى واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد...

فسيرة رسول الله ﷺ خير سيرة، وعترته خير عترة، وشجرته خير شجرة نبتت في حرم، وبسقت في كرم، واستوت في عظم، فهو جملة الجمال، وكل الكمال، فضائله أكثر من أن تحصى، ومناقبه لا تستقصى.

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه فأين الثريا من يد المتنــاول

نعم.. ذكر سيرة المصطفى ﷺ تزيد في الإيمان، وتضيء القلوب بأنوار الحب والعرفان؛ لأن الله تعالى ربط وقرن محبة رسول الله بمحبته ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١] وطاعته منوطة وموصولة بطاعته ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وبيعته مقرونة ومتصلة ببيعته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠] وذكره مقروناً بذكره، فما ذكر أحدٌ محمداً بالرسالة إلا وذكر الله بالربوبية ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشَّرح:٤].

ضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذ قال في الخمس المؤذن أشهــدُ
وشق له من اسمه ليجلّـــــه فذو العرش محمودٌ وهذا محمـــــدُ

ولقد احتفى الكون ـ كله ـ برحمته للعالمين وإبراز ما حلاَّه الله به من حُسن أخلاقه وكريم شمائله وصفاته، وما خصه به من المكارم والمحاسن، تجد ذلك واضحاً في أصدق كتاب وأعظم بيان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥ ـ ٤٦].

من هنا فقد حظيت سيرته ﷺ في جميع مراحل التاريخ الإسلامي بعناية فائقة من علماء الأمة جمعاً وتوثيقاً، وكتابةً وتنقيحاً، وتعليماً وتلقيناً ـ وحُق لها ذلك ـ فهي بأمر الله تعالى وإرادته تتجدَّد مع بزوغ كل فجر، وطلوع كل شمس، وتجد من يحملها، ويبلغها لتقوم الحجة على العالمين، فالسيرة النبوية عِلْمٌ قائمٌ بذاته، لها أسانيدها وعلماؤها، وباحثوها وطلابها، منذ عهد الرسول ﷺ، حيث كان من لا يحضر الواقعة يكلف أخاه برواية ما دار فيها له

بعد انتهائها، وكذلك في عهد التابعين كان الصحابة يتحدثون عما شاهدوه أو شاركوا فيه من أحداث؛ وإنما كان التدوين في آخر القرن الأول وحتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد أكد علماء الإسلام أن من فاته **علم السيرة** في معرفة تاريخها، ومضمونها، ومصنفاتها، ووقائعها، وأحداثها، وما يتعلق بها، فقد فاته خير عميم، وحريٌّ به أن لا يعد نفسه من أهل العلم، حتى ولو كان له سابق قدم ورسوخ في علوم أخرى.

واعتنى كثير من العلماء والمؤرخين والباحثين في السيرة النبوية، فقاموا بالتأليف والبحث والتحقيق بعلو همة ونشاط وجَدُّوا في ذلك كل الجِد، وبذلوا كل الاهتمام وهو وإن كان لا يفي بحق هذه الشخصية الكريمة الجليلة العظيمة، ولا يُعطِي لهذا المقام حقه اللائق به الذي أنزله مولاه في المكانة العظمى الفريدة والوحيدة لكنه في الحقيقة يُعتبَرُ أعظم ما شهده التاريخ في جميع أطواره وحقبه من عناية واهتمامٍ لم يحصل مثله لأيِّ شخصيةٍ في الدنيا سوى محمد بن عبد الله ﷺ، فمحمد ﷺ في نفسه عظيم وفقاً لكل مقياس صحيح تقاس به العظمة عند بني الإنسان، ومكان عظمته في التاريخ وأحداثه باقية على تعاقب العصور والأزمان؛ فالتاريخ كله بعده متصل به مرهون بعمله ﷺ.

ولا يختلف اثنان في أن السيرة النبوية تشكل إحدى أهم الركائز الإسلامية بعد كتاب اللّه ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وهي بهذا المركز لا بد من أن تكون موضع عناية واهتمام شديدين، وأن لا تكون موضع عبث العابثين أو المتطفلين، وبخاصة هؤلاء الذين لا يحسنون التعاطي معها فيسيئون إليها من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وانطلاقاً من هذه الحقيقية اهتم عدد كبير من العلماء والباحثين قديماً وحديثاً بالسيرة تدقيقاً وتحقيقاً بغية الوصول إلى أكبر قدر ممكن من الاطمئنان الى حقائق التاريخ النبوي، بعيداً عن الاضافات والاختلاقات، ولم يدخر القدماء والمحدثون من المحققين والمؤلفين جهداً لتحقيق هذا الغرض الكبير.

ولأساهم في خدمة سيرة أفضل الخلق ﷺ ــ على الإطلاق ــ اخترت هذا البحث الذي يحاول الإجابة عن إمكانية الموضوعية في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر الهجري، مفنداً لبعض الرؤى التي كتبت في السيرة العطرة، أو مفسراً لاتجاهاتها المختلفة، وفقاً لثقافة المؤرخ وعصره، ولا بد من القول بأن الفضيلة التي تنبعث منها الصناعة التاريخية كلها هي محبة الحقيقة، فبفضل هذه الحقيقة يصبح التاريخ علماً قائماً بذاته إن لم يكن أبو العلوم كما

يطلق عليه، على أن من حَبْ الحقيقة أن يعلن الكاتب عن فلسفته الجمالية والأخلاقية والسياسية الخاصة، والتي تشكل في جملتها المجال الثقافي الذي يدور حوله تفسيره للتاريخ عامة، وللسيرة النبوية خاصة، وإذا كُتِبَتْ سيرة النبي ﷺ بذلك النوع من الحيدة وحب الحقيقة اهتدت كل المذاهب واتفقت كل الرؤى ــ وإن اختلفت في بعض التفصيلات ــ حول عظمة الرسول ﷺ ونبوته، وبعبارة أخرى إن الحيدة أو الموضوعية في كتابة السيرة النبوية هي التي تبلغ الحقيقة، وهذا يلفتنا بالطبع إلى تعدد الكتابات والمذاهب لأي بحث تاريخي، ونخص بذلك سيرة النبي ﷺ لأن الخير كل الخير إنما يكون في السير على هذا الدرب من الموضوعية، والنهل من قويم المنهج النبوي في الحق والعدل، ومع ذلك فإن الكتاب والمؤرخين والأدباء جميعهم قد طرقوا هذا الباب كلٌ وفق ثقافته، وحسب مجاله الذي يعمل فيه، وسنرى من خلال هذا البحث، مدى تأثر متناولي السيرة النبوية، بمعطيات عقلهم وثقافة مجتمعهم.

وهؤلاء الذين كتبوا في السيرة النبوية عموماً وفي العراق خصوصاً لم تكن طريقتهم واحدة، بل تفرقوا طرائق قددا، والملاحظ أن السيرة النبوية في عصرنا لم تكتب فيها الأقلام الإسلامية فحسب، بل كتب فيها غير المسلمين أيضاً، ومن هؤلاء وأولئك المنصف في البحث المخلص في تلمس الحقيقة، وفيهم الحاقد المغرض على الإسلام المنحرف عن سواء السبيل، وهذا الاختلاف مرده إلى ما يدين به كل كاتب من عقيدة وما يعتقده من آراء وأفكار، ومن ثم تتعدد النتائج التي يتوصل إليها الكاتبون في السيرة تبعاً للمنهج المتبع في دراستها، وإذا كان عموم الأقدمين يكتفون بسرد أحداث السيرة النبوي، ولا يهتمون بالتحليل والاستنباط إلا قليلاً منهم، فعلى العكس من ذلك كثير من الكتاب المعاصرين الذين قطعوا أشواطاً بعيدة في تحليل أحداث السيرة النبوية، واستنباط الدروس والعبر منها، ومناقشة الكثير من قضاياها.

أ) إطار البحث:

الكتابة المعاصرة في السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر الهجري، قد توزعتها اتجاهات شتى ومناهج مختلفة تبعاً لانتماء صاحبها الديني والفكري والقومي، ففيها الأصيل الذي حاول مراعاة الأمانة العلمية في الكتابة والنقل، وتوثيق الخبر وعدم التعسف في التأويل، والاستفادة من السيرة النبوية للنهوض بالمسلمين، وفيها الدخيل الذي حاول جاهداً تسخير السيرة النبوية لخدمة أهوائه وخلفياته على اختلافها، مادية وعلمانية وقومية وشيعية ... الخ.

وحسب علمي البسيط فالذين تناولوا هذا الموضوع أفراد قلائل، وكان المفروض أن ينال هذا الموضوع كبير اهتمام من الباحثين المسلمين، أولاً لأهمية السيرة النبوية في البنيان الإسلامي، وثانياً لاكتساح المناهج الغربية الحديثة شرقية وغربية ساحة السيرة النبوية بتحليلاتها المغرضة؛ والتي تشكل خطورة كبيرة على فكر الأمة وثقافتها وموروثها الديني.

ب) أسباب اختيار الموضوع:

أولاً: إن دراسة السيرة النبوية تعليم وتطبيق حيٌّ لأوامر الله ونواهيه كما أرادها ﷻ أن تطبق في عالم الواقع والممارسة والعمل، ولتكون سلوكاً إنسانياً، ومنهجاً حياتياً، يعيشها الفرد المسلم في نفسه وشخصه، ويدركها في واقعه ومجتمعه.

ثانياً: التعرف عن طريق البحث والدراسة، على اتجاهات الكتابة والتأليف في السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر الهجري.

ثالثاً: إبراز الإنتاج الفكري والمخزون الثقافي لأهل السنة والجماعة بالعراق في دارسة السيرة النبوية والعناية بها في القرن الرابع عشر الهجري.

رابعاً: إعطاء لمحة واضحة عن الاتجاهات المخالفة، ونقد أساليبها مما يُساعد على التصديِّ لها والوقوف ضدها.

خامساً: جمع وحصر الأخطاء المنهجية التي وقع فيها بعض الكُتاب والمؤلفين العراقيين المحْدَثِيِنْ في القرن الرابع عشر الهجري.

سادساً: إظهار ما انطوت عليه كتابات بعض ذوي ا الاتجاهات المخالفة، من حقد دفين وتعصبٍ مقيتْ، أدى إلى تجريد النبي ﷺ من أهم صفاته، وهي صفة النبوة والرسالة والعصمة.

ج) الدراسات السابقة:

إن دراسة اتجاهات الكتابة والتأليف في السيرة النبوية الذي يقوم على جمع المتناثر من الكتب والمؤلفات، وحصره في حقبة تاريخية محددةً زماناً ومكاناً؛ قد تناول معظمها اتجاهات الكتابة في السيرة النبوية خلال القرون الأولى، وبعد الاطلاع على الببليوجرافيات الصادرة عن مراكز البحوث العلمية المعتمدة، مثل: قاعدة معلومات الرسائل الجامعية بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ومعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم

القرى، وحسب ما توافر لدي من معطيات فإنه لا توجد دراسة مفردة تناولت: (**اتجاهات كتابة السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر الهجري**).

ومن الدراسات السابقة التي تناولت دراسة اتجاهات الكتابة والتأليف في السيرة النبوية؛ والذي أفادتني كثيراً في رسم مخطط تفصيلي للبحث، دراسات متنوعة منها:

١) أطروحة دكتوراه بجامعة أم القرى، بعنوان: (**اتجاهات كتابة السيرة النبوية في القرن السابع الهجري**) للباحث صالح بن أحمد الضويحي.

٢) أطروحة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بعنوان: (**اتجاهات الكتابة في السيرة النبوية في المشرق خلال القرن السادس الهجري**) للباحث بسام بن عبد العزيز الخراشي.

٣) أطروحة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بعنوان: (**منهج المدرسة العقلية الحديثة في كتابة السيرة النبوية**) للباحث محمد بن عبد الله الغنام.

٤) أطروحة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (**قسم الدعوة**) بعنوان: (**اتجاهات الكتابة والتصنيف في السيرة النبوية ودراساتها الدعوية**) للباحث إبراهيم بن صالح الحميدان.

٥) أطروحة دكتوراه بجامعة أم القرى، بعنوان: (**اتجاهات كتابة السيرة النبوية في بلاد الشام خلال القرن الرابع عشر الهجري**) للباحثة أمل بنت عبيد الثبيتي.

٦) ومن الدراسات بحث بعنوان: (**الاتجاهات المعاصرة في كتابة السيرة النبوية**) للدكتور عبد الرزاق بن إسماعيل بن هرماس بمجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية سنة: ١٨ عدد: ٥٥ لعام ١٤٢٤هـ.

د) منهج الدراسة:

أولاً: إن المنهج المتبع في كتابة هذه الرسالة هو: **المنهج الوصفي النقدي** ومحاولة الجمع والحصر، ومن ثم الاستقصاء والعرض للكتابات المتداولة على الساحة العراقية في القرن الرابع عشر الهجري، بحيث اعرض وأُورد بعض آراء الكُتاب العراقيين المحْدَثِيْنْ ذوي الاتجاهات المختلفة في كتابة السيرة النبوية في الفترة الزمنية المحددة ضمن نطاق البحث، ونقد الاتجاهات المختلفة من خلال نماذج من كتاباتهم وكتبهم.

ثانياً: جمع كتب ومؤلفات أصحاب الاتجاهات المختلفة في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر الهجري، كمادة علمية موثقة، صالحة للبحث والدراسة.

ثالثاً: رصد وتحري لطرق وأساليب أصحاب الاتجاهات المختلفة في كيفية تناولهم للسيرة النبوية ومضمونها، ودراستهم لوقائعها، كل حسب اتجاهه وميله.

رابعاً: معرفة الحجم الكمي، والمقدار الكيفي لهذه الكتابات والاتجاهات حول السيرة النبوية في القرن الرابع عشر الهجري، **وكل هذا في إطار العرض النقدي للآراء**

هـ) مصادر ومراجع الدراسة:

بحكم أن الدراسة سوف تخضع للمنهج النقدي فسيتم الاعتماد ـ بصورة أساسية ـ في هذه الدراسة على المصادر الأصلية؛ إذ أنها هي الوحيدة التي تُؤرخ لأحداث السيرة النبوية ووقائعها، فهي أقرب للصدق واليقين لتوثيقها وقُرب عهدها بوقائع السيرة النبوية، واستخدمت ــ أيضاً ــ المراجع المعاصرة المعتمدة الموثقة.

أولاً: ومن أول هذه المصادر (**القرآن الكريم**).

ثانياً: ومن هذه المصادر (**كُتب الصِّحاح والسنن**).

ثالثاً: ومن المصادر ــ أيضاً ــ (كُتب المغازي والسِّير).

رابعاً: ومن المصادر (**كُتب التاريخ العام**).

خامساً: ومن المصادر الفرعية: (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض، والاستيعاب لابن عبد البر، وأُسد الغابة لابن الأثير، والإصابة لابن حجر وغيرها.

سادساً: كما سوف تستفيد الدراسة من **المؤلفات الحديثة والكتب المعاصرة**.

و) العقبات التي واجهها الباحث:

أولاً: قلة المطبوع من المؤلفات والكتب العراقية التي تناولت السيرة النبوية خلال القرن الرابع عشر مما أدى إلى نفاذها ومن ثم ندرتها.

ثانياً: ندرة المؤلفات المتكاملة في السيرة النبوية خلال القرن الرابع عشر لبعض الديانات الباطنية كالصابئة، واليزيدية، والشبك، والكاكائية، وهؤلاء اعتمدوا مبدأ التكتم الشديد في إظهار عقائدهم، ولكون مؤلفاتهم كُتبت بلغات محلية غير العربية.

ثالثاً: خاطبت العديد من مراكز الأبحاث والمكتبات في الجامعات العراقية كجامعة بغداد، وجامعة الموصل، وجامعة الكوفة، والجامعة الإسلامية في النجف وغيرها، وذلك بهدف الحصول على نسخ مطبوعة أو الكترونية، ولكن ـ للأسف ـ لم يبالوا حتى بمجرد الرد عليَّ مطلقاً.

رابعاً: حاولت البحث عن الكشاف العام لأعداد مجلة المورد العراقية، ولم أجد إلا الكشافات للمجلدات الخمسة الأولى ١٩٧١ ــ ١٩٧٦م ولم أجد فيها أي بحث تناول السيرة النبوية من قريب أو بعيد.

خامساً: راسلت الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل عن طريق البريد الالكتروني، وموقع التواصل الاجتماعي (الفيسك بوك) للاستفادة من خبراته في هذا المجال؛ وعدت بخفي حُنين!

سادساً: التقيت بالأستاذ خالد العاني صاحب الدار العربية للموسوعات بمعرض الرياض الدولي للكتاب في ١٤٣١/٣/٢٤هـ وأبلغته عن رغبتي في الحصول على مؤلفات العراقيين في السيرة النبوية خلال ق١٤هـ واتصلت بالدار مراراً! ولم أحصل منه على شيء.

سابعاً: اتصلت هاتفياً بالأستاذ محمد موسى الوحش صاحب دار دجلة للنشر بالعراق، ولكني لم أجد بمنشورات الدار من كَتَبَ في السيرة النبوية خلال القرن الرابع عشر الهجري.

ثامناً: اتصلت هاتفياً والكترونياً بالعديد من دور النشر الأردنية المهتمة بالكتاب العراقي، وأفادوني جميعهم بعدم وجود أي مؤلفات للعراقيين تتعلق بالسيرة النبوية خلال ق١٤هـ.

تاسعاً: الجميع يعلم أن السفر إلى العراق ـ منذ أكثر من عشرين عاماً ـ محفوف بالمخاطر بل ومن المستحيلات في ظل الظروف الراهنة، فصعب علي السفر إلى العراق لدواعي سياسية.

ز) **خطة البحث**:

المقدمة: وأتحدث فيها حول أهمية الدراسة، وأسباب اختياري للموضوع، ومنهج البحث المستخدم في هذه الدراسة، والوسائل التي ساعدتني على إنجازها، والصعوبات التي واجهتني أثناء الإعداد والكتابة، وكذلك الفترة الزمنية التي استغرقتها الدراسة.

التمهيد: وأُلقي فيه نظرة خاطفة على الاتجاهات السياسية والفكرية في الساحة العراقية خلال القرن الرابع عشر الهجري، ولمحة سريعة حول منهج المحَدِّثين والمؤرخين الأوائل في كتابة السيرة النبوية وتاريخ صدر الإسلام، ونبذة مختصرة حول كتابة السيرة النبوية وتطورها في العراق خلال القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين.

الفصل الأول: العوامل المؤثرة في اتجاهات كتابة السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعدد المدارس التاريخية الحديثة وتأثيرها في كتابة السيرة النبوية.

المبحث الثاني: تعدد الملل والنحل وأثرهما في كتابة السيرة النبوية.

المبحث الثالث: الاستشراق والتغريب وأثرهما في كتابة السيرة النبوية.

الفصل الثاني: اتجاهات كتابة السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر، ويشتمل على مقدمة حول اتجاهات الكتابة في السيرة النبوية في العراق بداية القرن الرابع عشر الهجري، ومفهوم الاتجاه وأسباب انتشاره، وخمسة مباحث:

المبحث الأول: أهل السنة والجماعة.

المبحث الثاني: اتجاه الفرق الإسلامية المخالفة لأهل السنة والجماعة، ويشتمل على ثلاثة اتجاهات وهي: الاتجاه الشيعي، والاتجاه الصوفي، والاتجاه العقلي.

المبحث الثالث: الاتجاه القومي والبعثي.

المبحث الرابع: الاتجاه العلماني الليبرالي.

المبحث الخامس: الاتجاه الماركسي اليساري.

الفصل الثالث: تقييم جهود مؤلفي السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مدى الالتزام بالأمانة العلمية والموضوعية في الكتابة والنقل.

المبحث الثاني: قيمة نتاجهم العلمي.

الخاتمة: عرض النتائج والحقائق الذي توصلت إليها في نهاية الدراسة.

قائمة المصادر والمراجع: ويقصد بها: مكتبة البحث.

الفهارس: ويشمل قائمة المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أهتف بحديث الحبيب المصطفى ﷺ: **"لا يشكر الله من لا يشكر الناس"**، فلزاماً عليَّ عرفاناً ووفاءاً أن أشيد بمن طوق عنقي بالجميل **والدي الكريمين** اللذين لا زالت ألسنتهما تلهج بالدعاء لي بالتوفيق الدائم والنجاح المستمر، ولا زلت ــ مهما قدمت ــ عاجزاً عن الوفاء بقدرهما، والإقرار بفضلهما، ولا أنسى دور **زوجتي الكريمة**،

وأبنائي البررة في توفير الراحة، والجو المناسب للكتابة والبحث، الذين بذلوا أقصى ما يمكن من مساعدة ومساندة، فإلى كل هؤلاء خالص الدعاء بأن يمد الله في اعمارهم لما يحبه ويرضاه.

والشكر موصولٌ إلى شيخي ومعلمي الأستاذ الدكتور **سعد بن موسى الموسى** أستاذ السيرة النبوية بجامعة أم القرى، والمشرف على هذا البحث، المعروف بصدقه بالتاريخ وصدق لهجته فيه، واستخلاص العبرة منه؛ والذي فتح لي أبواب قلبه وعقله، وأنارني بسديد رأيه وتوجيهاته العلمية الموقرة، فقدم لي الكثير من وقته وجهده، فلا حرمه الله الأجر والثواب ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

كما أود أن أتقدم بالشكر والتقدير والدعاء الخالص لله ﷻ أن يجزي كل من له دورٌ في إنجاز هذا البحث وإخراجه بالشكل اللائق؛ وأخص بالذكر **جامعة أم القرى** بمكة المكرمة، وعمادة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية فيها، ممثلة في قسم التاريخ بجميع أعضاء هيئة التدريس والكادر الإداري المتميز، والشكر موصولٌ ــ أيضاً ــ لعضوي لجنة المناقشة.

كما أزجي الشكر لكل من أسدى لي رأياً، أو سهل لي طريقاً، وأخص بالذكر كلاً من:

ــ الباحثة: أسماء بنت سالم بن عفيف التي استفدت كثيراً من رسالتها العلمية وهي بعنوان: **"المؤرخ عباس العزاوي وجهوده في دراسة تاريخ العقيدة والفرق المعاصرة في العراق"**.

ــ والمحدث العراقي الدكتور صبحي السامرائي الذي تواضع - ليَّ - فرد على اتصالي وحدثني بصعوبة بالغة ــ لكبر سنه ــ وزودني بمعلومات هامة حول شخصية الدكتور علي الوردي.

ــ والباحث العراقي الدكتور إياد عبد اللطيف القيسي الذي أنار لي الطريق وزودني ببحث: (**جهود علماء العراق في الرد على الشيعة**) للشيخ عبد العزيز بن صالح المحمود كاملاً.

ــ والأستاذ الدكتور بشار عواد معروف وهو مؤرخ عراقي عريق مقيم حالياً في عمّان، وقد اتصلت به وأخذت منه بعض الفوائد حول تصنيف الاتجاهات.

هذا جهد المقل وعذري أني أقدم بحثاً لم يطرقه أحدٌ من قبل على هذه الشاكلة، وهو على كل حال عمل بشري يكتنفه الصواب والخطأ، فإن أصبت فمن الله ﷻ، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، وعساني أوفق - بعد إجازته - إلى تنظيمه وتزويقه فأنال بذلك رضا الله ﷻ، وتحقيق محبة رسوله ﷺ، ثم رضا القارئ الكريم ورضاه على كل حال عسير.

التمهيد

ويشتمل على ثلاث مباحث:

المبحث الأول: الاتجاهات الفكرية والسياسية في العراق خلال القرن الرابع عشر.

المبحث الثاني: منهج المُحَدِّثين والمُؤرخين الأوائل في كتابة السيرة النبوية.

المبحث الثالث: كتابة السيرة النبوية وتطورها في العراق خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين.

المبحث الأول:

الاتجاهات الفكرية والسياسية في العراق خلال ق ١٤ هـ

عاش العراق خلال القرن الثالث عشر الهجري حياة بعيدة عن الاستقرار والطمأنينة، إذ أحاطت به التغيرات الدراماتيكية السريعة في الحُكَّام المماليك ثم العثمانيين، الذين لم يكن يهمهم شيئاً أكثر من البقاء في مناصبهم، دون توجيه أدنى اهتمام لمشاعر الناس وراحتهم، ورافق ذلك الأوبئة المهلكة والفيضانات المخربة، والغزوات الفارسية المتكررة، والحروب الدامية التي قام بها المماليك والعثمانيون، التي أنهكت البلاد وأفقدتها استقرارها ورخائها، وسيطر الخوف على النُّفوس وسلبها طِيب العيش وشلّ تفكيرها ولم يعد لها وقت للتفكير في طلب العلم وتحصيله، وإنما انشغل الناس بدفع الأذى عنهم والحفاظ على أنفسهم التي كثيراً ما تعرّضت للضياع بسبب الأحداث الجسام التي تعرَّض لها هذا البلد العظيم، ورغم ذلك كله شهدت الساحة العلمية والثقافية في أواخر عهد المماليك تقدُّماً ملموساً ذلك لأن المماليك عنوا بالناحية الثقافية في العراق من أجل كسب ثقة العراقيين، ولحاجتهم إلى موقف فكري يستندون إليه وبالتالي تقوية مركزهم بوجه الدولة العثمانية، التي كانت ترنو للقضاء عليهم وإعادة سلطتهم المباشرة على العراق.[١]

لعل أبرز مثال على هذا اهتمام المماليك ورعايتهم للثقافة والفكر ما قام به داود باشا[٢] من تشجيع الشعراء والفقهاء والعلماء والأدباء بل وأرباب الطرق الصوفية، وأخذ يغدق عليهم النعم والمنن والجوائز، فانتشرت نتيجة لذلك الثقافة العلمية والأدبية، لذا يعتبر عصره بداية اليقظة الحديثة في الأدب العراقي[٣]، وقد ارتفع فيه أسلوب الشعر وأخذ ينمو نمواً جديداً، ونبغ شعراء[٤] كانوا قادة الشعر العراقي خلال القرن الثالث عشر وهذا في الواقع نتيجة طبيعية لما

---

(١). علي علاء الدين الألوسي: الدرر المنتثرة في رجال القرن الثاني والثالث عشر (بغداد، دار الجمهورية، ١٩٦٧م) تحقيق: جمال الدين الألوسي وعبد الله الجبوري، ص ٤.

(٢). يعد من أهم الولاة المماليك، وسيد العراق بلا منازع، وفي آخر أيامه أظهر تحديه للدولة العثمانية، فدخلت القوات العثمانية بغداد في يوم ١٢٤٧/٤/٩هـ وأُلقي القبض على داود باشا وأُرسل إلى اسطنبول، وانتهى بذلك الحكم المملوكي في العراق، ثم عُين شيخاً للحرم النبوي، وبقي هناك حتى وفاته سنة ١٢٦٧هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام (الطبعة الخامسة عشرة، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م) جـ٢، ص ٣٣١، وعماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني (الطبعة الأولى، لندن، دار الوراق، ٢٠٠٩م) ص ٢٥٢.

(٣). داوود سلوم: تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي (بغداد، ١٩٥٩م) ص ٩.

(٤). أمثال: عبد الغفار الأخرس، وصالح التميمي، وعبد الباقي العمري، وعثمان بن سند البصري، وغيرهم.

كان داوود باشا يغدقه على الشعراء من مكافآت مغرية، أضف إلى ذلك أن داود باشا نفسه يتذوق الشعر ويطرب له لأنه أمضى شطراً كبيراً من حياته في دراسة اللغة العربية وآدابها أثناء طلبه العلم في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني.[١]

وقد فرضت هذه الحالة نفسها على المشهد العلمي والثقافي في بغداد وفي المدن العراقية الأخرى، إذ لم يعد أمر دعم هذه الحركة مقصوراً على الحكام المماليك بل شاركتهم في ذلك أسرٌ علمية وأدبية عريقة من أمثال: آل السويدي، وآل الحيدري، وآل الألوسي وغيرهم، وقامت بدور فعَّال ومؤثر في تشجيع وإنعاش الحركة الفكرية من خلال نشر التعليم وإنشاء المكتبات ووقف الأرزاق على المدارس، وعقد المجالس الأدبية وتأليف العديد من المؤلفات العلمية والأدبية، مما شكل البذرة الطيبة في تكوين النهضة الفكرية والعلمية التي بدأت معالمها تظهر إلى حيِّز الوجود في العراق في أواخر القرن الثالث عشر.[٢]

كانت الحياة الفكرية التي بُذرت بذورها فيه في ظل نظام حكم المماليك، قد أخذت بالتطور بسرعة لتشهد في أواخر القرن الثالث عشر، ظهور فكر عربي متميز الملامح ووعي اجتماعي غير قليل، ترك آثاره الواضحة على حركة كتابة التاريخ آنذاك[٣]، وشهدت الفترة التي تلت انتهاء عهد المماليك ظهور عدد كبير من أعاظم الفقهاء والشعراء والأدباء والمفسرين أمثال: أبي الثناء الألوسي[٤]، ومحمود شكري الألوسي[٥] وغيرهم، الذين قامت على يدهم نهضة ثقافية عربية بحتة بعيدة عن التأثير العثماني وتحسس ملموس لجذوره العربية المتميزة، أثره البارز، في تجاوز اهتمامات بعض المؤرخين الأطر التقليدية للمدينة، أو القبيلة، أو الأقاليم،

---

(١). علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (الطبعة الأولى، لندن، دار الوراق، ٢٠٠٧م) جـ١، ص ٢٦٩.

(٢). محسن عبد الحميد: الألوسي مفسراً (بغداد، ١٩٨٨م) ص ٣٤.

(٣). عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٦٧.

(٤). شهاب الدين، محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي البغدادي ولد في عام ١٢١٧هـ عين مفتياً لبغداد في عهد الوالي علي رضا باشا، ألف رسائل ومؤلفات مهمة، ولكن أشهرها تفسيره للقرآن الكريم المسمى: (روح المعاني) توفي سنة ١٢٧٠هـ. انظر: محسن عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٥). جمال الدين، محمود شكري بن محمود الألوسي ولد سنة ١٢٧٣هـ وكان من أشهر علماء بغداد، وتمهر بفنون الكتابة والتأليف، عين مدرساً في مدارس بغداد، وتولى إنشاء القسم العربي في جريدة الزوراء، قضى بقية حياته مؤثراً حياة العزلة منصرفاً إلى التأليف حتى وفاته سنة ١٣٤٣هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٤٠٠.

إلى كتابة تاريخ الأمة ذاتها، وكان ظهور أولى المحاولات الجادة لكتابة تاريخ العرب، بوصفهم أمة قائمة بنفسها، لها خصائصها النوعية، وشخصيتها القومية المستقلة، قد برزت على يد محمود شكري نفسه في كتابه الكبير (بلوغ الأَرَبْ في أحوال العرب) الذي أراد به النُّصفَة للعرب.

وساعدت على ذلك كله، جملة من مخترعات العصر الحديثة، كإنشاء خطوط للبرق تربط مدن العراق بمدن الأقطار المجاورة، كان من شأنه سرعة توصيل الأخبار إلى المثقفين، والاستغناء عن تَسَمُّع أخبار القادمين مع القوافل التجارية، ومن المسؤولين المعَيَّنين حديثاً، كما كان يحدث في الحقب السابقة، وتأسيس المطابع في بعض المدن العراقية[١] كان سبباً في نشر نتاجات المؤلفين العراقيين بين عدد أكبر من القُرّاء، كما أن انتشار الطباعة في أقطار الدولة العثمانية الأخرى، وبخاصة في الولايات العربية، ساهم إلى حدٍّ كبير في إغناء المكتبة التاريخية العربية بعددٍ وافر من المؤلفات التاريخية التراثية والحديثة، وصيرورتها في متناول أيدي القراء والباحثين في العراق، بعد أن كان الحصول عليها مخطوطة يعد أمراً عسيراً وشاقاً، كما أن ظهور الطباعة نفسها، كان سبباً في إصدار أُولى الصحف والدوريات العراقية، مثلما كانت وسيلة لاستقبال القراء العراقيين مقالات معاصريهم من الكُتَّاب في القاهرة واسطنبول وبيروت ودمشق وغيرها، ومثلما وجد مُحرِّرو تلك الصحف في المادة التاريخية، سواء أكانت على هيئة مقالة، أو بحث، أو كتاب متسلسل، أو قصة، غذاءً دائماً ومفيداً لصحفهم ودورياتهم، فإن هذه الصحف نفسها، بما كانت تنشره من أنباء وأفكار، تحوَّلت لتصبح أحد المصادر الرئيسة لإمداد المؤرخين بأخبار ما يجري في أنحاء العراق والبلاد العربية، بل والعالم أجمع، فساهم ذلك كله في زيادة الوعي التاريخي لدى دائرة واسعة من القراء والمتعلمين.[٢]

وشهدت العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر الهجري تطوراً مهماً في مجال العناية بالتاريخ، فهماً وكتابة، وذلك بسبب إدخال مادة التاريخ لأول مرة في مناهج الدراسة على المستويات كافة، بوصفه من ثمار حركة إنشاء المدارس الحديثة التي قامت به "نظارة المعارف"

---

(١). دخلت الطباعة في العراق على النحو الآتي: بغداد: ١٢٤٦هـ كربلاء: ١٢٧٣هـ الموصل: ١٢٧٣هـ كركوك: ١٢٩٩هـ البصرة: ١٣٠٧هـ النجف: ١٣٢٧هـ. انظر: شهاب أحمد الحميد: تاريخ الطباعة في العراق (بغداد، مطابع القطاع الخاص، ١٩٦٧م) جـ١، ص ١ ـ ١١.

(٢). عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٦٨.

العثمانية بعد استحداثها سنة ١٢٦٤هـ وبعض البعثات الأجنبية العاملة في العراق، فمنذ سنة ١٢٨٧هـ عُدّت هذه المادة أساسية في مناهج الدراسة الرُّشدية (المتوسطة) لسنواتها الثلاث، وعدت كذلك في مناهج الدراسة الإعدادية سنة ١٢٩٠هـ بسنواتها الأربع، بل أُدخلت مادة التاريخ الإسلامي في المدارس الرُّشدية العسكرية منذ تأسيسها سنة ١٢٨٧هـ وفي المدرسة الإعدادية العسكرية بعد ذلك بتسع سنين، وفي مدرسة الصنائع سنة ١٢٨٨هـ وهي أول مدرسة صناعية في العراق، ولقد أدى هذا التطور الجديد في مجال الدراسة التاريخ إلى تولد حاجتين أساسيتين، أولاهما ضرورة وجود كادر متخصص بتدريس هذه المادة، وثانيهما الحاجة إلى وجود كتب تاريخ إسلامي وعامي، تناسب مراحل الدراسة المختلفة، وقد سُدَّت الحاجة الأولى باستقدام بعض المدرسين الأتراك، وكان منهم المؤرخ التركي الشهير علي سيدي أفندي، أما الحاجة الثانية فقد سُدَّت بقيام بعض المدرسين العراقيين بتأليف كتبٍ تاريخية عامة، ورغم أن لغة تلك الكتب كانت التركية، إلاَّ أن منهجها كان جديداً تماماً، فلأول مرة يتعايش تاريخ أوروبا مع التاريخ الإسلامي في كتاب واحد، وكان إلمام الطالب بتواريخ أمم أخرى، غير الأمة العثمانية يُعدُّ أمراً جديداً في هذا المجال، وزاد من تأثير هذه الكتب وسعة انتشارها تولي عدد من المثقفين ترجمتها إلى العربية، أو تأليف كتب عربية أصلاً على غرارها مما أسهم في تكوين مناهج جديدة في كتاب التاريخ، وزاد أساليب تلك الكتابة تنوعاً إلى حدٍّ بعيد، وساهمت البعثات الدينية النصرانية في هذه الحركة، فكان التاريخ مادة أساسية تُدرِّسها مدرسة الآباء الدومنيكان في الموصل منذ منتصف القرن الثالث عشر، وكان تأسيس مطبعتهم سبباً في طبع عدد كبير من الكتب التاريخية المدرسية المهمة، تُرجم بعضها عن الفرنسية واللاتينية، بينما أُلِّف بعضها الآخر مؤلفون عراقيون، وترددت موضوعاتها بين التاريخ الكَنَسي المحض لأغراض التعلم الديني، وتاريخ العالم القديم، وتاريخ العصور الوسطى الأوروبية، وهي موضوعات تجمعها جِدّتُها للقارئ المعني بدراسة التاريخ في تلك الحقبة.[١]

واستجابة لإحساس متعاظم بأهمية كتب التراث في فهم تاريخ الأمة وتحديد مكانتها بين الأمم، وبخاصة ما يتمثل بالآف المخطوطات التي تزخر بها خزائن كتب المدن العراقية آنذاك، فقد شهدت العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر مولد معرفة جديدة، وهي فهرسة

(١). عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٦٩ ـ ٧٣.

المخطوطات والتعريف بها، ولعل أول محاولة في هذا المجال، هي التي قام بها عالم بغداد وأديبها خير الدين الألوسي[١] في كتابه الذي عنونه فهرست مكاتب بغداد الموقوفة سنة ١٢٩٦هـ وتناول فيه فهرسة عشر خزانات حافلة بالكتب الملحقة ببعض مساجد بغداد ومدارسها المهمة، ومَيَّز في عمله هذا بين ما هو مخطوط وما هو مطبوع، ولكن الملاحظ أن الفكر في العراق في الغالب ظل خلال هذه الفترة مستنداً على النهج التقليدي القديم في دراسة آثار الأولين وتدقيقها وبخاصة العلوم الدينية، ولم يحصل فيه تجدُّد يدعو إلى الالتفات، لأنه لم يتعرض لحدِّ الآن إلى أي تأثيرات ثقافية جديدة، أما نصيب العلوم البحتة من العناية فلم يكن مكافئاً لنصيب العلوم الدينية والأدبية بأي حال من الأحوال.[٢]

وحين تبوأ السلطان عبد الحميد الثاني[٣] عرش الدولة العثمانية أصبح في نظر أكثر العراقيين بمثابة رمز للإسلام وعنوان مجده، فهو حامي حمى المسلمين والذائد عن تخومهم تجاه الكفار، وصار الناس يلهجون بالدعاء له في كل مناسبة، ومعنى هذا أن الدين والدولة صارا في نظره كأنهما صنوان لا يفترقان أو ووجهان لشيء واحد، وقد أسهم الشعراء في تمجيد السلطان عبد الحميد ونال من شعرهم النصيب الأوفر.[٤]

يقول إبراهيم الوائلي في هذا الصدد: "لقد كان نصيب السلطان عبد الحميد من الشعر العراقي أوفر من غيره مع أن الفترة التي حكم فيها سماها المؤرخون فترة الاستبداد، غير أن الاستبداد لم يعرف عنه شعراء العراق ما كان يعرفه سواهم من الأتراك أو أنهم لم يدرسوا المفهوم الذي أدركه سواهم من المطلعين على التيارات السياسية، فقد كان للجامعة الإسلامية التي

---

(١). نعمان بن محمود بن عبد الله بن محمود الألوسي البغدادي ولد ببغداد سنة ١٢٥٢هـ تولى في شبابه القضاء في بلاد متعددة، وعين بأمر السلطان عبد الحميد الثاني رئيساً لمدرسي بغداد، فوفر له منصبه هذا فرصة للبحث والتدريس، ترك مؤلفات عديدة، وتوفي عام ١٣١٧هـ. انظر عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون، ص ٣٢٥.

(٢). فهمي جدعان: أسس التقدم العلمي عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث (الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٩م) ص ٢٣٦.

(٣). تولى العرش سنة ١٢٩٣هـ عُرِف عبد الحميد بشخصيته القوية إضافة إلى تدينه، وحاول جاهداً أن ينقذ الدولة من الانهيار، إلا أن الظروف والتآمر الدولي والصهيوني والقومي حالت دون ذلك، وأدت إلى الإطاحة بحكمه سنة ١٣٢٧هـ ولُوثت سمعته بكل شناعة يمكن أن يُوصف بها حاكم حتى وفاته سنة ١٣٣٦هـ. محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة (الطبعة الثانية، دمشق، دار القلم، ١٤١٩هـ) ص ٣٣ ـ ٦٣.

(٤). علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٣ ، ص ٤٦ .

احتضنها هذا السلطان لتوطيد مركزه أثر كبير عند رجال الدين والشعراء في العراق إذ كان دعاة هذه الجامعة ومؤيدوها لا يألون جهداً في ترسيخها في نفوس العراقيين"[١]، واشترك في تمجيد السلطان عبد الحميد الكثير من الشعراء العراقيين[٢]، وحين نشبت الحرب بين اليونان والدولة العثمانية في شهر ذي القعدة ١٣١٤هـ ونالت الجيوش العثمانية انتصارات باهرة، كان ذلك حافزاً لشعراء العراق أن ينظموا القصائد الرنانة في تمجيد السلطان ولإشادة بانتصارات جيوشه التي هي جيوش الإسلام على جيوش النصارى الصليبيين، وكان من جملة هؤلاء الشعراء السيد جعفر الحلي[٣]، فقد نظم في ذلك قصيدة رنانة نقتطف منها الأبيات التالية:

لك طأطأت دول الضلال رقابها	**قدها فسيفك قد أذل صعابها**
فاليوم صار الدين فيك مؤيداً	**ولدولة الإسلام كل هابها**
فمن المطاول دولة نبوية	**وقفت ملائكة السما حجابها**
أرسى قواعدها النبي محمد	**ورفعت أنت إلى السماء قبابها**
لم يسطع المخلوق ذلة دولة	**الحق خالقها أعز جنابها**

وعندما خلع السلطان عبد الحميد في ١٥ ربيع الأول ١٣٢٧هـ ووصل خبره إلى العراق كان له صدى بالغ فيه، فقد كان للسلطان عبد الحميد في قلوب العراقيين مهابة عظيمة، يقول توفيق السويدي[٤] في مذكراته: "إن أكثر المصلين في المساجد بكوا عندما ورد في خطبة الجمعة لأول مرة اسم السلطان الجديد محمد الخامس" ويروي السيد إسماعيل الواعظ ما جرى في الحلة، وكان مفتياً ورئيساً لفرع الاتحاد والترقي فيها، فقال: "إن برقية وردت إليه في منتصف الليل تنبئ

(١). إبراهيم الوائلي: الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر (بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٧٨م) ص ٢١٢.

(٢). منهم: جميل صدقي الزهاوي، وأحمد عزت الفاروقي، وطاهر الدجيلي، ومحمد القزويني، والشيخ يعقوب الشيخ جعفر، وعبد النبي الخضري، وغيرهم، فكانوا يصفونه بأنه: أمير المؤمنين، وإمام العصر، وخليفة المسلمين، وحامي حمى الإسلام، وغيرها من الألقاب التقديسية. انظر: علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٣، ص ٤٧.

(١). شاعر شيعي من الحلة بالعراق، صدر له بعد وفاته ديوان (الجعفريات) في رثاء أهل البيت، نشره محمد علي اليعقوبي سنة ١٣٦٩هـ وديوان (سحر بابل وسجع البلابل) أو تراجم الأعيان والأفاضل، نشره محمد الحسين آل كاشف الغطاء سنة ١٣٣١هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٢، ص ١٤٢.

(٢). سياسي عراقي تولى منصب رئاسة الوزراء في العهد الملكي أربع مرات، ثم شغل السويدي منصب وزير الخارجية في حكومة الاتحاد الهاشمي عام ١٣٧٨هـ وسجن بعد الإطاحة بالملكية في العراق، ثم أعفي عنه عام ١٣٨١هـ ثم غادر العراق وعاش في لبنان إلى أن توفي فيها عام ١٣٨٨هـ. انظر: مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث ص ١١٨ ـ ١٢٥.

بخلع السلطان عبد الحميد، وفي الصباح غص السراي بالموظفين والأهالي وكان يوماً مشهوداً، وبعد أن تلا هو نص البرقية ألقى دعاءً بالمناسبة ابتدأه بالآية الكريمة: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران:٢٦]، فأخذ الناس يبكون بكاءً مراً".[1]

وسوف أعطي في عجالة نظرة خاطفة على الاتجاهات السياسية والفكرية في العراق خلال القرن الرابع عشر، وتشمل الآتي:

١) بدايات الفكر القومي في العراق الحديث والمعاصر.

٢) الاتجاهات الفكرية والسياسية من قيام الدولة وحتى حركة الكيلاني ١٣٦١هـ.

٣) الاتجاهات الفكرية والسياسية من حركة الكيلاني وحتى قيام الجمهورية.

٤) الاتجاهات الفكرية والسياسية في العهد الجمهوري ١٣٧٧هـ - ١٤٠٠هـ.

---

(١). علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٣، ص ٤٧، ص ٢٠٩.

أولاً: بدايات الفكر القومي في العراق المعاصر:

لم يكن للعرب في العصور المتأخرة فكر قومي بالشكل الواضح الذي نشهده في العصور المتقدمة، ذلك لأن الدين الإسلامي هو الذي كان سائداً بينهم؛ وكان العرب والمسلمون منهم يعتبرون الأتراك وكافة الأجناس إخواناً لهم في الدين ضمن إطار الدولة العثمانية التي كانت تمثل الخلافة الإسلامية في نظرهم، فقد ألغى الإسلام كل أنواع العصبية والتفاخر بالأرض أو النسب أو القبلية الجاهلية، يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجُرات:١٣]، ويقول الرسول ﷺ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ؛ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ".[١]

لم يظهر الفكر القومي بين العرب إلا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وكان أول ظهوره بين نصارى الشام، ويعزو ساطع الحُصْري ذلك إلى أسباب منها أنهم كانوا أكثر اتصالاً من المسلمين بالدول الغربية، وأنهم فضلاً عن ذلك كانوا يعتبرون الدولة العثمانية غريبة عنهم ومتسلطة عليهم، ولذا فهم كانوا يختلفون في هذا المضمار عن مواطنيهم من المسلمين[٢]، على أن مبدأ الفكر القومي الحديث، الذي يهدف إلى إقامة كيان مستقل للأمة التي تنتمي إلى أصل واحد أو تقطن بلاداً واحدة وتتكلم بلغة واحدة وتشترك في مصالح وأهداف واحدة، لم تظهر بوادره إلا في القرن الثالث عشر، وكانت أوروبا السبَّاقة في هذا الاتجاه، وقبل هذا الوقت لا يستطيع الباحث أن يعثر على معالم واضحة ومميزة لظهور المشاعر القومية العربية، بالرغم من الثورات والانتفاضات التي حدثت خلال شتى العهود ضد الحُكَّام العثمانيين وظلمهم، غير أنَّ أي حركة منها لم تكن تحمل الطابع القومي الصَّرف.[٣]

بيد أن هذا لا يعني أن المشاعر القومية العربية لم يكن لها قبل القرن الثالث عشر أي أثر في النفوس، إنما الشيء البديهي أن مفهوم الفكرة القومية كان كامناً في النفوس، بسبب سيطرة

---

(١). أخرجه أبو داود (٥١١٦) والترمذي (٣٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢). ساطع الحصري: محاضرات في نشوء الفكرة القومية (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م) ص ١٧٧.

(٣). توفيق برو: القومية العربية في القرن التاسع عشر (دمشق، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٥م) ص ١٧.

أقوام أجنبية على الوطن العربي، فكبتوا الفكرة القومية وغطوا عليها بمفاهيم وروابط أخرى، إلا أنه حينما سنحت الظروف لإيقاظ الفكرة القومية في القرن الثالث عشر انطلق الفكر القومي العربي ليعبر عن ذاته، فظهرت الحركة القومية العربية الحديثة، الهادفة إلى إقامة كيان عربي مستقل(١)، وبهذه الصورة يمكنني القول، بأن الشعور القومي العربي لم ترتسم معالمه وتتضح أهدافه إلا في مطلع القرن الرابع عشر، حينما أخذ العرب يطالبون باستقلالهم عن الدولة العثمانية ليكون لهم كيان قومي خاص بهم؛ أما قبل ذلك فلم يكن لهم كيان ليرتقي إلى تحقيق مثل هذا الهدف، القائم على إنشاء الدولة القومية الحديثة.(٢)

والفكر القومي في العراق لا يختلف جوهرياً عمَّا هو عليه في البلاد العربية الأخرى من حيث إنَّه تعبير عن وحدة اللغة والثقافة والتاريخ والوطن المشترك، إلاَّ أن الظروف التي مرت بها كل منطقة من مناطق الوطن العربي، من حيث خضوعها لشكل أو لآخر من أشكال السيطرة الأجنبية، قد أدَّت إلى نشوء الفكر القومي أو تأخره في هذه المنطقة أو تلك، والعراق حتى أواخر القرن الثالث عشر لم يكن تربة خصبة لنمو الفكر القومي، وبالتالي ظهور الأحزاب السياسية والجمعيات الإصلاحية، ويعود ذلك إلى أسباب كثيرة أبرزها التخلف والجمود الاقتصادي والاجتماعي، اللذان كانا سائدين في العراق في تلك الفترة.(٣)

فعلى خلاف سورية ومصر، لم تكن للعراق اتصالات وثيقة بالأفكار الأوروبية أو بالبعثات التنصيرية أو الإرساليات الثقافية الأوروبية، فضلاً عن ذلك، كان مستوى التعليم في العراق غير عال، وكان عدد الطلبة الذين يرتادون المدارس الموجودة قليلاً، وباستثناء أبناء العوائل الغنية، لم يكن ثمة طلبة يرسلون إلى الخارج لمواصلة التعليم(٤)، فلم يتبلور الفكر القومي

---

(١). طارق الحمداني: التدوين التاريخي في العراق (الطبعة الأولى، لندن، دار الوراق، ٢٠١٠م) ص ١٩٨.

(٢). عبد العزيز رفاعي: أصول الوعي القومي العربي (القاهرة، مؤسسة المطبوعات الحديثة، ١٩٦٠م) ص ٥.

(٣). طارق الحمداني: المرجع السابق، ص ١٩٨.

(٤). كان مجموع طلبة العراق عام ١٣٣٣هـ يبلغ حوالي ١٩٤٩٩ منهم ٦٠٠ بنت ٧٣٧٨ ولداً في المدارس الحكومية، و٢١٦٣ ولداً في المدارس الأهلية والأجنبية، وكان عدد الطلبة العراقيين في اسطنبول حوالي ١٤٠٠ فقط منهم ١٢٠٠ تخرجوا كضباط في الجيش العثماني، وخلال الفترة نفسها كان عدد الطلبة العراقيين في الجامعة الأمريكية في بيروت لا يتجاوز الـ ٧٠ طالباً. انظر: هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية (الطبعة الأولى، لندن، دار رياض الريس، ٢٠٠١م) ص ٥١.

في الوطن العربي عامة، وفي العراق خاصة قبل مطلع القرن الرابع عشر؛ ولكنه في الوقت نفسه لم يكن منقطع الجذور، فلم تتبدل أُسس الروابط القومية المتمثلة باللغة والثقافة والتقاليد والمصالح المشتركة تماماً، كما لم يتغير التاريخ العربي، لذا فإن مرحلة ضعفها في ظل السيطرة الأجنبية، لم يكن إلا استعداداً لمرحلة أُخرى من مراحل الحركة القومية، الذي عبَّرت عن نفسها بأشكال شتى، ولم يكن العراق ليختلف عن بقية مناطق الوطن العربي من حيث خضوعه للدولة العثمانية التي امتدت لأكثر من أربعة قرون، وهي استتباع لفترة سابقة من فترات السيطرة الأجنبية، قاربت الثلاثة قرون، لذا فقد ضعفت كثير من معالم الشعور القومي في ظل هذه الظروف التي سلبت هذه البلاد سيادتها وحضارتها، وأخضعتها بقوة السلاح.[1]

على أن الثورات والانتفاضات التي كانت تظهر في العراق، مابين فترة وأخرى، لم تكن نتيجة شعور قومي خالص، بل كان الحافز إليها محاربة الظلم والجور الذي كان يمارسه بعض الحُكَّام المماليك أو العثمانيين؛ وظل هذا الأمر قائماً حتى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، وأول ما يجب أن يُوضح هو أن الفكرة القومية في هذه الفترة كانت تنطوي على حركة ذاتية، وهي ناشئة عن ظروف هذه البلاد وتطورها، حيث شهدت تطوراً ثقافياً ناجماً عن المدارس التي أُنشئت في العراق والإصلاحات الحديثة التي أخذت تجد طريقها إليه، ممَّا جعل أبناء هذه البلاد أكثر اهتماماً بقضاياهم الوطنية والقومية.

غير أنَّ هذا الاهتمام لم يكن بالشدة نفسها الذي كان عليه في بلاد الشام ومصر، نظراً لاحتكاكهما بالغرب وتأثرهما بأفكاره قبل العراق وإلى حدٍّ أبعد منه بكثير، فقد شهدت مصر منذ منتصف القرن الثالث عشر نهضة طباعية وصحافية زاهرة، وقد ساهم فيها نصارى الشام الذين هاجروا إلى مصر كيعقوب صروف[2]، وفارس نمر[3]، وشبلي شميل[4]،

---

(١). طارق الحمداني: التدوين التاريخي في العراق، ص ١٩٩.

(٢). من نصارى الشام، انتسب إلى الجمعيات القومية العربية والمحافل الماسونية، وأصدر مع أقرانه مجلة المقتطف، وشارك في إصدار جريدة المقطم، توفي سنة ١٣٤٦هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ ٨، ص ٢٠٢.

(٣). من نصارى الشام، أحد مؤسسي جمعية بيروت السرية، عين عضواً في مجلس الشيوخ المصري، توفي بالقاهرة سنة ١٣٧١هـ. انظر: زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية (الطبعة الثالثة، بيروت، دار النهار، ١٩٧٩م) ص ٦٠.

(٤). من نصارى الشام، أول داعية للأفكار والفلسفات المادية في العالم العربي، من مؤسسي جمعية اللامركزية، وتوفي فجأة بالقاهرة سنة ١٣٣٥هـ. انظر: خير الدين الزركلي: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٥٥.

وجورجي زيدان[(١)]، وفرح أنطون[(٢)] وغيرهم، وصار نتاج تلك النهضة يأتي العراق بكثرة فأحدث فيه أثراً فكرياً لا يُستهان به.

أصبحت مصر كأنها الواسطة الفكرية ودار التعريب بين أُوروبا والبلاد العربية، فكانت الأفكار الحضارية الجديدة تأتي إليها من أُوروبا؛ فيترجمها الكُتاب والمؤلفون المصريون بعد أن يضيفوا إليها طعماً عربياً، ثم تُرسل بعدئذ بشكل صحف ومجلات وكتب إلى العراق[(٣)]، وكانت أهم المجلات التي ترد إلى العراق في تلك الآونة هي المقتطف والهلال، وكانت النزعة الغالبة على كلتا المجلتين هي الدعوة إلى تبني الحضارة والعلوم الحديثة، ونحو بناء مجتمع على أساسها، يقول ألبرت حوراني: "عندما وصلت الأعداد الأولى من المقتطف إلى بغداد في ١٢٩٢هـ لم يُرحب بالمجلة إلا بعض الشباب، بينما قاومها المحافظون من مختلف المذاهب السنية والشيعية والنصرانية واليهودية، لأنها كانت في نظرهم تنشر عقائد جديدة وخطرة، حتى أن نعمان الألوسي نفسه، الذي كان زعيم حركة إصلاح إسلامية لا تختلف عن حركة محمد عبده[(٤)]، قاومها هو أيضاً، وقد انقضى بعض الوقت قبل أن أخذت عقائدها في الانتشار".[(٥)]

ومع ذلك نخلص إلى تأثر العراق بالأفكار الصادرة عن بلاد الشام ومصر، إلا أن الحركة القومية في العراق لم تظهر إلا في وقت متأخر نسبياً قياساً لما هو عليه الحال في القطرين المذكورين، إذ ظهرت بعد إعلان الدستور العثماني عام ١٣٢٦هـ ويشخص لنا محمد مهدي

---

(١). من نصارى الشام، من عملاء الاستعمار الإنجليزي والفرنسي، أسس دار الهلال، وضع سلسلة روايات تاريخ الإسلام والتي تعتبر من أخطر كتبه التي فيها حقدٌ على الإسلام، توفي بالقاهرة سنة ١٣٣٢هـ. انظر: محمود الصاوي: كتابات جورجي زيدان دراسة تحليلية في ضوء الإسلام (الطبعة الأولى، القاهرة، دار الهداية، ١٤٢٠هـ) ص ٨٣.

(٢). من نصارى الشام، وأحد الرموز الأوائل للعلمانية، وقد ذهب في تفكيره المنحرف إلى حدود لا ينبغي الوصول إليها أو التصريح بها في التعدي على الذات والقدرة الإلهية. انظر: محمد كامل ضاهر: الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي الحديث والمعاصر (الطبعة الأولى، بيروت، دار البيروني، ١٤١٤هـ) ص ٢١٤.

(٣). علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٣، ص ٢١.

(٤). محمد عبده بن حسن خير الله، من كبار رجال الإصلاح والتجديد في مصر، اشتغل بالتدريس والتأليف، وشارك في الثورة العرابية فسجن ونفي، أصدر في باريس مع أستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة (العروة الوثقى) وعاد إلى مصر، وأصبح مفتياً للديار المصرية حتى وفاته سنة ١٣٢٣هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٦، ص ٢٥٢.

(٥). ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة (الطبعة الثالثة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨م) ترجمة: كريم عزقول، ص ٢٩٥.

البصير[١] هذه الحالة بقوله: "إن النهضة القومية في العراق أُسست بعد إعلان الدستور على أيدي نفر من شبابنا الأحرار الذين أكملوا دروسهم في الآستانة وشهدوا مظاهر الشعور القومي التركي في عاصمة السلطنة، فغلى الدم في عروقهم وجاءوا بغداد ونار الحماسة الوطنية تشتعل بين جوانحهم فبثوا الفكرة القومية في رؤوس ثلة من الشبان، ويغلب على ظننا أن حمدي بك الباجه جي[٢]، كان في طليعة الشبان الذين حملوا الفكرة العربية من العاصمة التركية إلى وطنهم القومي".[٣]

وفي الحقيقة لم يكن العراق ليوازي بلاد الشام في عدد الجمعيات السياسية التي عبَّرتْ عن فكر ذا طابع عربي قومي، فإنَّ ذلك لم يمنع العراقيين وخاصة العسكريين منهم، الذين خدموا جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب في الجيش العثماني، من المشاركة في عضوية ونشاط الجمعيات التي ظهرت في الربع الأول من القرن الرابع عشر، ولم تكن تختص ببلد واحد فقط بل للأُمة العربية[٤]، وقد أدتْ التطورات السياسية الدراماتيكية التي شهدتها الدولة العثمانية بعد عام ١٣٢٧هـ وتسلم الاتحاديين مقاليد الأمور إلى ظهور اتجاهات جديدة في مجرى الفكر العربي، ذلك أن سياسة التتريك التي انتهجها الاتحاديون، ونزوعهم إلى تطبيق المركزية بالنسبة للولايات العربية التابعة للدولة العثمانية، قد دفع العرب إلى التفكير بذاتهم ومستقبلهم، فعندما أُنشئت تركيا الفتاة[٥]، على أُسس من الوطنية التركية المتطرفة، كانت ردة الفعل عند القادة

---

(١). محمد مهدي بن محمد بن عبد الحسين البصير، أديب وشاعر، شارك في ثورة العشرين بشعره وخطبه، درَّس في جامعة آل البيت، ودار المعلمين العالية مدة ٢١ سنة، وتوفي ببغداد. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٧، ص ١١٦.

(٢). أحمد حمدي بن عبد الوهاب الباجه جي، اشترك في تأسيس النادي العلمي، وانتمى إلى جمعية العهد، ساهم في تأليف الحزب الوطني، كان وزيراً للخارجية في حكومة محمد الصدر عام ١٣٤١هـ حتى وفاته في بغداد سنة ١٣٦٧هـ. انظر: مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث (الطبعة الأولى، لندن، دار رياض الريس، ١٩٨٧م) ص ٢٠٢.

(٣). محمد مهدي البصير: تاريخ القضية العراقية (الطبعة الثانية، دار اللام، لندن، ١٩٩٠م) ص ٢٧.

(٤). عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون (الطبعة الأولى، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٤م) ص ٥٥٥.

(٥). جمعية سرية قومية علمانية، أنشأت على يد ستة من دعاة الدستور سنة ١٢٨٢هـ، وكان لهذه الجمعية اليد الطولى في إصدار دستور سنة ١٢٩٣هـ، ولما شعر السلطان عبد الحميد الثاني بالتآمر عليه، أخذ يتعقبهم ونفاهم خارج الدولة. انظر: عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، جـ٢، ص ١٠٠٤.

العرب قوية فأجمعوا أمرهم وسلكوا الأسلوب ذاته، حيث انشأوا جمعية المنتدى الأدبي[١]، وجرى اتصال بين العراقيين، والجمعية القحطانية السرية[٢] وكذلك بينهم وبين الجمعية العربية الفتاة[٣]، وكذلك أدَّى العراقيون دوراً كبيراً في حزب اللامركزية الإدارية العثماني[٤]، الذي اشتد نشاطه في كلٍ من: بغداد والبصرة، فقد كان للحزب فرعان في العراق، وإن كانا يختلفان عنه بالاسم فقد تأسس النادي الوطني العلمي[٥] في بغداد بمساعي رئيسه مزاحم الباجه جي[٦]، وأُلفتْ جمعية البصرة الإصلاحية[٧] برئاسة طالب النقيب[٨]، وكانت هاتان الجمعيتان من الجمعيات الفكرية التي حملت الفكرة العربية الناشئة في العراق، وبشرت بها بين الشباب بشكل خاص[٩]، ومع إمعان حكومة الاتحاديين الاستبدادية بترسيخ نفسها في اسطنبول، أخذت الأصوات المحبطة في

(١). وهي ثاني جمعية علنية تأسست سنة ١٣٢٧هـ أنشأها الشباب العربي المقيم في اسطنبول، وأصدر المنتدى مجلة باسمه، وكان يُشرف عليها أحمد عزت الأعظمي، وبقي المنتدى قائماً حتى عام ١٣٣٤هـ. انظر: محمد عزة دروزة: نشأة الحركة العربية الحديثة (الطبعة الثانية، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ١٣٩١هـ) ص ٢٩١.

(٢). وهي أول جمعية سرية وطنية تأسست في أواخر عام ١٣٢٧هـ وكان الهدف من ورائها تحويل الدولة العثمانية إلى مملكة ذات تاجين (عربية ـ تركية). انظر: جورج انطونيوس: يقظة العرب (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٢م) ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ص ١٨٦.

(٣). بدأت فكرة هذه الجمعية في عام ١٣٢٧هـ وقد انتمى بعض العراقيين إلى الجمعية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ظلت سرية حتى نهاية الحكم العثماني. انظر: محمد طلس: عصر الانبعاث (بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٣م) ص ٥١.

(٤). تأسس هذا الحزب في أواخر عام ١٣٣١هـ وكان الغرض من إنشائه: الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية، وتعبئة الرأي العام العربي لتأييد اللامركزية. انظر: زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، ص ٩٣.

(٥). تأسس في عام ١٣٣٠هـ على يد نفر من الشباب القومي العربي في بغداد، وترأسهم السيد طالب النقيب، وقدم إليهم إعانة مالية، وكانت الاجتماعات تعقد سراً في دار الشيخ توفيق السويدي، وفي ١٣٣١/٧/٩هـ قامت الشرطة بتفتيش دار السويدي واعتقلتهم. انظر: هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية، ص ٣٦.

(٦). مزاحم بن أمين بن أحمد الباجه جي، كان نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية في حكومة علي جودت الأيوبي سنة ١٣٧٠هـ، انتقل إلى رحمة الله في سويسرا سنة ١٤٠٢هـ. انظر: مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث، ص ٢١٥.

(٧). أُنشئت جمعيات قومية تنادي بإصلاح البلاد العربية، وكان ذلك أثناء سقوط حكومة الاتحاديين، فنشأت في: بغداد، والبصرة التي افتتحت في ١٣٣١/٣/٢١هـ. انظر: محمد عزة دروزة: المرجع السابق، ص ٣٩٩.

(٨). زعيم أولى الحركات الاستقلالية العربية، وصار يلقب بـ عميد العراق، من أشد الناقمين على الاتحاديين، أصبح أول وزير للداخلية في الحكومة العراقية المؤقتة وكان طامعاً بعرش العراق فنفاه الإنكليز من العراق إلى سيلان سنة ١٣٣٩هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٣، ص ٢١٨.

(٩). محمد البصير: تاريخ القضية العراقية، ص ٢٧.

الولايات العربية للدولة العثمانية، المنادية باللامركزية الإدارية أو الحكم الذاتي بتغذية وتعزيز المشاعر الناشئة للقومية العربية، وفي ولايات الرافدين كانت هذه الأصوات أكثر ارتفاعاً في البصرة.[١]

ففي الثاني من ربيع الثاني ١٣٣١هـ انعقد مؤتمر عربي في المحَمَّرة حضره السيد طالب والشيخ مبارك الصباح[٢] أمير الكويت والشيخ خزعل[٣] أمير المحَمَّرة ومندوب عن الدولة العثمانية، وفي المؤتمر حاول المندوب التركي الحيلولة دون اتخاذ موقف معادٍ للدولة العثمانية، غير أنه فشل في ذلك[٤]، فتم الاتفاق بين المؤتمرين على التحالف فيما بينهم وتنسيق سياساتهم، وعلى قرار يدعو إلى المطالبة بالحكم الذاتي ـ لا بل بالاستقلال التام ـ للعراق[٥]، وأن يبذل كلاً منهم قصارى جهده لتحقيق مطالب العراق في الاستقلال، وانتدبوا الرسل إلى كربلاء والنجف لبث الدعاية القومية فيهما، ثم أرسلوا قرار المؤتمر إلى زعماء الحركة العربية في بغداد واسطنبول وسوريا ومصر وغيرها[٦]، بعد انفضاض المؤتمر وفشل مندوب الدولة العثمانية في استمالة هؤلاء الشيوخ، أخذت تحاربهم بضراوة؛ فوجهت إليهم الانتقادات العلنية في صحفها واتهمتهم بالتآمر على سلامة الدولة والاتفاق مع الإنجليز ضدها.[٧]

---

(١). تشارلز تريب: صفحات من تاريخ العراق (الطبعة الأولى، بيروت، الدار العربية للعلوم، ١٤٢٧هـ) ترجمة: زينة جابر إدريس، ص ٥٨.

(٢). مبارك بن صباح بن جابر بن عبد الله ابن صباح، مؤسس الكويت الحديثة، اشتهر بالتقلب وعدم الثبات على سياسة واحدة، وقد خرج في أخريات أيامه عن الدين، فكان يجاهر بالمعصية، مما جعل أهل الكويت يضجون منه، وظل حاكماً إلى أن مات فيها بقصره سنة ١٣٣٤هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٥، ص ٢٧٠.

(٣). خزعل بن الشيخ جابر بن مرادو، شيعي المذهب، لقب بحاكم شط العرب، وتمكنت القوات الإيرانية من إلقاء القبض عليه بعد أن غدر به الحاكم الإيراني فضل زاهدي، واحتلت المحمرة وعينت حاكماً عسكرياً عليها، وقد توفي الشيخ خزعل سنة ١٩٣٦م في معتقله بطهران. انظر: وليم تيودور سترنك: خزعل بن جابر واحتلال إمارة عربستان (الطبعة الأولى، بيروت، الدر العربية للموسوعات، ١٤٢٦هـ) ترجمة: عاد الجبار ناجي، ص ٣٠٥.

(٤). مجموعة المؤلفين: الشيخ خزعل أمير المحمَّرة (الطبعة الثانية، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٩م) ص ٣٩.

(٥). تشارلز تريب: المرجع السابق، ص ٥٨.

(٦). فيليب ويلارد، آيرلند: العراق وتطوره الدستوري (بيروت، ١٩٤٩م) ترجمة جعفر الخياط، ص ١٧٨.

(٧). تشارلز تريب: المرجع السابق، ص ٣٩.

وحينها انتقل السيد طالب إلى المهاجمة العلنية لسياسة التتريك[١] والحركة الطورانية[٢]، التي كان يتبعها الاتحاديين؛ ودعا الجنود العرب في الجيش العثماني إلى التمرد، حاول حزب الاتحاد والترقي التدبير لمقتله، ولكن بعد فشل المحاولة، دعا كل من السيد طالب وحكومة الاتحاد والترقي إلى عقد هدنة تضمنت اعترافاً بنفوذ طالب، وكانت هناك خطة لتنصيبه والياً على البصرة، وربما كان ذلك هو طموحه الرئيسي والسبب الأساسي الذي دفعه إلى مدّ يده للحكومة العثمانية، بيد أن تلك الأخيرة تخلّت عن الخطة حين أصبحت قوة المعارضة المحلية واضحة، وعوضاً عن ذلك؛ وفي تبدّل غريب في سياستها، أرسلت أوامر لوالي بغداد باعتقال السيد طالب في ذي القعدة ١٣٣٢هـ وبما أن تلك الحادثة تزامنت مع الإنزال البريطاني قرب البصرة، عقب اندلاع الحرب، لم يضع طالب وقته في التقرب من البريطانيين ـ الذين كان على اتصال بهم منذ زمن طويل ـ وطلب منهم تنصيبه شيخاً أو أميراً على البصرة تحت حمايتهم، وبالرغم من أن بعض ذوي المناصب العليا في بريطانيا كانوا يحلمون بإقامة حكومة وصاية بريطانية في البصرة، إلا أنهم كانوا على علم ـ أيضاً ـ بتاريخ طالب المتقلب، ووجدوا أنه من الآمن لهم إبعاده إلى الهند، التي لازمها حتى عام ١٣٣٨هـ.

أما في بغداد فقد أكد تحسين العسكري[٣] في مذكراته عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، دور السيد طالب النقيب في دعم النادي مادياً ومعنوياً، وأورد ذلك أيضاً محمد مهدي البصير في (تاريخ القضية العراقية)، ومحمد عزة دروزة[٤] في معرض كلامه عن (نشأة الحركة العربية الحديثة)، كما أكد بعض المؤرخين ما معناه: أن القوميين في بغداد كانوا منقسمين إلى

(١). صبغ جميع ولايات الدولة بما فيها الولايات العربية بالصبغة التركية، وفرض اللغة التركية لغة رسمية، وتطبيق سياسة التتريك. انظر: عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية: دولة إسلامية مفترى عليها (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٤م) جـ١، ص ٧٢.

(٢). أسس بعض المتحمسين للدعوة الطورانية جمعية اسمها ترك أوجاغي أي الوطن التركي سنة ١٣٢٩هـ، وتدعو إلى إحياء أمجاد الأتراك القومية. انظر: علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٣، ص ٢٥٣.

(٣). تحسين بن مصطفى بن عبد الرحمن العسكري، اشترك في ثورة العشرين العراقية، وتولى وزارة الداخلية، وعين وزيراً مفوضاً للعراق بمصر، توفي بالقاهرة سنة ١٣٦٦هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٢، ص ٨٤.

(٤). باحث فلسطيني، شارك في تأسيس الجمعيات والأحزاب الاستقلالية في سورية وفلسطين، بلغت كتبه المطبوعة تسعة وثلاثين كتاباً. انظر: محمد خير يوسف: تتمة الأعلام (الطبعة الثانية، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٢هـ) ص ١٤٢.

جماعات أربع، فكانت جماعة منهم من أتباع السيد طالب الذي شكل النادي العلمي الوطني، أما سليمان فيضي[١] فيذكر في مذكراته: "أن تأسيس هذا النادي لم يتقاطع نشاطه مع نشاط الحركات المعارضة الأخرى، إذ كان فرعاً من فروع حزب الحرية والائتلاف[٢] الذي هو أصلاً حزب (الحر المعتدل) وكان أول حزب أسس في الولايات العربية آنذاك، وكانت قيادته قد وجهت رسائل إلى زعماء الحركة العربية ورموزها في مختلف البلاد العربية بضرورة فتح شعب لذلك الحزب، وكانت ولاية بغداد في مقدمة ذلك"[٣]، وكانت جماعة أخرى تنظر إلى الشام في الزعامة والعون، كما كانت جماعة ثالثة تتراسل مع مصر؛ وارتبطت مباشرة مع حزب اللامركزية العثماني في القاهرة، أما الجماعة الرابعة فقد كونت حزباً بغدادياً مستقلاً يعتمد بالدرجة الأولى على جهوده ورؤسائه.[٤]

ويمكن القول أن جماعة السيد طالب في بغداد كانت أقوى وأنفذ من الجماعات الأخرى، إذ هي كانت تستمد التشجيع والمعونة المادية والأدبية منه، وفي عام ١٣٣١هـ أخذت الجماعات القومية تعمل سوية من أجل توحيد الجهود مع البصرة وبيروت ومصر في تقديم مطالب مشتركة إلى اسطنبول، وكانت الاجتماعات تعقد سراً في دار الشيخ يوسف السويدي[٥]، وكان ابنه ثابت يلهب الحماس بما لديه من ذلاقة لسان.

ومثلما ظهر قادة شاميون وعراقيون في مجال العمل القومي، السري والعلني، فقد كان لهم حضور طاغ في جمعية العهد[٦]، التي حلَّتْ محل الجمعية القحطانية، التي أسسها عزيز علي

---

(١). سليمان فيضي بن داوود، أصدر عام ١٣٢٧هـ جريدة باسم الإيقاظ، انتخب سنة ١٣٣٠هـ عضواً في مجلس المبعوثان العثماني، توفي في البصرة سنة ١٣٧٠هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٣، ص ١٣١.

(٢). تأسس في سنة ١٣٢٩هـ، ويضم بين صفوفه بعض الأمراء الذين يمثلون اتجاهاً يمينياً في السياسة العثمانية، وكان المبدأ الذي نادوا به هو اللامركزية. انظر: علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٣، ص ١٨٥.

(٣). سليمان فيضي: مذكرات سليمان فيضي (الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٩٨م) تقديم: باسل فيضي، ص ١١٦.

(٤). فيليب ويلارد، آيرلند: العراق وتطوره الدستوري، ص ١٧٩.

(٥). يوسف بن نعمان بن محمد سعيد السويدي، شارك في الثورة العراقية وكان الشيخ يوسف أول رئيس لمجلس الأعيان، وأدركه الموت ببغداد في ١٣٤٧/٣/١١هـ. انظر: مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث، ص ١٠٤.

(٦). تأسست في الجيش العثماني سنة ١٣٣١هـ وهي جمعية سياسية عسكرية سرية، وقد تمتعت هذه الحركة بنفوذ طاغ بين الضباط العراقيين في الجيش العثماني. انظر: هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية، ص ٢٨.

المصري[١]، اعتماداً على الضباط العرب في الجيش العثماني، وكان اتجاهها يقوم على تقوية النزعة القومية العربية، ولما كان العراقيين ممثلين فيها بشكل واسع، فقد رأيناهم منضمين بإخلاص إلى الآمال الوطنية، وقد افتتحت الجمعية لها فروعاً في بغداد والموصل، ولكن الأتراك اكتشفوا هذا النشاط السري، وأوقفت الشرطة التركية الفريق عزيز علي المصري في ١٣ ربيع الأول ١٣٣٢هـ[٢]، ورغم اعتقال زعيم الجمعية، عزيز علي المصري، فإن رجال الحركة الوطنية في العراق، وبخاصة طالب النقيب في البصرة، قد صمدوا ردحاً من الزمن، وذلك بفضل فروع الجمعية الأخرى في البصرة وبغداد والموصل، ومن المفيد الإشارة هنا، إلى أن الدعوة للفكرة القومية في العراق لم تكن تتعدى في مراحلها الأولى المطالبة بالمساواة في الحقوق ضمن إطار الدولة العثمانية أو فكرة اللامركزية الإدارية، ثم انتهت إلى طلب الاستقلال التام بعد انغماس الاتحاديين وفرضهم لسياسة التتريك المتطرفة على جميع القوميات المكونة للدولة العثمانية، فقد كان من الطبيعي وطرفا النزاع يدينان معاً بالإسلام أن يتبلور الشعور الوطني إلى شعور قومي، وأن يتحقق الفصل بين الإسلام وبين المفهوم القومي العربي سعياً لمقاومة العثمانيين.[٣]

---

(١). من أصل شركسي، يعتبر من طلائع رجال الحركة العربية، وقد أثارت مشاركته في تأسيس جمعيات عربية سرية حفيظة الاتحاديين، مما أدى إلى محاكمته وطرده من تركيا سنة ١٣٣٢هـ، عمل مع الشريف حسين إبان الثورة العربية الكبرى، كلف بإدارة مدرسة البوليس، ثم عُين مفتشاً على الجيش المصري عام ١٣٥٧هـ، وعُين سفيراً لمصر في موسكو سنة ١٣٧٣هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٨٥هـ. انظر: مجيد خدوري: عرب معاصرون (الطبعة الأولى، بيروت، الدار المتحدة، ١٩٧٣م) ص٢٧، وعلي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٣، ص ٢٧٤، ويذكر أنه من أصل عراقي.

(٢). عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص ٥٥٦، وهادي عليوي: المرجع السابق، ٢٩.

(٣). صباح ياسين: الفكر والقضايا القومية في الصحافة العربية (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٢م) ص ٢٩.

ثانياً: الاتجاهات الفكرية والسياسية من قيام الدولة وحتى حركة الكيلاني[(١)]:

أوشك الفكر القومي أن يختمر قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٦هـ إلا أن اندلاعها قد غيَّر مُجريات الأمور، وسارت الرياح بما لا تشتهي سفن الحركة القومية العربية، فقد انقسم العرب في تعاملهم مع الدولة العثمانية من جهة، ومع الحلفاء بريطانيا وفرنسا من جهة أُخرى، وكانت نتيجة هذا الانقسام أن أنهت بريطانيا السيادة العثمانية على مصر، وأعلنت هذا البلد محمية بريطانية، كما احتلت بريطانيا كلاً من العراق وفلسطين، واحتلت فرنسا لبنان، ثم تقدمت إلى سوريا، وأسقطت الحكم الفيصلي فيها، مما أدى إلى قيام حكم بريطاني أو فرنسي في هذه البلدان وفقاً لنظام الانتداب.

كان الوضع الجديد غاية في الخطورة، ذلك لأن العرب الذين ثاروا على الأتراك العثمانيين في الثورة العربية الكبرى عام ١٣٣٥هـ وحلموا بالاستقلال، لم يجنوا إلا الاحتلال، وذلك بعد نكث الحلفاء بوعودهم التي قطعوها للشريف حسين، إذ في الوقت الذي كانوا يعدونه باستقلال المناطق العربية، كانوا يخططون باتفاقاتهم السرية تقسيم المشرق العربي، وهو ما عبَّرت عنه اتفاقية سايكس بيكو[(٢)] ١٣٣٤هـ ووعد بلفور المشؤوم[(٣)] ١٣٣٥هـ وبهذا أصيبت الحركة العربية بنكسة التقسيم وتفرقت الأحلام الوحدوية، وكانت هذه النكسة بداية لترسيخ الإقليمية المحلية الضيقة التي كانت سمة المرحلة التالية، استأنف العرب نضالهم القومي ضد السيطرة

---

(١). محمد رشيد عالي بن عبد الوهاب الكيلاني، ترأس الحكومة العراقية أربع مرات، قام بالحركة المعروفة باسمه؛ التجأ إلى السعودية سنة ١٣٦٥هـ ثم انتقل إلى مصر سنة ١٣٧٣هـ وقد عاد إلى بغداد بعد الثورة ١٣٧٧هـ فلم يلبث أن أُتهم بالتآمر لقلب نظام الحكم؛ وحكمت عليه المحكمة العسكرية بالإعدام سنة ١٣٧٨هـ،ثم عُفي عنه وأطلق سراحه، توفي في بيروت سنة ١٣٨٥هـ ودفن في بغداد. انظر: مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث، ص ١٤٦.

(٢). الاتفاق الانجليزي الفرنسي السري، ويقضي بهيمنة فرنسا على سوريا ولبنان، بينما تبقى لبريطانيا الهيمنة على العراق وفلسطين. انظر: واديث وَائي، أيف، بينروز: العراق دراسة في علاقاته الخارجية وتطوراته الداخلية ١٩١٥ ـ ١٩٧٥م (الطبعة الأولى، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٩م) ترجمة: عبد المجيد القيسي، جـ١، ص ٩١.

(٣). هو التصريح البريطاني الرسمي الصادر في ١٣٣٦/١/١٧هـ الذي أعلنت فيه بريطانيا تعاطفها مع الأماني اليهودية في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. انظر: عبد الوهاب الكيالي وآخرون: موسوعة السياسة (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥م) جـ١، ص ٥٦٠.

الاستعمارية الجديدة؛ ففي سوريا أُعلنت حكومة مستقلة بزعامة فيصل بن الحسين[١] ملكاً عليها، فأثار استقلال هذه الحكومة الثائرة القومية في العراق، بخاصة وأنَّها كانت تُطالب باستقلاله في كل مناسبة، على أن الدعوة لاستقلال العراق أصبحت المطلب الرئيس للعراقيين عامة، والجمعيات السياسية خاصة، فجمعية العهد العراقي[٢] مثلاً، جعلت مطلبها الأساس الكفاح ضد قوات الاحتلال البريطاني، وتحقيق الاستقلال الناجز، وكانت هذه من أهداف جمعية حرس الاستقلال[٣]، التي تضمن برنامجها الدعوة إلى استقلال العراق أيضاً، وتشكيل مملكة عراقية، ولما أخفقت هاتان الجمعيتان في تحقيق أهدافهما بالوسائل السلمية، لجأتا إلى الثورة المسلحة، وبخاصة بعد فرض الانتداب البريطاني على العراق.[٤]

كما أنشئت في الوقت نفسه مجموعة من الأحزاب، التي عمل قادتها في الغالب أعضاء في الجمعيات العربية التي رفعت شعار استقلال العرب وإقامة دولتهم العربية، لكن هؤلاء القادة قد تخلوا عن الشعارات القومية، وآمنوا بالقطرية ـ ذات الطابع الإقليمي ـ التي أوجدها الاستعمار بعد احتلاله لبعض أقطار الوطن العربي، ولم تتضمن برامج الأحزاب التي أنشأوها ما يدعو إلى الوحدة، باستثناء حزب الاستقلال الوطني[٥] الذي أُسس في الموصل الذي ذكر في منهاجه، الدعوة إلى تنشيط حركة الوحدة، على قدر ما تسمح به وضعية العراق السياسية آنذاك[٦]، لقد

(١). فيصل الأول ملك العراق الهاشمي، رفع علم الثورة في الحجاز سنة ١٣٣٤هـ في عام ١٣٣٩هـ قررت بريطانيا ترشيحه لعرش العراق، فقدم إلى بغداد، واحتفل بتنصيبه ملكاً على العراق في ١٣٣٩/١٢/١٨هـ توفي فيصل الأول في بيرن عاصمة سويسرا في ١٣٥٢/٥/١٩هـ. انظر: مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث، ص ١٥.

(٢). تنظيم سياسي عراقي، قوامه الفقري من الضباط العراقيين، تأسست في الموصل سنة ١٣٣٧ وقد لعبت الجمعية دوراً وطنياً بالغاً ضد الإنكليز، إلا أن سقوط الحكم الفيصلي في دمشق، وانتهاء ثورة العشرين في العراق جمد نشاطها وأنهى وجودها. انظر: هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية، ص ٤١.

(٣). جمعية سرية عراقية، تأسست سنة ١٣٣٧هـ برئاسة السيد محمد الصدر، وقد نشطت الجمعية ولعبت دوراً بارزاً عندما قامت ثورة العشرين، وألقت سلطة الاحتلال القبض على الكثير من أعضاء الجمعية وأبعدتهم إلى جزيرة هنجام في الخليج العربي، وهكذا انحلت الجمعية في ١٣٣٨/١١/٢٧هـ. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٤). طارق الحمداني: التدوين التاريخي في العراق، ص ٢٠٩ .

(٥). تأسس في عام ١٣٤٣هـ بالموصل، وقدم الملك فيصل الأول المساعدات المالية له ليواصل نشاطه في إعداد الرأي العام، كما قدم تقريراً واسعاً عن قضية الموصل نشره على شكل كراس. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ٦٢.

(٦). جعفر حميدي: التيار القومي في العراق ١٩٢١ ـ ١٩٥٨م (مجلة آفاق عربية، السنة ٩، يونيو ١٩٨٤م) ص ٤.

نشط المفكرون العراقيون منذ تأسيس الدولة العراقية حتى قيام الحرب العالمية الثانية في تنظيم أحزاب وجمعيات عكست الاتجاهات السياسية والفكرية، التي لم تكن سوى امتداد لاتجاهات حركة النهضة العربية، أو تبعات الأحداث التي أُثيرت في العراق آنذاك، وقد مرت بدورين:

الدور الأول: منذ صدور قانون الجمعيات عام ١٣٤١هـ وانتهاء بتأسيس البرلمان عام ١٣٤٣هـ حيث تأسست خلال هاتين السنتين أربع أحزاب علنية وهي: الحزب الوطني[١]، وحزب النهضة[٢]، والحزب الحر[٣]، وحزب الأمة.[٤]

أما الدور الثاني: فكان بعد تأسيس البرلمان حتى قيام الحرب العالمية الثانية، إذ أُثيرت خلال هذه الفترة قضية الموصل حيث تأسست أحزاب أنحاء العراق كافة للدفاع عن الموصل وتأكيد الوحدة الوطنية، وقد انتهت غالبية هذه الأحزاب بانتهاء القضية، وعلى أثر إجادة اللعبة البرلمانية ومفهوم الأكثرية والأقلية في البرلمان أسس بعض السياسيين أحزاباً سياسية لدعم وزاراتهم أثناء تشكيلها مثل: ياسين الهاشمي[٥] حزب الشعب[٦]، وأسس عبد المحسن

---

(١). تجمع سياسي وطني عراقي، تأسس سنة ١٣٤٠هـ وقد ضم الكثير من الشخصيات التي ساهمت في ثورة العشرين، وقدم الحزب مع حزب النهضة العراقية مذكرة إلى الملك فيصل الأول تتضمن العديد من المطالب السياسية، فاستغل المندوب السامي البريطاني وجود الملك فيصل في لندن، فأغلق الحزب الوطني وحزب النهضة ونفي زعمائهما إلى جزيرة هنجام. انظر: هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية، ص ٥٤.

(٢). ترافق تأسيس هذا الحزب مع تأسيس الحزب الوطني العراقي، وقد شارك الحزب إلى جانب الحزب الوطني في تقديم مذكرة الاحتجاج إلى الملك فيصل، كما ساهم في النشاطات الوطنية في رفض المعاهدة العراقية ـ البريطانية، وفي عام ١٣٤٨هـ توقف نشاط الحزب وانتهى أمره. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ٥٧.

(٣). حزب رجعي عراقي موالٍ للإنجليز، وهو ثالث حزب علني يقوم في العراق في هذه الفترة، إلا أن هذا الحزب بدأ في الاضمحلال بعد سقوط الوزارة النقيبية الثالثة. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ٥٩.

(٤). تأسس عام ١٣٤٣هـ وكان من أهم أعماله مطالبة المسؤولين بإعلان القانون الأساسي، وتصدى لمشكلة الموصل وقضية منح امتياز النفط، وانتهى الحزب الأمة سياسياً بعد سنتين من قيامه. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ٦٠.

(٥). ياسين حلمي بن سلمان الهاشمي، أحد بناة الدولة العراقية الحديثة، رأس الحكومة العراقية مرتين، فاضطر للاستقالة على أثر انقلاب بكر صدقي سنة ١٣٥٦هـ توفي ببيروت. انظر: مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث، ص ٩٤.

(٦). تجمع سياسي برلماني عراقي معارض، تأسس سنة ١٣٤٤هـ يعتبر حزب الشعب أول حزب بر لماني معارض، وحين ألف جعفر العسكري وزارته الثانية سنة ١٣٤٥هـ اشترك فيها حزب الشعب ممثلاً برئيسه الهاشمي، وكان ذلك بداية أزمة داخلية في الحزب مما أدى إلى انحلاله. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ٦٧.

السعدون[١] حزب التقدم[٢]، فيما أسس نوري السعيد[٣] حزب العهد[٤]، وأسس علي جودت الأيوبي[٥] حزب الوحدة والوطنية[٦]، وخلال الفترة نفسها تأسست جمعيات ونوادٍ ثقافية واجتماعية كثيرة، وقد لعب بعضها أدواراً وطنية وسياسية، وشهد العراق في خمسينيات القرن الرابع عشر نشوء عدد من الجمعيات والنوادي، التي أخذت على عاتقها نشر الفكر القومي، ومنها: جمعية الجوال العربي[٧] التي أُجيزت عام ١٣٥٤هـ بعد سنوات من العمل السري، وقد قامت على أساس المبدأ القومي العربي، وهذا ما تضمنه الكراس الذي أصدرته الجمعية بعنوان (المنهج القومي العربي)، والمجلة التي عبَّرت عن طبيعة ذلك المبدأ[٨]، أما نادي المثنى بن حارثة

---

(١). عبد المحسن بن فهد باشا السعدون، انتخب رئيساً لمجلس النواب العراقي مرتين، ترأس الحكومة العراقية أربع مرات حتى انتحاره في بغداد في١٣٤٨/٦/١٠هـ. انظر: مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث، ص ٦٧.

(٢). أول تجمع نيابي يميني عراقي، وأول حزب حكومي موالٍ للإنجليز، تأسس سنة ١٣٤٥هـ لتأييد وزارة السعدون الثانية، وكان الحزب يتمتع بنفوذ عشائري كبير، وبتأييد دار الاعتماد البريطاني، إلا أن إقدام السعدون على الانتحار آذن بتعجيل انهيار الحزب في صيف ١٣٥١هـ. انظر: هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية، ٦٥.

(٣). هو محمد نوري بن سعيد أفندي، ترأس الحكومة العراقية لأكثر من أربع عشرة مرة، وبقي في سدة الحكم إلى ثورة ١٣٧٧/١٢/٢٦هـ وعندما قامت الثورة اختفى في دار محمود الاسترابادي في الكاظمية، وخرج في اليوم الثاني إلى جنوبي بغداد فلقي مصرعه وسط الجماهير الهادرة. انظر: مير بصري: المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٤). حزب يميني رجعي عراقي، تأسس سنة ١٣٤٩هـ ألفه وترأسه نوري السعيد، وكان الهدف الأساسي من تأليفه المصادقة على إبرام المعاهدة العراقية ـ البريطانية، لكن موقف المعارضة والشعب كان صلباً، ويعد هذا الحزب الذي عاش في السلطة أكثر من أي حزب سياسي علني آخر طوال العهد الملكي. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٥). علي جودت بن أيوب آغا، ترأس الحكومة العراقية ثلاث مرات، وعُيّن رئيساً للديوان الملكي في سنة ١٣٥٣هـ وتوفي في بيروت في ١٣٨٨/١٢/١٤هـ. انظر: مير بصري: المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٦). هو أول حزب سياسي تأسس بعد دخول العراق عصبة الأمم، وتعود فكرة تأسيسه أثناء تشكيل الأيوبي وزارته الأولى سنة ١٣٥٤هـ لإسناد حكمه، ولما سقطت وزارة الأيوبي سنة ١٣٥٥هـ تفرق أعضائه، ثم انتهى من الوجود تلقائياً. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ٧٤.

(٧). تأسست جمعية الجوال العربي، على يد مجموعة من الضباط القوميين العراقيين، وقد اسهم بعضهم في حركة الكيلاني ١٣٦١هـ لذلك أقدمت حكومة جميل المدفعي الخامسة التي تشكلت عقب فشل الحركة على تعطيل الجمعية وإغلاق صحيفتها واعتقال أبرز أعضائها. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ٨٥.

(٨). طارق الحمداني: التدوين التاريخي في العراق، ص ٢١٣.

الشيباني[١]، التي أخذ على عاتقه العمل على نشر الروح القومية بين أبناء الأمة العربية، وإحياء التراث القومي العربي؛ وهذا ما نجده واضحاً في النظام الداخلي الذي أصدره النادي، ولم يقتصر نشاط جمعية الجوال ونادي المثنى ضمن حدود العراق بل كان لهما اتصالات بالجمعيات العربية ذات الصبغة المشابهة لتقوية الصلات بين التنظيمات العربية القومية، مثل: جمعية الدفاع عن فلسطين، ونادي القلم، وجمعية العروة الوثقى، وعصبة العمل القومي في سورية ولبنان، والتي كانت لها فروع بالعراق، وكانت أيضاً على صلة بالشخصيات القومية العربية[٢]، وبعد فشل حركة الكيلاني وجهت السلطة ضربتها الثانية إلى القوميين فأغلقت نادي المثنى واعتقلت أعضائه؛ وكل من ساند ثورة ١٣٦١هـ ثم أعلنت الأحكام العرفية وجعلت الإدارة في البلاد عسكرية صرفة، واتبعت سياسة الطوارئ، التي أدت إلى غلق الأحزاب وتعطيل الصحف وتكميم الأفواه وكبت الحريات ريثما تثبت أقدامها.[٣]

---

(١). تأسس في سنة ١٣٥٥هـ على يد مجموعة من العناصر القومية العراقية، وجاء تأسيس النادي كرد فعل على انتشار الأفكار الشيوعية والاشتراكية، وطالب بتعديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية لعام ١٣٤٩هـ، وبعد فشل حركة الكيلاني ١٣٦١هـ حلت السلطات النادي. انظر: هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية، ص ٨٨.

(٢). أمثال: فوزي القاوقجي، إبراهيم هنانو، كاظم الصلح، عبد القادر الحسيني، وغيرهم. انظر: طارق الحمداني: التدوين التاريخي في العراق، ص ٢١٤.

(٣). هادي عليوي: المرجع السابق، ص ٩٦.

ثالثاً: الاتجاهات الفكرية والسياسية من حركة الكيلاني وحتى قيام الجمهورية:

ظهرت في هذه الفترة أحزاب سياسية واضحة المعالم من حيث التنظيم والبرامج والأهداف والنشاط، فقد تعززت التجربة الحزبية في العراق، أضف إلى ذلك التطور الذي حدث اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً سواء على صعيد العراق أم العالم والذي انعكس بدوره ايجابياً على الأحزاب، كل ذلك أدى إلى تبلور التيارات الفكرية والسياسية في العراق على النحو التالي:

ـ **التيار التقليدي**: تبلور هذا التيار في الخمسينيات الهجرية؛ رأسه نوري السعيد يؤيده البلاط الملكي ممثلاً بالوصي على العرش، وسياسيو المدن، واتصف هذا التيار بالعقلية الضيقة التي عملت على ربطت العراق بالسياسة البريطانية من النواحي السياسية والاجتماعية داخلياً وخارجياً من خلال محاربة القوى الوطنية وفتح أبواب العراق لاستغلاله ونهب ثرواته، وربطه بمعاهدات جائرة وأحلاف عسكرية تخدم المصالح الاستعمارية، وقد جسد هذا التيار حزبا الاتحاد الدستوري[١] والأمة الاشتراكي.[٢]

ـ **التيار التحديثي المعارض**: وقف هذا التيار ضد التيار التقليدي، ثم تطور نتيجة ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية، وقد ضم جماعات أو كتلاً سياسية تجمعت حول شخصيات مختلفة، ومطالب هذه الجماعات كانت الاستقلال التام وجلاء الجيوش الأجنبية وإلغاء معاهدة ١٣٤٩هـ وكذلك معاهدة ١٣٦٨هـ ورفض الأحلاف والتكتلات العسكرية وفي مقدمها ما يُسمى بحلف بغداد[٣]، ومعارضة سياسة العهد الملكي والمطالبة بانتهاج سياسة الحياد تجاه المعسكرين وعدم الانحياز، والدعوة إلى استقلال البلدان العربية والوحدة العربية.[٤]

(١). تجمع سياسي رجعي، أسسه وترأسه نوري السعيد، وقد جمع خليطاً من العناصر يجمعها هدف واحد هو خدمة نوري السعيد وبريطانيا، وفي سنة ١٣٧٤هـ حل الحزب. انظر: هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية، ص ١٢٩.

(٢). برئاسة صالح جبر الذي قام بتشكيل تكتل موالٍ للأول، كمحورين متنافسين تحدوهما الرغبة في السيطرة والتسلط، بينما كان يتخذ مواقف أكثر اعتدالاً في الشؤون الداخلية، وفي سنة ١٣٧٤هـ جرى حل الحزب. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ١٣٢.

(٣). أُطلق على اتفاقية التعاون الدفاعي الأمني الثنائي بين العراق وتركيا الموقعة سنة ١٣٧٣هـ، وبعد الإطاحة بالحكم الملكي في العراق، انسحب العراق من الحلف رسمياً. انظر: وليد الأعظمي: نوري السعيد والصراع مع عبد الناصر (الطبعة الأولى، بغداد، المكتبة العالمية، ١٩٨٨م) ص ١٣.

(٤). حسن العلوي: العراق دولة المنظمة السرية (لندن، الشركة السعودية للأبحاث والنشر، ١٩٩٠م) ص ٢١.

وعلى الصعيد الداخلي طالبت بالحريات الديمقراطية وإنهاء الأحوال الاستثنائية وإلغاء الرقابة على الصحف، ومن ثم طالبت بإلغاء مراسيم عام ١٣٧٤هـ وبإجراء انتخابات نيابية حرة، وإقامة حكومات تمثل الشعب، كما طالبت بالتغيير الاجتماعي والاقتصادي(١)، وضم التيار التحديثي كل الاتجاهات الفكرية والسياسية، فالاتجاه القومي مثله حزب الاستقلال(٢)، وحزب البعث العربي الاشتراكي(٣)، والأحزاب الكردية، أما الاتحاد الديمقراطي الإصلاحي، فقد مثله الحزب الوطني الديمقراطي، والأحزاب الديمقراطية الاشتراكية الأخرى، فيما مثل الحزب الشيوعي التيار الماركسي أو التيار الاشتراكي اللاقومي.

والواقع أن الحزب الشيوعي العراقي(٤) لم يول القضايا القومية الاهتمام الكافي، ولهذا فإن الاستجابة لمشكلات الثورة القومية بالنسبة إلى الشيوعيين كانت ضعيفة، وإن أبرز مثل على ذلك موقفه من القضية الفلسطينية والوحدة العربية، فبالنسبة إلى القضية الفلسطينية تباين موقفه بين التأييد والمناهضة ليتلاءم وموقف الاتحاد السوفيتي، الأمر الذي يؤكد السمة اللاقومية لهذا الحزب على صعيد البرامج والمواقف السياسية، أما بالنسبة إلى قضية الوحدة العربية فقد عالجها من المنظور نفسه، حيث لم يعتبر برنامجه الأمة العربية أمة متكاملة من حيث العناصر القومية، فقد اكتفى بالدعوة إلى التقارب والتعاون السياسي والاجتماعي والاقتصادي بين

---

(١). هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية، ص ١٦١.

(٢). بعد اعتقال العناصر القيادية لنادي المثنى إثر فشل ثورة الكيلاني، أُجيز حزب الاستقلال، وبلغ عدد أعضائه ٢٨ ألف منتسب، وعندما قامت ثورة ١٤ تموز شارك الحزب في وزارة الثورة، ومع بداية توسع حزب البعث في العراق، أخذ الشباب المتحمس في صفوفه يتجه نحو حزب البعث. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ١١٣.

(٣). حزب قومي علماني ماركسي، أسسه ميشيل عفلق وصلاح البيطار في عام ١٣٦٤هـ وقام عفلق بتأسيس أولى خلاياه البعثية في العراق، من خلال شباب حزب الاستقلال الذين استهوتهم الشعارات القومية، وفي ١٣٨٢/٩/١٤هـ قام الحزب بانقلاب دموي على نظام عبد الكريم قاسم، وبعد نجاحه تشكلت أول حكومة بعثية في العراق. انظر: مطاع صفدي: حزب البعث: مأساة المولد ومأساة النهاية (بيروت، دار الآداب، ١٩٦٤م) ص ٦٥، ومجيد خدوري: العراق الجمهوري (الطبعة الأولى، بيروت، الدار المتحدة، ١٩٧٤م) ص ٢٥٩.

(٤).كانت أولى المحاولات لتشكيل حزب شيوعي سري في العراق، قد تمت بتأثير الحزب الشيوعي السوري، وظهر أول تنظيم شيوعي في العراق عام ١٣٤٤هـ وقد مر الحزب طوال حياته بفترات عصيبة وانقسامات متتالية في تنظيماته وحملات اعتقال شملت أغلب أعضاء المكتب السياسي للحزب وعندما قامت ثورة ١٤ تموز ساندها الحكم الحزب الشيوعي منذ بدايتها والتف حولها. انظر: هادي عليوي: المرجع السابق، ص ٧٥.

شعوب البلاد العربية واعتبر شعار الوحدة العربية شعاراً غير عملي، لذلك فإن كثيراً من القوميين الذين يتمتعون بنظرة اشتراكية، كان من الممكن أن يصبحوا شيوعيين أو مؤيدين للشيوعية، أخذوا يفتشون عن أحزاب أخرى يجدون فيها ما يشبع أمانيهم وطموحاتهم القومية والاشتراكية، وللأسباب ذاتها نجد بعض الشيوعيين تركوا حزبهم وأخذوا ينخرطون في أحزاب أخرى تلبي طموحاتهم الاشتراكية وأمانيهم القومية.

من جانب آخر فإن حزب الاستقلال الذي مثل التيار القومي العلني، أولى القضايا القومية اهتماماً كبيراً، فقد ثقف أجيالاً عراقية بالفكر القومي والاتجاه الوحدوي وبالارتباط بالقضايا القومية العربية (فلسطين، المغرب، عربستان ... الخ)، أما الأسلوب الذي مارسه حزب الاستقلال في مواجهة المشكلات الوطنية والقومية فكان الأسلوب الإصلاحي اللاثوري، هذه الحقائق في الاتجاهين المتضادين للحزب الشيوعي ولحزب الاستقلال في العراق كانت أحد الأسباب الرئيسة لقيام وانتشار حزب البعث، فالحاجة كانت ماسة إلى قيام حزب قومي وثوري وذي تنظيم حديدي ينازع الأعداء حسب تعبيرهم، أما الأسلوب الإصلاحي اللاثوري أدى إلى انسحاب كثير من الشباب من حزب الاستقلال، والأغلبية الساحقة من هؤلاء وجدوا في حزب البعث الإيديولوجية القومية الاشتراكية والأسلوب الثوري الشعبي والتنظيم السري القومي، لذلك انخرطوا في صفوفه، ومن جانب آخر أغفل الحزب التيار القومي العربي في العراق مسألة القوميات والأقليات فلم تحظى هذه المسألة باهتمام كاف ولم تدرس بشكل جدي وعميق، بالمقابل حظيت هذه المسألة بالاهتمام الكبير من قبل الحزب الشيوعي، لذا نجد أن الأخير استطاع أن يتغلغل لا في صفوف المواطنين فحسب، بل تغلغل حتى في الأحزاب الكردية ولو لفترة من الزمن.(١)

---

(١). هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية و العلنية، ص ١٦٢.

رابعاً: الاتجاهات الفكرية والسياسية في العهد الجمهوري:

إن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت الشرق الأوسط آنذاك جعلت هذه المنطقة من العالم غير مستقرة سياسياً حتى الوقت الحاضر، فعمته الفوضى السياسية، والانقلابات والتمردات العسكرية، والثورات والحركات الشعبية، والعراق كسائر دول الشرق الأوسط عمته هذه الأوضاع، وفعلاً ففي ٢٦ ذي الحجة ١٣٧٧هـ حدث انقلاب عسكري سرعان ما تحول إلى انتفاضة وثورة شعبية عارمة أسقطت النظام الملكي الذي أقامه الانجليز في ١٨ ذي الحجة ١٣٣٩هـ وأقامت الجمهورية بديلاً عنه، كان الانقلاب العسكري الذي أطاح بالملكية الهاشمية بموجب جميع التقديرات عنيفاً ودموياً، وكان الاستيلاء على السلطة المركزية أسرع وأسهل مما توقع أي من العسكريين الانقلابيين[١]، وكان يتقدم الانقلاب ضابطان ساخطان من الجيش الزعيم عبد الكريم قاسم[٢]، والعقيد عبد السلام عارف[٣]، يدعمهما مجموعة تعرف بـ (الضباط الأحرار) معظمها من السنة، كانوا متأثرين جداً بشعارات الحركة الوطنية العراقية، التي تبلورت عبر التاريخ الحديث للكيان العراقي، لا سيما وأن العمل في تنظيم الضباط الأحرار العراقيين الممتلئين حماسة ونقداً للأوضاع العامة وتطلعاً للتغييرات الثورية والمفتقرين إلى التبصر والحكمة والحنكة السياسية، في الوصول إلى تحقيق الشعارات وما يريدونه من التغيير، مما لا ينسجم مع طباعهم المفعمة بالعجلة وعدم التروي، أثاره السيئة على خصائص ثورة ١٤ تموز/ يوليو كما يمثلها ضباطه بشكل عام أولاً، وفي التطورات التي آلت إليها الثورة نتيجة المزاج الشخصي لقائدها الرئيسي وتكوينه السياسي والثقافي، علاوة على أثره في رسم خصائصها الموضوعية ثم مصيرها بعد ذلك[٤]، وكان التباين بين عالم الأحداث وعالم

---

(١). تشارلز تريب: صفحات من تاريخ العراق، ص ٢٠٧.

(٢). عبد الكريم قاسم محمد البكر الزبيدي أول رئيس للجمهورية، قام بثورة ١٤ تموز، وقام حزب البعث وعبد السلام عارف في ثورة ١٣٨٢/٩/١٤هـ فأسقطه، وأُعدم رمياً بالرصاص. انظر: شامل عبد القادر: عبد الكريم قاسم البداية والنهاية (الطبعة الأولى، عمان، الأهلية للنشر، ٢٠٠٢م) ص ١١.

(٣). عبد السلام بن محمد عارف البزّاز الدليمي ثاني رئيس للجمهورية، شارك في ثورة ١٤ تموز، وبرز في ثورة ١٣٨٢هـ فانتخب رئيساً للبلاد، وحكم العراق ثلاثة أعوام، احترقت به طائرة هليكوبتر وهو آيب من زيارة لإقليم البصرة سنة ١٣٨٦هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٤، ص ٩.

(٤). عبد اللطيف الشواف: عبد الكريم قاسم وعراقيون آخرون (الطبعة الأولى، لندن، دار الوراق، ٢٠٠٤م) ص ٢٩.

المذاهب والعقائد قصير الأمد في الثورة العراقية، فليس هناك ريب في شعبيتها، ومع أن العسكريين قادوا حركة السيطرة على السلطة فإنها قوبلت بالحماس والترحيب من جميع الفئات المحافظة والمعتدلة والشيوعيين منها على حد سواء، ولعله الانقلاب الوحيد في تاريخ العراق الذي يمكن تسميته بالثورة.[١]

لقد كان النظام الملكي السابق موضع الانتقاد الشديد لتلاعبه بالانتخابات ومنعه قيام الأحزاب السياسية في البلاد، ولكن النظام الجديد استمر ـ وباستثناء فترة قصيرة أجيزت بها الأحزاب ـ على منع الأحزاب، أما الانتخابات فلم تجر في العراق بعد الثورة أية انتخابات ولم يعد للعمل البرلماني من وجود ذكر، وعهد قاسم فردياً مستبداً ولكنه يعتبر معتدلاً، إذا ما قورن بمن جاء بعده، يبدو أكثرها اعتدالاً وأبعدها عن الاستبداد والحكم الفردي، لكن سرعان ما دخلت البلاد ـ بعد الثورة الأولى ـ في صراعات دموية بين مختلف الأحزاب والقوى السياسية أغرقتها في اضطراب وفوضى دائمين، بحيث أصبحت الثورة سُبة في أفواه الكثيرين من الناس الذين راحوا يترحمون على العهد الملكي، وقد أدى عدم الفهم والغموض الذي صاحب أهداف الثورة وتعقد التفسيرات وتعدد القوى، أن وجد الكثير من العراقيين أنفسهم يحاولون رد الأحداث إلى أياد خفية يحركها عقل جبار يدير كل المؤامرات على العراق.[٢]

وكانت الفترة ما بين ١٣٧٧ و ١٣٨٨هـ عقداً يتميز بالاضطراب والعنف الشديدين، وشهد العقد الأول من عمر الجمهورية العراقية أربعة انقلابات عسكرية اثنان منها مشبعين بالدم والنار، وشهد العراق تراجعاً كبيراً بدلاً من التقدم، لأن الفئات المتنافسة والصراعات السياسية القائمة كانت تناضل لنيل السيادة والسيطرة على جميع موارد الدولة الإدارية والمالية، والفئة الأقوى تفرض هيبتها ورؤيتها للهوية العراقية على باقي السكان[٣]، وعندما غدا العراق دولة الانقلابات العسكرية، فإن حالة من النضوب أصابت أفضل الأشخاص المتعلمين من أبناء الشعب وتم استنزاف العقول نتيجة التقلبات السياسية وقَصُرت مدة بقاء المسؤولين في مناصب الدولة مما أدى إلى فراغ في الصفوة القادرة على الإمساك بزمام الأمور، كما أنها دفعت

---

(١). اديث وَائي أيف بينروز: العراق دراسة في علاقاته الخارجية وتطوراته الداخلية ١٩١٥ ـ ١٩٧٥م، جـ٢، ص ٣٣٨.

(٢). فالح حنظل: أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق (الطبعة الثالثة، لندن، دار الحكمة، ١٤٢٨هـ) ص ٢٥٩.

(٣). وليام أندرسن وغاريث ستانفيلد: عراق المستقبل، ص ١٠١.

بين الحين والآخر بموظفين جدد ليست لديهم الخبرة الكافية لإدارة شؤون الدولة، وهذا أدى إلى شلل عملية صنع القرار وإشاعة مناخ من الخوف وعدم الاطمئنان، مما أدى ـ أيضاً ـ إلى اتخاذ قرارات خاطئة لعل أكثر اهتماماتها أن تبقى في السلطة مما لم يترك لها وقتاً كبيراً للاهتمام بمشاكل العراق الحقيقة.(١)

لقد كانت ثورة ٢٦ ذي الحجة ١٣٧٧هـ حدثاً كبيراً في تاريخ العراق وإن بدأت بانقلاب؛ ولكنها لم تلبث أن أصبحت ثورة أحدثت تغيراً كبيراً في مشروع الدولة العراقية، ولكن هذه الثورة لم تكن إلا تغيراً من داخل الدولة التي نشأت في عشرينيات القرن الماضي، لذا كان المشروع الذي كانت تسعى إليه للنهوض بالعراق وتصحيح وتقويم البناء السياسي للدولة العراقية، من خلال ترسيخ الهوية الوطنية العراقية الموحدة كما حاولت إزالة الطائفية والعنصرية والجهوية، لكن العناصر الكامنة في الدولة العراقية حاربت هذه التوجهات بكل شراسة، تحت تسميات: القومية، والشعوبية، والقطرية، وغيرها من التسميات التي كانت غطاءً لمنع أي إصلاح وتصحيح والإبقاء على نفس الأوضاع التي كانت قائمة في السابق.

بعد ثورة بيضاء وانقلاب أبيض استطاع مجموعة من حزب البعث العربي الاشتراكي القيام بانقلاب والإطاحة بحكومة عبد الرحمن محمد عارف(٢)، بمساعدة مجموعة غير بعثية، كانت قيادة الثورة البعثية للعسكري والضابط البعثي أحمد حسن البكر(٣)، ولا تعتبر ثورة البعث هي المحاولة الأولى للمجيء للسلطة فقد شارك البعث مع تيار عروبي إسلامي وهو تيار عبد السلام محمد عارف للإطاحة بحكومة عبد الكريم قاسم سنة ١٣٨٢هـ بيد أن سلوكية البعث الدموية وقيامهم بمهام تصفيات للشيوعيين بشكل بشع وتشكيل الحرس القومي الذي افسد في البلاد جعل عبد السلام رئيس الجمهورية يزيحهم عن السلطة ويوقفهم عن العمل السياسي وكان ممن

---

(١). فالح حنظل: أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق، ص ٢٦٩.

(٢). الرئيس الثالث لجمهورية العراق، كان أحد الضباط الذين شاركوا في ثورة ١٤ تموز، وبعد مقتل شقيقه عبد السلام، اختير رئيساً للجمهورية، أُقصي عن الحكم في ١٣٨٨/٤/١٢هـ، وتم إبعاده إلى إسطنبول، توفي في ١٤٢٨/٨/١٠هـ في العاصمة الأردنية عمان. انظر: موقع الرائد نت: http://www.al-raeed.net

(٣). رابع رئيس لجمهورية العراق، نظّم سنة ١٣٨٢هـ حركة مسلحة أدت إلى الإطاحة بالحكم القاسمي، وفي حركة ١٣٨٨هـ أطاح بالرئيس عبد الرحمن عارف، ليصل البكر إلى منصب رئاسة الجمهوريّة، وفي سنة ١٣٩٩ جرده صدام من جميع مناصبه في الدولة والحزب، حتى وفاته سنة ١٤٠٢هـ. انظر: محمد خير رمضان يوسف: تتمة الأعلام، ص ٣٠.

أوقف العسكري أحمد حسن البكر، وطرد مؤسس حزب البعث النصراني السوري ميشيل عفلق من العراق، جاء حزب البعث مع لفيف من القوميين والوطنيين وكانوا يَعدون الناس بعدم الانفراد بالسلطة كحزب بيد أن هذه الوعود لم تدم سوى ١٣ يوم وجاءت ثورة تصحيحية في ١٣٨٨/٥/٤هـ وسيطر حزب البعث على كل مفاصل السلطة الرئيسية، وعين شخصية شيعية بعثية مجرمة، وهو ناظم كزار[1] مديرا للأمن وشرع بتصفية خصوم حزب البعث من قوميين غير بعثيين كالناصريين ومن عروبيين، ومن شيوعيين ومن إسلاميين سنة (حزبي الإخوان والتحرير) وإسلاميين شيعة بكل أصنافهم وأكراد وتركمان، وكانت التصفية تأخذ أشكالاً وأصنافاً من بين تعذيب وقتل وسجن واغتيال وتلفيق تهم وتسهيل للهروب من البلاد، ونالت شتى طبقات المجتمع العراقي ولكن نصيب السياسيين كان هو الأوفر، دخلت البلاد في دوامات تصفية وإرهاب، وناظم كزار كان أول شخص يمنح رتبة عسكرية من لا شيء (رتبة لواء) وكانت هذه سابقة في الجيش العراقي لم تعهد من قبل، وكان الهدف هو سيطرة البعث على دوائر الأمن، لم يكن حزب البعث طائفيا أبدا بل كان يؤمن بحزبه فحسب، كان حلم الحزب السيطرة على البلاد وتحقيق برنامجه الذي وضعه للعراق، وكان الحزب يؤمن أنه في مرحلة التكوين لا بد من انفراد الحزب بالسلطة وفي المرحلة الثانية أو الثالثة يمكن مشاركة الكيانات الأخرى من شيوعيين وقوميين في السلطة، أما نظرته للكيانات الدينية فهي نظرة سلبية فهو ينظر لها ككيانات رجعية غير قادرة على حكم البلاد والعباد وهي تشبه الى حد ما نظرة الشيوعيين إلا أنها لا تحمل فكرة الإلحاد.

وحين كانت تحدث محاولات للخروج عن هذا التقليد وتأسيس أشكال من النشاط السياسي تمتاز بمشاركة وإجماع أكبر، كما في السنوات الأولى من حكم قاسم أو كما بشرت الفترة القصيرة التي تولى فيها عبد الرحمن البزاز[2] رئاسة الحكومة، كان الحاكم نفسه أو من

---

(١). ينحدر من مدينة العمارة في جنوب العراق، جاء الى صفوف حزب البعث من داخل أحد السجون، اختير لإدارة معتقل قصر النهاية، ومارس أبشع وسائل التعذيب والقتل بحق المعارضين، قام بمحاولة انقلابية فاشلة سنة ١٣٩٣هـ أودت بحياته. انظر: مدونة نور الحقيقة بين الماضي والحاضر: http://nooralhaqiqa.blogspot.com

(١). قانوني ومؤرخ عراقي، هو المدني الوحيد الذي تولى رئاسة الوزارة في العراق بعد ثورة ١٤ تموز، أتهم بالتآمر على الحكم القائم في العراق سنة ١٣٨٨هـ فقبض عليه بخدعة، وتعرض لتعذيب شديد، فأُصيب بشلل أفقده الوعي، ولم ينفع فيه العلاج بلندن وتوفي ببغداد في ١٣٩٣/٧/٢٩هـ. انظر: مجيد خدوري: العراق الجمهوري، ص ٣٣٥.

اعتمد عليهم لبقائه يشعرون بالخوف ويضعون حداً للتجربة، وهذا ما عزز الميل إلى اعتبار الدولة أداة للسلطة، وموضوعة رهن إشارة من أخذوا بيدهم زمام الأمر، وانشغلوا بإدارة الموارد التي سوف تسمح لهم بتغذية شبكات التجسس والمحسوبية والقمع الذي ضمن بقاء السلطة بين أيديهم.(١)

وكان من أنشط الذين عملوا لإيصال حزب البعث إلى السلطة، شاب في مقتبل العمر اسمه: صدام حسين(٢)، فهذا الشاب استطاع أن ينفذ خطة لبناء جيش عراقي، ولكن بشكل آخر إذ ابتدأه بحوالي مئة شاب من أعوانه دربهم على عمليات الاغتيال وأطلق عليهم اسم (حنين) راح بواسطتهم يحصد أرواح من يعارضه، وكان كلما تقدم به الزمن كلما حقق نجاحات أكثر بهذه المنظمة بحيث مكنته من أن يعيد تركيب وتنظيم الجيش، ليجعل منه مؤسسة تستمد شرعيتها من الحزب، فقام بجملة تغييرات أساسية في قواعد الخدمة العسكرية، ابتدأها بحملات تطهير الجيش من العناصر غير الموالية له شخصياً حتى ولو كانت حزبية، فتخلص من القطبين العسكريين البعثيين وهما: حردان عبد الغفار التكريتي(٣)، وصالح مهدي عمّاش(٤)، إذ اغتال الأول في الكويت وأرسل الثاني سفيراً إلى الخارج وبقي هناك إلى أن مات، ثم قام بمنح ترقيات إلى أعوان ورتب عسكرية لبعض المدنيين، وأدخلهم كعناصر عاملة وحساسة في الجيش ليكونوا مفوضين سياسيين وممثلين للحزب المعبرين عن قوته داخل الجيش، وكان أكثرهم من الذين

(١). تشارلز تريب: صفحات من تاريخ العراق، ص ٢٥٩.

(٢) صدام حسين عبد الغفور المجيد، خامس رئيس للجمهورية العراق، وصل للحكم بشكل رسمي عام ١٣٩٩هـ وخاض عام ١٤٠٠هـ حرباً مع إيران استمرت لثمان سنوات، قام عام ١٤١١هـ باجتياح الكويت وتسبب ذلك بحرب الخليج الثانية والتي خسر فيها الحرب، شن الجيش الأميركي حرباً على العراق انتهى باجتياحه وإزاحة صدام عن السلطة، قبض عليه في ٢٨/١٠/١٤٢٤هـ وأعدم في ٩/١٢/١٤٢٧هـ. انظر: خليل الدليمي: صدام حسين من الزنزانة الأمريكية، هذا ما حدث! (الطبعة الثانية، الإمارات العربية المتحدة، دار الواضح، ٢٠١٠م) ص ٤٧ ـ ٥٤.

(٣). كان من الشخصيات المهمة في ثورة ١٣٨٨هـ وتقلد عدد من المناصب كان آخرها وزير الدفاع ونائب رئيس الجمهورية، تم إعفائه من مناصبه في خريف ١٣٩٠هـ وتعيينه سفيراً في الجزائر، حتى تم اغتياله في الكويت عام ١٣٩١هـ. انظر: زهير الدجيلي: بيت العقرب (الطبعة الأولى، ١٩٩٠م) ص ١٢١.

(٤). مؤرخ وشاعر، شغل منصب وزير الدفاع بعد انقلاب ١٣٨٢هـ ثم اختير وزيرًا للداخلية عقب انقلاب ١٤ رمضان، فنائبًا لرئيس الوزراء، فنائبًا لرئيس الجمهورية، ثم استبعد فنقل سفيرًا لدى موسكو، ثم سفيرًا لدى فنلندة، وكانت وفاته سنة ١٤٠٥هـ. انظر: موقع: معجم البابطين لشعراء العربية، على الرابط: http://www.almoajam.org

تربطهم به روابط العائلة والقبيلة والطائفة، ثم باشر بإلحاق دفعات من التلاميذ البعثيين إلى الكلية العسكرية كي يدخلوا دوراتٍ قصيرة ليلتحقوا بعدها ضباطاً ويحلوا محل الضباط الذين يسرحون من الخدمة[١]، ثم استدار إلى أجهزة الأمن فجعلها متعددة متداخلة ومرتبطة به بشكلٍ مباشر، وأجرى توزاناً دقيقاً بينها وبين الجيش وبعدها قام بالتركيز على السيطرة السياسية داخل الجيش بواسطة التوعية الايدلوجية والتثقيف السياسي لتعاليم الحزب، وقد أدت مهارته وحسن تنظيمه إلى بناء شبكة محكمة لسيطرة الحزب على الجيش، وأعدت قوات النخبة فيه (الحرس الجمهوري) لتنفذ مهام أمنية صرفة، وبذلك أسس نظاماً سياسياً مستقراً لا يهدده المغامرون من الضباط أصحاب الانقلابات العسكرية المتكررة.[٢]

لقد استطاع حزب البعث خلال ثلاثة عقود بناء دولة أمنية بوليسية قل نظيرها، بحيث شمل الأمن جميع مناحي الحياة في العراق، وبناءً عليه فإن القوة الحقيقية في هذه الدولة هي للأجهزة الأمنية، فهي المرجع والمقرر في كل ما يخص الدولة والسلطة والمجتمع، ومن أجل تأمين مزيد من السيطرة والتحكم بالمسجلين في حزب البعث، أصدر النظام قانون أمن الحزب، لترهيب البعثيين أنفسهم، ومن أجل الهدف الأمني ذاته، تم تحويل جميع مؤسسات وهيئات المجتمع المدني والأهلي إلى مجرد أجهزة للسلطة تقوم بمهام أمنية بوليسية بالمعنى الواسع لمصطلح أمن.

(١). فالح حنظل: أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق، ص ٢٨١.

(٢). نفس المرجع، ص ٢٨١.

جدول زمني لأبرز أحداث العراق خلال ق ١٤هـ:

السنة	الحدث
١٣٢٦هـ	ثورة تركيا الفتاة في إسطنبول.
١٣٢٧هـ	خلع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني.
١٣٣٥هـ	الاحتلال البريطاني لبغداد حاضرة العراق.
١٣٣٨هـ	قيام ثورة العشرين، وعبد الرحمن الكيلاني يُشكّل أول حكومة عراقية.
١٣٣٩هـ	الاحتفال بتتويج الملك فيصل في بغداد.
١٣٤٣هـ	افتتاح المجلس التأسيسي ببغداد، وعقد المعاهدة البريطانية العراقية.
١٣٤٤هـ	عصبة الأمم المتحدة تقرر بقاء الموصل جزءاً من العراق.
١٣٤٦هـ	اكتشاف أوّل حقول النفط الكبرى بجوار كركوك.
١٣٥٠هـ	توقيع معاهدة بريطانية جديدة تعد بمنح العراق استقلاله.
١٣٥٢هـ	عصبة الأمم تنهي الانتداب وتمنح العراق استقلاله.
١٣٥٢هـ	وفاة الملك فيصل الأول؛ ويخلف الملك غازي أبيه.
١٣٥٥هـ	افتتاح خط أنابيب كركوك ــ البحر المتوسط رسمياً.
١٣٥٦هـ	انقلاب عسكري بقيادة الجنرال بكر صدقي.
١٣٥٧هـ	اغتيال بكر صدقي؛ والجيش يطيح بحكومة حكمت سليمان.
١٣٥٩هـ	الملك غازي يُقتل في حادث سيارة غامض.
١٣٦١هـ	انقلاب عسكري بزعامة رشيد عالي الكيلاني.
١٣٦٨هـ	توقيع معاهدة بريطانية ــ عراقية جديدة في بورتسماوث.
١٣٦٩هـ	الجيش العراقي ينسحب من فلسطين.
١٣٧٢هـ	تتويج الملك فيصل الثاني ملكاً على العراق.
١٣٧٥هـ	تشكيل حلف بغداد.
١٣٧٦هـ	أزمة السويس؛ وأعمال شغب في بغداد والموصل والنجف.

١٣٧٨هـ	الإطاحة بالنظام الملكي وولادة الجمهورية.
١٣٧٩هـ	انسحاب العراق من حلف بغداد.
١٣٨١هـ	عبد الكريم قاسم يطالب بضم الكويت إلى العراق.
١٣٨٣هـ	انقلاب عسكري ينفذه ضباط بعثيون وقوميون؛ بقيادة الرئيس عارف.
١٣٨٤هـ	توقف المحادثات بشأن الاستقلال الذاتي للأكراد واستئناف القتال.
١٣٨٥هـ	حركة كاملة في كردستان، وتعيين عبد الرحمن البزّاز رئيساً للوزراء.
١٣٨٨هـ	انقلاب عسكري مضاد يُنفّذه ضباط قوميّون وبعثيّون؛ بزعامة البكر.
١٣٨٩هـ	صدّام حسين يُعيّن نائباً لرئيس الجمهورية.
١٣٩٠هـ	صدور دستور مؤقت يعترف بالقومية الكردية.
١٣٩١هـ	تدهور العلاقات بين إيران والعراق.
١٣٩٢هـ	تأميم شركة النفط العراقية، واندلاع القتال في شمال كردستان.
١٣٩٣هـ	فشل محاولة انقلابية بقيادة ناظم كزار.
١٣٩٤هـ	إعلان قانون الاستقلال الذاتي للمناطق الكردية.
١٣٩٥هـ	اتفاقية الجزائر بين العراق وإيران.
١٣٩٧هـ	انتفاضة السفر وتحولها إلى احتجاج عام على الحكومة في بغداد.
١٣٩٨هـ	طرد الخميني من العراق.
١٣٩٩هـ	البكر يُقدّم استقالته؛ وصدام حسين رئيس للجمهورية.
١٤٠٠هـ	القوات العراقية تجتاح إيران.

المصدر: تشارلز تريب: صفحات من تاريخ العراق الحديث، ص ١١ ـ ١٥.

المبحث الثاني:

منهج المحدِّثين والمؤرخين الأوائل في كتابة السيرة النبوية

اهتم المسلمون الأوائل منذ بزوغ نور الإسلام بسيرة الرسول محمد ﷺ فاعتنوا بتسجيل وقائعها، وأحداثها، ومضمونها، وحرصوا أشد الحرص على نقلها دقيقة موثقة سواء في كتب الحديث، أو في كتب المغازي والسِّير، أو كتب التاريخ العام، وقد اختلفت مناهج العلماء باختلاف أعصرهم وتخصصاتهم؛ فللمحدثين منهج يتسم بالضبط الشديد والتحري الدقيق لكل ما نسب إلى الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقية أو خُلُقية أو سيرة سواء كان قبل البعثة أو بعدها، وهي بهذا تُرادف الحديث عند بعضهم.[(١)]

وللمؤرخين وكتاب السيرة النبوية مناهج مستقاة من مناهج المحدثين؛ ولا غرابة في هذا؛ فإن دراسة السيرة قد نشأت في بيئة أهل العلم التي كان قوام اهتمامها منصباً على الحرص على جمع الحديث النبوي والسيرة العطرة، ولذا احتكم الإخباريون والمؤرخون الأوائل إلى مناهج المحدثين وأساليبهم في نقل الوقائع والأحداث التاريخية معتمدين على الأسانيد والروايات، ولكن على نحو يختلف في تفاصيله وظروف تطبيقه ودوافعه عن مناهج أهل الحديث.

وتنوعت طرائق المحدثين والمؤرخين بالسيرة النبوية الشريفة، وذلك وفق الإمكانات والوسائل المتاحة في كل عصر، ولذلك بذلوا أقصى ما يمكن من جهد وغاية، في العناية بالسيرة النبوية علماً وعملاً، حفظاً وكتابة، ودراسة ونشراً بين الأمة كما سيتضح معنا في السطور القادمة بإذن الله تعالى، وسأذكر نماذج من تلك العناية، مراعياً ترتيب العصور تاريخياً، ومقتصراً على القرون المفضلة التي تنتهي بنهاية القرن الثالث الهجري عصر ازدهار تدوين علوم الشريعة ومنها السيرة وعلومها، فقد اتخذ المحدثين مناهج وطرقاً في نقد الأحاديث ومعرفة الصحيح من الضعيف، وقام المؤرخون بتطبيق هذه المناهج في نقد الروايات التاريخية المتعلقة بتاريخ صدر الإسلام، لأن هذه الروايات التاريخية تشبه الأحاديث من حيث وجود الأسانيد التي تتقدم المتون مما يمكن الناقد من معرفة الرواة المتعاقبين الذين نقلوا الخبر أو الرواية خلفاً عن سلف، وتستمد المعلومات عن الرواة من كتب علم الرجال فمثلاً شرط الصحيح من الحديث هو أنه يرويه العدل الضابط

---

(١). محمد جمال الدين القاسمي: قواعد التحديث (الطبعة الأولى، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٧هـ) تحقيق: محمد بهجة البيطار، وتقديم: محمد رشيد رضا، ص ٦١، ومصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (الطبعة الثانية، بيروت، دار الوراق للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ) ص ٦٥، ومحمد الأعظمي: دراسات في الحديث النبوي (المكتب الإسلامي، بيروت، د ت) ص ١، ومحمد الزهراني: تدوين السنة النبوية (الطبعة الثانية، الرياض، دار المنهاج للنشر، ١٤٢٨هـ) ص ١٥.

إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة، فشرط الرواية التاريخية الصحيحة أن كل رواتها المتعاقبين إلى ـ شاهد العيان ـ متدينون تديناً صحيحاً وعندهم ملكة الحفظ التي تمنع وقوعهم في الأوهام والتخليط وتؤدي إلى ضبطهم للرواية سواء في صدورهم أو كتبهم، يضاف إلى ذلك أن تكون الراوية متفقة ومتطابقة مع الروايات الأخرى التي يرويها رواة يتمتعون بتوثيق أكثر، أما إذا خالفتها فهي شاذة ممجوجة مرجوحة، وكذلك أن لا يكون في الرواية التاريخية علة خفية قادحة بصحتها كالتدليس الخفي أو الإرسال الخفي أو الاضطراب في معلومات المتن، وإذا كانت الروايات التاريخية لا ترقى إلى درجة الصحة الحديثية وفق الشروط المتقدمة، فإنه ينظر إلى تعدد طرقها بجمع ما يتعلق بالمسألة التاريخية الواحدة والنظر في اتفاقها أو اختلافها، فإن تعددت مخارج الرواية الواحدة، فإنها تقوي خاصة عند استحالة اجتماع الرواة الذين رووها واتفاقهم على الكذب.[1]

وعنيت كتب الحديث بجمع مرويات أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته الخَلْقِيِّة والخُلُقِية، ومعجزاته وخصائصه وتناول بعضها طرفاً من سيرته في مغازيه وسراياه وبعوثه، سواء كانت أبواباً ضمن كتبهم أو روايات مبثوثة في ثنايا كل أبواب كتبهم، وتتفاوت درجة الاهتمام بأبحاث السيرة بين كتاب وآخر، فنجد البخاري يهتم بسيرة الرسول ﷺ، فقد افتتح كتابه الصحيح بعد حديث النية، بحديث بدء الوحي على رسول الله ﷺ، وهو لمحة بارزة أمام دارس السيرة النبوية والباحث فيها، كما تحدث عن قصة بئر زمزم، وأنساب العرب، وشيء من تاريخهم عن خزاعة وقحطان، وبعض ما كان فيهم، كما بوب: (باب صفة النبي ﷺ) وبوَّب: (باب علامات النبوة في الإسلام)، عرض في الباب الأول طائفة كبيرة من الأحاديث التي فيها صفات النبي الخَلْقِيِّة والخُلُقِية، وفي الثاني، لما أكرمه الله تعالى به من المعجزات التي ظهرت على يديه صلوات الله وسلامه عليه أمام أصحابه، وما أخبر به الغيب فتحقق، وهذا جزءٌ لا يتجزأ من السيرة كما بوَّب البخاري: (باب أيام الجاهلية)، وساق فيه طائفةً من أحوال العرب في جاهليتهم، وبعض عاداتهم وسلوكهم في المعيشة والتعايش، كما بوب (باب بنيان الكعبة)، وحدثنا عن زواج النبي ﷺ بدءاً بخديجة، ثم ذكر هجرة رسول ﷺ، وبدأ يسوق بعدها غزواته

---

(١). أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة (الطبعة السابعة، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ) جـ١، ص ٣٩.

وبعوثه وسراياه وكتبه إلى الملوك والرؤساء في عصره، ثم حدثنا عن مرضه ووفاته صلوات الله وسلامه عليه، وقد أفرد البخاري كتباً وأبواباً من جامعه الصحيح لسيرته ﷺ قبل مبعثه وبعده، ومغازيه وسراياه وبعوثه، ومكاتباته، وفضائل أصحابه، وزوجاته، إضافة إلى ما هو مبثوث من أحداث السيرة ضمن مرويات كتب وأبواب جامعه إذ أسماه "الجامعُ الصحيحُ المسنَدُ المختصَرُ من حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ وسُنَنِه وأيّامِه"، والأيام هي سيرته وحياته ﷺ، وقد كان الاسم ينطبق تماماً على المسمى.

وأما الإمام مسلم، فقد ذكر في كتاب الفضائل طائفةٌ كبيرةٌ من الأحاديث في نسب النبي ﷺ، وفضله، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ومعجزاته، وكثيراً من صفاته الخَلْقِيّة والخُلُقِية، ووفاته، ومدة إقامته في مكة والمدينة ... الخ، كما حدثنا عن فضائل أزواجه وآله وأصحابه، وقد بوب في كتابه الجهاد والسير أو ما اصطلح عليه بـ"المغازي والسير" من "الصحيح" على غزواته ﷺ وكتبه التي أرسلها إلى الملوك الكفار، وسراياه وبعوثه، وما يتصل بذلك، إلا أنه لم يكن في السعة والكثرة مماثلاً لصحيح البخاري.(١)

وقد استدرك الإمام الحاكم النيسابوري أحاديث لم يذكرها البخاري ومسلم، وهي حسب معياره على شرطهما أو على شرط أحدهما، وقد تتبعه الإمام الذهبي فوافقه في كثير منها ولم يوافقه في بعضها وسكت عن بعضها، وجاء من بعدهما من تتبعهما ولم يوافقهما في بعض الأحاديث، وفي هذا المستدرك قسم خاص بالمغازي والسير، إضافة إلى الأحاديث الأخرى المبثوثة في ثناياه ذات العلاقة المباشرة بأحداث كثيرة من السيرة، في مجال الغزوات والسرايا وغيرهما.(٢)

أما كتب السنن الأربعة فأكثرها ذكراً للسيرة جامع الإمام الترمذي، خاصة في أبواب المناقب، ويليه سنن أبي داود، ثم كتاب سنن ابن ماجه، خاصة كتاب الجهاد، ثم سنن النسائي، وقد حفل كتاب السنن الكبرى للبيهقي بمادة معتبرة في السيرة، أما كتب المسانيد، فيتربع على

---

(١). فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها (الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، ١٤٢٥هـ) ص ٥٦.

(٢). مهدي رزق أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (الطبعة الثانية، الرياض، دار إمام الدعوة، ١٤٢٤هـ) جـ١، ص٢٠.

قمتها مسند الإمام أحمد، ويبدو لك جلياً غزارة مادة السيرة فيه - أي الغزوات والسرايا - إذا نظرت في كتاب الجهاد منه بالمجلد رقم: ١٣، وكتاب السيرة النبوية بالمجلدات: ٢٠، ٢١، ٢٢ وكتاب المناقب بالمجلد رقم: ٢٢، بترتيب العلامة أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، المعروف بـ"الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني"[(١)]، ومعه "الأماني من أسرار الفتح الرباني" إذ حذف الأسانيد والمكرر، ورتبه على الكتب والأبواب الفقهية، وجعل من كتبه وأبوابه: أيام العرب، وكتاب "السيرة النبوية" وجعله ثلاثة أقسام، وبدأ بالنسب الشريف، والمولد، وتابع ذلك حتى وصل إلى الهجرة، وبدأ بالقسم الثاني وجعله للغزوات النبوية، ابتدأ من السنة الأولى، إلى أن انتهى إلى الوفاة النبوية، ثم أتبعه بما جاء في المسند من خطبه الشريفة، ثم جعل القسم الأخير من السيرة للشمائل والمعجزات والعادات النبوية، ثم ذريته وأزواجه، ثم ختم ذلك بما جاء في معاشرته أزواجه أمهات المؤمنين، وأخلاقه، ثم اتبع ذلك بفضائل أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.[(٢)]

إن كتب الحديث تحوي قدراً كبيراً من أخبار السيرة النبوية وإن كانت لا تغطي كل أحداثها، وليست كلها على درجة واحدة من الالتزام برواية الصحيح، فكما هو معروف كان على رأس من التزم الصحة في مروياته الإمامان الشيخان البخاري ومسلم، ومن هنا تبرز أهمية النقد الحديثي لروايات كتب السيرة والتاريخ، لذا يتعين على المرء أن ينظر في أسانيد كتب السنن والمسانيد والمستدركات وغيرها من كتب الحديث التي التزمت الإسناد، فيقبل ما هو صحيح أو حسن، فيحتج به، وإذا استأنس بالضعيف فيما دون ذلك، فعليه أن يكون عالماً بذلك منبهاً عليه[(٣)]، فكبار المحدثين أمثال: الحافظ ابن سيد الناس في كتابه (عيون الأثر) والحافظ الذهبي في كتابه (تاريخ الإسلام) عندما كتبا السيرة النبوية اعتمدا على الكتب الحديث الستة لكنهما لم يتمكنا من الاستغناء عن كتب السيرة والتاريخ.[(٤)]

---

(١). مهدي رزق أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، جـ١، ص ٢١.

(٢). فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص ٥٨.

(٣). مهدي رزق الله أحمد: المرجع السابق، جـ١، ص ٢٠ ـ ٢٢.

(٤). أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، جـ١، ص ٤١.

ومن نعم الله على عباده أن قيض لهذه الكتب من يقوم بخدمتها ـ قديماً وحديثاً ـ ولذا ترى أن معظم الأحاديث في السيرة وغيرها قد حكم عليه الأئمة وبينوا مرتبته، وقد أُلفت كتب خاصة تخدم كتب الحديث، وهي كتب التراجم والطبقات، والمتتبع لكتب الطبقات التي تناولت تراجم الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ورواة الأحاديث، سيجد فيها كثيراً من الأحاديث التي تتعلق بالسيرة، في جانب الغزوات والسرايا، والتي يمكن تقويمها للاحتجاج بالصحيح والحسن منها، مثل: طبقات ابن سعد، والإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر، والاستيعاب لابن عبد البر، وأُسد الغابة لابن الأثير.[١]

ولكن ينبغي ملاحظة منهج المحدثين عند التعامل مع الرواية التاريخية، فهم يتساهلون في رواية الأخبار التاريخية، كما نلاحظ عند ثقات المؤرخين مثل: محمد بن إسحاق[٢] وخليفة بن خياط[٣] والطبري[٤] حيث يكثرون من الأخبار المرسلة والمنقطعة، كما أن الطبري يكثر النقل عن الرواة في غاية الضعف مثل: هشام الكلبي وسيف بن عمر ونصر بن مزاحم وغيرهم، ولا شك أن عدم تمحيص المؤرخين للأخبار كما فعلوا في الحديث، واكتفاءهم بإلقاء العهدة على الرواة المذكورين في أسانيد الروايات ألقى عبئاً ثقيلاً على من جاء بعدهم لأنه يحتاج إلى بذل جهد كبير للوصول إلى الروايات الصحيحة بعد فهم وتطبيق منهج المحدثين، وهو أمر لم يعد

(١). مهدي رزق أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، جـ١، ص ٢٢.

(٢). أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني، تعتبر السيرة النبوية لابن إسحاق هي أساس المؤلفات في هذا الفن وقيمتها عظيمة جداً، فهي المصدر الوحيد لكثير من الأحداث التفصيلية، توفي عام ١٥٠ أو ١٥١هـ. ومن أبرز العلماء المعاصرين الذين تناولوا أقوال العلماء في ابن إسحاق، جرحاً وتعديلاً، الدكتور سليمان بن حمد العودة، في مقدمة أطروحته للدكتوراه: "السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق"، ومسفر سعيد دماس الغامدي في بحثه المنشور بمجلة البحوث الإسلامية، العدد رقم (٥٤) لسنة ١٤١٩هـ بعنوان: "إمام المغازي محمد بن إسحاق".

(٣). أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العُصْفُرِيُ البصري، الإخباري المحدث، عاش في البصرة، وقد اهتم إلى جانب الحديث بالتاريخ والسير وأيام الناس، من تصانيفه: "الطبقات"، توفي عام ٢٤٠هـ. انظر: محمد صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي (الطبعة الأولى، الرياض، دار طيبة، ١٤٠٦هـ) ص ٤٣٢ ـ ٤٣٦.

(٤). أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري البغدادي، قصر حياته على طلب العلم، ولذلك كثرت تصانيفه وطال نفسه فيها فكتابة "جامع البيان" من أطول التفاسير وأشملها، وكتابه: "تاريخ الرسل والملوك" من أوسع كتب التاريخ وأغزرها، توفي ببغداد سنة ٣١٠هـ. انظر: محمد آمحزون: تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (الطبعة الأولى، الرياض، دار طيبة، ١٤١٥هـ) جـ١، ص ١٤٧ ـ ١٥٩.

سهلاً ميسوراً كما كان بالنسبة لخليفة بن خياط والطبري بسبب تضلعهم في مناهج المحدثين وطرق سبرهم للروايات وتمييزها، وعلى أية حال فنحن لا نبخس قدامى المؤرخين حقهم وفضلهم فقد جمعوا لنا المادة الأولية بالأسانيد التي تمكننا من الحكم عليها ولو بعد جهد وعناء.[١]

يقول الكافِيَجي[٢] في هذا الصدد: "يجوز للمؤرخ أن يروي في تاريخه قولاً ضعيفاً في باب الترغيب والترهيب والاعتبار والتنبيه على ضعفه، ولكن لا يجوز له ذلك في ذات البارئ عز وجل وفي صفاته ولا في الأحكام، وهكذا جواز رواية الحديث الضعيف على ما ذكر من التفصيل المذكور".[٣]

ويقول أكرم بن ضياء العمري: "أما اشتراط الصحة الحديثية في قبول الأخبار التاريخية التي لا تمس العقيدة والشريعة ففيه تعسف كثير، والخطر الناجم عنه كبير، لأن الروايات التاريخية التي دوَنها أسلافنا المؤرخون لم تُعامل معاملة الأحاديث بل تمّ التساهل فيها، وإذا رفضنا منهجهم فإن الحلقات الفارغة في تاريخنا ستمثل هُوّة سحيقة بيننا وبين ماضينا مما يولد الحيرة والضياع والتمزق والانقطاع، لكن ذلك لا يعني التخلي عن منهج المحدّثين في نقد أسانيد الروايات التاريخية، فهي وسيلتنا إلى الترجيح بين الروايات المتعارضة، كما أنه خير معين في قبول أو رفض بعض المتون المضطربة أو الشاذة عن الإطار العام لتاريخ أمتنا، ولكن الإفادة منها ينبغي أن تتم بمرونة آخذين بعين الاعتبار أن الأحاديث غير الروايات التاريخية، وأن الأولى نالت من العناية ما يُمكّنها من الصمود أمام قواعد النقد الصارمة"[٤]، وكما ذكرت عند الكلام عن كتب الحديث باعتبارها من مصادر السيرة الموثوقة، لمسنا ما تكوَّنه مادة السيرة من أجزاء في كتب الحديث، وكشأن العلوم الإسلامية الأخرى التي أخذت تنفرد بالتخصص في مجالات

---

(١). أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، جـ١، ص ٣٩.

(٢). أبو عبد الله محي الدين محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي الحنفي الكافيجي، سمي بهذا لكثرة اشتغاله بالكافية في النحو، له معرفة باللغة والتاريخ والتفسير، انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، من كتبه: "المختصر في علم التاريخ"، وغيرها، توفي عام ٨٧٩ هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٦، ص ١٥٠.

(٣). الكافيجي: المختصر في علوم التاريخ (بغداد، مكتبة المثنى، ١٣٨٣هـ) ص ٣٢٦.

(٤). أكرم ضياء العمري: دراسات تاريخية (المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ١٤٠٣هـ) ص ٢٧.

محددة خصوصاً في هذا العصر، فقد أخذ بعض العلماء ـ وهم أصلاً محدّثون ـ في إفراد السيرة النبوية باهتمام خاص وكتب خاصة أيضاً.

ولعل أبرز من اهتموا بالكتابة في السيرة عموماً في القرن الأول الهجري: عبد الله بن العباس[١] (ت ٦٨هـ)، وعروة بن الزبير[٢] (ت ٩٣ أو ٩٤هـ)، وأبان بن عثمان[٣] (توفي مابين ٨٦ و ١٠٥هـ)، وفي القرن الثاني الهجري برز: عبد الله بن أبي بكر بن حزم[٤] (ت ١٣٠ أو ١٣٥هـ)، وموسى بن عقبة[٥] (ت ١٤١هـ)، ومحمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ)، وبرز في القرن الثالث الهجري: محمد بن عمر الواقدي[٦] (ت ٢٠٧هـ)، ومحمد بن سعد بن منيع الزهري[٧] (ت ٢٣٠هـ)، وسعيد بن يحيى الأموي[٨] (ت ٢٤٩هـ).

---

(١). كان ابن عباس ﷺ يأتي أبا رافع مولى رسول ﷺ فيقول: (ما صنع رسول الله ﷺ يوم كذا ؟ ما صنع رسول الله ﷺ يوم كذا ؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب بها، كما وصف عبيد الله بن عتبة سعة علم ابن عباس بقوله: "ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب" ومن المعروف أن ابن عباس ﷺ قد ترك من الكتب ما يوصف في كثرته بأنه حمل بعير وقد كان ذلك عند مولاه كريب ثم تركها كريب عند موسى بن عقبة صاحب المغازي المشهور. انظر: فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص ٨٤.

(٢). أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما، كان أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة. انظر: سعد الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة النبوية خلال القرن الثاني (الطبعة الأولى، الرياض، دار القاسم، ١٤٢٨هـ) ص ٤٤.

(٣). أبان بن الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وهو أول من دون السيرة النبوية، لكن مؤلفه في السيرة مفقود، ويمكن القول أنه أول من فصل علم التاريخ عن علم الحديث. انظر: فاروق حمادة: المرجع السابق، ص ٨٤.

(٤). عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، له روايات كثيرة في السيرة تراها عند ابن إسحاق وابن جرير. انظر: محمد صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ٣٠٠.

(٥). أبو محمد موسى بن عقبة بن أبي عياش من ثقات المتخصصين في السيرة، وقد كانت مغازيه معروفة متداولة إلى عصور متأخرة، واعتمد البخاري مغازيه في صحيحه. انظر: فاروق حمادة: المرجع السابق، ص ٨٨.

(٦). محمد بن عمر بن واقد أبو عبد الله الواقدي المديني، وقف علماء الحديث والجرح والتعديل من الواقدي مواقف متباينة انتهوا إلى معرفته بالمغازي، وعدم الاعتماد عليه في رواية الحديث. انظر: فاروق حمادة: المرجع السابق، ص ٩٤.

(٧). محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، كان ثقة عند علماء الجرح والتعديل وإن عابوا عليه رواياته عن الواقدي والكلبي، وقد التزم في كتابه "الطبقات" الإسناد خصوصاً فيما يتعلق بالسيرة النبوية. انظر: فاروق حمادة: المرجع السابق، ص ٩٦.

(٨). سعيد بن يحيى بن سعيد بن أبان القرشي الأموي، روى عن أبيه وعمه وجماعة، وعنه البخاري ومسلم، وأصحاب السنن سوى ابن ماجه، ويبدو أن الأموي كان يلتزم الإسناد في روايته، وحظي كتابه بثقة العلماء. انظر: فاروق حمادة: المرجع السابق، ص ١٠٧.

بعد هذا كله يتضح بجلاء ويقين أن كتابة سيرة المصطفى ﷺ وجمع أخبارها والتأليف فيها؛ من أقدم وأعرق وأنقى أنواع الكتابة عموماً والتأليف التاريخي على ـ وجه الخصوص ـ ظهوراً واهتماما(١)، وفيه دلالة قوية واضحة على عناية أبناء المهاجرين والأنصار بهذا العلم، ورغبة الخلفاء والأمراء به، وتدوينه من لدن العارفين الثقات، وتداول تلك المدونات منذ الصدر الأول، ثم توالى ذلك عبر القرون، ولهذا كله شواهد تؤكده من صحيح النصوص ووثيق النقول، إلا أن أمر أبناء الصحابة مع ما تلاهم من المصنفين والمؤلفين في هذا الباب ينطبق عليه قول ابن الأثير: "كل مبتدئ لشيء لم يُسبق إليه، ومبتدع لأمرٍ لم يُتَقدّم فيه فإنه يكون قليلاً ثم يكثر، وصغيراً ثم يكبر"(٢)،وقد حظيت السيرة النبوية في جميع مراحل التاريخ بعناية فائقة كبيرة من لدن علماء الأمة، جمعاً وتوثيقاً، ودرساً وتمحيصاً، وتعليماً وتلقيناً، فقد كتب فيها كل الأجناس والطوائف، وبشتى اللغات، وحق لها ذلك، فهي بأمر الله تعالى وإرادته تتجدَّد مع بزوغ كل فجر وطلوع كل شمس، وتجد من يحملها، ويبلغها لتقوم الحجة على العالمين.

لقد كُتب في السيرة النبوية منذ الصدر الأول حتى أيامنا هذه ما يعزّ على الحصر من المؤلفات والكتب بين صغير وكبير، ومنظوم ومنثور، ومتون وشروح، وهناك عبارة رائعة لرجل عظيم من أوعية التاريخ في الإسلام وهو الإمام الحافظ شمس الدين السخاوي الذي قال في كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ): "إنه لو حصل التصدي لجمع اسمِ مَنْ كَتب في السيرة النبوية لكان في عشرين مجلداً فأكثر.."، وهذه عبارته عما كُتب في القرون الأولى إلى القرن التاسع الهجري، فإذا زدتَ عليه ما كُتب بعده في القرون الأربعة انجلى الأمر على حقيقة ما ذكرناه، حتى أن اللغة الأوردية التي لم تُصبح لغة كتابة أدبية إلا منذ قرنين من الزمان بلغ عدد المؤلفات بها عن النبي ﷺ أكثر من ألف مؤلف.(٣)

وفي عام ١٣٠٤هـ نشرت مجلة المقتبس الدمشقية إحصاء لما صنف في السيرة النبوية بمختلف اللغات الأوروبية فبلغ نحو ثلاثمائة وألف كتاب، وحسب بعضهم أن يكتب في سيرة

---

(١). محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ٢٩٣.

(٢). فاروق حمادة: المرجع السابق، ص ٨٦ .

(٣). عبد المتعال الجبري: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين (الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة وهبة، د ت) ص ٤٢.

النبي ﷺ لينال شرف الكتابة فيها[١]، وسيبقى الكاتبون يدورون حول سيرة المصطفى ﷺ ويكتبونها في كل عصر بلغته، وفي كلّ مصرٍ بمفهومه إلى أن تقوم الساعة، وهذا دليل على عناية الله تبارك وتعالى بمحمدٍ ﷺ محياً ومماتاً تحقيقاً لقوله: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشَّرح:٤].

وعلى أية حال فكل من يكتب في السيرة لا بد أن يرجع إلى السابقين الأوائل، لأن كتابة السيرة والتاريخ عموماً ليست من صنع الخيال، وابتداع الذكاء، بل هو البحث عن حقائق مرَّت على هذا العالم في فترة من الفترات، وعن أحداث كانت ماثلة للعيان في مكان ما، وعن حياة عاشها فرد أو مجتمع بكل ما في هذه الحياة من أبعاد، ولا شك أن السيرة النبوية بعد هذا الجهد الذي لا يعرف الكلل أو الملل غدت عِلْماً قائماً بذاته، لها كتبها وعلماؤها، وباحثوها وطلابها، منذ عهد الرسول ﷺ، حيث كان من لا يحضر الواقعة يكلف أخاه برواية ما دار فيها له بعد انتهائها، وكذلك في عهد التابعين كان الصحابة يتحدثون عما شاهدوه أو شاركوا فيه من أحداث؛ وإنما كان التدوين في أواخر القرن الأول وحتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد أكد علماء الإسلام أن من فاته (علم السيرة) في معرفة تاريخها، ومضمونها، ومصنفاتها، ووقائعها، وأحداثها، وما يتعلق بها، فقد فاته خير عميم، وحريٌّ به أن لا يعد نفسه من أهل العلم، حتى ولو كان له سابق قدم ورسوخ في علوم أخرى.

فالسيرة النبوية محور وجوهر الحديث والسنة، ولها الحضور الدائم في صفحات العلم والفكر والمعرفة، والحاجة لمعرفتها ضرورة لكل مسلم، لأن الرسول ﷺ هو الرحمة المهداة لهذه الأُمة فقد أخرجهم من الظلمات إلى النور فصاروا به أُمة بعد أن كانوا شيعاً وأحزاباً بل صاروا خير أُمة أُخرجت للناس، والاهتمام بسيرته ﷺ نشأ مقروناً بالاهتمام بسنته لأن سيرته جزء من السنة وفيها أحكام وتشريعات وإتباع واقتداء وتأسي، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢١].

واعتنى العلماء المسلمون والمفكرون والباحثون عامة بالسيرة النبوية الشريفة، وما يتعلق بها، وعلموها أبنائهم، كما يعلمونهم السورة من القرآن، وقاموا بالتأليف والبحث والتحقيق بعلو همة

---

(١). سليمان الندوي: الرسالة المحمدية (الطبعة الأولى، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٧٢هـ) ترجمة: محمد ناظم الندوي، ص ٦٥.

ونشاط وجَدُّوا في ذلك كل الجِد، وبذلوا كل الاهتمام وهو وإن كان لا يفي بحق هذه الشخصية العظيمة، ولا يُعطِي لهذا المقام حقه اللائق به الذي أنزله مولاه في المكانة العظمى الفريدة؛ لكنه في الحقيقة يُعتبَرُ أعظم ما شهده التاريخ في جميع أطواره وحقبه من عناية واهتمامٍ لم يحصل مثله لأيِّ شخصيةٍ في الدنيا سوى محمد بن عبد الله ﷺ، ولذلك كانت روايتها وتدوينها والتأليف فيها مرتبطاً وممتزجاً مع تدوين السنة النبوية المطهرة أحياناً ومتفرداً عنها في أحايين أخرى، لكنه مر في نفس المراحل التي مر بها تدوين السنة.(١)

وبالتالي لا بد من اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها ثم الحسنة ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام، وعند التعارض يقدم الأقوى دائماً، أما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة والحسنة على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي، لأن القاعدة "التشدد فيما يتعلق بالعقيدة أو الشريعة" ولا يخفى أن عصر السيرة النبوية والخلافة الراشدة مليء بالسوابق الفقهية، والخلفاء الراشدون كانوا يجتهدون في تسيير دفة الحياة وفق تعاليم الدين الحنيف، فهم موضع اقتداء ومتابعة فيما استنبطوا من أحكام ونظم لأقضية استجدت بعد توسع الدولة الإسلامية على أثر حركة الفتوح.(٢)

---

(١). محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ٢٩٤.

(٢). أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، جـ١، ص ٤٠.

المبحث الثالث:

كتابة السيرة النبوية

وتطورها في العراق

خلال القرنين ١٢ و ١٣ هـ

لم تشهد الكتابة التاريخية في مجال السيرة النبوية محاولات جادة وأصيلة في القرن الثاني عشر الهجري، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى أن كتب السيرة السابقة، وبخاصة السيرة الحلبية وكتب المواليد المقتبسة منها، ظلت مقبولة من الأوساط الدينية وملبية لحاجاتها، والمحاولات القليلة التي ظهرت كانت في ـ الأغلب ـ مجرد اختصارات أو شروح لكتب قديمة في هذا المجال، دون أن تتضمن سمات هذه الحقبة شيئاً واضحاً.

فمن ذلك أن كَتب محمد الشهروزي[1] كتابه "رَفع الخَفا عن ذات الشفا" في السيرة النبوية، وهو شرح مفصل لمنظومة "ذات الشفا في سيرة المصطفى ومن بعده من الخلفا" لشمس الدين محمد بن محمد بن علي ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) ذكر فيه أنه رغب في تأليف هذا الكتاب ولم تكن لديه المصادر الكافية فشد رحله إلى الحجاز ليؤلف فيها كتابه، وقد استوعب شرحه السيرة النبوية، وتناول سير الخلفاء الراشدين، وأكمله بفصل تناول فيه ذكر بعض الملوك العادلين، فرغ منه في ١٩ محرم سنة ١١٨٧هـ وقد لقي هذا الكتاب انتشاراً وقبولاً واسعاً عند طلبة العلم، نظراً لتأكيده على الجوانب الشخصية والروحية في السيرة النبوية، وهي الجوانب التي كانت تحظى أكثر من غيرها باهتمام الناس، وتنسجم مع أذواقهم، التي لم تكن بعيدة في ذلك العصر عن المناخ الروحي الذي أشاعته الطرق الصوفية، فظهرت آثارها الواضحة على كتابة السيرة النبوية في ذلك العصر، كما هي على مجمل الحياة العلمية والفكرية بصفة عامة، واتخذ محمد أمين العُمري[2] منظومة ذات الشفا أساساً لكتابه "منهل الصفا ومسرح الوفا في كشف الخفا عن ذات الشِّفا" فشرحها، وزاد فيها زيادات جمة وشروح من

---

(١). محمد بن حسن الشهروزي الشافعي أشتهر بالقاريّ وبابن الحاج، اشتغل مدرساً في قريته سنجوى ثم اختار قرية هزار مَرْد مسكناً له، وكانت له فيها مدرسة ذاعت شهرتها، وتوفي بها سنة ١١٨٩هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ١٧٠.

(٢). محمد أمين بن خير الله العُمري الموصلي، من أسرة علمية قديمة عرفت بتوليها المناصب الشرعية وبالتأليف أيضاً، درس على علماء الموصل ودرس على علماء الحيدرية في ماوران، وسافر إلى بغداد سنة ١١٧٨هـ فدرس على علمائها، فأتاحت له دراساته تلك ثقافة رفيعة في علوم عصره، وكان كثير المطالعة، شغوفاً بالكتب، وترك مؤلفات عديدة، توفي سنة ١٢٠٣هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ١٨٣.

تقدمه من شراح هذه المنظومة ووضع عبد الله آل شُبَّر[١] سيرته للنبي ﷺ بعنوان: "جلاء العيون في ترجمة أحوال النبي والأئمة عليهم السلام"، وأصله لمحمد باقر المجلسي الأصفهاني (ت ١١١٠هـ) بالفارسية لكنه زاد عليه مع بعض تصرفات منه، ثم اختصره للنصف تقريباً، وألف كتاباً آخر في الموضوع نفسه سماه "أحوال خاتم الأنبياء" جاء أضخم من سابقه، لكن لم يختلف عن تلك الصورة، ونالت سير بعض كبار الشخصيات الإسلامية عناية بعض مؤرخي الحقبة، متعمدين التأكيد على الجوانب المؤثرة في النفس منها، فكتب مهدي الفتوني[٢] أرجوزته في "تواريخ وفيات ومواليد الأئمة المعصومين" تناول فيها تاريخ ولادة الرسولﷺ والأئمة الاثنى عشر ووفياتهم، ووضع سليمان الداقوقي[٣] كتاباً في مواليد الأئمة الأربعة ووفياتهم سماه "إتحاف الأمة بتواريخ الأئمة" ويتضمن تراجم الأئمة الأربعة المعتبرين لدى أهل السنة، وألف عيسى آل كُبّه[٤] كتاباً في سيرة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه سماه (روضة المحبين في أحوال أمير المؤمنين)، ومثله ما قام به معروف البَرَزَنْجي[٥] في منظومته "البرهان الجلي في مناقب الإمام علي"، وفي كتابه "الروض الزَّهر في مناقب آل سيد البشر".

وكان لغلبة نظام الوراثة في تولي أغلب المؤسسات الدينية والاجتماعية والإدارية، وبروز مؤسسة نقابة الأشراف في المدن العراقية، بصفتها معنية بشؤون المنحدِّرين من سلالة الرسول ﷺ، قد جدد لدى مؤرخي هذه الحقبة الاهتمام بموضوع مهم من موضوعات الكتابة التاريخية،

---

(١). عبد الله بن محمد رضا آل شُبَّر الحسيني الكاظمي، فقيه، مُحدِّث، من أهل قصبة الكاظمية، أخذ العلم عن علماء بلدته، ثم واصل دراسته في النجف، وأجاز هو عدداً من العلماء، ترك آثاراً متنوعة، وتوفي سنة ١٢٤٢هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٢٢٤.

(٢). مهدي بن محمد الفتوني النَباطي العاملي النجفي، أقام في النجف، حيث أكمل دراسته حتى عُدَّ من كبار العلماء فيها، ترك رسائل في الفقه والأنساب والتاريخ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٣). سليمان بن محمد الداقوقي الشافعي أديب من بلدة داقوق من أعمال كركوك بالعراق، يظهر من مؤلفه أنه عاش في أوائل القرن الثاني عشر الهجري. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٤). عيسى بن حسين آل كُبّه البغدادي كان حياً سنة ١٢٤٥هـ. انظر: نفس المرجع، ص ٢٢٧.

(٥). محمد معروف بن مصطفى بن أحمد بن محمد النوْدَهي الشهروزي البَرَزَنْجي الشافعي، باحث صوفي، من أهل قرية "نودي" بالسليمانية وإليها نسبته، ثم انتقل إلى قلعة جوالان ثم تركها، واعتكف في قرية هزارمَرْد فقرأ على بعض العلماء هناك، والتقى بالعلامة عبد الله البَيْتوشي ولازمه ودرس عليه، واشتغل بالتدريس والتأليف، وفاته بها سنة ١٢٥٤هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٧، ص ١٠٥.

وهو تاريخ الأنساب[١]، فكتب مهدي الفتوني "الأنساب المشجّر" في أنساب الأئمة وذراريهم، وكتب داود بن سليمان بن داود الحلي[٢] رسالة في عقب الحسين ذي الدمعة بن زيد الشهيد، جمع فيه ذوي رحمه وما اتصل به من نسبه، ووضع المؤرخ الموصلي محمد بن أمين العُمري مجموعاً فيه "شجرات الأنبياء والملوك"، ضمنه أسماء من تولى حكم الموصل وبغداد من الولاة حتى عصره، وكتب أخوه ياسين العُمري[٣] كتاباً في أنساب العباسيين أمراء بهدينان، وكتب جعفر الموسوي[٤] "بحر الأنساب في أنساب آل البيت وغيرهم، وترجم لبعض الملوك والسلاطين.[٥]

ومن الجدير بالذكر أن استخدام المحسنات البديعية يمثل الأسلوب السائد في مجال الكتابة التاريخية والسير والتراجم على في هذه الحقبة، فضلاً عن الألفاظ الحوشية، والتعبيرات المتكلّفة، والأشعار التي تحتاج ألفاظها شرح وبيان، وإذ كانت أعمال مهمة من أعمال مؤرخي هذا العصر قد قُدِّمت إلى الفئة الحاكمة وهم من المماليك، يصبح مفهوماً أن ثقافة بعض المماليك قد ارتقت، بحكم مجالس الأدباء والأخذ من الشيوخ، إلى الحد الذي يمكنهم من فهم هذه الألفاظ وتذوق تلك الأساليب، ولم يجري التخفف من هذه المؤثرات الأدبية إلاَّ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري.[٦]

وإذا كانت الكتابة في السيرة النبوية قد شهدت بعض المحاولات في القرن الثاني عشر، فإنها توقفت ـ تقريباً ـ في القرن الثالث عشر، باستثناء بعض كتب المواليد، فإن السيرة لم تعد هدفاً للكتابة بحد ذاته، وإنما ذريعة للكتابة في موضوعات أخرى، كأنساب البيت النبوي، وسير

(١). عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٦٠.

(٢). داود بن سليمان بن داود بن حيدر بن أحمد الحسيني الحلي، نشأ في أسرة علمية دينية، وولي الزعامة الدينية في مدينته، وقرض الشعر، توفي سنة ١٢٣٢هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٢٠١.

(٣). ياسين بن خير الله بن محمود بن موسى الخطيب العمري الموصلي، لم يتلق دراسة علمية جادة، وإنما قرأ على نفسه، وتأثر بآراء أخيه محمد أمين، شارك في الصراعات المحلية الدائرة في أيامه، وتأثر بآراء الصوفية ودافع عنها، ترك آثاراً عديدة، توفي سنة ١٢٣٢هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٤). محمد جعفر بن محمد حسين بن محمد مهدي الموسوي الشهرستاني الحائري، فقيه، نسابة، استوطن كربلاء حتى عُدَّ من كبار علمائها في عصره، له رسائل متنوعة. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٢٤٦.

(٥). نفس المرجع، ص ٦٠.

(٦). نفس المرجع، ص ٦٦.

الأئمة من أعلامه، تكمن وراء ذلك دوافع اجتماعية وثقافية متنوعة، فكتب باقر النجفي[1] "الدمعة الساكِبة في سيرة الرسول وآل بيته"، مستهدفاً في الأساس استثارة الأشجان على ما حلّ بهم من مآسٍ ونكبات، ووضع موسى الطالقاني[2] كتاباً ضخماً في خمسة مجلدات، سماه "عقود الجواهر في أحوال النبي وآل بيته الطاهر" لم تشغل السيرة منه إلاَّ جزءاً يسيراً.

(١). باقر بن عبد الكريم الدَّشْتي النجفي الكتبي، كان حياً سنة ١٢٧٩هـ وكان وراقاً يبيع الكتب في إيوان من الصحن الغَرَوي في النجف، وقد عُرف بتتبعه لأخبار آل البيت. انظر: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٢٦٨ .

(٢). باقر بن جعفر بن علي الحسيني الطالقاني النجفي، من أسرة حسينية قديمة، وتلقى العلم على والده وعدد من شيوخ مدينته، وصنف عدة رسائل متنوعة، توفي سنة ١٢٩٨هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٢٨٦.

الفصل الأول

العوامل المؤثرة في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر الهجري:

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعدد المدارس التاريخية الحديثة وأثرها في كتابة السيرة النبوية.

المبحث الثاني: تنوع الملل والنحل وأثرهما في كتابة السيرة النبوية.

المبحث الثالث: الاستشراق والتغريب وأثرهما في كتابة السيرة النبوية.

المبحث الأول:

تعدد المدارس التاريخية الحديثة وأثرها في كتابة السيرة النبوية

للتاريخ في حياة كلِّ أمّة، تريد أن تتقدمّ وتنطلق في الركب الحضاري الصاعد، دور حيويّ في نموّها وتطوّرها، كونه يجنّبها كثيراً من المزالق والمخاطر والأخطاء، بما يقدّمه لها من تجاربها الماضية في مراحل نموها الأولى، وما تحمله ـ تلك التجارب ـ من دروس عملية كثيرة، تستطيع بها أن تضع يديها ـ بوعي ـ على مواطن الضعف ومواطن القوة في شخصيتها التي عاشتها في تلك الأدوار، وهناك يكون الطريق أكثر إشراقاً، وأرحب آفاقاً مما لو انطلقت فيه على غير هدى التاريخ.

أما إذا انعكست القضية، فحاولت أن تحتقر تاريخها، وترفضه ولا تنظر إليه إلاّ كما تنظر إلى الآثار البالية، وانطلقت بروح انفعالية حماسيّة تحاول التمرّد عليه والتحرّر منه، والتحوّل إلى حاضرها، لتجعل منه مبدأ نموها ومنطلق حياتها، فإنها ـ لا شك ـ ستتعرى وتفقد شخصيتها الأصيلة، لفقدانها الركيزة التي ارتكزت عليها حياتها، والمنطلق الذي انطلقت منه، وبذلك فهي لا تملك ـ حينئذٍ ـ إلاّ التذبذب والاتّكاء على تجارب الآخرين، وتناول فتات موائدهم، ولا يجهل أحد بعد هذا ما في ذلك من ضياعٍ وانهيارٍ لكيانها وشخصيتها الأصلية.

وهذا ما ساعد كثيراً من متفلسفي التاريخ[1]، على تلوينه بالألوان الكثيرة المختلفة، حسب اختلاف لون التفكير الذي يعيشه أولئك المتفلسفون، على ضوء ـ هذه الفكرة ـ نحاولُ الانطلاقَ إلى تاريخنا، فندرسه من خلال السيرة النبوية الصحيحة، كأمّة إسلامية واعية أنشأت حضارةَ عظيمةَ تعتبر أم الحضارات الحديثة، وجديرٌ بأن نفخر بهذه السيرة العطرة، ونستمد منها المثل العليا، ونتخذها منطلقاً للنهوض من كبوتنا، واسترداد مكانتنا، ولما أراد أعداء الإسلام محو ذاكرة الأمة، وقطع صلتها بتاريخها المجيد أَوْلُوْا هذه الدائرة اهتماماً كبيراً، واعتبروا السيرة النبوية أحد المنابع التي يجب تجفيفها، ليحولوا بين أحد مصادر شموخهم ونهضتهم.

---

(١). دخلت أحداث التاريخ في مجال تفكير الفلاسفة منذ وقت مبكر، لا من حيث بواعث وقوع هذه الأحداث أو أسبابها وإنما قام الفلاسفة كعادتهم بالنظر لأحداث التاريخ نظرة فوقية، وراحوا يلاحظون العوامل المسيرة للتاريخ عامة لا بقصد تفسير التاريخ، وإنما بقصد الإسراع بمراحله وتطوراته، وهل تتحرك هذه الأحداث التاريخية بشكل مستقل عن إرادة الإنسان أم يفعلها، وهل هناك روح أو عقل أو آلهة يتدخلون في مسار هذه الأحداث بصرف النظر عن الإرادة البشرية. انظر: عبد الرحمن الشيخ: مدخل إلى علم التاريخ (الرياض، دار المريخ، ١٤٠٥هـ) ص ١٥٣.

إننا نحاول الانطلاق إلى السيرة العطرة، لنقرأها على هديٍ من وعيٍ وعمق ومعرفة وليست تلك المحاولة التي أدعو إليها مجرّد ترفٍ ذهني، ودراسة مجردة، وإنما هي ضرورة حتمية، وواجب حيوي لمرحلتنا الحاضرة، بل أستطيع القول إنّه من أبرز الواجبات الملقاة على عاتق المسؤولين عن قضية الإسلام، بالنظر إلى أنّه سجّل للمعركة التي خاضها الإسلام ضد خصومه وأعدائه التاريخيين، وقد علق به، ما علق بكثير من مفاهيم الإسلام، من شوائب وألوان دخيلة بسبب ما حلَّ بالمسلمين من ارتباك واضطراب في فترات الركود والنكوص.

إذن، فلا غرو أن تكون المدارس التاريخية الحديثة، هي أولى مباحث هذه الرسالة وأصعبها على الاطلاق، من حيث كون الخائضين فيه أكثر الباحثين لِجَاجاً، وأعمقهم خِلَافاً، وقد أخذ هذا المبحث مني وقتاً وجهداً لا يُستهان بهما؛ كدت أخشى على نفسي منه، لأنه يعتمد على نظريات كثير من الفلاسفة والمتفلْسفين التي أخذت أبعاداً ميتافيزيقية، وقد اجتهدت في الابتعاد عن هذه الخلافات والخوض فيها قدر الإمكان.

والمقصود بالمدارس التاريخية هي مدارس ارتبطت بجماعة من المؤرخين والفلاسفة، ولكل مدرسة فكرها، وروادها، ولها معارضوها ومنتقدوها، وقد تُعرف المدرسة باسم مؤسسها، أو بمكنون فكرها، وقد تعددت المدارس التاريخية الحديثة، ولكل منها نظريتها وفلسفتها التي تحاول عن طريقها تفسير وتعليل حركة التاريخ[(١)]؛ ولكل منها مذهبها في القوة أو القوى التي تُسيِّر التاريخ وكلها محاولات لاستكشاف أحداث التاريخ الماضية وعللها، وهي في الواقع تحاول الإجابة على سؤالين جوهريين عن وقائع التاريخ وحوادثه وهما: لماذا وقعت حادثة تاريخية ما؟ وكيف حدثت؟ أو لماذا اتخذت الحادثة التاريخية شكلها المعين؟! ومحاولة تعليل التاريخ بهذا الشكل تعني في معناها الواسع معرفة: لماذا حدث التاريخ كما حدث، واتخذ الشكل الذي يتراءى لنا به؟[(٢)]

إن الحقيقة هي الهدف الأسمى الذي يسعى وراءه المؤرخون، ولكن تطور علم التاريخ لم يعد يجعل من طلب الحقيقة هدفه الأسمى فحسب! وإنما صار تفسيرها أمراً أكثر إلحاحاً من

---

(١). تفسير التاريخ وتعليله يقصد به معرفة العوامل المؤثرة في مسيرة الأحداث ودراستها، واستخلاص السنن الإلهية من خلالها، والاعتبار بالدروس فيها. انظر: محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ١٥٦.

(٢). عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (الطبعة الأولى، الكويت، دار القلم، ١٤٠٠هـ) ص ١١.

ذي قبل، وصارت عمليات التحليل والتفسير والبرهنة من وسائل الباحث الجيد، بل إن مثل هذه التبريرات صارت معايير للتمييز بين العمل الجيد وغيره، أي بين العمل المتميز الذي يقوم عليه مؤرخ متمكن في علم التاريخ وقواعده وطرائقه، يتسم بالمنهجية والموضوعية والترابط، والعمل التقليدي الذي يقف به آخر عند مجرد سرد ممل لأحداث لا قيمة لها بذاتها، ولذلك فإن المؤرخ مطالب بتقديم الدليل أو الرأي فيما حدث، حتى صار التاريخ يعرف بأنه الرأي فيما جرى من أحداث، وليس مجرد رصد وسرد الأحداث ذاتها[1]، وبناء الآراء وتقديم النظريات ـ كما قد يبدو ـ لا يمكن أن يكون نتاج جهد فردي مطلق، وإنما هو نتاج عمليات تحليلية وأفكار ساهم آخرون ببعضها قبل صاحب الرأي نفسه، مكونة بذلك مدرسة تاريخية قائمة بذاتها، فضلاً عن كون ذلك نتاج عمليات تقص للحقائق من مصادرها الأصلية.

ولقد حاول بعض المؤرخين ردَّ الحوادث التاريخية إلى العناية الإلهية التي تسيطر على الكون وتقود الوجود إلى غاية لا يعلمها إلا الله ﷻ، وهذا تفسير عِلِّيْ سببي يربط بين وقائع التاريخ ونتائجها ارتباطاً عِلياً بكل ما تتضمن فكرة العِلِّية من ضرورة وحتمية، ويطلقون على ذلك الاتجاه في تفسير التاريخ: العلية التاريخية أو الحتمية التاريخية، وأحياناً التيار التقليدي التي تحاول أن تفسر حوادث التاريخ تفسيراً منطقياً وعقلانياً، فتربط الحوادث بأسبابها وبنتائجها؛ وأن التاريخ يحكمه قانون ما حتى وإن كانت الصدفة هي هذا القانون، وأن واجب المؤرخين هو الكشف عن القوانين العامة التي تحكم حركة التاريخ، ولو اضطر الأمر الوصول إلى تلك القوانين عن طريق الدراسة التجريبية[2]، أي بمحاولة تطبيق المنهج التجريبي الذي يقوم على التجربة المعملية الحسية[3]، وهي ليست النظرية أو المدرسة الوحيدة في تفسير التاريخ فهناك نظريات ومدارس أخرى، حاولت كلها إيجاد تفسير وتعليل لحركة التاريخ.

يقول قسطنطين زريق في كتابه (نحن والتاريخ) عن المميزات التي تميّز التيار التقليدي ـ في ما يعبِّر ـ فيعتبر أن إحدى هذه الميزات هي: "أن تعليل نشوء الأحداث وتطورها هو،

---

(١). عادل غنيم وآخر: في منهج البحث التاريخي (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠١١م) ص ١١٣.

(٢). حسن عثمان: منهج البحث التاريخي (الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٦م) ص ١٨٥.

(٣). وهذا المنهج صالح لدراسة العلوم الطبيعية، أما العلوم الاجتماعية التي تتعلق بالإنسان وأحواله واتجاهاته فلا يمكن استخدام هذا المنهج في دراستها. انظر: محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ١٢٣.

بحسب هذه النظرة، تعليل إلهي، فدوافع التاريخ ليست، أو على الأقل ليس أهمها وأبلغها فعلاً، في يد الإنسان، بل تحكمها المشيئة الإلهية والقوانين السماوية. وحياة السعادة الدائمة أو الشقاء الدائم في العالم الآخر. فمن العبث إذاً أن نحاول تعليل الأحداث الإنسانية بإعادتها إلى الجنس أو المحيط أو أي عامل من العوامل الطبيعية أو البشرية الأخرى. إن محور التاريخ ليس في هذا العالم، بل في العالم الأعلى... ثم تحدث عن المنطلق الذي انطلق منه في وصفه لهذا الاتجاه ويلاحظ القارئ أننا في وصفنا لهذا المجرى التقليدي، لم نجد غنىً عن توجيه النظر رأساً إلى المفاهيم الدينية الإسلامية والمسيحية، فهذه المفاهيم هي، عند الذين لا يزالون ضمن هذا المجرى، الدليل الأمين إلى حقائق الحياة الأساسية، وإلى معنى الأحداث المتعاقبة في الزمن، وإلى العلة الفاعلة في هذه الأحداث".[(١)]

وهكذا نجد أن هذا الوصف ـ في زعمه ـ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمفاهيم الإسلامية، لأنه ينبع منها ويتأثر بها، وهنا تصبح الدراسة التاريخية لدى أصحاب هذا الاتجاه عبثاً لا طائل منه، وتكراراً مملاً لتفسير واحد، وتعليل مكرّر لكلِّ حادثةٍ من الحوادث، أو حركةٍ من الحركات، فكلّها جارية على سنَّة القضاء والقدر ومشيئة الله وإرادته، ولا رادَّ لقضاء الله، ولا مبدّل لإرادته.. وهكذا تلتقي الحوادث التاريخية بهذا التعليل، وهكذا يتمثّل إغفال النظام الطبيعي الجاري في هذه الحياة، والسنّة الكونية الحياتية، وإبعاده عن تعليل حوادث الكون وتفسيرها، ويذهب بعض الباحثين الإسلاميين إلى أبعد من ذلك في هذا الاتجاه، فيعتبر أن قانون العلّية لم يتخلّف في أي حادثة من الحوادث الحياتية في ما نسميه بالمعجزات أو الخوارق التي جاء بها الأنبياء والرسل عليهم السلام كدليل على صحة نبوّتهم ورسالتهم، فيحاول إرجاعها إلى أسباب طبيعية لم نطلّع عليها كما لم نطلع على تفسير الكثير من الحقائق الكونيّة والظواهر الطبيعية.

وفي العصر الحديث والمعاصر زاحمت المدارس الغربية الحديثة مدرسة التفسير الإسلامي للتاريخ، خاصة بعد التضخيم الأوروبي لمناهج التفسير التاريخي أو ما يُسمى (فلسفة التاريخ)، وكان للمدرسة الاستشراقية وتلاميذها في العالم الإسلامي أكبر الدور في جعل التاريخ مصدر

---

(١). قسطنطين زريق: نحن والتاريخ (الطبعة السادسة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٥م) ص ٢٩.

إلهام بل ووضعوه في منزلة الإله الذي يتلقى منه نظام الحياة والتصور الصحيح عن الكون والإنسان، ونظراً لعدم انطلاقهم من عقيدة ثابتة وتصور واحد، فإنهم قد تعددت مذاهبهم بحسب مشارب العقول والثقافات والأهواء والرغبات، مما أوجد مدارس في التفسير متعددة ومتناقضة يضرب بعضها عنق بعض! ويفسرون التاريخ لا على أنه يحث في العوامل المسيّرة للأحداث، وإنما تأمل في طبيعة تتابع هذه الأحداث والفكرة الكامنة وراء ذلك، وهم في محاولة فهم طبيعة هذا التطور يحاولون أن يوجهوا الأحداث بما يتفق مع أفكارهم وتصوراتهم ليس إلا، وبالتالي فإن نظرة سريعة تجاه المدارس التاريخية الحديثة يجدها لا عدَّ ولا حصر لها ولكننا سوف نقتصر على أبرزها وأهمها وهي كالآتي:

- مدرسة التفسير المثالي للتاريخ.
- مدرسة التفسير الديني للتاريخ.
- مدرسة التفسير المادي للتاريخ.
- مدرسة التفسير الطبيعي للتاريخ.
- مدرسة التفسير الحضاري للتاريخ.
- مدرسة التفسير القومي للتاريخ.

وهناك العديد من المدارس الأخرى كالفردية، والنفسية، والجنسية ... الخ، التي تحاول تفسير التاريخ بما يتفق مع فكرتهم ونظرتهم الناقصة التي تنطلق من تصور خاطئ عن الإنسان والكون والألوهية، وفوق ذلك لم تحسب حساباً لكافة العوامل المؤثرة في حركة التاريخ، وإنما اكتفى كل واحد منها بعامل ضخَّمه وفسر به تاريخ الإنسان كله[1]، ولا شك أن تلك المدارس التاريخية كان لها أثرها وخطرها على كتابة التاريخ، فأما أثرها فيرجع إلى أنها خرجت بالكتابة التاريخية من ذلك الدور الوصفي الأدبي الذي كانت تؤديه قبل ظهور تلك التفسيرات، واتجهت إلى دراسة الظواهر الإنسانية المختلفة ومحاولة الربط بينها، وتقديم تفسير محدد لحركة التاريخ، وأما خطرها فيرجع إلى أنها تخضع حركة التاريخ لعامل أساسي واحد، وتفسرها بطريقة واحدة دائماً، وهو ما يجعل في القبول المطلق لهذا التفسير أو ذاك نوعاً من الإسفاف والتعسف العلمي

---

(١). عبد الرحمن الشيخ: المدخل إلى علم التاريخ، ص ١٣٧.

والعقلي، أو رضوخاً لنظرة جزئية أحادية غير شاملة ولا كاملة.[١]

وأما خطرها فنجد الأهواء والعصبيات والتيارات الفكرية تعمل عملها في قراءة التاريخ وتفسيره وتوجيه وقائعه، وقد انعكس هذا على السيرة النبوية أيضاً، فالمستشرقون ـ في الغالب ـ حين يبحثون في السيرة، يخدمون به فكرة بيتوها عن النبي محمد ﷺ ودينه، فمحمد ﷺ ليس برسول، والإسلام ليس بدين الله ﷻ، وأصحابه ليسوا إلا ثلة من المغامرين المتنافسين على الدنيا؟! وإذا كان هذا رأيهم في الصحابة فكيف من بعدهم؟! لا دين عندهم إلا اليهودية والنصرانية، أما الإسلام فهو زعمهم في نسخة مُحرَّفة منهما، ولا عبقرية عندهم إلا للغربيين، ولا حضارة غير حضارة اليونان والرومان، والمسلمون لا يزيدون على أن يكونوا نقلة لهما[٢]، وفي سبيل هذا يُغْفِلون أحداثاً قيمة، ويضخمون أحداثاً تافهة، ويردون أخباراً صحيحة، ويعتمدون أخباراً ضعيفة أو مكذوبة، يتصيدونها من أي كتاب مثل (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة، ومن كتب الأدب، مثل كتب الجاحظ، ومثل كتاب (الأغاني) للأصفهاني، وكثيراً ما نراهم يقرؤون الخبر التاريخي قراءة محرفة، ويوجهون هذا كله توجيهاً مسموماً يؤيد اعتقاداتهم السابقة عن الإسلام وكتابه ورسوله وصحابته وأمته ورسالته وحضارته[٣].

فالماركسيون يفسرون السيرة النبوية ـ وفقاً لفلسفتهم المعروفة ـ تفسير مادياً مستخدماً نظرية (الصراع الطبقي)، ويحاولون أن يطبقوا ذلك على نشأة الإسلام وظهوره وانتشاره، ويعتسفون في ذلك كل الاعتساف، ويُحَمِّلون الأحداث ما لا تحتمل بحال، ويقسمون الصحابة يمين ويسار، ويديرون صراعاً موهوماً بينهما.. كما بدأنا نسمع عن كثيرٍ من الحركات والدعوات الاشتراكية في تاريخنا، وعن دور الصّحابي الجليل أبي ذرّ الغفارى ﷺ فيها، وغير ذلك من التفسيرات التي انتشرت في البحوث التاريخية التي تتناول تاريخنا بالدس، بأسلوب بعيد عن الجو الإسلامي وواقعه.

وكثير من كتاب المسلمين أنفسهم، يخلعون على حوادث السيرة، ومواقف رجالها في هذا ما

---

(١). عادل غنيم وآخر: في منهج البحث التاريخي، ص ١٠٥.

(٢). عبد العظيم محمود الديب: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي (الطبعة الأولى، قطر، سلسلة كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، مطابع مؤسسة الخليج، ١٤١١هـ) ص ٣٩.

(٣). يوسف القرضاوي: تاريخنا المفترى عليه (الطبعة الخامسة، القاهرة، دار الشروق، ٢٠١٠م) ص ٢٨٢.

يتصورونه اليوم من ألاعيب وأكاذيب، ويتخيلون العلاقة بين عمر وخالد، أو بين عثمان وعلي، أو بين طلحة والزبير ﷺ، من أمثال العلاقة بين الطامحين والطامعين من رجالات والأحزاب، وتجار السياسة في عصرنا، ويفسرون المواقف والأحداث تبعاً لهذا التصور الظالم، المتجني على هذا الجيل الرباني، الذي لم تكتحل عين الدنيا برؤية مثله.

والقوميون من العرب يوجهون السيرة النبوية وجهة قومية، فالإسلام في نظرهم انتفاضة عربية أو وثبة من وثبات العبقرية العربية! ومجداً من أمجادهم القومية الخاصة، فقد كان وليد الأم العربية، لا رسالة إلهية تمتدّ من السماء، لتحتضن البشرية جمعاء في آلامها وآمالها، ورسول الإسلام ذاته بطل قومي جادت به أمة العرب على الإنسانية؟! حتى كأن في انطلاق هذا التاريخ في حياتها ما يبرر اعتباره تراثاً قومياً ينبع من طبيعة العوامل والمؤثرات القومية، ولا نعجب بعد ذلك إذا غدا (أبطال الإسلام) وعلماؤه ورجالاته الكبار على مدار تاريخه (أبطالاً عرباً)، مع أن منهم فرساً وأفغاناً وهنوداً وغيرهم! ولا نعجب ـ أيضاً ـ أن تسمى الحضارة الإسلامية (حضارة عربية) مع أنها بلا ريب إسلامية بحكم أهدافها وقيمها وفلسفتها المستمدة من الإسلام، إسلامية بحكم بواعثها ودوافعها المرتبطة بخدمة الإسلام، إسلامية بحكم العناصر التي أسهمت في بنائها وتشييد أركانها، وهي عناصر تشمل كل الأجناس والشعوب الإسلامية (من فرس وأفغان وهنود وأتراك وأكراد وبربر وغيرهم..) إسلامية بحكم الرقعة التي امتدت إليها وأثرت فيها، وهي رقعة واسعة الأرجاء مترامية الأطراف، تشمل العالم الإسلامي كله.

على أن للعرب فضلاً لا ينكر، فهم عصبة الإسلام الأولى، وحملة رسالته الأولون، ومبلغو القرآن والسنة إلى العالمين، وفيهم بُعِثَ الرسول الخاتم ﷺ، وبلسانهم نزل الكتاب الخالد، وفي أرضهم حرم الله وحرم رسوله، والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، ولكن هذا شيء، وتحريف التاريخ شيء آخر، وقبل أن نتناول بالبحث هذه المدارس وتأثيرها في كتابة السيرة النبوية، نبدأ بمدرسة التفسير الإسلامي للتاريخ، الذي تقودنا إلى حقيقة أساسية، وهي أن هذه المدرسة واقعية لا تتأثر بقيمها ومثالياتها ـ التي تدعو إليها ـ في تفسيرها للواقع كما نرى في التفاسير الوضعية الأخرى التي تصوغ الحقائق التاريخية وفق المذهب المصنوع سلفاً فَتُفْسَر على الانسجام مع وضعية المذهب وتساق للتدليل عليه وتأكيده.

أولاً: مدرسة التفسير الإسلامي للتاريخ:

إن مدرسة التفسير الإسلامي في تفسير حوادث التاريخ وتعليلها مستقلة عن كافة المدارس الوضعية ومتميزة عليها باستمدادها من المصادر الشرعية الكتاب والسنة، والعلماء المسلمون(١) عرفوا هذا المنهج في تفسير التاريخ والنظر إلى حوادثه وإدراك السنن والإفادة من تجارب الأمم السابقة ومواقفهم من أنبياء الله ورسله، لكنهم لم يشاؤوا التدخل بالتفسير والتعليل حتى لا يفرضوا على المتلقي رأياً معيناً، ولكي لا يتسلطوا على فكره بتوجيه أو تعليل محدد للحدث.(٢)

والتفسير الإسلامي للتاريخ الذي يُستمد من رؤية الله تعالى التي تعلو الزمان والمكان وتتجاوز مواضعات العصر النسبية، يتميز بمرونته وبعده عن التوتر أو التأزم المذهبي الذي يسعى إلى قولبة الوقائع التاريخية وصبِّها في هيكله المسبق، أو استبعاد أو تزييف كل ما لا ينسجم وهذا الهيكل، فهو منهج وصفي ومعياري دقيق، يصف الحادثة التاريخية ويستكمل جوانبها المختلفة، ويتحقق من صحة الواقعة بكافة وسائل النقد وإثبات الحقائق التي يتميز بها منهجه العلمي، ويمكننا إجمالها فيما يلي:

- التحري والتثبت في الرواية.
- التزام الإسناد واعتماده.
- معرفة الرجال والكشف عن حالهم جرحاً وتعديلاً.
- استعمال نقد المتون والأسانيد.

ثم لا يكتفي بهذا الوصف والعرض للوقائع التاريخية بعد أن يتحقق من صحتها، وإنما يحاول أن يزن هذه الوقائع بمنهجه المعياري، وذلك وفقاً للمقاييس والمفاهيم والتصورات الإيمانية، من أجل إبراز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والمجتمعات الإسلامية، ولكي يوضح أنه لا يوجد في كل العالم إلا أمتان اثنتان، أمة الحق، وأمة الباطل، فالحركة هي هدف في العرض

---

(١). وقد كان كبار علماء الأمة معنيين بالتاريخ، وصنفوا فيه، أمثال: الطبري، وأبي نعيم، والخطيب، وابن عبد البر، وابن عساكر، وابن كثير، والذهبي، والسبكي، وابن حجر، وغيرهم، وإن لم يفردوا ذلك بمؤلفات مستقلة حيث كانت الصورة واضحة في أذهانهم عن الهدف من دراسة التاريخ، وهذا دليل ساطع على منزلة التاريخ وأهميته عند المسلمين. انظر: يوسف القرضاوي: تاريخنا المفترى عليه، ص ١٠.

(٢). محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ١٥٧.

التاريخي لا مجرد السرد والاستقصاء، ومن ثم الانتقال من هذه المرحلة إلى محاولة استخلاص السنن التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية[(١)]، ومن أهم الغايات التي يسعى التفسير الإسلامي للتاريخ إلى تحقيقها:

أ) الكشف عن الحقائق التاريخية وإظهارها، والقول بالحق فيها بعيداً عن إفراط المتعصبين له، وعن تفريط المتعصبين عليه، لأن الله لا يقبل تزوير الحقائق أو إخفائها، بل يريد الحكم بالقسط والعدل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[الأنعام:١٥٢].

ب) استخدام الأحداث التاريخية في تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية، لتقويم مسيرة الأمة في رسم خط سيرها وتحديد ملامح مستقبلها، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام:١١].

ج) بيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية، وتعريتها وبيان تناقضها، قال تعالى:﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[السجدة:١٨].

ولقد زعم أصحاب التفسيرات الوضعية أن البشر لا يتحركون ولا يتغيرون ولا يغيرون إلا بسبب تغيرات مادية أو اقتصادية أو نحوها، وأنهم لا يمكن أن يتحركوا بشيء معنوي فكرة أو عقيدة أو مبادئ، لأن هذه كلها تأتي لاحقة للتغير المادي والاقتصادي ومنبثقة عنه.

لكن الواقع والتاريخ يعلمنا غير ذلك تماماً، فوجود الإسلام في الأرض وتسلسل الأحداث في السيرة النبوية من بداية الوحي إلى دار الأرقم، إلى الصدع بالدعوة، إلى الحصار في شعب أبي طالب، إلى عرض نفسه ﷺ على القبائل وطلب النصرة منها، ثم الهجرة وما تلاها من بدر، إلى أُحد، إلى الأحزاب، ثم من الحديبية والفتح إلى تبوك، وما تخلل ذلك من أحداث ومواقف؛ إنما كانت تسير في الأصل وفق تدبير رباني ولطف إلهي، الوحي ينزل آمراً وموجهاً، وأحياناً معاتباً، وأحياناً أخرى محذراً والنبي ﷺ واثقاً ومصمماً: "أنا عبد الله ورسوله، لن أُخالف أمره ولن يضيعني"[(٢)]، والصحابة ﵃ واثقون كل الثقة، بل مؤمنون كل الإيمان بقيادته وتوجيهه ﷺ،

(١). محمد السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ١٥٧.

(٢). البخاري: الجامع الصحيح، حديث رقم: ٣١٨٢، جـ٤، ص ٧٠، وأحمد: المسند، جـ٤، ص ٣٢٥، واللفظ له.

عالمون أن متابعته والاعتصام بهديه هي قضية إيمان أو كفر ونفاق[١]، بل ويعلمنا أن العقيدة إيمان الناس بالله ﷻ، وإيمانهم بالحق والعدل الأزليين، يمكن أن يحدث تغييراً في الأرض أضخم بكثير من أي تغيير حدث نتيجة التغير المادي والاقتصادي.. ويعلمنا أكثر من ذلك أن نوع التغيير الذي تحدثه العقيدة يختلف اختلافاً جذرياً عن التغير الذي يحدث ـ لأسباب مادية واقتصادية ـ بلا عقيدة..

فالإسلام نشأة جديدة للإنسان، على أسس من القيم العليا والمبادئ السامية، بينما التغيرات الأخرى مجرد تغير جزئي من حالة إلى حالة، لا يغير شيئاً جذرياً في الإنسان، وقد يؤدي به إلى الانتكاس والدمار ـ ويعلمنا قبل ذلك وبعد ذلك ـ أن الإنسان ليس مادة ولكنه إنسان! وأن النظام الذي يتعامل معه على أنه إنسان أفضل بكثير وأعلى بكثير، وأكثر فاعلية بكثير من النظام الذي يتعامل معه على أنه مادة، أو على أنه حيوان! والعياذ بالله.[٢]

في التفسير الإسلامي للتاريخ عموماً، سواء تاريخ البشرية بكامله أو تاريخ الأمة الإسلامية هي التي تميزه عن بقية المناهج والمدارس الوضعية والمذاهب المنحرفة، أما ركائز المنهج وأدوات تنفيذه في الواقع العملي، فهي ـ كما أسلفنا ـ التصور الصحيح لكافة قضايا الشريعة والحياة، ثم الرجال الصادقون المخلصون، ثم المنهج العلمي السليم، ولا أعني بهذا أن أقول: إن التاريخ الإسلامي تاريخ ملائكة مطهرين، أو أنبياء معصومين، لا خطايا فيه ولا أخطاء، كما يُفهم من كلام المتحمسين الذين يفسرون التاريخ بعاطفة المحب، لا بعقل الباحث، فهذا ما لا يقوله عاقل، فضلاً عن أن يقوله طالب علم، فالمسلمون كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون، ويستقيمون وينحرفون، ويعدلون ويظلمون، ولكن ينبغي أن نفسر التاريخ بمجموع أحداثه ووقائعه، وبكل فئاته وطبقاته، وبجميع أقطاره وأمصاره، بعيداً عما أنتجته أقلام المنصرين والمستشرقين المتحيزين ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم.

---

(١). محمد آمحزون: منهج النبي ﷺ في الدعوة (الطبعة الثانية، القاهرة، دار السلام، ١٤٢٤هـ) ص ١٢.

(٢). محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة (الطبعة الأولى، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ) ص ٣٩٠.

ثانياً: مدرسة التفسير المثالي للتاريخ:

المثالية مذهب فلسفي يشمل جانباً كبيراً من المذاهب الميتافيزيقية، وهي اتجاه فلسفي يبحث عن مسألة الوجود أو (الأنطولوجيا)[١]، وهو مذهب يقوم على جعل الذات لا الموضوع محور المعرفة[٢]، وتسعى إلى تفسير كل الظواهر الطبيعية وكل خواص المادة بهذه الخاصية أو تلك من خواص الروح أو الذات، وكل من يعتبر الروح (الذات) العامل الأول وراء كل ظاهرة أو حدث، يعتبر مثالي النزعة أو التفكير[٣]، ولما كانت المثالية تقوم على الذات فإن المثاليين ينكرون وجود موضوعية مطلقة، ويبررون ذلك بأنه لا يمكن فهم الموضوعية في التاريخ بنفس مفهومها في العلوم الطبيعية، لأنه ليس في الطبيعة تفسير مادي لظاهرة فيزيقية، أو تفسير برجوازي لها، كذلك الأمر في الظاهرة البيولوجية، ولكن هناك تاريخا ماديا وآخر برجوازيا، كما أن هناك تاريخا بروتستنتيا وآخر كاثوليكيا لعصر الإصلاح الديني، وهناك تاريخ سنيا وآخر شيعيا لفترة حكم الخلفاء الراشدين ﷺ، وتبرير هذا التمايز في الموضوعية بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية عند المثاليين؛ يرجع إلى انتماء الذات (المؤرخ) والموضوع (الواقعة التاريخية) إلى مقولة واحدة وهي الإنسان، وليس الأمر كذلك بالنسبة للعلوم الطبيعية، حيث هناك مقولتان مختلفتان: المادة والإنسان.

وقد أدى هذا الموقف إلى نشوء مسألة وجهات النظر في التفسير، ذلك أن انتماء المؤرخ إلى حزب أو طبقة أو مذهب معين، يجعل كتاباته تمثل وجهات نظر خاصة، والموضوعية المطلقة عند المثاليين لا وجود لها، لأنها تجعل من التاريخ سجلا لا حياة فيه ولا لون له، ويسخرون من المؤرخ الذي انمحت شخصيته، فالفكر الفلسفي أو الأيديولوجي للمؤرخ، هو الذي يلون تفسيره للماضي، وعلى هذا فالخلاف بين المؤرخين هو نتيجة اختلاف الأيديولوجيات والعقائد، ولا يعني ذلك إلغاء الموضوعية تماما وإنما الموضوعية في التاريخ تختلف عن موضوعية العلوم الطبيعية، إنها تعني تسجيل الوقائع التاريخية وتصويرها تصويرا دقيقا من

---

(١). مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، جـ٢، ص ٨١٥.

(٢). أحمد صبحي: في فلسفة التاريخ (الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، د.ت) حاشية ص ٢٦.

(٣). ج، بليخانوف: تطور النظرة الواحدية في التاريخ (القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٩م) ترجمة: محمد مصطفى، ص ١٠.

وجهة نظر المؤرخ، واختلاف وجهات النظر يكمل بعضها البعض ولا يهدم بعضها البعض، وأبرز أصحاب هذا الاتجاه في تفسير التاريخ الفيلسوف الألماني فردريك هيجل.(١)

وخلاصة القول في المدرسة المثالية بأنها ليست عبارة عن الأفكار الجزئية المتناثرة في رؤوس الناس، وإنما المقصود به ما يمكن أن نعبر عنه بالتدبير الكلي للكون، فالكون في هذه المدرسة طرفان: كلي مدبر، ومصنوعات أو مخلوقات كونية متناثرة، أولهما مصدر للثاني، وثانيهما متفرع عن الأول، وبينهما تفاعل جدلِّي، والفكر الكلي المدبر ـ في هذه المدرسة ـ تعبير من وجهة نظره عن الله ﷻ بالطريقة التي يفهمونها، فهم إذن من المؤمنين بالله طبقاً لتصورهم الفلسفي، وبوجه عام فإن ما ذهبوا إليه لا يخلو من عمق فكر، لكن هذا لا يمنع أن كثيرا من الخلل وعدم الصحة أصبح واضحا في نظرية المثالية عند تطبيقه على تطور التاريخ، فإذا كانت نظرية هيجل تحتم أن يكون العالم أو البشر في تقدم مستمر، لكن أحداث التاريخ تؤكد وجود فترات من الركود أو النكوص أو الردة الحضارية.

ربما كانت فترة البعثة النبوية من أوفى الدروس في الرد على ما ذهبت إليه المدرسة المثالية، وفي كتب المؤرخين المعاصرين ـ وإن كان بعضهم ـ لم يَسْلَمْ تماماً من تأثير المستشرقين حتى بالنسبة لهذه الفترة، وربما كان السبب في ذلك أن المرجع الرئيس فيها هو كتب المستشرقين وليس كتب السيرة والصحاح؟! وربما كان السبب كذلك أن شخصية الرسول ﷺ من العظمة والضخامة بحيث لا يملك البشر إزاءها سوى التسليم والإقرار إلا من طمس على قلبه بدافع الحقد كما يصنع فريق من المستشرقين.

وأول ما يلاحظ على الكتب السيرة الحديثة وهي تعالج موقف الجاهلية من الدعوة أنها تتحدث عن الموضوع تحت عنوان (موقف قريش من دعوة الرسول ﷺ) وحقيقة أن الذي تصدى لدعوة الرسول ﷺ بادئ ذي بدء هو قريش(٢)، وأن الذي أوقع العذاب والاضطهاد

---

(١). من أئمة الفلسفة المثالية التاريخية، وتقوم على الديالكتيك أي التضاد بين الأفكار والأشياء، وأن المحرك لذلك كله الروح الكلي أو العقل الكلي المسيطر على العالم. انظر: عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، حاشية ص ٧٥.

(٢). وقف المترفون صفاً واحداً لمجابهة دعوات الرسل عليهم السلام، ومن أحابيلهم استبدال المحتويات الفكرية لمصطلحات الرسالات بمحتويات الدم والقومية ثم افتعال خطط لإقناع أتباع الدين الصحيح بالرجوع عن دينهم. انظر: ماجد عرسان الكيلاني: الأمة المسلمة (الطبعة الأولى، مكة المكرمة، مكتبة دار الاستقامة، ١٤١٥هـ) ص ٢٠.

بالمؤمنين الأوائل هو قريش، ولكن هذه مجرد ملابسات سببها أن الرسول ﷺ، أُمر بإنذار عشيرته الأقربين، وعشيرته الأقربون هم قريش، وأن المؤمنين الأوائل كان معظمهم من قريش، فكانت قريش هي القبيلة التي أوقعت بهم العذاب والاضطهاد.

ولكن هذه الملابسات لا ينبغي أن تصرف أنظارنا عن الحقيقة الكامنة وراءها، ولا عن العنوان الذي ينبغي أن ندرس الموضوع تحته، فالوضع في حقيقته أن (الجاهلية) هي التي وقفت هذا الموقف من رسول الله ﷺ، والذين آمنوا به، وما كانت قريش إلا عنوان هذه الجاهلية ورياستها وواجهتها، وإلا فإن ثقيفاً وهوازن وغيرهما من القبائل وقفت نفس الموقف ولذات الأسباب، فقصر الحديث ـ أو تركيزه ـ على قريش يغيّب عن الدارس هذا المعنى الرئيسي، وهو أنه في الحقيقة موقف الجاهلية من قضية لا إله إلا الله، وليس موقف قريش من محمد ﷺ، إن قصر الحديث على قريش ـ أيضاً ـ يعطي الدارس إيحاءً خاطئاً بأنها معركة محلية أو شخصية بين قريش ومحمد ﷺ، والأمر في حقيقته أبعد ما يكون عن ذلك، فمحمد ﷺ واحد منهم ومن أعزهم عليهم ـ قبل البعثة ـ ومن أكثرهم احتراماً بينهم، حتى لقبوه بالأمين، ورجعوا إليه في حل معضلاتهم أكثر من مرة، وحين اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود؛ واتفقوا على أن يُحكِّموا في الأمر أول داخل عليهم، فكان ﷺ أول داخل تهللت وجوههم واستبشرت قلوبهم أن الأمر وقع في يد الشخص الذي يرتاحون جميعاً إليه ويسلمون بحكمه، وإنما قام العداء المفاجئ بصورته الحادة حين دعاهم للا إله إلا الله، فالقضية إذن ـ كما حددها كتاب الله ـ هي قضية لا إله إلا الله، وليست قضية محمد بن عبدالله ﷺ قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].[1]

(١). محمد قطب: كيف كتب التاريخ الإسلامي (الرياض، دار الوطن، ١٤١٢هـ) ص ٥٩.

ثالثاً: مدرسة التفسير الديني للتاريخ:

وهذا المدرسة قديمة قدم البشرية، وتعني الاعتقاد بوجود قوى ثابتة مستقرة وراء التغييرات التي تحدث في المجتمع، وهي إرادة الآلهة في عصور ما قبل الأديان السماوية، ثم قوة الله الواحد بعد التوحيد ونزول الأديان السماوية، وهذه القوة تفرض سلطانها على شئون البشر، وإرادتها كاسحة، وسلطتها المشروعة تخلق قانونا معينا يحرك شئون البشر في كل مجال.(١)

ولا يأخذ هذا التفسير بالمصادفة، لأن المصادفة تعني الفوضى والعبث، والإيمان بالعناية الإلهية في التاريخ يقتضي إيمانا بالله، ومن ثم فإن المفهوم الديني في التاريخ ليس نظرية، ولكنه مستوى من الإيمان والاعتقاد في وجود تدخل محكم من الإله الحكيم، ليخطط للإنسان العاجز عن فعل الخير لنفسه (المقدر والمكتوب)، ولولا هذا التدخل الإلهي، لأصبح التاريخ كومة مضطربة من عصور متراكمة في عبث أو مأساة رهيبة دون بداية معقولة أو نهاية مقبولة.(٢)

ويسيطر هذا التفسير على القصص التاريخي في الكتب السماوية، وهذا النوع من ـ التفسير ـ شائع بين الباحثين اليهود، وهم يتخذون التوراة مصدرا أساسيا للتاريخ رغم ما اعتراها من تشويه وتبديل، والباحثون اليهود يرون أن البشر وقعوا في الآثام والشرور وأن الخطيئة شملتهم، ولم ينج من هذا إلا الشعب المختار، والإنسان في التوراة مسير، أو بمعنى أدق مسيرة التاريخ لا مناص منها، ولا فكاك عنها، وأن التوراة هي المصدر الأساسي للأحداث التي روتها.

والحقيقة أن نص التوراة ظل حتى هذه الأيام موضوع مراجعة وتغيير، بل إن النص التوراتي ليس له ترجمة متفق عليها، ولا زال التغيير والمراجعة دأبه ودأب المغيرين والمراجعين حتى هذه الأيام، ومن الضروري في هذه الحالة من حيث دقة المنهج التاريخي أن نرجع لمراجع يهودية ونصرانية، حيث يخرج القارئ بنتيجة مؤداها أن حركة التاريخ الحقة ليست سوى خطة إلهية لخلاص العالم، مقررة سلفا في خطوطها العامة على الأقل منذ بدء الخليقة وحتى يوم الحساب، ومهمة المؤرخ هنا عبارة عن تتبع خطوات تنفيذ هذه الخطة(٣)، ويلاحظ أن التاريخ الذي كتب على أساس ديني سواء في العصور القديمة والوسطى، اتخذ له صفات خاصة، فهو مثلاً يكون

---

(١). جوردون شايلد: التاريخ (القاهرة، الدار المصرية للكتب، د.ت) ترجمة: عدلي برسوم عبد الملك، ص ٦٦.

(٢). أحمد صبحي: في فلسفة التاريخ، ص ١٦٦.

(٣). جوردون شايلد: المرجع السابق، ص ٦٩.

تاريخاً عاماً، أو تاريخاً للعالم يرجع إلى أصل الإنسان منذ بدء الخلقة ويعرض للكيفية التي نشأت بها الأجناس البشرية، وهو أيضا لا ينسب الأحداث لحكمة البشر، ولكن لأعمال القدر، وهو من ناحية ثالثة يدور حول محور رئيسي مثل ظهور الأنبياء، فيصبح التاريخ دائرا كله حول ظهور الأنبياء، وهو أيضا من ناحية رابعة يجعل المؤرخ يعتمد على المصادر التقليدية، فلم يكن أمام المؤرخ إلا تصديق ما تمهد به هذه المصادر حيث يعتمد عليها دون مناقشة عميقة.

والقرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة، كتب وقت نزوله وفي عهد الرسول ﷺ الذي أنزل عليه، وبعد وقعة اليمامة ندب أبو بكر رضي الله عنه بناء على اقتراح عمر زيد بن ثابت رضي الله عنهما لجمع القرآن، إذ كان أحد كتاب الوحي ومن أوثق الحفاظ وبقيت هذه الصحف مرتبة تحت رعاية أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من بعده ثم أودعت بيت أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها بعد موت أبيها ولما اتسعت ديار الإسلام وتفاوتت قراءة القرآن وفقا لاختلاف الألسنة جمع عثمان رضي الله عنه الصحابة واستشارهم في تجميع القرآن في مصحف واحد، تنسخ منه نسخ ترسل للأمصار فأقروه على ذلك واستنسخوه من النسخة الموجودة عند حفصة نسخاً وبعثوا لكل قطر نسخة عرفت باسمه، والواقع أن الإسلام لم ينكر دور الإنسان في مسار الأحداث، ومن هنا فإن المتصفح لمصادر التاريخ الإسلامي، يجد المؤرخين لم يجهدوا أنفسهم في البحث عن تفسير ديني، فهم يفسرون سقوط الدول بفساد الإنسان ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، وهكذا دعا الإسلام المؤرخين إلى البحث عن الأسباب المرئية والواضحة للحوادث دون تلمس هذه الأسباب لدى قوى خفية أو معجزة باهرة.

وكانت حياة المصطفى ﷺ واضحة جلية لا خوارق فيها ولا خرافات، فهو عليه السلام كان حريصاً على تأكيد بشريته حتى لا يعبده الناس كما عبدوا عيسى ابن مريم عليه السلام وهو يمرض ويصح، ويرضى ويغضب وهو "ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة" بل لقد هزم عندما لم يتبع المحاربون معه أسس الاستراتيجية، وانتصر بإيمانه وإيمان المحاربين معه.

رابعاً: مدرسة التفسير المادي للتاريخ:

تنسب هذه المدرسة إلى كارل ماركس[(١)]، ويعرف بالماركسية أحيانا، والماركسية جانبان: الأول ويتصل بالاشتراكية العلمية، والثاني يتصل بتفسير تطور التاريخ على أسس اقتصادية، وهذا الجانب هو الذي يهمنا في البحث التاريخي، أما الجانب الأول فهو أكثر أهمية في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع.

وفي التفسير الاقتصادي للتاريخ بدوره جانبان: الأول يتصل بالمنهج والثاني يتصل بالمذهب، أما المنهج فهو الديالكتيك الهيجلي[(٢)]، وأما المذهب فهو المادية، وإن اختلفت في مفهومها عن سائر المذاهب المادية في الفلسفة، ومع أن هيجل هو مبدع الديالكتيك، ولكن على رأسه، فجاء ماركس وأقامه منتصباً على قدميه! وبمعنى آخر خلع ماركس وانجلز الغلاف المثالي لمذهب هيجل وطرحاه وانتقداه واعتبرا جدل هيجل واقفا على رأسه بدلاً من قدميه، ومن ثم انتزعا الديالكتيك الهيجلي وألبساه ثوبا آخراً مادياً ثم طبقاه على الظواهر الإنسانية والطبيعية معاً.[(٣)]

فهذا هو الأساس الذي أقامت الماركسية عليه فلسفتها المادية التاريخية، فلا تعدو أكثر من محاولة لتطبيق دعوى الجدلية المادية وتصور سير المكونات كلها بموجبها، على قصة المجتمع الإنساني وتطوراته فوق هذه الأرض، ولعلها هي الغاية التي أقيمت من الفلسفة المادية التاريخية، أن يصبغوا بذلك التفسير سائر المجتمعات الإنسانية، بدءاً من فجر ظهورها إلى مالا نهاية له، بحيث يتاح لهم أن يفرضوا نظريتهم الاجتماعية والاقتصادية التي أفاض في بيانها ماركس في كتابه (رأس المال)، وأن يوهموا الناس أن خضوعها لتلك النظرية أمر حتمي لا مفر منه، بناء على ما استقر لديهم من خضوع المجتمعات الإنسانية لنظام الجدلية المطبقة على دنيا المادة

---

(١). ألماني من أصل يهودي، تأثر بآراء هيجل، شارك في الحركات الثورية بأوروبا، تعرف على فردريك إنجلز وكان يتفق معه في الروح الثورية، وفي الدعوة للاشتراكية، توفي في إنجلترا عام ١٨٨٣م، وكتب عدة مؤلفات. انظر: حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون (الطبعة الأولى، القاهرة، دار الرشاد، ٢٠٠١م) ص ١٢٣.

(٢). أخذت كلمة "الديالكتيك" من الكلمة اليونانية (دياليجو) وتعني الجدل وفن الوصول إلى الحقيقة، ولكن هيجل أعطاها بُعداً فلسفياً جديداً باكتشاف المتناقضات؛ وزعم أن هذه الطريقة هي نفسها طريقة التاريخ في سيره. انظر: محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، ص ٢٦٩.

(٣). عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ (القاهرة، مكتبة القدسي، ١٩٨٦م) ص ١٤٤.

والطبيعة، وهو خضوع من شأنه أن يسيرها طبقاً للنظرية الماركسية ولا سيما في شؤون المال والاقتصاد.(١)

أما طبيعةُ ارتباط هذه النظرة بمعرفتنا التاريخية، فتتمثَّل في أنها تحاول إخضاع تاريخنا لهذا المنطق وفرض تلك المراحل الحتمية على هذا التاريخ، كما شاهدناه في بعض الدراسات التي حاول فيها بعض الباحثين الذين يتبنون هذه النظرة، أن يفسر التطورات الحياتية التي حدثت قبل الإسلام وبعده بالتفسير الذي ينسجم وهذه النظرية، فلنقارن بين هذه الدوامة المادية الجدلية الماركسية الاشتراكية المزعومة التي لا أصل لها سوى خرافات ماركس وأشياعه، وبين درس الهجرة التي هي بلا شك تمحيص للقلوب وجهاد للنفوس، إن هجرة الوطن ليست سهلة فكيف إذا كان الوطن مكة البلد الحرام وفيها أول بيت وضع للناس..؟!

دخل المهاجرون إلى المدينة المنورة بلا مال فقد خلفوا بيوتهم وأموالهم وأهليهم في مكة المكرمة، فأين ينزلون وماذا يعملون؟ فبادر رسول الله ﷺ إلى علاج الموقف الرهيب بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إلى درجة أنهم يتوارثون بهذه المؤاخاة، وكانت مقدمة على القرابة إلى أن أنزل الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب:٦].

لقد كانت خطة النبي ﷺ فعالة في دمج عناصر هذا المجتمع الجديد في أُخوة في الله تنصهر فيها كل الفوارق في النسب والغنى والفقر، لقد أصبحوا جسداً واحدا إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.. وإنه لأمر جليل أن نرى قدرة النبي ﷺ ـ بل قدرة الله ـ على علاج مشاكل الواقع بأسلوب واقعي ومثالي، إذ لم نسمع من قبل عن أن أُناساً قبلوا أن يقاسموا غيرهم أموالهم، لقد رأينا الاشتراكيين يطمحون إلى شيء من ذلك، لكنهم أرغموا الناس عليه إرغاماً فسقطوا وتناثرت بلدانهم إلى قطع ثائرة تسعى للاستقلال عنهم، والجميل أن هذه الأخوة لم يستغلها فريق على حساب فريق آخر، بل طبقها كل فريق بالتضحية والإخلاص،

---

(١). محمد سعيد البوطي: المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة (الطبعة الثانية، دمشق، دار الفكر، ١٤٣٠هـ) ص ١٩٢.

فانظر إلى عبد الرحمن بن عوف ﷺ ـ وهو معدم ـ يواجه كرم الأنصاري سعد بن الربيع ﷺ بالتعفف وعزة النفس شاكراً له مواساته وسائلاً عن السوق، وانظر إلى باقي المهاجرين يعبرون عن امتناعهم وخجلهم من إيثار الأنصار لهم وقد خافوا من ضياع أجورهم أمام عظمة الأنصار في إيثارهم.(١)

كانت نفوس الأنصار صافية خالصة في حبها وطاعتها للرسول.. حتى وصفهم الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[الحشر:٩]، فلقد كان عطاؤهم عن محبة وتقدير لما لقي إخوانهم المهاجرون من عنت ومشقة وحرمان في إيمانهم وهجرتهم، فكانوا مقتنعين بما يُعطى المهاجرون من عطايا.

كان المسلمون ـ خاصة المهاجرين ـ يدركون قيمة العمل في دينهم وأن اليد العُليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى.. ولهذا لم يركنوا إلى مساعدة الأنصار لهم، وسعوا إلى عمل ما يقدرون عليه، ورفضوا أن يكونوا عالة، ونرى النشاط والفعالية متمثلاً في أحدهم ـ عبد الرحمن بن عوف ﷺ، إذ لم تمض أيام حتى أصبح ميسوراً وتزوج ودفع مهراً من الذهب وأولم بشاة.. لقد مارس العمل الذي يتقنه، وأهل مكة ماهرون في التجارة.

أترى لو ترك أمر الجزيرة العربية، إلى المنهاج الذي ينص عليه الماديون التاريخيون، لكان من الواجب ألاّ يحدث فيها أي تغيير، إلى أن يتفاقم الإقطاع، حيث ينهض عندئذ البرجوازيون مع حلفائهم البروليتاريين للقضاء على الإقطاع وإصلاح الأمور، ولكن الذي حدث غير هذا، فقد صلح الأمر كله عن طريق بعثة سيدنا محمد ﷺ رسولاً إلى العالم أجمع، وقد علم كل من درس سيرة النبي الكريم ﷺ وملابسات بعثته وعوامل الفتح الإسلامي الذي حققه الله على يديه، أن ما تم من القضاء على الإقطاع حينئذ في بلاد كالفرس ونحوها، إنما حقق بفضل الإسلام

---

(١). عن أنس ﷺ قال: قال المهاجرون: "يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: "لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم" رواه البخاري.

وحده، ولم نجد في شيء مما قرأناه من كتب التاريخ ومراجعه المختلفة أن المسلمين الذين جاؤوا ففتحوا بلاد الفرس كانوا يمثلون تحالف البرجوازية مع البروليتاريا، بل الذي قرأناه في بطون التاريخ يتناقض مع هذا الكلام إلى درجة أنه يثير الضحك والاشمئزاز معاً.

أفكان عمر بن الخطاب ﷺ الذي رعى هذا الفتح في بلاد العراق، ورعى مثله في بلاد الشام، برجوازياً أم بروليتارياً؟! إن الجواب الحاسم على هذا السؤال يتجلى عندما قدم عمر ﷺ الشام بعد الفتح واستقبله على مشارفها أبو عبيدة بن الجراح ﷺ، فرآه كما هو قادماً بمرقعته البالية لم يغير من مظهره شيئاً، فهمس في أذنه: يا أمير المؤمنين أباطرة الشام يستقبلونك الآن، فلو غيرت من هذه الهيئة أمامهم، فقال له: "أوّه، لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، إذن لجعلته نكالاً للمسلمين، نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله".[١]

أما الذين لا يحبون أن يصدقوا بنبوة محمد ﷺ أحرار فيما يحبون أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا به، ولكنهم لا يستطيعون أن يثبتوا لنا بحال، أن محمداً ﷺ وخلفائه الراشدين ﷺ من بعده إنما حققوا ما قد حققوه مستعينين بتحالف البرجوازيين مع الطبقة الكادحة، وأنه دفعوهم إلى الثورة على الإقطاع بعامل التسابق الاقتصادي والعلاقات الإنتاجية!! ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المسلمين الأولين بلغوا بقيادة الرسول الكريم ﷺ والخلفاء الراشدين ذرىً سامية من الأخلاق لم يصل إليها العالم الإسلامي من بعدهم أبداً، كان المسلمون الأولون دائماً اتقياء ملتزمين بدينهم في أعمالهم، لا تفارقهم خشية الله ولا الإخلاص لدينهم، كانوا دائماً متمسكين بالمبادئ السامية التي علمهم إياه محمد ﷺ لا يتخلون عنها في السلم والحرب.[٢]

(١). محمد سعيد البوطي: المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة، ص ٢١٥.

(٢). عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، ص ١٢١ - ١٢٢.

خامساً: مدرسة التفسير الطبيعي للتاريخ:

ويقصد بهذه المدرسة اعتبار العوامل الجغرافية هي التي تؤثر في نشاط الإنسان وتاريخه، وفقاً لقوانين محددة مماثلة للقوانين في العلوم الطبيعية، فخرج توماس باكل الانجليزي بفكرة أن اختلاف المناخ بين كل انجلترا واليونان وفلسطين ومصر والهند والصين، يفسر الاختلافات الواضحة في حركة التاريخ الخاصة بكل هذه الشعوب وبعبارة أخرى يقول أن التاريخ في خطوطه العامة على الأقل هو نتاج الظروف الجغرافية السائدة في مسرح حوادثه، وقد شرع في وضع خمسة عشر مجلدا لإثبات هذه الفرضية لكنه مات دون إتمام المشروع.(١)

والحق أنه لا يمكن إنكار التأثيرات العميقة للبيئة الجغرافية على المجتمعات الإنسانية، وهذا هو دور الجغرافي التاريخي في كشف الستار عن هذه التأثيرات، ومهما كانت وجيهة ومغرية إلا أنه يجب أن نضع في الاعتبار أن التاريخ تطور وتغير، بينما الجغرافية سكون وثبات، وبالتالي فيصعب رد التغير لأصول ثابتة، والطبيعة هي الطبيعة في أي بلد من البلدان، ولكن البلد يتغير من نظام اجتماعي سياسي إلى نظام آخر طبقا لعوامل أخرى لا بد أن تكون غير بيئية.(٢)

ولقد تبلورت هذه الفكرة فيما بعد لكي تشمل مفهوما أكبر يقول بالتفسير البيئي والمادي الميتافيزيقي، الذي يقول بأن التاريخ الاجتماعي للإنسان هو نتاج بيئته، فالمناخ الحار ينتج البشرة السوداء، وحيث يوجد الفحم لا بد من قيام الصناعة، وفي المناطق الباردة يكون الإنسان صياداً بالضرورة، أما على ضفاف الأنهار وبجانب البحار فيكون الإنسان إما بحاراً وإما صياداً للسمك، والمناطق الخصبة تكون قادرة على إعالة الزيادة السكانية، أما المناطق الفيضية المنتظمة فتضمن إيجاد الزراعة المستقرة(٣)، ومع كل هذا فإن التفسير الجغرافي للأحداث رغم قوته، له نقاط ضعف قاتلة وأخطاء رهيبة، فهو يتجاهل الدور الفعال والخلاق للإنسان؛ ويصوره مصوغاً صياغة سلبية من جانب البيئة، ومن الواضح أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً، فالجهد الإنساني والعلم كثيراً ما ينتصران في كثير من الأحيان على العوامل الجغرافية، ومن الأخطاء الطريفة التي يقع فيها التفسير الجغرافي مثل ذكره روم لاندو فهو يفسر بعض

---

(١). عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، ص ١٢٦.

(٢). ج، بليخانوف: تطور النظرة الواحدية في التاريخ، ص٢٠.

(٣). نفس المرجع ، ص ٢٩.

المعتقدات العربية قبل الإسلام تفسيراً جغرافياً طريفاً؛ إذ هو يربط بين تصور العربي للجن أو العفاريت وبين طبيعة المنطقة الصحراوية ومناخها الحار، ويقارن هذا التصور بتصور سكان أوروبا الشمالية حيث البرد والثلج، فيقول: "إن تاريخ العرب القديم مزيج من الحقيقة والخيال، وذلك قدر مقدور يشمل التواريخ القديمة للشعوب جميعاً، والواقع أن الخرافات السكندينافية القديمة تتكشف عن شبه رائع بخرافات العرب الأقدمين، ولقد ساعد المناخ على دفع هذه الخرافات في الاتجاه الذي اتخذته، فبينما أدى "المؤثر الدافئ" في احتكاكه بالثلج والجليد إلى خلق عمالقة الصقيع السويدية خلقت الجن عند العرب من نار خالصة لا يشوبها دخان".[(١)]

وهكذا نجد أن أية خطة تسعى إلى جعل الصياغة المادية عاملاً حاسماً في الحضارة تخفق؟! إن البيئة كبيئة تعتمد في كل مواصفاتها على الذات، أي الإنسان وبالدرجة الأولى على التنظيم الاجتماعي لهذا الإنسان، إنها تصبح بيئة قابلة للاستغلال فقط في الأماكن التي تكون فيها الوسائل الفنية والتنظيم الاجتماعي على مستوى يجعل مثل ذلك الاستغلال ممكناً[(٢)]، وبهذا ينهار تفسير التاريخ عن طريق البيئة، وهذا لا يعني إن البيئة لا تلعب أي دور في تحديد التاريخ، بل العكس ففي كل مرحلة تكون البيئة حاسمة، وهذه البيئة نفسها تتحول من آن لآخر وهنا يجب البحث عن سبب تحولها في المجتمع.[(٣)]

ولفهم سيرة الرسول ﷺ وتاريخ الإسلام ـ من منطلق هذا التفسير ـ لا بد لنا من التحدث عن البيئة التي تلقت الدعوة (مكة المكرمة)، وإلا كان بحثنا ناقصاً بل وعاجزاً عن الرد، وصف القرآن الكريم موقع مكة المكرمة:﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧]، وموقعها هذا لا يستهوي الأفئدة إليه، فسفوح الجبال المطلة عليها عابسة لا ماء فيها ولا شجر، وكل ما فيها يدل على شدة وشظف وقسوة العيش، وساهمت هذه الطبيعة على تحديد نشاط أهلها، كما ساعد موقعها في منتصف الطريق التجاري الغربي ما بين الشام واليمن على ارتباط أهلها بالنشاط التجاري خاصة في تلك الحقبة التاريخية، فأصبح وادي مكة عقدة مركزية تلتقي فيه الطرق

(١). عبد الرحمن الشيخ: المدخل إلى علم التاريخ، ص ١٣٩.

(٢). عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، ص ١٢٨.

(٣). كريستوفر كودويل: الناس والطبيعة: دراسة في التاريخ البرجوازي (بيروت، دار الفارابي، ١٩٧٩م) ترجمة: فاضل لقمان، ص ٢٩.

التجارية كما تتوجه إليه القبائل العربية للحج وهكذا منذ أقدم العصور أصبح الحج والتجارة قوام حياة أهل مكة الذين حرمتهم الطبيعة من الماء والزرع[١].

لم يتوقف تأثير الموقع وطبيعته عند حدود النشاط الاقتصادي، إنما امتد إلى السكان، فقد أثر المناخ الحار والجاف مع قلة الأمطار وندرة الموارد المائية، وعدم وجود زراعة ـ إذ ليس بجميع مكة شجر مثمر ـ على عدم نشوء مجتمع كبير وكثيف في مكة، وهكذا يتوجب على مكة من الناحية الجغرافية والعوامل الطبيعية أن تكون قليلة السكان إذ أن أرضها لا تفي باحتياج سكانها[٢]، ولكن بعد أن وليت قريش أمر مكة ومن خلال مهارتها وحسن استغلالها ـ لموقع مكة الديني والتجاري ـ نجد أن مكة قد أُقيمت حولها عدة أسواق خلال موسم الحج، ولم يجلب الناس إليها إلا نشاط أهلها ـ قصي وعبد المطلب من بعده ـ في خدمة الكعبة المشرفة والبيت الحرام، وخدمة من يقصد هذا البيت الذي ضم عدداً كبيراً من الأصنام حتى صار البيت متحفاً أو مخزناً تكدست فيه أوثان وأصنام معبودة اختص كل واحد منها أو مجموع بقبيلة؛ إذ جاء أفرادها إلى مكة وتوجهوا إليها لتحيتها ولمناجاتها ولاكتساب عطفها ورحمتها، ولتكون لها شفعاء عند الله[٣].

وقد أثارت كثرة هذه التماثيل ـ في مكة ـ وتهالك الناس في التقرب إليها، إلى ظهور عدد من الذين أُطلق عليهم الأحناف (الحنفاء)[٤]، وقد اكتفوا ـ على ما يظهر من روايات أهل الأخبار ـــ بالابتعاد عن الاجتماعات وبالنفرة من تقديس الأوثان، فلم يتقربوا إليها، ورضوا بعقيدتهم هذه وباقتناعهم بفساد معتقدات قومهم، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الجهر بآرائهم والمناداة بها علناً في المحلات العامة، ظلوا على ذلك إلى مماتهم، ولهذا لم تكن لهم علاقة سيئة مع قومهم ولم يصطدموا معهم، بل على العكس نُظر إليهم نظرة تقدير واحترام، وكانوا يأتونهم للاستفسار عن كثير من المعضلات، لما لهم من اطلاع ووقوف على الكتب والأخبار،

---

(١). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام (الطبعة الثانية، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٤م) ص ٦٣.

(٢). خضير الجميلي: قبيلة قريش وأثرها في الحياة العربية قبل الإسلام (بغداد، المجمع العلمي، ١٤٢٢هـ) ص ١٤.

(٣). جواد علي: المرجع السابق، ص ٦٣.

(٤). اعتقدوا بوجود إله واحد هو الذي يستحق العبادة، وقد وصفوا بأنهم كانوا على دين إبراهيم عليه السلام وقد سفهوا عبادة الأصنام وسفهوا رأي القائلين بها، أي أنهم كانوا ينادون بالتوحيد الديني. انظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (الطبعة الثانية، جامعة بغداد، ١٤١٣هـ) جـ٦، ص ٤٤٩.

ولا يستبعد اشتغالهم بأمور أخرى، مثل: الفلسفة والطب والمنطق وما شابه ذلك من أمور برع بها رجال الدين في ذلك العهد.

وقد اعتكف الرسول ﷺ كما اعتكف هؤلاء الأحناف ونفر من تقديس قومه للأوثان والصور والأصنام، ولكنه لم يكتف كما اكتفوا بالاقتناع بصحة رأيه وفساد رأي قومه وكفى؟! ولو اكتفى بذلك لكان واحداً منهم لا يمتاز عنهم بشيء، بل عاب قومه على فساد عقيدتهم، وندد بعبادتهم حجارة لا تعي ولا تسمع ولا تملك نفعاً ولا تدفع ضُراً، ومن هنا وقع الاصطدام، وثار القوم على الرسول ﷺ قاصدين قتله أو اسكاته.

فالرسول ﷺ كان صاحب دين ورسالة، مُكلفاً وحياً بوجوب الدعوة إلى الله وابلاغ رسالته العالمين، أما هم فكانوا أصحاب فكر ودين لهم وحدهم، ولمن أراد الدخول في بيئتهم على الرحب والسعة، وفي ذلك الطمأنينة على الحياة والأمن والسلامة، فكان ما عندهم في حدود الأصدقاء والأتباع إن كان لهم أتباع وأشياع، ولم يكن في طبع محمد ﷺ وسجيته ميل إلى لهو وعبث، فلم يقع له ما يقع فيه لداته من ارتياد مجالس الأُنس والطرب، ولم يكن يميل إلى مخالطة الناس كثيراً، ولا الاجتماع بأقرانه طويلاً؛ لشغفه بالوحدة وجنوحه إلى الخلوة، حتى أعياد قومه لم يكن يرغب في حضورها وشهودها، لقد كان الرسول ﷺ يشعر قبل نبوته أن عليه رسالة وواجباً تجاه قومه، وأن له رأياً يختلف عن رأي قومه، وكان كلما تقدم في السن ازداد شعوره بذلك، وازداد يقيناً برسالته هذه ووجوب هداية قومه وإرشادهم، وهذا الشعور هو الذي حمله على التحنث والانزواء عن الناس والابتعاد عن عبادة الأصنام وعدم مشاركة قومه احتفالاتهم بأعيادهم، لما لها من علاقة بالوثنية والأوثان.[1]

---

(١). ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (المدينة المنورة، مكتبة دار التراث، د.ت) تحقيق: محمد العيد الخطراوي وآخر، ص ١١٥ ـ ١٢٠.

سادساً: مدرسة التفسير الحضاري للتاريخ:

تنسب هذه المدرسة إلى نظرية التحدي والاستجابة لأرنولد توينبي(١)، ومن أهم نظريات فلسفة التاريخ الحديثة، وهو يخالف نهج المؤرخين الذين يعتبرون الأمم المستقلة، أو الدول القومية مجالات للدراسة التاريخية، ويرى أن المجتمعات الأكثر اتساعا في الزمان والمكان من الدول القومية، أو أي جماعات سياسية أخرى، هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية، أي أن المجتمعات لا الدول هي (الوحدات الاجتماعية) التي يجب أن يعنى بها دارسو التاريخ، وذلك هو السبب الذي دعاه لأن يتأمل التاريخ الحضاري المعروف، ويدرس ما انطوى عليه من المجتمعات دراسة مقارنة، فيقرر وجود عدد محدد من الوحدات الاجتماعية التي تميزها خصائص معينة، وتصلح وحدها للدراسة التاريخية، وهو يفرق بين المجتمعات البدائية والحضارية، ويرى أن كلا منها يصلح لأن يكون ميدانا للدراسة.(٢)

وخلاصة هذه التجربة من حيث استخدامها في تفسير التاريخ؛ أن الباحث عندما يبحث في تاريخ مجتمع من المجتمعات أو حضارة من الحضارات، عليه أن يبحث في نقاط التحدي التي واجهت هذا المجتمع وكيفية الاستجابة لهذا التحدي، لأن العلاقة بين التحدي والاستجابة تفسر تطور المجتمع من حالة إلى أخرى، وأول ما ينبغي الوقوف عنده هو التحديات التي كانت تنتظر النبي محمد ﷺ قبيل تكليفه بالدعوة، وما يملكه من استجابات يدخل بها ميدان التغيير الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي ... الخ.

ـ التحدي في النسب:

فكان النبي محمد ﷺ من أشرف قومه ومن أوسطهم نسباً وقد كانت العرب تقيم للنسب وزناً كبيراً، يقول الرسول ﷺ: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم واصطفاني من بني هاشم"(٣)، حتى كان محمد ﷺ هو

---

(١). مستشرق ومؤرخ انجليزي، انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها على الإطلاق مؤلفه الشهير: (دراسة للتاريخ) مزج استنتاجاته الفكرية بكثير من القيم والرؤى الروحية، مع العلم بأن له أخطاء فيما كتب عن الإسلام والرسول ﷺ. انظر: جاسم سلطان: فلسفة التاريخ (الطبعة الأولى، المنصورة، مؤسسة أم القرى، ١٤٢٦هـ) ص ٥١.

(٢). عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ (الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٨م) ص ٧٠.

(١).صحيح الترمذي، حديث رقم: ٣٦٠٥، ومحمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة (الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة المعارف، د.ت) حديث رقم: ٣٠٢.

صفوة الصفوة من عباد الله خَلْقاً وخُلُقاً...

ـ التحدي النفسي:

فقد ولد النبي محمد ﷺ يتيم الأب، ولم يلبث أن أصبح رضيعاً في بني سعد، فنشأ في الصحراء ودرج فوق رمالها، يستنشق هواءً نقياً بعيداً عن ضوضاء المدن وأجوائها الآسنة، وعاد من الصحراء ليدرك معنى اليتم في الأب ثم الأم ثم الجد! فيسرع العم أبو طالب وريث أبيه في الشرف والسيادة، لكنه قليل المال كثير العيال، وما أسرع ما أحسَّ الفتى المرهف بضيق ذات يد عمِّه، فبادر إلى العمل والكسب مساعدة لعمَّه، وكان أول ما اشتغل به هو: رعي الغنم "وما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم"[1] تعليماً له كيف يرعى مصالح الناس، فلما شبَّ عمل مع عمِّه في التجارة، ورأى كيف يتعامل الناس بالدرهم والدينار، حيث تظهر معادنهم وأخلاقهم... وهكذا علَّمه ربُّه وأدبه، أربعين عاماً بين الناس قبل تكليفه بالرسالة.

ـ التحدي الديني:

كان سيدنا محمد ﷺ يرى قومه يعبدون الأصنام، لكنه لم يقلدهم، ولم يسع إلى صنم أو يعظمه حتى طفولته، لقد أبى عليه عقله أن يذعن لدين آبائه ويقدس ما لا يضر ولا ينفع، ثم شب واشتدَّ عوده وقد عُرف بين قومه بالحكمة ورجاحة العقل، حتى أنهم فرحوا بتحكيمه عندما اختلفوا في حمل الحجر الأسود في أثناء تجديدهم لبناء الكعبة، ومحمد ﷺ رغم رفضه لأصنام قومه فإنه لم يهاجم أو ينتقد أحداً على عبادتها، ولم تتح له فرصة للاطلاع على الأديان الأخرى التي كان يدين بها الناس؛ لأنه كان أُمياً، ولقد صرفه الله عن ذلك حتى لا يُتهم بأنه اقتبس دينه من الملل والنحل الأخرى التي كانت سائدة قبيل البعثه.

لكن مسألة الدين الحق كانت شغله الشاغل خاصة عندما بلغ الأربعين، فقد أصبح ينطلق بعيداً عن الناس إلى غار حراء يتحنث ويتفكر في ملكوت السموات والأرض، وجاءه الجواب بنزول الوحي عليه وهو في سن الأربعين؛ وهو سنُّ نضج الشباب، بعيداً عن طيش الحداثة وعن سنِّ الهرم، لقد كان سناً مثالياً يتألق فيه الفكر وتنضج فيه الخبرات وتتوازن عنده الشخصية.

---

(٢). صحيح البخاري، حديث رقم: ٢٢٦٢، وصحيح مسلم، حديث رقم: ٢٩٣٧.

ـ التحدي الأخلاقي:

وفي هذا المجال كان نبينا محمد ﷺ قمة سامقة لا يدانيها في الطهر أحد، فقد عرف بالطهارة فلم يقارب فاحشة قط، ولم يشرب خمراً في حياته، ولم يعرف لهو الشباب، ولم يقارب ما كان يتهافت عليه شباب مكة من مجالس اللهو والغناء، مستقيماً عفيفاً سليم الطوية لم يدنسه مكر أو غدر، حتى لقب في قومه بالصادق الأمين(١)، استأمنه قومه على تجارتهم، ثم استودعوه كل ما يخشون ضياعه من نفيس أموالهم، واستمروا في وضع الودائع عنده حتى بعد أن أعلن رسالته وناصبوه العداء، وبقي هذا شأنهم إلى يوم هجرته ﷺ.

وهكذا أُعدَّ النبي محمد ﷺ وكان هو المصطفى لإحداث تغيير فكري ديني في ذلك العصر استطاع أن يخرج من شتات العرب أمة تحمل رسالة العلم والهداية والتحرير للعالم أجمع، فمالك بالتحديات والإغراءات والمحاولات التي لاقها بعد بعثته ولم تزعزع في كيانه قيد أُنملة وزاد قوة وصلابة وإصراراً على تأدية الأمانة وتبليغ الرسالة والجهاد فيهما حتى أتاه اليقين.

ـ التحدي الاجتماعي:

لقد كان قانون الحماية في أرض العرب نصرة العشيرة والقبيلة(٢)، وهو أمر أكدته الأشعار والأمثال العربية: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) حتى عدَّله الرسول ﷺ بأن نصرة الظالم: منعه من الظلم، وعلى هذه العصبية ضبطت حياة العرب قبل الإسلام، وحصل الفرد على الضمان الأمني أما من كان غريباً أو لم تكن له عشيرة قوية فقد كان يلجأ إلى أحد السادة الأشراف ويدخل في جواره، فيقوم السيد بإشهاد الناس على ذلك ويحصل الغريب أو الضعيف على الأمن، وأما محمد ﷺ فقد كان من عشيرة عزيزة لا يجرؤ العرب على الاعتداء عليها من بني هاشم، ومنهم عبد المطلب الذي كان يسقي الحجيج ويطعمهم، وورثه أبو طالب في ذلك وقد تولى حماية ابن أخيه محمد ﷺ، هو وسائر بني هاشم مسلمهم وكافرهم لم ينشق عنهم في ذلك إلا عمه أبي لهب، وكم حاولت قريش التفاوض مع أبي طالب كي يرفع حمايته عن محمد ﷺ، لكنه كان يرفض، ولقد كان هذا مما هيأه الله ﷻ لرسوله ﷺ، وهو أمر في غاية الأهمية يضمن ـ للرسول ﷺ ـ حرية التعبير والبيان والتبليغ.

---

(٢). وحديث شق صدره في طفولته وغسله وتطهيره فيه دلالة رمزية على تحصينه من الآثام إعداداً لتلقي الوحي.

(١). جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص ٢٩١ ـ ٣٠٢.

سابعاً: مدرسة التفسير القومي للتاريخ:

كان كل من أفلاطون وأرسطو يؤمنان بمبدأ تفوق اليونان الفطري على البرابرة من الفرس والمصريين والجرمان ... الخ، فيزعم أرسطو في نظريته عن (العبيد بالفطرة) أن هناك جماعات من الناس ولدت كي تصبح آلات خاضعة لمشيئة اليونان العباقرة، وفي التاريخ العبري إشارة إلى مكان اليهود كشعب الله المختار، وهذه المزاعم تعني انتقال الصفات الموروثة بطريقة آلية من أب إلى ابن عن طريق عملية التناسل الفسيولوجية، إلا أن انتقال هذه الصفات وراثيا موضع شك كبير من جانب العلم.(١)

وقد تلقى العالم الغربي الحديث فكرة التفوق العنصري مع تراثه التاريخي من منبعيه التاريخيين: اليونان والرومان، ثم اليهود، حيث استند الأولون إلى الطبيعة، بينما استند اليهود إلى (اختيار الله) لهم ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٣].

وفي القرن الخامس عشر استغل الأوروبيون هذا المفهوم حين أخذوا يتعاملون مع شعوب غريبة عنهم في أفريقيا وجزر الهند والعالم الجديد، وكان هدفهم من هذه الاستدلالات، القضاء على كل عاطفة شريفة ضد إبادة هنود أمريكا، واستعباد زنوج أفريقيا، وقد اتخذ هذا المفهوم طابعا من التعميم الفلسفي ووجهت الأبحاث التاريخية التي ظهرت في القرن الثامن عشر، فتعلق هيردر(٢) بفكرة الاستمرار التاريخي للصفات الوراثية، إذ قال: (سيظل الصينيون هم الصينيون)، وأمام انتصار مبادئ الحرية والإخاء والمساواة التي أعلنتها الثورة الفرنسية ١٧٨٩م، رأى أعداؤها محاربتها بالتمسك بالتمايز التاريخي والتفرد القومي وضرورة استمرار العادات السياسية والاجتماعية القائمة.

وقد ربط أصحاب المفهوم بين اللغة والجنس، واعتقدوا أن المجموعات اللغوية المختلفة (التي تكون القوميات) هي مجموعات جنسية بشرية مختلفة، أي أن اللغة عندهم تصبح مقياسا مناسبا مثل شكل الوجه وطول القامة ... الخ، ومن ناحية أخرى كان المؤرخون الانجليز قد

---

(١). عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، ص ١٣٤.

(٢). مفكر ألماني، من طليعة الألمان الذين أدركوا قيمة اللغة القومية، وأنها بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به وتحفظ فيه، وتنتقل بواسطته أفكار الشعب. انظر: وليم كليفلاند: ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة (الطبعة الأولى، بيروت، دار الوحدة، ١٩٨٣م) تعريب: فيكتور سحاب، ص ١٤٢.

استحسنوا هذا المفهوم وهللوا له وعلى رأسهم توماس كارلايل[١]، ومن ثم الاستعمار الانجليزي والألماني، كما تحمس الأمريكان في القرن العشرين لهذا المفهوم أيضا باعتباره (حجة علمية) تبرر الاضطهاد العنصري الواقع على الزنوج والأقليات.

ولقد استعار أصحاب هذا المفهوم مبدأ داروين عن (البقاء للأصلح)، ورتبوا عليه مبدأ آخر يقول أن الأمم أو الأجناس تقف على خط أفقي مع الأنواع وعلى ذلك فإن الحروب بين الأمم هي شق آخر لمبدأ (الصراع من أجل البقاء) وأن العنصر والغزو معان مرادفة لمعنى البقاء، وأصبحت الحرب في نظرهم عملية طبيعية لا بد منها، وبرروا الغزوات تبريراً علمياً عندما زعموا أن أعمال القتل والتدمير تمثل لب نظام الطبيعة وجوهره.[٢]

والحق أن هذا المفهوم العنصري يخلط بين الأمة والجنس، ويسوى بين الجنس (البشر) والنوع (الحيوان) وغير ذلك من المقابلات الزائفة، ثم أنه من ناحية أخرى يقوم على فهم منقرض لميكانيكية التطور، إذ أن الصراع من أجل البقاء الذي يؤدي في النهاية إلى بقاء الأصلح، ليس سوى تفسير مبتور وناقص للطريق التي يسير فيها التطور، ولم يقصد داروين من هذه العبارة أن ذلك هو الطريق الوحيد لعملية التطور، ومن الملاحظ أن علماء البيولوجيا حالياً يهتمون أكبر الاهتمام بالتوافق ونادرا ما يتحدثون عن الصراع، وكلما تقدم علم البيولوجيا، كلما هدم مزاعم هذا المفهوم العنصري، وتبدو المشكلة أن المؤرخين بسبب عزلتهم عن العلم الطبيعي لم يدركوا قصور هذا المفهوم إلا بعد مدة طويلة.[٣]

وقد أدرك أحد الباحثين الغربيين أثر القومية على المجتمع الإسلامي؛ وهو برنارد لويس[٤]؛ بقوله: "كل باحث في التاريخ الإسلامي يعرف قصة الإسلام الرائعة في محاربته الأوثان منذ بدء دعوة النبي، وكيف انتصر النبي وصحبه، وأقاموا عبادة الإله الواحد التي حلت محل الديانات

---

(١). مستشرق انجليزي منصف، ألف كتاب "الأبطال"، أفرد فصلاً فيه عن حياة النبي محمد ﷺ. انظر: توماس كارلايل: الأبطال (بيروت، دار الكاتب العربي، د.ت) ترجمة: محمد السباعي، مقدمة المترجم، ص ٥.

(٢). عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، ص ١٣٥.

(٣). جوردون شايلد: التاريخ، ص ٨٩ - ٩٨.

(٤). أكاديمي وسياسي أمريكي، يهودي، انتقل في منتصف السبعينات إلى أمريكا حيث أصبح بروفسوراً في جامعة برنستون، لا زال يُصدر كتبه ذات الانتشار والتأثير الكبير في صناعة القرار في الولايات المتحدة والغرب عامةً. انظر: خليل الصغير: برنارد لويس: بطريرك الاستشراق، مقال منشور على الرابط: http://www.bintjbeil.com

الوثنية لعرب الجاهلية، وفي أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى، لكنها ليست ضد (اللات) و(العزى) وبقية آلهة الجاهلية، بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها الدولة أو العنصرية أو القومية... فإدخال هرطقة القومية العلمانية أو عبادة الذات الجماعية كانت أفزع المظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط، ولكنها مع ذلك كانت أقل المظالم ذكراً وإعلاناً"[(١)]، ويقول أيضا: "فالليبرالية، والفاشية، والوطنية، والقومية، والشيوعية، والاشتراكية، كلها أوروبية الأصل مهما أقلمها وعدلها أتباعها في الشرق الأوسط، والمنظمات الإسلامية هي الوحيدة التي تتبع من تراب المنطقة، وتعبر عن مشاكل الكتل الجماهيرية المسحوقة"[(٢)]، لقد كانت القومية في أوروبا متباينة بين ألمانيا وفرنسا، وإيطاليا والاتحاد السوفيتي السابق، إلى حد استحالة الجمع بين عناصر القومية في تعريف واحد، ولقد قالت روزا لوكسمبورغ: "إن مصطلح (الدولة القومية) و(القومية) هما في حد ذاتهما قشرتان فارغتان تصب فيهما كل الحقب التاريخية، العلاقات الطبقية محتواها المادية الخاص".[(٣)]

وبما أن الفكر القومي بشكله الغربي هو الذي نقله إلينا القوميون العرب؛ كل منهم يطرحه وفق المدرسة القومية الغربية التي يتبعها، كان من الطبيعي أن يختلفوا حول تحديد مصطلح القومية، وكان من الطبيعي أيضا أن يفر بعض القوميين بعيداً عن تحديد المصطلح بادعاءات متعددة تؤكد الغموض بكل جوانبه، وهو يحيط هذا المصطلح في أفكارهم وضمائرهم، مثلما فعل ميشيل عفلق.

لا شك أنَّ قومية اليوم هي امتداد لعصبية الأمس، وأن العصبية القومية العربية الحاضرة ما هي إلا بقايا لعصبية الجاهلية الغابرة؛ حيث إن مظاهر هذه تكاد ألا تختلف عن سابقتها، ولا يزال كثير من الناس تدور بينهم المفاخرة بالآباء والأجداد، والتغني بمآثرهم وأمجادهم، وأصالة أنسابهم أو عظم أحسابهم، والتعالي بذلك على من يَعُدُّونهم أقلَّ منهم نسبًا وحسبًا، وريادة وسيادة، وإن مما يؤيد هذا الاعتقاد ما ورد من آيات وأحاديث تذمُّ الفخر والتفاخر: قال الله

---

(١). صالح العبود: فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، ص ٢٧٤

(٢). نفس المرجع، ص ٣٦٥

(٣). هوراس دافيز: القومية نحو نظرية علمية معاصرة (الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٠م) تعريب: سمير كرم، ص١٥.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النِّساء: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾[الحديد: ٢٠]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١١].

وقال ﷺ: "إِنَّ مِنَ الْخُيَلاَءِ مَا يُبْغِضُ اللهُ، وَمِنْهَا مَا يُحِبُّ اللهُ، فَأَمَّا الْخُيلاءُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ: فَاخْتِيَالُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ عِنْدَ الْقِتَالِ، وَاخْتِيَالُهُ عِنْدَ الصَّدَقَةِ، وَأَمَّا الَّتِي يُبْغِضُ اللهُ: فَاخْتِيَالُهُ فِي الْبَغْيِ وَالْفَخْرِ"[(١)]، وعلى هذا يمكن فهم قول النبي ﷺ في غزوة حنين: "أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِب، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِب"[(٢)] فهذا الفخر لم يكن على سبيل الاستعلاء المذموم، وإنما كان لإظهار القوة أمام العدو فلا بأس به، ومنه قول علي بن أبي طالب ﷺ: "أَنَا الذي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَة..."[(٣)] إلخ.

وإن من أعظم البغي تطاول عباد الله بعضهم على بعض، والنبي ﷺ يقول: "مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ تَعَالى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الآْخِرَةِ مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ"[(٤)]، ويقول ﷺ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ؛ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ".

فهذه الآيات والأحاديث تشمل نهيًا مؤكدًا عن هذه الأفعال الجاهلية؛ وهي التفاخر على

---

(١). أخرجه أحمد (٢٤١٤٨) وأبو داود (٢٦٥٩) والنسائي (٢٥٥٨) وابن حبان (٤٧٦٢) من حديث جابر بن عتيك الأنصاري ﷺ، وقد حسَّنه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٣١٦).

(٢). أخرجه البخاري (٢٨٦٤) ومسلم (١٧٧٦).

(٣). قالها يوم خيبر رادًّا على مَرْحَب اليَهُودِيّ. انظر: ابن حنبل: فضائل الصحابة جـ٢، ص ٦٤٣.

(٤). أخرجه أحمد (٢٠٦٦٩)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١)، من حديث أبي بكرة نُفَيْع بن الحارث ﷺ.

الناس، واحتقارهم، وتسميتهم بألقاب يكرهونها، وأنها من عادات الجاهلية الأولى المنافية للدين؛ لما تسببه من تحزبات وحزازات بين المسلمين؛ "لأن الإنسان ـ أي إنسان كان ـ يكره أن يوصم بالخسة أو النقص، وكل إنسان يرى نفسه خيراً من غيره، وكل قبيلة تظن أنها الأحسن والأفضل والأشرف، وقد أصبحت هذه الظاهرة منتشرة ومشهورة، مما يدعو إلى الأسف الشديد، وهي دعوى الجاهلية، التي نهى الرسول ﷺ عنها بشدة عندما تنازع الأوس والخزرج، وتفاخروا حتى كادوا أن يقتتلوا نتيجة لمكيدة دبرها شاس بن قيس اليهودي".

قال ابن إسحاق: "مر شاس بن قيس ـ وكان شيخًا قد عسا[١]، عظيم الكفر، شديد الضِّغْن[٢] على المسلمين، شديد الحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلْفتهم، وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. فأمر فتًى شابًّا من يهود كان معهم، فقال: اعْمِدْ إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث[٣] وما كان قبله، وأنشِدْهم بعض ماكانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل. فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا، وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيَّيْن على الرُّكَب، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعة، فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة: الحرَّة ـ السّلاحَ السّلاحَ. فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال: "يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اللهَ اللهَ، أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمُ اللهُ لِلإِسْلاَمِ، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟!"، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكَوْا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين"[٤]، ولقد جاء في الحديث قولُه ﷺ: "إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِمَسَبَّةٍ عَلَى

---

(١) عسا: أَسَنَّ.

(٢) الضِّغْن: الحقد.

(٣) بُعَاث: موضع بالمدينة، ويوم بُعَاث: يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج في الجاهلية، وكان الظفر فيه للأوس.

(١). أخرجه ابن هشام في "السيرة"، جـ٢، ص ١٣٦ ، والطبري في "التفسير" (٧٥٢٤).

أَحَدٍ، كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ، طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَؤُوهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلاَّ بِدِينٍ أَوْ تَقْوى، وَكَفى بِالرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ بَذِيًّا بَخِيلاً فَاحِشًا".(١)

هذا هو المنطق المقبول شرعًا وعقلاً، إذ كيف يَفْضُلُ المرء أخاه بأمر لا جهد له فيه ولا خيار، ولو أن النسب ينفع صاحبه دون العمل، لانتفع أبو لهب بنسبه، ولكن هيهات وقد قال الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد: ١]، وقال ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[المؤمنون: ١٠١]، وقال نبيّه ﷺ: "أَلاَ إِنَّ آلَ أَبِي (يَعْنِي فُلاَنًا) لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ"(٢)، وقال أيضًا: "وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ"(٤)،كما يؤكد هذا المعنى قوله ﷺ حين أنزل عليه:﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[الشُّعَرَاء: ٢١٤] "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ـ أو كلمةً نحوها ـ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ، سَلِينِي بِمَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا".(٣)

(٢). أخرجه أحمد (١٧٥٨٣)، والطبراني في "الكبير" (١٧/ رقم ٨١٤)، من حديث عقبة ابن عامر رضي الله عنه.

(٢). متفق عليه، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥)، واللفظ لمسلم.

(٤). متفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤).

المبحث الثاني:

تنوع الملل والنحل

وأثرهما في كتابة السيرة

النبوية

إنّ الأديان السماوية تتنزل على البشر بشكل واضح وشفاف لخيرها ونجاتها ورحمة للعالمين، لكنها بمرور الأيام تنقسم إلى فرق ومذاهب تصل إلى حدّ التضاد والانحراف أحياناً، فاليهودية والنصرانية والإسلام انقسمت مثلاً إلى العشرات من الطوائف، وفي كثير من حالاتها لم تحافظ على جوهر وروح الدين، بل تأسس لها دين آخر مختلف تماماً عما جاء به الدين الأصلي، ولعل السبب الرئيس في ذلك التأويل الخاطئ ـ بقصد أو بغير قصد ـ لما جاء به الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، أو لاستغلال بعض المنسبين للدين لبساطة الناس وشغفهم واحترامهم للدين وعلمائه.

وفي بعض الأحيان نرى أنّ الإنسان الصالح الناسك يعبد الواحد الأحد، وهو من أتباع إحدى الديانات السماوية ومخلص لها، لكنّه بعد مماته يُؤلّه ويُعبد مع أنّ ذاك العبد الصالح لم يقصد هذا الشيء، ولم ولن يرضي بتصرفات الجُهال من أتباعه، ولو كان حياً لتبرأ منهم جميعاً، فمن هنا ظهرت الدروشة والتصوف والانزواء والسلوكية والغلو والتشدّد والتطرف، وغيرها الكثير من الخرافات الأُخر والممارسات غير المنطقية خلاف الفطرة والدين، حيث تُنسب تلك الأعمال والممارسات زوراً وبهتاناً إلى أصحاب الرسالات السماوية السمحاء، وراح البعض يُجبر الناس على اتّباع أهوائهم الشخصية المنحرفة، والتي نسبوها إلى الله ﷻ وإلى الرسل عليهم السلام، وهم من ذلك براء، حتى إذا تطور الأمر ورأى أنّ الجمهور البسيط يتبعه يذهب إلى ادّعاءات أكبر، فيقول: أنا الله؟! أو أنا الرسول المبشّر والمنقذ والمخلّص؟! مدّعياً النبوّة أو معتبراً نفسه هو المفسّر والفاهم والناطق الأوحد باسم الله ﷻ.

ونتيجة لذلك فهم يتصورون أنّ هذه الادعاءات أمر سهل وبسيط، وليس من ورائهم التاريخ والمحاسبة العلمية النقدية، ناسين أو متناسين أنّ ادّعاء النبوة والدين الجديد ليس بذلك الأمر السهل اليسير، بل يجب على أصحاب تلك الدعاوى مواجهة الأسئلة الكثيرة من قبل الساعين إلى معرفة الحقيقة، والباحثين عنها، والإجابة عن العديد من التساؤلات، والتي منها: ما هو الجديد في دينكم؟ من هو نبيكم؟ وما هي رسالتكم؟ وما هي عقيدتكم وشريعتكم؟ وكيف تثبتون لنا ما تدّعون؟ ما هي معجزة رسولكم؟ .... الخ.

لقد أجمع المؤرخين أن العراق كان مهبط حضارة تعد من أقدم الحضارات في العالم، فالعراق بلد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، والعراق بلد العرب والمسلمين الفاتحين، والعراق بلد الفقهاء والعلماء والأُدباء، فالعراق ـ حالياً ـ شعب خليط من أعراب تمركزت فيهم روح البداوة فقسمتهم إلى قبائل وبطون وأفخاذ، فعرب شماله مذهبهم سني وعرب جنوبه مذهبهم شيعي، وربما وجدنا بعض القبائل تعتنق المذهبين في آن واحد، حيث يعتنق بعض فروعها مذهب السنة، بينما يعتنق الآخر مذهب الشيعة، وإلى جوار العرب هناك رهط كبير من الأكراد وهم عرق آخر له لغته وتراثه، وإلى جوار الأكراد يوجد التركمان وهم عرق تركي له لغته وتقاليده أيضاً، وفي العراق كانت أقلية يهودية (الإسرائيلية الموسوية)، إلى جانب أقليات نصرانية تعيش في المناطق الجبلية الوعرة في الشمال لا تدعي أن لها نسباً عربياً، بل نسباً يعود إلى الدولة الآشورية، لأنها تتحدث اللغة الآرامية، إضافة إلى هؤلاء وفي بطون الجبال ـ أيضاً ـ تعيش طائفة تسمي نفسها (اليزيدية) وهم عبدة الشيطان، وإلى الشرق منها وفي سهول جبل سنجار توجد طائفة أخرى تسمي نفسها (الشبكْ) وهم من غلاة الشيعة، يتلون صلاتهم باللغة التركية، وفي السهول الجنوبية حيث يمر نهر دجلة وسط مزارع بلدة العمارة هناك يعيش أصحاب أقدم ديانة وهم (الصابئة)، ومن قلب العاصمة بغداد ظهرت ديانات أخرى غامضة المعالم مثل (البابية والبهائية).

إن تعدد القوميات والأديان في بلد مثل العراق، وقلّ ما يحصل في غيره من البلدان العربية ـ عدا لبنان ـ ربما هو السبب الذي جعل العراق دائماً أرضاً للفتن والنبوءات، ومطمعاً للغزاة الهمجيين، ولعل ما حدث في العراق بالأمس القريب له الصدارة في أحاديث النبي ﷺ ونبوءاته عن أحداث آخر الزمان، وهو الحصار الاقتصادي والتجويع لأهل العراق وفلسطين، وهذا ما أخرجه مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ من إشارات داخلة لأزمات وحصار يصيب الله به مناطق ثلاثة من العالم العربي والإسلامي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "منعت العراق درهمها وقفيزها ومنعت الشام مديها ودينارها ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم، شهد ذلك لحم أبي هريرة ودمه".(١)

(١). الحديث أخرجه مسلم في كتاب: (الفتن وأشراط الساعة) برقم: (٢٨٩٦).

كذلك أرى ـ والله أعلم ـ أنّ الأديان السماوية الرئيسة بشكل أو بآخر لها علقة خاصة ببلاد الرافدين، وليس ذلك غريباً على العراق الذي تتجمع فيه أصناف من العقائد القديمة والجماعات التاريخية حتى ليعتبر بحق متحفاً بشرياً ودينياً يتدفق حياة ونشاطا[(١)]، وفي هذا المبحث نأخذ لمحة سريعة حول تأريخ الأقليات[(٢)] الدينية الموجودة ـ حالياً ـ في العراق، مستعرضين لها من الأقدم إلى الأحدث، وستكون لنا وقفات قصيرة عن: نشأتهم، وكيفية تأسيس ديانتهم، ومن هو نبيهم، وما هو كتابهم، وموقفهم من محمد ﷺ، وما هي أهم طوائفهم، وأبرز شخصياتهم، وأماكن تواجدهم، ولقد سعيت جاهداً في التأكد من صحة المعلومات من المراجع العلمية المعتمدة التي استقتها من مصادرها الأصلية لكل دين وفرقة التي سنتناولها في بحثنا هذا، وهي كالتالي:

١) الصابئة المندائيون.

٢) اليهودية.

٣) النصرانية.

٤) اليزيدية.

٥) الشبك.

٦) الكاكائية.

---

(١). كامل مصطفى الشيبي: الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق المعاصر (الطبعة الأولى، بغداد، مكتبة النهضة، ١٣٨٦هـ) ص ٣٩.

(٢). بوصفنا لهم أقلية، فهذا لا يعني التقليل من انتمائهم الوطني أو التشكيك في ولائهم وحق المواطنة لهم، فهي ثابتة لكلّ شخص له دين أو لا ينتمي إلى دين أصلاً.

أولاً: الصابئة المندائيون:

ورد ذكر الصابئة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، هي على التوالي قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة:٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج:١٧].

تعتبر الديانة الصابئية من أقدم الديانات التي عرفتها البشرية في العالم ـ وفي العراق خصوصاً ـ ولم يتفق علماء الملل والنحل عن الصابئة على شيء معين؛ بل تضاربت آراؤهم في الصابئة[(١)]، والغريب في الأمر أنّ الصابئة المندائيين يقطنون في بيئة إسلامية متمثلة في جنوب العراق، وجنوب إيران منذ آلاف السنين، ومع ذلك وقع فيهم كل هذا الغموض والاختلاف في الأقوال، وهذا ما يؤكد الرأي الذي مال إليه كثير من الباحثين المعاصرين من كون هذه الديانة ذات طابع باطني.

---

(١). اختلف الناس في حقيقة دين الصابئة بوجه عام، وأشكل أمر الصابئة على الأئمة والمستعرض لأقوال العلماء يجد أن أقوالهم متباينة في شأن هذه الطائفة، وذلك للغموض الذي يكتنف تلك الديانة، وقد أرجع بعض الباحثين كثرة الاختلافات حول حقيقة دين الصابئة إلى عدة أسباب أهمها:

١) أن القرآن ذكرهم إجمالا، ولم يفصل أخبارهم كما فصل في قصص اليهود والنصارى والمشركين.

٢) عدم وجود هذه الطائفة في مكة أو المدينة في عهد النبي ﷺ، فلم يحدث احتكاك بين المسلمين والصابئة.

٣) أن رجال الدين الصابئة لا يقرون علنية الدين، لأن ذلك يتعارض وباطنيته حتى يبقى تفسيره وقفا عليهم.

٤) كونها ديانة مغلقة غير تبشيرية لا تقبل أحدا في صفوفها وانطوائية الصابئة على أنفسهم وعدم مخالطتهم لغيرهم.

٥) عدم معرفة الناس بلغة كتبهم الدينية المكتوبة باللهجة المندائية، إحدى فروع اللغة الآرامية.

٦) تطور عقيدة الصابئة ومرورها بمراحل عدة، والتطور في العقيدة يؤدي دائما إلى التفرق وظهور فرق جديدة في الملة، وأشهرها: أصحاب الروحانيات، وأصحاب الهياكل، وأصحاب الأشخاص، وأصحاب الحلول. انظر: أحمد بن عبد الله جوُد: علم الملل ومناهج العلماء فيه (الطبعة الأولى، الرياض، دار الفضيلة، ١٤٢٥هـ) ص ٥٣.

إنّ فهم الديانة الصابئية داخله خلط واختلاف بين الكتاب والباحثين، حالها حال بعض الأديان، وذلك يعود إلى الغموض أولاً، والدس ثانياً، الأمر الذي منع من فهمها فهماً صحيحاً على حقيقتها، ولا تُستثنى هذه الديانة ـ أيضاً ـ من التهم والأباطيل، والمقصود من الصابئة في بحثنا هم الصابئة المندائيون الذين أشارت إليهم الآيات القرآنية، لا الصابئة الحرانيون من عبدة الكواكب، حيث يعدّون من الوثنيين.

ولقد جاء الخلط عند بعض المعنيين بأُمور الأديان بين هؤلاء وأُولئك بسبب الظروف القاسية التي أجبرت المندائيين على الهجرة من بلاد الشام إلى مدينة حرّان التي يتواجد فيها الصابئة الحرّانيون، وهي مدينة قديمة في تركيا في منطقة الجزيرة (جزيرة أقور)، وما يسمّى ببلاد ما بين النهرين، موطن إبراهيم الخليل عليه السلام بعد هجرته من أُور، كان فيها مدرسة ثقافية عنيت بالفلك والرياضيات، لمع فيها أبو جعفر الخازن، واشتهرت بعلماء الصابئة من فلاسفة وأطباء ومترجمين أمثال: ثابت بن قرة الحراني الرياضي والفلكي وابنه سنان الطبيب.

آثرت ـ هنا ـ مجرّد الإشارة إلى هذا الخلط سلفاً، حتى لا يقع الالتباس لدى القارئ بين فرقتي الصائبة، كما أودّ الإشارة وإلفات نظر القارئ إلى مراجعة كتاب (الصابئة المندائيون) ترجمة نعيم بدوي، وغضبان الرومي، باعتبار أنّ هذا الكتاب يعدّ من أهم الكتب التي أُلفت عن الديانة الصابئية المندائية، وهو من تأليف الخبيرة في الشؤون المندائية المستشرقة الإنجليزية الليدي دراوور، التي عاشت مع أبناء هذه الطائفة لمدة أربع عشرة سنة.

لكن هذا لا يمانع من وجود التداخل في الطقوس بين الديانتين، كما هو الحال في جملة من الديانات التي يوجد تشابه ما في بعض عقائدها وشعائرها، ويعزو بعض الباحثين المندائيين كنعيم بدوي وغضبان رومي في مقدمة ترجمتهما لكتاب (الصابئة المندائيون) سبب غموض بعض عقائدهم إلى تكتم رجال الدين الصابئين، والطبيعة الانزوائية لرجال دينهم، حيث عبّرا عن ذلك بالقول: "إلاّ أننا لم نبد رأياً مكتوباً مستنداً إلى وثائق دينية صابئية، لأسباب قد يكون منها أنّ رجال الدين الصابئي لا يعاونوننا؛ لأنهم لا يقرون علنية الدين، فذلك يتعارض وباطنيته، إضافةً إلى أن الدين ليس تبشيرياً".[١]

---

(١).الليدي دراوور: الصائبة المندائيون (بغداد، دار المدى، ٢٠٠٧م) ترجمة: نعيم بدوي وآخر، ص ٤.

أنبياؤهم وكتبهم المقدّسة:

يدين الصابئة المندائيون بنبوة كل من آدم وشيث ونوح وسام وإدريس وإبراهيم ويحيى بن زكريا الطَّيْلاَ، جاء في كتاب الصابئة المندائيون: "إنّ الدين الصابئي دين قديم، يعتقد معتنقوه أنه من أقدم الأديان إن لم يكن أقدمها، فهم ينسبون كتابهم (كنزه ربه) إلى آدم، كما يعتقدون أنّ (سام) هو جدهم الأعلى، ونبيهم بعد آدم نوح عليهما السلام، وهم ليسوا فرقةً من النصارى كما ورد ذلك لدى كثير من الكُتّاب وبخاصة الإفرنج منهم، وقد جاء هذا الوهم من تعظيم الصابئين للنبي يحيى واعتباره نبياً لهم أنقذهم من ضلال اليهودية، وقام بالمعمودية، كما أنهم يُعظّمون يوم الأحد كما يفعل النصارى[(١)]"، وأهم الكتب المقدسة عند الصابئة هي:

ـ كتابهم الموسوم (الكنزا ربا أو الكنزه ربه)، أي: الكنز الرباني العظيم ويقال له: صحف آدم أو سدرا آدم، وقد يكتفون بقولهم (السدرة)، وتنحصر مباحث هذا الكتاب بذكر بدء الخليقة والتطورات التي حدثت للبشر[(٢)]، ولقد كُتب كتاب الكنزا ربا باللغة المندائية وهي فرع من اللغة الآرامية[(٣)]، يقول رشيد الخيون في كتابه: "يضاف الى ذلك أنّ الزبور، يعني: الكتاب، وكتاب الصابئة زبور (الكنزا ربا) لا الزبور الذي غلب اسمه على مزامير داود".[(٤)]

محمد ﷺ في كتب الصابئة:

أما فيما يتعلق بالنبي محمد ﷺ في كتب الصابئة، نذكر أولاً أن هذه الكتب لا تزال في عداد الكتب المهجورة عند الباحثين المسلمين، ولم تعرف إلى اليوم دراسة جادة وعميقة تظهر حالها وتسبر أغوارها وتكشف أسرارها وتفيد في خدمة الدعوة الإسلامية.

وثانياً فهي أن هذه الكتب قد تعرضت لتحريف شديد نتيجة قلة عناية القوم بتوثيق كتبهم وتفسيرها، مما يجعلنا نعتقد سلفاً أن البشارة بالنبي الخاتم ﷺ قد عانت هي أيضاً التحريف والإهمال في النقل، ويكفي أن نقدم هذه البشارات السريعة، وعسى أن يتولى أهل

---

(١). الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، ص ٢٠.

(٢). سامي عامري: محمد رسول الله ﷺ في الكتب المقدسة (الطبعة الأولى، القاهرة، مركز التنوير الإسلامي، ١٤٢٦هـ) ص ٤٣٨.

(٣). وقد صدرت ترجمة عربية للكنزا ربا بإشراف الطائفة المندائية في العراق. انظر: نفس المرجع، ص ٤٣٨.

(٤). رشيد الخيون: الأديان والمذاهب بالعراق (الطبعة الثانية، كولونيا، منشورات الجمل، ٢٠٠٧م) ص٣١.

البحث الجاد الكتابة والإفاضة في هذا الموضوع في دراسة مستقلة:

ـ جاء في الكنزا ربا: "أن ملك العرب المسمى (سيهولدايو) أي تالي الأنبياء سيخرج في زمن ملك الفرس أزدجر وهو الذي خرج في زمنه محمد ﷺ".

ـ جاء في سفر الكنزا ربا، في الكتاب الثامن عشر أن العرب سوف يخلفون ملوك الفرس في التمكين في الأرض.

ـ جاء في ديوان حران كويثة أن حكم العرب يمتد إلى ٤٠٠٠ سنة قبل المسيخ الدجال وأن "اللبنة في الجدار ستنادي به إشارة إلى مثل الحجر الذي رفضه البناؤون" أنه نبي الإسلام ﷺ ، وتؤكد هذه البشارة الصابئية أن هذا الحجر (عربي) وصدقت!!

ـ تعتبر كتب الصابئة المقدسة إسماعيل عليه السلام أبا لجميع المسلمين).

ـ جاء في كتاب الكنزا ربا: أيها المسلمون المؤمنون، وأيها المؤمنون المسلمون، لا تتراجعوا عن عهدكم الذي عاهدتم الله عليه".(١)

صابئة العراق ومناطق سكناهم:

لا زال دين الصابئة محصوراً في فئة قليلة حتى الوقت الحاضر في العراق، فهم يسكنون ضفاف دجلة والفرات جنوب العراق، ونهر الكارون غرب إيران؛ ليسهل عليهم ممارسة طقوسهم الدينية كالتعميد، وتوفر الأسماك النهرية وهو غذاؤهم المفضّل، ومن أهم مناطقهم الاجتماعية قلعة صالح، ففي سنة ١٣٣٠هـ كانت محلة الصابئة من أكبر المحلات، إذ تمتد على نهر دجلة نحو كيلو متراً، ثم أُضيف إليها في سنة ١٣٤٠هـ محلة اللطلاطة، وكان عدد عوائلهم آنذاك في هاتين المنطقتين فقط قد تجاوز ٥٠٠ عائلة، وانتحلوا حرفاً أصبحت بمرور الزمن حكراً لهم، واشتهروا بها وبصناعتها الممتازة، مثل صناعة القوارب، وآلات الحصاد، والحدادة، فكانت أكثر آلات المزارعين من صناعة الصابئة، والنقش على الفضة، وصناعة الأقفال، وصياغة الذهب التي ما زالوا يشتهرون بها في العراق وإيران.(٢)

---

(١). سامي عامري: محمد رسول الله ﷺ في الكتب المقدسة، ص ٤٣٩.

(٢). رشيد الخيون: الأديان والمذاهب بالعراق، ص ٥٧.

ثانياً: اليهودية:

عُرفت الديانة اليهودية كواحدة من أقدم الديانات التي نشأت في العراق، ورد ذكرهم في القرآن الكريم كديانة سماوية في آيات كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية:١٦]، وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [غافر:٥٣]، ولليهود تاريخ طويل حافل بالأحداث والعبر، وغلب على اليهود طابع التمرد والخشونة والقساوة في تعاملهم مع أنبيائهم، لذا جاءت الآيات متضافرة ذماً لهم ووعيداً، ومن غير الممكن عرضها في هذا المبحث، إذ ليس المقصود هنا دراسة تاريخهم، وإنما المقصود هو التدليل على وجودهم في العراق قديماً وحديثاً.

فعلاقة اليهود بالعراق علاقة قديمة وليست طارئة، بل متجذرة ومتأصلة، تربطهم بأرض العراق روابط عديدة دينية وتاريخية واجتماعية، فلهم مزارات أنبياء ورسل وتراث في هذا البلد، فقد ذُكر اسم نهر الفرات مرات عديدة في كتبهم المقدّسة، فكان لليهود تواجد في جميع محافظات العراق من شماله إلى جنوبه، حتى في المدن ذات الطابع الديني، فعلى سبيل المثال: في النجف يوجد زقاق باسم اليهود يدعى (عكد اليهودي)، والعكد (بالكاف الفارسية الثانية المغلّظة)، ويعني: الزقاق وكذلك الحال في كربلاء ـ أيضاً ـ وغيرها من المدن العراقية.(١)

أما يهود العراق محل الحديث هنا، فإنهم كشريحة اجتماعية مارست دور القويّ المتسلط عندما سنحت لهم الفرصة، وقد تناول المؤرخون والباحثون العرب الحركة اليهودية العالمية بالكثير من الريبة والحذر، فكان الدور الرئيس فيها هو الموروث الديني، فيما ازدادت حدّة العداء ضد اليهود بعد ظهور الزعيم اليهودي تيودور هرتزل الذي يعود له الفضل في إنشاء الدولة الإسرائيلية الحديثة نتيجةً لمؤتمر بال سنة ١٣١٥هـ واستمرت الجهود حتى جاء وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا، ولعلّ السبب الآخر لهذا العداء يعود إلى التأثر بالسياسة الإسرائيلية الحالية

(١). لليهود في العراق أمكنة مقدسة قديمة، وأشهر مزارات اليهود في العراق هي: قبر عزرا الكاهن، ومدفن حزقيال النبي أو (الكفل)، ومرقد يوشع كوهين كادول، ومرقد الشيخ إسحاق الغاروني، ومرقد ناحوم الألقوشي. انظر: يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق (الطبعة الثالثة، لندن، دار الوراق، ٢٠٠٦م) ص ٢١٦ ـ ٢٤٦.

تجاه الفلسطينيين، ومن هذه العوامل وغيرها نجد بعض الكتّاب والباحثين يتعدون عن الحقيقة والموضوعية في فهم أتباع هذه الديانة.

يهود العراق في عهدي الاحتلال والحكومة العراقية:

شبه أحد الكتاب الإنجليز دخول مود بغداد بدخول كورش إلى بابل، فقد شعر اليهود بأن الاحتلال الإنجليزي كان لهم كالاحتلال الفارسي الذي أنقذ أسلافهم من الأسر البابلي، يقول الدكتور علي الوردي: "حدثني أحد المسنين من أهل بغداد فقال: إن اليهود تغيّر سلوكهم في عهد الاحتلال عما كان عليه قبله، فهم كانوا في العهد التركي يظهرون بمظهر الذل والمسكنة ويتحمّلون الأذى بالصبر، وكان الأشقياء يفرضون الأتاوة عليهم وهم يدفعونها لهم راضخين فلما جاء الإنجليز رفع اليهود رؤوسهم وأخذوا يتحدّون الأشقياء ويهددونهم قائلين: ذهب زمانكم وهذا زمان الصاحب وسوف نقلع عيونكم!".(١)

وقد استغل اليهود الفرصة التي أتاحها الاحتلال لهم فأخذوا ينمون ثرواتهم بالتجارة والمقاولات، وجنوا أرباحاً طائلة عوضوا بها عن الخسائر التي خسروها في العهد التركي أضعافاً، وكان ذلك بداية العهد الذي سيطر اليهود فيه على الحياة الاقتصادية في العراق، وظلوا مسيطرين عليها حتى عام ١٣٧٠هـ.(٢)

ومن أشهر بيوت وأسر يهود بغداد القديمة من ذوي التجارة والرئاسة على قومهم: بيت عزرا صراف باشي، ويوضة السوميخ، وأسرة دانيال، وأسرة حاخام حسقيل، وبيت المعلم الياهو، وأسرة زلوف، وأسرة شلومو داود، وأسرة إسحاق، وطويق، وعاني، وبيخور، وشماش، وغيرهم، وبين هذه الجماعة رجال من كل الطبقات والمهن بينهم التاجر والصيرفي والمحامي والطبيب ومن موظفي الحكومة الوزير والعضو في المحاكم العدلية ومجالس الإدارة وغير ذلك ومن أهل الصنائع.(٣)

---

(١). علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٤، ص ٤٠٧.

(٢). يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص ٢١٠.

(٣). نفس المرجع، ص ٢١٣ ـ ٢١٥.

الطائفة اليهودية بعد سنة ١٣٤٠هـ:

استمرت الطائفة اليهودية على نشاطها وازدهارها بعد تأسيس الحكومة العراقية سنة ١٣٣٩هـ وتتويج الملك فيصل الأول في السنة التالية، وقد تقدمت التجارة والاقتصاد، فشارك أبناء الطائفة في الأعمال والرخاء العام، وفي سنة ١٣٥٣هـ توفي الملك فيصل الأول الذي كان يحرص على الوحدة العراقية وتآلف الطوائف والفئات المختلفة، وجاء هتلر إلى الحكم في ألمانيا، وأخذ الدكتور فريتز غروبّا وزيره المفوض في بغداد ببث الدعاية النازية ويحرّض الطبقة المثقفة ضد اليهود عموما، وأنشئ نادي المثنى الذي جمع الوطنيين المتعصبين الداعين للقومية العربية، ونشط المدرسون المستقدمون من فلسطين وسوريا في نشر الدعاية المعادية ضد اليهود(1)، وفصل بعض الموظفين اليهود في الوزارات والدوائر الرسمية، وحدثت سنة ١٣٥٦هـ عدة اغتيالات لرجال من اليهود، وجرت محاولات للحدّ من نشاط التجار في ميدان الاستيراد.(2)

ونشبت الحرب العالمية الثانية بويلاتها سنة ١٣٥٩هـ فبذل التجار جهودهم لاستيراد البضائع التموينية والضرورية التي تحتاج إليها البلاد، فلم يشعر العراق في بادئ الأمر بالعوز وقلة المواد الاستهلاكية، واشترك الجنود والضباط اليهود في الحرب ضد بريطانيا في أثناء حرب رشيد عالي الكيلاني، فلما انتهت الحرب وفرّ زعماؤها المدنيون والعسكريون إلى إيران، حدث لأول مرة حادث لم تعرفه بلاد الرافدين ولم يعرفه اليهود في تأريخهم في هذه البلاد، وهو المجزرة الرهيبة والسلب والنهب مما أطلق عليه اسم (الفرهود).(3)

عادت الأمور إلى مجاريها بعد عودة الحكومة الشرعية واستتباب الأمن والنظام، ثم انتهت الحرب العالمية واستبشر الناس مؤملين استئناف الحياة الطبيعية وحصول التقدم والرفاهية العامة، لكن سرعان ما بدأت الحملة في بعض الصحف وفي الإذاعة تندد بالصهيونية واليهود عامة دون استثناء اليهود العراقيين، وجاء قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، ثم أعلنت دولة إسرائيل ١٣٦٨هـ وكان في الحكم رئيس الوزراء السيد محمد الصدر، فأوعز إلى أحمد حامد

---

(١). يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص ٣٢١.

(٢). نفس المرجع ، ص ٣٢٢.

(٣). هو مصطلح عند أهل العراق يعني السلب والنهب لغياب سلطة الدولة، وهذا ما حدث في عند سقوط حكومة الكيلاني، مما وفر للمجرمين فرصة لنهب الاحياء الفقيرة في بغداد. انظر: يوسف غنيمة: نفس المرجع، ص ٢٩٠.

الصراف مدير الدعاية العام أن يتكلم باسمه من إذاعة بغداد ويعلن أن المواطنين اليهود لا علاقة لهم بالصهيونية ودولة إسرائيل، وأنهم عراقيون مخلصون لبلادهم، لكن وزارة الصدر استقالت وألف الوزارة الجديدة مزاحم الأمين الباجه جي، وبدأت الحكومة الجديدة بعزل الموظفين اليهود في الوزارات والدوائر الرسمية، وكان عددهم يبلغ بضعة عشر ألفا، وقيدت أعمال التجار اليهود فعمت البطالة وانتشر العوز والفاقة، ولم يقتصر تأثير ذلك على الطائفة اليهودية، بل اضطرت الحكومة إلى الاستقراض من البنك الشرقي لدفع رواتب موظفيها، واضطرت إلى استقدام الفنيين من الهند والباكستان لمواصلة أعمال السكك الحديدية والميناء، وفي سنة ١٣٧٠هـ ألف توفيق السويدي الوزارة وأسند وزارة الداخلية إلى صالح جبر، فبادرت الحكومة إلى إصدار قانون إسقاط الجنسية العراقية عن اليهود الراغبين في ترك العراق، وارتفعت بعض الأصوات من النواب المتطرفين في المجلس تطالب بطرد اليهود جميعا.(١)

أنشئت دائرة خاصة في مديرية الجنسية والسفر لتنفيذ القانون وقبول طلبات التخلي عن الجنسية العراقية، وتم الاتفاق على تسفير اليهود المسقطة عنهم الجنسية عن طريق شركة عراقية للسفر، لم يحصل في بادئ الأمر إقبال كبير على طلب نزع الجنسية، ومرت أسابيع وأشهر وعدد الراغبين لا يتجاوز بضعة آلاف، ثم رميت قنابل على مباني بعض الشركات والمحلات العامة اليهودية فاندفع الناس إلى تسجيل أنفسهم، ولم تنته مدة تنفيذ القانون، وقدرها سنة واحدة، حتى بلغ عدد المسقطين نحوا من ١١٠ آلاف من الرجال والنساء والأطفال تم تسفيرهم خلال سنة ١٣٧٠/١٣٧١هـ إلى جزيرة قبرص ومنها إلى إسرائيل، ولما آن موعد انتهاء السنة المحددة لإسقاط الجنسية تولت الحكم وزارة جديدة برئاسة نوري السعيد أصدرت قانونا جديداً يقضي بتجميد أموال اليهود المسقطة عنهم الجنسية العراقية وتأسيس أمانة عامة للتجميد تضع يدها على أموالهم المنقولة وغير المنقولة.

بقي في العراق بعد سنة ١٣٧٠/١٣٧١هـ بضعة عشر ألفا من اليهود بعد أن غادر الكثيرون بصورة رسمية أو غير رسمية، وذهب معظمهم إلى مختلف أقطار العالم ولجئوا إلى أمريكا وكندا وأوروبا وأستراليا وغيرها، وكان في العراق آلاف من اليهود الذين يحملون الجنسية الإيرانية

---

(١). يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص ٣٢٧.

ويقيمون في بلاد الرافدين منذ أجيال بعيدة، فذهبوا جميعا إلى إيران، وأعيد إلى المواطنين المتبقين في العراق حقوقهم المدنية والقانونية وإن أصبحوا يلقون بعض الصعوبات في العمل وتأمين معيشتهم. ثم جاءت ثورة ١٤ تموز فرفع الزعيم عبد الكريم قاسم عنهم القيود والموانع وألغى قانون إسقاط الجنسية.

وفي عام ١٣٨٢هـ أُسقط الحكم القاسمي وجاء إلى الحكم الضابط عبد السلام عارف، فأعاد إحياء إسقاط الجنسية وأصدر قوانين وتعليمات تقيّد حرية الحقوق المدنية، فأخذ اليهود يغادرون العراق شيئا فشيئا، وجدير بالقول إن الحكومات المتعاقبة مهما آذت المواطنين اليهود وغمطت حقوقهم فإنها احترمت شعائرهم الدينية ولم تمسّ معابدهم ومؤسساتهم الطائفية وأوقافهم بوجه عام، وقد بقيت إدارة الطائفة تمارس أعمالها، في حين أن اليهود غادروا العراق تدريجياً إلى إسرائيل وسائر أنحاء العالم، ولم يبق في بغداد آنذاك سوى ٨٠ شخصاً أو دون ذلك، ومعظمهم من الشيوخ والعجائز والأقل القليل من الشباب.[١]

---

(١). يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠.

ثالثاً: الديانة النصرانية:

النصرانية في الأصل ديانة سماوية صحيحة، فقد أنزل الله على عيسى عليه السلام الإنجيل مصدقا للتوراة ومؤيدا لها، ومصححا ما حرفه اليهود من التوراة، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٤٨ ـ ٤٩] فعيسى عليه السلام لم يأت بشريعة جديدة وإنما كانت رسالته امتداد لرسالة موسى عليه السلام وموجهة إلى بني إسرائيل خاصة فدعاهم إلى العقيدة الصحيحة، وإلى التوحيد الكامل، قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[آل عمران:٥١].

نصارى العراق هم من سكان بلاد ما بين النهرين الأصليين، أحفاد البابليين والكلدانيين والآشوريين والعرب، المتمثلين بقبائل تغلب، وإياد، ومضر، وربيعة، وسليم، وطيء، ولا شكّ في أن تاريخ نصارى العراق يعود إلى بدايات هذا الدين السماوي، الذي ظهر في فلسطين، وانتشر في بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وقد ظهرت النصرانية في العراق في القرن الأول الميلادي، حين اعتنق معظم سكان بلاد الرافدين النصرانية، فيما كان بعض منهم يعتنق اليهودية والمجوسية والمانوية وعبادة الأوثان، فترك سكانه المتنصرون اسمهم القديم وأسموا نفوسهم (سرياناً) تمييزاً لهم عن الوثنيين، وقد استحسنوا هذه التسمية لأن النصرانية وافتهم من سوريا وكلمة (سورايا) الآرامية معناها (نصراني) وإلى يومنا هذا لا تزال (سورايا) تعني المتكلمين باللغة الآرامية العامية، وينتهي وجود وتاريخ النصرانية في العراق إلى خمسة قرون قبل قدوم الإسلام، حيث ينتمي نصارى العراق إلى جميع الكنائس الأصلية، ويتشكلون من جميع القوميات العرقية

العراقية، فهم ينتسبون تارة باسم الطائفة، وأُخرى باسم القومية أو اللغة، وثالثة باسم مؤسسها أو المدينة التي تأسس المذهب فيها، وأخيراً قد تكون النسبة مزيجاً من هذه الثلاثة، والطوائف الرئيسة أربع، والباقي لا تختلف عنها في أصل العقيدة، غاية ما في الأمر قد تختلف في اللغة والقومية والحضارة وبعض الشعائر والعادات الاجتماعية التي تخصّ تلك القومية أو المنطقة.

نصارى العراق في نهاية العهد العثماني:

نصارى العراق وطنيون من سكانه القدامى، وانتشرت أديرتهم في كل ناحية من العراق والجزيرة، وكان لهم في عهد الخلافة العباسية دور هام في مختلف المجالات الحضارية غير أنهم اضطروا ـ بسبب سقوط الخلافة ـ إلى مغادرة مراكزهم المدنية، والالتجاء إلى أماكن أكثر أمناً وأوفر عزلة، بعد أن أصبح السهل بما فيه من مدن وأديرة هدفاً سهلاً لكل دولة وقبيلة غازية، فانتقل كرسي بطريركية بابل القديمة من مركزه ببغداد إلى أربيل، وكرمليس (قرب الموصل)، وجزيرة ابن عمر[١]، والقوش[٢]، وكشف هذا المتنقل عن ظاهرتين هما: تحول مركز الثقل النصراني من وسط العراق إلى شماله، ومن مدنه الرئيسة إلى أريافه وقراه.

وقد استمرت كنيسة العراق بين نساطرة ويعاقبة (أرثوذكس) حتى القرن الخامس عشر، حين انضم ثلاثة من مطارنة النساطرة الى الكنيسة الكاثوليكية، واخْتِير (سولاقا) ليصبح بطريركاً للكلدان، ومن هنا تأسست الطائفة الكلدانية الكاثوليكية التي تمثل حالياً غالبية النصارى في العراق، وهي ما تزال تحافظ على لغتها السريانية بلهجتها (السورث) إلى الوقت الحاضر، ومعها تراث مستمر من أخبار الكنيسة المشرقية في العراق، وكثير من التآليف الدينية المخطوطة، وكتب التاريخ القديمة المحفوظة في الأديرة التي لم تصل إليها التعديات المختلفة خلال القرون الماضية، أما دخول الكثلكة بين صفوف الكنيسة السريانية، فقد تم في غضون القرن الثامن عشر، على يد الآباء الدومينيكان، الذين قدموا إلى الموصل عام ١٧٤٩م، أما العاملان الرئيسان اللذان لهما الأثر الكبير في دخول الكثلكة إلى الموصل والعراق عامة، فهما:

---

(١). في دير الرهبان هرمزد الشهير على سفح جبل القوش قرب الموصل. انظر: سهيل قاشا: مسيحيو العراق (الطبعة الأولى، لندن، دار الوراق، ٢٠٠٩م) ص ٢٧٨.

(٢). على نهر دجلة بين ديار بكر والموصل، وفيها دير الزعفران الذي كان مركز الكرسي البطريركي لفترات طويلة. انظر: نفس المرجع ، ص ٢٧٨.

أ) **العامل الثقافي**:

جهد الآباء الدومينيكان جهداً كبيراً في حقل الثقافة السريانية؛ فقد انشأوا أول مطبعة في الموصل وربما في العراق، وطبعوا الإنجيل باللغتين العربية والسريانية، وهاتان الطبعتان كانتا وحيدتين في تاريخ العراق حتى مطلع القرن العشرين، كما ترجموا كتباً دينية وقصصاً عن الفرنسية، وألفوا كتباً مدرسية باللغتين العربية والفرنسية لتعليم الفرنسية كلغة ثانية، ثم أقاموا معهداً في عام ١٨٧٥م باسم معهد يوحنا الحبيب، وصار على القسيس منذ ذلك الحين أن يتعلم الديانة واللاهوت وتاريخ الكنيسة واللغات الأجنبية، فضلاً عن اللغتين العربية والسريانية، وظل ذلك النهج قائماً في ظل الكنيسة الكلدانية حتى تأسيس كلية (بابل) للاهوت في بداية التسعينيات من القرن الماضي، وصار على القسيس أن يحصل على ثقافة بمستوى البكالوريوس على الأقل.

ب) **العامل السياسي ـ الاجتماعي**:

ساعد تأثير فرنسا السياسي في العهد العثماني مَهمَّة الآباء الدومينيكان في تطوير الثقافة النصرانية في الموصل، حيث أنشأوا مدرسة ابتدائية، ومن ثم مدرسة ثانوية استمرت حتى بداية استقلال العراق عام ١٣٣٩هـ عندما أقيمت مدارس حكومية في جميع أنحاء العراق، وكانت الدولة العراقية الفتية في عهد الملك فيصل الأول دولة مدنية، أَقَرّت الحرية لأصحاب الديانات السماوية حيث يعترف ـ الدستور العراقي ـ بأربعة عشر طائفة نصرانية في العراق مسموح التعبد بها، ويتحدث غالبية أتباع الطوائف النصرانية اللغة العربية كلغة أم، في حين أن نسبة منهم تتحدث باللغة السريانية بلهجاتها العديدة وباللغة الأرمنية، فتعددت مدارسها وكنائسها وتعززت أديرتها، فساهموا في الحراك السياسي والاجتماعي مع إخوانهم العرب المسلمين.(١)

نصارى العراق في عهد الاستقلال:

في عهد الاستقلال أَقَرَّت الحكومة العراقية للنصارى حق انتخاب خمسة نواب من بين مائة نائب في المجلس التأسيسي العراقي، كما استوزر عدد منهم منذ الحكومة النقيبية الأولى وعهد لبعضهم بوظائف قيادية وكانوا صفوة من المتعلّمين والمثقفين الذين تخرج معظمهم من

(١). سهيل قاشا: مسيحيو العراق، ص ٢٩٧.

المدرسة الثانوية للآباء الدومينيكان في الموصل، وبعضهم تخرج من كليات تركية وأوروبية وكذلك من مدرسة الحقوق العراقية، فقد كانت من أوائل كليات الحقوق في الوطن العربي، وتخرج منها عدد من المثقفين والشخصيات العراقية من بينهم المحامي أنطوان شماس(١)، وجورج جورجي(٢)، والأديب والصحافي روفائيل بطي(٣) وهو أول وزير للإعلام في العراق في حكومة فاضل الجمالي عام ١٣٧٦هـ وصاحب جريدة "البلاد" الذائعة الصيت، ومن النصارى الذين درسوا في أوروبا، أو درسوا في كليات أو جامعات أميركية في الشرق الأوسط، أمثال الدكتور حنا خياط(٤) أول وزير للصحة في العراق في الوزارة النقيبية الثانية، والأب أنستاس ماري كرملي(٥)، أحد علماء اللغة العربية، وصاحب أول مجلة أدبية راقية في العراق (لغة العرب)، أما الدكتور متي عقراوي(٦) فقد أصبح أول رئيس لجامعة بغداد في بداية تأسيسها عام ١٣٧٩هـ، والمطران أغناطيوس أفرام برصوم(٧)، مؤلف كتاب (اللؤلوء المنثور في الآداب السريانية)، واعتمد قسم آخر من النخبة على الثقافة الأمريكية، ومن أبرز الذين تخرجوا من جامعات أمريكية من النصارى عبد المسيح وزير(٨)، الذي تخرج من الجامعة الأميركية في تركيا، وعين مترجماً في وزارة الدفاع العراقية، ويعود

---

(١). خبير قضائي، انتخب عضواً في المجلس التأسيسي العراقي، وقاضياً في محكمة استئناف العراق، مثل العراق في العديد من المؤتمرات الدولية، له مؤلفات، توفي سنة ١٩٥٧م. انظر: سهيل قاشا: مسيحيو العراق، ص ٣٢٨.

(٢). كاتب حقوقي، عين مديراً في وزارة المالية والداخلية سنة ١٩٣٠م، ويعد واحداً من خبراء الإدارة في العراق، ترك مؤلفاً مطبوعاً بعنوان: "القوانين المالية"، توفي سنة ١٩٦٥م. انظر: سهيل قاشا: المرجع السابق، ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٣). صحفي ومؤرخ عمل رئيساً لتحرير جريدة العراق، ورأس تحرير مجلة الحرية، ثم أسس جريدة البلاد، فعضواً في البرلمان، ثم مديراً عاماً في وزارة الخارجية، فوزيراً للإعلام. انظر: مير بصري: أعلام الأدب في العراق الحديث، ص ٣٦١.

(٤). أسس التشكيلات الصحية في العراق، تولى وزارة الصحة، تولى عمادة الكلية الطبية، توفي سنة ١٩٥٩م. انظر: سهيل قاشا: المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٥). عين مدرساً بمدرسة الآباء الكرمليين، ثم في كلية اليسوعيين، وكتب بحوثاً متنوعة، كما حقق عدداً من المخطوطات المهمة، توفي سنة ١٣٦٧هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٤٥٢.

(٦). أسس جامعة بغداد وكان أول رئيس لها، ثم أصبح ممثلاً للعراق في الأمم المتحدة، ثم عمل في الجامعة الأمريكية ببيروت، له عدة مؤلفات، توفي سنة ١٩٨٢م. انظر: مير بصري: المرجع السابق، ص ٥٠٥.

(٧). بحاثة ومؤرخ، كان يكثر من رحلاته إلى أوروبا وأمريكا ويزور مكتباتها، له أكثر من ثلاثين كتاباً مطبوعاً، توفي سنة ١٩٥٧م. انظر: مير بصري: المرجع السابق، ص ٣٤٤.

(٨). أديب، مترجم، أول من وضع المصطلحات العسكرية العراقية، مارس التعليم، واشتغل في الترجمة في مصر ولبنان، ثم عين رئيس ديوان الترجمة بوزارة الدفاع، له مؤلفات، توفي سنة ١٩٤٣م. انظر: مير بصري: المرجع السابق، ص ٤٧١.

إليه الفضل في ترجمة الرتب العسكرية إلى العربية لأول مرة في الوطن العربي، وترجمة الصنوف والأسلحة التي كانت مسمياتها تركية، وبرز في ستينيات القرن الماضي عدد من الأدباء والعلماء والمفكرين النصارى، نذكر منهم كوركيس عواد[1] الذي ألف ٥١ كتاباً في التاريخ والبلدانيات والببلوغرافيا والمراجع والمكتبات؛ وبشير فرنسيس[2] الذي ترجم بالاشتراك مع طه باقر ملحمة كلكامش كاملة وبدقة إلى اللغة العربية، أما فؤاد سفر[3] فقد اشتهر كتابه عن مملكة حطرا أو الحضر التي نقب في أثارها، ودرس وترجم نحو ٣٠٠ من الكتابات المنقوشة باللغة الآرامية ـ الحطرية في آثارها، وغيرهم كثير.

الإحصاءات الرسمية لنصارى العراق:

يتواجد النصارى في العراق في جميع المحافظات تقريباً، وفي المدن الكبرى مثل: بغداد، الموصل، وكركوك، والسليمانية، والبصرة، وأربيل، والعمارة، والحلة، وبعقوبة، والحبانية، وفي الشمال في منطقة كردستان حيث يعيشون في حوالي ١٢٠ قرية؛ وفي منطقة سهل نينوى قرب الموصل، في مناطق تلكيف، وقراقوش، وشيخان حيث توجد كنائس لهم في هذه المدن والقرى، ويتوزع نصارى العراق على كنائس تنتمي إلى عدة طوائف تتبع طقوساً مختلفة، وغالبيتهم من أتباع الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية، فيما يتوزع الآخرون على الطوائف التالية: الطائفة السريانية الأرثوذكسية، والطائفة السريانية الكاثوليكية، والكنيسة الأرمنية الكاثوليكية، والكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية (وهم غالبية أرمن العراق)، وكنيسة المشرق القديمة، وكنيسة المشرق الآشورية، والروم الكاثوليك، والروم الأرثوذكس، والطائفة البروتستانتية الإنجيلية الوطنية، والطائفة الإنجيلية البروتستانتية الآشورية، وطائفة الأدفنتست السبتيين، وطائفة اللاتين الكاثوليك، وطائفة الأقباط الأرثوذكس (وهم من الجالية المصرية في العراق).

---

(١). باحث ومؤرخ، عين أميناً لمكتبة المتحف العراقي، ولما أنشئت الجامعة المستنصرية عين أميناً لمكتبتها، نشر عدداً كبيراً من الكتب، انتخب عضواً عاملاً في المجمع العلمي. انظر: مير بصري: أعلام الأدب في العراق الحديث، ص ٣٤٤.

(٢). عين مفتشاً عاماً لمديرية الآثار، قام باستكشاف المواقع الأثرية والمباني القديمة في جميع أنحاء العراق، له مؤلفات مطبوعة تتجاوز العشرة كتب في التاريخ والآثار. انظر: سهيل قاشا: مسيحيو العراق، ص ٣٠٤.

(٣). من رواد العمل الآثاري في العراق، وكانوا من الأوائل الذين تولوا الحفر في مدينة "الحضر" واختص بها، كان عضواً في مجلة "سومر" الآثارية، وألف كتباً عديدة. انظر: سهيل قاشا: المرجع السابق، ص ٣٠٣.

محمد ﷺ في التوراة والإنجيل:

يتوجه الباحث في السيرة النبوية إلى دراسة موضوع البشارة بمحمد ﷺ في أسفار اليهود والنصارى بتحفيز مما جاء في وحي الله المنزل على عبده محمد ﷺ في القرآن والسنة، وقد تواترت النصوص واستفاضت معانيها المتدفقة من عيونها العذبة تخبر عن ولادة النور من قلب جزيرة العرب، وهي لم تلق معارضة تذكر من اليهود والنصارى في زمن تنزلها، مما يقطع عند أصحاب العقول السليمة أنها صادقة لم تفتري على الله ﷻ الكذب، وأنها تصف حقيقة لا يرتاب فيها مبصر ولا يشكك في أمرها منصف.

ومن ثم تناقلت أمم الأرض عن طريق الأحبار والرهبان والكهان خبر النبي الخاتم محمد ﷺ الذي بشرت به النبوات السابقة، ولما انقطعت الرسالة بعد عيسى عليه السلام فترة من الزمن[1]، زاد تلهف أمم الأرض إلى النبي الخاتم، وكان عيسى عليه السلام هو آخر من بشر بمحمد ﷺ من الأنبياء كما قال تعالى عند خطابه لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦] وبدأ أهل الكتب السماوية وغيرهم كالهندوس والمجوس يتوقعون قرب ظهوره بناءً على ما يجدونه في كتبهم وأخبار أنبيائهم من الوعد بمقدمه والإخبار بزمان ظهوره ومكانه، إن الغالبية العظمى من الذين أسلموا من أهل الكتاب[2] وغيرهم، يخبرون بالنصوص القاطعة بأن الدين عند الله هو الإسلام، وأن محمداً ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، ولا تخلو منه كتب الأولين قبلهم، مما دل على أن هذه الكتب جاء بها رسول، وكانت هذه الكتب مما اشتمل عليه ما يدعو إليه من توحيد الله سبحانه وتعالى، الذي جاءت النذر والبشرى بما يدعو أهل الإيمان إليه، فهل هذا يعني بأنه لابد من الإقرار بنبوة محمد ﷺ أن تخبر به الكتب السابقة؟ وهل القرائن والأخبار في نصوص

---

(١). الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام تقدر بستمائة عام، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة:١٩]. انظر: عبد المجيد الزنداني: بينات الرسول ﷺ ومعجزاته (الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٣٣هـ) ص ١٧.

(٢). ممن أسلم بسبب البشارات: عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وزيد بن سعنة رضي الله عنه، وسلمان الفارسي رضي الله عنه، وورقة بن نوفل رضي الله عنه، والنجاشي ملك الحبشة، وعدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه، وممن أقر بنبوة محمد ﷺ ولم يدخل الإسلام هرقل قيصر الروم، ومثله المقوقس عظيم القبط في مصر. انظر: عبد المجيد الزنداني: بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، ص ٢٠.

الأسفار المقدسة لليهود والنصارى تشهد لتنبئ ـ هذه الكتب ـ بخروج محمد ﷺ نبي الإسلام؟

معلوم باتفاق أهل الملل، أنه ليس من شرط نبوة كل نبي أن يُبشر به من قبله، إذ النبوة ثابتة بدون ذلك، لا سيما أن نوح وإبراهيم عليهما السلام لم يُعلم أنه بُشر بهما أو قبلهما، وكذا عامة الأنبياء الذين قاموا في بني إسرائيل لم تتقدم بهم بشارات إذ كانوا لم يبعثوا بشريعة ناسخة كداوود وأشعيا وغيرهما.(١)

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (خاتم النبيين ﷺ): "قد يقول قائل أن القرآن الكريم عندما ذكر الذين بشروا بالنبي ﷺ لم يذكروا هؤلاء، بل ذكر أن الإنجيل فيه المسيح عليه السلام بشر برسول من بعده اسمه أحمد، وذكر أن التوراة فيها محمد عليه السلام مكتوب، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

والجواب على ذلك أن أهل الكتاب كانوا يجادلون النبي ﷺ إذ كانوا على مقربة من دعوته، فكان يحاجهم بما عنده، وكانوا هم يعرفون هذا النبي ﷺ ، ويستفتحون على المشركين عندما كانوا ينازلونهم بالنبي ﷺ قبل أن يبعث، فلما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به، على أن رسالة النبي ﷺ ما كانت تستمد من شهادة السابقين، إنما كانت قوتها تستمد من ذاتها، وتحمل في نفسها الشهادة بصدقها، والبينات الناطقة بأنها حق، وأنها من لدن العزيز الحكيم".(٢)

(١). سامي عامري: محمد رسول الله ﷺ في الكتب المقدسة، ص ١٤.

(٢). محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ (الدوحة، ١٤٠٠هـ، طبع على نفقة أمير الدولة قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني) عناية: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، القسم الأول (العهد المكي) ص ٩٢.

أولاً: محمد ﷺ في التوراة:

جاء ذكر النبي محمد ﷺ في التوراة بالإشارة الواضحة، ومع أنه جرى فيها التغيير والتبديل لم يمح ذلك ما فيها من إشارات بينات واضحات إلى رسالته ﷺ مما جعل اليهود يعرفونه ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦] على وجه اليقين، واستفتاحهم على المشركين به قبل أن يبعث، فلما بعث كفروا به، ومن هذه النصوص:

١) أن الله ﷻ قال لموسى عليه السلام: "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به" [التثنية ١٨:١٨] وهذه النصوص تدلهم على أن هذا النبي ﷺ ليس من بني إسرائيل، ولكنه من إخوة بني إسرائيل؛ وهم بنو إسماعيل، ولذلك كان الأحبار والرهبان ـ علماء اليهود والنصارى ـ يعرفون جيداً أن هذا النبي ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام وهم العرب، وهذا هو السر في دخول أهل المدينة المنورة في الإسلام قبل هجرة النبي ﷺ إليها؛ من كثرة ما سمعوا عن النبي ﷺ من الأحبار والرهبان.(١)

٢) وقد علموا يقيناً مهبط الوحي للنبي ﷺ، كما بنص التوراة: "تجلى الله من طور سيناء، وأشرف من ساعيره، واستعلى من جبال فاران" [التثنية ٣٣:٢] وجبال فاران هي جبال مكة المكرمة؛ هكذا نصت التوراة: "وأقام إسماعيل في برية فاران" [التكوين: ٢١:٢١] وقد شرفه الله ﷻ برفع قواعد الكعبة المشرفة مع أبيه إبراهيم عليهما السلام ـ باتفاق كل الأديان ـ كما تنص التوراة التي يؤمن بها اليهود والنصارى.(٢)

وهكذا تجد التوراة قد بشرت بالنبي ﷺ، وإشارات التبليغ قائمة فيها، حتى بعد أن عراها التغيير والتبديل، وأن هذا الكلام لا يبشر فقط بالنبي ﷺ، بل يبين مكان الرسالة، الذي تعم منه مشارق الأرض ومغاربها، ففاران كما جاء في أخبار المؤرخين، والمحققين من الكتاب الأقدمين، كان بينها وبين أيلة مسيرة ثلاثة أيام.(٣)

٣) إنه النبي ﷺ الذي لا يتكلم إلا بالوحي، كما بنص التوراة: "وأجعل كلامي في فمه.. كلامي الذي يتكلم به باسمي" فهو لا يتكلم من نفسه، ولكنه يتكلم بما يوحي إليه ربه.

---

(٢). صفي الرحمن المباركفوري وآخرون: وإنك لعلى خلق عظيم (جدة، شركة كندة، ٢٠٠٦م) جـ١، ص ٣٣٤.

(١). صفي الرحمن المباركفوري وآخرون: وإنك لعلى خلق عظيم، جـ١، ص ٣٣٦.

(٢). محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، القسم الأول، ص ٩٤.

ثانياً: محمد ﷺ في الإنجيل:

جاءت البشارة بمحمد ﷺ في الأناجيل أوضح منها في التوراة، ولنضرب بعض الأمثال:

٤) "وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به" [يوحنا ١٦:١٢]، وفي نص آخر: "إني ذاهب، وسيأتيكم الفارقليط روح الحق لا يتكلم من نفسه إنما هو كما يُقال له" [يوحنا ١٥:١٤] فالذي يأتي بعد المسيح عيسى عليه السلام لا يتكلم من نفسه، إنما كلامه يكون بالوحي هكذا بين أيديهم وهي نفس بشارة التوراة: "وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به" إنه رسول الله محمد ﷺ الذي لا يتكلم إلا بالوحي، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣ ـ ٤].

٥) كذلك يقرؤون بين أيديهم عن قول عيسى عليه السلام: "الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع، ويكلمكم ويسوسكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب".[يوحنا ١٦:٢٥] هل يوجد غير النبي محمد ﷺ الذي بعثه الله إلى العالم وليس بني إسرائيل خاصة مثل عيسى بن مريم عليه السلام، والذي قال: "فإني لم أبعث إلا لخراف بني إسرائيل الضالة".

وهكذا أتم الله الدين برسوله محمد ﷺ حيث قال: "مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأتمَّها، إلا موضع لبنة منها، فجعل الناس يطوفون بها ويعجبون منها ويقولون: هلا وضعت تلك اللبنة؟! فكنت أنا تلك اللبنة".[١]

(١). رواه البخاري ومسلم والترمذي.

رابعاً: اليزيدية:

من الديانات التي شغلت بال الباحثين والمختصين في تاريخ الأديان الديانة اليزيدية أو الإيزدية التي يوجد فيها كلام ولغط كثير حتى بين بعض أتباعها، فهم يتخبطون في أجوبتهم لعدم وضوحها عندهم(١)؛ بالرغم من كثرة الدراسات والأبحاث المقدمة حول ـ أصل اليزيدية ـ إلا أن الخلاف لا زال قائماً، ولعل مرد ذلك الغموض الذي يكتنف هذه الديانة، فاليزيديون من الطوائف العديدة التي تكتمت في إظهار عقيدتها، كما أن العزلة التامة التي فرضها اليزيديون على أنفسهم والحرص على عدم إظهار شعائرهم أمام الأقوام المجاورة لهم والمخالفة لدينهم زاد من شدة الغموض والالتباس فيها.

لقد حارت في اليزيدية عقول الكتّاب العراقيين، حيث موطن تواجدهم، فمنهم من يسميها إيزدية نسبة إلى آلهة الزرادشت الفارسية، والآخر يصرّ على أنها يزيدية نسبة إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ويفتخر بذلك، فيما يتهمهم البعض بعبادة الشيطان، مختلفين حول بداية الديانة ونشأتها، وهناك الكثير من الالتباس والتشويش حول ماهيتها لديهم، ولم تحظ فئة دينية صغيرة من عناية الباحثين في أمرها، وشدة إقبالهم على الكتابة في أحوال ماضيها وحاضرها، بمثل ما حظيت به اليزيدية تلك الفرقة الدينية القليلة العدد، التي يقطن أبناؤها في بعض قرى قضاء الشيخان، وقضاء سنجار، التابعين لمحافظة نينوى من شمالي العراق، وفي بعض أنحاء شمالي سورية وجنوبي تركية، وفي مواضع من إيران والقفقاس.

عموماً فإن المنطقة التي انتشروا فيها تعج بالديانات المختلفة كالزرادشتية وعبدة الأوثان، وعبدة القوى الطبيعية، واليهودية، والنصرانية، وبعضهم مرتبط بآلهة آشور وبابل وسومر، والصوفية من أهل الخطوة، وقد أثرت هذه الديانات في عقيدة اليزيدية بدرجات متفاوتة، وذلك بسبب جهلهم وأميتهم مما زاد في درجة انحرافهم وبعدهم عن الدين الإسلامي الصحيح.(٢)

والآن أكثر معتنقي هذه الديانة هم من الكرد، ويقطنون كردستان العراق، ويوجد فيهم من العرب، حيث صاروا يزيديين أيضاً، وفي تسميتهم اختلافٌ، فقيل: هم يزيديون نسبة إلى (يزيد بن معاوية بن أبي سفيان)، وقيل: هم إيزديون نسبة إلى (يَزْد) أو (إيزَد) آلهة الزرادشت

---

(١). سهير الفيل: اليزيدية (الطبعة الأولى، القاهرة، دار المنار، ١٤١٠هـ) ص ٩.

(٢). نفس المرجع، ص ١٤.

الفارسية والتي تعني الإله المقدس، والحق أنّ أغلب الباحثين ينسبون هذه الملة إلى يزيد بن معاوية، كالكاتب أنور معاوية الأُموي، وهو من أتباع الديانة اليزيدية، ومن أُمرائهم أيضاً، حيث يذكر في كتابه: (اليزيدية) قائلاً: "ينتسب أئمة اليزيديين إلى الخليفة الأُموي الثاني يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وهم بذلك ينحدرون من أرومة عربية تمتد أُصولها إلى حرب بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وهكذا يتضح أنّ اليزيديين قد أخذوا تسميتهم من الخليفة الأُموي يزيد الذي ينتمي إلى أُصول قرشية"(١)، والبعض يرى أنّ: "اليزيدية: عقيدة دينية تقوم في الأساس على تقديس الشيطان. نسبتها إلى يزد أو يزدان من آلهة الزرادشتيين الإيرانيين، أتباعها من الأكراد".(٢)

أيّد هذا الرأي الكاتب زهير كاظم عبود في كتابه: (لمحات عن اليزيدية) حيث يقول: "جاءت تسميتهم باليزيدية تتمحور في محاولة البعض نسبتهم ظلماً أو جهلاً إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأُموي"(٣) ، ويركز الأستاذ صديق الدملوجي بأن اليزيدية الذين ينتمون إلى الشيخ عدي(٤) يرجعون إلى أصل مجوسي ثم أسلموا".(٥)

ويؤيد الباحث رشيد الخيون هذا الرأي فيذكر في كتابه: (الأديان والمذاهب بالعراق) مستدلاً بأُمور كثيرة لنفي نسبتهم إلى يزيد بن معاوية، وإثبات انتسابهم إلى إيزد أو يزدان والتي تعني بالزرادشتية الإله المقدس، ويقول: "تسمية اليزيدية جاءت بتأثير قومي ومذهبي وخصوصاً سعي الحكومة العراقية آنذاك بالإصرار على هذه التسمية، وقد سمّوهم أيضاً بالأُمويين، ولازم هذا القول ثبوت عروبتهم، وهذا ما يؤثر على ديموغرافية المنطقة الكردية العراقية"(٦)، وقد أسهب كتاب كثيرون في معرفة أصل اليزيدية وذهبوا إلى أن كثير من الوثنيين الإيرانيين عبدة

---

(١). أنور معاوية الأموي: اليزيدية (الطبعة الأولى، السويد، ٢٠٠١م) ص ١١.

(٢). مجموعة من الباحثين: المنجد في الأعلام واللغة (الطبعة الخامسة والثلاثون، بيروت، دار المشرق، د.ت) ص

(٣). زهير كاظم عبود: لمحات عن اليزيدية (بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٩٥م) ص ٣١.

(٤). عدي بن مسافر بن إسماعيل الهكاري، من كبار شيوخ المتصوفين، ومؤسس الطريقة العدوية الصوفية، توفي في بلدة الهكارية، ودفن في زاوية عبادته في لالش، وهي من الأماكن المقدسة عند اليزيدية، وتوجه له فرائض العبادة والتقديس، ومزاره بمثابة الكعبة عند المسلمين، حيث يطوف اليزيديون حوله. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٤، ص ٢٢١.

(٥). رشيد الخيون: الأديان والمذاهب في العراق، ص ٣١.

(٦). نفس المرجع ، ص ٨٩.

النار والشيطان والزرادشتية انقادوا ودانوا بالديانة الجديدة ـ اليزيدية ـ كأنها ديانتهم الخاصة.[١]

بعد سرد هذه الآراء يقف الباحث متأرجحاً بين الأدلة، وعليه فإن ما تطمئن إليه النفس بسبب تأثيرات الأديان الوثنية ـ العميقة الجذور في المنطقة ـ والتي أثرت بشكل واضح وجلي على معتقدات بل وعادات وتقاليد وقيم المجتمع اليزيدي، وتأييداً لهذا الرأي، هناك شواهد تذكر من قبيل: الأسماء المستعملة لأبناء اليزيدية، وبعض الطقوس والاعتقادات والالتزامات الدينية، فمن الملاحظ أنّ الديانة اليزيدية تحوي في داخلها طقوساً زرادشتية ومندائية وإسلامية، وتستمد جذورها التاريخية من المعتقدات الهند ـ فارسية وما بين النهرين، وتحتفظ بالكثير من تقاليد الحضارات السومرية، والبابلية، والآشورية، وعليه لا نجد فيها مقومات الدين الكامل، كما في باقي الديانات السماوية، إذن فهي ديانة تلفيقية أكثر مما تكون مستقلة وقائمة بذاتها.

يزيدية العراق في القرن ١٤هـ:

لليزيدية تاريخ عريق حالها حال جميع العقائد والمذاهب الدينية أو الجماعات السياسية، ولم يذكر التاريخ الإسلامي أنه تعثر أثناء فتوحه بمثل هذه الطائفة أو أن جيشاً إسلامياً واحداً حاربها، وقد تأزم العداء بينهم وبين العثمانيين بسبب التجنيد الالزامي، فقد كانوا يدفعون البدل عن الجندية منذ ١٣٠٨هـ إسوة بأبناء الملل الأخر، والذين تعتبرهم الدولة ذميين.[٢]

أما في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني تغير الوضع، ففي العام ١٨٩١م أصدر فرماناً بتشكيل فيلق الحميدية وهو فيلق كردي من الفرسان غير النظاميين للدفاع عن الحدود وسلطتها في الداخل، ولما كان السلطان عبد الحميد يعتبر اليزيدية فرقة متطرفة ضالة عن الإسلام فقد نظر إليهم نظرته إلى الإسلام، وفرض عليهم الانخراط في هذه الفرقة، ولكن اليزيدية رفضوا الخدمة وعرضوا دفع خمسين ليرة ذهبية، فلم يقبل السلطان وأبى إلا أن يكونوا كغيرهم في الخدمة عام ١٨٩٥م، وفي عام ١٨٩١م وصل وفد من استانبول مؤلف من ضابط وشيخين يحملون رسالة إلى اليزيدين، ويطلبون منهم أن يعترفوا بأنهم كانوا مسلمين ثم انحرفوا، وعليهم الآن أن يعودوا إلى الإسلام، ورفض ميرزا بك وشيوخه هذا الكلام، وقال لهم: "كيف نكون مسلمين وديننا يسبق دينكم بآلاف السنين؟! ألم يكن نبوخذ نصر يزيدياً؟! ونرى أن

---

(١). سهيل قاشا: اليزيدية (الطبعة الأولى، لبنان، مكتبة السائح، ٢٠٠٤م) ص ٤٧.

(٢). نفس المرجع، ص ٥٤.

العكس هو الصحيح، فأنتم الذين افترقتم عنا ولسنا نحن؟! غضب الوفد العثماني وطالبهم بالضرائب المتراكمة عليهم، فإما أن يدفعوها ويبقوا على دينهم، وإما أن يعتنقوا الإسلام فيعفون من الضرائب ويؤجل تجنيدهم.

لجأ اليزيديون إلى الارسالية التنصيرية الأمريكية في أورمية، وكانت تعمل منذ ١٨٧١م، وتطمح في جعل اليزيدين نصارى، لكن لم يتحقق ذلك، وفي النهاية سيقوا ـ ومعهم رئيسهم ميرزا بيك ـ إلى الثكنات وأكرهوا على الثياب العسكرية الزرقاء، وفي عام ١٨٩٢م أرسلت الحكومة العثمانية الفريق عمر وهبي باشا وكان ضابطاً حازماً مقرباً من الصدر الأعظم، إلى الموصل لينجز ثلاثة أعمال أهمها تأديب اليزيدية، فأرسل حملة تأديبية إلى سنجار، فقتل عشرة منهم وجرح خمسة وثلاثون، وساق مئة وعشرين أسيراً إلى الموصل، ثم جمع عمر وهبي كثيراً من اليزيدية وأمرهم باعتناق الإسلام، فأبى حوالي ربعهم، بينما البقية أعلنت الإسلام، وأجبرهم على إرسال رسائل إلى السلطان عبد الحميد يعلنون فيها أنهم انضووا تحت راية الإسلام وتركوا طريق الخطأ والضلال، ومع ذلك فإن عمر وهبي أرسل حملة تأديبية أخرى لقتل فلاحي منطقة شيخان، فأغاروا عليهم وقتلوهم ونهبوهم ونقلوا من المزار أشياء مقدسة ووثائق هامة، ثم أمر قائد الجيش أمين أفندي القره داغي أن يؤسس مدرسة دينية في مزار الشيخ عدي، وعين له ولمن يعمل معه مرتبات شهرية فتوافد إلى المدرسة من أظهر الإسلام من اليزيدية وبعض الأكراد من المنطقة وعدد من فقراء الموصل، وقد امتد العمل في هذه المدرسة من ١٣١٠ ـ ١٣٢٢هـ حيث اقنع الوالي نوري باشا الباب العالي أن يدعوا اليزيدية وشأنهم، وأن يقبل منهم البدل النقدي كما كانوا يفعلون، ويغلق المدرسة.

أما يزيدية الموصل فلم يبدوا أي استعداد لقبول الإصلاح واستمروا على عقيدتهم وعاداتهم، وحاربوا الجيش المغير عليهم، واحتموا بقمم الجبال، ولم تتوقف الهجمات عليهم حتى تدخلت السفارات الأجنبية وأوقفت الزحف عليهم، لقد كانت الحكومة العثمانية تضغط عليهم ليتركوا دينهم ويدخلوا في الإسلام ـ وكانوا هم بالتالي ـ مصرين عل التمسك بعقيدتهم التي حافظوا عليها منذ مئات السنين، وحينما اشتد الضغط على اليزيدية من قبل الولاة، ومن العاصمة حضر من استانبول عام ١٣١١هـ من طرف السلطان المأمور طاهر بك أميرالاي لكي يأخذ عسكراً من الموصل وأطرافها من ملة اليزيدية، وأن هذه الملة أميرهم وأكابر شيوخهم

لا يمكنهم أن يصيروا عسكراً حتى ولا أبناء الملة جميعاً فرفعوا عريضة باسم زعمائهم إلى السلطان شرحوا فيها مبادئ شريعتهم التي تمنعهم من الانخراط في الجندية الإلزامية.(١)

وحينما قامت الحكومة الوطنية في العراق، أعادة نظرها في الأقليات غير المسلمة ومنها اليزيدية، ومنحتها حرية المعتقد، وأما أميرهم فمصون غير مسؤول، وهو مشرف على طائفته، متولياً لأمورهم، مسؤول عن إدارة أوضاعهم، ولكن حين طالبت الحكومة العراقية الشباب بضرورة الانخراط في الجندية استنكف اليزيدية وبنوا لاستنكافهم على عريضة جعلتهم كتيبة واحدة، منفصلة في لباسها وطعامها ومسكنها وطريقة حياتها، إلا أن اليزيدية لم يستجيبوا لهذه التسهيلات فأعلنوا العصيان والتمرد، فأرسلت الحكومة فرقة لإخضاعهم في ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٥م، وختم يوم المعركة بمقتل مئة يزيدي، ولما أدرك اليزيديون أنهم غير قادرين على التصدي والمجابهة أطاعوا وصالحوا، ودخلوا في الحياة العامة، وبدأ اليزيديون يندمجون ضمن كل مجتمع يعيشون فيه ويتطبعون بطباعه، وأدركوا ـ بعد ذلك ـ معنى العلم والتعلم فأقبلوا على المدارس، وبرعوا في كثير من التخصصات المختلفة(٢)، بل وتطورت العلاقة برجال الدين والأمراء، وأصبح رجال الدين يحضون الناس على التعليم.

وخلال هذه المرحلة استقر اليزيدية وشعروا بالطمأنينة واستطاعوا إعادة بناء طائفتهم ومجتمعهم من جديد تحت ظل الأنظمة المختلفة التي تعاقبت خلال الحكم الوطني في العراق، محترمة لمشاعرهم الدينية ووضعهم الخاص وممارسة شعائرهم بشكل واضح وصريح.

كتبهم المقدسة:

لهم كتابان مقدّسان أحدهما (الجلوة)، وثانيهما (مصحف روش)، أي المصحف الأسود، وفيه مسألة الخلق وتكوين العالم وأصل اليزيدية، وهما باللغة الكردية ومن تأليف عدي بن مسافر، يقال إنّ عدد كلمات الكتابين لا يتعدى الألف كلمة، وهما من الكتب السرية، حيث لم يتسنّ للكثيرين قراءتهما، ولا نعلم لماذا؟! أليس الكتب السماوية للمندائيين واليهود والمسيح

---

(١). سهيل قاشا: اليزيدية، ص ٦٦ نقلاً عن كتاب: اليزيدية قديماً وحديثاً لأمير اليزيدية إسماعيل بك جول، تحقيق وتقديم: قسطنطين زريق (بيروت، المطبعة الأميركية، ١٩٣٤م) ص ٩٧.

(٢). كثير من أبناء الطائفة اليزيدية تخرجوا من الجامعات وكلياتها المختلفة داخل العراق وخارجه. انظر: سهيل قاشا: اليزيدية، ص ٥٣.

والإسلام موجودة وميسورة لمن يريد قراءتها؟! ومن أهم مصادرهم الدينية هو ما يعرف بعلم الصدر، ويعني انتقال العلوم بين صدور رجال الدين من جيل إلى جيل، وهي الروايات الشفهية، ولا نعلم لماذا تعليم القراءة والكتابة حرام وممنوع على اليزيديين؟ ولماذا إلى وقت متأخر كان منحصراً في إحدى العائلات الدينية فقط؟

محمد ﷺ في عقيدة اليزيدية:

يؤمن اليزيديون عامة بجميع الأنبياء والرسل، ولهم مكانة خاصة في عقيدتهم، فهم يعتقدون أن جميع الأنبياء والرسل مرسلون من عند الله سبحانه وتعالى، ولا فرق بين أحد منهم، وكثيراً ما يسمى اليزيديون ابناءهم بأسماء الرسل، ومن الأسماء المنتشرة بينهم مثلاً: إبراهيم، وإسماعيل، وسليمان، وداود، ولقمان، وخليل، وموسى، فهم يعتزون بها ويحملون هذه الأسماء باعتزاز كبير، إلا أن اليزيديون يحملون الكره الشديد تجاه اسم محمد ﷺ وأحمد بالذات، والسبب في ذلك ـ حسب زعمهم ـ هو ما لاقوه اليزيديون من البطش والتنكيل والملاحقة على يد بعض المسلمين في القرون الماضية أثناء الحملات العنيفة التي شُنّت عليهم باسم محمد ﷺ خاصة، ولا يعتقد اليزيدية أن الله أرسل رسولاً خاصاً بهم، بل يقولون: إنهم يتبعون نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام ولليزيدية بعض الحكايات في قصص الأنبياء والرسل، والذي يرغب البحث فيها، يتبين له موافقتها للخرافات والأساطير المنحولة، وهم يتناقلونها مشافهة بينهم ومنها: قصة وفاة محمد رسول المسلمين.[١]

يزيدية العراق:

إنّ الأقوام التي اعتنقت الديانة اليزيدية هي من أقدم القوميات في العراق، وقد سكنوها منذ آلاف السنين، وأكثر أتباع هذه الديانة من كرد العراق وفيهم القلة من العرب، يذكر رشيد خيون في كتابه: "فهناك ست مدارس إيزيدية بدهوك وحدها، يدرّس فيها منهاج ديانتهم (إيزيدي)، ولا تتمتع المدارس الإيزيدية التي ببعشيقية وسنجار والقسم الآخر من شيخان بهذا الامتياز"[٢] ، ويقدّر عدد اليزيديين في العالم حسب أرقام المفوضية العليا لشؤون اللاجئين بحوالي ٨٠٠ ألف يزيدي يعيش حوالي ٥٥٠ ألف منهم في العراق.

---

(١). ونصها موجود في كتاب: اليزيدية، لسهيل قاشا، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤.

(٢). رشيد الخيون: الأديان والمذاهب في العراق، ص ٩٥.

خامساً: الشبك (العليّ إللّهية):

يختلف الباحثون والمؤرخون في أصل الشبك الحاليين[(١)] الذين يسكنون في قرى عديدة شرقي الموصل[(٢)] في أطراف جبال سنجار، وأهم قراهم هي: دراويش، قره تبه، باجربوعة (باجربوغ) بازواية (بيت زاوا)، طوبرق زياره، خزنة تيه، منارة شبك، يتراوه (طهروا)، علي رش، طونراوه (طوبز آوه)،كورغريبان، كبرلي، باشبيثه، تيس خراب، ينكيجه، خرابة سلطان، بدنة، باسخره، شيخ امير(شيخ مير)، وبعويزه، وتعتبر أراضيهم من الأراضي المنبسطة الزراعية ذات الطابع الريفي[(٣)]، ويجاورون مناطق اليزيدية والنصارى.

ولعل جزءاً من الخلاف في ذلك يعود إلى ما يكتبه الشبكيون أنفسهم، فالبعض منهم يؤكد على أن الشبك عرق مستقل ليسوا عرباً و لا كرداً، في حين يعتبر البعض الآخر أنفسهم أكراداً وإن اختلفت لهجتهم بعض الشيء مع لهجة أكراد العراق الآخرين، والذي أُرجحه ـ من خلال البحث ولدراسة ـ أن الشبك مجموعة عرقية (مشتبكة الأصول) وملتبسة لدى الباحثين المختصين، وتعتنق في غالبيتها أو جزء كبير منها المذهب الشيعي الاثنا عشري.[(٤)]

ويسكن الشبك مع قوم يسمون بالـ (باجوان)[(٥)] وهي عشيرة كردية كبيرة ينتشر أبناؤها في ثلاث محافظات هي الموصل وديالى وكركوك، وتنتشر ضمن ثلاث دول هي تركيا والعراق وإيران وهؤلاء فيهم سنة وشيعة، ويتحدثون لهجة الماجو الكورانية وهي لهجة في اللغة الكردية، وفي

---

(١). يدفعنا إلى ذلك قلة المصادر وتضاربها، فأحد المصادر الذي يعتمد عليه كثيرون في هذا الموضوع هو كتاب: (الشبك) لأحمد حامد الصراف الصادر في بغداد عام ١٣٧٣هـ إلا أن كتابا آخر صدر عام ١٤٢٣هـ بعنوان: (الأديان والمذاهب بالعراق) لرشيد الخيون يعارض كل ما جاء في كتاب الصراف تقريباً، ويكاد لا يتفق معه على معلومة واحدة.

(٢). عباس العزاوي: الكاكائية في التاريخ (بغداد، شركة التجارة المحدودة، ١٣٦٨هـ) ص ٩٥.

(٣). وليس لهم من عمل يعملونه غير (ازدراع الزرع ومري الضرع) كناية عن الزراعة وتربية الماشية. أحمد الصراف: الشبك من فرق الغلاة في العراق (الطبعة الأولى، بغداد، مطبعة المعارف، ١٣٧٣هـ) ص ٨.

(٤). يرى العزاوي أن هؤلاء النصيرية ومن الغلاة القائلين بإلهية علي بن أبي طالب ﷺ، وهم لم ينقطعوا من العراق ولا يزالون إلى اليوم ويعرفون بالنصيرية وأسماء أخرى يخفون عقائدهم ويتكتمون كثيراً؛ ومن أسمائهم: العلي اللهية، والمشعشعية، والقزلباشية، والشبك، وأصحاب النذور وعندهم سر (عمس) لا يحلفون به كذباً ويقصدون بالعين (عليّاً) وبالميم (محمداً) وبالسين (سلمان الفارسي). انظر: عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٢، ص ٢٠١.

(٥). وهم في رأي العزاوي من الأتراك ودخلتهم اللغة الكردية ممزوجة بالفارسية والعربية بعامل الاختلاط، وهم على عقيدة الشبك بلا كبير فرق بل إن نحلتهم متفقة معهم. انظر: عباس العزاوي: المرجع السابق، ص ٩٥.

رسالة للدكتور داود الجلبي وردت في كتاب الصراف يقول: "أن الشبك جاءوا من جنوب ايران وأن لسانهم خليط بين الفارسية والكردية والعربية وقليل من التركية وان لهجتهم أقرب الى لسان البلوش".[١]

أهم عقائدهم وكتبهم:

يغلون في علي ﷺ غلواً عظيماً فقد وصفوه ونعتوه باوصاف ونعوت لا يقرها الاسلام، والشبك كالبكتاشيه يكررون في اجتماعاتهم لفظة (ألف: الله، م: محمد، ع: علي) تكرارا مستمرا متواليا في جميع أذكارهم وأورادهم وأدعيتهم، ويكررون بأن حب علي ﷺ حسنة تمحو كل سيئة، ويعتبر (البويورق) أي المناقب أهم الكتب الدينية عند الشبك، وكتاب المناقب هذا غير كتاب المناقب الآخر الذي هو صفوة الصفا لابن بزار[٢]، المطبوع طبع حجر في بومبي سنة ١٣٢٩هـ ويعرف عندهم بـ (البرخ) ويتضمن حواراً في آداب الطريقة الصوفية بين الشيخ صفي الدين بن اسحق الاردبيلي وبين الشيخ صدر الدين الصفوي وهما من رؤساء الصفويين، يحض علي التقوى والتمسك بالولاء لآل البيت، وللأعداد أهمية خاصة في الاجتماعات التي يعقدها الشبك، حيث يكثرون من الالتماس والاستغاثة في أذكارهم وأورادهم بأعداد: الثلاثة، الخمسة، السبعة، الاثني عشر، الأربعة عشر، والأربعين، وكل عدد من هذه الاعداد ترمز عندهم إلى أمور دينية مقدسة عندهم:

فالثلاثة هم الله ﷻ ومحمد ﷺ وعلي ﷺ، والخمسة هم الرسول محمد ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ ويسمون بأصحاب الكساء، ويرمز العدد سبعة الي درجات ومراتب أهل الطرق الصوفية وهي: المنتسب، المريد، الدرويش، المرشد، البير (البابا)، القلندر، الرند، والقطب، والاثنا عشر ويرمز إلى الأئمة الاثني عشر الإمام علي المرتضي والحسن المجتبي، والحسين الشهيد بكربلاء، وعلي بن الحسين زين العابدين (السجاد) ومحمد الباقر، وجعفر

---

(١). أحمد الصراف: الشبك من فرق الغلاة في العراق، ص ٨.

(٢). ويسميه الصراف متوكل بن إسماعيل البزار نقلاً عن: كشف الظنون لحاجي خليفة. انظر: أحمد الصراف: الشبك من فرق الغلاة في العراق، ص ١٤١، ويرى العزاوي كالصراف أنه مختصر لصفوة الصفا ويصفه بأنه "جامع أو صفوة" ويرى أن بويوروق في الأصل أوامر أو ما ينطق به الشيخ أو رئيس الطريقة من شعر مختار وما ماثل إلا أنه سميت المناقب أو هذا الكتاب بهذا الاسم. انظر: عباس العزاوي: الكاكائية في التاريخ، ص ٩٠.

الصادق، وموسي الكاظم، وعلي النقي (الهادي)، وحسن العسكري، ومحمد المهدي.

ويرمز العدد أربعة عشر الى الائمة الاثني عشر يضاف اليهم اسم الرسول ﷺ واسم ابنته فاطمة الزهراء، والأربعون وهم الابدال أو الواصلون وهؤلاء لا يعرفهم الناس ولا يرونهم لأنهم رجال الغيب أو رجال الله وجند الله وأن الله منحهم قوة وزودهم قدرة على حفظ نظام الدنيا وفي مقدمة ذلك إغاثة الملهوف ومعاونة المظلوم كما يعتقد الشبك.

وفي معرض حديثه عن مبدأ التقية عند الشبك الشيعة يقول الصراف: "وقد ظهر لي ان التكتم من أولى شعائر الشبك وأن الطريقة طلسم من الطلاسم والنحلة سر من الأسرار والإنكار والتقية درع ومجن يتقي بها الشبكي الخطر ولم أشك لحظة في ان الكتمان عند الشبك أحد واجبات الإيمان المفروضة عليهم وهو من مستلزمات العقيدة الاسماعيلية الباطنية التي كانت تبالغ في التستر".

ويشير في مقدمة الكتاب إلى أن: "الشبك غصن من الشجرة الامامية ..لهم اذكار واوراد وصلوات مثل الطرق الاخرى كالنقشبندية والرفاعية والقادرية ولهم رسوم وعادات خاصة بهم وقد تبدلت بتسلط الجهلة عليهم فأبعدهم هؤلاء عن الاسلام وانسوهم الفرائض والسنن، وحللوا لهم المحرمات واقحموهم في الكبائر والموبقات".

محمد ﷺ في عقيدة الشبك:

مما ذكره العزاوي في عقائدهم: "أنهم يعتقدون بالتناسخ، ويسبون الصحابة الكرام، وأنهم تولوا عبد الرحمن بن ملجم لأنه خلص روح اللاهوت من الجسد البراني"[(١)]، وينقل ـ العزاوي ـ عن كتاب فارسي[(٢)] عقيدة الشبك، فينسب إليهم القول بالحقيقة المحمدية حيث ينقل عنه قوله: "والحق أن النبي ﷺ الذي كان أعلم بكثير من سائر الأنبياء، واجتمعت فيه كافة الصفات الحميدة التي اتصف بها الأنبياء قبله مما دعا أرباب العقول أن يروه يخرج من الجنة ويحلَّ جسم أبي البشر فيشاهدوه بصورة آدم عليه السلام، وتارة يجدونه مجسماً بهيئة نوح عليه السلام فيصنع الفلك، وأحياناً يبصرون في شكل إبراهيم عليه السلام يلعب بالنار، وينظرونه في لباس الكليم عليه السلام

(١). عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٢، ص ٢٠٢، والبراني: في لهجة العراقيين هو الخارجي.

(٢). وهو: دبستان مذاهب للفاني، حيث يعتبره ـ العزاوي ـ أنه الكتاب الوحيد في تدوين عقيدة الشبك أو العليِّ اللّهية. انظر: عباس العزاوي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٠١.

ناطقاً لهم، ومما يؤيد ذلك قول: (من عرف نفسه فقد عرف ربه) و (وإن خلق آدم على صورته) وما آدم أبو البشر سوى المرتضى بدليل (رأيت ربي في صورة امرئ) إشارة إلى قدم الذات التي تظهر بصورة نبي جسم رجل عظيم فذ"، ومما يقولونه أيضاً: "إن الكعبة لم تأتي للوجود إلا بسبب حضرته، فإنه كان في دورٍ يتصل فيه بأجساد الأنبياء والأولياء، كما تدرج من آدم إلى أحمد، وهكذا نور الحق أخذ بالتنقل أو التناسخ في الأئمة"(١).

كما يفهم مما نقله العزاوي في وصفهم عن ـ دبستان مذاهب ـ أنهم يؤمنون بنظرية الأدوار حيث يقول: "وبعضهم يقول: إن نور الحق ظهر في هذا الدور بمظهر علي، وكان هو (الله) وبعده يحل في أولاده ... ويعتقدون أن (محمد علي) هو رسول (علي الله)، ولما رأى الحقُّ أن رسوله لم يتمكن من إتيان عمل بادر إلى مقاومته، وحل في جسد رجل اسمه أحمد، بل هذا مرتب من أبي بكر وعمر وعثمان ليس إلا، وكان بعضهم يقول: إن هذا المصحف هو كلام (علي الله) إلا أنه نظراً لكونه مرتباً من قبل عثمان فلا تجوز تلاوته، وقد وجد أن بعضهم قد جمع ما كان هناك من نظم ونثر مما يتعلق بعلي وأدخله ضمن القرآن، وكانوا يرجحون هذ القرآن الأخير على القرآن الأصلي لاعتقادهم أنه وصل إليهم من (عليِّ الله) بطريق مباشر، وأن القرآن الأصلي وصل إلى الناس بواسطة محمد بطريق غير مباشر.

وفيهم طائفة تدعى (علوية) ينتسبون إلى عليَّ الله، وهم منهم فيشاطرون بقية إخوانهم في العقائد المذكورة إلا أنهم يقولون أن هذا المصحف الموجود ليس من كلام (عليَّ الله) إذ أن الشيخين قد سعيا في تحريفه فتبعهم عثمان، وتركه لفصاحته وصنف مصحفاً آخر بدله به، وأحرق الفرقان الأصلي، وشأن هذه الطائفة أنهم كلما وجدوا مصحفاً أحرقوه، ويعتقدون أن علي الله اتصل بالشمس، فلا يزال شمساً وقد كان من الشمس وقد اتصل مدة بجسم عنصري، ولهذا رجعت الشمس بأمره إذ كان هو عين الشمس، وعلى هذا يقولون للشمس (عليَّ الله)، وعندهم الفلك الرابع (دلدل)، وأصبحوا عبدة النيران، وصارت الشمس في نظرهم هي الله، وهو خلق عظيم، ويزعمون أنهم حينما يدعون الشمس تجيب دعوتهم وتعينهم على الشدائد".(٢)

---

(١). عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٢، ص ٢٠٤.

(٢). نفس المرجع، جـ٢، ص ٢٠٥.

سادساً: الكاكائية:

الكاكائية هي إحدى الجماعات والفرق التي تنتشر في شمال العراق، شأنها شأن الشبك واليزيدية، ويختلف المؤرخون والباحثون حولها اختلافاً كبيراً بسبب الغموض والسرية والرمزية التي تحيط بعقائدهم، إضافة إلى تداخل الأديان والمذاهب في عقائدهم، فهي مزيج من الأفكار والعقائد المستمدة من التصوف والتشيع الغالي والنصرانية والفارسية، وهي ليست ديناً أو مذهباً ولكنها خليط من الأديان والمذاهب.

الكاكائية نسبة الى كلمة (كاكا) الكردية الأصل وتعني (الأخ الأكبر) وبهذا تكون الترجمة الحرفية لكلمة الكاكائية، (الآخية)، والنسبة إليها (كاكائي) [(١)]، وهي جماعة أو عشيرة كردية موطنها الرئيس هو مدينة كركوك، وعلى ضفاف نهر الزاب الكبير في منطقة الحدود العراقية الإيرانية، وتسكن اغلبها في كردستان الجنوبية وخصوصا في كركوك، وخانقين، ومندلي، وجلولاء، وهولير، والسليمانية، وهورامان، وكذلك في كردستان الشرقية في قصر شيرين وصحنة وكرماشان وسربيل زهاو، كما لهم وجودٌ ملحوظ في تلعفر والساكنون منهم في كردستان الشرقية يسمون (أهل الحق) ويطلق عليهم ـ أيضا ـ الصارلية[(٢)]، واليارسانية، وكلمة يارسانية تتشكل من (يار) و(سان) في الكردية والفارسية، وتعني الأولى صديق أو محبوب، أما الأخرى فتعني الشاه أو السلطان، فيكون معناها أتباع أو اصدقاء سلطان إسحاق.

الكاكائية طريقة صوفية ظهرت الى الوجود على شكلها الحالى في القرن السابع الهجري على يد فخر العاشقين سلطان إسحاق البرزنجي (ت ٧٩٨هـ) وهو مؤسس ومجدد هذه الطريقة الصوفية؛ والتي ظهرت بوادرها في القرن الثاني للهجرة على يد قطب العارفين عمرو بن لهب الملقب بـ (بهلول)، ومن شخصياتهم التاريخية التي يعظمونها احمد بن ميره بگ الذي عاش في القرن الثامن الهجري، العم درويش نظر الگرمياني (ت ١٨٧٥م)، الشيخ پير ويس سيابيم

---

(١). عباس العزاوي: الكاكائية في التاريخ، ص ٤.

(٣). الصارلية وهو اسم منحوت من قولهم (صارت الجنة لي) فهم الشيعة الغلاة الذين أسقطوا التكاليف الشرعية من صيام وصلاة وزكاة، واعتمدوا الإباحية، وقيل هم من شيعة الشبك، وسبب تسميتهم بذلك أنهم بعد موسم الحصاد يشترون بأموالهم من شيخهم أراض في الجنة، ويسألونه: كم صار لي في الجنة؟ ويعطيهم صكوكاً بذلك تدفن معهم في القبور، ويعتقدون أنهم يشترون أراضيهم من خزنة الجنة بعد موتهم بهذه الصكوك. انظر: عبد المنعم الحنفي: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية (الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م) ص ٤٣٢.

(ت ١٨٩٢م) السيد ولد افندي (ت ١٩١٧م) خليل اغا (ت ١٩٣٢م) هجري دده (ت ١٩٧٢م) الملا فتح الله بن حويش (ت ١٩١٩م).[(١)]

وأصل مذهبهم محل خلاف واسع، فإضافة إلى الرأي الذي ذكرناه، هناك من يعتبرهم بقايا جماعة الفتوة وتنظيمها، التي شجعها الخليفةُ الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ) بعد أن جعل من نفسه الفتى الأول، ثم تقلّد رئاستها خلفاؤه، فيُذكر أن حفيده المستنصر (ت ٦٤٠هـ) لَبِس سراويلَها الخاصةَ، في مرقد علي بن أبي طالب ﷺ بالنجف، والكلمة الكردية (كاكا / الأخ) كانت وراء القول في صلة الكاكائية بالفتوة، المعروفة بالآخيّة أحياناً.[(٢)]

وآخرون يقولون بأنهم "اختاروا النصرانية على كل دين سواه"،كما أن آخرين يسقطون البعد الديني الإيزيدي عليها، والمتمثل بوجود مركز رئيس الملائكة في عقائدهم، وبحسب تقرير للاستخبارات البريطانية عن العشائر الكردية، كان سلطان اسحاق متأثراً بِنِحلة دينية قديمة كانت مزدهرةً، يُدعى صاحبها بابا خوشين[(٣)]، ولعل الآراء المتباينة التي ذهبت في تفسير الكاكائية، مردها ما عزاه بعضهم إلى أنهم يخفون رأيهم الديني على كل إنسان، إضافة إلى تداخل الديانات في مذهبهم.[(٤)]

أهم كتبهم:

كلام الخزانة أو (سرانجام) المدون في القرنين السابع والثامن الهجري ويتكون من ستة أجزاء، ويعتبر في رأيهم وحيا منزلا، ويرون فيه تعاليم كاملة، ونهجاً قويماً، ومرشداً لهم في الحياة، يستندون إليه في حل كل مسائلهم الدينية والدنيوية، وهذا الكتاب لم يُطبع قط في أي مكان، وتضمنت بعض مواضيع سرانجام الحكم وتسمى (علم الأعلى)، واصطلاحات فلسفية يصعب على كل إنسان إدراكها، وقد جاء في مقدمته أنه يجب ألا يطلع على مضامين الكتاب المقدس

---

(١). عباس العزاوي: الكاكائية في التاريخ، ص ٦٧.

(٢). نفس المرجع، ص ١٤، نقلاً عن جامع المختصر لابن الساعي، ورشيد الخيون: الكاكائية وحيرة المؤرخين في تقصي تاريخها ومعرفة أحوالها الراهنة، موقع وطن الجميع، في ٢٠١١/٢/٢٨م، http://www.wattan٤all.org

(٣). الكاكائية من فرق العراق، موقع الراصد، العدد ٢١، ربيع الأول، ١٤٢٦هـ، http://www.alrased.net

(٤). انظر ما كتبه: الأب أنستاس الكرملي في مجلتي: المشرق لعام ١٩٠٢م، ولغة العرب لعام ١٩٢٨، وعباس العزاوي في: الكاكائية في التاريخ، وعبد الرزاق الحسني في: العراق قديماً وحديثاً، والمستشرق الروسي مينورسكي في: الأكراد ملاحظات وانطباعات، ورشيد الخيون في: الأديان والمذاهب بالعراق.

كل من كان، وأنه يجب ترتيله برموز، ولا يجوز تداوله من قبل أناس غير أهل له، أو غير لائقين، كما يشير سلطان إسحاق البرزنجي ـ أيضاً ـ إلى مرموزية الحكمة، ويبين أنه يجب الحديث فيها في لبوس الرموز والأسرار والكنايات، ولا ينبغي بيانها مكشوفة للعامة، حيث يقول: "لا تكشفوا الأسرار، فيا أيها الياران (الأنصار) إياكم وكشف الأسرار، فالحكمة يتلقاها الأهل برموز، لئلا تحترقوا في محرقة أعمالكم".

ويطلق البعض على أقوال وحكم عظمائهم (كلام) أو (دفتر)، كما يطلقون على علماء هذه الطريقة (كلام خوان) أي قارئ الكلام، وكل (كلام) موزون ومقفى، أو مكتوب في نثر بديع، وهناك كتب عديدة لهم، كُتبت في قرون هجرية مختلفة، ما بين القرن الثاني إلى الثالث عشر مثل: دوره بهلول، دور شاه خوشين، كلام ايل بيكي جاف، كلام نوروز، كلام حيدري... ومن كتبهم المشتركة مع غيرهم (خطبة البيان) المنسوبة لـ علي بن أبي طالب ﵁، قال حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ): "سبعون كلمة، أولها: الحمد لله بديع السموات وفاطرها ... إلخ، قيل أنها من المفتريات، ولها شرح بالتركية في مجلّد (كشف الظنون) وقال آغا بَزْرَكْ الطهراني: "من الخطب المشهورة نسبتها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁، ولها نسخ مختلفة بالزيادة والنقصان.. لم يذكرها الرضيُّ في نهج البلاغة، ومن كتبهم أيضاً (جاوَدانْ عُرفي) وهو كتاب الطريقة الحروفية الصوفية، وكتاب (حياة) و (التوحيد) لـ سلمان أفندي الكاتبي، تُضاف إلى هذه الكتب دواوينَ شعرية، تُتلى كأدعية وابتهالات المؤسس سـلطان إسحاق.[1]

محمد ﷺ في عقيدة الكاكائية:

الكاكائية لا يؤمنون بأن القرآن كتاب الله لأنه في نظرهم من جمع عثمان بن عفان ﵁، ويعظمون داود أكثر من تعظيمهم محمد ﷺ، ولم يكن هذا هو النبي داود ﵇، وإنما هو من رجالهم أصحاب الحلول، وله كتاب (زبور داود)، ويقولون إن القرآن الكريم من نظم محمد ﷺ، ولا يستدلون بآية من إلا لغرض تأكيد عقيدتهم أو بقدر ما يراعى فضل الله الحروفي من تأويل آياته لتوافق ما عندهم من إبطان، وعندهم مقطوعات شعرية لأهل الظهور ترجح على القرآن،

(١). رشيد الخيون: الكاكائية وحيرة المؤرخين في تقصي تاريخها ومعرفة أحوالها الراهنة، ومقال: الكاكائية من فرق العراق بموقع الراصد: http://www.alrased.net

(٢). نفس المرجع .

ولا يرجح على (خطبة البيان) شيء حتى القرآن، ويقولون محمد كبير، ويقفون عند ذلك باعتبار أنه تلقن من الإمام علي، ولكنه راعى الظاهر، ولم يبال بالباطن، بل لم يقف عليه ولا على دقائق أسراره ولا على مراد الإمام علي.[١]

(١) عباس العزاوي: الكاكائية في التاريخ، ص ٦١.

المبحث الثالث:

الاستشراق والتغريب

وأثرهما في كتابة السيرة

النبوية

لقد كتب المستشرقون والمستغربون عامة، مئات الكتب عن الإسلام والمسلمين، بعضها بحوث تاريخية، ودراسات أدبية، وبعضها وصف لأسفار، وتسطير لعادات وأوضاع إسلامية أو منحولة للإسلام، كما أن بعضها قصص أقرب إلى الخرافة والخيال منها إلى الحقيقة والواقع.

ومن الصعب أن يتناول الباحث هذا الموضوع بعيداً عن الشبهات والمفتريات، دون أن يتناول بالتنقيب والتمحيص جمهرة المستشرقين الذين عنوا بدراسة تاريخ الإسلام، دراسة كانت تتسم بالبحث العلمي والموضوعية الرصينة، وبالغَرَض والدسِّ والتشويه عند الغالبية العظمى منهم، وقد خص كثير من هؤلاء وهؤلاء الإسلام بكثير من أبحاثهم المستفيضة، وتناولوا جوانبها المتعددة بالدراسة العميقة أو السطحية الساذجة وفق غاية الباحث وتبعاً لمقصده وهواه.

ولعل من أكثر الشخصيات البارزة في التاريخ الإنساني تعرضاً للتشويه لدى المستشرقين هو النبي محمد ﷺ، فقد تهجموا على شخصه الكريم وأنكروا نبوته، وشوهوا الدين الذي جاء به، لذلك فإن الباحث لن يتمكن من تفسير مواقف المستشرقين من النبي ﷺ ودعوته حتى يتعرف ولو على وجه التقريب، إلى آراء وتصورات المستشرقين عن النبي ﷺ؛ لأن تلك التصورات الموغلة في العدائية والمجافية للموضوعية هي التي كان لها الإسهام الكبير في رسم الخطوط العريضة للموقف الاستشراقي الغربي تجاه رسول الله ﷺ ودعوته بصورة عامة.(١)

لقد قام العديد من الباحثين في الغرب بوصف الصورة المشوهة التي خلقها بعض المستشرقين إبتداءا من فترة التنصير حتى العصر الحديث عن سيرة الرسول محمد ﷺ وعن القرآن الكريم وعن الإسلام كعقيدة وشريعة، فبدأ الموقف الغربي من رسول الإسلام ﷺ يتشكل في إطار ديني صرف، مترع بالتعصب والتشنج والانفعال، مليء بالحقد والغضب والكراهية، تحيطه جهالة عمياء، متعمدة حيناً وغير متعمدة أحياناً، جعلت بين القوم وبين شخصية رسولنا ﷺ سداً يصعب اختراقه، والنتيجة ليست أبحاثاً تاريخية علمية أو موضوعية بحال! إنما ذلك السيل المنهمر من الشتائم والسباب مارسها رجال دين من قلب الكنيسة النصرانية باتجاهاتها المختلفة، ومارسها رجال علمانيون لا علاقة لهم بالكنيسة من قريب أو بعيد وقد استمر هذا التيار حتى

---

(١). محمد فارس الجميل: النبي ﷺ ويهود المدينة (الطبعة الثانية، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٧هـ) ص ١٥.

العصر الراهن.(١)

ولعلي أستطيع أن أقرر بدءاً بأنني نادراً ما نرى مستشرقاً لم يتناول سيرة الرسول ﷺ أو الدعوة الإسلامية في كتبه أو أبحاثه، كما وأننا نستطيع أن نؤكد رغم تبدل النظرة الاستشراقية في المنهج والتفسير والأسلوب والعرض فإن الغالبية من المستشرقين منصفين ومغرضين على حدٍّ سواء، لم تتمكن من التخلص من الفكر المعادي والتفسير المشوه للرسول محمد ﷺ وللقرآن الكريم والمبادئ الإسلامية، ولعل من أشهر المستشرقين الذين عُرفوا بإيمانهم وغيرتهم على الإسلام ودفاعهم عنه ايتين دينيه، وله رأي في جملة المستشرقين جدير بالتأمل والتقدير، حيث يقول: "من العسير أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول محمد ﷺ وحياة صحابته"(٢)، ولذا نذر نفسه وفكره وقلمه للردّ على المنحرفين الحاقدين المستشرقين، الذين شكّك فيهم، واتّهمهم ـ مُحقاً ـ بالتحيز والمغالطة والافتراء، فقال: "لقد بلغ تحريف بعض المستشرقين لسيرة محمد ﷺ وصحابته مبلغاً غطى على الواقع، وأخفى الصورة الحقيقية، وذلك على الرغم مما يزعمه المستشرقون من إتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي المحايد".(٣)

ولا بد أن أقول بأن شعوراً بالقصور قد لازمني وأنا أحرر هذا المبحث فشأن الرسول ﷺ أكبر من تخرصات الحاقدين، ولكن الهدف الذي سعيت إليه أن أقدم صورة لموقف بعض المستشرقين من الإسلام ونبيه وكتابه، وأحيل القارئ إلى ردود بعض العلماء المسلمين عليه، إذ لا يختلف اثنان من الباحثين المختصين بأن رسول الإسلام محمد ﷺ يقف في ضوء التاريخ الساطع كما أقر بذلك بعض الكتاب الغربيين: "إن محمداً ﷺ هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس"(٤) وهذا لم يتيسر مثله ولا قريب منه لرسول من رسل الله السابقين، ولم يعرف التاريخ شخصية دينية أو قيادية أو عسكرية أو إصلاحية اجتماعية تتبع الناس أخبارها، وبحثوا في

---

(١). عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، بحث منشور ضمن مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية (الرياض، مكتب التربية لدول الخليج العربي، ١٤٠٥هـ) جـ١، ص ١٢٧.

(٢). يوسف العظم: تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، ص ٤٥.

(٣). نفس المرجع، ص ٤٥.

(٤). مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر (الطبعة الأولى، بيروت، دار الوراق للنشر، ١٤١٩هـ) ص ١٨.

دقائق تفصيلاتها وتحركاتها وأسرار حياتها الخاصة والعامة، ووثوقها بكل ما وصلوا إليه من وسائل التوثيق المنقول والمعقول والجرح والتعديل لما يحيط بها من رجال، أو ما يتعلق بها من صلات، مثلما تم لشخصية الرسول محمد ﷺ، بمعنى أن سيرته الشخصية وما بلغ من مبادئ وتعاليم إسلامية مدعومة بوثائق تاريخية وروايات مسندة وموثقة، إلا أن الاستشراق الأوروبي يأبى إلا أن يبدأ في تشكيكاته وتحريفاته من الأسس والجذور متبعاً منهج المنصرين التقليدي نفسه؛ في التشكيك بالنصوص التاريخية حيث يتساءل تور أندريه(١) وغيره عن مدى الثقة بالمعلومات التي وصلتنا عن محمد ﷺ قائلاً: "ولا نعرف بالضبط متى ولد محمد، وأكثر ما جاءنا عن حياته الأولى معلومات أسطورية".(٢)

وهكذا يفاجئ المؤرخ المختص بتاريخ الإسلام وفي مطلع القرن الواحد والعشرين وبعد كل التقدم الذي حصل في تحقيق ونشر المخطوطات العربية وفي طرق البحث العلمي في التاريخ وفي تفسير التاريخ وفلسفته، يفاجئ بفرضيات وتفاسير تعود به إلى تصورات المنصرين المتطرفين في العصور الوسطى الأوربية القائمة على أساس التلفيق والاختراع لتصوير نبي الإسلام في أشكال مشوهة وبشعة للغاية، ليتضح لكل صاحب فكر مدى اعتناق هؤلاء لتلك العقيدة الموروثة التي لفقها أسلافهم خلال العصور الوسطى في أوروبا، بأن الإسلام هرطقة منشقة عن النصرانية وأن النبي محمد ﷺ شخص مرتد عن الدين الصحيح النصرانية وأنه لم يكن أكثر من مدع؟! وغيرها من الصفات النابية التي وصفوا بها الرسول ﷺ.(٣)

ولا شك فإن كتابات من هذا النوع المغالي في الوضاعة واللاموضوعية كانت جزءاً من ثقافة الرأي العام الأوربي في العصور الوسطى، بل إن أثرها اتسع فامتد إلى عصر النهضة إلى الدرجة التي نلاحظ فيها أن أديباً مثل دانتي يبدو في (الكوميديا الإلهية) متأثراً بأفكار مجتمعه حول الإسلام ونبيه، فالإسلام في نظره لم يكن أكثر من زندقة جعلت الظلام يخيم على العالم،

---

(١). أستاذ للعلوم الدينية في جامعة ستوكهولم، له عدة بحوث في الكنائس النسطورية في الحيرة واليمن، وكتاب عن الرسول ﷺ "محمد حياته وعقيدته" وقد ترجم إلى عدة لغات وغير ذلك من الأعمال. انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون جـ٣ (الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف، د.ت) ص ٣٣.

(٣). لويس غارديه: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية (بيروت، دار العلم لملايين، د.ت) ترجمة: صبحي الصالح، جـ٢، ص ٣٢.

(٣). فارق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي (الطبعة الأولى، عمان، الأهلية للنشر، ١٩٩٨م) ص ٥٢.

وأن فيلسوفاً مثل فولتير يصف الإسلام والرسول ﷺ بصفات نابية تناقض كل القيم التي نادت بها حركة التنوير الأوربية، بل إن مؤرخاً مثل المستشرق البريطاني همفري بريدو[١] يعتبر الإسلام "انتقاماً من الرب بسبب انقسامات الكنيسة الشرقية على نفسها فالعرب هم الأداة التي أرسلها الرب ليصب غضبه على النصارى، وقد استمرت هذه النزعة المعادية والصورة المزيفة ولم تتغير خاصة لدى المستشرقين الذين تربطهم بالكنيسة روابط قوية مثل القس الكاثوليكي والمستشرق المتزمت هنري لامنس اليسوعي[٢] الذي اتصفت كتاباته عن السيرة بالتعصب اللاموضوعي، وتشكيكه المتكرر بروايات التاريخ الإسلامي وتحذيره من قبولها ولكنه مع ذلك يستسيغ لنفسه قبول الروايات التي تتفق مع وجهة نظره وتفسيره لأحداث التاريخ الإسلامي، فهو يتهجم على الرسول ﷺ ويعتبره نبياً مزيفاً وهذا تفسير لا يختلف عن تفاسير القرون الأوربية الوسيطة، مع فارق بسيط هو أن المنصرين في القرون الوسطى كانوا يسردون أكاذيبهم وافتراءاتهم معتمدين على الخيال والأساطير، أما الأب لامنس فيعطي للقارئ انطباعاً على موضوعيته وعلميته من خلال الهوامش المرصوصة بأسماء المصادر والكتب التي اعتمد عليها!! بينما البحث التاريخي يؤكد عدم الثقة في الروايات التي اختارها أو الخطأ في تفسير تلك الروايات وتحميلها أكثر مما تحتمل، وهكذا فإن تعصبه الديني وتزمته قد أضعف من أهمية دراساته حول السيرة.[٣]

شهد النصف الأول من القرن الثامن عشر نظرة جديدة إلى الإسلام ونبيه، ذلك أن عصر التنوير الأوربي كان من جوانب عديدة متحرراً من النزعة اللاهوتية التي شجعتها الكنيسة في أوربا والمعادية للإسلام، إلا أن النظرة الجديدة لم تكن خيالية من التحيز والتحريف والتشويه القديم، وكان كتاب (حياة محمد ﷺ) للمستشرق الفرنسي دي بولانفلييه[٤] خير من مثل النزعة

---

(١). مستشرق إنجليزي متعصب ضد الإسلام ونبيه ﷺ، وهذا يتجلى من العنوان الكامل للكتاب وهو: "الطبيعة الحقيقية للخداع كما يتجلى كاملاً في حياة محمد". انظر: وعبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين (الطبعة الأولى، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤م) ص ١٠٧.

(٢). بلجيكي المولد فرنسي الجنسية، وهو راهب يسوعي متعصب ضد الإسلام ونبيه، من كتبه: (مهد الإسلام) (مكة عشية الهجرة). انظر: عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص ٣٠٣.

(٣). فارق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٥٦.

(١). مستشرق فرنسي، كان أول أوروبي أنصف النبي ﷺ محمداً بكتاب بعنوان: (حياة محمد). انظر: عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص ١٤٢.

الجديدة، كما ظهرت النزعة نفسها في ترجمة المستشرق الانجليزي سيل القرآن تلك الترجمة التي بقيت معتمدة في أوربا لفترة طويلة، وقد أظهرت هذه الدراسات وغيرها الرسول محمد ﷺ في صورة رجل القرن الثامن عشر الأوروبي مصلحا غير نصراني، أو كما صوره فولتير (ت ١٧٧٨م) في رسالة (محمد ﷺ) رجل سياسة تبرر الغاية عنده الوسيلة، وأن كتابه (القرآن) غامض وغير مفهوم ولا يمكن أن يدعي أي عظمة حقيقية؟!

بل حتى المستشرق الاسكتلندي توماس كارلايل الذي يعد من أكثر المستشرقين الغربيين إنصافاً للنبي ﷺ لم يزد على أن عدّ النبي ﷺ مجرد مصلحاً اجتماعياً، أو بطلاً عظيماً، أو سياسياً بليغاً، أو عبقرياً فذاً في صورة نبي ضمن سلسلة الأبطال الذين ضمهم كتابه (الأبطال) وقال في أثناء مديحه إياه: "لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي إلى القول بأن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خدّاع مزوّر، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرجل ما زالت السراج المنير على مدى اثني عشر قرناً لمئات الملايين من الناس"[(١)]، وعلى الرغم من هذا الإطراء للرسول ورسالته فإننا ما نلبث أن تظهر أمامنا حقيقة أبناء الثقافة الغربية المتحيزة والمشككة في كل ما يتعلق برسول الإسلام وجوهر عقيدة المسلمين، فها هو ذا كارلايل الذي سمعنا منه إزجاء المديح للرسول ﷺ لا يتحرج في الوقت ذاته من الطعن في القرآن الكريم حيث يرفضه ويزدريه، إذ يقول على حد زعمه: "إنه خليط غير مترابط، يرهق القارئ، غليظ النسيج، ركيك التركيب، غاص بالتكرار وبالإسهاب والمعضلات التي لا تنتهي، وباختصار فهو بالغ الغلظة والركاكة والغباء الذي لا يطاق"[(٢)]، وفي معرض المقارنة بين سيدنا محمد ﷺ وشكسبير يقول كارلايل في كتابه الآنف الذكر: "إن المقارنة بين شكسبير ومحمد لتعتبر غير ذات موضوع لأن بطولة شكسبير في أعلى عليين"، بينما يقول عن العرب وتأثير الرسول ﷺ فيهم: "قوم يضربون في الصحراء عدة قرون لا يؤبه لهم، فلما جاءهم (محمد) النبي العربي أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان، وكثروا بعد قلة وعزوا بعد ذلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم".[(٣)]

---

(١). توماس كارلايل: الأبطال، ص ٥٨.

(٢). كارين آرمسترونج: سيرة النبي محمد (الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٨م) ترجمة: فاطمة نصر ومحمد عناني، ص ٤٠.

(٣). توماس كارلايل: الأبطال، ص ٥٨.

كذلك فإن المستشرق الفرنسي إميل درمنغم[١]، الذي يعدّ من أبرز المستشرقين الذين حاولوا إنصاف النبي ﷺ ورسالته وتقديمه للغرب بالصورة التي تليق بعظمته، كان هو الآخر متأثراً بثقافة عصور الظلام الأوروبية فيما يتعلق بالإسلام ونبي الإسلام، فهو عندما يتحدث عن النبي وعلاقته ببداية الوحي، يقول: "وأضحى لا يفرق جيداً بين تعاقب الليل والنهار، وبين اليقظة والمنام، وغدا يقضي طويل الساعات جاثيا في الظلام أو مستلقيا تحت الشمس أو سائراً بخطى واسعة في الشعاب الصخرية، وكان كلما سار خُيل إليه أن أصواتا تخرج من الحجارة فإذا ما تعثر بحجر ارتد، والحجارة كثيرة تحت وهج الشمس، والحجارة تحييه بـ (رسول الله) ثم ينتهي درمنغم إلى القول: "أصبح محمد بعد ستة أشهر نحيفاً منهوك الجسم غير منتظم الخطى أشعث الشعر واللحية غريب النظرات، فأخذ يقنط، هل أصابه مس كما كان يجد في الغالب؟!"[٢]، وهكذا يصور درمنغم شخصية الرسول ﷺ في أثناء فترة إرهاصات النبوة ونزول الوحي، وكأنه مجذوب يعاني من الوساوس والتخيلات والمس كذلك.

لقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ظهور مادة تاريخية جيدة عن الإسلام ساعدت إلى درجة ما على توضيح الصورة أو تعديلها بالنسبة للمستشرقين، وكان من نتيجة ذلك ظهور كتاب نولدكه[٣] (تاريخ القرآن)، وكان كل من فايل[٤] ووستنفلد[٥] قد نشرا بالتتابع النص العربي والترجمة لسيرة ابن إسحاق، وذلك قبل أن يصدر ألفريد جيوم[٦] الترجمة الانجليزية الكاملة للسيرة النبوية لابن إسحاق مضيفا إليها الروايات التي لم يذكرها ابن هشام في

(١). شغل مدير مكتبة الجزائر، له مؤلفات منها: (حياة محمد). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، جـ١، ص ٣٤٨.

(٣). إميل درمنغم: حياة محمد (الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٦٨هـ) نقله إلى العربية: عادل زعيتر، ص ٧٨.

(٤). من أكابر المستشرقين الألمان، أستاذ للتاريخ الإسلامي في جامعة جوتنجن، عاون شبرنجر في كتابه: (سيرة محمد). صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان (الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨م) جـ١، ص ١١٥.

(٥). مستشرق ألماني يهودي، كان أستاذاً في الجامعات الألمانية، وألف كتاب: "النبي محمد: حياته ودينه"، ويعد من أشدها تحاملاً وبُعداً عن الموضوعية العلمية والدقة التاريخية. انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٣٩٠.

(٦). مستشرق ألماني، أستاذ للتاريخ الإسلامي في جوتنجن، من آثاره: (فكرة عامة عن حياة محمد). انظر: نجيب العقيقي: المرجع السابق، جـ٢، ٣٦٧.

(٧). مستشرق إنجليزي متعصب، حاضر في جامعات إنجلترا وأمريكا، وتغلب على كتاباته الروح الصليبية، ومن كتبه: "الإسلام". انظر: مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون (الطبعة الرابعة، بيروت، دار الوراق، ١٤٢٤هـ) ص ٣٩.

روايته لكتاب ابن إسحاق، وقد اعتمد شبرنجر على المادة الغزيرة هذه في تأليف كتابه: (حياة محمد وتعاليمه) والذي يعتبر في نظر الاستشراق الأوروبي أول كتاب علمي منظم عن السيرة النبوية إلا أن ما ينقص الكتاب نظرة عميقة تحليلية وتفسير تاريخ مقبول وواضح لدور الرسول ﷺ الذي لم يفيه حقه على الإطلاق.[١]

ولعل كتاب المستشرق الاسكتلندي الآخر وليم ميور[٢] (حياة محمد من المصادر الأصلية) أكثر حظاً من الكتاب الذي سبقه في اختياره روايات تاريخية ذات قيمة مستقاة من مصادر عربية إلا أن ذلك كله لم يخفف من تعصبه وحقده على الرسول ﷺ والإسلام حينما يفسر الأحداث أو يدلي برأيه الخاص حولها[٣]، فيكتب مثلاً أن الرسول ﷺ قد انتابته الشكوك والشبهات فيما يصله من إلهام إلهي وفي هدفه النبوي[٤]، ويرى أن دعوة النبي ﷺ إلى الإسلام كانت وليدة ظروف داخلية وخارجية وتلبية لطموحات شخصية، وأن هذه الأمور مجتمعة قد كونت الفكرة الحقيقية للدعوة الإسلامية التي وصفها هذا الكاتب بأنها تعبير صريح عن طموحات محمد الشخصية، وهذه الطموحات الممتزجة بفكرة التعاليم الإلهية الواردة إليه من عل هي التي أدت في النهاية إلى انتشار الإسلام بصورته المعروفة لدينا، وقد ارتبط هذا الطموح الشخصي كذلك باعتقاد راسخ في ذهن محمد أنه مبعوث العناية الإلهية لإخراج قومه من الظلمات إلى النور.[٥]

وواضح من رأي ميور أنه لا ينظر إلى محمد ﷺ أنه نبي أو رسول بل مجرد إنسان عادي شغلته هموم وطنه، وأحوال قومه من أجل البحث عن حلول لها والطموح في بلوغ مركز قيادي بين قومه عزّز شعوره بأنه مبعوث العناية الإلهية، وقد خرج ميور نتيجة تفسيره الخاطئ لبعض الروايات وعجزه عن فهمها فهماً صحيحاً بالقول بأن السبب في ذلك كان الطعام الذي يأكله

---

(١). فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي (الطبعة الأولى، عمان، الأهلية للنشر، ١٩٩٨م) ص ٥٥.

(٢). مستشرق إنجليزي ومنصر متعصب، كتب مقالات كثيرة تناول فيها تاريخ العرب، ومصادر السيرة النبوية، وحياة النبي حتى الهجرة، وكلها كتبت بروح متعصبة خبيثة. انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٤٠٤.

(٣). فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٥٥.

(٤). محمد ياسين صديقي: الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي (الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٨هـ) ص ٣٩.

(٥). ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية (الطبعة الأولى، مالطة، مركز دراسات العالم الإسلامي، ١٩٩٢م) جـ٣، ص ١٢٨.

الرسول ﷺ، وقد كشف عدد من المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة الستار عن حقيقة ما ادعاه ميور من مهارة بالعربية فقد كان ضعيفاً، وكان يتمتع بالخبث والتفكير الفج المعوج وكان أصيلاً في عداوته وحقده على نبي الإسلام، ويضيف جوستاف بفانمولر معلقاً على آراء ميور فيما يتعلق بالرسول ﷺ بقوله: "أما ميور فإنه على الرغم من أرثوذوكسيته، قد اكتسب خلال دراسته تعاطفا معينا لرجل (أي محمد) ظهر له أن كان ضحية للشيطان"[(١)]، وهكذا فإن تعاطف ميور مع الرسول ﷺ لم يمنعه من الظن أنه كان ضحية للشيطان، وهذا التعاطف المضحك مبعثه إنكار ميور لنبوة محمد ﷺ ورسالته، وأن كل ما جاء به من دعوة وتشريع لم يكن في نظر ميور سوى وساوس شيطان.

وشبيه برأي ميور ما جاء عند كارل بروكلمان حول نبوة الرسول ﷺ ورسالته، ففي معرض حديثه عن الحوافز أو الأسباب التي جعلت النبي محمداً يعلن نبوته يقول إنه: "قد تحقق عنده ـ أي عند الرسول ـ أن عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة، فكان يضج في أعماق نفسه هذا السؤال: إلى متى يمدهم الله في ضلالهم؟ ما دام هو ﷻ قد تجلّى الأمر للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه؟! وهكذا نضحت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة رسالة النبوة.. وقد تعرض لإحدى الخبرات الخارقة في غار حراء، وذلك بأن طائفاً تجلى له هناك يوماً، هو الملك جبريل، على ما تمثله محمد فيما بعد فأوحى إليه أن الله اختاره لهداية الأمة.. وتحرر هو نفسه من آخر شكوكه بعد أن تكررت الحالات التي ناداه فيها الصوت الإلهي وتكاثرت، ولم تكد هذه الحالة تنقضي حتى أعلن ما أظن أنه قد سمعه كوحي من عند الله".[(٢)]

ولا حاجة بنا إلى إيضاح ما يريد بروكلمان قوله بخصوص نبوة الرسول ﷺ، فهي في نظره مبنية على فكرة نضجت في نفس النبي محمد ﷺ مبعثها الإحساس بفساد عقيدة مواطنيه الوثنيين، ومبنية كذلك على ما ظن أنه قد سمعه كوحي من الله، وهكذا تجلت في نفسه الفكرة

---

(١). جوستاف بفانمولر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين (الطبعة الأولى، البحرين، مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٦هـ) ترجمة وتعليق: محمود حمدي زقزوق، ص ١٩.

(٢). كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (الطبعة السابعة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٧م) نقله للعربية: نبيه فارس وآخر، ص ٣٦.

أنه مدعو إلى أداء رسالة النبوة..."[١]، وأكثر في كتاباته عن الرسول والرسالة من قوله: "أظن، ولعل، وربما"، وهذه الكلمات لا تفيد الجزم ولا اليقين، وأخطر من هذا الرأي ما ذكره بروكلمان في كتابه: (تاريخ الأدب العربي) حيث قال: "كان النبي في أقدم مراحل دعوته الدينية يطلق ما يدور بخلده وهو صادق الاستغراق والغيبوبة في جمل مؤثرة يغلب عليها التقطيع والإيجاز وسجع الكهان... ثم اخذ يترقى باطراد من طبيعة الغائب المستغرق إلى طبيعة الداعية الواعظ، فكان يتلو في جمل أطول من الأولى تحذيراته وتعليماته التي حفت كثيراً بالقصص من العهد القديم ومن الهجادة"[٢]، ولكونه ألماني النزعة، والألمان بطبيعتهم يستخفون بغيرهم من الأمم، فقد اجتمع في شخصه تعصب صليبي واستعلاء عنصري[٣]، لذلك فدعوى نبوة الرسول ﷺ ورسالته لا تعدو في نظر بروكلمان كونها قائمة على فكرة وظن أي بمعنى آخر أنها لا تستند إلى أصل سماوي! وهو حين يذهب هذا المذهب لا يقدم للقارئ ما يقوي دعواه، وهو هنا ليس بدعاً من المستشرقين فالجمع العظيم منهم سلك هذا المسلك المنحرف في التفكير.[٤]

ولعل أكثر ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب هو نظرة المستشرق هيوبرت جريمه[٥] إلى الرسول ﷺ في كتابه (محمد) والذي ركز فيه على البعد الاجتماعي في الإسلام من حيث طبيعته وأصوله، مؤكداً أن ما دفع الرسول ﷺ إلى الدعوة لرسالته لم يكن اعتقادياً بقدر ما كان اجتماعياً متمثلاً بامتعاضه لسوء توزيع الثروة بين فئات المجتمع المكي؛ ورغبته لتحقيق مجتمع تسود فيه العدالة الاجتماعية حيث جاء فيه: " لم يكن محمد في بادئ الأمر يبشر بدين جديد، بل كان يدعو إلى نوع من الاشتراكية، فالإسلام في صورته الأولى لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه، ذلك أننا إذا نظرنا إليه عن كثب نراه لم يظهر إلى الوجود كعقيدة دينية، بل كمحاولة للإصلاح الاجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة وعلى الأخص إلى إزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المضطهدين... لذلك نراه

---

(١). عبد الله محمد النعيم: الاستشراق في السيرة النبوية (الطبعة الأولى، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٩هـ) ص ٨٨.

(٢). كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي (القاهرة، دار المعارف، د.ت) ترجمة: عبد الحليم النجار، جـ١، ص ١٣٧.

(٣). محمد سرور زين العابدين: دراسات في السيرة النبوية (الطبعة الأولى، برمنجهام، دار الأرقم، ١٤٠٨هـ) ص ١٢٨.

(٤). محمد فارس الجميل: النبي ﷺ ويهود المدينة، ص ٢٧.

(٥). أستاذاً في جامعة مونستر بألمانيا ومن آثاره: (محمد). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، جـ٢، ص ٤١٤.

يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين، وهو إنما يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوي وتأييد دعوته"[١]، وواضح من هذا القول أن جريمه ينفي عن الرسول ﷺ صفة النبوة ويرى فيه مصلحاً اجتماعياً يدعو إلى الاشتراكية والمساواة، واستدل على ذلك بفريضة الزكاة، وتخبط في الحديث عنها بين فتح مكة والمدينة بشكل فاضح، وهو مع ذلك لم يأت بدليل واحد ليثبت فيه صحة ما يدعوا إليه[٢]، وقد انتقده المستشرق سنوك هورخرونيه[٣] وقال في نهاية نقده: "إننا نرى الأستاذ جريمه لو اقتصر على درس السيرة النبوية القديمة وبحثها في عمق لكان أفضل، وإن الثمار التي كان يمكن أن يجنيها من هذا الدرس لهي أجدر ببلوغ الغاية النبي توخاها، ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة وأراد أن يُطرِفَ الناس بنبأ جديد، ففشل في وضع السيرة النبوية التي حاول فيها أن يطبع محمداً بطابع الروح الاشتراكي، وفي جعل محمد اشتراكياً، وفي أن تقود الاشتراكية نفسها محمداً لأن يضع الدين الذي أتى به[٤]، إن الاشتراكية الإسلامية لا الاشتراكية الحديثة كما يتصورها جريمه ثمرة من ثمار الرسالة الإسلامية، وليست الرسالة الإسلامية ثمرة الاشتراكية"[٥]، وجمحت نزعة الإغراب والتطرف في المستشرق المتحامل دافيد صموئيل مرجوليوث[٦] فأراد أن يقدم رأياً يتناسب مع عجائب وإنجازات أوروبا في القرن العشرين، فزعم أن الباعث الحقيقي لبعثة الرسول الكريم ﷺ إنما هو الشعوذة، وأنه تعاطى السحرة والروحانيين، وعقد للروحانيات جلسات مكثفة في دار الأرقم، وألف أصحابه حوله جمعية سرية أشبه بالماسونية، واتخذوا إشارات تعارفوا بها مثل: (السلام

---

(١). التهامي نقرة: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، بحث منشور ضمن مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية، جـ١، ص ٢٧.

(٢). فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٥٥، ومحمد الجميل: النبي ﷺ ويهود المدينة، ص ٢٩.

(٣). مستشرق هولندي، له مكانة بين المستشرقين الغربيين، له العديد من المؤلفات من أشهرها: كتابه عن (مدينة مكة) و (محاضرات عن الإسلام). انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٣٥٣.

(٤). ناصر الدين دينيه: محمد رسول الله، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، د.ت) تعريب: عبد الحليم محمود، ص ٤٣.

(٥). عبد المتعال الجبري: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص ٥٠.

(٦). مستشرق إنجليزي متعصب، أستاذ في جامعة أكسفورد، نشر كتابه: "محمد ونشأة الإسلام"، الذي تفشت فيها روح غير علمية، وهو من محرري (دائرة المعارف الإسلامية). انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٥٤٦.

عليكم) وعلامات يتميزون بها؛ كإرسال طرف العمامة بين الكتفين.[١]

ويقول المستشرق هاملتون جب[٢] في كتابه: (المذهب المحمدي): "إن محمداً ككل شخصية مبدعة قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به من جهة، ثم من جهة أخرى قد شق طريقاً جديداً بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه، والدائرة في المكان الذي نشأ فيه وانطباع هذا الدور الممتاز لمكة يمكن أن نقف على أثره واضحاً في كل ادوار حياة محمد، وبتعبير إنساني: إن محمد نجح، لأنه كان واحداً من المكيين"، ثم أضاف قائلاً: "ويبدو أن معارضة المكيين له لم تكن من أجل تمسكهم بالقديم، أو بسبب عدم رغبتهم في الإيمان بل ترجع أكثر ما ترجع إلى أسباب سياسية واقتصادية"[٣]، ولا شك أن من يخالف ما أجمعت عليه كتب التاريخ والسير، ولا يقدم حججاً مقنعة، لا يستطيع أن يتخلص من ميوله وأهوائه، وما أصعب على من استهوته الشهوات أن يكون فاضلاً.

أما المستشرق كازانوفا[٤] فهو ينظر إلى النبي ﷺ على أنه رجل عبقري عادي ليس غير، فيقول: "بقي علينا نحن غير المسلمين حين ننظر إلى محمد على أنه رجل عبقري عادي أن نوضح لماذا أهمل العناية بمسألة لها هذه الأهمية الكبرى (أي الخلافة) فيعلن أن السبب في أمر الخلافة بسيط وهو اعتقاده (أي محمد) بأن نهاية العالم قريبة، وهي عقيدة نصرانية محضة؛ ومحمد كان يقول عن نفسه: "إنه نبي آخر الزمان الذي أعلن المسيح بأنه سيجيء ليتمم رسالته"[٥]، وليس من دليل أكبر على تهافت رأي كازانوفا إلا ما ذكره التهامي نقرة في تعقيبه على هذا الرأي الفاسد بقوله: "لو كان النبي يعلم أن الساعة ستقوم قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى فلمن أعدّ هذا التشريع الضخم الذي أشتمل عليه القرآن في الأحوال الشخصية

---

(١). حسن ضياء الدين عتر: (الطبعة الأولى، دمشق، دار المكتبي، ١٤٢٩هـ) ص ٥٩.

(٢). أكبر مستشرقي إنجلترا المعاصرين، عمل أستاذاً في جامعة لندن، ثم جامعة أكسفورد، وهو من كبار محرري (دائرة المعارف الإسلامية) ومن كتبه: (المذهب المحمدي) وغيرها. انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ١٧٤.

(٣). التهامي نقرة: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، جـ١، ص ٢٨.

(٤). مستشرق فرنسي، جزائري المولد، ومن آثاره: ومصنف بعنوان: (محمد ﷺ ونهاية العالم في عقيدة الإسلام الأصلية). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، جـ١، ص ٢١٩.

(٥). التهامي نقرة: المرجع السابق، جـ١، ص ٤٢.

والميراث والمعاملات وتنظيم العلاقات؟!"[(١)]، ويمكن أن يقال الوصف نفسه على الكتاب المرجعي (تاريخ العالم للمؤرخين) والذي صدر في بدايات القرن العشرين في نيويورك وأشرف على إعداده وكتابة القسم الخاص بالإسلام فيه ثلاثة من كبار المستشرقين هم تيودور نولدكه ويوليوس فلهاوزن[(٢)] وجولد تسهير[(٣)] فقد عكس الفصل الخاص بالرسول ﷺ روح العداء والنزعات التنصيرية المغالية واللاموضوعية، وكتب هـ. ج. ويلز بعد ذلك بعقدين كتاباً عن تاريخ العالم، ولم يكن هو الآخر موفقاً في عرضه لسيرة الرسول ﷺ فكانت نظرته غالباً حاقدة ومغرضة لاعتماده على كتابات المستشرقين من القرن التاسع عشر.

وربما كانت كتابات ليون كيتاني[(٤)] وهو من كبار المستشرقين الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول ﷺ، أكثر انتفاعا بالمظان العربية الأصيلة وأكثر قربا في تقديم صورة أكثر صحة نسبيا ولكنها لا تخلو من الهفوات والشطحات، فقد كان كيتاني (ذا رأي وفكر) وضع رأيه وفكرته في السيرة قبل الشروع في تدوينها فإذا شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به، ضعيفها وقويها، وتمسك بها كلها ولا سيما ما يلائم رأيه، ولم يبال في الخبر الضعيف بل قواه وسنده وعده حجة، وبنى حكمه عليه، ومن يدري فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء، ولكنه عفا عنها وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها؛ لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إذا ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث؟[(٥)]، لقد ظهرت دراسة كيتاني (حوليات الإسلام) مؤكدة على العوامل الاقتصادية والاجتماعية في نشوء الإسلام وتطوره، ولكنها وفي الوقت نفسه ترفض فرضية هيوبرت جريمه آنفة الذكر والتي تعتبر الدافع

---

(١). التهامي نقرة: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، جـ١، ص ٤٣.

(٢). عمل أستاذاً في جامعة هامبورغ، وترجم كتاب: (المغازي) للواقدي، بعنوان: (محمد في المدينة) توفي عام ١٩١٨م. انظر: صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان، جـ١، ص ١٠٧.

(٣). مجري يهودي، أستاذ في جامعة بودابست، اشتهر بعدائه الشديد للإسلام وبخطورة كتاباته عنه، ومن محرري دائرة المعارف الإسلامية، ومن كتبه (دراسة عن النبي). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، جـ٣، ص ٩٠٦.

(٤). مستشرق إيطالي وأمير، ينزع في كتابته للسيرة النبوية نزعة تشكيكية مفرطة، من آثاره: "حوليات الإسلام". انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٤٩٣.

(٥). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ١٣٧.

الاقتصادي الدافع المحرك الوحيد في ظهور الإسلام، وبعد أن يرفض كيتاني فرضية جريمه باعتبارها تفسيراً متطرفاً ومبتسراً يعطي الدافع الديني مركزاً قوياً في الدعوة الإسلامية، ويختتم كيتاني دراسته بحكم عادل موضوعي عن إخلاص الرسول ﷺ وتفانيه في سبيل المصلحة العامة ورغبته في تحقيق الخير والنتائج المهمة التي حققها خلال حياته.(١)

أما المستشرق الدانماركي فرانتس بوهل(٢) فإن كتابه (حياة محمد) الذي صدر حول السيرة، ويعد أطول ترجمة لحياة الرسول ﷺ قبل صدور كتابات مونتجمري وات وجود فردي ديمومبين(٣)، ورغم الأخطاء العديدة والمبالغات التي يجدها الباحث المسلم فيما كتبه بوهل عن الرسول ﷺ فإن هذا المستشرق قد أكد على نقاط عديدة لم ينتبه إليها المستشرقون حيث قاس عظمة محمد ﷺ بمقدار صبره وتحمله الشدائد وإخلاصه ذي النزعة الإنسانية وكذلك فإن عظمة محمد تبدو واضحة كما يقول ـ بوهل ـ بالتأثير القوي له على معاصريه وأتباعه، لقد أقر معظم المستشرقين من جيل القرن العشرين بهذه الفكرة الأخيرة التي طرحها بوهل حول الرسول ﷺ رغم الأخطاء في تفسيرهم لهذه الظاهرة أو تلك، وهكذا تبدو صورة الرسول ﷺ في الكتابات الاستشراقية أحسن نسبياً مما كانت عليه في النور أو عصر النهضة وبالتأكيد أحسن كثيراً من تخرصات العصور الوسطى.(٤)

ولعل المستشرق تور أندريه وهو أسقف على المذهب اللوثري والذي نشر كتابه (محمد: الرجل وعقيدته) من أوائل من يمثل هذه الاتجاه، فقد كان كتابه دراسة كلاسيكية لشخصية النبي ﷺ شملت الأبعاد الدينية والسياسية لحياته حيث يعالج موضوعه بمنهج أكثر استقراراً وموضوعية عمن سبقه من المستشرقين معترفا بفضائل الرسول ﷺ المتميزة والاستثنائية، إلا أن هذه الدراسة كغيرها من الدراسات الاستشراقية لا تخلو من هفوات ومطاعن، فالمستشرق أندريه يحاول جاهداً أن يجد ارتباطات عقائدية بين الإسلام والنصرانية الشرقية على أسلوب ومنهج

---

(١). فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٥٧.

(٢). أستاذا للعهد القديم، انهمك بتاريخ النبي ﷺ، ففي كتابه (حياة محمد) اعتمد على المصادر العربية وأبحاث العلماء والمحدثين، عن دعوة النبي محمد ﷺ. انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، جـ٢، ص ٥٢٢.

(٣). مستشرق فرنسي منصف، عُين مديراً للدراسات الخاصة بالإسلام في السوربون، وله دراسات عديدة منها: (نشأة القضاء في الإسلام) و (المحتسب) و (محمد). انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٢٧١.

(٤). فاروق عمر فوزي: المرجع السابق، ص٥٧.

مستشرقي العصور الوسطى كما وأن شخصية القس اللوثري تتضح في أندريه حين يحاول المقارنة بين الرسول ﷺ والمسيح عليه السلام.

إضافة إلى ذلك فإنه ربط بين انتصار الرسول ﷺ في يوم بدر وبين اصطفائه للرسالة، فيقول: "وأخيرا أصبح الوحي الذي كان يظهر في البداية بوصفه تأثيراً من جهة عليا فوق التشخيص دون أن يكون ذا صلة واعية بحياة النبي النفسية، أصبح بالتدرج يأتيه أيضا مرتبطا بوعي عادي، وهذا الارتباط جعل الوحي أخيرا واقعاً إلى حد ما تحت مراقبة نفسية، وهكذا كما يقول أندريه وصل الأمر بالنبي بالتدرج إلى الحد الذي جعله يعتبر ما يبدو له من أخطار وقرارات على أنها وحي الله" (١)، والحقيقة أن الرسول ﷺ بدأ وعيه باصطفائه مع بداية بعثته وإلا لما استطاع أن يصمد هذا الصمود العجيب مدة ثلاثة عشر عاماً في مكة يدعو فيها إلى دين الله، أما وعيه بالاصطفاء فلم يزدد نتيجة لظروف خارجية أو غير متوقعة فقد كان الأمر بالنسبة إلى رسول الله ﷺ واضحاً كل الوضوح منذ اللحظة التي أمره الله فيها بأن يصرح بدعوته، ويعلن للناس رسالته(٢)، وتأتي دراسة المستشرق الكاثوليكي جويدي(٣) الإيطالي الذي أصدر كتابا بعنوان: (تاريخ العرب وحضارتهم حتى وفاة محمد) وأعطى للرسول ﷺ مركزاً مرموقاً كمؤسس للدين الإسلامي واعترف بدوره الحيوي والمهم قائلا: "لقد لعب محمد ﷺ دوراً مهماً في كسب النفوس التي كانت بعيدة جدا عن معرفة الحقيقة ومغمورة في عبادة الأوثان وجعلهم يوقنون بالقوة الإلهية المقدسة وبالثواب والعقاب العادل والطاعة إلى الإله الحق الواحد لكل البشرية". (٤)

وبهذا كان جويدي فيما توصل إليه من استنتاجات تاريخية عن رسول الإسلام ﷺ يقف تماما عكس موقف المستشرق لامنس الذي أشرنا إليه سابقاً ولعل السبب في ذلك بالإضافة إلى منهجه التاريخي واعتماده على المصادر الإسلامية أن جويدي على عكس لامنس لم يكن

---

(١). جوستاف بفانموللر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين، حاشية ص ٣٢.

(٢). نفس المرجع، ص ٣٣.

(٣). مستشرق إيطالي، عُيِّن أستاذاً في الجامعة المصرية، وتولى إدارة تحرير مجلة الدراسات الشرقية بجامعة روما، ثم شغل كرسي التاريخ والنظم الإسلامية. انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٢١٨.

(٤). فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٢٢٠.

مرتبطاً بدوائر الاستعمار الأوربية التي سار في ركبها هذا الأخير حتى غدا المدافع عن سياسة فرنسا في بلاد الشام عموماً بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، والمهم هنا أن نشير كذلك إلى تأكيد جويدي أن إنجازات الرسول ﷺ تتميز ـ بالنسبة له ـ في عبقريته في التوفيق بين القيم العربية التقليدية التي كانت تتحكم في مجتمع الجزيرة العربية وبين مبادئ الإسلام في التوحيد المطلق لله تعالى، ولكن جويدي ـ كعادة المستشرقين ـ لا يمكنه أن يتحرر من التراث الأوربي عن الإسلام حيث يرى مثلاً بأن الإسلام والرسول ﷺ قد تأثرا بالمبادئ النصرانية الموجودة في البيئة الشرقية؟!

ويرى المستشرق مكسيم رودنسون[1] أن نبوة الرسول ﷺ قامت على تأثير يهودي نصراني إضافة إلى تجاربه الخاصة، فقد انفتح في ذهنه كلام كانت عناصره مكونة من تجاربه الحقيقية، وطريقة تفكيره وأحلامه، وذكريات مناقشاته ـ كل هذه في نظر رودنسون ـ قد تبدت (لرسول الله) مفككة ومركبة متحولة ببرهان ويقين وشعور حقيقي، قد تلبسه كشهادة لنشاط خارجي موضوعي لا يفهم كنهه الآخرون[2]، وواضح من هذا الأسلوب في معالجة ظاهرة الوحي أنه يقوم على التخمين والفرض دون تقديم برهان على ما يذهب إليه وهو في جملته إنكار لنبوة الرسول ﷺ، وقد كانت كتابات ردونسون عن الرسول ﷺ مستنداً إلى درجة ملحوظة على كتابات مونتحمري وات مع تأكيده أكثر من وات على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية حيث يعد ردونسون من المستشرقين الماركسيين، كما كتب رودنسون مقالة (محمد) في الانسكلوبيديا أو نيفرسالي".[3]

إن من أواخر جيل المستشرقين الذين برزوا في النصف الثاني من القرن العشرين والذين اهتموا بالسيرة النبوية ونالت دراساتهم شهرة كبيرة بسبب نزعتها الإيجابية نسبياً ورفضها للصورة المشوهة ـ مع الاعتراف الضمني بعدم صدقها وواقعيتها ـ والتي رسمها أقلام المنصرين ومن تلاهم وسار على نهجهم من أجيال المستشرقين، هما المستشرقين جود فري ديمومبين الفرنسي،

---

(١). مستشرق فرنسي شيوعي من أصل يهودي، أستاذا بالمعهد الإسلامي بصيدا، ومحاضراً في المدرسة العليا للآداب ببيروت، وهو مؤلف مكثر ومن مؤلفاته: (محمد). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، جـ١، ص ٣٥٩.

(٢). ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية جـ٣، ص ١١٧.

(٣). فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٥٨ ـ ٥٩.

ومونتجمري وات الاسكتلندي، فقد كتب الأول كتابه (محمد) ويعد أفضل كتاب بالفرنسية عن النبي محمد ﷺ، ويتسم بالموضوعية والعمق والشمول[١]، وكتب الثاني عدة كتب خلال عقد الخمسينات من القرن الماضي منها (محمد في مكة) الذي أكد فيه تلك الصورة الممسوخة والممجوجة عن الرسول ﷺ: "أنه ليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حط من قدرها في الغرب كمحمد، فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد، وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الواقع ممكنا قبلوه".[٢]

ويؤكد رأي وات وشهادته على الغرب في تحيزه ضد النبي ﷺ ما شهد به بارون كارادي فو[٣] حين قال: "ظل محمد زمناً طويلاً معروفاً في الغرب معرفة سيئة، فلا تكاد توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه"[٤]، ولعل أكبر شاهد صدق على ما أعترف به هذان المستشرقان من التجني على شخص النبي الكريم هو ما ذكره غيبرت نوغنت مؤلف أو سيرة أوروبية عن النبي ﷺ خارج إسبانيا الإسلامية إذ قال: "إن ما يذكره هو نتاج الرأي العام السائد، ولا يستطيع أن يحدد مدى الصحة أو الخطأ في أخبار الرأي العام، لكنه يستطيع القول: "إن الباحث له الحق في أن يتحدث بشكل سلبي عن رجل فاقت سيئاته كل حدِّ معقول"[٥]، وهكذا فما دام أن للباحث الحق في أن يتحدث بشكل سلبي عن محمد ﷺ فقد دارت في أوروبا في تلك الفترة ـ وربما حتى الوقت الحاضر ولو بصورة نسبية ـ عجلة التزوير والتلفيق، ونجحت في رسم صورة بالغة القبح والتشويه للنبي محمد ﷺ في عقلية الإنسان الأوربي.

وعلى النقيض من ذلك يعزو مونتجمري وات نبوة الرسول ﷺ إلى خياله الخلاق المتدفق ليس غير، فمن وجهة نظر وات: "أن هناك خيالاً خلاقاً متدفقاً لدى محمد، وأن معظم الأفكار الناجمة عن هذا الخيال صحيحة وعادلة، ولكن جميع الأفكار القرآنية ليست كذلك،

---

(١). فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص ٢٧٢.

(٢). مونتجمري وات: محمد في مكة (صيدا، المكتبة العصرية، د، ت) ترجمة: شعبان بركات، ص ٩٤.

(٣). مستشرق فرنسي متعصب جداً ضد الإسلام والمسلمين، ساهم بنصيب وافر في تحرير (دائرة المعارف الإسلامية). انظر: مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، ص ٣٩.

(٤). التهامي نقرة: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، جـ١، ص ٢٢.

(٥). ريتشارد سوذرن: صورة الإسلام في أوربا في العصور الوسطى (الطبعة الأولى، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٤م) ترجمة وتقديم: رضوان السيد، ص ٦٧.

بل توجد نقطة واحدة على الأقل ليست صحيحة ألا وهي أن (الوحي) أو الخيال الخلاق أسمى من تصرفات الإنسان العادية باعتبارها مصدرا لوقائع تاريخية مجملة، ثم إن خيال محمد الخلاق فتح آفاقاً عميقة، وأنتج أفكاراً ارتبطت بالقضايا الرئيسة للوجود الإنساني، بحيث أصبح دينه يتمتع بجاذبية كبيرة ليست في زمانه فحسب، بل خلال القرون التي تلته".(١)

هذا النص يبين لنا بوضوح أن وات لا يعترف مطلقا بنبوة الرسول ﷺ ويعزو كل ما جاء به إلى خياله المتدفق الخلاق، ويعترض على صحة الوحي وينعت الرسول ﷺ في كل المناسبات باسمه الشخصي أي (محمد) مجرداً من صفة النبوة، والأكثر غرابة في أمر وات أنه قس نصراني، وهذا يعني أنه يؤمن بمبدأ النبوة، ولا بد أنه يؤمن بالتوراة والإنجيل، وما دام الأمر كذلك فما الذي يمنعه من قبول مبدأ نبوة محمد ورسالته؟ هل وجد في التوراة أو الإنجيل ما يؤكد استحالة حدوث ذلك؟!

وأخيراً فإن أرنت فنسنك(٢) يرى أن فكرة عقيدة التوحيد ليست عقيدة غريبة عن أهل مكة فقد كانت ـ حسب قوله ـ معروفة لديهم قبل محمد ﷺ ولكن تحمُّل محمد الكثير من السخرية من أجل هذه العقيدة وحماسه الذي لا يكل في سبيلها، ومحاولته كسب سكان مدينته لجانبه، بصفته حاملا لهذه الأفكار فقد اعتقد نفسه نبياً، ونجاح محمد ﷺ في نشر عقيدته يعود إلى قوة شخصيته(٣)، إن نبوة محمد ﷺ في نظر فنسنك لا تعدو كونها ادعاءاً محضاً، وانتشار عقيدة التوحيد على يد محمد يعود إلى قوة شخصيته ليس غير، وفكرة التوحيد ذاتها ليست جديدة على أهل مكة ولكن جهاد النبي محمد في سبيل تحقيقها هو الذي أقنعه بأنه نبي، والغريب أن الذي بذل هذا الجهد في محاولة تفسير ظاهرة النبوة لدى الرسول ﷺ وإرجاعه فكرة التوحيد إلى فكرة سابقة لظهور محمد لم يبذل القدر نفسه من الجهد لإقناع القارئ لماذا نجح محمد هذا النجاح المذهل في نشر عقيدته حتى أصبحت في زمن وجيز تنافس الديانة الأولى في العالم ألا وهي النصرانية في الوقت الذي أخفق فيه كثير من أدعياء النبوة،

---

(١). ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، جـ٣، ص ١٢١ .

(٢). مستشرق هولندي، وعدو لدود للإسلام ونبيه، أول إنتاجه رسالته التي حصل بها على الدكتوراه وعنوانها (محمد واليهود في المدينة) وكان عضواً بالمجمع اللغوي المصري. انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٢٨٩.

(٣). محمد فارس الجميل: النبي ويهود المدينة، ص ٣٠ .

وسقطت فيه الكثير من الفلسفات والمذاهب الدينية الفاسدة؟!

وجدير بنا ألا نتوقع من المستشرقين ـ وهم على غير ديننا ـ أن يتحدثوا عن صاحب الدعوة الإسلامية مهما كانوا منصفين كما نتحدث نحن المسلمين، بل حسبهم ـ وهذا قصارى جهدهم ـ هذه الخلافات المزرية التي أشيعت عن الرسول محمد ﷺ في العالم النصراني، وإظهارهم محمداً ﷺ للعالم النصراني مؤمناً صالحاً يعبد الله ثابت اليقين، ومجاهداً أرادت مشيئة الله أن تتخذه خاتماً للأنبياء والمرسلين لنشر عقيدة التوحيد بين العالمين[١]، وأخالنا نفرط في حق أنفسنا وتاريخنا تفريطاً إذا لم نأخذ من المستشرقين زمام البحث في تاريخنا، إذ أنهم ـ رغم الجهود التي بذلوها في القرن العشرين لكشف نواحي التاريخ الإسلامي ـ ما زالوا بعيدين عن كثير من الحقائق، وسيبقون كذلك ما داموا يعيشون في غير محيطنا، ويتأدبون بغير آدابنا، وينظرون بمنظار قد لا يظهر لهم حقائق هذا التاريخ بحكم نشأتهم وبيئتهم وثقافتهم الأولى ومجتمعهم، ثم أنهم وهم يعيشون في محيط مادي يصعب عليهم فهم الروح التي جاء بها الإسلام، فتلك لا تأتي بالقراءة والتتبع، ولكنها تأتي مع ذلك من التقاليد الموروثة والشعور بالصلة بيننا وبين بناة هذا التاريخ.[٢]

وإنك لتلمس ما في صدورهم على صفحات كتبهم في التاريخ حين يعرضون للرسول محمد ﷺ بالذات، مثل ما نجده في كتاب (مجد الإسلام) لـ جاستون فييت[٣] يقدم فيه بانوراما لتاريخ الإسلام، وقد تجاوز فيه الحقيقة عندما تناول سيرة الرسول والخلافة الإسلامية، وقريبا منه إدوارد فرمان في كتابه: (تاريخ المسلمين وفتوحاتهم) وكذلك أرنولد توينبي فيما اتصل بالتاريخ الإسلامي، وكذلك دوائر المعارف الإسلامية الانجليزية أو الفرنسية أو الروسية، وما أشبهها كدائرة معارف الدين والأخلاق، ولا عجب فالعدوان والإساءة إلى الرسول الكريم ﷺ هَوَسٌ غربي قديم، والعظيم لا يُمّسخ صغيراً لأن ظنون المعتوهين أخطأتْ فهمه، فما بالك بسيد

---

(١). عبد المتعال الجبري: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص ٤٩.

(٢). زاهية قدورة: عائشة أم المؤمنين (القاهرة، نشر لجنة البيان العربي، ١٣٦٦هـ) ص ٥.

(٣). مستشرق ومؤرخ إسلامي فرنسي، عُين مديراً لدار الآثار العربية في القاهرة، انتخب أستاذاً في الكوليج دي فرانس، له كتب مهمة في التاريخ الإسلامي بعامة. انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٤٣١.

عظماء التاريخ بأسره منذ بدء الخليقة وحتى قيام الساعة.[(١)]

ومع أن المستشرقين قد تطورت أفكارهم وأحكامهم ـ عن كتابات ما قبل القرن العشرين ـ التي كانت مليئة بالتحيز والتهجم، بحكم اختلاف الدين، أو اختلاف المصلحة أو اختلاف الجنس، أو بسبب قلة ما لديهم من المصادر وجهلهم باللغة العربية، وسوء الترجمة القديمة، فقد تطورت في القرن العشرين إلى كتابة فيها كثير من الحقائق، وكثير من التحليل الدقيق، ومع هذا فإنه لا يزال بعضها لا يخلو من الدس والتشويه حينا عن سوء نية، وحينا عن سوء فهم للحقائق التاريخية، والمستشرقين النصارى مهما لبسوا مسوح العدالة والإنصاف فإنه لا ينسوا حقيقة من في داخل هذه المسوح، وليعرف أبناء ملتنا الحكمة السامية في اشتراط أئمتنا لقبول الرواية التاريخية سلسلة الإسناد وعدالة الراوي فضلاً عن إسلامه وبلوغه، إن صورة النبي محمد ﷺ لتتغير في كتابات المستشرقين بتغير جنسية الكاتب ولا تجد للصورة الصحيحة الكاملة مكانا عندهم، وكما قال زكريا هاشم: "إن المستشرقين يقدمون إلينا في كثيراً من كتبهم صوراً خيالية، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة، إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال: والتر سكوت واسكندر ديماس، وذلك لأن هؤلاء يصورون أشخاصاً من أبناء قومهم، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة، أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة، فصورهم حسب منطقهم الغربي المعوج وخيالهم العصري"[(٢)]، ثم يجيء (المؤرخون العرب) فيأخذون سمومهم بلا تحفظ، فرحين مستبشرين أن وقعوا على تلك (الكنوز) التي كشفت الغاشية عن عيونهم، فأبصروا ما كان خافياً عليهم من حقائق التاريخ..؟!، وقد يغرهم ما تلجأ إليه المدرسة الاستشراقية الحديثة من مزج السم بالعسل، فيظنونهم مخلصين للحق، نزيهين نزاهة علمية فيأخذون عنهم بلا تحفظ..

يقول قائلهم: "إن هؤلاء كتاب منصفون، يبدون إعجابهم بما يرونه في الإسلام مستحقاً للإعجاب، فلولا أن المآخذ التي يذكرونها مآخذ حقيقية ما ذكروها؟! وقد كانت هذه الأمور خافية علينا من قبل؛ لأننا متأثرون بعاطفتنا نحو الإسلام، وينبغي لنا أن نتخذ (الروح العلمية)

---

(١). محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين (الطبعة السابعة، القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠٥م) ص ١٤ .

(٢). عبد المتعال الجبري: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص ٥٠.

ونتجرد من العاطفة لمصلحة البحث العلمي ذاته!"، أفليس هذا ما قال عنه رب العالمين: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران:٧٢] أفما يجدر بنا بعد هذا البيان الرباني ألا نأخذ حقائق ديننا وتاريخنا عن أعداء هذا الدين؟!(١)، والعجيب أن تلقف دعاة التغريب العرب ـ وبالذات النصارى منهم ـ هذه الأفكار الهدامة عن أساتذتهم وروادهم من المنصرين والمستشرقين فسرت بينهم سريان النار في الهشيم، ووجهوا طاقاتهم نحو سيرة المصطفى ﷺ.

فقد تحدث الخوري يوسف إلياس حداد في كتابه (دروس قرآنية)(٢) عن الدعوة الإسلامية في مكة فقال: "إن الدعوة المحمدية كانت في العهد المكي كتابية إنجيلية توراتية مسيحية يهودية، وإن القرآن نسخة عربية من الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء السابقين ومقتبس منها، وإنه كتابي توراتي إنجيلي يهودي نصراني في موضوعه ومصادره وقصصه وجدله، وإن محمداً كان متأثراً باليهود والنصارى واليهودية والنصرانية والإنجيل والكتاب المقدس منسجماً مع كل ذلك أشد انسجام" إلى أن يقول: "ولقد جمع الدين الكتابيين ومحمداً في مكة ففرقتهم السياسة في المدينة"، ويردد أقوال أساتذته المنصرين والمستشرقين الذين ينكرون القرآن من كلام الله ﷻ فيقول: "إن لفظه ـ أي القرآن ـ هو لفظ محمد ونظمه، وليس لفظ الوحي وبالتالي فإن إعجاز نظمه قائم على النبي لا على الوحي".

ويعود مرة أخرى إلى قضية ورقة بن نوفل فيقول: "إن بيئة محمد نصرانية وورقة بن نوفل هو الذي زوجه خديجة، وقال في شرح قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضُّحى:٧] إن محمداً ﷺ قبل بعثته كان حنيفياً فاهتدى بالمسيحية، ثم نحا نحواً كتابياً بصورة عامة، ثم رجع في العهد المدني إلى الحنيفية مرة أخرى، وتنصل من اليهودية والنصرانية والكتابية، ويزعم أن محمداً ﷺ تخلى في المدينة عن الدعوة الكتابية، إلى دعوة عربية بسلطان سياسي حربي، وصار يحمل

---

(١). يوسف القرضاوي: تاريخنا المفترى عليه، ص ٢٩٩.

(٢). صدر الكتاب عن مطبعة حريصا البوليسية في لبنان، وزعم كغيره من المستشرقين بأنه متجرد في بحثه، وللأسف فإن الكتاب تكذيب لكل ما زعمه، وللكاتب الإسلامي محمد عزة دروزة مؤلف أسماه (القرآن والمبشرون) تتبع فيه الخوري يوسف إلياس حداد، ورد عليه ردوداً مفحمة. انظر: محمد سرور زين العابدين: دراسات في السيرة النبوية، ص ١٨٦.

على اليهودية والنصرانية واليهود والنصارى الذين كان منضماً إليهم وكواحد منهم، وكان الدين قد وحده معهم، ففرقتهم السياسة عن بعضهم، ويقول ـ الخوري حداد ـ عن معجزات النبي محمد ﷺ: "إن معجزة محمد الحقيقة هي بخاصة في إقامة وحدة عربية تحت سلطان سياسي ديني عربي قومي، وهي معجزته العظمى"، ومما اتكأ عليه الخوري حداد في اتهاماته الظالمة، تحويل القبلة شطر المسجد الحرام في مكة، وهكذا اصطبغت رسالة النبي ﷺ في العهد المدني بالصبغة القومية ـ على حد زعمه ـ ويتناسى هذا الكذاب أن أول آية أنزلها الله ﷻ كانت تخاطب الإنسان أينما كان، بل ويتناسى الأدلة التي يزخر بها كتاب الله وسنة رسوله على عالمية الدعوة، وأنها لم تكن في يوم من الأيام لقوم أو لطائفة.[١]

ويلخص جورجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي)[٢] موقفه من البعثة النبوية، بأن الدعوة التي جاء بها الرسول ﷺ كانت لبنة في بناء بدأ منذ عام الفيل، فيقول: "فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الأفكار واختلطت الاعتقادات، وأصبح أهل الجاهلية لا يعرفون لمن يصلون ولا إلى من يتوسلون، يذبح أحدهم للصنم ويدعو إلى الله، وأصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة، وكان ذلك حديث الناس في مجالسهم، فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة، وهمّ بعضهم بادعائها مما يدل على تنبه الأذهان إلى أمر الدين والتفكير في عواقب الأعمال"[٣]، ولو كان الناس في مكة يتوقعون الفرج من باب النبوة، لما حاربوا محمدا ﷺ حربا بلا هوادة فيها، وحاولوا قتله، واضطروه إلى الهجرة.

ويزعم جورجي زيدان أن غزو الأحباش لمكة ـ أي عام الفيل ـ أنتج رجالا نبغوا في السياسة والقيادة والإدارة وكانوا من أهم العوامل تأثيرا في سرعة انتشار الإسلام، كما أنتجت الثورة الفرنسية بونابرت وأمثاله، أما ربطه بين واقعة الفيل والثورة الفرنسية التي أنتجت بونابرت ورجاله، فليس مستغرباً على النصارى العرب مثل هذه الأقوال والمفاهيم لأنهم لا يبصرون إلا بعيون قادة فرنسا ـ الأم الحنون ـ ولا يفكرون إلا بعقولهم.

---

(١). محمد سرور زين العابدين: دراسات في السيرة النبوية، ص ١٨٦.

(٢). من أهم المراجع التي اعتمد عليها جورجي زيدان في تأليف كتابه هذا: (تمدن العرب) للوبون، (تاريخ الدولة الرومانية البيزنطية) لليبو، (تاريخ تمدن المشرق) لكريمر. انظر: محمد سرور زين العابدين: دراسات في السيرة النبوية، ١٩٥.

(٣). جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د ت) جـ١، ص ٣٢.

ومرة أخرى يقول: "إن واقعة الفيل التي سطا بها الأحباش على الكعبة، كانت وراء بروز قادة من العرب كخالد وأبي عبيدة وأبي بكر وعمر"[١]، والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء القادة ما كانوا قد ولدوا عندما غزا الأحباش مكة، وبعضهم الآخر كان دون سن التمييز، ومن جهة أخرى فأهل مكة كانوا في وضع لا يحسدون عليه ولا طاقة لهم بأبرهة وجنده، ولم يحدثنا التاريخ عن معارك دارت رحاها بين الأحباش وقريش، فكيف كانت واقعة الفيل وراء بروز قادة أمثال خالد وأبي عبيدة مع أن هذه الواقعة استمرت بضعة أيام.. ومن يقرأ ما كتبه جورجي زيدان يظن أنها استمرت بضع سنين، وكان خالد وأبو عبيدة وعمر وغيرهم من أبرز قادة قريش في هذه المعارك، وقد استفادوا خبرة عسكرية ونبغوا في السياسة والقيادة والإدارة.

وبعد هذا الهراء ينتقل إلى الحديث بأن اليهود دفعوا الأوس والخزرج إلى تأييد النبي محمد ﷺ لأنهم يعلمون بأن مكة سوف تسقط إذا حُطمت الأصنام فيها وأقلع الناس عن عبادتها، ويقول في دفاعه عن وجهة نظره: "واليهود أهل نظر في التجارة، ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة لأن أهل مكة من العدنانية وأهل المدينة قحطانية"[٢]، والروايات التاريخية تؤكد بأن الذين أسلموا من الأوس والخزرج كانوا قلة، ثم أخذ عددهم يزداد، واليهود كانوا يتعاونون مع المنافقين ومع مشركي قريش ضد رسول الله ﷺ، لأنهم يعلمون بأن محمداً ﷺ أشد خطراً عليهم من العرب والفرس والرومان مجتمعين، وقد ورد في كتبهم شيء من أخباره، فكيف يقبلون أن تكون المدينة عاصمة لدولته الجديدة، وكيف يجحدون بالرسالة والرسول ثم يدفعون الأوس والخزرج إلى الدخول في الدين الجديد؟! فهذا ـ الجورجي ـ لم يعتمد أبداً على روايات تاريخية لنرد عليها ونبين زيفها، وإنما اعتمد على خياله الخصب، وعلى أكاذيب أساتذته المنصرين والمستشرقين.

ثم يطلع علينا المؤرخ العربي المتأمرك فيليب خوري حتّي[٣] ليشكك في ترتيب سور القرآن الذي جاء توقيفياً كما أمر به الوحي الرسول الكريم: "ومن يتحر القرآن يجد أن لسوره ترتيباً

---

(١). جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، جـ١، ص ٧٥.

(٢). نفس المرجع، جـ١، ٤٧.

(٣). نصراني الديانة، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، من ألد أعداء الإسلام، كان أستاذاً بقسم الدراسات الشرقية بجامعة برنستون ثم رئيساً له. انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، جـ٣، ص ١٠١٠.

سطحياً مبنياً على نظام الطول والقصر، فالسور المكية وهي نحو تسعين؛ راجعة لعهد الجهاد في حياة النبي، وتمتاز بأنها قصيرة حادة حماسية ذات أسلوب ناري مليئة بالمعاني النبوية".(١)

ويخرج علينا مرة أخرى بفرية ساذجة من خلال الانتقاص من شخص الرسول الكريم ﷺ والطعن في نبوته حيث يقول: "ومع أنه ليس بين أنبياء العالم من ولد في ضوء التاريخ سوى محمد، فإن نشأته محاطة بالغموض، فليس لدينا عن سعيه في طلب الرزق ومحاولاته لبلوغ آماله وإدراك الغرض الذي يرمي إليه وما قاساه من المشقة والألم في سبيل تحقيقه؛ سوى قليل من الأخبار الموثوقة"(٢)، ومثل هذه العبارة إسفين يحاول المؤرخ المشبوه أن يضرب به في صرح السيرة النبوية المطهرة الموثوقة، لكنه إسفين يتحطم وتتناثر شظاياه، لترتد إلى صدر ضاربه، لأن أحاديث الرسول ﷺ التي تناقلها الرواة وصححها العلماء ومحصوها، ودرسوا وصنفوا رجالها ورواتها؛ تحمل بين طياتها وفي متونها كثيراً من دقائق التفصيلات في كثير من شؤون حياته، بما في ذلك طموحات الرسول العظيم وآماله الكبيرة، باعتباره نبي أمة وقائد مسيرة ورائد بناء وعطاء لخير أمة أخرجت للناس، لا باعتباره طامعاً في دنيا أو راغباً في منصب أو جاه، وهو الذي مات ولم يورث آل بيته قصراً ولا ديباجاً ولا ضياعاً، ولا مالاً سوى سبعة دنانير، أمر عائشة رضي الله عنها أن توزعها على الفقراء قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى.(٣)

ثم يأتي بفرية أخرى تافهة من خلال الطعن في نسب نبينا محمد ﷺ حيث يقول: "على أن قريشاً التي انتسب إليها الرسول كانت من نزار، وهي من الدوحة الشمالية"(٤)، وهل في العبارة "التي انتسب إليها"، إلا التشكيك والبعد عن الحقيقة ومجانبة الموضوعية، مع استفهام كبير يوضع حول المؤلف "والأكاديمي النزيه..؟!"، إن لم يكن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب من قريش، فَمَنْ من قريش إذن..؟! التي انتسب إليها، وكأنه ﷺ مولى لا يُعْرَفُ نَسَبُه، فدخل تحت كنف قريش يحتمي بها، ويأمن تحت لوائها..؟! ولو لم يكن رسول الله ﷺ من صفوة قريش، لعابت قريش عليه انتسابه إليها، وطعنت بنسبه، وهي التي تفاخر بالأنساب، سأل هرقل: أبا

---

(١). فيليب حتي: تاريخ العرب المطول (الطبعة الرابعة، بيروت، دار الكشاف، ١٩٦٥م) ص ١٧٨.

(٢). نفس المرجع، ص ١٦٤.

(٣). يوسف العظم: تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، ص ٩٣.

(٤). فيليب حتي: المرجع السابق، ص ٣٩.

سفيان بن حرب عن رسول ﷺ: كيف نسبه فيكم ؟ فأجاب أبو سفيان: مَحْضاً من أوْسطنا نسباً، هو فينا ذو نسب، هو والله من بيت قريش.(١)

وهكذا كانت شهادة العدو اللدود، والفضل ما شهدتْ به الأعداء وهل تجدون شهادة أعظم من هذه الشهادة؟ إن الموقف حرج والسائل ملك ذو شوكة، يسأل رجلاً ملأ الضغن صدره عن أمر الرسول ﷺ، فلا يقول إلا الصدق والحق.. فهل تجدون رسولاً كاملاً أعظم من محمد ﷺ؟ وأي شهادة أصدق من هذه الشهادة؟ إن تاريخ الأنبياء والرسل أعجز من أن يأتي بمثلها عن غيره؟! والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فلماذا يشوه فيليب حتي تاريخ العرب؟ ولحساب منْ يشكك بحقائقه؟! وإلا بماذا نفسر هذا الافتراء على رسول الله ﷺ؟!(٢)

ويسوق ـ فيليب حتي ـ غثاءاً جديداً، فوق الذي ساقه في التشكيك بالقرآن الكريم وشخصية الرسول الأمين ونبوته، ليشكك في الشعائر الإسلامية والعبادات، لكي لا يبقي للعرب من دين وخير وحضارة وتاريخ غير ما صنعه أبناء فينيقيا وآشور وبابل، وما تركه البطل القومي الجاهلي عمرو بن هشام، ومن نسجوا على منواله واتبعوا طريقه فيما بعد من عداوة للإسلام وحقد على المسلمين(٣)، ومما يؤكد توفر سوء النية لدى ـ فيليب حتي ـ أنه لم يجد ما يستشهد به أقوال الكتّاب والمفكرين الأوروبيين في حق رسول الله ﷺ إلا كلمة ضالة متجنية قالها دانتي في فورة حقد عارم: "وقد وضع دانتي في رواية الإلهية محمدا في الجحيم الأسفل مع أولئك الذين زرعوا بذور الشر والانشقاق".(٤)

وعندما ألف طه حسين كتابه: (على هامش السيرة) أراد إثارة فتنة نائمة لتضليل قرائه

---

(١). اتفق الشيخان على رواية هذا الحوار الذي دار بين أبي سفيان وهرقل. انظر: صحيح البخاري: رقم (٤٥٥٣) في كتاب تفسير سورة آل عمران باب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:٦٤] وابن حجر: فتح الباري، جـ٨، ص ٢١٤، وصحيح مسلم: رقم (١٧٧٣) في كتاب الجهاد، باب (كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام) جـ٣، ص ١٣٩٣.

(٢). شوقي أبو خليل: موضوعية فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب المطول (الطبعة الأولى، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٦هـ) ص ١٢٥.

(٣). يوسف العظم: تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، ص ٩٤.

(٤). فيليب حتي: تاريخ العرب المطول، ص ١٨٣.

وعشاقه ودعا الشباب إلى تقليده في طريقته السبئية، فالسيرة النبوية كما يراها ــ طه حسين ــ للتسلية والترفيه عن النفس وإضاعة الوقت، إذ لم يطمئن لها العقل ولم يرضها المنطق ولم تستقم له أساليب التفكير العلمي، لأن أخبارها غير ثابتة ولا يقبلها المنهج العلمي، فهو يشكك بقصص السيرة جملة ويعتبرها مع قصص الغزوات والفتوح الإسلامية وقصص الفتن والمحن قصصاً أسطورية اقترحتها قرائح الأدباء والفنانين اختراعاً؟! ولذلك تراه يثبت قصص الكذبة ويُكذِّب قصص الثقات، وأقرأ إذا شئت مقدمة كتابه (على هامش السيرة) ترى العجب! فقد زعم أن السيرة النبوية أسطورة لا يقبلها عقل ولا منطق، والأساطير تعني الأباطيل، ومن الأمور التي لا يعلمها طه نفسه أن القرآن الكريم أهم مصدر من مصادر السيرة النبوية، وقد وصلتنا بأدلة علمية لا يرقى إليها شك، وشهد بذلك العدو قبل الصديق.(١)

وبعد أن يشبه قصص السير والغزوات بأساطير الإلياذة يقول: "فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتْب مرة واحدة، ولم تحفظ في صورة بعينها، وإنما قصها الرواة في ألوان من القصص وكتبها المؤلفون في صنوف التآليف، وقل مثل ذلك في السيرة نفسها فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور الإسلامية وفي أكثر البلاد الإسلامية أيضاً، فصوروهم صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفني، وقل مثل هذا في الغزوات والفتوح وقل مثل هذا في الفتن والمحن التي أصابت العرب في العصور المختلفة" ويقول أيضاً: "وأنا أعلم أن قوماً سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم مُحدثون يُكبرون العقل، ولا يثقون إلا به، ولا يطمئنون إلا إليه، وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها، وهم يشكون ويلحّون في الشكوى حين يَرَوْنَ كَلَفَ الشعب بهذه الأخبار، وجدّه في طلبها، وحرصه على قراءتها والاستماع لها، وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث، واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول، هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء؛ لأنهم سيقرؤون طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس، وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملكات أخرى

(١). قال محمد حسين هيكل في حديثه عن كتاب (على هامش السيرة): "إنه يدعو إلى ميثولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب، تشكل المستنيرين، وتدفع الريبة في شأن الإسلام ونبيه ﷺ" وهذه شهادة خطيرة من زميل دربه، تكشف عن الهدف المبيت الخطير. انظر: أنور الجندي: كُتاب العصر تحت ضوء الإسلام، ص ١٨.

ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل، ولم يرضها المنطق، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي، فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها، ما يحبب إليهم الأخبار ويرغبهم فيها، ويدفعهم إلى أن يتلمسوا عندها الترفيه عن النفس حتى تشق عليهم الحياة، وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرّها العلم وتستقيم لها مناهج البحث، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش، وأحب أن يعلم الناس أيضاً أني وسعت على نفسي في القصص ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأساً، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي، أو بنحو من أنحاء الدين، فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث، ورجال الرواية، وعلماء الدين".[1]

فكيف يلتزم ـ طه حسين ـ ما التزمه المتقدمون وهو الذي لا يتورع عن الاعتراف بأنه وسع على نفسه في القصص ومنحها الحرية في رواية الأخبار واختراع الأحاديث! فإذا عجب القارئ ودهش من كلامه المثبت في مقدمات طبعات كتابه المتكررة وهو يشكك بمجمل السيرة والغزوات؛ يزول عجبه ودهشته عندما يعلم أن الرجل نفسه قد أخرج كتاباً أسماه (في الشعر الجاهلي) هاجم فيه عقيدة المسلمين: "الذين يعدون القرآن الكريم كلام الله، وهو حق يقيني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فيقول إن لغة القرآن المكي جافة، ولغة القرآن المدني مذللة حين اتصل النبي ﷺ باليهود[2]، ويعلن أن ورود قصة إبراهيم وإسماعيل في القرآن لا تكفي عنده لإثبات وجودهما التاريخي، وتراه يعدّها أسطورة جاء بها سيدنا محمد ﷺ ليحتال بها على الناس فصدقت هذه الأسطورة وقبلت هذه الحيلة على حد زعمه!"[3]، ولو اكتفينا بما قاله طه حسين في مقدمة كتابه (على هامش السيرة) لكان ذلك

---

(١). طه حسين: على هامش السيرة (الطبعة العشرون، القاهرة، دار المعارف) جـ١، ص ك.

(٢). أنور الجندي: كُتاب العصر تحت ضوء الإسلام، ص ١٨.

(٣). أما قضية تكذيبه للقرآن الكريم، ونظرية بشرية القرآن، فقد نوقشت في البرلمان وأحيلت للنيابة العامة، وأُعدم الكتاب وحفظت القضية. انظر: مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن (بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت) ص ١٥٢.

أكبر دليل على حرصه على الكذب والدس والافتراء، ولكن المجال لا يتسع لعرض كل ما كتبه في كتابه الآنف الذكر[١]، وأحسب أن نفسه امتلأت حقداً، وقلبه فاض كُرهاً ضد السيرة وصاحبها ﷺ، وانطلق بها لسانه وإذا هو يهذر بما لا يعرف من الدس والتشويه.

ومن أبرز الكتاب المعاصرين الذين سلكوا هذا السبيل الدكتور محمد حسين هيكل[٢] الذي كتب كتابه (حياة محمد) بأسلوب السهل الممتنع الذي لا ينقصه الصراحة والوضوح، وقد قال ـ عن هذا الكتاب ـ الدكتور فاروق حمادة: "إن الترويج لهذا الكتاب وأمثاله، خيانة علمية، واستخفاف بالمعرفة الإسلامية، وبالقراء والمثقفين"[٣]، وتبين لنا منهج هيكل في البحث والكتابة، وهو منهج المستشرقين أمثال: موير، ودرمنجم ويشاركهم السخرية في كثير من الروايات التي وردت في الصحاح وأمهات كتب التاريخ الإسلامي، وقد قدم لكتاب هيكل المزعوم شيخ الأزهر ـ آنذاك ـ محمد مصطفى المراغي[٤]، فدافع عن منهج هيكل، وأيده في موقفه من المعجزات، وكان مما قاله: "ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا القرآن، وهي معجزة عقلية، وما أبدع قول البوصيري:

لم يمتحنا بما تعيا العقول به   حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهب[٥]

وفوق هذا كله فالكتاب مشفوع بآراء وتوثيقات رواد المدرسة الإصلاحية، أمثال الإمام محمد عبده، ونقل عنه موقفه من الخوارق والمعجزات الذي جاء في مقدمة كتابه (الإسلام والنصرانية) حيث أورد ما نصه: "فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري؛ فلا

---

(١). الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ لا يتجاوز خُمس صفحات الكتاب، والباقي في الحديث عن قريش قبل الإسلام، وقساوسة مصر والشام وحمير. انظر: محمد سرور زين العابدين: دراسات في السيرة النبوية، ص ٢٣٥.

(٢). كاتب ومؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة بمصر، حصل على الدكتوراه في الحقوق من السوربون، وترأس تحرير جريدة (السياسة) ودّرس القانون المدني بالجامعة المصرية، ولي وزارة المعارف مرتين، ثم رئاسة مجلس الشيوخ، توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٦هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٦، ص ١٠٧.

(٣). فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص ١٩٤.

(٦). عالم مصري من دعاة التجديد والإصلاح، ولي أعمالاً منها القضاء الشرعي، وعين شيخاً للأزهر إلى أن توفي بالإسكندرية سنة ١٣٦٤هـ له تفاسير ومؤلفات كثيرة. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٧، ص ١٠٣.

(٥). محمد حسين هيكل: حياة محمد (الطبعة التاسعة عشرة، القاهرة، دار المعارف، د.ت) ص ١٣.

يدهشك بخارق العادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يُخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية"[(١)]، ودافع عن ـ هيكل ـ محمد رشيد رضا[(٢)] في قوله: "أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل ـ أو أكثره ـ مسألة المعجزات أو خوارق العادات، وقد حررتها في كتاب (الوحي المحمدي) من جميع مناحيها ومطاويها في الفصل الثاني وفي المقصد الثاني من الفصل الخامس، بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ بالذات، ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لا يمكن في عصرنا إثبات آية إلا بها، وإن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة؛ لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى، وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع لملل، وبيَّنت سبب هذا لافتتان والفروق بين ما يدخل منها في عموم السنن الكونية والروحية وغيره".[(٣)]

ثم علق ـ هيكل ـ على أقوالهم قائلاً: "وأكبر ظني أن الذين كتبوا في السيرة كانوا يؤثرون هذا الرأي، لولا أحوال العصر أيام المتقدمين، ولولا أن ظن المتأخرون في ذكر ما لم يرد به القرآن من خوارق ومعجزات ما يزيد الناس إيماناً على إيمانهم؛ لذلك حسبوا أن ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضرّ، ولو أنهم عاشوا زماننا هذا، ورأوا كيف اتخذ خصوم الإسلام ما ذكروه منها حجة على الإسلام وعلى أهله، لالتزموا ما جاء به القرآن".[(٤)]

وأصدر الكاتب أحمد أمين[(٥)] المعاصر لأسلافه السابقين كتابه (فجر الإسلام) فأفرد فيه فصلاً خاصاً بالحديث استغرق نحواً من عشرين صفحة، حاول فيه أن يؤرخ للسيرة وتدوينها، فمزج السم بالدسم وخلط الغث بالسمين بكل ما أُوتي من خبث والدهاء، قال الدكتور مصطفى السباعي: "ولما ثار النقاش في الأزهر حول الإمام الزهري عام ١٣٦٠هـ قال الأستاذ أحمد أمين للدكتور علي حسن عبد القادر وهو الذي أُثيرت الضجة حوله: "إن الأزهر لا يقبل

---

(١). محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٥٧.

(٢). أصدر مجلة (المنار) لبث آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي، ويعد الزعيم الروحي للحركة السلفية، وقد توفي فجأة في حادث سير سنة ١٣٥٤هـ وله مؤلفات. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٦، ص ١٢٦.

(٣). محمد حسين هيكل: المرجع السابق، ص ٥٧، نقلاً عن: مجلة المنار، في عددها الصادر في ١٩٣٥/٦/٣م.

(٤). نفس المرجع، ص ٥٧.

(٥). من كبار كتاب الأدب، تولى القضاء، ودرّس بكلية الآداب بجامعة القاهرة، ورأس لجنة التأليف والترجمة لمدة ثلاثين، وأصدر مجلة الثقافة، مؤلف مكثر، توفي سنة ١٣٧٣هـ. انظر: خير الدين الزركلي: المرجع السابق، جـ١، ص ١٠١.

العلمية الحرة، فخير طريقة لبث ما تراه مناسباً من أقوال المستشرقين ألا تنسبها إليهم بصراحة، ولكن ادفعها إلى الأزهريين على أنها بحثٌ منك، وألبسها ثوباً رقيقاً لا يزعجهم مسها، كما فعلت أنا في (فجر الإسلام) و (ضحى الإسلام) هذا ما سمعته من الدكتور علي حسن يومئذ نقلا عن الأستاذ أحمد أمين، فإذا نقدنا آراءه وبيّنّا ما فيها من تشكيك بالسنة وتحريف للحقائق الإسلامية، وانحراف عن جادة الصواب، وتحامل على فريق من كبار الصحابة والتابعين، فلن نكون مم يتصيدون التهم لإيقاع بريء في شباك الجريمة، بل ممن يجمعون الأدلة للتحقيق مع متهم أُحيط بالشبهات"[(١)]، ويستطرد الدكتور السباعي في موضع آخر من كتابه فيقول: "وها أنا لم أعثر في كل ما كتبه (أحمد أمين) في هذا الموضوع على رأي طريف لم يأخذه عن المستشرقين، ثم أخذ يضرب هو وأمثاله على وتيرة تحكيم العقل، في نقد الأحاديث، ولا أدري أي عقل يريدون أن يحكموه ويعطوه من السلطة أكثر مما أعطاه علماؤنا في قواعدهم الدقيقة؟!"[(٢)]، لقد كان هذا هو منهج أحمد أمين في حياته وكتاباته، أما في حياته فلقد كان صديقاً للشيخ محمد عبده، وكان له صلات مع عدد من علماء المسلمين، ولم يكن متهماً عندهم بالزندقة والإلحاد كطه حسين، أما في مؤلفاته فقلد لبس أقوال المستشرقين ثوباً رقيقاً لا يزعج العلماء مسه، وزعم أنها أقواله وآراؤه، ولم يتحدّى مشاعر المسلمين في طريقة عرض هذه الآراء، ولهذا كان لأحمد أمين مكانة كبيرة في عصره، وكانت مؤلفاته تلقى رواجاً، بل كان الكتاب الذي يشارك في تأليفه أو يضع له تقدمة تنفذ نسخة من المكتبات خلال زمن يسير، وليس مهماً عند أحمد أمين أن يُتهم بالسرقة والخيانة، وإنما الأهم من ذلك كله أن ينشر آراء وأفكار أساتذته بين المسلمين، وهذه هي أخلاق ومناهج تلامذة المستشرقين وإن اختلفت وسائلهم، وأساليبهم.

وكان هناك الدور الخطير الذي تقوم به الثقافة الفرنسية في البلاد التي تتكلم الفرنسية كالشمال الأفريقي واتصالهم بالوسط الثقافي العلماني والماركسي والشيوعي في فرنسا وجامعاتها وتلقف المشرقيين والمسلمين عموماً لكي يكونوا رأس حربة وعصابة تخدم هذا الفكر المتحرر من

(١). مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع (الطبعة الثالثة، بيروت، دار الوراق، ١٤٢٣هـ) ص ٢٦٦، وأحمد أمين: فجر الإسلام (الطبعة التاسعة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م) ص ٢٠٨ ـ ٢٢٤.

(٢). مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص ٣٠٩.

جميع القيود والذي يقوم على محاربة الأديان (الدين أفيون الشعوب) ظهر حامل لواء الثقافة الفرانكفونية وأكبر دعاة التغريب محمد أركون[١]، حيث يرى أن القرآن الكريم ليس إلا جزءاً من التراث العربي الإسلامي بصفة خاصة والتراث الإنساني بصفة عامة، ومن ثم فينبغي دراسته لا بكونه وحياً سماوياً منزلاً وقانوناً ربانياً مرسلاً، ولكن بكونه تراثاً ثقافياً ساهمت في بلورته حضارة شعوب خلت وفكر مجتمعات مضت، تراثاً ناتجاً عن صراعات ثقافية وفكرية وسياسية لتلك الشعوب والمجتمعات، كتعبير عن خلاصة ونتيجة ذلك الصراع وأذان بانتقال الأمة من عصر الطمطومية والآلهة المتعددة إلى عصر التوحيد، وبهذا الشكل نكون قد ورثنا القرآن الكريم عن السلف كما ورثنا المعلقات والمقامات يؤخذ منه ويرد ويعارض وينقد، ويرى أن النبي ﷺ تكلم خلال العشرين عاماً بصفته مبعوثاً من قبل الله تعالى (القرآن) وفي الحالة الثانية تكلم بصفته الشخصية كقائد لهم (الحديث)، والواقع أن هذه المقولة فاسدة نقلاً وعقلاً ذلك أنه لم يحصل هذا الانفصال في الزمن نزول القرآن والحديث، فقد امتد نزول القرآن في كلا المرحلتين ولم يتوقف، ولم يكن الرسول ﷺ يتكلم بصفته الشخصية بل كان مرسلاً بالوحي وقد نزل عليه بالمدينة تشريع المجتمع والنظام العام للدولة الإسلامية.[٢]

ومن العجب أن ينقل مسلم كلام المستشرقين المتعصبين الضالين، فيقدمها ـ للمسلمين ـ خادعاً إياهم أنه منهم، ومن أعجب العجب أن يقال إن القرآن الكريم تراث (فلكلور شعبي) وأنه ليس وحياً سماوياً أو قانوناً ربانياً، وقد أنزله الحق تبارك وتعالى على رسوله ﷺ ولم يكن من إسهامات البشر أو الحضارات والشعوب المختلفة، وأن الإسلام لم يكن دعوة التوحيد التي بدأت مع أول الأنبياء وامتدت مع أنبياء الله ورسله عليهم السلام جميعاً حتى جاء خاتماً لرسالات الأنبياء وهي غير التراث البشري كالمعلقات والمقامات ونحوها، وصدق القائل:

عجبٌ لا ينتهي أعجبهُ　　　أن غدا الدين شِعار الكافرينْ!!

---

(١). جزائري الأصل، يكتب بالفرنسية، يضع القرآن في صف التوراة والإنجيل المحرفين، ويتمثل مشروعه في إعادة بث سموم الاستشراق من جديد، توفي سنة ١٤٣٠هـ. انظر: أنور الجندي: كتاب العصر تحت ضوء الإسلام، ص ١١٢.

(٢). أنور الجندي: المرجع السابق، ص ١١٣، ومحمد حامد الأحمري: محمد أركون ومعالم أفكاره، مقال منشور، بموقع صيد الفوائد: www.saaid.net.

وأخيراً ننتقل إلى الكاتب المغربي محمد عابد الجابري[١] الذي يعتبر القرآن الكريم تجربة روحية فيقول: "القرآن إذاً وحي من الله، حمله جبريل، إلى محمد، بلغة العرب، وهو من جنس الوحي الذي في كتب الرسل الأولين"[٢]، والملاحظ أنه في هذا التعريف قد غيّب عدّة خصائص وعناصر من التعريف الكامل ومنها: كون القرآن متواتراً، وكونه مُعجزاً، وكونه مُتعبَّداً بتلاوته.. لكنه اهتم ـ مقابل ذلك ـ بالتأكيد على أنه من جهة، ليس جديداً كل الجدّة، بل هو استمرار للخطاب الإلهي إلى البشر، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر:٣١]، أي التوراة والإنجيل، كما يعني من جهة أخرى أنه تجربة روحية تتلخص في تلقي الوحي ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] فهو يعتبر القرآن تجربة روحية تتلخص في تلقي الوحي، لكن هذا التحديد (تجربة روحية) لا يدخل في تعريف القرآن، فالقرآن هو كلام الله المنزل على قلب النبي ﷺ، وليس هو التجربة الروحية (تجربة تلقي الوحي) وإنما قد تصدق هذه العبارة على علاقة النبي ﷺ القلبية والوجدانية والروحية باستقبال الوحي، وأما القرآن الموحى به فشيء آخر، ولابد من هذا التمييز حتى لا يروج مثل هذا الخلط.[٣]

ثم انظر إلى مدى الغموض والالتباس والحيرة في قول ـ الجابري ـ عن حقيقة النبوة: "وفي القاموس الإسلامي يكون صاحب هذه التجربة نبياً فقط إذا اقتصر على معاناتها في داخله، غير مهتم بما هو عليه الحال خارج ذاته، ويكون (نبياً ورسولاً) عندما يجد نفسه مطلوباً منه أن يبلّغها بلسانه إلى الناس، كرسالة تدعوهم إلى تشخيص تلك التجربة الروحية في مضامين عقدية وسلوكية"[٤]، إن النبي ﷺ ـ وإن لم يكن مأموراً بتبليغ رسالة قومه ـ فإنه غير منقطع عن

---

(١). أستاذ للفلسفة والفكر الإسلامي بجامعة محمد الخامس، ينطلق من منهجية مادية ماركسية شيوعية كأساس لتدمير الأصالة الإسلامية، توفي سنة ١٤٣٠هـ. انظر: عبد السلام البكاري وآخر: الشُبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم (الطبعة الأولى، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ١٤٣٠هـ) ص ٢٩٧.

(٢). محمد عابد الجابري: مدخل إلى القرآن الكريم (الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦م) جـ١، ص ٢٤.

(٣). عبد السلام البكاري وآخر: المرجع السابق، ص ٣٥.

(٤). محمد عابد الجابري: المرجع السابق، ص ٢٦.

أحوالهم ويدل على ذلك ما قاله وما قام به العديد من الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم وذكرتهم السنة المطهرة، وأما الرسول فهو حقا مطالب بتبليغ الرسالة إلى الناس بلسان قومه، لكن هذه الرسالة لا تدعوهم إلى تشخيص تلك التجربة الروحية في مضامين عقدية وسلوكية كما قال الجابري (تجربة روحية) ـ والتجربة الروحية تكون عادة فردية ـ بل الناس مطالبون بإتباع هذه الرسالة المنزلة والعمل بمضامينها العقدية والتعبدية والسلوكية، لا تشخيص تجربة روحية ما؟! والفرق واضح جداً بين الأمرين[(١)]، ويقول ـ الجابري ـ عن علاقة السيرة بالقرآن من حيث الاستدلال: "يحاول أن يجد لما تحكيه كتب السيرة عن وقائع الدعوة المحمدية ما يشهد لها بالصحة من القرآن، إذ هو النص الوحيد المتواتر الذي يجب الاعتماد عليه في هذا المجال"[(٢)]، وليس القرآن الكريم هو النص الوحيد المتواتر بل هناك أحاديث كثيرة بلغت درجة التواتر، وكما يشهد القرآن لصحة السيرة، تشهد لها الأحاديث الصحيحة، وإذا لم تكفي المؤلف هذه الأحاديث، فليعتمد المتواتر منها ما دام لا يأخذ إلا به؟! لكنه سرعان ما يبين عن تناقضه حيث يستدل بأحاديث الآحاد دون حتى معرفة صحتها، وهؤلاء غيض من فيض من الكتاب المستغربين الذين تصدروا المشهد الفكري والثقافي والعلمي ماركسيون، باطنيون، شعوبيون، علمانيون، ليبراليون، شيوعيون .... الخ.

---

(١). عبد السلام البكاري وآخر: الشُبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٣٧.

(٢). محمد عابد الجابري: مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٣٠١.

الفصل الثاني:

اتجاهات كتابة السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر الهجري:

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: مقدمة حول اتجاهات الكتابة في السيرة النبوية في العراق بداية القرن الرابع عشر الهجري، ومفهوم الاتجاه وأسباب انتشاره

المبحث الثاني: أهل السنة والجماعة.

المبحث الثالث: اتجاه الفرق الإسلامية المخالفة.

المبحث الرابع: الاتجاه القومي.

المبحث الخامس: الاتجاه العلماني.

المبحث السادس: الاتجاه الماركسي.

المبحث الأول:

اتجاهات الكتابة في السيرة النبوية في العراق في بداية ق ١٤ هـ ومفهوم الاتجاه وأسباب انتشاره

من الواضح أن مجال الكتابة في السيرة النبوية في العراق بداية القرن الرابع عشر الهجري، قد ضاق عن ما استقرت عليه في الحقبة السابقة، لكنه قد توسع من حيث غزارة المؤلفات نفسها، لأن تأليف عالم أو تحقيقه في هذا العلم رسالة أو شرحاً لهو دليل على صحة ما يرويه من أحاديث وأخبار من وجهة نظره الشخصية، وهو أمر له أهمية في عهد شهد تململاً فكرياً واضحاً، جراء عدم الاستقرار السياسي، مما نتج عنه ظهور عدد من الاتجاهات الدينية كالصوفية والسلفية[١] في القرن الماضي[٢]، ثم تطور الأمر إلى ظهور حركات مناوئة للدين الإسلامي كالبابية والبهائية مما شغل التحاور بشأنها جملة من المحافل العلمية في مدن العراق في ذلك الوقت.[٣]

وجدت بعض محاولات الكتابة في السيرة النبوية ومن أبرز من كتب محمد الصَّيْقَل[٤] الذي وضع كتباً في أحوال آل محمد ﷺ، استطرد إلى تاريخ حوادث معاصرة له في القرن الثالث عشر، وكتب أحمد البغدادي[٥] "إرشاد الطالبين في معرفة النبي والأئمة الطاهرين"، وألف محمد

---

(١). السلفية دعوة تنادي بالرجوع إلى هدي السلف الصالح منذ عهد الرسالة الزاهر، يقوم على قاعدة منهجية بالعودة بأصول الفهم إلى الكتاب والسنة الصحيحة، وقواعد الفهم المعتبرة لدى الصحابة والتابعين وهي دعوة متجددة معاصرة، مع أصالتها في المصادر والأهداف. انظر: محمد ناصر الدين الألباني: السلفية (الطبعة الأولى، طنطا، دار الضياء للنشر والتوزيع، ١٤٢٨هـ) جمعها وشرحها: عمرو عبد المنعم سليم، ص ١٣.

(٢). كان لظهور النزعة السلفية القوية في بعض مدن العراق منذ أوائل القرن الثالث عشر إيذاناً ببدء صراع فكري عنيف بين أتباع الاتجاه الصوفي، ورجال الاتجاه السلفي الجديد، سرعان ما تحول إلى صراع سياسي، وجمع كل فريق ما استطاع من الحجج للدفاع عن مبادئه، فكان ذلك بواعث حركة التأليف عند الكتاب والباحثين. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٥٠.

(٣). علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٢، ص ١٥٣ وما بعدها.

(٤). محمد بن ناصر بن حسين الصَّيْقَل النجفي، ولد في النجف سنة ١٢٤٥هـ وفيها نشأ، وتخرج في الفقه على جملة من علمائها البارزين، منهم مهدي آل كاشف الغطاء، وحسين الطباطبائي آل بحر العلوم، عُرف بالاطلاع الواسع على التاريخ والسير، منها: "الذكرى في أحوال الأئمة المعصومين ووفياتهم" و"اللؤلؤ المنضد في أحوال آل محمد" ، وله في غير ذلك مؤلفات مختلفة، توفي بالنجف سنة ١٣٢٦هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٣٤٣.

(٥). أحمد بن درويش بن علي بن حسين بن علي بن محمد البغدادي الحائري ولد في كربلاء سنة ١٢٦٢هـ وقضى شطراً من حياته متنقلاً بين بغداد والحلة والنجف وكربلاء، آخذاً عن علمائها، ثم استقر به المقام في موطنه كربلاء، حيث انصرف إلى العزلة والتأليف، حتى وفاته سنة ١٣٢٦هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٣٤٥.

علي عبد العظيمي[1] رسالتين في وفيات النبي والأئمة من آل بيته، وكتب جعفر البرزنجي[2] كتاباً سماه "جالية الكدر بأسماء أصحاب سيد البشر"، وكتاباً آخر سماه "شرح المولد النبوي المسمَّى بالكوكب الأنور على عقد الجوهر في مولد النبي الأزهر ﷺ"، وكتاباً مستقلاً في تاريخ المسجد النبوي ووصفه، سماه "نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين"، ومثله ما فعله محمد الكوفي[3] حين ألف كتاباً ضخماً سماه "مناقب السَّبعِين في فضائل أمير المؤمنين"، أراد أن يشرح فيه سبعين منقبة مروية عن علي ﵁ أوردها مؤلف سابق، إلاَّ أنه توسع فيه حتى جاء سيرة متكاملة، لم تقتصر على ذكر الفضائل فحسب، وإنما تناولت مراحل حياته كلها، ولادته، وغزواته، وشهادته، ومدفنه، بل إنه توسع فيه فتناول تاريخ النجف حتى زمان تأليفه، وجعل الكوفي من سيرة النبي ﷺ إطاراً عاماً لعدد من مجالات الكتابة التاريخية، في كتاب سماه "كنز الحفاظ والوعاظ"، فقد ترجم في مجلد منه لأجداد النبي ﷺ، ثم ترجم في مجلد ثان للأئمة من ذريته، وألحق ذلك بمجلد ثالث، وهو الأكبر، ترجم فيه للعلماء بحسب السياق الزمني حتى زمان تأليفه، وفعل مؤرخ مجهول! الشيء ذاته، حين جمع بين سيرة النبي ﷺ والأئمة ومباحث أخرى في التاريخ الإسلامي، في كتاب واحد، سمي "اللؤلؤ المنضد في أحوال آل محمد"، فمزجت تلك المصنفات بين فني السيرة والتراجم.[4]

ووجدت الكتابة في أنساب الرسول ﷺ من العناية ما فاق الكتابة في سيرته، نظراً لأنها تتيح للمعاصرين المتحدرين من بيته الشريف، منزلةً خاصة في مجتمع أخذت تهب عليه رياح التغيير الاجتماعي، فكتب أبو الثناء الألوسي كتاباً في أنساب الرسول وذريته، وأفرد مصطفى

---

(١). محمد علي بن ميرزا محمد هداية الله الحسيني الشاه عبد العظيم النجفي، ولد سنة ١٢٥٨هـ في إيران، ثم هاجر إلى النجف، توفي سنة ١٣٣٤هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٣٧٥.

(٢). هو جعفر بن إسماعيل بن زين العابدين بن محمد الهادي بن زين بن جعفر بن حسن بن عبد الكريم بن محمد المدني بن رسول البرزنجي، ولد ونشأ في السليمانية عام ١٢٥٠هـ، عين قاضياً بصنعاء، ثم بسيواس، انتقل المدينة المنورة مفتياً ومدرساً إلى أن توفي بها عام ١٣١٧هـ، له مؤلفات عديدة. خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٢، ص ١٢٢.

(٣). محمد بن عبود العباجي الحائري، الشهير بالكوفي، نشأ في كربلاء، وإليها نسب، أخذ العلوم على علماء عصره، وعرف بالمحدث والقارئ، توفي في حدود ١٣٣٩هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٣٨٨.

(٤). نفس المرجع، ص ٩٧.

الواعظ[١] كتاباً في نسب الرسول ﷺ أطلق عليه اسم "العنصر الطيِّب في نَسَب أبي الطاهر والطيِّب"، وخص حسين الطَبَرْسي[٢] ذرية موسى المبرقَع من آل بيته بكتاب مستقل سماه "البدر المشعشع"، ووضع حسين البُراقي[٣] كتاباً كبيراً في الموضوع نفسه هو "معدن الأنوار في نسب النبي وآله الأطهار" وآخر في الأنساب أيضاً، ضمنه فصولاً في تاريخ الكوفة، كما أفرد كتاباً مستقلاً في "أولاد خديجة من النبي المختار"، وعني مهدي الغريفي[٤] بتتبع الأنساب، فكتب في "أنساب الهاشميين"، ووضع كتابين، أحدهما سماه "الدوحة الغريفية"، والآخر "الدرة النجفية" وكلاهما يبحث في أنساب العلويين، وإليهم ينتسب.[٥]

ويعد جعفر الأعرجي[٦] أكثر المؤلفين في علم النسب غزارة في التأليف، فقد ناهز عدد مؤلفاته في هذا المجال الأربعين كتاباً ورسالة، والمهم أنه لم يقتصر في بحوثه النَسَبية على تاريخ العلويين فحسب، كما اعتاد النسابون أن يحصروا أبحاثهم فيه في تلك الحقبة، وإنما تناول فيه أنساب العباسيين، وأنساب القبائل العربية الأخرى، ومن قبائل الأنصار، ومن القحطانيين والسودانيين، بل كتب في أنساب القاجاريين ملوك إيران في عهده، وبعض القبائل التركية، والفارسية، وقد سلك في مؤلفاته كل الطرق المأثورة في كتب الأنساب، المبسوط والمشجَّر

---

(١). نور الدين مصطفى بن محمد أمين بن محمد بن جعفر الأدهمي الحسيني الواعظ، ولد ببغداد سنة ١٢٦٣هـ من أُسرة علمية قديمة، عين عضواً في محكمة التمييز في البصرة، ثم ولي إفتاء الحلة، ثم عين مبعوثاً في مجلس المبعوثان سنة ١٣٢٧هـ ثم عاد إلى بغداد حتى وفاته سنة ١٣٣١هـ له رسائل علمية. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٧، ص ٢٤٤.

(٢). حسين بن محمد تقي بن علي الطَبَرْسي النجفي، ولد في قرية بالو بطبرستان سنة ١٢٥٤هـ وهاجر إلى العراق، وتوفي بالنجف سنة ١٣٢٠هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٣٣٠.

(٣). حسين (حَسُّون) بن أحمد بن زين العابدين البُراقي النجفي، ولد في النجف سنة ١٢٦١هـ اهتم بدراسة ما كتبه المؤرخون الفرس عن تاريخ العراق، كما اهتم أيضاً بدراسة علمي الأنساب والرجال، لم تكن لغته العربية فصيحة تماماً، توفي سنة ١٣٣٢هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٣٦١.

(٤). مهدي بن علي الغريفي النجفي، ولد سنة ١٣٠٠هـ وعاش في البصرة، وتولى الإمامة والقضاء، حتى وفاته سنة ١٣٤٣هـ له مؤلفات متنوعة. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٤٠٩.

(٥). نفس المرجع، ص ٩٨.

(٦). جعفر بن محمد بن جعفر بن راضي الأعرجي الكاظمي، ولد في الكاظمية سنة ١٢٧٤هـ وفيها نشأ، ثم سافر إلى النجف حيث واصل دراسته على علمائها، له مؤلفات عديدة منها: "الفلك السائر في أنساب القبائل والعشائر" موجود بخطه في ظاهرية دمشق (٨٩٠٠) مرتباً على دوائر صغيرة، أنجزه سنة ١٣١٧هـ توفي عام ١٣٣٢هـ. انظر: خير الدين الزركلي: المرجع السابق، جـ٢، ص ١٢٩.

بأنواعه، لكنه سعى إلى ابتكار طرق أخرى، فوضع معجماً لأنساب الأشراف "رتبه على أسماء البلاد التي نزلوا بها"، وألحق أسماء أصحاب الأنساب بمعلومات تاريخية وتراجم، أو تواريخ ولاداتهم ووفياتهم، فأغنى علم النسب بمعلومات ومعطيات علم التاريخ، وهي إضافة جادة وجديدة اتسمت بها مؤلفاته بشكل عام، واختار هبة الدين الشهرستاني[١] أن يُدون أنساب أسرته أولاً فهذا ما يفرضه واجب الوفاء لدى النسابين عادة، فكتب صَدَف اللآلي في ذرية أبي المعالي، ثم كتب "سلالة السادات" في أنساب البيوت الشهيرة في عهد النبي ﷺ.[٢]

واتخذ بعض المؤرخين من سِيَر الأعلام موضوعات للكتابة التاريخية، تحدوهم في ذلك دوافع أخلاقية ووعظية متنوعة، فكتب داود البغدادي[٣] ثلاث رسائل أفرد كل واحد منها في سيرة أحد الأعلام المشاهير: الشافعي، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، وكتب صالح القزويني[٤] سيرة كاملة للخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه من ولادته إلى شهادته، ومثله فعل عبد الحسين آل كَمُّونة[٥] حين كتب أخبار الحسين عليه السلام، بينما وضع عبد الله الطائي[٦] كتاباً ضخماً ضم سيرة موسعة للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سماها "ضوء القمر في سيرة أمير المؤمنين سيدنا عمر"، تناول فيها نسبه، وجوانب من حياته الشخصية قبل الإسلام وبعده،

---

(١). هبة الدين محمد علي بن حسين الحسيني الشهرستاني، ولد في أسرة علمية قديمة سنة ١٣٠١هـ اختير أول وزير للمعارف سنة ١٣٤٠هـ، ثم اختير رئيساً للقسم الجعفري في مجلس التمييز الشرعي سنة ١٣٤٢هـ، وانتخب عضواً في مجلس النواب، ووضع عدة أعمال تاريخية. انظر: علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٣، ص ٢٢.

(٢). عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٩٨.

(٣). داود بن سليمان بن جرجيس العاني البغدادي النقشبندي، ولد سنة ١٢٢٦هـ اشتغل مدرساً في المدرسة الطبقجلية ببغداد، حج سنة ١٢٨٩هـ، وتوفي سنة ١٢٩٩هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٢، ص ٣٣٢

(٤). صالح بن مهدي بن رضا بن محمد علي الحسيني القزويني النجفي، ولد في النجف سنة ١٢٠٨هـ أخذ العلم عن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، وقد تزوج من ابنته، انتقل إلى بغداد سنة ١٢٥٩هـ إلى أن توفي. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٣٠٢.

(٥). عبد الحسين بن علي بن محمد بن ثابت الحسيني آل كَمُّونة، ولد سنة ١٢٦٨هـ فقيه من أُسرة نجفية قديمة، ودرَّس وألّف فيها حتى وفاته، له تآليف متنوعة، توفي سنة ١٣٣٦هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٣٨٢.

(٦). عبد الله بن مصطفى الخضيري الحنفي الطائي الموصلي، ولد في الموصل سنة ١٢٣٥هـ ودرس بها، ثم سافر إلى بغداد، فطار صيته فيها، ثم عاد إلى الموصل سنة ١٢٧٥هـ حيث عمل في التدريس حتى وفاته فيها، له مؤلفات متنوعة. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٢٧٨.

وفتوحاته العسكرية، ورسائله، واستشهاده، ومثل هذا ما صنعه أحمد عزت باشا[(١)] إذ كتب كتاباً في سيرة سيدنا عمر، سماه "فصل الخطاب في فضائل عمر بن الخطاب"، وخص حسين الطَبَرْسي النجفي الصحابي سلمان الفارسي بسيرة مستقلة سماها "نَفَس الرحمن في أحوال سلمان"، ووضع حسين البُراقي رسالة في سيرة الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، ومثله ما فعله محمد بن عبود الكوفي حين ألف كتاباً ضخماً سماه "مناقب السَّبعين في فضائل أمير المؤمنين"، أراد فيه أن يشرح فيه سبعين منقبة مروية عن الخليفة علي رضي الله عنه أوردها مؤلف سابق، إلا انه توسع فيه حتى جاء سيرة متكاملة، لم تقتصر على ذكر الفضائل فحسب، وإنما تناولت مراحل حياته كلها، ولادته، وغزواته، وشهادته، ومدفنه، بل إنه توسع فيه فتناول تاريخ النجف حتى زمان تأليفه.

وظهرت الكتابة في تاريخ العرب القديم على يد السيد محمود شكري الآلوسي، فألف كتاباً ضخماً سماه "بلوغ الأرَبْ في أحوال العربْ"، وأشاد في مقدمته بالعرب (.. وهم الذين امتد باعهم في جمع الفنون، وحَسنت مِنّا بهم الظنون، غير أن مرور الأعصر والأعوام، أدى بآثارهم إلى الضياع، وأودى بها في سائر البقاع)[(٢)]، وقد اقتصر ـ في دراسته ـ على تاريخ العرب قبل الإسلام لا بعده، إذ لم يكن تاريخ العرب القديم يدخل في نظر المؤرخين قبله، ضمن النطاق التقليدي لمراحل التاريخ أصلاً، بل ربما دخل في اهتمامات المفسرين بسبب الحاجة إلى توضيح ظروف بعض الآيات والأحكام، كما فعل أبو الثناء الآلوسي مثلاً في تفسيره (روح المعاني)، وكانت نظرة المؤرخين إليه تقوم على أنه تاريخ لجاهلية حجبها الإسلام وأغنى عنها، فابتدأت تواريخهم من مولد الرسول ﷺ أو مبعثه، أو اقتصرت من عصر ما قبل الإسلام، بالكلام عن أجداده على نمط كتب السيرة[(٣)]، وصحيح أن فكرة كتاب السيد محمود الألوسي جاءت عن طريق اقتراح تقدمت به (لجنة اللغات الشرقية) المعقودة في استوكهولم إلى المختصين

---

(١). أحمد عزت باشا بن محمود بن سليمان العُمري الفاروقي الموصلي، ولد في الموصل سنة ١٢٤٤هـ عُيّن بعدها متصرفاً لشهروز، فمتصرفاً في الأحساء فمتصرفاً في تعز باليمن، وعاد إلى اسطنبول، حيث عكف على التأليف، له مؤلفات عديدة، توفي سنة ١٣١٠هـ. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٣١٠.

(٢). محمود شكري الآلوسي: بلوغ الأرب في أحوال العرب (القاهرة، ١٣٤٣هـ) جـ١، ص ٧.

(٣). عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٨٥.

في العالم للكتابة في (أحوال العرب قبل الإسلام، يستوعب ما كانوا عليه في جاهليتهم من العوائد والأحكام، واشترطت أن يكون مشتملاً على بيان من يطلق عليه لفظ العرب، وإقامة الدليل على فضلهم على غيرهم، وبيان نسب من اشتهر من القبائل وذكر أشهر مساكنهم، وكيف كان حال مكة إذ ذاك، وعوائدهم في المأكل والمشرب والزواج، وتفضيل مجامعهم وأيامهم ومفاخراتهم وأعيادهم وأفراحهم ومعتقداتهم وأوابدهم ومتعبداتهم وعلومهم وصنائعهم ومشاهير رجالهم في الجود والحلم والحكم والشجاعة والشعر والخطابة والطب.. وعلى المؤلف أن يستند في استخراجاته على الشعر الجاهلي، وما تضمنه من ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، إلا أن الفكرة وافقت ما كان يختلج في قلب ـ الألوسي ـ ويخطر بباله، وفي الاتجاه نفسه كتب أنستاس ماري الكرملي مباحث شتى تناولت تاريخ العرب قبل الإسلام، وعلاقات الجزيرة العربية ببلاد الرافدين، والأقوام التي قامت بين ظهرانيهم، إلا أن تلك المباحث على أهميتها، تفرقت في مجلات شتى، أو ضمَّتها مخطوطات كتبها، فلم يفكر أن يجعل منها كتاباً كما فعل الآلوسي.[١]

وكتب محمد الناصري[٢] كتاباً في تاريخ العرب سماه "سمير الأديب في دول الأعاريب"، فجمع فيه أخبار العرب الخالية ذوي الرتب الغالية والأنساب العالية، وذكر في مقدمته أنه ما كتبه إلاَّ لأن (.. تاريخ العرب مما تشد إليه الركائب والرحال، وتطوى في سبيل نيله السباسب والرمال، لاشتماله على أهم الحوادث الكونية).[٣]

يتضح مما مضى أن أغلب المؤلفات التي كتبت في السيرة النبوية يغلب عليها اتجاهات ونزعات فكرية مخالفة ـ شيعي أو صوفي ـ لطريقة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة)، وتلك المصنفات لا تخلو من التأويل الفاسد، أو الأخبار الضعيفة، أو حتى المكذوبة، وكذا الحكايات، والمنامات، والرؤى، وادعاء حالات وصور وأخبار عن السيرة النبوية يكون هدفها وغايتها إخراج شخصية الرسول ﷺ وسيرته وآل بيته عن مجال الاقتداء والاتباع والتأسي، حيث تضفي

---

(١). عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، ص ٨٦.

(٢). محمد خلوصي بن محمد سعيد بن مال الله الناصري التكريتي، كان حياً سنة ١٣٣١هـ أديب، متفقه، مترجم، تولى إدارة بعض المدارس الابتدائية، كما تولى مناصب قضائية. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص ٣٥١.

(٣). نفس المرجع، ص ٨٦.

عليه هالة من الصفات الغيبية والقدرات الخارقة العجيبة ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٣] مما يخرجه ﷺ عن قدرة البشر وطاقتهم فلا يستطيعون التأسي والاقتداء به ﷺ عملياً، مما يجعل حظهم منه ﷺ مجرد إعجاب، وانبهار ومثالية، وإشباع روحي، غير قابل للمتابعة والتطبيق الواقعي، وأكثر ما يبرز هذا في الفكر والاتجاه الشيعي، ثم الفكر والاتجاه الصوفي اللذان يعتمدان شخصيات بديلة عن شخصية الرسول ﷺ ويزعمون لأتباعهم أن لها خصوصية ولديها القدرة على التأسي والاقتداء به ﷺ لما لها من الوسائل والخصائص المميزة، مثل الأئمة عند الشيعة، والسادة والأولياء عند الصوفية.(١)

ويعد الشيعة الأحلام والمنامات والرؤى وسيلة من وسائل الكشف، فالأحلام عندهم إذن أولى بالمعرفة مما يأتي به العقل من أوهام وأباطيل، وقد لخص المتصوفة ذلك بقولهم: "النوم يقظة واليقظة نوم"، أما الموت في نظرهم فهو النوم الأكبر الذي تتم به اليقظة الكبرى كما جاء في الحديث: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"، ويروي علي الوردي في كتابه: (الأحلام بين العلم والعقيدة) قصص ذات مغزى إذ يؤكد فيها أن الشيعة يتلقون عقائدهم من محيطهم الاجتماعي، ثم إذا رأوا في المنام ما يؤيدها، استيقظوا وهم أقوى إيماناً بها من ذي قبل وأصبح عندهم كأنه من الآيات المنزلات وهم لا يبالون أن تكون تلك العقائد مخالفة لما جاء به الإسلام الصحيح، ويلجأ الصوفية ـ أيضاً ـ إلى استخدام الحكايات للوصول لغرضهم المنشود، لأنهم يخاطبون عامة الناس فلا يريدون استخدام الأساليب المنطقية، ولأنهم يخوضون في معان صعبة الفهم كوحدة الوجود والاتحاد والحلول فيجدون أن إيصال أفكارهم يتم بالحكايات والأمثال أفضل من أي طريقة أخرى، وقد ظهر ذلك في أسلوب العطار في كتابه تذكرة الأولياء، وكذلك جلال الدين الرومي في كتابه (المثنوي).(٢)

---

(١). محمد بن صامل السلمي: مسائل في منهج دراسة السيرة النبوية (الرياض، دار ابن الجوزي، د.ت) ص ٩.

(٢). انظر: علي الوردي: الأحلام بين العلم والعقيدة (الطبعة الثانية، بيروت، دار كوفان، ١٩٩٤م) ص ٥٣ ـ ٦٤، وفريد الدين العطار: تذكرة الأولياء (الطبعة الأولى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م) ترجمة: منال اليمني عبد العزيز، جـ١، ص ٥٩.

مفهوم الاتجاه:

وجه كل شيء مستقبله، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم:٣٠]، أي اتبع الدين القيم، وماله جهة في هذا الأمر ولا وجهة، أي لا يبصر وجه أمره كيف يأتي، والجهة والوجهة أي الموضع الذي تتوجه إليه وتقصده، وضل وجهة أمره، أي قصده، والجهة النحو، تقول كذا على جهة كذا، ووجه الكلام أي السبيل الذي تقصده به، وصرف الشيء عن وجهه، أي سننه، وتوجه إليه أي ذهب إليه(١)، والوجه أصل واحد يدل على مقابلة لشيء، والوجهة كل موضع استقبلته، كما قال الله تعالى:﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة:١٤٨]، وتولى الشيخ أي ولّى وأدبر، كأنه أقبل بوجهه على الآخر.(٢)

وخلاصة القول أن الاتجاه يأتي بمعنى وجه الشيء، والإقبال عليه والاهتمام به، والمذهب أو الطريق، والقصد، والاتجاه مصطلح حديث ومعاصر، وقد وجدت تعاريف كثيرة جداً له، نقتطف منها ما يلي: "هو مجموعة الآراء والأفكار والنظرات والمباحث التي تشيع في عمل فكري، بصورة أوضح من غيرها، وتكون غالبة على سواها، ويحكمها إطار نظري أو فكرة كلية تعكس بصدق الثقافة التي تأثر بها الشخص وتلون بها".(٣)

وهناك تعريف آخر للاتجاه: "هو توجيه الاهتمام إلى موضوعات أو قضايا محددة، يحكمها طابع معين، وتهدف إلى غاية بعينها، بحيث يمكن القول، إن مفكرا ما له اتجاه فكري خاص، أي أنه يهتم بقضايا معينة، تشكل محور اهتمامه، وتستوعب جهوده وطاقاته".(٤)

في حين عرف بعض الباحثين المعاصرين الاتجاه بغير ما ذكر فقال: "هو الطريق التي سار فيها المحدثون ليصلوا هدفهم؛ مع التجاوز عن المنحيات اليسيرة التي سار فيها فرق منهم دون

---

(١). ابن منظور: لسان العرب (الطبعة الثالثة، بيروت، دار إحياء التراث الإسلامي، ١٩٩٩م) جـ١٥، ص ٢٢٩، والفيروز آبادي: القاموس المحيط (الطبعة الثالثة، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٣٠١هـ) جـ٤، مادة وجه.

(٢). أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة (بيروت، دار الفكر، ١٩٧٩م) تحقيق: عبد السلام هارون، جـ٦، ص ٨٨.

(٣). محمد إبراهيم شريف: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر (الطبعة الأولى، القاهرة، دار التراث، ١٩٨٢م) ص ٦٣.

(٤). محمد قاسم المنسي: اتجاه التفسير الفقهي (رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٦م) ص ١٠.

إغفال لمفارق الطرق التي تباعد بينهم وبين غيرهم".(١)

وبعضهم عرف الاتجاه بمعنى المذهب: "الذي يتضمن الاعتقاد والرأي والحكم، ومن هنا تقال الاتجاهات الاقتصادية والسياسية والخلقية والاجتماعية وما إلى ذلك"(٢) أو "هو مجموعة مبادئ وآراء متصلة ومنسقة لمفكر أو مدرسة، ومنه المذاهب الفقهية والأدبية والعلمية والفلسفية".(٣)

ونستطيع من خلال هذه التعريفات أن نقول: إن الاتجاه، أو المذهب، أو المدرسة الفكرية يعد بمثابة عنوان، يضم العديد من الأشخاص الذين تجمعهم أصول يتفقون فيها، ومنطلقات ينطلقون منها، وغايات يرومون تحقيقها، وذلك دون أن يكونوا متماثلين، فهم يتشابهون في المناهج، ويتمايزون في ترتيب أولويات القضايا والمهام، وفي درجات ميادين الإصلاح والدراسة، وفي المزاج والأسلوب، ومستوى الخطاب، ونوع الجمهور(٤)، وقسم عبد الرزاق إسماعيل هرْماس اتجاهات الكتابة والتأليف في السيرة النبوية إلى قسمين:

أ). **الاتجاهات الأصيلة**: والمقصود بها تلك الكتابات التي تعتمد في مادتها على المصادر الأصلية، لكنها تستفيد من المناهج والأساليب المعاصرة في كتابة السيرة، فهناك كتابات سارت على مناهج المتقدمين العلمية مثل اتجاه: المحدثين، والأثريين، والمؤرخين، وهناك كتابات انطلقت في كتابة السيرة النبوية من تصورات منهجية حديثة مثل الاتجاه: التربوي، والحركي، والأدبي.

ب). **الاتجاهات المخالفة**: وساهم في ظهورها العديد من الفلسفات والمدارس الغربية التي غزت العالم الإسلامي خلال القرن الرابع عشر الهجري، مثل الاتجاه: الفلسفي، والعلماني، والماركسي، والبنيوي، والاتجاه الذي يتبنى طروحات المستشرقين.(٥)

---

(١). عبد المجيد محمود عبد المجيد: الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في ق٣هـ (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م) ص ١.

(٢). مقداد يالجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام (رسالة ماجستير ،كلية دار العلوم، جامعة القاهرة) ص ٢.

(٣). مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي (القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٨٣م) ص ١٧٤.

(٤). محمد عمارة: الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية (الطبعة الثانية، القاهرة، دار الرشاد، ١٤١٨هـ) ص ٦٥.

(٥). عبد الرزاق إسماعيل هرْماس: الاتجاهات المعاصرة في كتابة السيرة النبوية (الكويت، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة: (٥٥) العدد: (١٨) شوال ١٤٢٤هـ) ص ٨٩ - ١٣٨.

المبحث الثاني:

الاتجاه السني في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال ق ١٤ هـ

أهل السنة والجماعة هم أهل الإيمان الجازم بالله ﷻ وما يجب له من التوحيد والطاعة، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وسائر ما ثبت من أمور الغيب والأخبار والقطعيات علمية كانت أم عملية، والرسول ﷺ هو الداعي لهذه العقيدة الناسخة لما سواها، وقد سموا بأهل السنة لتمسك أصحابها واتباعهم بسنة النبي ﷺ، وسموا بالجماعة لأنهم جماعة الإسلام الذين اجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا في الدين، وتابعوا منهج أئمة الحق ولم يخرجوا عليه في أي أمر من أمور الدين، وهم أهل الأثر أو أهل الحديث أو الطائفة المنصورة أو الفرقة الناجية.[1]

فأهل السنة تطلق على المجموعة المتقدمة من أمة الإسلام، في فترة تاريخية تضم الصحابة والتابعين ﷺ من أهل القرون الأولى، وأما مستند تفصيل هذه الفترة من القرون الثلاثة الأولى وخيريتها، واعتبارها المرحلة المتقدمة الصالحة للإتباع والاقتداء، فهو لأنها تمثل التزامن لنزول القرآن الكريم في عصر الصحابة ﷺ وفهمهم لها، وهم يعيشون منهج النبوة، ولتعليمهم التابعين من بعدهم، ثم تعليم التابعين لتابعيهم، ونقاء النبع في زمنهم قبل مرحلة الاختلاط والعجمة بعد انتشار الفتوحات الإسلامية في البلدان، والدليل الشرعي على هذه الخيرية ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "خير الناس قرني؛ ثم الذين يلونهم؛ ثم الذين يلونهم؛ ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمنه شهادته"[2]، وكما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس خير: فقال: "أنا والذين معي، ثم الذين على الأثر، ثم الذين على الأثر"[3]، ومن هذا المنطلق كان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: "من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ أبرّ هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكهم بدينهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم".

---

(١). مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، جـ١، ص ٣٦.

(٢). رواه البخاري الحديث رقم: (٣٦٥١)، واللفظ له، ورواه مسلم الحديث رقم: (٢٥٣٣).

(٣). رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ﷺ، الحديث رقم: (٨٤٨٣) واللفظ له، من طريق محمد بن العجلان عن أبيه العجلان مولى فاطمة بنت عتبة عن أبي هريرة ﷺ، والحديث إسناده حسن؛ لأن محمد بن العجلان صدوق، ووالده لا بأس به. انظر: ابن حجر: تقريب التهذيب، ص ٣٨٧، ٤٩٦.

ويعد السنة والجماعة هم الأصل في العراق، فتكوين العراق السُني المذهبي كالآتي:

(حنفي المذهب) وهو المذهب الغالب في العراق بين العرب والتركمان، (الشافعي) وهو مذهب بعض العرب السنة والأكراد، (المالكية) وهذا مذهب بعض أهالي سنة جنوب العراق إلى أن اختفى وتبدل بالمذهب الحنفي ولا يزال بعض كبار السن من أهل السنة في الجنوب العراقي يقول نحن (موالج) باللهجة العامية أي موالك، وليس هذا غريباً فالمالكية كانوا بالعراق لغاية القرن السادس الهجري ثم انحسر وجودهم وبقي قسم منهم على شواطئ الخليج فالإمارات العربية المتحدة أهلها أكثرهم مالكية وقليل من الحنابلة في قصبة الزبير في محافظة البصرة.[1]

ومن كتاب السيرة النبوية في هذا الاتجاه نذكر الشخصيات التالية:

١) عبد العزيز الثعالبي وكتابه: الرسالة المحمدية.

٢) محمود شيت خطاب وكتابه: الرسول القائد.

٣) وليد الأعظمي وكتابه: الرسول ﷺ في قلوب أصحابه.

٤) فاضل السامرائي وكتابه: نبوة محمد من الشك إلى اليقين.

٥) عماد الدين خليل وكتابه: دراسة في السيرة.

٦) أكرم ضياء العمري وكتابه: المجتمع المدني في عهد النبوة.

---

(١). عبد العزيز صالح المحمود: جهود علماء السنة في الرد على الشيعة، القسم الأول، موقع الراصد الالكتروني، العدد الخامس والخمسون، محرم ١٤٢٩هـ، على الرابط: http://www.alrased.net

عبد العزيز الثعالبي[1] وكتابه الرسالة المحمدية:

يبدأ المحقق صالح الخرفي تقديمه لكتاب الرسالة المحمدية، بقوله: "بنعمة من الله وفضل، كان العثور على هذه المخطوطة، بخط الشيخ عبد العزيز الثعالبي عن السيرة النبوية، على صاحبها، أفضل الصلاة وأزكى التسليم، لم تمسها يد بسوء، إلا عوادي الزمن، من طول الاحتباس، وعدوى الرطوبة، طيلة ما يقرب من سبعين عاماً، يوم ألّف الثعالبي هذه السيرة، وهو في دار الغربة والاغتراب بغداد، محاضراً في جامعة آل البيت في أواسط العشرينات، إلى أن كتب الله لهذه المخطوطة أن ترى النور في أواسط التسعينات ...

ثم أخذ يستعرض كيفية حصوله على هذه المخطوطة من أحد أصفياء الثعالبي، والمقربين إليه، الأوفياء له، الحافظين لإرثه، المرحوم محمد حبيب شلبي، كاتم سره، وصاحب الفضل في الحفاظ على مخطوطه (البعثة المحمدية) التي تؤلف صفحات هذا الكتاب... إلى أن قال: "أبادر بأن هذه المخطوطة هي الصيغة الأولى للجزء الذي نشره الثعالبي في حياته سنة ١٣٥٨هـ بعنوان: (معجزة محمد رسول الله ﷺ) والذي أُعيد نشره مؤخراً، ثم استكمل بالجزء الثاني، وقد تملكتني الحيرة، في تاريخ كتابة هذه المخطوطة، فهي تخلو من أيّة صفحة تحمل عنواناً، أو صفحات تذيلها بفهرس أو مراجع، فهي تبدأ مباشرة بالبعثة المحمدية وتنتهي بالصفحة الأخيرة عند دفن الرسول ﷺ، وفي صفحة (٣٤) من المخطوطة، عند حديث الإسراء، وركوبه ﷺ البراق، جاء ما يلي: "إلى أن انتهيت إلى بيت المقدس، فأوثقته بالحلقة التي بباب المسجد" وعلق الشيخ بين هلالين بقوله: "وهو مكان حائط مبكى اليهود اليوم، الذي وقعت من أجله ثورة أغسطس الماضي".

---

(١). ولد عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي في تونس سنة ١٢٩٣هـ انخرط في الحركة الوطنية الإسلامية في تونس، درّس في جامعة آل البيت ببغداد منذ سنة ١٣٤٦ إلى سنة ١٣٥٠هـ، ولقد استفاد منه العراق فانتدبه للإشراف على البعثة الطلابية العراقية إلى مصر، ومثّل العراق في مؤتمر الخلافة بمصر سنة ١٩٢٥م الذي دعا إليه شيخ الأزهر عقب إسقاط الخلافة في اسطنبول، ثم ترك العراق إلى مصر، ومنها إلى تونس حيث استقبل استقبالاً حافلاً من الشعب، إلى أن توفي سنة ١٩٤٤م. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٤، ص ١٢، وأنور الجندي: عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية (الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٤م) ص ١٠، وصالح الخرفي: عبد العزيز الثعالبي: من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب (الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥م) ص ١٦.

يتضح مما مرّ ذكره، أن الثعالبي كتب هذه المخطوطة في السنوات الأخيرة لإقامته بغداد، تلك السنوات الممتدة بين ١٣٤٦هـ إلى ١٣٥٠هـ بعد إغلاق (جامعة آل البيت) بمؤامرة من (المعتمد البريطاني) وإبعاد الثعالبي من بغداد، خوفاً من تأثير مواقفه ضدّ الاستعمار، وانتدابه مراقباً للبعوث العلمية العراقية في القاهرة.

أردت بهذا التقصي في تاريخ كتابة المخطوطة، الوصول إلى تحديد الموقع الزمني لها بين الكتب التي تناولت السيرة النبوية في العهد الحديث، وتحديد مكانة الثعالبي بين المؤلفين المعاصرين له في السيرة العطرة"[١]، أما وقد أمكننا أن نحدد الموقع الزمني لمخطوطة بغداد من التأليف الحديث في السيرة النبوية الشريفة، فهل يمكننا أن نحدد بعض ملامح هذه المخطوطة صياغة وأسلوبا؟!

كما سبقت الإشارة كان هم ـ الثعالبي ـ وهو يخوض غمار إصلاح المجتمع من خلال نضاله السياسي، هو إصلاح هذا المجتمع بالرجوع به إلى منابعه الأولى التي ابتعدت عنه، تحت تأثير الانحطاط الداخلي، والتسلط الخارجي، والثعالبي عانى من أقطاب الجمود الفكري، معاناته من ظلم المستعمر الأجنبي، فقد دخل السجن بتسلط من الاثنين معا، المتحالفين عليه، وكانت الشكاوى ضده ترفع من (شيخ الإسلام) و(شيخ المدينة) لتصب في دار الإقامة العامة الفرنسية.[٢]

فاتجه الثعالبي، محاضراً وخطيباً وكاتباً ومؤلفاً إلى إعادة طرح الصفحات المشرقة للإسلام والعروبة، طرحاً معاصراً أمام المستمعين له، والقارئين لإنتاجه، وأدرك مبكراً، استحالة قدرة الشباب على استخلاص العبرة التاريخية من هذه المطوَّلات والموسوعات، المثقلة بالاستطرادات، والمرهقة بالعنعنة التي عرفتها كتب الأحاديث، وتعدد الرواية للواقعة الواحدة، وحشد الأشعار، أصيلة ودخيلة على نسق السرد التاريخي، إضافة إلى لغة من التأليف قديمة، لا تخطئها الغرابة في اللفظ، ولا التعقيد في التعبير، فأعاد الثعالبي صياغة السيرة بقلمه صياغة كاملة، وجمع أطرافها المتناثرة في محاور محددة، وركز على موطن العبرة من الحادثة التاريخية في ضوء الواقع المعاصر،

---

(١). عبد العزيز الثعالبي: الرسالة المحمدية من نزول الوحي إلى وفاته ﷺ (دمشق، دار ابن كثير، ١٩٩٧م) تحقيق: صالح الخرفي، ص ٧ ـ ١٤.

(٢). نفس المرجع، ص ٧ ـ ١٤.

ومنهج السيرة في بناء الشخصية، وانتشالها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام، وهو يتمثل جاهلية معاصرة تحيط بالمسلم، وتحاصره، فأحب أن يتداركه بنص موثوق به، قريب منه، وفي سيرة نبيه ﷺ، فقال في مقدمة (معجزة محمد): "وقد سلكت في تخريج فصوله، وإثبات فروعه وأصوله، على ما صح عندي من الرواية، وتبينته من الدراية، سالكاً في النقل مسلك الثقات المتقدمين، معتمداً في التخريج طريقة النقاد المعاصرين، ليكون وسطاً بين المذهبين، وجامعاً لما تفرق بين الموردين، وهو ـ كما رأيت ـ عمل شاق لا يقدم عليه إلا من كان مدركا تبعة النقص الفاضح، والفراغ الواضح في حياتنا العلمية، ومقوماتنا الاجتماعية، وما ذلك بالشيء اليسير في جانب ثقافتنا العامة، من الناحيتين الدينية والسياسية".[(١)]

وإضافة إلى هذه الفقرة الموحية، لمنهج الثعالبي في صياغة السيرة، فإنك تلمس لفقراته وفصوله، نفساً معاصراً في هذه المداخل التي يمهد بها، أو الخواتم التي يذيل بها، والعناوين التي يتخيرها، وكأنه يصب العبرة في قالب من الواقع المعاصر المائل، فأنت تقرأ هذه الفقرة في المدخل للدور الثالث للإسلام، يغمرك إحساس جارف بلفظة: (تحرير المستضعفين) في العنوان، وتغشاك قشعريرة نابعة عن عمق المأساة التي يتخبط فيها العالم العربي والإسلامي، تحت نير التسلط الأجنبي معبراً عن ذلك بقوله: "لما تحررت الأمة العربية من نير التقاليد الزائفة، ووحد الإسلام بين قبائلها، وآرائها المختلفة في الحجاز، وأقام لها الرسول ﷺ من أوساطها دولتها العتيدة. لم يبق في سبيلها مانع من بسطها السلطان، ومزاحمتها للدول القوية على التفوق، وإدارة دفة السياسة والسيادة العالمية، ولتحقيق هذه الغاية، كانت المبادرة واجبة لإنقاذ العرب القابعين تحت نير السلطتين الفارسية والرومانية في شرق وغرب بلاد العرب"[(٢)]، ويصادفك هذا النفس في غير عنوان في الكتاب:

- حملة رسول الله ﷺ على العرب المستدجنين للروم.
- دور التغلب ومناجزة الأمم وتحرير المستضعفين.
- عقوبة الجاسوس القتل.
- قرار مجلس شورى الإسلام.

---

(١). عبد العزيز الثعالبي: الرسالة المحمدية من نزول الوحي إلى وفاته ﷺ، ص ٤٥.

(٢). وعنوانه لإحدى الفقرات: "حملة رسول الله ﷺ على العرب المستدجنين للروم". انظر: نفس المرجع، ص ٤٥.

- التدابير العسكرية للتجهيز والنفير.
- عقد مجلس الشورى العسكري.
- نظام الاستخبار العسكري.
- ذكاء المخبرين السريين.

والثعالبي وهو يعيد صياغة السيرة النبوية بنبض معاصر، ويغمس ريشة قلمه في وضع عربي محتدم، متقد الجبهات في أواخر العشرينات، لا تتمتع فيه دولة عربية واحدة بسيادتها كاملة، ولا بإرادتها حرة، وتتصدر هذا الوضع البئيس (قضية فلسطين) ونذر المؤامرة عليها تتجمع، وقوى العصف بها تتحالف ـ والثعالبي ـ يحمل هم فلسطين بين جوانحه، وينتفض حميته لها في مواقفه، ويعيش في قلب فلسطين جسماً وروحاً، يستعيد في الواقع المرير محنة الإسلام مع اليهود، فرصد هذه المحنة في السيرة النبوية رصداً شاملاً، وأعطاها أكثر من وقفة فاحصة، وأبدى وأعاد في التماس العبرة فيها، في وفاء الرسول ﷺ للقوم، وغدرهم به، وإيمانه بنبيهم، وكفرهم بما جاء مكتوباً عنه ﷺ في التوراة، الأمر الذي يقود إلى الدلالة القاطعة، والقناعة الراسخة، بأن العداوة بينهم والإسلام عداوة تاريخية، لا يرجى لها شفاء، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ [المائدة:٨٢].

وقد أضفى الثعالبي على السيرة النبوية قداسة ومهابة بأن استمد عناوين فقراتها من الأقوال المأثورة عن صاحبها عليه الصلاة والسلام في معالجة الوقائع التي تعرضت له في حياته الشريفة، فغالباً ما تنتهي الفقرة بنقطتين، يليها قول الرسول ﷺ عنوانا للفقرة اللاحقة، والفهرس الذي حصر هذه الأقوال المأثورة في الكتاب يبرهن عن مدى غزارتها وشيوعها في السيرة النبوية.

والسيرة من قبل ومن بعد، رصد ذكي لأسباب نزول الآيات الكريمة، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحدث، وقلما خلت واقعة في السيرة النبوية من آية كريمة تظللها، ووحي أمين يوثقها، فلست تقرأ كتاباً في السيرة النبوية فحسب، وإنما هو إلى جانب ذلك، معجم في أسباب نزول الآيات، فيما يقرب من مائتين وخمسين موضعاً، في خمس وستين سورة من الذكر الحكيم.

وليست تلك وحدها محاسن هذه الصيغة الثعالبية للسيرة العطرة، فكل قارئ لها، قادر على استكشاف مكامن الروعة في ثناياها، واستلهام العبرة في زواياها، واستنارة الطريق في ضوء إشعاعها الهادي إلى سواء السبيل، وإن لأسلوب الثعالبي، قدرة على العودة بك أربعة عشر

قرنا، ليضعك في موقع الأحداث من بعثة الرسول ﷺ، وظهور الإسلام، تعيشها، وتواكب خطوات الرسول فيها، وترهف السمع لأقواله الكريمة، وتلتمس القدوة في أفعاله العظيمة، لتعود إلى موقعك المعاصر بشحنة روحية، ومباركة سماوية، وقد نفحتك السيرة العطرة بعثاً جديداً.

وحسب الثعالبي أن يكون وفق بفضل من الله ﷻ، إلى طي هذه المسافة المطوّحة بين الشباب المسلم وتعاليم دينه وسنة نبيه ﷺ، وسد ذلك الفراغ في المكتبة المحمدية أمام الأمة الإسلامية: "بعد أن أجهدها الطلب، وفاتها الأرب، وهي لا تجد لبغيتها مورداً، ولا لما ترومه مساعدا، اللهم إلا واحداً من كتابين اثنين، لا ثالث لهما: كتاب أروبي[(١)] لا يتحاشى مؤلفه عن الغمز واللمز والهمز في صاحب الرسالة العظمى، مما ينفثه يراعه في روع قارئيه، من وسوسة الحيرة، وفتنة الشك، تحت ستار البحث العلمي، هذا إن أنصف، ولم يتعسف، وقليل ما هم.

وكتاب عربي[(٢)] أشبه بمنجم من التبر، إلا أنه غير معدّن، ولا مسبوك، والطريق إليه وعر، لا معبد ولا مسلوك، مرتب على نسق قديم، وأسلوب غير سليم، لم يتناوله مقص المشذّب، ولا تمحيص الناقد المهذب، يتعثر الذهن في مساق عبارته، ويرتبك الفهم في مورد إشارته، ففترت الهمة عن قراءة الكتابين. وبسبب ذلك، قلّت الرغبة في الإطلاع على حياة إمام المرسلين ﷺ".[(٣)]

وهذه الفقرة للثعالبي من مقدمة: (معجز محمد رسول الله ﷺ تؤكد من جديد ما سبق أن بيّناه بأن المكتبة المحمدية ـ والثعالبي يضع كتابه هذا ـ ويقصد المكتبة الحديثة المعاصرة، كانت خالية، شاغرة، إلا من كتابين: أوروبي ولا نخال يقصد غير كتاب (حياة محمد) لـ (ديرمنغم)، وعربي وما من شك، يقصد كتاب (هيكل)، الذي عاصر نشر فصوله في (السياسة) وحضر

---

(١). الطبعة الجديدة لـ (معجز محمد رسول الله) كانت بتقديم ومراجعة محمد اليعلاوي، وقد أشار في المقدمة إلى افتراض كتاب (إميل دير منغم) لما يعنيه الثعالبي بـ (كتاب أروبي)، ولا أرى غير ذلك فالكتاب أخذ شهرة واسعة في العالم العربي، وقد عربه عادل زعيتر فيما بعد. انظر: عبد العزيز الثعالبي: الرسالة المحمدية من نزول الوحي إلى وفاته ﷺ، ص ٤٨.

(٢). يذهب محمد اليعلاوي إلى أن الثعالبي لعله يقصد بـ (كتاب عربي) كتاب محمد حسين هيكل (حياة محمد). انظر: عبد العزيز الثعالبي: المرجع السابق، ص ٢٠ ـ ٢٢.

(٣). يقول المحقق لكتاب الثعالبي صالح الخرفي: "تذاكرت ذات يوم مع أستاذي شوقي ضيف، رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة، في هذا الموضوع، وأحسست بعدم إنصاف من الثعالبي لهيكل في حكمه هذا على كتابه، وقال شوقي ضيف: إن أسلوب هيكل ممتع، ولكنه ملفوف بغلالة فلسفية عقلية. انظر: عبد العزيز الثعالبي: المرجع السابق، ص ٤٨.

حفل تكريمه ـ كما نوهنا ـ ومهما قيل عن كتاب (هيكل) بما له أو عليه، فلم يزل منذ صدوره قبل ما يزيد عن سبعين عاماً، من أوسع الكتب انتشاراً في السيرة النبوية، فقد أشرف على طبعته العشرين، ولم يشر إلى كتاب (محمد ﷺ المثل الكامل لمحمد جاد المولى) ولا كتاب (محمد رسول الله ﷺ لمحمد رضا) فهما لم يلقيا من الرواج والشهرة والسيرورة، ما لقيه الأولان.

ولست أدري! لم يلمح الثعالبي ولا يصرّح! لعل من أسباب ذلك هذه الحفاوة البالغة بكتابين يراهما غير جديرين بها، لدسائس مبطنة في كتاب مستشرق لم يسلم من سوء النية، وإن اتسم بحسنها في نظر الكثيرين، ولمنهج مسلكه وعر، وفي كتاب عربي، يكل الذهن دون بلوغ المقصد منه، على أن الثعالبي، وقد رجحنا أن يكون تلميحه هذا منصبا على كتاب هيكل؛ قد ناقض بقوله: (مرتب على أسلوب قديم، ونسق غير سليم) مقولة هيكل بأن الحداثة العلمية، هي السمة الأولى لكتابه، وأنه الرائد في مسلكها: "بل لعلي أكون أدنى إلى الحق، إذا ذكرت أني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة العلمية الحديثة، وأن ما بذلت في هذه السبيل من جهود، لا يخرج هذا الكتاب عن أنه بداءة البحث من ناحية علمية إسلامية في هذا الموضوع الجليل".[1]

وما من شك في أن للثعالبي هو الآخر ريادته لا الزمنية وقد أوضحنا موقعها، وإنما المنهجية، فسبقه في أوائل هذا القرن إلى تناول السيرة تلخيصاً، وتهذيباً وصياغةً، وهو ما انتهت إليه جهود الباحثين في السيرة في أواخر القرن، فتنوعت العناوين التي تتصدر كتب السيرة، تحمل في تنوعها المراوحة بين المحافظة على النص القديم، مع استخلاصه من شوائبه، ودراسة السيرة دراسة موضوعية جديدة مما يندرج في: (المكتبة المحمدية المعاصرة).

وأخيراً فإن كتاب (الرسالة المحمدية) للثعالبي كتاب ضخم يقع في أكثر من ٨٢٨ صفحة وهو يسير على منهج التهذيب والاختصار للسير المطوّلة، واستخلاص النص المرتبط بالسيرة النبوية ارتباطا وثيقا، واستبعاد الاستطرادات التي تكتنفه، والتركيز على الواقعة في حياة الرسول

---

(١). محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٣٤. وقد رد الشيخ المراغي على هيكل في هذه الدعوى، وقال في تقديمه لكتاب هيكل ما مضمونه: "وأما أن هذه الطريقة حديثة، فهذا ما يعتذر عنه، وقد سايره غيره من العلماء في هذا، ذلك لأنها طريقة القرآن، كما اعترف هو، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين". انظر: عبد العزيز الثعالبي: الرسالة المحمدية من نزول الوحي إلى وفاته ﷺ، ص ١٢.

ﷺ، والاستغناء عما استتبعه من الأشعار والأقوال، والإعراض عن العنعنة في مستهل النص، إلا ما يتصل بابن إسحاق أو ابن هشام، وبغيرهما عند ـ الثعالبي ـ الذي وسع دائرة مصادره.

إذن: فالثعالبي أعاد صياغة النص، وأجال يراعه في صلب النص، وبعثه بعثاً جديداً، منطلقاً وغاية من الإدراك الواعي، بأن هذه المطوّلات في السيرة النبوية، لم تعد مما يستسيغه الذوق المعاصر في القراءة والمطالعة، مع الحاجة الماسة إلى توثيق الصلة بمضمونها في نفوس الشباب، والإحساس المرير، بضيق الصدر، وعزوف النفس عند هؤلاء الشباب، في تناولهم للسيرة من مظانها القديمة، وهي معاناة عاشها (عبد العزيز الثعالبي) شاباً مع كتب السيرة النبوية المتقدمة كابن إسحاق وابن هشام وغيرهما فكانت الدافع له لهذا التهذيب.

يقول الثعالبي: "وقد كنت في صدر الشباب، أحاول المرة بعد الأخرى، أن أقرأ هذا الكتاب الجليل ـ يقصد سيرة ابن هشام ـ من مبتدئه إلى منتهاه، فكان يصدني عن ذلك، ما كنت أجده في ذلك التأليف من اضطراب واستطراد، يكد الذهن ويجلب السآمة، فلا أقرأ منه إلا أجزاء متناثرة".[1] ذلك هو المنطلق، فما الغاية؟

عبّر عنها الثعالبي في صدر (معجزة محمد) بـ (رغبتي)[2] وقال سنة ١٩٣٨م: "ينقص المسلمين في مكتباتهم الخاصة، وجود كتاب قيم، سهل الفهم، قريب المأخذ، يطالعون فيه حياة نبيهم، على نسق حديث، يجمع بين اللذة الروحية، والمتاع العقلي، فيه هداية الله، وعبرة التاريخ، بأسلوب واضح اللفظ، ظاهر المعنى بحيث يتمثل لقارئيه، كأنهم عاصروه ﷺ".[3]

---

(١). عبد العزيز الثعالبي: الرسالة المحمدية من نزول الوحي إلى وفاته ﷺ، ص ٥١.

(٢). نفس المرجع، ص ٥١.

(٣). نفس المرجع، ص ٥١.

محمود خطاب[(١)] وكتابه الرسول القائد:

إن الإسلام باعتباره حضارة كاملة، فإنه نظم كافة أمور الحياة ديناً ودنيا، قد عالج أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية، ووضع خير المناهج والمبادئ لكل ما يتصل بها من حيث أهدافها وقوانينها وآدابها، والباحث المحقق لا يجد في الإسلام كل ما تحتويه النظريات العسكرية المعمول بها في الشرق أو الغرب فحسب، بل إنه ليكتشف بالتحليل والمقارنة أن نظريات الإسلام الحربية، تتجاوز تلك النظريات وتتفوق عليها سواء من الناحية الفنية البحتة أو من حيث نبل المقاصد والأهداف.

وقد نشأت في المدينة المنورة بعد الهجرة أول مدرسة عسكرية في تاريخ العرب كان الرسول ﷺ قائدها ومعلمها الأول، وعلى أساس مبادئ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة القولية والعملية والتقريرية قامت نظريات العسكرية الإسلامية في مختلف شؤون الحرب والقتال، مثل: أسباب الحرب وأهدافها، آداب الحرب، بناء الجيش القوي، بناء المقاتل، اعداد القادة، التدريب على القتال، الحرب النفسية، المخابرات والأمن ومقاومة الجاسوسية، الانضباط والجندية وتقاليدها، بناء الروح المعنوية وإرادة القتال، اعداد الأمة للحرب، الصناعة الحربية واقتصاديات الحرب ... الخ[(٢)]، وهكذا تكون أول جيش في تاريخ الإسلام والمسلمين، وتعلم رجاله في المدرسة العسكرية الإسلامية على يد قائدها ومعلمها الأول رسول الله ﷺ، فلما أذن الله سبحانه وتعالى لهم بالقتال طبقوا ما تعلموه في المعركة فكانوا مضرب الأمثال في الكفاية القتالية والشجاعة والعبقرية الحربية، وكانوا دائماً منصورين على أعدائهم بإذن الله عز وجل.

---

(١). وُلد محمود شيت خطّاب في مدينة الموصل سنة ١٣٣٨هـ اعتقل في عهد عبد الكريم قاسم، تولى منصب الوزارة في عهد عبد السلام عارف عدة مرات، أخرج المعجمات العسكرية الموحدة، اختير عضواً فاعلاً في كثير من الهيئات والمجامع العلمية منها: المجمع العلمي العراقي، ومجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، والمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، أعاد صياغة التاريخ العسكري لأمتنا العربية الإسلامية بأسلوب فني متخصص، وبمصطلحات عسكرية حديثة، لقي وجه ربه في ١٤١٩/٨/٢٤هـ ببغداد. انظر: يوسف بن إبراهيم السلوم: اللواء الركن محمود شيت خطاب (الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٤هـ) ص ١٩، ومحمد فاروق البطل: اللواء الركن محمود شيت خطاب، مقال منشور في ٢٠٠٥/٥/٢م، بموقع رابطة أدباء الشام، على الرابط الالكتروني: http://www.odabasham.net

(١). اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ: العقيدة العسكرية الإسلامية (مجلة الأمة القطرية، السنة الأولى، العدد: السادس، ربيع الآخر ١٤٠١هـ) ص ٧٥ ـ ٧٧.

ويعتبر كتاب (الرسول القائد) للواء الركن محمود شيت خطاب من أوائل الكتب المعاصرة التي تحدثت عن سيرة الرسول ﷺ العسكرية، فهو كتاب عسكري تعبوي من الطراز الأول، يمتاز بإبراز قدرات وإمكانات الرسول ﷺ القتالية؛ خاصة أن مؤلفه قائد حربي مجرب ومحنك درس النظريات العلمية في ميدان الحروب الحديثة في أعرق وأرقى الأكاديميات العسكرية في العالم، ثم استغل ما درس وتعلم في مقارنة تلك النظريات مع مبادئ واستراتيجيات الرسول ﷺ في القتال فشاهد البون الشاسع والفرق الواضح بين قوانين الحرب والحياد في القرن الرابع عشر، وبين ما طبقه الرسول ﷺ عملياً في القتال قبل أربعة عشر قرناً..![1]، وقد عبر ـ الكاتب ـ عن سبب تأليفه لهذا الكتاب فقال: "فكّرت في وضع هذا الكتاب، بعد ما قرأت كثيراً من المؤلفات العسكرية الباحثة في تاريخ حروب القادة العظام، الذين لمعت اسماؤهم قديماً وحديثاً.. لقد أبرزت تلك المؤلفات بكل وضوح أعمال أولئك القادة، ووصفت معاركهم بتسلسل منطقي سهل، ووضّحت تلك المعارك بالخرائط والمخططات والأشكال، وأظهرت الدروس المفيدة منها، فأضفت بذلك الخلود على حياة أولئك الرجال، وعدت لأقارن بين هذا الاسلوب في البحث، وبين أسلوب المؤرخين عندنا في الحديث عن معارك قادة المسلمين، فوجدت كيف أضاء الأسلوب الأول معالم الطريق للباحثين، وحقّق قيمة جديدة لأعمال بعض القادة، بينما طمس الأسلوب الثاني أعمالاً خالدة تستحق التقدير والإعجاب!!

ويضيف فيقول: "لقد قرأت أكثر كتب السيرة بإمعان، وحاولت أن أستشف منها كل نواحي العظمة التي تتسم بها شخصية الرسول ﷺ، ولكني وجدت أن عبقريته العسكرية التي لا تتطاول إليها أية عبقرية أخرى لأي قائد في القديم أو الحديث تكاد تكون متوارية محجوبة لم يتح لها من يكشف أسرارها ويجلي عظمتها بأسلوب حديث يجنح إلى الكشف والتحليل وإبراز المواهب النادرة خاصة من عسكري يستطيع أن يلم بنواحي العظمة العسكرية من حياة الرسول ﷺ يشوبه الغموض حتى اليوم".[2]

ثم يسقط ذلك كله على المؤرخين القدامى فيقول: "لقد تحدث مؤرخو السيرة عن معارك الرسول ﷺ بإسهاب أو باقتضاب، ومع ذلك يخرج الباحث من دراسة كل معركة دون أن يلم

---

(١). محمود شيت خطاب: الرسول القائد (الطبعة السادسة، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢هـ) ص ١١.

(٢). نفس المرجع، ص ٣.

بكل تفاصيلها ووقائعها ودوافعها، ويعود ليسأل نفسه: ما هو موقف الطرفين قبل المعركة؟ كيف جرى القتال؟ ما هي الدروس التي نستفيدها من المعركة؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الحيوية الملحة.(١)

وعاد وأفاض في أساليب المؤرخين القدامى حول التصنع في الوصف والإكثار من المبالغة ـ من وجهة نظره ـ فيها فيقول: "إن وصف معارك القواد المسلمين وعلى رأسهم الرسول ﷺ بهذا الأسلوب الذي لا يقنع باحثاً ولا يشفي غلة دارس، جعل تاريخ الحرب الحديث يورد أمثلة من أعمال القواد غير المسلمين، كهنيبال وقيصر ونابليون ومولتكه ... الخ، ولا يورد أمثلة من أعمال القواد المسلمين كالرسول ﷺ وخالد وسعد بن أبي وقاص ﷺ ... الخ، بينما يُدرّس هذا التاريخ للمسلمين وفي بلاد المسلمين!!

ثم يؤكد على رداءة الأسلوب وسوء الطرح ـ من وجهة نظره ـ في عرض المواقف القتالية للرسول ﷺ فيقول: "إن سبب ذلك هو جناية الأسلوب، هذه الجناية التي جعلتني أفكر في تأليف هذا الكتاب عن أعمال الرسول ﷺ العسكرية، متوخياً تنسيق المعلومات التي جاءت في كتب السيرة بأسلوب علمي بسيط، تطرّقت فيه إلى الموقف العام للطرفين قبل المعركة، وأهداف المعركة، وقوات الطرفين، وسير الحوادث قبل القتال واثناءه وبعده، ونتائج المعركة ودروسها المفيدة، تلك الدروس التي لم تقتصر على أعمال الرسول فحسب، بل أظهرت أعمال المشركين أيضاً؛ وحاولت إيضاح كل ذلك بالخرائط والمخططات والأشكال، لمعرفة مواقع المعركة واسلوبها وأسلحتها الغريبة عنا الأن؛ وبهذا الإيضاح أمكن أن يعيش القارئ في جو المعركة الأصيل، ويطّلع على تفاصيلها، ليحصل من ذلك على معلومات وافية عن المعركة من كافة الوجوه".(٢)

والكتاب ـ عموماً ـ يقع في أكثر من ٥٥٣ صفحة من القطع المتوسط، ويحتوي على ستة عشر فصلاً، وقد طبع ست طبعات على فترات زمنية متباعدة آخرها كان في عام ١٤٢٢هـ وهي التي اعتمدت عليها في العرض والمناقشة، وتوجد بين يدي الطبعة الثانية؛ وقد استفدت منها كثيراً خصوصاً وأن ـ الكاتب ـ تراجع عن بعض آرائه ومواقفه وعاد إلى جادة الصواب في الطبعة الأخيرة ـ وسنتطرق إليها في مواضعه ـ وهذا ما يحمد له.

---

(١). محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص ٣ ـ ٦.

(٢). نفس المرجع، ص ٣ ـ ٦.

أولاً: موقف الكاتب من مشروعية الجهاد في الإسلام:

بادئ ذي بدء لا بد أن نُنَوه بأن هناك افتراءات متعددة المصادر والأهداف توجهت نحو الغزوات والفتوحات الإسلامية، وتشكيكات كثيرة حول دعوة الإسلام من حيث كونها ربانية، وأن الإسلام إنما انتصر بحد السيف؟! وليس لي أن أناقش مسألة القتال في الإسلام ومشروعيته، وكيف فُرض الجهاد؟ ولماذا فُرض؟

فقد قامت الدعوة الإسلامية على الحكمة والموعظة الحسنة، جاءت تلك الدعوة في مجتمع تعددت طوائفه، وتصاعدت حدة المنازعات بين قبائل العرب، واستحكمت في عقولهم مسالكهم العصبية، ومن هنا نفهم أن هذه الدعوة إنما جاءت بهدف تغيير تلك الظروف، وإبطال العصبية، حتى يجتمع الناس على وحدة تساوي الغني بالفقير، ولا يكون لأحد فضل على غيره إلا بالتقوى وصالح العمل، أي أن دعوة الإسلام هي دعوة إلى الخير وأنها في أساسها دعوة ربانية لا تهدف إلى إراقة الدماء وبسط النفوذ، قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

ويؤكد ـ اللواء خطاب ـ على ذلك فقال تحت عنوان جانبي (القتال في الإسلام): "هو قتال العدو، لتأمين حرية نشر الدعوة وتوطيد أركان الإسلام، مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة في القتال، لم يؤذن في القتال قبل الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة رغم ما ذاقوا من المر وكابدوا من فنون الأسى والضر، فلم يكن من همهم إلا أن ينشروا (دعوة)، ويثبتوا (عقيدة) ويقولوا في حرارة وصدق: ربنا الله... فلما اشتد عداء قريش وصمموا على القضاء على الدعوة الإسلامية، وأجمعوا أمرهم على قتل النبي ﷺ، هاجر هو وأصحابه إلى المدينة المنورة، فهل وقف البغي، وخفّت حدّة العدوان؟ كلا، ظلت قريش تحارب المسلمين، وتخرجهم من ديارهم وأموالهم حتى أذن الله للمسلمين في القتال فنزلت فيه أول آية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾ [الحج:٣٩ - ٤٠].

لقد خرج الرسول ﷺ غازياً في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة المنورة، وبذلك بدأ القتال (فعلاً) في الإسلام..."(١)، إلى أن يقول: "إن الإسلام لا يؤمن بالحروب التي تثيرها العصبيّة العنصرية، كما يستبعد الحروب التي تثيرها المطامع والمنافع: حروب الاستعمار والاستغلال والبحث عن الأسواق والخامات واستعباد المرافق والرجال، كما يستبعد الإسلام تلك الحروب التي تثيرها حب الأمجاد الزائفة أو حب المغانم الشخصية، إن القتال في الإسلام ليس أساس العلاقة بين المسلمين، وهذا طبيعي في دين لا ينشره أصحابه للتوسع الاقتصادي وللاستغلال، دين يحرم العدوان ويشرع التكافؤ والمساواة بين الناس ويجعل مقياس التفاضل بينهم التقوى والعمل الصالح، إن السلم في الإسلام هو القاعدة الثابتة والحرب هي الاستثناء.(٢)

ثانياً: موقف الكاتب من الخوارق والمعجزات النبوية:

يقول اللواء خطاب في مقدمة كتابه ـ المشار إليه ـ في الطبعة الثانية المنقحة: "ولكنني أغفلت ذكر الحوادث التي لا يمكن أن تحدث في الحرب التي يرددها بعض المؤرخين ليثبتوا للناس أن انتصار الرسول كان بالخوارق غير الاعتيادية بالدرجة الأولى، لا بتطبيقه مبادئ الحرب، ومن الغريب أنهم يعتبرون ذلك من مظاهر الإيمان برسالة النبي؟!

وإذا كان الرسول قد انتصر بالخوارق، فما قيمته كقائد؟

وكيف يحتذي المسلمون بسيرته وقد ذهبت الخوارق وبقي الواقع المرير؟

لقد كان محمداً واقعياً بعيداً عن الخيال، وكان إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه.. ولو اطّلع الرسول على ما حشره بعض المؤرخين من الخوارق في سيرته، لما رضاه ذلك، لأن الإسلام دين المنطق والعقل، ومعجزته الخالدة هي أنه دين الفطرة السليمة، وكان الرسول لا يرضى أن تُنسب إليه معجزة غير القرآن، ويحرص على إفهام الناس أنه بشر مثلهم..! قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠]، وروى مسلم في صحيحه: "إنما أنا بشر مثلكم، إذا أمرتكم

(١). محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص ٣٩.

(٢). نفس المرجع، ص ٥٨.

بشيء من أمر دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من أمر دنياكم فإنما أنا بشر".[(١)]

إن إنكار الخوارق والمعجزات والتشكيك فيها بل والتعسف في تأويلها، ميدان زلت فيه أقدام كثير ممن كتب في السيرة النبوية في هذا العصر بالذات، وكان من أبرز من تولى كبر هذه المزاعم رواد المدرسة العقلية الحديثة والمدرسة القومية، أو ما يمكن تسميته بالاتجاه التوفيقي في كتابة السيرة النبوية، وهو الاتجاه الذي حاول التوفيق بين معطيات الدين الإسلامي ومعطيات الحضارة الغربية، ولقد كانت مسألة الخوارق والمعجزات من أكثر قضايا السيرة النبوية التي برز فيها هذا الاتجاه، تارة بإنكارها وعدم ذكرها أصلاً، وتارة بالتشكيك فيها، وتارة أخرى بتأويلها حتى تصبح من قبيل المألوف، فالطير الأبابيل تؤول بالجراثيم، والملائكة التي أمد الله ﷻ بها المؤمنين في غزوة بدر تفسر بالمدد المعنوي أو التعبئة المعنوية، والإسراء والمعراج تؤول بوحدة الوجود وسياحة الروح أو بتعبير عاطفي غير لائق: "أول رحلة فضائية لإنسان"، بل إن بعضهم أوَّل المعجزات النبوية كلها على أنها ضرب من الحظ الذي رافق النبي ﷺ؟!

واعتبر هؤلاء القرآن الكريم المعجزة الوحيدة والقطعية التي تثبت نبوة محمد ﷺ، وحتى هذا الاعتبار من هؤلاء فيه نظر! إذ حتى المعجزات والغيبيات التي أوردها القرآن الكريم كالإسراء والمعراج ومدد الملائكة يوم بدر أعملوا فيها التأويل العقلي حتى توافق المألوف وتساير العقلية الغربية[(٢)]، لكن مع مرور الزمن تبدل موقف ـ اللواء خطاب ـ من الخوارق والمعجزات فنراه في الطبعة السادسة من نفس الكتاب ـ طبع بعد وفاته ـ يتغير موقفه تماماً، وهذا يحسب له لا عليه، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٥١]، وقال تعالى: ﴿ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء:٨٢].

وإليك ما خطه بقلمه في الطبعة المشار إليها: "ولكني أغفلت بعض الظواهر الخارقة التي لا يمكن أن تقع في الحروب العادية بين المتطاحنين من البشر، والذي يرجع بعض المؤرخين إليها وحدها السر الأكبر في انتصار الرسول ﷺ على خصومه وأعدائه، لقد أيد الله نبيه وثبت قدمه

---

(١). محمود شيت خطاب: الرسول القائد (الطبعة الثانية، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٦٠م) ص ٦.

(٢). أحمد بن محمد فكير: الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية (بلا هوية) ص ٢١.

ونصره على أعدائه بالملائكة المنزلة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦] ووعده بالنصر حين أذن له في القتال دفاعاً عن النفس ورداً لعادية المعتدين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩].

ولكن الخوارق لم تكن وحدها أداة النصر والعامل الذي غلب به الرسول ﷺ، والذين يذهبون إلى هذا يسلبونه قوته قائداً، ثم كيف يحتذي المسلمون سيرته، ويتّبعون في الحروب نهجه وسنته، إذا لم يكن لفنه الحربي الأصيل ومواهبه العسكرية النادرة، الأثر العظيم في ظفره ونصره؟ إن الخوارق كانت إيذاناً للنبي ﷺ بأن الله معه لا يتخلى عنه، حتى يشحذ همته ويثير عزيمته، وينبهه بكل ما فيه من حواس اليقظة والحذر إلى أعدائه المحاربين.

ويمضي فيقول: "ولست أحاول في هذا الكتاب أن أعرض لهذه الخوارق والمعجزات التي أيد الله بها نبيه وثبت رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، فذلك أمر يؤمن به كل مسلم، وقد أثبته القرآن الكريم بما لا يدع فيه مجالاً لشك أو ريبة، وإنما أريد أن أبرز للعيان سمات قيادة الرسول ﷺ التي يمكن أن تكون أسوة حسنة في الحروب لأتباعه.[1]

ثالثاً: موقف الكاتب من بعض آراء المستشرقين:

بقي علينا في هذا الموضع أن نلفت النظر إلى انتقاد ـ اللواء خطاب ـ لبعض آراء المستشرقين حول أعمال الرسول العسكرية، لأننا ربما لا نعود إلى الكلام عن هذا النقد مرة أخرى في غير هذا الموضع، فيقول: "إن الرسول عند بعض المستشرقين صاحب رقّة تحرمه القدرة على القتال، ودليلهم على ذلك أنه اشترك بحرب الفجّار بتجهيز السهام فقط ولم يشترك في الطِعان، وهو عند بعض المستشرقين صاحب قسوة تُغريه بالقتل واهدار الدماء من غير جريرة،

(١). محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص ٥.

وحجّتهم على ذلك قتل أسيرين بعد (بدر) وقتل بعض اليهود بعد غزوة الأحزاب.

ولو لم يكن الهوى وحده هو الذي يثير هذا النقد المغرض، لما حدث مثل هذا التناقض بين أقوال المستشرقين، اللذين لا يريدون وجه الحق في نقدهم، ولو أرادوا الحق لوجدوا أن الرسول لم يقاتل أبداً إلا مضطراً، ولم يأمر أبداً بقتل أحد إلا عقاباً له على جريمة نكراء أضرّت أشد الضرر بمصالح المسلمين، ومن العجيب أن ينتقده هؤلاء لقتله بضعة أشخاص، لأنهم حالوا بطرق غير شريفة دون حرية انتشار الإسلام، وعملوا بطرق غير شريفة لإثارة الحرب، وخانوا عهودهم بعد اقرارها بمواقف حرجة كادت تقضي على المسلمين، بينما لا ينتقدون قومهم في القرن العشرين على افناء شعوب كاملة لأنهم قاوموا الظلم والعدوان، ولهم أن يدرسوا قوانين الحرب والحياد في القرن العشرين، ليروا بأنفسهم أين تكون هذه القوانين الدولية مما طبقه الرسول ﷺ عملياً في القتال قبل أربعة عشر قرناً..؟!".[1]

رابعاً: موقف الكاتب من عبقرية الرسول ﷺ العسكرية:

يرى اللواء محمود شيت خطاب أن الرسول محمد ﷺ لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون وغيرهم، ولكنه لم يخطئ قط في جميع غزواته وفتوحاته، يذكر شجاعة الرسول ﷺ ويقارن بين المعارك القديمة والحديثة التي يحدد خط سيرها القائد ـ أي أنه أهم عنصر فيها ـ يقول: "وربما يتبادر إلى الأذهان، أن القيادة في العصور الغابرة كانت سهلة التكاليف لقلة عدد القوات حينذاك بالنسبة إلى ضخامة عددها وكثرة أسلحتها ووسائطها في الجيوش الحديثة، ولكن العكس صحيح، إن مهمة القائد في العصور الغابرة كانت أصعب من مهمته في العصر الحديث، لأن سيطرة القائد ومزاياه الشخصية، كانت العامل الحاسم في الحروب القديمة، بينما يسيطر القائد في الحرب الحديثة على قواته الكبيرة بمعاونة عدد ضخم من ضباط الركن الذين يعاونونه في مهمته ويراقبون تنفيذ أوامره في الوقت والمحل المطلوبين، كما يسيطر القائد على قواته بوسائط المواصلات الداخلية الدقيقة من أجهزة لاسلكية وسلكية ورادارت وطيارات ووسائط آلية، بل إن هيئات الركن مسؤولة حتى عن تهيئة خطة القتال قبل وقت مناسب، ولا يقوم القائد إلا بمهمة الإشراف على التنفيذ، **إن القائد في الحرب الحديثة يحتاج إلى العقل**

(١). محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص ١١.

وحده، والقائد في الحرب القديمة يحتاج إلى العقل والشجاعة".[١]

ويضيف ـ اللواء خطاب ـ قائلاً: "يمتاز الرسول ﷺ عن غيره من القادة في كل زمان ومكان بميزتين مهمتين:

الأولى: إنه كان قائداً عصامياً، فقد حرص على مباشرة القيادة بنفسه طوال فترة الصراع كلها من السنة الثانية إلى السنة التاسعة.

والثانية: أن معاركه كانت لغرض حماية حرية نشر الإسلام ولتوطيد أركان السلام لا للعدوان والاغتصاب والاستغلال.

والثالثة: إن غيره من القادة العظام وجدوا أُمماً تُؤيدهم وقوات تساندهم؛ ولكن الرسول ﷺ لم تكن له أُمة تُؤيده، ولا قوات تسانده، فعمل على نشر دعوته، وتحمّل أعنف المشقات والصعاب، حتى كوّن له قوة بالتدريج ذات عقيدة واحدة وهدف واحد، هو إعلاء كلمة الله، وعلى ذلك يمكن تقسيم حياة الرسول ﷺ من الناحية العسكرية إلى أربعة أدوار: دور الحشد، ودور الدفاع عن العقيدة، ودور الهجوم، ودور التكامل.

أما دور الحشد: فمن بعثته إلى هجرته إلى المدينة المنورة واستقراره هناك، وفي هذا الدور اقتصر الرسول ﷺ على الحرب الكلامية.. يبشر وينذر ويحاول جاهداً نشر الإسلام، وبذلك كوّن النواة الأولى لقوات المسلمين، وحشدهم في المدينة المنورة بالهجرة إليها، وعاهد بعض يهود ليأمن جانبهم عند بدء الصراع.

أما دور الدفاع عن العقيدة: فمن بدء الرسول ﷺ بإرسال سراياه وقواته للقتال، إلى انسحاب الأحزاب عن المدينة المنورة بعد غزوة الخندق، وبهذ الدور ازداد عدد المسلمين، فاستطاعوا الدفاع عن عقيدتهم ضدّ أعدائهم الأقوياء.

أما دور الهجوم: فهو بعد غزوة الخندق إلى بعد غزوة حنين، وبهذا الدور انتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وأصبح المسلمون قوة ذات اعتبار وأثر في بلاد العرب، فاستطاعوا سحق كل قوة تعرّضت للإسلام.

والدور الرابع هو دور التكامل: وهو من بعد غزوة حنين إلى أن التحق الرسول ﷺ

(١). محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص ١٠.

بالرفيق الأعلى؛ فقد تكاملت قوات المسلمين بهذا الدور، فشملت شبه الجزيرة العربية كلها، وأخذت تحاول أن تجد لها متنفساً خارج شبه الجزيرة العربية، فكانت غزوة تبوك إيذاناً بمولد الإمبراطورية الإسلامية".(١)

خامساً: موقف الكاتب من قدرات الرسول ﷺ القتالية:

اهتم ـ اللواء خطاب ـ برصد الصفات الشخصية للرسول القائد في أكثر من موضع في كتابه ـ المشار إليه ـ ومما سبق عرضه يتبين أنه ﷺ كان قائداً مثالياً، ومما يؤكد ذلك الصفات التي ذكرها بدقة وتحديد، وسأذكرها باختصار شديد لا يخل بالمعنى، وهي:

أ) **الصفات الشخصية:** ومنها اللياقة البدنية، وبعد النظر، وسرعة اتخاذ القرار، وقوة الإرادة، والشجاعة، ورباطة الجأش، فقد كان ﷺ يتحلى بذلك ومواقفه في أحد والخندق وحنين تدل على ذلك، وقدرته ﷺ على السيطرة السريعة على الجيش، وإعادة تنظيمه بعد الهزيمة، ومما يميزه كقائد ـ أيضاً ـ معرفته بخصائص رجاله وخصائص رجال عدوه، كما لم يستبد النبي ﷺ برأي له، وفي بدر خير سند على ذلك، فهو ﷺ قد تحمل المسؤولية كاملة في أمر الحرب واتخاذ القرار المناسب.(٢)

ب) **رفع الروح المعنوية للجنود:** فقد حرص ﷺ إكساب جنوده اللياقة العالية حتى يبلوا بلاءً حسناً في الغزوات، كما حرص على تدريب الجنود على استعمال وسائل الحرب وأدوتها المختلفة بمهارة وكفاءة عالية، فقد كان ﷺ يريد أن يجعل من المسلمين كلهم جنوداً قادرين على الدفاع عن أنفسهم في مختلف المواقع.(٣)

ولا يقل الحب كعامل من عوامل تهيئة الجندي للقتال، وقد ربط هذا الحب لله ولرسوله بين المسلمين وبين رسولهم فكان الواحد منهم يجعل من جسده درعاً فداءً للنبي ﷺ، فيتحرق للقتال ويتشوق للشهادة في سبيل الله، والصمود هو الآخر عنصر لا يقل أهمية عن عناصر الجندي المسلم، إذ لا بد له أن يعزم ويصمم على المضي في المعركة وألا يجبن أو يتراجع.

ج) **إعداد القوة المادية (التسليح):** لم يغفل الرسول القائد ﷺ عن دور السلاح في

---

(١). محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص ٨.

(٢). نفس المرجع، ص ١٠٢ ـ ١٠٧، وص ١٧٤ ـ ١٧٧.

(٣). نفس المرجع، ص ١١٩.

اكتساب النصر، وقد راعى النبي ﷺ في التسليح وفرة السلاح ونوعيته، فقد استخدم الرسول ﷺ في حصار الطائف المنجنيق والدبابة، وبذلك استفاد من سلاح جديد في القتال"[(١)]

ومن هذا التحليل الموجز نستخلص أن جيش الإسلام الأول ـ قادة وجنداً ـ قد تعلموا ومارسوا عملياً كل أشكال العمليات الحربية تحت قيادة الرسول القائد محمد ﷺ، وأنهم اكتسبوا بذلك خبرة قتالية فائقة.

ويورد ـ اللواء خطاب ـ في فصل بعنوان: (الدفاع عن العقيدة): "حقق الرسول ﷺ بسراياه الأولى عدداً من المنجزات العامة يمكن حصرها بما يلي:

١) الاستطلاع:

استطاع المسلمون التعرف على الطرق المحيطه بالمدينة المنورة والمؤدية إلى مكة المكرمة، خاصة الطرق التجارية الحيوية لقريش بين مكة والشام، كما استطاع التعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها.

٢) القتال:

أ. أثبت المسلمون أنهم أقوياء ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم تجاه المشركين من قريش والقبائل المجاورة وأهل المدينة وتجاه اليهود، وقد أراد المسلمون من ذلك أن يترك لهم الحرية الكاملة لنشر دعوتهم دون تدخل من أعدائهم.

ب. تحالف المسلمين مع بعض القبائل المجاورة.

٣) الكتمان:

ابتكر الرسول ﷺ أسلوب الرسائل المكتوبة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن حركات المسلمين، والكتمان أكبر عامل من عوامل مبدأ المباغتة التي هي إحداث موقف لا يكون العدو مستعداً له، والكتمان من جملة الوسائل المهمة التي تؤدي إلى المباغتة وهي مبدأ من مبادئ الحرب، وقد سبق المسلمون غيرهم في ابتكار هذا الأسلوب الدقيق.

(١). محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص ٣٧٨.

٤) الحصار الاقتصادي:

هدد المسلمون أهم طريق تجارية بين مكة المكرمة والشام بين فأصبحت قوافل قريش غير آمنة حين تسلك هذا الطريق مما أثر أسوأ الأثر على تجارة قريش التي تعيش عليها، وهدد مكة بالحصار الاقتصادي لمحاولة حرمانها من سلوك طريق مكة الشام بأمان.(١)

من خلال ما سبق عرضه عن الجانب العسكري في شخصية الرسول ﷺ نرى أن ـ اللواء خطاب ـ قد تتبعه بشكل يناسب العصر الحديث، وعرضه بأسلوب سلس فيه توضيح للصفات العسكرية له ﷺ، والتي كان التخطيط الجيد سمة كل خطوة من خطواته ﷺ، فالتخطيط جزء من العمل العسكري الذي حث عليه الرسول ﷺ وجعله فريضة إسلامية.

(١). محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص ٩٣.

وليد الأعظمي[(١)] وكتابه الرسول ﷺ في قلوب أصحابه:

محمد ﷺ في قلوب أصحابه، ذلك هو عنوان الكتاب، ومدخل المؤلف إلى نفس جديد في كتابة السيرة النبوية، والإحاطة بهذه السيرة الثرية المباركة، من كل جوانبها المبدعة، تغذية للروح وتصحيحاً للعقيدة، وتزكية للنفس، وتربية للذات، وترويضاً للصبر، كل ذلك، والدعوة المحمدية في مهدها بمكة، ثم الهجرة، إلى بناء الدولة في المدينة، اجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً، وعسكرياً، إذن: فمكة المكرمة مهد بناء الذات المسلمة في حضن الدعوة الجديدة، والمدينة المنورة مهجر الدعوة لبناء الدولة.

يقول المؤلف في مقدمة كتابه: "إن من نعمة الله تعالى علينا، أننا نشأنا نحبُّ رسول الله ﷺ، نحبُّ شخصه ونحبُّ خلقَه ونحبُّ سيرتَهُ ونحبُّ هديَهُ ودعوته، نشأنا وهذا الحب الطاهر الصادق النقيُّ المبارك يملأ جوانحنا، وتنبض به قلوبنا ... وكبرنا وكبر معنا الحبُّ لرسول الله ﷺ، وصرنا نقرأ .. وقرأنا العديد من كتب الفقه، واللغة، والتاريخ، والأدب، وتعلقنا بالسيرة النبوية الشريفة نتذوقها ... وتهزنا تلك الصور الرائعة لمواقف الصحابة الكرام، التي عبَّروا فيها عن حبِّهم لرسول ﷺ، وتفانيهم في ذلك، وإخلاصهم وتضحياتهم في سبيل الله، وبين يدي رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ... كنا ـ ونحن صغار ـ نتمنى لو أننا عشنا في عصر رسول الله ﷺ، فنسمع صوتهَ، ونرى شخصهَ، ونقتدي به في الصلاة ونبايعه على السمع والطاعة ...

وأكثرنا من مطالعة كتب السيرة النبوية الشريفة في مجالسنا وأنديتنا، وبخاصة في ليالي الشتاء، وقد قرأناها في عهود الصبا والشباب ونقرأها اليوم ونحن كهول مع أبنائنا .. حتى حفظنا كثيراً من وقائع السيرة الشريفة ... وأسماء المواضع والأمكنة التي ترد في تضاعيفها، وكنا نتمنى وندعو الله أن يكتب لنا زيارة الحرمين الشريفين، لنتمتع بزيارة تلك العرصات الحبيبة إلى

---

(١). وليد بن عبد الكريم بن إبراهيم الأعظمي، ولد في الأعظمية، عام ١٣٤٨هـ، تخرج في معهد الفنون الجميلة ببغداد من قسم الخط العربي والزخرفة الإسلامية، رافق الخطاط المشهور هاشم محمد البغدادي عشرين عاما، ونال إجازة في الخط العربي من مشاهير الخطاطين مثل: الخطاط محمد طاهر الكردي المكي، والخطاط المصري محمد إبراهيم البرنس، والخطاط أمين البخاري، وهو عضو مؤسس في الحزب الإسلامي العراقي، وعضو مؤسس لجمعية المؤلفين والكتاب العراقيين، وعضو مؤسس لجمعية الخطاطين العراقيين، أشتغل خطاطاً في المجمع العلمي العراقي، ومصححاً في مطبعتها لمدة عشرين سنة، نشر الكثير من الكتب والمقالات والقصائد، توفي مطلع سنة ١٤٢٥هـ ببغداد. انظر: ديوان وليد الأعظمي "الأعمال الشعرية الكاملة" (الطبعة الثالثة، دمشق، دار القلم، ٢٠٠٤م) تقديم المستشار: عبد الله العقيل

نفوسنا، والعزيزة على قلوبنا".[(١)]

وحقق الله ﷻ رجاء ودعاء المؤلف، وهامت نفسه برؤيا البيت الحرام والمشاعر المقدسة ومن ثم زيارة المسجد النبوي الشريف، ثم يضيف المؤلف سبباً وجيهاً لتأليف كتابه فيقول: "وقد كتب الله سبحانه لنا أن نحج البيت الكريم عدة مرات... وكنا نطالع السيرة ونراجعها قبل كل رحلة حج، لنتذكر ما نسينا منها، ونركز على مواضع معينةٍ، نحرص على زيارتها والوقوف عندها، والتأمل في عرصاتها المباركة، التي شهدت عصر النبوة العاطر الزاهر، وكنت أجلس أتصور رسول الله ﷺ يطوف وحول الكعبة في عمرة القضاء، وفي حجة الوداع، ومعه أصحابه الأبرار يحيطون به، ويأخذون مناسكهم عنه...

وكنت أتجول في شعاب مكة وأزقتها، وأسائل نفس هل مر رسول الله ﷺ في هذه الدروب والشعاب؟ وأعود حجرتي في مكة... وتجول في قلبي خواطر، وأتمنى لو تجيبني تلك الحجرة وأرضها.. هل شهدت مجلساً للصحابة يذكرون فيه الله ويتدارسون القرآن؟ أم شهدت تعذيباً وسجناً للمستضعفين من المسلمين؟ لا أدري ... وكذلك كانت هذه التصورات لا تغيب عن بالي في المدينة المنورة ... فقد كنت أجلس في الروضة المطهرة ... وأنا أنظر إلى جموع الزائرين والمصلين، وأتأمل في وجوههم وأتفحصها، وأتخيل منها تلك الجموع الوافدة إلى رسول الله ﷺ بعد الفتح حتى سمي عام الوفود...

وكنت اثناء مطالعاتي للسيرة الشريفة، قد جمعت باقة فواحة الأريج، من تلك الأخبار المنيفة والمواقف الشريفة ... أعود إليها بين حين وآخر ... وقد رأيت أن أرتب أخبار تلكم الأقمار من الصحابة الأخيار، تباعاً حسب وقائعها التاريخية في سيرة سيد الأبرار ﷺ ... وابتدأت بنسخها مرتبة عند عودتي من الحج، في غرة شهر الله المحرم سنة ١٣٩٨هـ، تفاؤلاً بالهجرة النبوية الشريفة، وتبركاً بتاريخها، ومستفتحاً العام الجديد من عمري بخدمة رسول الله ﷺ، وبيان فضائله ومناقبه، وعلو منزلته في قلوب أصحابه...

ونظمت لآلئ تلك الأخبار، وزوقت بها صفحات هذا الكتاب وسميته (الرسول في قلوب أصحابه)، وقد اخترت عناوين الموضوعات، من بعض الألفاظ الواردة في الرواية، أو جعلتها من عندي لم أجد ما يناسب ذلك، وأشرت في هامش كل موضوع إلى المصادر التي استقيت منها

---

(١). وليد الأعظمي: محمد في قلوب أصحابه (الطبعة الثالثة، عمان، دار الفرقان، ١٤١٨هـ) ص ٤.

تلك الأخبار".[١]

والكتاب يقع في حدود المائتي صفحة، في تسعة وتسعين موضوعاً، وفي الكتاب جهد صادق، ومنهج رائد، في سبيل التماس الملامح المشرقة للرسالة المحمدية، وبلورتها في موضوعات على شكل صور حية تبقى في الذاكرة ولا تُمحى بمجرد قرائتها أو سماعها ومن صبها في فروع وأصول، تتنوع لتتوحد، وتتباين لتتساند، لتضعك في النهاية أمام صورة متكاملة، لعبقرية الإسلام في البناء المتكامل للإنسان والدولة معا.

فالسيرة بهذا المنهج، تحررت من الإطار التقليدي المتوارث، أعواما بعثية في مكة، وسنوات هجرية في المدنية تعاقبت فيها الأحداث، مرتبطة بالسنوات، فالسنة لم تعد المدخل، وإنما الوقائع أصبحت المحور، إذ أسهم المؤلف ـ بهذا البحث في هذا الميدان ـ فإنه لن يكون بحثا في السيرة التقليدية، التي تعمد الغزوات أساساً لها، كما أنه لن يكون بحثا في الشمائل التي تعتمد صفاته ﷺ وأخلاقه أساساً للبحث.

وإنما حاول رصد حركة الدعوة في السيرة، هذه الحركة التي ربيت بها أمة، وقامت عليها دولة، وهي محاولة جديدة ـ كما أحسب ـ في بابها؛ خصوصاً من كُتاب السيرة العراقيين المحدثين، فقد بذل المؤلف قصارى جهده في سبيل استكمال خطوطها العريضة، ومع ذلك، فإنه شعر بتقصيره، ولعل مما يشفع له، أنها خطوة على الطريق، لعل الله يهيئ لها من يتابعها، أو يتيح له في الأجل، فيتدارك ما فات!

وإنصافا للتاريخ وللرواد فيه، فإن محمد أحمد جاد المولى قد نحا هذا النحو قبل أكثر من ستين عاما، في أوائل الخمسينيات من القرن الرابع عشر الهجري الماضي في كتابه: (محمد ﷺ المثل الكامل) غير أنه ركز في بناء الفرد خلقيا بهدي من السيرة النبوية، وفي ضوء الآية الكريمة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] وفي الوقت الذي اتجه فيه وليد الأعظمي في كتابه: (الرسول في قلوب أصحابه) نفس المنحى، وتابعه الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا في سلسلته الطويلة (صور من حياة الصحابة) إلى بناء الأمة والدولة معاً، وبصورة أشمل.

---

(١). وليد الأعظمي: محمد في قلوب أصحابه، ص ٥.

فاضل السامرائي(١) وكتابه نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين:

جعل فاضل السامرائي عنوان كتابه: (نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين) مما يوحي إلى القارئ ويتبادر إلى ذهنه أن المؤلف شَكَّ وارتاب في نبوة سيدنا محمد ﷺ ثم عاد إليه اليقين.. ويؤيد هذا المتبادر من العنوان ما ذكره المؤلف في مقدمته وبَيَّنه عما اعتراه من شك وارتياب..

حيث يقول في مقدمة كتابه: "وكنت أريد الدليل العقلي على نبوة محمد لا الدليل القرآني فقد كنت أرى أن القرآن دليل ادّعائي لا عقلي، ثم وجدت وأنا سائر في هذا الطريق أن الدليل العقلي الذي أنشده هو في القرآن وأن أدلة القرآن عقلية لا ادّعائية تقنع طالب الحجة وصاحب البرهان، ثم قرأت التوراة والانجيل أكثر من مرة موازناً بينها وبين القرآن فوجدت القرآن أصفى اعتقاداً وأنأى عن التشبه والتمثيل وعما لا يليق بالله وبرسله، وجدت أن كلاً من التوراة والانجيل لا يعدو أن يكون كتاب سيرة اختلط فيها الحق والباطل وامتدت إليه يد التحريف وهذه الناحية برزت منذ القراءة الأولى ثم أعدت النظر في قراءتي حتى استقرت نفسي ـ والحمد الله ـ واطمأن القلب إلى سلامة ما نحن عليه.(٢)

وكنت أرى لزاماً عليّ أن أنقل هذه التجربة إلى الآخرين إذ لا شك أن فيهم مَنْ عانى مثل ما عانيت فأضع في طريقه مصباحاً أو أختصر عليه الطريق، فأنفع وانتفع، وهذا هو السبب الأول في اختيار هذا الموضوع، والسبب الثاني لاختيار هذا البحث أن هذا الموضوع رئيس ينبني عليه تصحيح اعتقاد وتصحيح سلوك، فإذا آمنا بصحة هذه القضية قلنا بكل ما يترتب عليها من أمور جزئية ورفض كل ما يخالف هذا الاعتقاد جملة وتفصيلاً من دون تكليف أنفسنا في النظر في الجزئيات الكثيرة التي تكاد لا تنتهي، وهذه مسألة كبيرة وبخاصة في هذا العصر الذي

---

(١). فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، ولد في سامراء عام ١٣٥٣هـ، عُيّن في كلية الآداب بجامعة بغداد أُعير إلى جامعة الكويت للتدريس في قسم اللغة العربية عام ١٣٩٩هـ، أصبح خبيراً في لجنة الأصول في المجمع العلمي العراقي عام ١٤٠٣هـ، وعين عضواً عاملاً في المجمع العلمي العراقي عام ١٤١٦هـ، وأُحيل إلى التقاعد عام ١٤١٨هـ، بعد ما قضى ما يقارب أربعين عاما أستاذاً للنحو في جامعة بغداد، ثم رحل إلى الخليج ليعمل أستاذاً في جامعة عجمان، ثم انتقل إلى جامعة الشارقة أستاذاً لمادة النحو والتعبير القرآني، وفي عام ١٤٢٥هـ حيث عاد الدكتور فاضل إلى العراق. انظر: لقاء مع فاضل السامرائي، بمجلة الرائد الإلكترونية، العدد: التاسع، في ٢٠٠٦/٩/١٣م، على الرابط: http://www.al-raeed.net، وموقع إسلاميات على الرابط: http://www.islamiyyat.com

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين (الطبعة الثالثة، عمان، دار عمار، ١٤٣١هـ) ص ٨.

تعددت فيه الفلسفات وتشعبت فيه المبادئ والآراء، فإن مناقشة كل جزئية وبحث كل فكرة أمر يطول ويطول فالأولى الرجوع إلى مناقشة الأساس الذي تقوم عليه هذه الجزئيات فإما أن يصح فيصح ما ينبني عليه أو ينهار فينهار ما بُني عليه، وبذلك نختصر الطريق والمجهود ونستفيد من الوقت.(١)

وهذا ما هدفنا إليه ها هنا أيضا فإنه إذا صحت نبوة محمد ﷺ بالأدلة العقلية صح ما ينبني على هذا الاعتقاد جملة وتفصيلاً من إيمان بأن الإسلام خير الأديان وخير المبادئ وأمثل الطرق وأنه لا نجاة إلا به وإن كل خطوة في غير هذا الطريق ضياع وضلال".(٢)

وهذا منهج يجعل الهوية الإسلامية محوراً لدراسة السيرة النبوية، وهو منهج تحليلي يجعل القارئ بعيداً عن حشد الروايات حول الوحي والخوارق والمعجزات، حيث ينتمي الكاتب إلى عقيدة تدعوه إلى تصديق النبوة المؤيدة من الله ﷻ الذي أرسل النبي محمد ﷺ، ثم التصديق بأن القرآن الكريم هو وحي الله إلى صفيه من خلقه محمد بن عبد الله ﷺ، والقرآن الكريم منزل على أُمة ونبي أُمي وليس من تأليفه، قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥]، ويقول تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٩ ـ ١٠].

وقد نبه الكاتب في نهاية مقدمته بأن القارئ قد يجد تعبيرات لا يرتاح إليها مثل قولنا (أعلن محمد في القرآن) أو (ادعى محمد) وما شابه ذلك وهذا مجاراة للخصم وهو نحو قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ:٢٥]، فعبَّر عن نفسه بالإجرام، وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ:٢٤]، فأرجو ألا

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ٩.

(٢). نفس المرجع، ص ٩.

يضيق القارئ ذرعاً[١]، والكتاب بتقريظ وتقديم عبد الكريم زيدان، ويتميز بتنوع موضوعاته، وما يهمنا ما يتعلق بالسيرة النبوية ومن أبرزها:

- الأدلة القرآنية على صدق نبوة محمد ﷺ.
- الأدلة الحديثية على صدق نبوة محمد ﷺ.
- جولة في الكتب القديمة.
- البشارات في الكتب السماوية.

أولاً: موقف الكاتب من الأدلة القرآنية:

يقول فاضل السامرائي: "تحدى القرآن الكريم العرب ثم جميع الخلق بأن يأتوا بمثله ثم أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، ومن الثابت أنهم انقطعوا عن ذلك فقامت الحجة، وتفصيل ذلك أن القرآن تحداهم أولاً بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا يرون أنه مُفْترى فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٣ ـ ١٤].

فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحداهم أن يأتوا بسورةٍ من مثله وأخبر أنهم لن يفعلوا فانقطعوا جميعاً وقامت الحجة عليهم قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٣ ـ ٢٤].

وأكَّد التحدي بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] فقد دعا القرآن العرب إلى أن يأتوا بسورة من مثله ويشمل هذا التحدي قصارَ السور كما يشمل طوالها فهو تحدَّاهم

---

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ٩.

بسورة الكوثر والإخلاص والمعوَّذتين والنصر ولإيلاف قريش أو أية سورة يختارونها، فقال لهم اختاروا سورة من القرآن وَأْتُوا بمثلها.

ومن المعلوم أن العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذلك فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه فطلبوا إطفاء نور الله عن غير هذا السبيل، ورأوا أن سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن، وهذا أمر غريب فإنا نعلم أن المنافرات الأدبية كانت موجودة عندهم وأنهم يقيمون المحكِّمين للتحديات الأدبية فما الذي صرفهم جميعاً عن هذا التحدي القاسي لولا أنهم يعلمون أنهم لا يستطيعون؟ ومن الثابت أن القرآن الكريم كان يأخذهم بروعة بيانه وأنهم لا يملكون أنفسهم عن سماعه ولذلك حاولوا أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس، حاولوا أن لا يصل إلى الأذن لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يُحْدِثُ في النفس دويّاً هائلاً وهِزَّةً عنيفة، وحكى الله عنهم هذا الأسلوب فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَت:٢٦] وهكذا كانت الحرب الأولى أن يَحُولُوا بين القرآن وأسماع الناس ولكن أنّى لهم هذا؟ فقد كان القرآن الكريم يستولي الأسماع ويأخذ باللب على الرغم من التحذيرات بل ربما كانت التحذيرات داعياً قوياً إلى سماعه.

وكان صناديد قريش واعتاهم محاربة للرسول ﷺ وأشدهم كيداً له ونيلاً منه لا يملكون أنفسهم عن سماعه فقد كان كلٌّ من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق يأخذ نفسه خِلْسةً لسماعه في الليل والرسول في بيته لا يعلم بمكانهم ولا يعلم أحد منه بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: حتى نتعاهدَ لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.[1]

ثم يؤكد الكاتب على أن الإخبار بالغيب من أظهر الأدلة وأوضحها على نبوة الرسول ﷺ

---

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ٦٩ – ٧١.

وإن كان ليس هو الطريق الوحيد لإثبات نبوته، وقد أخبر القرآن الكريم عن غيوب كثيرة فتحققت كلها فقام ذلك دليلاً على صحة وصدق نبوته ﷺ ومن ذلك:

١) الإخبار بغلبة الروم.

٢) وعده باستخلاف المؤمنين في الأرض.

٣) وعده بإظهار دين الإسلام على سائر الأديان.

٤) وعده بنصر الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة.

٥) وعده بهزيمة أهل الكفر.

٦) الوعد بإرجاع الرسول ﷺ إلى مكة.

٧) الوعد بدخول المسجد الحرام.

٨) الوعد بالفتوحات والمغانم.

٩) الإخبار بحوادث خاصة.

١٠) الوعد بأمور قريبة.

١١) تحدي اليهود في تمني الموت.

١٢) الوعد بحفظ القرآن.

١٣) الوعد بعصمة الرسول ﷺ من الناس.

وسوف نقتصر على ثلاثة من الأدلة القرآنية لإلقاء الضوء على وجهة نظر الكاتب:

١) الإخبار بغلبة الروم:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٦].

من هذه الآيات نرى أن القرآن الكريم أخبر بأن الروم غُلبوا، ثم أخبر أنهم سيغلبون في بضع سنين، وأن المؤمنين سيفرحون بهذا النصر، ثم قال: هذا وعدٌ قاطع لا يتخلف، وقد تمَّ ذلك، فبعد بضع سنين من نزول هذه الآيات انتصر الروم على الفرس كما أخبر القرآن وقطع

به، فدل ذلك دلالة قاطعة على نبوته ﷺ. قال الفخر الرازي: "وهذه ذُكِرَ في أولها ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب".

قد يقول قائل: إن هذا الإخبار هو من قبيل الحدس والظن، ولكن سياق الآيات برد هذا القول، فهي تدل على القطع والتوكيد وأن النصر سيتم في خلال مدة معينة لا يتعداها، ثم هَبْ أنهم لم ينتصروا أفلا تنتكس دعوة محمد ويُكذَّب؟ وقد جاء في الأخبار أن قريشاً لما سمعت بهذه الآية ضجوا وكذبوه وطلبوا الرهان على هذا فراهنهم أبوبكر على مئة قلوص وقد علم الرسول ﷺ بهذا الرهن وأقره.

وقد يقول قائل: ومن أين نعلم أن هذا الحدث قد تمَّ وحصل؟ فنقول: إن حكم هذا النص من الناحية التاريخية ثابت قطعاً، فإن القرآن أوثق خبر تاريخي عن المجتمع آنذاك فليس من الممكن أن يذكر شيئاً لا وجود له، وإن مجرد ذِكْرِهِ يدل على أنه قد حصل وتم وإلا أصبح مسخرة وعبثاً، إضافة إلى أن هذا الخبر متواتر في كتب التاريخ القديمة عند أهل الملل الأخرى فقد سجلته كتب النصرانية وغيرها فهذا مما لا شك فيه.[1]

٢) وعده بنصر الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥]، والمعنى أن الله ناصرُ رسولهِ لا محالةَ في الدنيا وفي الآخرة ومَنْ كان يظن غير ذاك فليخنقْ نفسه بحبل أو ليفعل ما يشاء فإنَّ نصره كائنٌ لا يتخلف، قال ابن كثير: "قال ابن عباس: مَنْ كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة فليمدُدْ بسببٍ أي: بحبلٍ إلى السماء أي سماء بيته ثم ليقطع يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي يتوصَّلْ إلى بلوغ السماء فإنَّ النصر إنما يأتي محمداً من السماء ثم ليقطع ذلك عنه إن قدر على ذلك. وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم فإن المعنى: مَنْ كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة".

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ٩٥.

ومن الوعود بنصر رسوله والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، فهو وعدٌ بنصر الرسول ﷺ والمؤمنين معه في الدنيا وفي الآخرة لأن محمداً من الرسل وأتباعه من الذين آمنوا فمحمد وأتباعه داخلون في جملة الوعد وقد تم ذلك كما أخبر، ثم قال بعد هذه الآية: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥]، أي: سيصيبكم النصر قطعاً وإن هذا الوعد حقٌ لا يتخلف فاصبر ترى ذلك، وقد تحقق هذا الوعد كما قال الله ﷻ قال الشوكاني: "أي نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم... وننصرُ الذين آمنو معهم في الحياة الدنيا بما عودهم الله من الانتقام منهم بالقتل والسلب والأسر والقهر ويومَ يقومُ الأشهاد وهو يومُ القيامة"، وهو دليل قاطع على نبوته كما ترى.(١)

٣) الوعد بإرجاع الرسول ﷺ إلى مكة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، نزلت هذه الآية بالجحفة والرسول مهاجرٌ يَعِدُه الله فيها بإرجاعه إلى مكة، وقال البخاري في التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا يعلى حدثنا سفيان العصفري عن عكرمة عن ابن عباس ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى مكة، وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه وابن جرير من حديث يعلى وهو ابن عبيد الطنافسي به وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وقال محمد بن إسحاق عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى مولدك بمكة، وحدثنا أبي حدثنا ابن عمر قال: قال سفيان فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة عن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله عليه ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى مكة،

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ١٠١.

وجاء في (فتح القدير): "قال جمهور من المفسرين: أي: مكة"[١]، قال الفخر الرازي: "قال أهل التحقيق: وهذا أحد ما يدل على نبوته لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزاً".[٢]

ثانياً: موقف الكاتب من الأدلة الحديثية:

يقول الكاتب: إن الحملة التي تنادي بالاكتفاء بالقرآن حملةٌ مقصودة عن الإسلام والخروج عن أحكامه وتعطيلها، لأن القرآن فيه أحكام عامة وليس فيه التفصيلات، والتفصيلات إنما تكفَّلت ببيانها السنة النبوية، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

إن الحديث تثبت به كثير من المعجزات المحمدية المروية بالطرق الصحيحة التي لا يرقى إليها الشك كتكثير الماء والطعام والإخبار ببعض الغيب وغيرها والتي تثبت نبوة محمد ﷺ بصورة قاطعة، فإذا نالوا من رجال الحديث فقد حصل الشكُّ بمرويَّاتِهم فيسهل المروقُ من الدين، ولذلك ضربوا على هذه المسألة ضرباً عنيفاً متوالياً وحاولوا الوصول إلى ذلك بكل طريق علمي ولا صحيح ولا شريف باسم العلم والبحث العلمي لتكتمل الخطة ولتتوافق الخطة مع بقية المخططات الرهيبة لتحطيم الإسلام[٣]، وقد أخبر الرسول الكريم ﷺ عن غيوب كثيرة فتحققت كلها فقام ذلك دليلاً على صحة وصدق نبوته ﷺ ومن ذلك:

١) إخباره بالنصر وكثرة الفتوح وهلاك كسرى وقيصر.
٢) الإخبار بما يفتح المسلمون من البلاد.
٣) الإخبار بوفاة النجاشي وآخرين.
٤) الإخبار بخاتمة طائفة من الناس.
٥) الإخبار عن الفرقة المارقة.
٦) الإخبار بهبوب الريح الشديدة.

---

(١). الإمام الشوكاني: فتح القدير (القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، د.ت) جـ٤، ص ١٨٢.
(٢). نفس المرجع، ص ١١٠.
(٣). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ١٤٣.

٧) زيادة الماء.

٨) تكثير الطعام.

٩) الدعوة المستجابة.

١٠) حنين الجذع.

١١) معجزات مختلفة.

١٢) ظهور النار في أرض الحجاز.

١٣) مقاتلة الترك.

إن الأدلة التي تثبت نبوة محمد ﷺ من الحديث الصحيح كثيرة غاية الكثرة ونحن لا نريد أن نستقصي جميع الأحاديث الدالة على ذلك وإنما حسبنا منها ما يقيم الدليل وقد التزم ـ الكاتب ـ أن لا يذكر إلا حديثاً صحيحاً كما سنرى:

١) إخباره بالنصر وكثرة الفتوح وهلاك كسرى وقيصر:

جاء في صحيح مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ مُلْكُها ما زُويَ لي منها وأُعطيت الكنزين الأحمر والأصفر... الحديث".[(١)]

٢) الإخبار بما يفتح المسلمون من البلاد:

أخبر الرسول ﷺ بفتح خيبر واليمن والعراق والشام وبيت المقدس ومصر والروم وفارس وغيرها من البلاد قبل فتحها، وأكثر هذه البلاد فُتح بعد موته ﷺ فقام ذلك دليلاً على صحة نبوته ﷺ، ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه أنه قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: تُفتح اليمن فيأتي قوم يُبسّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون. وتُفتح الشام فيأتي قوم يُبسّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون. وتُفتح العراق فيأتي قوم يُبسّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون".[(٢)]

---

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ١٥٨.

(٢). نفس المرجع، ص ١٦٠.

٣) الإخبار بوفاة النجاشي وآخرين:

أخبر النبي ﷺ بوفاة النجاشي ملك الحبشة في اليوم الذي مات فيه وإنَّ ما بين الحبشة والمدينة مسيرة الأيام والليالي فجمع الصحابة فصفَّهم صفوفاً وصلى عليه وهذا إخبار بالغيب، روى البخاري ومسلم عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عبد الرحمن عن أبي هريرة وأخرجاه عن سعيد بن ميناء وعطاء وعن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله وأخرجاه عن عمران بن الحصين وأخرجاه بطرق متعددة عن الشعبي عن ابن عباس ـ وهذا اللفظ لأبي هريرة ـ "أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى فصفَّ بهم وكَبّرَ أربعاً"، وعن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه كان في الصف الثاني أو الثالث، وأخرجه ابن عبد البر في (الاستيعاب) والنسائي والبيهقي، فأنت ترى أن هذا الحديث روي بسلاسل متعددة كلها صحيحة، بل هو في أعلى الصحيح فدّل على نبوته ﷺ[1]، نحب قبل أن ننتقل إلى المطلب التالي أن نذكر طرفاً من الموافقات التي ذكرها الكاتب والتي كانت بجانب الرسول ﷺ واجتماعها في خدمته:

أ) في وقعة بدر أرسل الله ﷻ المطر كما أخبر القرآن الكريم ليثبت به أقدام المؤمنين، وكان إنزاله على حالةٍ كانت نعمةً للمؤمنين نقمة على جيش قريش، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال:١١]، قال ابن كثير: "يذكرهم الله تعالى بما أنعم عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً أمَّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم وكذلك فعل تعالى بهم يوم أُحد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ١٦٢.

هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران:١٥٤]، قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أُحد ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه ويسقط وآخذه ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الجحف... عن علي ﷺ قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح... عن عروة بن الزبير قال: "بعث الله السماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبَّدَ لهم الأرض ولم يمنعهم عن المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه".

فلماذا كان الجو مع محمد في المعركة؟ أهو من قبيل الموافقات أم هو تدبير رباني؟![1]

ب) في وقعة الأحزاب أرسل الله ﷻ ريحاً قوية على الأحزاب المجتمعة لمحاربة الرسول ﷺ حتى اضطروا إلى الرحيل وهم خائبون، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩]، قال ابن كثير: "ثم أرسل الله ﷻ على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمةٌ ولا شيء، ولا تُوقدُ لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين"، وجاء في "تثبيت دلائل النبوة": "فلو كانت هذه الريح وغيرها من الأمور التي جرت العادة مثلها لما امتنَّ الله به و لا احتجَّ والعدوُّ والوليُّ يسمعه"[2]، فلماذا كان الجو هنا في خدمة محمد أيضاً كما كان في بدر؟ أفهذا من قبيل الموافقات أيضاً أم هو تدبيرٌ رباني؟

جـ) عند خروج محمداً ﷺ كانت مجموعة من فتيان قريش يتربَّصون به ليقتلوه فخرج من بينهم ولم يروه، ثم اختفى في غار وصل إليه القافةُ ووقفوا عليه وقفةً لو نظر أحدهم أسفل قدميه لرآه وكان أبو بكر ﷺ مضطرباً فقال له رسول الله: لا تحزن إن الله معنا. قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ١٨٦.

(٢). القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة (بيروت، دار العربية، د.ت) تحقيق: عبد الكريم عثمان، جـ٢، ص ٤٥١.

فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

فما الذي صرفهم عن النظر في الغار وقد وصلوا إليه؟ ولماذا لم يدركهم الطلب فهل هذا أيضاً من قبيل الموافقات.[1]

ثالثاً: الكاتب وجولة في الكتب القديمة:

أعلن محمد ﷺ في القرآن الكريم أن اسمه وصفته مكتوبان عند أهل الكتاب بحيث يعرفه علماؤهم معرفة تامة كاملة كمعرفتهم أبناءهم، وهذا التشبيه يقتضي أن يكون موضَّحاً توضيحاً كاملاً لا شُبهة فيه ولذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦ - ١٤٧] وتكرر هذا القول في مكان آخر من القرآن الكريم، قال في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

وقال في سورة الأعراف: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكان يقول: إن أهل الكتاب يعلمون أن هذا الدين وهذا الكتاب حق وإنه مُدوَّنٌ في زُبُرهم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

---

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ١٨٦ - ١٩٠.

ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦] ومعنى هذا أن محمداً ﷺ واثقٌ من أن ذِكْرَهُ وصفتَهُ موجودان عندهم، ولا شك أن العاقل لا يسعى إلى تكذيب نفسه فيقول لهم إن اسمي وصفتي موجودان عندكم في كتبكم وأنتم تعرفون أبناءكم وليس في كتبهم شيءٌ من هذا لأن معنى ذلك أنه يسعى بنفسه إلى إظهار كذبه، وإنَّ أي مُطَّلِع على الكتب سيكذبه ويقول هذه هي كتبنا فأين صفتك تدعي؟[1]

ومعلوم أن هذه المعرفة إنما هي بالنعت والصفة المكتوبة عندهم التي هي منطبقة عليه كما قال بعض المؤمنين منهم: "والله لأحدنا أعرف به من ابنه إن أحدنا ليخرجُ من عند امرأته وما يدري ما يحدث بعده"[2]، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم"[3]، وقال: "ثم العلم بأن الأنبياء قبله بشَّروا به يُعلم من وجوه:

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب من كتب أهل الكتاب ممن أسلم وممن لم يُسْلِمْ بما وجدوه من ذِكْره بها، وهذا ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون

---

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ١٩٢.

(٢). نفس المرجع، ص ١٩٢، نقلاً عن ابن القيم في هداية الحيارى، ص ٣٤٣.

(٣). نفس المرجع، ص ١٩٣، نقلاً عن ابن تيمية في الجواب الصحيح، جـ١، ص٣٤٠.

بمبعثه وأنه رسول الله وأنه موجود عندهم وكانوا ينتظرونه وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه.

وقد أخبر الله بذلك عن أهل الكتاب في القرآن قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩]، ومثل هذا ما تواتر عن إخبار النصارى بوجوده في كتبهم مثل إخبار هرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر صاحب الاسكندرية والنجاشي ملك الحبشة والذين جاؤوه بمكة...

الوجه الثالث: نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة واستشهاده بأهل الكتاب وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً في كتبهم... فلو لم يعلم (محمد ﷺ) أنه مكتوب عندهم بل عَلِمَ انتفاء ذلك لامتنع أن يُخبرَ بذلك مرة بعد مرة ويستشهد به ويُظْهِر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه فإنَّ هذا لا يفعله إلا من هو أقلُّ الناس عقلاً لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم وعند من يخبرونه.[١]

وحاول المؤلف ـ قدر الإمكان ـ استخراج ما بقي من البشارات[٢] التي تنادي بظهور النبي محمد ﷺ في كتبهم مع كل التحريفات التي أصابت كتبهم، يقول الكاتب: "ونحن نورد هنا بعض الأمثلة التي يستدعيها المقام... من هذه الكتب السماوية باللغة الإنجليزية ألفه (عبد الحق فدياري) وسماه: (محمد في الأسفار العالمية) واستفاد في مقارناته ومناقضاته بمعرفته باللغة الفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوروبية، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عَمَّمَ البحث في كتب فارس والهند وبابل القديمة، وكانت له في بعض أقواله توفيقات تُضرع أقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة...".[٣]

---

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ١٩٣، نقلاً عن ابن تيمية في الجواب الصحيح، جـ٣، ص ٢٨٢ ، ٢٩٢.

(٢). يقول الكاتب: "وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن محمداً لم يكن ذكره مقصوراً على كتب بني إسرائيل وإنما ورد ذكره وصفته في الأسفار الدينية العالمية الأخرى ككتب البراهمة والزرادشتية وغيرها من الكتب". انظر: نفس المرجع، ص ١٩٦.

(٣). نفس المرجع، ص ١٩٦.

رابعاً: الكاتب وبشارات الكتب السماوية:

تُظهر لنا كتب الدلائل والكتب التي جادلت أهل الكتاب أن اسم محمد ﷺ كان مذكوراً بصراحة في كتب أهل الكتاب إلى عصر متأخر، وقد ذكر ـ الكاتب ـ أن أهل الكتاب يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم وأن كتبهم ذكرت اسمه ونعته وأوضحت ذلك إيضاحاً كاملاً[١].

فقد نقل ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) والماوردي (ت ٤٥٠هـ) والفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) والقرافي (ت ٦٨٤هـ) وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) وابن القيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) وغيرهم نصوصاً كثيرة من كتب أهل الكتاب في عصرهم فيها صريح اسم (محمد ﷺ) وجادلوهم بها، ولكن بمرور الزمن بدأوا يُخْفُونَ ذلك ويَمحونَهُ من كتبهم حتى لم يُبقوا له اسماً وهذا شأنهم وديدنهم[٢]، وقد أورد الكاتب أكثر من ثلاثٍ وعشرين بشارة في كتب أهل الكتاب وقعت في أكثر من سبعٍ وخمسين صفحة[٣]، وها نحن نقتطف بعضاً منها للدلالة على صحة نبوة محمد ﷺ:

البشارة الأولى:

جاء في (سفر التكوين) في الإصحاح الحادي والعشرين: "١٧ ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. ١٨ قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة... ٢٠ وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس. ١٢ وسكن في برية (فاران)، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر"[٤]، والغلام المذكور هو إسماعيل عليه السلام هو أبو سيدنا محمد ﷺ وأبو العرب فسمى أمة محمد أمة عظيمة.

---

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ٢٣٦.

(٢). نفس المرجع، ص ٢٣٦.

(٣). نفس المرجع، ص ٢٤٠ ـ ٢٩٧.

(٤). نفس المرجع، ص ٢٤٠.

البشارة الثانية:

جاء في (إنجيل متى) في الإصحاح الثالث: "١ وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يُكرِّزُ في برية اليهود قائلاً: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات"(١)، وجاء في الإصحاح السادس: "٩ فصلوا أنتم هكذا. أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك. ١٠ ليأتِ ملكوتك"(٢)، وفي الإصحاح الحادي والعشرين: "٤٣ لذلك أقول لكم: إنَّ ملكوت الله ينزع منكم ويُعطى لأمةٍ تعملُ أثماره".(٣)

ويظهر من هذه الفقرتين أن المقصود بالملكوت هو دينٌ جديد يُنزله الله إلى الخلق وهو ـ فيما يرى الكاتب ـ الإسلام ولا يصح أن يكون النصرانية لأن قوله: "اقترب ملكوت السماوات" يمنع من ذلك لأن النصرانية دين حاصل لا مقترب، وكذا قوله: "ليأتِ ملكوت" فلو كان المقصود به النصرانية لم يصبح لهذا الدعاء معنى، وكذا قوله: "ملكوت الله يُنزعُ منكم" أي: أن الرسالة ستُنزع منكم وقد نُزع منهم فعلاً وأُعطي للعرب.(٤)

فبعد عرض هذه الدلائل العقلية من القرآن الكريم والحديث الشريف، وعرض بشارات الكتب السماوية السابقة، تبيَّن لكلِّ ذي لبٍّ بصورة قاطعة أن محمداً ﷺ نبيٌّ أرسله الله إلى الناس كافة بالحق الواضح والقسطاس المستقيم، وأيده بالحجة القاطعة والبرهان المنير، بشرت الأنبياء وذكرت اسمه ونعته الرسل، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ليس بعده نبي ولا تشريع حتى يرث الله الأرض ومنْ عليها، فالمهتدي من اهتدى بهديه والضالُّ منْ حاد عن نهجه وقصده.

---

(١). فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ص ٢٨٥.

(٢). نفس المرجع، ص ٢٨٥.

(٣). نفس المرجع، ص ٢٨٥.

(٤). نفس المرجع، ص ٢٨٦.

عماد الدين خليل[(١)] وكتابه دراسة في السيرة:

إن السيرة النبوية تجربة غنية بأحداثها، زاخرة بدلالاتها، متنوعة بمعطياتها، وما كان لباحث يسعى إلى إيفائها حقها من البحث والتحليل إلا أن يوسع نطاق رؤياه ويصبّ اهتماماته على هذه الجوانب جميعاً: حركية، وعسكرية، وشخصية، وفقهية، وروحية، وواقعية، وغيبية، وعقدية، وحضاريه.

وكتب الكثيرون في السيرة النبوية، منذ العهود الأولى للتاريخ الإسلامي، وافرد كل من هؤلاء زاوية نظر معينة مارس قراءته للسيرة من خلالها، فمنهم من أرخّ لحوادثها بشكل تعاقبي، بعيدا عن الدراسة والتحليل، جامعاً بذلك حياة الرسول ﷺ من المولد إلى الوفاة، ومنهم من تعمق في دراسة زاوية محددة من السيرة، وشحن كل معارفه واستعداداته لخدمة غرض ما رأى فيه حجر زاوية التبدّل والتغيّر الذي حصل، ومع تقدم الزمن، وتغيّر الظروف، وبروز مؤشرات، وتكشف أسرار من بحر زاخر يصعب سبر أغواره، كان من مجانبة الحق وتسطيح الفكر، أن تبقى دراسات السيرة راكدة تكرر نفسها، وتجتر مقولاتها، ولا تواكب حركة الفهم والاستيعاب لدروس وعبر من سيرة نهر تتجدد مياهه في كل حين.

لذا كان لابدّ من بروز مفكرين يعيدون قراءة تاريخ البعثة وأحداثها، ومنعطفاتها الهامة المؤثرة على نبض المستجدات المعاصرة، كما يعيدون تدبر سيرة أعظم رجل عرفته البسيطة، ذاك النبي محمد ﷺ الذي أسس بوحي من الله أمة وحضارة أحدثت هزة كبرى؛ ليس في مجال الأحداث العامة فقط، بل في كيان الإنسان وعلاقته بالله، وبالكون، وبأخيه الإنسان.

ويقف في المقدمة كتاب (دراسة في السيرة) للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل، فسعى لتجاوز منطق الدفاع ـ قدر الإمكان ـ لكي يجعل الحقائق المجردة نفسها تُشكل في ذهن

---

(١). عماد الدين خليل من مواليد الموصل عام ١٣٦١هـ، عمل أستاذاً في كلية آداب جامعة الموصل، ثم مديراً لمكتبة المتحف الحضاري في الموصل، ثم أستاذاً لفلسفة التاريخ في كلية الآداب بجامعة صلاح الدين في أربيل، ثم في كلية تربية جامعة الموصل، فكلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، فجامعة الزرقاء الأهلية بالأردن، فكلية آداب جامعة الموصل، التي أعارت خدماته لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة اليرموك بالأردن حيث لا يزال يعمل هناك، شارك في عدد من المؤتمرات والندوات الدولية العلمية والثقافية، وفي عضوية اللجان الاستشارية لهيئات تحرير عدد من المجلات العلمية والأكاديمية المحكمة، وأشرف على العديد من طلبة الماجستير والدكتوراه في التاريخ الاسلامي، وله مؤلفات. انظر: السيرة الذاتية لعماد الدين خليل، بموقع مكتبات مجلة الفكر الحر على الرابط: http://library.alfikr.org.

الدارس النسق الحقيقي للسيرة النبوية، وتدفع كل ما علق بها في الماضي والحاضر من تهاويل وإضافات ومفتريات ما كان لها أن تصمد أمام (الواقعة) التاريخية نفسها، وليس غير الواقعة التاريخية حكماً وقاضياً، ومن ثم الرجوع إلى طبقة المصادر الأساسية في الموضوع ـ وبخاصة ـ (سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري، ومغازي الواقدي، وأنساب البلاذري، وصحيح البخاري...) والتعامل المباشر معها، وتجاوز التضخيم الذي عانته المصادر المتأخرة، والارتجال الذي مارسته المراجع الحديثة، أمران لازمان لبناء صورة أقرب إلى الواقع التاريخي قدر المستطاع[1]، فقد حاول إدخال تغيير منهجي كبير، وأفلت من الخط الزمني لأحداث السيرة، ذلك الخط الذي وقع في أسره معظم الباحثين ـ من وجهة نظر عماد الدين خليل ـ فضاعت في مجراه حقائق، وطمست دلالات وقيم، ما كان لها أن تضيع أو تنطمس لو قسمت وقائع السيرة إلى وحدات متجانسة خُصصت لكل وحدة منها مساحة مناسبة في البحث، استقصيت فيها سائر جوانبها ونسقت جل وقائعها، وحلّلت معظم دلالاتها وقيمها، أما المجرى الزمني فإنه ـ ومن وجهة نظر عماد الدين خليل ـ يدفع الباحث إلى أن يحشر في النقطة الواحدة أو المقطع الواحد مجموعة أحداث ووقائع متنافرة غير متجانسة ويلجئه أحياناً أخرى إلى تقطيع الواقعة الواحدة إلى أجزاء متناثرة لا يضمها إطار واحد ولا يوحدها تجانس نوعي، وهذا ـ بطبيعة الحال ـ نتيجة محتمة للسعي وراء منطق التقسيم الرياضي الصارم للأيام والسنين، وهو الأسلوب الذي اعتمده مؤرخونا القدماء وعرفوه باسم (الحوليات) حيث لم يكن علم التاريخ ولا مناهج البحث فيه قد استكملت أسبابها بعد.[2]

هذا المنهج أكسب بحث الدكتور خليل فرادة خاصة، وبسببه استطاع أن يقدم صوراً متكاملة لأكثر من حدث وأكثر من علاقة في وقت تعرض هذه الأحداث والوقائع والعلاقات كأشلاء متناثرة يصعب على القارئ بل الباحث أحياناً جمعها وربطها بشكل موضوعي، وهذا الكتاب يدرس سيرة الرسول ﷺ وفق منهج جديد، يتجاوز المناهج التقليدية، ويستوفي شروط التطورات اللاحقة، ويستوعب المشروع الإسلامي، ويبرز المنعطفات الحادة في مرحلة التأسيس.

---

(١). عماد الدين خليل: دراسة في السيرة (الطبعة الخامسة عشرة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ) ص ٦.

(٢). نفس المرجع، ص ٥.

من أجل ذلك جاء هذا الكتاب يعرض أحداث السيرة النبوية كوحدات محددة الأبعاد والمعالم، وبخاصة في عصرها المدني حيث تكثر الروايات وتتكاثف الأخبار وتزدحم التفاصيل ـ حسب وجهة نظره ـ تناولها في عشرة فصول على النحو التالي:

الفصل الأول: محمد ﷺ بين الميلاد والنبوة.

الفصل الثاني: الدعوة في عصرها المكي.

الفصل الثالث: مسائل من العصر المكي.

الفصل الرابع: تحليل الهجرة.

الفصل الخامس: دولة الإسلام في المدينة.

الفصل السادس: الصراع مع الوثنية (المرحلة الأولى).

الفصل السابع: الصراع مع الوثنية (المرحلة الثانية).

الفصل الثامن: العلاقات بين الإسلام والجبهة البيزنطية ـ النصرانية.

الفصل التاسع: الصراع ضد اليهود.

الفصل العاشر: حركة النفاق في العصر المدني.

وقد استفدت كثيراً من بعض اجتهاداته، وسأقف ـ في هذا الكتاب ـ عبر التنقل في الفصول المختلفة، ثم أتناول رؤية ومواقف الكاتب تجاه أساليب الكتابة في السيرة النبوية واتجاهاتها، ونعرض لنماذج منها وفقاً لما جاء في الكتاب على الشكل الآتي:

أولاً: موقف الكاتب من المؤرخين المُحْدَثين في السيرة:

يقول عماد الدين خليل: "يجب أن نلاحظ، في البداية أن المسلم، مهما كانت درجة ثقافته، يتعامل مع معطيات السيرة وفق ما يمكن اعتباره شبكة من البديهيات والمسلمات.. وهي لم تأت إليه مباشرة عن طريق الأخبار والروايات التاريخية التي يكون بعضها ضعيفاً وبعضها الآخر مشكوكاً فيه، بل إن بعض المسلمين لم يقرأ في حياته كتاباً تاريخياً واحداً عن محمد ﷺ، إنما جاءته بطرق أكثر حيوية ـ كانت أشبه بالروافد المتدفقة التي تتشكل لكي تصير نهراً ـ من خلال تعامله مع القرآن والحديث ومن خلال تجربته الإيمانية التي تحتم عليه أن يكون على معرفة طيبة بسيرة رسوله ﷺ، من خلال عرف اجتماعي ـ ثقافي عام ـ يقوم على خطوط عريضة وتفاصيل متفق عليها تماماً بصدد أحداث السيرة، من خلال تقليد زمني تتناقل بواسطته

حقائق السيرة من جيل مسلم إلى آخر، من خلال تعاطف وتقدير دينيين إزاء كل ما يتعلق بحياة الرسول ﷺ، وبالنسبة للمثقف الأكثر تخصصاً، فإن توغله في الحقائق التاريخية للسيرة يضيف رافداً آخر ولا شك إلى هذه الروافد جميعاً، ولكن هذه الروافد كافة، ما تلبث أن تتجمع لكي تجعل موقف المسلم من سيرة الرسول ﷺ واحداً، أياً كان موقع هذا المسلم، اللهم إلا في حالات استثنائية تقتصر على الخارجين على الإسلام بهذه الدرجة أو تلك، وعلى بعض الدارسين الذين تلقوا تأثيرات مضادة عن مصادر غير إسلامية"[(١)]، وينتقد الدكتور عماد الدين خليل، المناهج التقليدية في دراسة التاريخ ويأخذ عليها أنها تعتمد التبدل والتغير في الأسر والحكام، والرؤية التجزيئية التي تدرس التاريخ أشتاتا مبعثرة، وحرصها على التأكيد المتضمن على الجوانب السياسية والعسكرية وإهمالها للتأثيرات الإسلامية العميقة في النسيج الاجتماعي، وأخيرا تقطيعها للظواهر التاريخية الكبيرة، وبعثرتها من خلال المعالجة الأفقية المتزامنة التي تدرس كل عصر على حدة بدلاً من المتابعة العمودية لكل ظاهرة عبر مجرى التاريخ الإسلامي.

يقدم عماد الدين خليل، منهجاً بديلاً يقوم على أساس فهم التاريخ الإسلامي من خلال وحدة الحركة وكسر القشرة الخارجية للأحداث والمتغيرات؛ والتحقق برؤية شمولية تلم التفاصيل والجزيئات؛ ومتابعة الظواهر التاريخية الكبرى عمودياً؛ وتسليط الضوء على العلاقة المتبادلة بين الدين والتاريخ، وأخيراً تحقيق التوازن المطلوب في البحث بين الجوانب العقدية من جهة والجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية من جهة أخرى، يقول عماد الدين خليل حول منهج المؤرخين المحدثين في كتابة السيرة النبوية ما نصه: "إن اعتماد بعض المؤرخين المحدثين على عدد من مصادر المتأخرين "كالحلبي وأبي الفدا والمقريزي وابن الأثير... الخ" كمصادر محورية، وتغافلهم عن واحد أو أكثر من المصادر الأساسية، جعلهم يتركون ثغرات عميقة في صلب أبحاثهم، كما دفعهم إلى سرد الكثير من الإضافات (المتأخرة) التي لا تعرفها المصادر الأولى، ومن ثم تضخيم وقائع السيرة إلى أضعاف حجمها الحقيقي على حساب الوقائع نفسها.

لذا كان لا بد ـ مرة أخرى ـ من عرض كافة الروايات على معطيات القرآن والسنة والمصادر الأولى ـ على ما في الأخيرة من إضافات وثغرات ـ وعلى مقولات العقل الخالص، ثم على الأرضية التاريخية التي تحركت فوقها الأحداث، ونمت، واكتسبت ملامحها النهائية، وكل ما

---

(١). عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، ص ١١٥.

لا ينسجم مع هذا أو مع ذاك كان له أن يلغى من حساب المؤرخ الجاد، أو ينسحب ـ على الأقل ـ إلى الخط الثاني من روايات السيرة ووقائعها الغنية المتشابكة.(١)

ويحذر في موضع آخر من كتابه من تضخيم حوادث السيرة ـ وبخاصة فيما قبل البعثة ـ من المؤرخين السابقين، أو غيرهم من المؤرخين المحدثين؛ بحشد من القصص والاسرائيليات والخوارق تدعونا إلى أن نقطع السيرة عن أية صلة لها بعالم الغيب (الميتافيزيقا) كما يرغب دعاة التفسير المادي للتاريخ أن يكون لأن معنى هذا بوضوح نكران لنبوة الرسول ﷺ واتصاله عن طريق الوحي غير المرئي بعالم الغيب في السماء، كما أنهم لم يقولوا ـ ولا أي من المؤرخين الجادين ـ أن رفض القصص والخوارق يدعونا بالضرورة إلى رفض الاعتقاد بأن الله ﷻ قد طمس على أعين المشركين الذين حاصروا دار الرسول ﷺ، قبل هجرته، سعياً وراء قتله، أو أنه صدّهم عن إلقاء القبض عليه وهو مختبئ وصاحبه في الغار، أو أنه أنزل ملائكته من السماء لتنصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة في معركة بدر، ومعارك أخرى تلتها...(٢)

ثانياً: موقف الكاتب من كتابات المستشرقين حول السيرة:

وحول موقفه من الكتابات الاستشراقية يقول: "المنهج العلمي هو المنهج العلمي، والخروج عنه خروج عن العلم الصحيح سواء مارسه رجل في أقصى الغرب أم في أقصى الشرق، وسواء كان يتعبد في كنيسة أم يصلّي في مسجد.. والرسول ﷺ نفسه يقول: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".. ولم يحدد هوية الكاذبين وانتماءاتهم الدينية والجغرافية.(٣)

ويؤكد أن بداية الحركة الاستشراقية في مواقفها الظنية والعاطفية من حياة الرسول ﷺ، كانت قد جانفت العلم كثيراً، ثم بدأت تعتدل شيئاً فشيئاً، ومن المستشرقين من دفعهم جدّهم وموضوعيتهم ـ وهم ليسوا بالقليل ـ إلى نقد الأخطاء المنهجية التي مارسها رفاقهم في دراسة التاريخ عامة وحياة الرسول ﷺ خاصة، وإلى تعرية الدوافع التي تكمن وراء موقفهم هذا، سواء كانت محتشدة في الوعي أو منسربة في اللاشعور.(٤)

---

(١) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ٦.

(٢). نفس المرجع، ص ٩.

(٣). نفس المرجع، ص ١٠.

(٤). نفس المرجع، ص ١١.

ويضيف في موضع آخر فيقول: كما كشف المستشرقون بتعمقهم ونفاذهم وإحاطتهم، النقاب عن الكثير من الجوانب المضطربة في تاريخنا الإسلامي عامة، بما فيها سيرة الرسول ﷺ، إلا أنهم بأخطائهم المنهجية طرحوا الكثير من النتائج والمعطيات الموضوعية الخاطئة، وهذا أمر طبيعي، فالخطأ لا يتنج إلاّ خطأ، والبعد عن الموضوعية، لا يقود إلا إلى نتائج لا تحمل من روح العلم والجدية إلا قليلاً[١]، وسرد العديد من النماذج للأخطاء الموضوعية التي قادت إليها الثغرات العديدة في مناهج البحث الاستشراقية لسيرة الرسول ﷺ، فهي كثيرة لا يحصيها عدّ، وينتقد عماد الدين خليل مناهج المستشرقين، ولكن يحترم في الوقت نفسه انجازات بعضهم وخاصة المنصفين منهم.

ففي مقدمة كتابه يقيم دراسة مقارنة لمنهج المستشرق الانكليزي المعروف مونتغمرى وات وخاصة في كتابه: (محمد في مكة) وينتقده لإسقاطه الرؤية المعاصرة على السيرة، ويخلص إلى أن وات، وإن عرف بالموضوعية والحيادية، إلا أنه وغيره من المستشرقين غير قادرين على فهم روحية السيرة، لذلك فهم يمارسون نوعاً من التمزيق لنسيجها الحي، فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد ﷺ[٢]، وذلك بنفي الكثير من أحداث السيرة، ما دامت لم ترد في القرآن الكريم، وكأن القرآن كتاب تاريخي خاص بتفاصيل حياة محمد ﷺ؟! وهذا مكنهم من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع سلبي معاكس، وهي التشكيك ورفض كل رواية لا ترد مؤيداتها في القرآن، إذا كان في هذه الرواية تمجيد للنبي ﷺ، أو إذا كان في نفيها تأكيد لإحدى وجهات النظر الاستشراقية.[٣]

غير أن أسوأ نموذج يمكن أن نجده لهذا الانحراف ـ من وجهة نظره ـ حول مسألة تأثر الرسول ﷺ بالظروف الراهنة، وتحركه وفق مستلزماتها، ما ذكره بندلي جوزي[٤]، أحد رواد التفسير المادي للتاريخ الإسلامي، في كتابه: (من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام) حيث

---

(١). عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ٢١.

(٢). نفس المرجع، ص ١٣.

(٣). نفس المرجع، ص ١٥.

(٤). بندلي بن صليبا الجوزي أرثوذكسي فلسطيني، أستاذ الدراسات الشرقية في جامعتي قازان وباكو، يعتبر من الاوائل الذين درسوا التاريخ الإسلامي بمنهجية مادية، توفي سنة ١٩٤٢م. انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، جـ٣، ص ٩٣١.

يقول: "إن سياسة النبي مع المكيين قد تغيّرت كثيراً في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ولأسباب عديدة أوجدتها الظروف وأدى إليها الاختيار وحب النبي لوطنه الأصلي وأهله وذويه إلى غير ذلك من الانفعالات النفسية والعوامل السياسية التي ظهرت بعد موقعتي بدر وأحد وحصار المدينة، وكان من نتائجها أن النبي أخذ يلّطف من سياسته نحو إخوانه المكيين، كما أن أصحاب السلطة في مكة رأوا ـ بعدما أصابهم في موقعة بدر، وبعد ما لحق بتجارتهم من الخسائر ـ أن يتساهلوا في أمور كثيرة مع النبي على شروط تضمن لهم بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ما كانت عليه قبل الإسلام، وأن يشملهم العفو ـ إلا بعض أشخاص ـ ويشركهم في عمله الجديد الذي أخذوا يتوقعون منه خيراً لأنفسهم، وربما كانت من شروط التفاهم[1] أن يبقى النبي في المدينة وأن لا يتعرض في كلامه لأمورهم المالية، فكانت الحديبية، وسياسة تأليف القلوب أو بعبارة أخرى سياسة التسامح والتساهل المتبادل؛ فصار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، لا عن اعتقاد ودين بصحة الدين الجديد الذي لم يكونوا يعرفون عنه إلا الشيء القليل، بل رغبة في التقرب من أصحاب السلطة الجدد، وحفظاً لمراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة في أجيال...".[2]

ويعلق عماد الدين خليل على كلام بندلي جوزي فيقول: "إن فهم السيرة لا يمكن أن يتم إلا وفق نظرة شمولية تدرس حركة الإسلام كخطوات في برنامج شامل مرسوم في علم الله، ومحدد في قرآنه، وأن الرسول ﷺ لم يكن سوى منفّذ لهذا البرنامج بأسلوب يعتمد على قدرته وأخلاقيته وذكائه وإمكاناته الفذة في التخطيط والتنفيذ، ورغم أن القرآن الكريم نزل منجماً، وراحت آياته تنزل على مكث لكي تلامس الأحداث وتعلق عليها بعد وقوعها إلا أنه بمجموعه كمبدأ (أيديولوجية) لا يخرج عن نطاق كونه برنامجاً إلهياً شاملاً ترتبط ممارساته الجزئية بكليات شاملة محددة سلفاً في علم الله، ومن ثم فإن الظروف الراهنة ليس هي الحتمية المؤقتة التي تحدد مسار الإسلام وخطى رسوله، إنما هناك الهدف الذي يفرض أحياناً وقفة ضد الأعراف والظروف وتمرداً عليها وانقلاباً شاملاً على مواضعاتها، وهذا ما يبدو واضحاً منذ أول لحظة، في الشعار الحاسم الذي طرحه الرسول ﷺ بوجه الجاهلية (لا إله إلا الله) فأي ظرف

(١). أي تفاهم هذا؟! وفي أي مكان وزمان تم؟! وأية رواية أوردته؟! وفي أي مصدر على الإطلاق؟!

(٢). عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ١٨.

راهن، موقوت، أوحى بهذا الشعار الانقلابي الشامل الذي جاء يدمر على الوجود الجاهلي جلّ قيمه وأهدافه ومعالمه ومفاهيمه وعاداته وتقاليده؟![١]

ثالثاً: موقف الكاتب من المعجزات والخوارق:

يقول الكاتب حول هذا: "إن الإطار التاريخي لسيرة رسولنا ﷺ، منذ مولده حتى وفاته، يضم حشداً كبيراً من الروايات، يكثر ويتكاثف في مرحلة ويقل ويتباعد طيلة الأربعين سنة التي سبقت مبعثه في غار حراء، فلا يكاد يغطي سوى مساحات قليلة من هذه السنين الطويلة ولا يكاد يرسم سوى خطوط عريضة عن طفولة وشباب الرجل الذي قُدّر له أن يعيد صياغة الحياة الدنيا بما ينسجم ونواميس الكون[٢]، وعلى قدر ما تشح الروايات والأحاديث عن حياة الرسول الإنسان قبل مبعثه، على قدر ما تزيد وتتسع لكي تمنحنا ما فيه الكفاية عن العالم الذي ولد فيه محمد ﷺ، وذلك أمر معروف أيضاً".[٣]

أ) حادثة شق الصدر:

يقول الكاتب: "وأما حادثة شق الصدر، فهي ولا ريب مما يندّ عن مواضعات علمنا البشري في ميداني النفس والتشريح، لأنها ـ كأية تجربة أو حدث روحي ـ لا تخضع لمقاييس العقل والحسّ المحدودة، وكيف يخضع الكلي المطلق للمقيد المحدود؟! يكفينا أن نلتقط منها رمزاً أو دلالة تغطي مساحة ما في صورة الأربعين سنة من حياة محمد ﷺ".[٤]

وهذا يكفي.. فما دمنا بصدد تحليل المؤثرات البيئية الوراثية والغيبية في تكوين الرسول ﷺ وتهيئته للرسالة، فإن حادثة شق الصدر تقف في القمة من المؤثرات جميعاً، صياغة روحية ـمادية لشخصية النبي الإنسان، وتهيئة من لدن العليم بمنسربات النفوس، الخبير بتعقيدات الشخصية؟! لكي يكون هذا الرجل بالذات، ووفق تكوينه الموجّه هذا، قادراً على التقاط إشارة السماء ومقابلة الوحي، وتحمل المسؤولية، نبياً إلى الناس جميعاً، صعداً بهم إلى القمم الشامخة التي

---

(١). عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ٢٠.

(٢). نفس المرجع، ص ٣٨.

(٣). نفس المرجع، ص ٤٤.

(٤). نفس المرجع، ص ٤٣.

تتقطع دونها أنفاسها الرجال.(١)

ب) حادثة الإسراء والمعراج:

جاءت حادثة الإسراء والمعراج تثبيتاً للرسول ﷺ على طريق المقاومة الطويل، وتكريماً له في أعقاب سنين طويلة من العمل والصمود والكدح، وتتويجاً لهذه السنين الصعبة، رفعه إلى قلب السماوات، وأطلعه على جوانب الإعجاز الإلهي الباهر في الكون الكبير... وقد كانت قبل الهجرة بعام وبعض عام، وكان عمر الرسول ﷺ آنذاك ـ كما يروي المسعودي ـ إحدى وخمسين سنة وثمانية أشهر وعشرين يوماً(٢)، ولا أن نشير إلى أن هناك خلافاً في زمن وقوع الحادثة حيث يذهب بعضهم إلى أنها وقعت قبيل منتصف العهد المكي، ولم يكن المهاجرون إلى الحبشة قد هاجروا إليها بعد(٣)، ونحن نرجح ـ يقول الكاتب ـ الروايات التي تجعلها في أواخر العصر المكي انسجاماً مع مغزاها.(٤)

وبعد استعراض مختلف الروايات حول حادثة الإسراء والمعراج؛ والتي وردت في صحيح البخاري، وسيرتي ابن إسحاق وابن هشام، يبدأ في تحليل مسألة البعد الزمني للقضية ـ وهو أخطر ما في الموضوع من وجهة نظره ـ فيقول: "لم تكن حادثة الإسراء والمعراج معجزة قاهرة أريد منها قهر الناس على الاعتقاد بصدق نبوة الرسول ﷺ كم كان يحدث للأنبياء السابقين، وذلك أن القرآن الكريم سلك أسلوباً آخر في الإقناع يقوم على التأمل والمشاهدة والتجريب والحجة والبرهان.(٥)

رابعاً: موقف الكاتب من الوحي:

ليس بإمكان أي مؤرخ أن يحدد الأبعاد الكاملة لطبيعة اللقاء الأول، وما تلاه من لقاءات، بين الوحي الكريم وبين محمد ﷺ، وكل ما ذكرته الروايات اعتماداً على رؤية الرسول وهو يتلقى الوحي، أو أحاديثه القصيرة الموجزة بهذا الصدد، لا يعدو أن يكون وصفاً خارجياً

---

(١). عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ٤٤.

(٢). المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٥م) جـ٢، ص ٢٨٣.

(٣). محمد عزة دروزة: سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن (الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٤٨م) جـ١، ص ٢٢٢.

(٤). عماد الدين خليل: المرجع السابق، ص ٩١.

(٥). نفس المرجع، ص ٩١ ـ ١٠٣.

للتجربة التي تمخض عنها البناء القرآني المعجز، وما دام الأمر في امتداده وغيابه يندّ عن المشاهدة المباشرة والفحص التجريبي باعتباره أمراً غيبياً، فليس من السهل أن نخوض فيه، كما أنه ليس من السهل أن نخوض في أي من الأمور الغيبية التي لم يتح لأجهزتنا الحسية والعقلية التعامل معها، والإحاطة بأبعادها علماً.(١)

وكل المحاولات ــ الشرقية والغربية ــ التي جهدت من أجل تحليل تجربة الوحي تحليلاً يخضعها في نهاية الأمر للمعرفة البشرية المحدودة، وقعت في خطأ من حيث أنها اعتمدت الظن والتخمين في مسألة من أخطر المسائل الغيبية، والأهم من ذلك هو ما تمخض عنه هذا الأسلوب الإلهي في تعليم البشرية، والذي يُعدّ من المصادر اليقينية للمعرفة، فالقرآن ــ إذن ــ والحركة الإسلامية التي رافقته، على خط متواز صاعد، هما اللذان يجب أن ينصب عليهما البحث والتحليل ومحاولة الإحاطة، من أجل أن تكون المحاولة جادة وليست ضرباً في غير هدف؟!(٢)

لقد تنزل الوحي على الرسول ﷺ في أعقاب فترة زمنية طويلة، جاوزت الأربعين عاماً، كانت الإرادة الإلهية تهيء فيها ــ كما رأينا ــ الممهدات البيئية والوراثية لتكوين الشخصية التي سيلقى على عاتقها حمل مسؤولية الرسالة الصعبة، وأعقب ذلك تمهيد نفسي وذهني مباشر تمثل في الأسابيع الطوال من العزلة والتأمل والتحنث في غار حراء، انشقاقاً على الأعراف والممارسات الجاهلية، واندماجاً في الكون ومداه، وبحثاً عن العلة الكافية لخلقه على هذه الصورة من الدقة والتنسيق والتماسك والنظام، وسعياً وراء الشريعة التي تعيد الإنسان إلى الانسجام مع النواميس التي تتحرك بموجبها السماوات والأرض، وما لبث الوحي الأمين أن جاء في اللحظة المناسبة والمكان المناسب اللذين اختارتهما العناية لإلهية لإرسال محمد إلى الناس كافة.(٣)

---

(١). عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ٨١.

(٢). نفس المرجع، ص ٨١.

(٣). نفس المرجع، ص ٨١.

أكرم العُمري[١] وكتابه المجتمع المدني في عهد النبوة:

من الثغرات التي تنبه لها المؤرخون المسلمون في بداية الثمانينات الهجرية من القرن الرابع عشر الماضي، قضية إعادة **كتابة التاريخ الإسلامي** وفق التصور الإسلامي لحركة التاريخ من ناحية التفسير التاريخي، ووفق مناهج المحدثين من ناحية البحث في التاريخ الإسلامي، ولا شك أن تقديم المقترحات والملاحظات حول إعادة صياغة التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً أمرٌ في غاية الصعوبة، لطول الفترة الزمنية من ناحية، ولتنوع المصادر واختلافها من حيث التنظيم وطرق العرض واختلاف الجوانب التي تستحق التركيز عليها في كل حقبة تاريخية من تاريخ الإسلام المديد.

وكان من توفيق الله ﷻ أن تهيأ لأكرم بن ضياء العمري فرصة طيبة **لاقتراح منهج رائد أصيل لكتابة تاريخ صدر الإسلام،** قدم له بالمنطلقات الفكرية الأساسية والتي أكد خلالها على أن التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ منبثقٌ أصلاً من تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان، وبأنه يرتكز أساساً على الإيمان المطلق بالله تعالى وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله ﷻ.

وبعد ذلك تعرض ـ الكاتب ـ لموضوع ملامح التصور الإسلامي للتفسير التاريخي ثم خلص إلى تبيان المقصود من البحث في التاريخ الإسلامي وفق مناهج المحدثين، حيث قدم النتائج التي توصل إليها عند **تطبيق قواعد النقد الحديثية على الرواية التاريخية،** وهذا منحىً هو في غاية الأصالة والجدة والموضوعية، ويرتبط موضوع دراسة السيرة النبوية الذي منهج كتابة

---

(١). أكرم ضياء العمري، ولد في الموصل سنة ١٣٦٢هـ، عمل في تدريس السيرة النبوية عشرين سنة في كلية الآداب بجامعة بغداد، ومنذ ١٤٠٣هـ عمل أستاذاً متفرغاً لتدريس مادة تاريخ السيرة النبوية ولمناهج البحث في أقسام الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وهو عضو بمجلس مركز خدمة السيرة والسنة النبوية بالمدينة المنورة، أشرف على أكثر من ستين أطروحة دكتوراه ورسالة ماجستير أسهمت في توثيق مرويات السيرة النبوية، نشر دراسات وبحوث وكتب عديدة، نال جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية عام ١٤٢٦هـ، ويعمل الآن عضواً بلجنة إحياء التراث الإسلامي والنشر العلمي بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر. انظر: أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، جـ١، ص ٢٣، ونشوان العمري: تكريم العلامة العراقي الموصلي د. أكرم ضياء العمري، على الرابط: http://albaytalmosuly.com

التاريخ الإسلام ارتباطاً جذرياً بإعادة صياغة تاريخ صدر الإسلام، كما أنه يكشف عن الأصالة والتنوع في هذه المصادر، وقد تعرض ـ الكاتب ـ في هذه الدراسة لمصادر السيرة المطهرة الأصيلة والمتمثلة بالقرآن الكريم وكتب الصحاح وكتب الدلائل والشمائل وكتب السيرة المتخصصة وأُمهات كتب التاريخ العام.

كما تعرض ـ الكاتب ـ للمصادر التكميلية التي تُفيد في حقل دراسة السيرة النبوية، والدراسة هذه محاولة جادة لتقويم تلك المصادر المتنوعة وكيفية الإفادة منها لتحقيق الغرض المنشود، وقد تضمنت هذه الدراسة ـ إضافة إلى ما سبق ـ ذكره إشارة واضحة إلى الحاجة الملحة إلى مناهج إسلامية شاملة في النقد والتفسير التاريخيين، ويقدم الكاتب بعد ذلك دراسة تطبيقية تلتزم بالمنهج الذي حدده عن المجتمع المدني خصائصه وتنظيماته الأولى، والبحث واسع وجاد وهو بحق محاولة رائدة في مجال تطبيق المنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية واعتماد أساليب النقد الحديثية، ولعل ما يزيد من أهمية اعتماد الباحث على المصادر أصيلة بشكل عام والتزامه بالتحليل والاستنتاج بعد اجتياز مراحل النقد المعتبرة من منظور سليم يرتكز على النقد المنهج الموضوعي في التعامل مع الروايات التاريخية، والتصور الإسلامي الشامل للكون والحياة والإنسان في التفسير التاريخي، لأننا بحاجة ملحة إلى صياغة جديدة لتاريخنا وفق رؤية جديدة تتسم بالاعتزاز بالذات والحفاظ على السمات والبعد عن الاغتراب والضياع والانسلاخ من ماضينا وتراثنا، إذ لا بد من وقوف نهضتنا الحاضرة على قاعدة صلبة من الماضي، وبذلك نتخلص من الانقطاع الحضاري وما يولده من الضياع، وهذا ما سعى له الكاتب بعلو همة ونشاط لا غبار عليهما، وأحاول استعراض أبرز مباحث الكتاب في النقاط التالية:

أولاً: الهجرة وأثرها في التكوين الاجتماعي لسكان المدينة:

لم يمض على وصول النبي ﷺ إلى المدينة غير قليل، حتى جمع زعماء المهاجرون والأنصار وآخى بينهم، يقول الكاتب موضحاً دور الهجرة وأهميتها في التاريخ الإسلامي: "والهجرة حدثٌ عظيم استحق أن يكون بداية العام الهجري الجديد عند المسلمين منذ أن وضع الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ التقويم الهجري، فالهجرة كانت دليلاً على الإخلاص والتفاني في سبيل العقيدة، فقد فارق المهاجرون وطنهم ومالهم وأهليهم ومعارفهم استجابة لنداء الله ورسوله، وقد دلت أحداث الهجرة على سلامة التربية المحمدية للصحابة رضوان الله عليهم، فقد صاروا مؤهلين

للاستخلاف في الأرض وتحكيم شرع الله والقيام بأمره والجهاد في سبيله وهم يقبلون على بناء دولة المدينة المنورة بعد أن كانوا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس". (١)

وقد تأخرت هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة حتى هاجر معظم القادرين على الهجرة من أصحابه الذين استجابوا للأمر بالهجرة، واستمر الحث على الهجرة وبيان فضل المهاجرين بنزول الآيات القرآنية واستمر معها تدفق المسلمين الجدد من كل مكان، فقد كانت الدولة لإسلامية الناشئة في المدينة المنورة بحاجة إلى المهاجرين من المؤمنين ليتوطد سلطان الإسلام فيها إذ يغالبه اليهود والمشركون والمنافقون، وتحيط به قوى الأعراب المشركين من حوله، ويترصده كفار قريش الذين اقضت مضاجعهم فمضوا يخططون للإجهاز على كيان الإسلام الفتيِّ ودولته الناشئة، لقد أدت الهجرة المستمرة إلى تنوع سكان المدينة المنورة فلم يعودوا يقتصرون على الأوس والخزرج ويهود بل نزل معهم المهاجرون من قريش وقبائل العرب الأخرى، والمجتمع المدني الجديد أرسيت قواعده وشيد بنيانه على أساس روابط العقيدة التي استعلت على ارتباطات القبيلة وعصبيتها وسائر الروابط الأخرى، وبرزت فكرة الأمة الواحدة كما سيتضح عند دراسة دستور المدينة المنورة، وتقسيمات السكان صار أساسها عقدياً وصاروا يقسمون إلى ثلاث مجموعات هي: **المؤمنون، والمنافقون، واليهود**، ولا شك أن تدفق المهاجرين إلى المدينة ولَّد مشاكل اقتصادية، واجتماعية، وصحية، كان لا بد من مواجهتها بقرار حاسم، فكا أن شُرِّع نظام المؤاخاة. (٢)

وكان إعلان هذا التشريع في دار أنس بن مالك ﵁ كما صرحت الروايات، ووقعت المؤاخاة بين طرفين هما المهاجرون والأنصار، فآخى الرسول ﷺ بين كل مهاجري وأنصاري اثنين اثنين، وقد شملت المؤاخاة تسعين رجلاً وخمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار، ويقال إنه لم يبق من المهاجرين أحدٌ إلا آخى بينه وبين أنصاري، وقد ترتب على تشريع نظام المؤاخاة حقوق خاصة بين المتآخيينْ كالمواساة بين الاثنين، والمواساة ليست محدودة بأمور معينة بل مطلقة لتعني كل أوجه العون على مواجهة أعباء الحياة سواء كان عوناً مادياً أو

---

(١). أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى (الطبعة الأولى، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٠٣هـ) ص ٦٥.

(٢). نفس المرجع، ص ٦٥ ـ ٧٠.

رعاية صحية ونصيحة وتزاوراً ومحبة، وقد طابت نفوس الأنصار بما سيبذلونه لإخوانهم المهاجرون من عون، وتصور بعض الروايات عمق التزامهم بنظام المؤاخاة وتفانيهم في تنفيذه.(١)

ثانياً: أهل الصُّفة:

أعقب هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ظهور مشكلة تتعلق بمعيشة المهاجرين الذين تركوا بيوتهم وأموالهم ومتاعهم بمكة فراراً بدينهم من طغيان المشركين، ولا شك أن بعض المهاجرين لم يستطيعوا العمل حال قدومهم إلى المدينة لأن الطابع الزراعي يغلب على اقتصاد المدينة وليست للمهاجرين خبرة زراعية فمجتمع مكة تجاري، كما أنهم لا يملكون أرضاً زراعية في المدينة وليست لديهم رؤوس أموال فقد تركوا أموالهم بمكة، وقد وضع الأنصار إمكانياتهم في خدمة المهاجرين لكن بعض المهاجرين بقي محتاجاً إلى المأوى، واستمر تدفق المهاجرين إلى المدينة خاصة قبل موقعة الخندق حيث كان الكثير منهم يستقرون في المدينة كما طرقت الوفود الكثيرة المدينة، ومنهم من لم يكن على معرفة بأحد من أهل المدينة فكان هؤلاء الغرباء بحاجة إلى مأوى دائم أو مدة إقامتهم، ولا شك أن النبي ﷺ فكر في إيجاد المأوى للفقراء المقيمين والوفود الطارقين.

وحانت الفرصة عندما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بعد ستة عشر شهراً من هجرته ﷺ إلى المدينة، حيث بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به فظلل أو سقف وأطلق عليه اسم (الصفة أو الظلة) ولم يكن لها ما يستر جوانبها، ولا يعرف سعة الصفة، ولكن يبدو أنها كانت تتسع لعدد كبير حتى أن النبي ﷺ استخدمها في وليمة حضرها ثلاثمائة شخص، وإن كان بعضهم قد جلس في حجرة من حجرات أزواج النبي ﷺ الملاصقة للمسجد.

أول من نزل الصفة المهاجرون، لذلك نسبت إليهم فقيل صفة المهاجرين، وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي ﷺ معلنة إسلامها وطاعتها، وكان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له عريف نزل به، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة، فكان أبو هريرة رضي الله عنه عريف من سكن الصفة من القاطنين ومن نزلها من الطارقين، فكان النبي ﷺ إذا أراد دعوتهم عهد إلى أبي هريرة فدعاهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة

(١). أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى، ص ٧٤ ـ ٧٦.

والمجاهدة، وإلى جانب المهاجرين والغرباء نزل بعض الأنصار في الصفة حباً لحياة الزهد والفقر رغم استغاثتهم عن ذلك ووجود دار لهم في المدينة، ومنهم: كعب بن مالك الأنصاري، وحنظلة بن أبي عامر (غسيل الملائكة)، وحارثة بن النعمان الأنصاري ﷺ، وغيرهم، ولأن أهل الصفة كانوا أخلاطاً من قبائل شتى سماهم النبي ﷺ (الأوفاض) وقيل في سبب هذه التسمية أيضاً إن كل واحد منهم كان معه (وفضة) وهي مثل الكنانة الصغيرة يلقي فيها طعاماً، لكن القول الأول أجود.

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة ويقلون إذا قل الطارقون من الغرباء، على أن عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلاً، وقد يزيد عددهم كثيراً حتى أن سعد بن عبادة ﷺ كان يستضيف وحده ثمانين منهم فضلاً عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابة ﷺ، وأقدم من عقد فصلاً في أهل الصفة ـ والكلام للعمري ـ هو محمد بن سعد (ت٢٣٠هـ) وسائر ما ذكره مأخوذ عن الواقدي، ومع ذلك فلا نجد تلك النصوص في كتاب المغازي للواقدي (طبعة مارسدن) فلعلها من كتابه الآخر (الطبقات) وهو مفقود وينقل عنه ابن سعد كثيراً في الطبقات الكبرى، لكن أقدم من علمته أفرد كتاباً في أهل الصفة هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي النيسابوري (ت٤١٢هـ) في كتابه (تاريخ أهل الصفة) وهو مفقود ولعله المصدر الذي نقل عنه أبو نعيم كثيراً في الفصل الذي عقده لأهل الصفة من كتابه (حلية الأولياء) وإن لم يصرح باسمه، لكنه صرح بالنقل عنه في موضع آخر من كتابه، وقد وصفه بأنه مرتب على حروف المعجم وأن فيه "أسماء جماعة عرفوا من أهل القبلة نسبوا إلى أهل الصفة وهو تصحيف من بعض النقلة".

ومن المتأخرين ألف تقي الدين السبكي (ت٧٥٦هـ) كتاباً عنهم سماه: (التحفة في الكلام على أهل الصفة)، وألف شمس الدين السخاوي رسالة بعنوان: (رجحان الكفة في أخبار أهل الصفة)، كما عقد السمهودي مقالاً عن أهل الصفة جمع فيه الروايات المشتتة في كتب الحديث والتاريخ والجغرافية ومعاجم اللغة.[1]

---

(١). أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى، ص ٨٩ ـ ١٠٥.

ثالثاً: إعلان وثيقة المدينة:

بعد تشريع نظام المؤاخاة، جمع النبي ﷺ المسلمين واليهود من سكان يثرب، وكتب بينهم كتاباً، هو بمثابة حلف أو عهد ولعلَّه في لغة العصر (دستور) **بل أوَّل دستور من نوعه عرفته العرب، وبه نشأت السلطة العامة العليا، واعتبرها مستشرقون ومهتمون بدراسة التاريخ والسير أول دستور اجتماعي يحفظ حقوق المواطنة في الدولة المدنية وأحد مفاخر الحضارة الإسلامية،** التي تولاها النبي محمد ﷺ بإلحاح أهل المدينة وإجماعهم عليه، وينكر بعضهم صحة هذا الكتاب، لأنه لم يرد في كتب الأحاديث الصحيحة، ولكن كثيراً من كتب الرسول ﷺ لم يرد في كتب الحديث، وإنما ورد في كتب التاريخ، وسواء أصحت الألفاظ التي تضمنها هذا الكتاب أم طرأ عليها شيء من الزيادة والتعديل، فذلك لا يضعف قيمته ـ لأن الأمر الذي يعنيني في هذا البحث ـ هو أن الرسول ﷺ جمع أهل يثرب والمهاجرين وأقام بينهم حلفاً، وجعلهم أمَّة واحدة، وأنهم فوضوا إلى النبي ﷺ السلطة والزعامة، وأنَّه عَرَّفهم بواجباتهم المدنية بوصفهم مواطنين يتناصرون، ويتوفر بعضهم على حرمات بعض، ويقومون جميعاً على من بغى وظلم ولو كان ولد أحدهم، وإذا حاربوا حاربوا جميعاً، وإذا سالموا سالموا جميعاً، ولم يجز لقبيلة منهم أو أفراد معدودين أن يعقدوا "صلحاً منفرداً"، وإذا قتل أحدهم إنساناً قُتِل به، وليس لقبيلته أن تحميه وتتعصب له، لأنه خرج بعمله على نظام المسلمين كلهم ويجب على المسلمين كلهم أن يقوموا ويثأروا منه.

ومن أعجب الأمور ـ في نظري ـ أن زعامة النبي ﷺ لم يرتضها المهاجرون والأنصار من الأوس والخزرج، الذين فشا فيهم الإسلام وذلك أمر طبيعي، وإنما ارتضاها ـ أيضاً ـ اليهود؟! **فالوثيقة شكلت أول دستور في تاريخ البشرية حيث أرست حقوق الإنسان واعترفت بالأقليات داخل المجتمعات بمختلف أطيافهم وأعراقهم من خلال معاهدات وفاق أقرها سكان المدينة بمختلف أعراقهم،** وقد تكفل لهم النبي ﷺ بحريتهم الدينية وجعلهم حلفاء للمسلمين يحاربون من يحاربونهم ويسالمون من يسالمونهم، ويحتكمون إلى النبي ﷺ في كل حدث أو شجار يخاف فساده، وهكذا أوجد الرسول الكريم ﷺ "السلطة العامة العليا" التي لم تعرفها العرب من قبل؟! وأنشأ الدولة التي تجمع في حضنها المسلمين وغير المسلمين، وتضمن لهم حرية العقيدة، وكرامة الحياة، وحرمة الجوار، وحق الأخوة والتناصر، ومضى الرسول ﷺ بعد هذا

في توسيع رقعة الدولة بنشر الدعوة في جزيرة العرب وما وراء الجزيرة..

إن الوحدة السياسية لم تكن متحقّقة في المدينة في تلك الحقبة وذلك لوجود نزاع مستمر وحروب بين القبائل كقبيلتَي الأوس والخزرج العربيتَين والقبائل اليهودية بني قَينقاع، وبني النضير، وبني قرَيظة) وهي من أسباب تقديم النبي ﷺ لكتابة "وثيقة المدينة "والتي تعد من أوائل أعماله في المدينة، وقد نجح الرسول ﷺ في إرساء وحدة سياسية عجيبة في ذلك الجو المضطرب في المدينة بين هذه القبائل التي كانت في حاجة ماسّة إلى وحدة سياسية، وكانت هذه الوحدة السياسية أمراً جديداً وغريباً لم يألَفه العرب، وقد استطاع النبي ﷺ خلال بضع سنوات أن يوحد عرب الجزيرة ويدخلهم في الإسلام، وأما أهل الكتاب فأقرَّهم على دينهم، ولو امتدت حياته ـ ﷺ ـ لتمَّت على يديه كل هذه الفتوحات العظيمة التي قام بها خلفاؤه من بعده.

وقد تتبع أكرم العمري طرق ورود الكتاب ومدى صحته وأن تعدد مسمياته بين الباحثين والمؤرخين مما يُؤكد صحته وأنه صادرٌ عن النبي ﷺ ومن بين تلك المسميات: "**الكتاب**"، و"**الصحيفة**"، "**والمعاهدة**"، "**ووثيقة المدينة النبوية**" فيما ذهب الباحثون المعاصرون من المسلمين والمستشرقين إلى تسميتها بـ "**الوثيقة الدستورية**" موضحاً أن تاريخ المعاهدة كان قبل أن ينصرم العام الأول من هجرته الشريفه عندما قدم النبي ﷺ للمدينه ووادَعتّه اليهود وبايعتّه قبائل العرب في المدينة فضم كل قبيلة بأحلافها وكتب وثيقة وفاق للتعايش السلمي فيم بينهم طرفها الأول المهاجرون، والثاني الأنصار ويشمل الأوس والخزرج وطرفها الثالث اليهود من أهل يثرب فكانت بمثابة أول دستور ينظم الحياة العامة ويحدد العلاقات بين مجتمع اختلف تكوينه وعقائده ومشاربه، فقال: "إن أقدم من أورد نص الوثيقة كاملاً هو محمد بن إسحاق (ت١٥١هـ) لكنه أوردها دون إسناد، وقد صرح بنقلها عنه كل من ابن سيد الناس، وابن كثير، فوردت عندهما دون إسناد ـ أيضاً ـ وقد ذكر البيهقي إسناد ابن إسحاق للوثيقة التي تحدد العلاقات بين المهجرين والأنصار دون البنود التي تتعلق باليهود لذلك لا يمكن الجزم بأنه أخذها من نفس الطريق أيضاً، كما وردت الوثيقة في كتاب الأموال لابن زنجويه من طريق الزهري أيضاً، وهذه الطرق التي وردت منها الوثيقة بنصها الكامل، والتطابق كبير بين سائر الروايات سوى بعض التقديم والتأخير في العبارات أو اختلاف بعض المفردات أو زيادة قليلة، ولا يؤثر هذا الاختلاف على مضمونها العام، **وبذلك يتبين أن الحكم بوضع الوثيقة مجازفة**، ولكن

الوثيقة لا ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة، فابن إسحاق في سيرته رواها دون إسناد مما يجعل روايته ضعيفة وأوردها البيهقي من طريق ابن إسحاق ـ أيضاً ـ بإسناد فيه سعد بن المنذر ـ وهو مقبول فقبل ـ وابن أبي خثيمة أوردها من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو المزني ـ وهو يروي الموضوعات ـ وأبو عبيدة القاسم بن سلام رواها بإسناد منقطع يقف عند الزهري ـ وهو من صغار التابعين فلا يُحتج بمراسيله.

ولكن نصوصاً من الوثيقة وردت في كتب الأحاديث بأسانيد متصلة، وبعضها أوردها البخاري ومسلم، فهذه النصوص هي أحاديث صحيحة، وقد احتج بها الفقهاء وبنوا عليها أحكامهم، كما أن بعضها ورد في مسند أحمد وسنن أبي داوود وابن ماجه والترمذي، وهذه النصوص جاءت من طرق مستقلة بين الطرق التي وردت فيها الوثيقة، وإذا كانت الوثيقة بمجموعها لا تصلح للاحتجاج بها في أحكام الشريعة سوى ما ورد منها في كتب الحديث الصحيحة **فإنها تصلح أساساً للدراسة التاريخية** التي لا تتطلب درجة الصحة التي تقتضيها الأحكام الشرعية؛ خاصة أن الوثيقة وردت من طرق عديدة تتضافر في إكسابها القوة، كما أن الزهري علم كبير من الرواد الأوائل في كتابة السيرة النبوية، ثم أن أهم كتب السيرة ومصادر التاريخ ذكرت موادعة النبي ﷺ لليهود وكتابته بينه وبينهم كتاباً.(١)

كذلك فإن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها "فنصوصها مكونة من جمل قصيرة بسيطة وغير معقدة التركيب، ويكثر فيها التكرار، وتستعمل كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ ثم قل استعمالها فيما بعد حتى أصبحت مغلقة على غي المتعمقين في دراسة تلك الفترة، وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فرداً أو جماعة، أو تخص أحداً بالإطراء أو الذم لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة"(٢)، ثم إن التشابه الكبيرين بين

---

(١). البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، ص ٢٨٦ ، ٣٠٨، والطبري: تاريخ، جـ٢، ص ٤٧٩، والمقدسي: كتاب البدء والتاريخ، جـ٤، ص ١٧٩، وابن حزم: جوامع السيرة، ص ٩٥، والمقريزي: إمتاع الأسماع، جـ١، ٤٩، وابن كثير: البداية والنهاية، جـ٤، ص ١٠٣، نقلاً عن موسى بن عقبة وفيه أن بني قريظة مزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد، والأثر موقوف عليه بدون إسناد، ولكن مجموع الآثار تتقوى ببعضها وتصل إلى درجة الحسن لغيره، انظر: أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى، ص ١٠٧ ـ ١١١.

(٢). صالح أحمد العلي: تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة (مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع عشر، بغداد، ١٩٦٩م) ص ٤.

أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ الأخرى يعطيها توثيقاً آخر.[(١)]

وللعمري كتاب آخر بعنوان: (الرسالة والرسول ﷺ) نشر مستقلاً فيما مضى، ولكني وجدته ضمن فصول كتابه: (السيرة النبوية الصحيحة)، وتعرض فيه الكاتب إلى عالم الغيب وفق المنظور والتصور الإسلامي الصحيح، وكذلك نظرته إلى الإيمان بسائر الأنبياء بشكل عام وقطعي، وبشرية الرسول ﷺ وختم النبوة وعموم الرسالة به، ومعجزات الرسول ﷺ الحسية، إضافة لبعض الموضوعات الفلسفية التي رد فيها على آراء الفلاسفة والمستشرقين في العصر الحديث، وأورد هنا نصاً من كتابه الآنف الذكر حول بشرية الرسول ﷺ، فيقول: "لقد أعلن محمد ﷺ للمسلمين جميعاً أنه بشر مثلهم كما ورد في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠]، وإذا كان الأنبياء لا يستحقون العبادة وهم أفضل البشر، فإن القادة الفكريين والزعماء المبرزين لا يستحقون العبادة من باب الأولى، وبالتالي قطع الإسلام الطريق أمام الدعوة إلى عبودية الإنسان من دون الله مهما بلغ مقامه وعظم مكانه، وبذلك حافظ على كرامة الإنسان وحريته، ومنعه من السقوط في هاوية الخضوع الأعمى لغيره من البشر، فضلاً عن حمايته من عبادة المخلوقات الأخرى من حيوان وجماد وقوى الطبيعة".[(٢)]

---

(١). أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى، ص ١١٢.

(٢). أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، جـ٢، ص ٥٨٢.

المبحث الثاني:

الاتجاهات المخالفة في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال ق ٤ هـ

ويشتمل على:

أولاً: الاتجاه الشيعي.

ثانياً: الاتجاه الصوفي.

ثالثاً: الاتجاه العقلي.

الاختلاف والخلاف:

الاختلاف والمخالفة أن ينهج كل شخص طريقاً مغايراً للآخر في حاله أو في قوله، والخلاف أعم من الضد لأن كل ضدين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدين، ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يفضي إلى التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة، قال تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ [مريم:٣٧] ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨] ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات:٨] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس:٩٣].

وعلى هذا يمكن القول بأن الخلاف والاختلاف بمعنى واحد يراد به مطلق المغايرة في القول أو الرأي أو الحالة أو الهيئة أو الموقف، على مسألة ما، يقول الفيروز أبادي في تعريف الاختلاف: "أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله".(١)

أهم مخاطر الخلاف:

لقد نبه العلماء إلى خطر الخلاف إذ يؤثر في المعتقدات، ويفسد العقول مما يؤدي إلى فساد الدين عند الناس، وظهور المفتريات على الدين الحنيف؛ بالتحريفات التي لا أصل لها في الإسلام، وفيما يلي أهم مخاطر الخلاف:

١. يناقض الإيمان بأخبار النبي ﷺ.
٢. يقدح في القرآن الكريم والسنة النبوية بأن فيهما ما ظاهره خطأ وباطل.
٣. يلزم منه اتهام الشرع بكتمان الحق، وعدم نصح الخلق.
٤. فيه إعراض عن القرآن الكريم والسنة النبوية كما فهمها الصحابة رضي الله عنهم والسلف الصالح.
٥. هو أصل كل بدعة ظهرت في الإسلام.
٦. يفتح باب الجرأة على القرآن الكريم والسنة النبوية بحيث يؤدي إلى الفوضى وتفريق الأمة.
٧. يؤدي الانحراف إلى عدم المبالاة بالتكاليف الشرعية.
٨. الانحراف فيه تشبه بأهل الكتاب الذين حرفوا كتبهم ودينهم.(٢)

---

(١). طه جابر العلواني: أدب الاختلاف في الإسلام (أمريكا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د.ت) ص ٢١، ومنقذ محمود السقار: أدب الخلاف، مقال بموقع صيد الفوائد، على الرابط: http://www.saaid.net

(٢). محمد الدرديري: التأويل الفاسد وأثره السيئ على الأمة، ص ٧٧ ـ ٨٩.

مبادئ الاتجاه المخالف الخاصة بالسيرة النبوية:

لم يكن تعامل الكثيرين من أصحاب هذا الاتجاه مع السيرة النبوية وأحداثها على الوجه المطلوب، ولم يعرف عنهم التخصص في دارسة السيرة النبوية؛ وهذا أدى بهم إلى أمرين هما:

أولا: تبنى أكثرهم القول بإنكار المعجزات والتشكيك بأحداث السيرة النبوية كليا أو جزئيا، وعدم الاعتماد عليها، ويكتفى بالقرآن الكريم.

ثانيا: على المستوى العملي وجد لدى بعضهم الجرأة المرفوضة في الكلام عن السيرة النبوية بدون علم، والتقليد والترديد لأقوال بعض أصحاب الاتجاه العقلي، أو المستشرقين، أو الزيادة عليهما، أو ابتداع أفكار نابعة من اتباع الهوى، أو غير ذلك، وهذه الشبهات متعددة بتعدد الاتجاهات، فكل اتجاه له مبادئ خاصة بفكره قد لا تنطبق على أصحاب الاتجاهات الأخرى، والأمثلة على تلك الشبهات والمزاعم ما يلي:

١. شبهتهم في تأخير تدوين السيرة النبوية.

٢. شبهتهم في الطعن بالصحابة رضي الله عنهم.

٣. التفسيرات المختلفة للسيرة النبوية، كالتفسير العقلاني والعلماني والقومي والماركسي.[1]

---

(١). محمد عمارة: التفسير الماركسي للإسلام (الطبعة الثانية، القاهرة، دار الشروق، ١٤٢٢هـ) ص ٥٥ ـ ٥٩، وإبراهيم عوض: اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة (القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ١٤٢٠هـ) ص ٤٨ ـ ٧٠، ، منصور أبو شافعي: مركسة التاريخ النبوي (القاهرة، نهضة مصر، د.ت) ص ٣٢ ـ ٩٠.

أولاً:

الاتجاه الشيعي في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال ق ١٤ هـ

شيعة العراق في ق ١٤هـ:

الشيعة هم تلك الفرقة من المسلمين الذين زعموا أن عليّاً هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأحقهم بالخلافة دون الشيخين وعثمان ﷺ أجمعين، وقد أطلق عليهم الإمامية؛ لأنهم جعلوا الإمامة (الخلافة) الحجر الأساسي بل هي أصل الدين وقاعدة الإسلام(١)، وسموا بالاثنى عشرية؛ لأنهم قالوا باثني عشر إماماً دخل آخرهم السراداب بسامراء على ــ حد زعمهم ــ وهم يعملون لنشر مذهبهم ليعم العالم الإسلامي.(٢)

ومن الأسباب التي ساعدت على ظهور وتنامي التشيع في جنوب العراق هو سياسة حكم المماليك للعراق التي اتسمت بالتراخي مع الشيعة، فقد كان المماليك غير مهتمين بما يجري في جنوب العراق من عملية تبشير بالتشيع، بيد أنهم في نفس الوقت كانوا يمنعون إقامة المراسم الحسينية واستمر هذا الحال إلى نهاية حكمهم، وكردة فعل من العثمانيين على حكم المماليك عمل أول والي عثماني بعد داود باشا على رضا اللاز، على غض الطرف عن المواكب الحسينية، بل حضر بنفسه بعض هذه المواكب(٣)، هذا التسامح أدى لشيوع مجالس التعزية والتي تعتبر أكبر وسيلة دعاية لنشر التشيع وحماية هويته وتوسيع الهوة بينهم وبين السنة، هذه المواكب التي تضخم ما جرى للحسين ﷺ تكون فرصة مثالية لترويج عقائد مغالية تحت غطاء العاطفة الجارفة والتي تمنع العقل من التأمل في ما يقدم له من أفكار وعقائد، كما شكلت مراسيم وأعمال عاشوراء الوسيلة الوحيدة لمواجهة المد السلفي، وأنها الوسيلة الأنجع لنشر التشيع بين العشائر، لقد حذر علماء الشيعة من أي نقد لهذه الطقوس أو إقامتها في البيوت،

---

(١). قال الكراجكي: "الإمامة أصل يتعلق بالنبوة من خالف فيه كفر، وإن الحجج في إثباتهما متماثلة، والطاعن في الإمامة كالطاعن في الرسالة، إن الإمامة أصل وليست بفرع، وإن الإقرار بها علم متقدم على كل فرض أتى به الشرع". انظر: علي أحمد السالوس: عقيدة الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية (الطبعة الأولى، القاهرة، دار الاعتصام، ١٤٠٧هـ) ص ٢٨ ــ ٣٣، وموسى الموسوي: الشيعة والتصحيح (الطبعة الأولى، أمريكا، المجلس الإسلامي الأعلى، ١٤٠٨هـ) ص ٩، وعرفان عبد الحميد: نظرية ولاية الفقيه (عمان، دار عمار، ١٩٨٩م) ص ٢٢.

(٢). مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، جـ١، ص ٥١، وعبد الرسول الموسوي: الشيعة في التاريخ (الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢م) ص ١٢.

(١). عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين (الطبعة الأولى، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٤م) جـ٧، ٢٩٣، وعلي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ٢، ص ١١٠.

لأن غاية هذه الطقوس العلنية هو حفظ كيان التشيع وإدامة التكاتف وجمع الشيعة حوله، وإلا اختفى التشيع، وقد قرر أهمية هذه الطقوس جمع كبير من علماء الشيعة، رادين بعنف عن أي محاولة من علماء الشيعة أنفسهم في محاربة هذه الظاهرة أو تلطيفها، ومن المؤسف ذكره أن سياسة السلطان عبد الحميد الثاني التي دعا فيها إلى الوحدة الإسلامية قد دعمت ومكنت التشيع، والأدهى من ذلك هو تشيع عدد من الجنود والشرطة الأتراك.(١)

ولم تظهر أي حلول جدية لمعالجة وتدارك هذا الخطر سوى معالجات بسيطة لا توازي حجم المشكلة والخطر الكامن فيها، من هذه المعالجات الجزئية تكثيف التربية السنية وزيادة التوعية الدينية في أوساط القبائل الجنوبية، وننبه هنا أنه برغم تزايد عدد المتشيعين بين القبائل الجنوبية وقليل من القبائل الوسطى إلا أن نسبة الشيعة لم تزد على ٤٠% على أكبر تقدير حسب تقدير أحد المسؤولين العثمانيين (سليم درنجيل)، وأن زيادة عدد الشيعة كان في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين.(٢)

الشيعة في عهد الاحتلال البريطاني:

مع بواكير الحرب العالمية الأولى وشروع أوربا باقتسام تركة الرجل المريض شكّل المراجع الشيعية جيشا كبيرا من جنوب العراق لمواجهة أي غزو، ودخلت القوات البريطانية العراق سنة ١٩١٤م ولم تفعل المقاومة شيئا حتى سنة ١٩١٨م حين اكتمل احتلال العراق على يد الإنكليز، وانتهى حكم الدولة العثمانية في العراق وغيره إلى الأبد، أصبح العراق محتلاً من البريطانيين وزال عنه حكم السُنة، وكان هذا الوضع هو ما ينتظره الشيعة، ولكون إيران محتلة أيضاً من بريطانيا ومراجع الشيعة قد جهزوا أنفسهم منذ فترة للعمل السياسي ولقيادة العراقيين سنة وشيعة، سعوا لمعارضة الاحتلال والظهور بروح الوطنية من أجل غاية عظمى؛ ألا وهي قيام دولة شيعية في العراق(٣)، حيث للشيعة مراجع تقودهم، وظهر للجميع (السنة والشيعة)

---

(١). عبد العزيز المحمود: جهود علماء السنة في الرد على الشيعة، القسم الثالث.

(٢). إسحاق النقاش: شيعة العراق (بيروت، دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٦م) ترجمة: عبد الإله النعيمي، ص ٦٩.

(٣). وهذا دأب الشيعة دائماً عندما يحكمون من قبل غيرهم يتآمرون مع كل أحد ضد حكامهم، فإذا تمكنوا من الحصول على هدفهم بإقامة الدولة الشيعية أظهروا الوطنية الزائفة! وهذا ما فعلوه بالعراق اليوم؟! تآمروا على العراق وأدخلوا الأمريكان للعراق فلما تهيأت لهم الظروف، طالبوا برحيل المحتل ليكون الأمر لهم خالصاً ويبيدوا السنة؟!

قوة المجتهد الشيعي وصلاحياته في تعبئة أصحابه في الجنوب والوسط، أما السنة فقد فقدوا مرجعيتهم بانهيار الدولة العثمانية، وبذلك تكونت أربع قوى كانت تتصارع على حكم العراق بعد زوال الحكم العثماني وهي:

السنة: وقد تغيرت بوصلة الأحداث فقد فقدوا الدولة العثمانية المرجع الرسمي لهم، وفرح بعضهم لأن حال الدولة العثمانية لا يسر فهي دولة ظالمة ضعيفة غير متحضرة كسائر الأمم، تفرض على الشعوب العربية اللغة التركية، ومتعلقة بالدين شكلياً.

الشيعة: تخلصوا من الدولة العثمانية السنية واستطاعوا الاقتراب من حلم دولة شيعية في العراق يقودها المراجع الشيعية، كما أنهم يريدون إبعاد الإنكليز ليصفى لهم العراق وإيران لذلك كان الإنكليز معوق لحلمهم، وقد توافقت أحلام بعضهم وطموحاتهم مع طموح عوائل أشراف مكة والذين وعدهم الإنكليز بدولة عربية بدل الحكم العثماني، وكان المرشح لذلك الأخوان عبد الله وفيصل أبناء الشريف حسين بن علي صاحب الثورة العربية الكبرى، هذه الأحلام شجعت الشيعة بالتوافق مع حلم الأشراف ليكونوا دولة سنية الظاهر شيعية المضمون، إذ اتفقوا مع عبد الله بن الحسين أن يعين ملكاً بدستور يضعه مجتهدي الشيعة، وهكذا يضمنون عدم انقلاب الملك السني عليهم.

الأشراف: وقد مر الحديث عن هدفهم، وفقدوا أملهم بوعود الإنكليز لذلك أرادوا جهة معينة للتحالف معها للتخلص من الإنكليز في العراق فوجدوا الشيعة خير معين لهم.

الإنكليز: محتلون حلمهم السيطرة على العراق وإيران وقد تعارضت مصالحهم مع الشيعة؛ لأن كلاهما يريد العراق له، وأحسوا أنهم لا يستطيعون البقاء في العراق إلى الأبد، ولابد من السيطرة على العراق وإيران معاً، وأن الشيعة تقووا بإعلان الرئيس الأمريكي ولسن حول منح الشعوب حق تقرير المصير، وهذا ما جعل الشيعة يراسلون الرئيس الأمريكي لإحراج الإنكليز.

الشيعة في العهدين الملكي والجمهوري:

قرر الإنكليز تتويج فيصل ملكاً على العراق ولكن بعيدا عن الشيعة، ورضي فيصل بهذا فقد حقق هدفه، وفشل مخطط المراجع لطرد الإنكليز وتولي أمر العراق بيدهم من النجف، قال مسؤول بريطاني معلقاً على ذلك: "إن للأجيال اللاحقة من ساسة العراق أن يقدروا الجميل

الذي يدينون به للبريطانيين في إنقاذهم من النجف"[١]، لقد كان هدف الشيعة هو السيطرة على الحكم في العراق بواسطة المرجعية، ولكنهم بلطف الله فشلوا في ذلك، ولو حاولت أن تتخيل الشيعة وهم يسيطرون على مقاليد الحكم في العراق آنذاك ماذا كانت ستكون أحوال اليوم في المنطقة؟! واختار الإنكليز عبد الرحمن النقيب[٢] كرئيس للوزراء تحت حكم المندوب السامي بعد أن عرضوا ذلك على المجتهد اليزدي[٣] فرفض! بيد أن الخسارة كانت على الشيعة، فلم يتوقف جهد المراجع عند حد رفض المشاركة أو المساهمة في تشكيل الوزارة، بل تعدت جهودهم إلى حد أنهم حرموا التعامل مع البنوك والمصارف العامة والمحاكم الشرعية، باعتبار أنها دولة غير إسلامية، وأن أموالها التي تقدمها كرواتب هي أموال محرمة لأنها بالأصل من ضرائب غير شرعية خاصة تلك التي تستوفى كضرائب من أماكن اللهو، والمكوس على الخمر.

كما حرموا الدخول في مدارس الدولة، وهي المفتاح للعمل في مؤسساتها المختلفة، باعتبار أنها تعلم العلوم الغير شرعية التي يمكن أن تؤثر على إيمان الدارس وتبعده عن دينه، وظلت بعض هذه التحريمات قائمة وسارية المفعول إلى نهايات السبعينات وأواسط الثمانينات من القرن الرابع عشر، بعد أن خرج الأمر عن طوع المراجع وتوجه الشباب من الشيعة نحو الوظائف الحكومية غير أبهين بتلك الفتاوى، فتم تجاوز تحريم الراتب بحيلة شرعية باعتبار أن هذه الأموال مجهولة المالك، بما يعني جواز استلام الراتب الشهري. ويبدو أن بعض المراجع لا يريد أن يمرر هذه الفرصة بدون الاستفادة منها بالمطالبة بتطهير هذه الأموال أو الرواتب المستلمة من الحكومة، عبر تقديم الحقوق الشرعية منها للمراجع!!

اعتقد أن اعتماد رجال الدين والمراجع على الهبات العامة من أنصارهم ومؤيديهم لم يكن هو العامل الوحيد الذي يقف وراء محاولة عزل الشيعة عن دولتهم، بل هوية المراجع الشيعية التي كانت في الغالب تنحدر من أصول ايرانية، وهي إما أنها تعكس سياسة عامة متفق عليها

(١). إسحاق النقاش: شيعة العراق، ص ١٢٧.

(٢). نقيب أشراف بغداد، ، ومن المقربين للسلطان عبد الحميد الثاني وفي عام ١٩٢٢م اختير عبد الرحمن النقيب الكيلاني أول رئيس وزراء في المملكة العراقية. انظر: مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث، ص ٥٧ ـ ٦٦.

(٣). محمد كاظم عبد العظيم الطباطبائي، أحد مراجع الشيعة الكبار المعروف بعميل الانكليز أو الملا الإنكليزي وكان يتهرب عن دعم ومؤازرة المطالب الشعبية العراقية بالاستقلال؛ وتعيين حاكم عربي مقابل توجهات قوى الاحتلال البريطاني لتعيين حاكم بريطاني في العراق، توفي سنة ١٣٣٧هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٧، ص ١٢.

لاستلاب شيعة العراق من هويتهم العربية، أو أنها تعود إلى عامل نفسي خاص يعود لحالة الشعور بالغربة من قبل المرجع في بيئة بعيدة عن بيئته (إيران)، فيمضي لا شعورياً وراء عملية العزل هذه في اندفاعة لا شعورية للامتزاج بما حوله تخلصاً من مشاعر الغربة هذه، وبما يحقق لهم السيطرة على أبناء الطائفة، والاستقواء بهم على الحكومة[1]، وبما أن الكثير من مراجع الشيعة كان ينتمي إلى أصول فارسية فقد سهل على الحكومة العراقية التي رفعت راية القومية العربية أن تعزلهم عن المجتمع العراقي وتمنعهم من التدخل في الشؤون السياسية العراقية.

وفي العهد الجمهوري ـ البعثي عادى شاه إيران محمد رضا بهلوي العراق ودعم حزب الدعوة وأهم من ذلك كله دعمه لأكراد العراق حتى أنهك الدولة العراقية بعد حرب دامت أكثر ٤٠ سنة اضطر العراق أن يعقد اتفاقية الجزائر مع الشاه بإيقاف دعمه للأكراد مقابل حصوله على جزء من شط العرب وحصل ذلك سنة ١٣٩٥هـ، كما لا يفوتنا ذكره أن حزب البعث قام بإعدام مجموعة من قيادات حزب الدعوة منهم عارف البصري ومجموعة من قيادات الحزب وذلك سنة ١٣٩٤هـ، وكانت هذه نكسة من نكسات الحزب، وسلك من بعدها حزب الدعوة طريقا آخر غير المواجهة لبناء خلاياه ولكن كانت وتيرة تطوره سريعة، وحدثت انقسامات داخل حزب الدعوة فقد تشكل لجنة العراق بقيادة علي الكوراني ومحمد هادي السبيتي وذلك سنة ١٣٩٥هـ، وفي سنة ١٣٩٧هـ حدث انشقاق آخر في لجنة العراق فقد استلم خط البصرة بقيادة عبد الأمير المنصوري ولجنة العراق بقيادة السبيتي، وفي سنة ١٣٩٨هـ بدأ التيار الفارسي غير العراقي وبالتنسيق مع خميني بالالتفاف على حزب الدعوة حيث قام الشيخ محمد مهدي الآصفي بالسفر الى باريس ولقاء خميني وتقديم الطاعة له، وتسلم الآصفي لجنة البصرة وأراد نقل قيادة الحزب داخل إيران ولكن قيادة الدعوة رفضت ذلك، كما نشط حزب الدعوة وكون خلايا في جنوب البلاد ووسطه وقليل في الشمال وحتى خلايا نسائية كما جند الشيعة بعض الشباب، وبدأوا بتكوين خلايا عسكرية مدربة.

وحدث حدثٌ غير وجه العراق ما زلنا حتى الوقت الحاضر نعيش تأثيراته وهي: الثورة الإيرانية ومجيء حكم شيعي ديني (نظام الملالي) داخل إيران بقيادة خميني، ولذلك فرح حزب البعث بثورة خميني وأرسل صدام برقية تهنئة لمهدي بازركان رئيس الوزراء الإيراني (بانتصار الثورة

---

(١). موسى الحسيني: الشيعة والحكم في الدولة العراقية الحديثة، على الرابط: http://www.mafhoum.com

الإيرانية المجيدة على نظام الشاه)، وكان عداء الحزب للشاه دفعهم لتقوية ودعم الخط الديني الشيعي الإيراني دون أي حساب لما ستؤول إليه الأمور لضعف الحسابات الدينية والتركيز على فكرة الشعوبية (لأنها الفكرة الوحيدة في عقل القوميين تجاه الفرس) والحقيقة أن إيران تحمل في طيات مشروعها توجه مذهبي طائفي مع توجه قومي (تصدير الثورة) وهي من الأسباب الرئيسة لنشوب الحرب العراقية الإيرانية في بداية القرن الخامس عشر الهجري، ولقد وقف شيعة العراق ـ في هذه الحرب الضروس ـ مع الفرس الصفويين في خندق واحد ضد أبناء جلدتهم من العراقيين.[١]

محمد ﷺ في عقيدة الشيعة:

تعرضت مصادر السيرة النبوية خصوصاً والتاريخ الإسلامي عموماً لدى كثير من الطوائف الإسلامية عبر تاريخها الطويل إلى دس منظم وكيد محكم؛ نتج عنه هذا العداء الكبير والافتراق الخطير في واقع الأمة الإسلامية حتى الوقت الحاضر، وقد كان لكتب الطائفة الشيعية الإمامية النصيب الأوفر من هذا الدس والكيد، ويتبين ذلك في الروايات التي تسللت إلى مصادرها التاريخية التي أساءت إلى الله ﷻ وإلى كتابه وإلى ملائكته وإلى رسوله ﷺ وإلى آل بيته؛ بل وإلى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؛ بل وإلى البشرية جمعاء... كل ذلك بدعوى: (حب آل البيت) وهم يعتقدون أن ذلك هو دين الله ﷻ.

وقد كان موسى الموسوي من علماء الشيعة المعاصرين أحد الذين أعلنوا هذه الحقيقة في العصر الحاضر؛ واعترف بذلك الدس في كتب الطائفة الشيعية وما نتج عنه من إساءة إلى دين الله ﷻ وقام ذلك العالم الجليل بجهود عظيمة موفقة لكشف هذا الدس ودعوة إخوانه من الشيعة إلى مراجعة كتبهم لتفنيدها وتنقيتها مما تسلل إليها من الروايات المكذوبة المختلقة، وكان مما قاله: "إن المتتبع المنصف للروايات التي جاء بها رواة الشيعة في الكتب التي ألفوها بين القرن الرابع والخامس الهجري يصل إلى نتيجة محزنة جداً **وهي أن الجهد الذي بذله بعض رواة الشيعة في الإساء إلى الإسلام لهو جهد يعادل السموات والأرض في ثقله، ويخيل إليَّ أن أولئك لم يقصدوا من رواياتهم ترسيخ عقائد الشيعة في القلوب بل قصدوا منها**

---

(١). عبد العزيز المحمود: جهود علماء السنة في الرد على الشيعة، القسم الخامس.

الإساءة إلى الإسلام وكل ما يتصل بالإسلام، وعندما نمعن النظر في الروايات التي رووها عن أئمة الشيعة وفي الأبحاث التي نشروها في الخلافة وفي تجريحهم لكل صحابة الرسول ﷺ ونسفهم لعصر الرسالة والمجتمع الإسلامي الذي كان يعيش في ظل النبوة لكي يثبتوا أحقية علي ﵁ وأهل بيته بالخلافة ويثبتوا علو شأنهم وعظيم مقامهم نرى أن هؤلاء الرواة ـ سامحهم الله ـ أساءوا للإمام علي ﵁ وأهل بيته بصورة هي أشد وأنكى مما قالوه ورووه في الخلفاء والصحابة، **وهذا كله تشويه يتصل بالرسول الكريم ﷺ وبعصره مبتدئاً بأهل بيته ومنتهياً بالصحابة، وهنا تأخذني القشعريرة وتمتلكني الحيرة وأتساءل: أليس هؤلاء الرواة من الشيعة ومحدثيها قد أخذوا على عاتقهم هدم الإسلام تحت غطاء حبهم لأهل البيت؟!**
ماذا تعني هذه الروايات التي نسبها هؤلاء إلى أئمة الشيعة وهم صناديد الإسلام وفقهاء أهل البيت؟ وماذا تعني هذه الروايات التي نسبوها إلى أئمة الشيعة وهي تتناقض مع سيرة الإمام (علي) وأولاده الأئمة وكثير منها يتناقض مع العقل المدرك والفطرة السليمة؟ وإنني لا أشك أن بعضاً من رواة الشيعة ومحدثيها ومن ورائهم بعض فقهاء الشيعة قد أمعنوا في هذا التطاول على أئمة الشيعة وفي وضع روايات عنهم عندما أعلن رسمياً بحدوث الغيبة الكبرى، ونقل عن الإمام المهدي في قوله: "من ادّعى رؤيتي بعد اليوم فكذبوه".[1]

ولم تزل كتب الشيعة في القرن الرابع عشر الهجري تتوارث ـ هذه الروايات ـ وهي مليئة بانتقاص الرسول ﷺ سواء بذلك انتقاصهم من خلال الطعن في أزواجه أو من خلال الطعن في أصحابه أو من خلال الطعن في شخصه ﷺ، وفي كمال رسالته ﷺ، بل وإيذاؤه في أهل بيته ﷺ، والطعن في أصهاره وختنه ﷺ، ثم جاء من خلفهم خميني ليزيد الطين بلة بأن ينتقص من مقام رسول الله ﷺ فيذكر أنه لم يحقق الإنصاف الإلهي مع أن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء:١٠٥]، فالرسول ﷺ حقق الإنصاف الإلهي بما لا مزيد عليه وكل من حقق شيئاً من الإنصاف بعده فإنما حققه مقتدياً به، بينما الشيعة ينتقصون رسول الله ﷺ.

وسبق للخميني أن أنتقص من رسول الله ﷺ في تصريح نشرته مجلة (امباكت انترناشونال)

---

(١). موسى الموسوي: الشيعة والتصحيح، ص ١٢.

اللندنية، ومجلة (إيشيا) الباكستانية، وهما مجلتان كانتا صديقتين لخميني إلا أنهما استفظعتا منه هذا القول وردتا عليه بمقال عنوانه: (هذا نفي للإسلام وتاريخ الإسلام، أمر لا يحتمله حتى الأصدقاء؟!) تساءلت فيه: "إذا كان القرآن مستوراً فالإسلام مستور وملفوف، وتاريخ الإسلام في صدره الأول هو سيرة النبي ﷺ وأصحابه الكرام وآله الأطهار، فإذا لم يكن للنبي ﷺ سيرة، ولا لأصحابه تاريخ مشرق، ولا لآل بيته تراث يُستند إليه من الحكم، فعلى أي أساس يُبْنَى الحكم الإسلامي؟! سبحانك هذا بهتان عظيم"(١)، وكان خميني قد كتب فصلين في كتابه (كشف الأسرار) أحدهما في بيان مخالفة أبي بكر للقرآن(٢)، والآخر في مخالفة عمر لكتاب الله(٣)، فيهما من الكذب والافتراء والحقد على ائمة المسلمين ما لا يتصور وصفه من رجل يدعي العلم والمعرفة والدين، فقال في حق الشيخين: **"إننا هنا لا شأن لنا بالشيخين وما قاما به من مخالفات للقرآن ومن تلاعب بأحكام الإله، وما حلّلاه وما حرماه من عندهما، وما مارساه من ظلم ضد فاطمة ابنة النبي وضد أولاده، ولكننا نشير إلى جهلهما بأحكام الإله والدين.. إن مثل هؤلاء الأفراد الجهال الحمقى والأفاقون والجائرون غير جديرين بأن يكونوا في موضع الإمامة وأن يكونوا ضمن أولي الأمر".**(٤)

ووصف سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بأن أعماله: "نابعة من أعمال الكفر والزندقة والمخالفة لآيات ورد ذكرها في القرآن الكريم"(٥)، بل ذكر عن سبب عدم ورود ذكر الإمامة في القرآن الكريم وما قام به الشيخان في زعمه من اغتصاب للخلافة ما نصه: "من جميع ما تقدم يتضح أن مخالفة الشيخين للقرآن لم تكن عند المسلمين شيئاً مهماً جداً، وأن المسلمين إما

(١). أحمد مطلوب وآخرون: نهج خميني في ميزان الفكر الإسلامي (الطبعة الأولى، عمان، دار عمار، ١٤٠٥هـ) ص ٥٢، وسعيد حوى: الخمينية شذوذ في العقائد شذوذ في المواقف (الطبعة الأولى، عمان، دار عمار ، ١٤٠٧هـ) ص ١٧، نقلاً عن: مجلة إيشيا الإسبوعية الصادرة في مدينة لاهور باللغة الأوردية، عن الجماعة الإسلامية، في عددها الصادر في ١٤٠٤/١٢/٢٩هـ نقلاً عن مجلة امباكت انترناشيونال، الصادرة في لندن بتاريخ ١٩٨٤/٨/٢٤م.

(١). روح الله خميني: كشف الأسرار (الطبعة الثالثة، عمان، دار عمار، ١٩٨٨م) ترجمة: محمد البنداري، تعليق: سليم الهلالي، تقديم: محمد الخطيب، ص ١٣١ ـ ١٣٥.

(٢). نفس المرجع، ص ١٣٥ ـ ١٣٨.

(٣). نفس المرجع، ص ١٢٦.

(٤). نفس المرجع، ص ١٣٧.

كانوا داخلين في حزب الشيخين مؤيدين لهما، وإما كانوا ضدهما ولا يجرؤون أن يقولوا شيئاً أمام أولئك الذين تصرفوا مثل هذه التصرفات تجاه رسول الله وتجاه ابنته، (..) والخلاصة؛ حتى لو كانت لهذه الأمور ذكر صريح في القرآن فإن هؤلاء لم يكونوا ليكفوا عن منهجهم ولم يكونوا ليتخلوا عن المنصب".[١]

وفي كتابه الآخر (الحكومة الإسلامية) **فإنه حرص كل الحرص على أن لا يذكر اسم الشيخين وعثمان بن عفان ﷺ كلما اضطرته ضرورة التسلسل التاريخي، بل يقفز من ذكر الرسول ﷺ إلى علي بن أبي طالب ﷺ**[٢]، **ولكن الواضح من عقيدته التي نسوق نصوصها من كتابه الآنف الذكر؛ والتي معناها أن الرسول ﷺ قد عين عليّا وصياً وخليفة من بعده تقضي بالنتيجة أن الصحابة عصوا أمر الرسول وخالفوه واغتصبوا الخلافة وعينوا أبا بكر بدلاً منه**[٣]، ويقول خميني: "نحن نعتقد بالولاية، ونعتقد ضرورة أن يعين النبي خليفة من بعده، وقد فعل"[٤]، ويقول بعد قليل: "وكان تعيين خليفة من بعده عاملاً ومتمماً ومكملاً لرسالته"[٥]، ثم يوضح ذلك فيقول: "بحيث كان يعتبر الرسول ﷺ لولا تعيين الخليفة من بعده غير مبلغ رسالته".[٦]

من المعلوم أنه لم يبق بعد وفاة رسول الله ﷺ من المنافقين إلا نزر يسير، وهذا النزر اليسير قد أعطى سرهم لحذيفة بن اليمان ﷺ كي لا يلعبوا أي دور خسيس في الأمة الإسلامية ، ومن ذلك نشر الأكاذيب عن رسول الله ﷺ، لذلك فإن علماء هذه الأمة اعتبروا كل الصحابة في الرواية عدولاً، ونظرت الأمة إلى جيل الصحابة الذي أكرمهم الله ﷻ بصحبة نبيه ونصرة دينه وحمل أمانته نظرة احترام وتقديس، لأن الله ﷻ شهد لهم فقال تعالى: ﴿لَقَدْ

(١). روح الله خميني: كشف الأسرار، ص ١١٧.

(٢). روح الله خميني: الحكومة الإسلامية (الطبعة السادسة، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني ١٤١٢٥هـ) ص ٢٦، وص ٧١.

(٣). سعيد حوى: الخمينية شذوذ في العقائد شذوذ في المواقف، ص ١٧.

(٤). روح الله خميني: الحكومة الإسلامية، ص ١٨.

(٥). نفس المرجع، ص ١٩.

(٦). نفس المرجع، ص ٢٣.

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح:١٨]، وقال تعالى عن هؤلاء: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح:٢٦] وقد فهم أهل السنة والجماعة أن الصحابة لا يجترئ عليهم إلا زائغ، وذلك من قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح:٢٩].

قال الإمام مالك: "وبعض الشيعة كُفَّروا بموقفهم من عائشة رضي الله عنها واتهامهم إياها وقد برأها الله ﷻ"، وقال ابن كثير: "وبعض الشيعة لا يكتفون ببغض الصحابة وتفسيقهم وتضليلهم بل يزيدون على ذلك ويجهرون بالسوء في حق الصحابة ويخصون بمزيد من اللعن والسب أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وأبا عبيدة وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فإذا كان العشرة المبشرون بالجنة لا يسلمون منهم فما بالك بغيرهم؟! وأي اعتبار يبقى بعد الوقوع بإصحاب رسول الله ﷺ؟! فإذا كانت تربية الرسول ﷺ لم تصل بالناس إلى الكمال فما حال تربية غيره؟!

انظر إلى الكليني صاحب (الكافي) وهو يسوق رواية موثقة عندهم منسوبة إلى جعفر بن محمد الصادق تقول: "كان الناس أهل ردة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة، فقلت؛ من الثلاثة؟ فقال؛ المقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي"[(١)]، ويسوق في موضع آخر رواية ينسبها إلى الباقر وقد سأله أحدهم عن الشيخين: "ما تسألني عنهما، ما مات منا ميت إلا ساخطاً عليهما، يوصي بذلك الكبير منا الصغير، فهما ظلمانا حقنا ، وكانا أول من ركب أعناقنا، والله ما أُسست من بلية ولا قضية تجري علينا أهل البيت إلا هما أسسا أولها ، فعليهما لعنة الله

---

(١). أبو جعفر الكليني: الكافي (الطبعة السابعة، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٣ش) صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، جـ٣، ص ٨٥.

والملائكة والناس أجمعين"[١]، ويقول الكشي في كتابه (الرجال): "سأل الكميت بن زيد الإمام الباقر عن الشيخين فقال: يا كميت بن زيد! ما أُهريق في الإسلام محجمة دم ولا اكتسب مال من غير حِله، ولا نُكح فرج إلا وذلك في أعناقهما إلى يوم يقوم قائمنا".[٢]

وهذا الأمر مستفيض عند علمائهم وثقات محدثيهم من المتقدمين والمتأخرين أمثال ابن بابويه القمي، وشيخ الطائفة الطوسي، والشيخ المفيد، وابن طاووس، والأردبيلي، وأبو الحسن القمي، ومحمد باقر المجلسي الملقب عندهم بخاتمة المحدثين، وقد أورد المجلسي في كتابه (زاد المعاد) و(حق اليقين) و(بحار الأنوار) من الأكاذيب والحكايات في حق سادتنا أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وخالد بن الوليد ﭬ وغيرهم ما نتأدب عن نقله.

هذا هو الشوذ بعينه الذي يخرج قائله عن دائرة الإسلام، فإن هؤلاء وقعوا في الضلال والإضلال، وشاركوا أهل الكتاب فيما نهاهم الله ﮎ بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

ومن كتاب السيرة النبوية في هذا الاتجاه نذكر الشخصيات التالية:

١) عباس القُمي وكتابه: كحل البصر في سيرة سيّد البشر ﷺ.

٢) هاشم الحسيني وكتابه: سيرة المصطفى "نظرة جديدة".

٣) روح الله خميني وكتابه: كشف الأسرار.

٤) محمد كاظم القزويني وكتابه: علي ﵇ من المهد إلى اللحد.

٥) علي الدشتي وكتابه: ٢٣ عاماً في دراسة السيرة النبوية المحمدية.

---

(١). أبو جعفر الكليني: الكافي، جـ٣، ص ١١٥.

(٢). أبو عمرو الكشي: معرفة أخبار الرجال (طبعة حجرية، إيران، المطبعة المصطفوية، د.ت) ص ١٣٥.

القمي[١] وكتابه كحل البصر في سيرة سيّد البشر ﷺ:

كثيرة هي كتب الشيعة ومؤلفاتهم التي تطعن بوقائع السيرة النبوية المتفق على صحتها، وتصور الرسول ﷺ وكأنه مغلوب على أمره، وتتهم الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ بالكذب والمكر والتضليل بل والكفر في كثير من الأحيان، وقد تفنن علماؤهم في القديم والحديث في اختلاق الأحاديث النبوية، والقصص والروايات الكاذبة وإلصاقها بالصحابة ﷺ، وينقل هذه الروايات عنهم من لا يقدر على تمييز الموضوع من الصحيح من المسلمين، أو ينقلها عنهم أعداء الإسلام كالمستشرقين والمستغربين وأصحاب الاتجاهات الهادمة.

ألف عباس القمّي كتابه: (كحل البصر في سيرة سيّد البشر ﷺ)[٢] في النصف الأول من القرن الرابع عشر الماضي، ولقي رواجاً واسعاً في أوساط الشيعة، وأغرى نجاح القمّي زملاءه ومن جاء بعده من الكتاب الشيعة إلى الكتابة في الإسلاميات وبشكل أخص في سيرة الرسول ﷺ وصحبه وآل بيته، ومن أشهر هؤلاء الكتاب: مرتضى العسكري، ونجم الدين العسكري، وباقر شريف القرشي، ومحمد كاظم القزويني، وجعفر مرتضى العاملي، وجعفر السبحاني، وسامي البدري، وعلي الكوراني، وغيرهم مما لا يتسع المجال لذكرهم.

فغايات ـ هؤلاء الكتاب ـ واحدة، التشكيك بالكتاب والسنة ومصادر السيرة النبوية ومروياتها، وتبني شبهات أعداء الإسلام، حول سيرة الرسول ﷺ وآل بيته وصحابته الأطهار ﷺ، نوجزها فيما يلي:

١) فهم ـ دائماً ـ يكتبون عن سيرة الرسول ﷺ، وإنسانيته، ورحمته، وعدله، ومساواته بين الناس، وعن الجانب الغيبي في الإسلام، وعن الوحي، والبعث، والنشور، والمعجزات، وخوارق العادات ... الخ، ويسقطون كل ذلك في شخص علي بن أبي طالب ﷺ.

---

(١). عباس بن محمّد رضا بن أبي القاسم القمّي، ولد عام ١٢٩٤هـ بمدينة قم، وفي عام ١٣١٦هـ سافر إلى النجف لإكمال دراسته، لازم شيخه حسين النوري الطبرسي؛ وأخذ يساعده في استنساخ كتابه المعروف: (مستدرك الوسائل)، وفي عام ١٣٢٢هـ ـ وبعد مرور عامين على رحيل أُستاذه الشيخ النوري الطبرسي ـ عاد إلى قم؛ بسبب تدهور وضعه الصحّي، وفيها انشغل بالتأليف والترجمة والوعظ والإرشاد، تُوفّي في ١٢/٢٣/ ١٣٥٩هـ بالنجف، وصلّى على جثمانه المرجع الديني السيّد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني، ودُفن في الصحن الحيدري. انظر: محمد أمين نجف: مركز آل البيت العالمي للمعلومات، على الرابط الكتروني: http://www.al-shia.org

(٢). عباس القمي: كحل البصر في سيرة سيد البشر (الطبعة الأولى المحققة، بيروت، دار الصفوة، ١٤١٣هـ).

٢) تمتاز مؤلفاتهم بالاعتماد على المحسنات البديعية، كالسجع والطباق والمقابلة، وشدة المبالغة في التصوير والوصف! لأنهم مهتمون باختلاق القصص والروايات والأكاذيب! كما يفعل القصاص في العصور الوسطى، أو كما يكتب الأدباء الغربيون عن الأساطير اليونانية والخرافات وقصص الخيال العلمي.

٣) لا يهتم هؤلاء الكتاب ـ والقمّي منهم ـ بسند الرواية، وبيان صحتها من ضعفها، وأهم المصادر التي يعتمدون عليها: كتاب الجامعة، كتاب الجفر، كتاب الديات، كتاب الصحيفة، وكتاب الصحيفة السجادية ... الخ.

يقول القمّي في مقدمة كتابه: "هذه رسالة مختصرة في أحوال سيد الأبرار، ونخبة الأخيار، محمول الأفلاك، ومخدوم الأملاك، صاحب المقام المحمود وغاية إيجاد كل موجود، شمس سماء العرفان وأس بناء الإيمان، فخر العاملين، وإمام المرسلين، سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد بن عبد الله خاتم النبيين صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الأطهرين من ذكر نسبه الطاهر، وولادته ورضاعه، وذكر ما اتفق في سني عمره الشريف **من وفاة جده عبد المطلب رضي الله عنه،** وتزويجه بخديجة رضي الله عنها، وهدم الكعبة المعظمة وبنائها ومبعثه ﷺ، **ووفاة أبي طالب** ﷺ، وغير ذلك، وذكر مكارم أخلاقه ﷺ وغزواته ووفاته، سميتها: (كحل البصر في سيرة خير البشر ﷺ)، ورتبتها على خمسة أبواب متوكلاً على ملهم الخير والصواب في كل باب".[(١)]

مما تقدم يتضح أن كتاب ـ القمّي ـ مختصر للسيرة النبوية من وجهة نظر شيعية، عرض فيه بعضاً من المغالطات التاريخية في السيرة ـ التي أُشبعت بحثاً ورداً ـ على أنها يقينيات ومسلمات لا تقبل البحث والنقاش، وسأنتخب بعضاً منها للدلالة على تشبث ـ الكاتب ـ بالروايات الغير الصحيحة والمنافية لما في السيرة النبوية الصحيحة جملة وتفصيلاً.

أولاً: موقف الكاتب من إرهاصات النبوة عند ميلاده ﷺ:

وحول ذلك يقول المؤلف: "روي عن الشيخ الصدوق بسنده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: "كان إبليس لعنه الله يخترق السماوات السبع، فلما ولد عيسى عليه السلام حجب، عن ثلاث سماوات، وكان يخترق أربع سماوات، فلما ولد رسول الله ﷺ حجب عن السبع كلها

(١). عباس القمي: كحل البصر في سيرة سيد البشر، ص ٥.

ورميت الشياطين بالنجوم وقالت قريش هذا قيام الساعة الذي كنا نسمع أهل الكتب يذكرونه وقال عمرو بن أُمية وكان من ازجر أهل الجاهلية انظروا هذه النجوم التي يهتدى بها ويعرف بها زمان الشتاء والصيف فإن كان رمي بها فهو هلاك كل شيء وإن كانت تثبت ورمي بغيرها فهو أمر محدث، وأصبحت الأصنام كلها صبيحة ولد النبي ﷺ ليس منها صنم إلا وهو منكب على وجهه، وارتجس في تلك الليلة إيوان كسرى وسقطت منه أربعة عشر شرفة وغاضت بحيرة ساوه وفاض وادي السماوة وخمدت نيران فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ورأى المؤبدان في تلك الليلة في المنام إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانسربت في بلادهم، وانفصم طاق الملك كسرى من وسطه وانخرقت عليه دجلة العوراء وانتشر في تلك الليلة نور من قبل الحجاز ثم استطال حتى بلغ المشرق، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا وأصبح منكوساً والملك مخرساً لا يتكلم يومه، وانتزع علم الكهنة وبطل سحر السحرة ولم تبق كاهنة في العرب إلا حجبت عن صاحبها ... الخ".[1]

وهذه كلها لم تثبت بطرق صحيحة، ولكنها مما اشتهر[2]، وما ثبت منها بطرق صحيحة، قوله ﷺ: "أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، رأت أمي حين حملت بي كأن نوراً خرج منها أضاءت له قصور بُصرى من أرض الشام"[3]، وجاء في رواية مرضعته السيدة حليمة السعدية عند ابن إسحاق[4] وابن سعد[5] وأحمد[6] والحاكم[7]، أن والدته آمنة قالت: "ووقع حين ولدته، وإنه لواضع يديه بالأرض، رافعاً رأسه إلى السماء". وفي رواية: أن أمه عندما ولدته وضع تحت بُرْمةٍ، كعادة أهل الجاهلية، فلما أصبحت نظرت إليه فإذا البرمة قد انفلقت ثنتين، وإذا

---

(١). عباس القمي: كحل البصر في سيرة سيد البشر، ص ٢٣ ـ ٢٨.

(٢). البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ) تحقيق: عبد المعطي قلعه جي، جـ١.، ص ١٢٦ ـ ١٢٩.

(٣). ابن حنبل: المسند، جـ٤، ص ١٢٧، وجـ٥، ص ٢٦٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب، ١٣٨٧هـ) جـ٨، ص ٢١٢ "إسناد أحمد حسن"، وابن إسحاق بإسناد حسن كما في سيرة ابن هشام، جـ١، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٤). ابن هشام: السيرة، جـ١، ص ٢١٩، من حديث ابن إسحاق بإسناد منقطع، وفيه فضالة، وهو ضعيف.

(٥). ابن سعد: الطبقات، جـ١.، ص ٢٠٢، بإسناد مرسل.

(٦). ابن حنبل: المسند، جـ٤، ص ١٨٤، بإسناد حسن.

(٧). الحاكم: المستدرك، جـ٢، ص ٦١٦، وصححه، وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

هو قد شخص بصره ينظر إلى السماء.[١]

ثانياً: موقف الكاتب من إسلام أبي طالب:

وقبل أن نبسط الحديث حول إسلام أبي طالب ذكر المؤلف ـ في كتابه هذا ـ تحت عنوان: (ذكر إرضاع الاظئار لنبينا المختار ﷺ) قائلاً: "روى الكليني عن الصادق عليه السلام قال: لما ولد النبي ﷺ مكث أياماً ليس له لبن فألقاه أبو طالب على ثدي نفسه فأنزل الله تعالى فيه لبناً فرضع أياماً حتى وقع أبو طالب على حليمة السعدية فدفعه إليها".[٢] **وهي رواية غريبة شاذة عجيبة لم أجدها في غير هذا الكتاب؟!**

"وقال أبو عبد الله عليه السلام **أن أبا طالب من رفقاء النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**، وقال عليه السلام إن إيمان أبي طالب لو وُضع في كفة ميزان، وإيمان الخلق في كفة ميزان لرجح إيمان أبي طالب على إيمانهم، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يعجبه أن يروي شعر أبي طالب وأن يدون وقال تعلموه وعلموه أولادكم **فإنه كان على دين الله** وفيه علم كثير وقال أمير المؤمنين عليه السلام في رثائه إياه:

أبا طالب عصمة المستجير وغيث المحول ونور الظلـــم

لقد هد فقدك أهل الحفاظ فصلى عليك ولي النعــــــم

ولقاك ربك رضوانــــــــــه فقد كنت للطهر من خير عم[٣]

يحسن بي الرد العلمي الهادي بلا تشنج ولا تعصب ولا هوى إحقاقاً للحق ودحضاً للباطل إن الباطل كان زهوقاً، فأورد كلاماً للأستاذ الدكتور مهدي رزق الله أحمد في كتابه الرائج (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية) حيث قال: "مات أبو طالب سنة عشر من المبعث، بعد الخروج من الشعب بزمن يسير، وقيل توفي في رمضان، قبل خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام، وقبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل كان بين وفاته ووفاة خديجة شهر وخمسة أيام.

---

(١). ابن سعد: الطبقات، جـ١، ص ١٠٢، مرسلاً أبو نعيم: دلائل النبوة (الطبعة الثانية، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٦هـ) جـ١، ص ١٣٨، البيهقي: الدلائل، جـ١، ص ١١٣، بإسناد مرسل لا بأس به كما ذكر طرهوني في صحيح السيرة النبوية المسماة: السيرة الذهبية (الطبعة الأولى، القاهرة، دار ابن تيمية، ١٤١٠هـ) جـ١، ص ٢٨٦.

(٢). عباس القمي: كحل البصر في سيرة سيد البشر، ص ٢٨، نقلاً عن الكافي للكليني: جـ١، ص ٤٤٨، ح٢٧.

(٣). نفس المرجع، ص ٧٧.

وقد ثبت في الصحيح أنه مات كافراً على الرغم من حمايته للرسول ﷺ طوال حياته، فقد روى البخاري ومسلم عن ابن المسيب أن الرسول ﷺ دخل على أبي طالب عندما حضرته الوفاة، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال له النبي ﷺ: "يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله" فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: "يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟!" فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: "أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك" فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣] الآيتين، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

وروى مسلم أيضاً بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمِّه: "قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة"، قال: "لولا أن تعيرني قريش، يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك"، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] وروى مسلم وعبد بن حميد وأحمد، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وفي رجليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه". واللفظ لابن حميد. ومن ألفاظ مسلم: "، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه"، وفي رواياته له: "، وهو منتعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه".(١)

أما الروايات التي تدل على أن أبا طالب قد نطق بكلمة الإسلام عند موته فلم يصح منها شيء، وما في الصحيح صريح على وفاته كافراً، فلا يعارض.(٢)**، وسبق القول إن موت أبي طالب كافراً كان لحكمة يعلمها الله ﷻ، ولقد شاء الله ﷻ أن لا يُسلم أبو**

---

(١). مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية على ضوء المصادر الأصلية، جـ١، ص ٢٥٧.

(٢). من ذلك رواية ابن إسحاق في أن العباس رأى أبا طالب يحرك شفتيه فأصغى إليه وسمعه يقول ما أمره الرسول ﷺ، ففي سند ابن إسحاق من لم يُسمْ، انظر: السير والمغازي، ص ٢٣٨، وعن غير هذه الرواية انظر: رد ابن حجر في الفتح، جـ١٥، ص ٤١، وفي الإصابة، جـ٤، ص ١١٦ ـ ١١٩، على من قال من الرافضة بإسلامه، ورد الذهبي في السيرة، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٦.

طالب، ويموت قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات، حتى لا يتوهم أحد أنه له مدخلاً في دعوة الرسول ﷺ، أو يظن أن المسألة قبيلة أو أسرة وزعامة ومنصب، وربما هناك حكم يعلمها الله ولم نتوصل إليها.

ويورد مهدي رزق الله في كتابه الآنف الذكر رواية من الواجب الاستئناس بها، فيقول: "يروى أن أبا لهب حمى الرسول ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب ونال من أبي الغَيْطَلة عندما سب رسول ﷺ، واحتالت قريش عليه ليرفع حمايته عن الرسول ﷺ فأرسلت عقبة بن أبي معيط وأبا جهل إلى أبي لهب ليسأل الرسول ﷺ عن عبد المطلب، فقال له الرسول ﷺ: "مع قومه"، فخرج إليهما أبو لهب وقال: "قد سألته، فقال: مع قومه، فقالا: يزعم أنه في النار فقال: يا محمد! أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله ﷺ: "ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار، فقال أبو لهب: والله لا برحت لك عدواً أبداً، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار"، واشتد عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه ﷺ[1]، **فليشهد العالم كيف كان ﷺ صريحاً، لا يجامل ولا يميّع قضية الإسلام مهما كانت النتائج.**

---

(١). مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية على ضوء المصادر الأصلية، ص ٢٥٨، وعلق على هذه الرواية فقال: ذكره ابن كثير في البداية، جـ٣، ص ١٤٧، وعزاه إلى ابن الجوزي، ولم يسقه بكامل الإسناد حتى يتم الحكم على إسناده، وكل ما يمكن قوله الآن هو أنه لو كان صحيحاً لقطع الخلاف الدائر بين الفقهاء حول حكم أهل الفترة.

هاشم الحسيني[(١)] وكتابه سيرة المصطفى.. نظرة جديدة:

في الحقيقة إن كتاب السيد هاشم معروف الحسيني ضخم، ويقع في أكثر من ٧٧٦ صفحة، وقد طبع طبعات مختلفة، والتي بين يدي الآن واعتمدت عليها في العرض والمناقشة هي طبعة دار التعارف في بيروت، لعام ١٤١٦هـ.

لم يخرج ـ الحسيني ـ في سيرته عن الإطار التقليدي السائد فقد جاء بحثه حولياً، وقد مهد لبحثه بمقدمة عن حياة العرب وأحوالهم نقتطف منها ما يلي: "يشتمل هذا الكتاب على عرض سريع لتاريخ العرب والقرشيين وأحلافهم قبل ظهور الإسلام، وما رافق ذلك من أحداث تتعلق بالكعبة وغيرها، كما يعرض سيرة النبي ﷺ منذ ولادته إلى أن أختاره الله إليه، والمراحل التي مر بها في صباه وشبابه، وسيرة الدعوة منذ أن بزغ فجرها في مكة إلى أن تكاملت حروبه وغزواته وما يتصل بذلك من الحوادث التي رافقت مسيرتها مع دراسة موضوعية لأهم جوانبها، ومحاولة جديدة لكشف بعض الحقائق التي تجاهلتها أكثر المؤلفات في السيرة النبوية، معتمداً في ذلك على أوثق المصادر الإسلامية وغيرها".[(٢)]

ونفى أن تكون حياتهم كما صورها بعض الباحثين خالية من الإبداع والحضارة والقيم[(٣)]، ولكنه بالغ في ما وصفه بالتحرك العربي للإصلاح وقد خصص فصلاً كاملاً لبيان ذلك[(٤)]، والحقيقة أنه بنى ذلك على معطيات لا تفي بالغرض، وهي بالأصل مرويات أهل الأخبار، وهي ليست ذات قيمة كبيرة تاريخياً كما هو المعروف ـ ومن وجهة نظره ـ ولعل موقفه من قصة نذر عبد المطلب ربما يوحي بالحذر، وقد يكون ناشئاً من طبيعة المصدر التاريخي الذي يعود إلى أهل الأخبار[(٥)]، **مع أنه في ـ كتابه هذا ـ يكاد يعتمد اعتماداً كلياً على مصدر**

---

(١). هاشم معروف الحسيني، ولد في بلدة جناتا قضاء صور في جبل عامل (لبنان) عام ١٩١٩م، هاجر إلى النجف وتتلمذ على يد علمائها، عاد إلى لبنان وتولى القضاء الشرعي وصار عضواً في المحكمة الشرعية الجعفرية العليا، كان من أبرز رجال الدين في عصره، له العديد من التصانيف في السيرة والفقه والعقيدة والحديث والتاريخ، توفي عام ١٤٠٤هـ. انظر: محمد خير رمضان يوسف: تتمة الأعلام للزركلي، ص ٢٩٩.

(٢). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة" (بيروت، دار التعارف، ١٤١٦هـ) ص ٥.

(٣). نفس المرجع، ص ١٣ ـ ٢٥.

(٤). نفس المرجع، ص ٢٦.

(٥). نفس المرجع، ص ٣٩ ـ ٤٠.

واحد وهو تاريخ اليعقوبي.

وعلى الرغم من الحس النقدي الذي تميز به السيد الحسيني في كتابه، فإنه لم يتردد في تسجيل بعض المقولات التاريخية السائدة دونما تحفظ، مثل العداء التاريخي بين الهاشميين والأمويين والأصل التكويني لذلك(١)، وحليمة السعدية وإبائها النبي ﷺ أول الأمر ليتمه ثم قبوله إذعاناً للأمر الواقع(٢)، وكذلك سجل ملاحظات غير ذات قيمة على عدد من المقولات التاريخية الذائعة الصيت، **ومن ذلك عمل النبي بالرعي ولم يستبعد أن يكون الأصل في ذلك روايات أبي هريرة ﷺ ولا يخفى على أحد عمله بالرعي وما يعنيه ذلك بالنسبة له أمام تعيير بعضهم له**، هذا فضلا عن طبيعة الاشياء التي تستبعد انشغال النبي ﷺ بعمل من هذا النوع وهو حفيد عبد المطلب وابن أخي أبي طالب، مع اهتمامهما به وخوفهما عليه.

أولاً: موقف الكاتب من مصادر السيرة النبوية:

السيد هاشم الحسيني كان همه كشف ما ألحق بالسيرة النبوية من زيف وتشويش على يد المحبين والاعداء والحاكمين ـ حسب تعبيره(٣)ـ ويبدو أنه تعامل مع مصادر السيرة بحذر منهجي على خلفية دوافع أصحابها وانتماءاتهم السياسية والمذهبية على حد زعمه فيقول: "وقبل أن أختم كلمتي أود أن أشير ولو بإيجاز إلى أن التأليف في السيرة النبوية قد تأخر إلى أواخر القرن الأول الهجري، وفي السنين الأخيرة منه ألف عروة بن الزبير المتوفي سنة ٩٢هـ وأبان بن عثمان المتوفى مطلع القرن الثاني وبعدهما ألف وهب بن منبه، وقبل نهاية النصف الأول من القرن الثاني ألف شرحبيل بن سعد، وابن شهاب الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وموسى بن عقبة، وابن إسحاق الذي ألف سيرته بناءاً لطلب المنصور العباسي كما جاء في بعض

---

(١). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة"، ص ٣٤.

(٢). نفس المرجع، ص ٤٢.

(٣). نفس المرجع، ص ١١.

المرويات، وفي أواخر القرن الثاني ألف فيها ابن هشام، واتخذ سيرة ابن إسحاق أساساً لكل ما كتبه في هذا الموضوع، كما ألف فيها في ذلك الوقت بالذات ابن سعد، والواقدي وغيرهم، وتوالت بعد ذلك المؤلفات في السيرة ولا تزال إلى يومنا هذا من شرقيين وغربيين، والانصاف يحتم علينا أن لا ننسى فضل أولئك الذين سبقوا إلى التأليف فيها وجمعوا شتاتها المبعثرة هنا وهناك من الصدور وغيرها ووضعوا النواة الأولى لكل ما جاء بعدهم من المؤرخين والباحثين **مع العلم بأنهم قد أضافوا إليها ما ليس منها إما عن حب وهوى، وإما عن حقد وسوء نية، بالإضافة إلى ذلك يجد الباحث في المؤلفات الأولى منها محاولة مقصودة لطمس بعض الحقائق وتحيزاً لأشخاص لا يعتمد على المنطق وحوادث التاريخ، ولكن ذلك لا يمنعنا من تسجيل حسناتهم إلى جانب ما اقترفوه من السيئات**".[١]

وقد ناقش في روايات الأذان والإقامة ودور عمر بن الخطاب ﵁ في ذلك، ورجح أن تكون من موضوعات الأمويين والمنافقين للإيحاء للمسلمين بأن التشريعات التي أتى بها رسول اللّه ﷺ كانت من وحي المنامات، وكان يشترك معه عمر بن الخطاب ﵁ في تشريعها[٢]، والملاحظ على نفيه أنه كان بدافع طائفي مذهبي شيعي مقيت، فقد أورد في مجال آخر الروايات التي تناقلتها بعض المصادر الشيعية وأدعت أن الصحابة ومنهم عمر وأبا بكر رضي الله عنهما شربوا الخمر بعد تحريمها، وذكر أن تحريم الخمر كان في عهد مبكر وقبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة كما أشار إلى روايات شرب حمزة ﵁ عم النبي ﷺ الخمر وكشف أنها من صنع الزهري وقد وضعها للأمويين على حد زعمه.[٣]

ثانياً: موقف الكاتب من الخوارق والمعجزات:

سجل الحسيني تحفظه على تضخم ملف الخوارق في السيرة النبوية وترهله، من دون أن يبالغ في نفي المعجزات والخوارق، ففي الوقت الذي نفى فيه عدداً من المعجزات والكرامات التي سطرتها بعض مصادر السيرة، وكمثال على ذلك، فإنه تعاطى بحذر مع حادثة شق الصدر فقد ردها إثباتاً أي على مستوى الأدلة دون أن ينفها ثبوتاً على مستوى الإمكان ومثل ذلك

---

(١). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة"، ص ١٠.

(٢). نفس المرجع، ص ٢٧١.

(٣). نفس المرجع، ص ٣٦٦.

حديث بحيرا الراهب فإنه لم يستبعد أصل القصة ولكنه نبه على طبيعة الاختلاق والوضع في التفصيلات، وقد ألمح إلى التشكيك فيها جماعة من المؤرخين منهم أبو الفداء في تاريخه الكبير[١] فهو يقصد ابن كثير صاحب (البداية والنهاية)، ثم يعلق على ما جاء في تاريخ الطبري فيقول: "إلى غير ذلك مما اشتملت عليه رواية الطبري في الكرامات والخصوصيات التي لم تتفق عليها المرويات حول هذا الموضوع، وهذا الاختلاف وإن كان بذاته من الدواعي التي تثير الشكوك حول هذه الحادثة، وبخاصة إذا نظرنا إلى أسانيد تلك المرويات وعرضناها على الأصول التي لابد من توفرها في الروايات المقبولة، إلا أن ذلك وحده لا يكفي لإنكار هذه الحادثة من أساسها واتهام القصاصين والمشوشين باختلاقها، لأن ما جاء في تلك المرويات هو من نوع الإعجاز والعقل لا يحيل ذلك ما دامت قدرة الله تتسع لما لا تحيط به العقول ولا تدركه الأوهام والظنون، وقد اقترنت حياة الرسول الأعظم بأكثر من حادثة من الحوادث التي لم يجد لها العالم والباحث تفسيراً بغير إرادة الله وليس ذلك عليه بعزيز".[٢]

وكذلك تحفظه على كرامات النبي ﷺ في سفره الى الشام في تجارة خديجة رضي الله عنها أو مع عمه أبي طالب، فيقول: "كما يدعي المؤلفون في السيرة النبوية من الكتاب القدامى أنه قد ظهر للنبي ﷺ في تلك المرحلة من الكرامات والفضائل مالا يدخل في حدود التصور، وهو مع تلك القافلة التي ضمت أعيان المكيين والقرشيين، **ولكن تلك المرويات على كثرتها وشهرتها بين المؤرخين والمؤلفين في سيرته لا يكاد يثبت منها شيء عند عرضها على أصول علم الدراية**، كما أشرنا إلى بعض عيوبها في كتابنا "الموضوعات في الآثار والأخبار"[٣]، ويجزم قاطعاً بأن أخبار تلك الرحلات بما اشتملت عليه من الكرامات، كانت من صنع أعداء الإسلام الذين أرادوا أن يفتحوا أبواب التشكيك برسالة محمد ونبوته عن طريق هذه الرحلات المتتالية واجتماعه فيها بالأحبار والرهبان كبحيرا وأمثاله من أبطال تلك الأساطير.[٤]

---

(١). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة"، ص ٥٣.

(٢). نفس المرجع، ص ٤٥

(٣). نفس المرجع، ص ٤٨.

(٤). نفس المرجع ، ص ٥٤.

ولكنه في السياق نفسه ذكر حادثة سجود الشجر للنبي ﷺ[(١)] **دونما تحفظ**، وقد رد على الشيخ محمد عبده تأويله لحادثة طير الأبابيل وتدميرها جيش أبرهة الحبشي، لأنه عدول عن ظاهر القرآن بغير شاهد ودونما مبرر علمي.[(٢)]

ثالثاً: موقف الكاتب من إسلام أبي طالب:

يعترف الكاتب بحبه الجارف واللامحدود لأبي طالب عم الرسول ﷺ؛ فيقول: "في عقيدتي ما ظُلم أحداً كما ظُلم أبا طالب، وما أساء المسلمون إساءة أفحش وأعظم من إساءتهم لمحمد ﷺ في عمه أبي طالب"[(٣)]، ثم أخذ يعدد ما قام به أبي طالب ـ في أكثر من موضع من كتابه ـ وزوجه وأولاده في سبيل الدعوة والذود عن ابن أخيه ﷺ وحمايته؛ حتى عرّض نفسه وبني هاشم للهلاك والفناء وما حصار الشعب عنا ببعيد، فهو أسطع نضال قام به أبو طالب ومعه بنو هاشم ضد كفار قريش، وأخذت قريش تصعّد أذاها ولكن دون جدوى، فوق ما قاله الحسيني آنفاً يعطي تبريرات وحيثيات جازمة حول إسلام إبي طالب، فيقول: "ولما بعثه الله نبياً **كان أول من صدق به** ودعا أولاده إلى متابعته وتصديقه، فلقد رآه لأول مرة يصلي وليس معه أحد من الناس سوى علي وخديجة فذهب مسرعاً إلى بيت أخيه العباس وولده جعفر في كفالته فدعاه وأخذ بيده إلى المكان الذي يصلي فيه النبي ﷺ وقال: صل جناح ابن عمك يا ولدي، ومضى يدعو إليه ويهيئ له الأنصار والأتباع على موقفه من آلهة قريش أو ادعاه إلى مهادنتها والسكوت عن عيبها، بل كان يأمر بني هاشم ويدعوهم إلى متابعته ونصرته.

فقد جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دعا بني عبد المطلب، وقال لهم: لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد واتبعتم أمره فاتبعوه وأعينوه ترشدوا، وروى هذه الوصية كل من ابن الجوزي في تذكرة الخواص، والنسائي في الخصائص، وصاحب السيرة الحلبية في سيرته، وغيرهم من المحدثين، فهل يمكن أن يتصور في حق أحد من الناس أن يتبنى فكرة، أو مبدأ، أو يتخذ ديناً ويناصر في الوقت ذاته أعداء فكرته ودينه بكل ما لديه من حول وطول، ويدعو الناس إلى ترك ما يؤمن به في قرارة نفسه.

---

(١). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة"، ص ١٥٤.

(٢). نفس المرجع، ص ٣٩.

(٣). نفس المرجع، ص ٢٠٣.

وإذا كان مشركاً كما يدعي الأمويون والعباسيون وأنصارهم من مرتزقة الشيوخ والمحدثين، وقد وجد جفوة من قريش وقطيعة اضطرته ومن معه في الشعب إلى أكل الأعشاب وورق الأشجار كما تؤكد ذلك جميع المؤلفات في السيرة، إذا كانوا يزعمون وقد أحاطت به تلك الظروف القاسية، فما الذي يمنعه أن يتكلم مع ابن أخيه ولو بلسان الاستعطاف والتمني عليه بأن يخفف ولو من لهجته مع آلهتهم، وما الذي يمنعه من ردع أولاده عن دين محمد، أو عتابهم على أقل التقادير وقد تسابقوا إليه منذ مطلعه، في حين ذكر أن أكثر الروايات قد اتفقت على أنه علم بنبأ الدعوة وأمر أولاده بمتابعتها، وقال لهم إن محمداً لا يدعوكم إلا إلى خير، وكان مع ذلك يبعث فيهم العزيمة والتصميم على المضي في الطريق الذي اختاروه واختاره لهم[(١)]، ونسب إلى محمد بن علي الباقر قوله: "لو وضع إيمان أبي طالب في كفة وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه"[(٢)]، كما نسب إلى علي بن موسى الرضا قوله لأبان بن محمود: "إنك إن لم تقر بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار"[(٣)]، وختم حديثه عن إسلام أبي طالب بالأبيات التالية:

ولولا أبو طالب وابنـــــه[(٤)]	**لما مثل الدين شخصا فقاما**
فذاك بمكة آوى وحامـى	**وهذا بيثرب جس الحمامـا**
وما ضـر مجـد أبي طالب	**جهول لغا أو بصير تعامـــى**
كما لا يضر آيات الصباح	**من ظن ضوء النهار الظلامـا[(٥)]**

وأخيراً يقرر بكلام لا مواربة فيه: "**وإني أستبعد على أي باحث يتحرى الحق أينما كان إذا استعرض تاريخ أبي طالب مع الدعوة الإسلامية منذ مطلعها إلى السنة التي توفي فيها استبعد عليه أن ينتهي إلى القول بأنه مات مشركاً على دين قريش إلا أن يكون أموياً أو ذنباً لمشركي الأمويين الذين أرادوا أن يغطوا شركه وشرك آبائهم بنسبة الشرك إلى أبي**

---

(١). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة"، ص ٢٠٤.

(٢). نفس المرجع، ص ٢٠٦.

(٣). نفس المرجع، ص ٢٠٥.

(٤). فأين نصر الله وتمكينه لنبيه، بل أين دور رسول الله ﷺ ؟!

(٥). نفس المرجع، ص ٢١٧.

طالب الذي أسلم بقلبه ولسانه وعمله منذ الشهور الأولى لبعثة النبي ﷺ"[١]، بعد كل هذا الحجج التي استدل ـ الحسيني ـ بها ليلوي أعناق النصوص، وليقنع القارئ كَرهاً بإسلام أبي طالب.

رابعاً: تضخيم الكاتب لدور علي بن أبي طالب ﷺ في السيرة:

وأول ما يلاحظه من يفرغ من قراءة كتاب الحسيني بتدبر وإمعان أن المؤلف اتخذ من سيرة الرسول ﷺ ستاراً لتعظيم دور علي بن أبي طالب ﷺ ودور أبيه وأبنائه، وأنصف لو سمى كتابه سيرة علي بن أبي طالب ﷺ من المهد إلى اللحد، وإن كان قد أسماه سيرة المصطفى ﷺ من المهد إلى اللحد؟![٢]، فعن ولادة علي ﷺ يقول: "وجاء في كثير من المرويات أن فاطمة بنت أسد لما وضعت علياً عليه السلام امتنع عن ثديها أياما ثلاثة فكان محمد ﷺ يغذيه من ريقه يلقمه لسانه فلا يزال في فمه حتى يرتوي ويشبع"[٣]، وعن ولادة الحسين ﷺ يقول: "جاء عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه كان إذا بكى يقول لفاطمة رضي الله عنها أن بكاءه يؤذيني فيأخذه ويضع إبهامه في فمه فيمتص منها، وفي رواية ثانية أنه كان يضع لسانه في فمه فيمتص منه ما يكفيه"[٤]، وراح المؤلف بعد استدلاله بهاتين الروايتين الملفقتين يتحدث بإسهاب عن سر تغذية الرسول ﷺ لعلي ﷺ من لسانه، انظر إليه يقول: "لقد تولاه الرسول بالتعليم وبث في روحه دقائق الحكمة وأسرار الكون والمعرفة، وبصره بخلق السموات والأرض، حتى أدرك من الحقائق ما لم يدركه بعد الرسول إنسان سواه[٥]، ولم تكن فيه صفة إلا وهي مشدودة إلى صفة من صفات النبي العظيم، وما من شيء أنكره قلب النبي من أحوال الجاهلية وسيئاتها إلا وأنكره قلب علي عليه السلام، وأدرك ما يحيط بهذا الكون من حقائق وجوده ونواميس بقائه، وهو القائل لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة بسبع سنوات ".[٦]

---

(٦). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة"، ص ٢٠٥.

(١). فكتب على غلاف عنوان الكتاب وهو: سيرة المصطفى "نظرة جديدة"، ومن الداخل كتب في المقدمة كتب عنوان آخر وهو: سيرة المصطفى من المهد إلى اللحد، انظر: هاشم معروف الحسيني: المرجع السابق، ص ٥.

(٢). نفس المرجع، ص ٨٠.

(٣). نفس المرجع، ص ٤٤٠.

(٥). ومما يعتقده الرافضة أن علياً والأئمة الاثني عشرية أفضل من أنبياء الله، ويستثنون رسول الله ﷺ من هذه الأفضلية.

(٦). نفس المرجع، ص ٨١، وهو قول باطل، فهل توقف النبي ﷺ عن الدعوة سبع سنين هو وعلي فقط؟!

وقال أيضا: "لقد أراد الرسول أن يغذي علياً ساعة وجوده في دنيا الناس التي غلب على أهلها الباطل والغدر والنفاق، أراد أن يغذيه من لسانه الذي لا يعرف غير الحق والصدق"[١]، ومتى كانت هذه التغذية ؟! لقد كانت قبل البعثة وقبل أن يكون محمد ﷺ رسولاً نبياً، ولا تسل ـ الحسيني ـ عن أسرار هذه التناقضات لأنهم أعدوا لكل سؤال الجواب الذي يناسبه، ولا يعجزهم وضع الأحاديث والروايات ونسبتها إلى رسول الله ﷺ، وإلى علي وأبنائه ﵃، وعن فضائل علي ﵁ يزعمون أنه قال عن نفسه: "أنا عبد الله وأخو رسول الله، وأنا الصديق[٢] الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب صليت قبل الناس سبع سنين"[٣]، كما تناول قضية غاية في الأهمية وهي سن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ حين إسلامه، وقد رجح أن يكون عمره يومذاك أربعة عشر عاما بناء على المعطيات التاريخية التي توكد أنه انضم إلى النبي ﷺ وهو ابن ثماني سنين وعاش معه سبع سنين إلى أن أتى جبريل النبي ﷺ بالوحي[٤]، وبهذه الحقيقة ينظر إلى الروايات التي اخترعها أكثر محدثي السنة بريبة ـ حسب زعمه ـ تلك التي حاولت الجمع بين إسلام علي ﵁ المبكر، وإسلام أبي بكر ﵁ المبكر أيضاً وفقاً لبعض الروايات فصنفوا علياً ﵁ أول المسلمين في الصبيان وأبا بكر ﵁ أول المسلمين في الرجال، ورداً على تخرصات بعض الحاقدين في التقليل من شأن اسلام علي ﵁ وهو صبي ابن سبع سنين كما يدعون.[٥]

وفي الفصل الرابع والعشرين يتحدث المؤلف عن الإمامة زاعما أن رسول الله ﷺ أوصى بها لعلي بن أبي طالب ﵁، ولكن كبار الصحابة خالفوا أمر رسول الله ﷺ واستأثروا بالخلافة، وهكذا يقف الرأي العام إلى جانب القوى الظالم، واستدل على صحة مقولته بقول ابن طائفته محمد جواد مغنية: "لقد بايع نفر قليل من المسلمين في بداية الأمر أبا بكر بالخلافة وساعدته الظروف والأوضاع على استجلاب الجماهير وتمت له السلطة دون غيره من الصحابة، وأصبح هو الآمر الناهي باسم خليفة رسول الله، فاستدل السنة بخلافة أبي بكر على صحة تلك البيعة

---

(١). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة"، ص ٨١.

(٢). أي لا يقولها بعد إسلام علي إلا كذاب ويقصدون أبا بكر ﵁.

(٣). هاشم معروف الحسيني: المرجع السابق، ص ١١٣.

(٤). نفس المرجع، ص ١٠٩ ـ ١١٤.

(٥). نفس المرجع، ص ١١٣.

لا بآية أو رواية ولا بإجماع أو عقل".[١]

خامساً: موقف الكاتب من الشيخين رضي الله عنهما:

ولو وقف ـ الحسيني ـ عند حدود تعظيم دور علي ﷺ لهانت المسألة.. لكنه تجاوز هذه الحدود وبالغ في شتم السابقين الأولين من اصحاب رسول الله ﷺ، وفي التشكيك بهم وتحقير أدوارهم في نصرة هذا الدين، فمن أدلة الكاتب على فشل أبي بكر ﷺ عجزه عن إقناع أبيه أبي قحافة وابنه عبد الرحمن، ويشكك في الروايات التي تقول بأن الزبير وعثمان وطلحة ﷺ أسلموا عن طريق أبي بكر ﷺ، **ونقل الكاتب عن أبناء طائفته أقوالاً كثيرة في تجريح أبي بكر ﷺ منها عقوقه لأبيه وكيف تركه فقيرا مدقعاً سيء الحال مع أنه على حد زعمهم ـ أي أهل السنة ـ كان محسناً واستمال إلى الإسلام جماعة بواسطة إحسانه وأمواله**[٢]، ويظهر ـ الحسيني ـ حقده الدفين على أبي بكر ﷺ فيبث سمومه قائلاً: "وموضع التساؤل فيما جاء في كتب السيرة من أن أبا بكر كان يشتري أولئك المعذبين ليخلصهم من ساداتهم، هو أن قريشا كانت تنكل وتعذب العبيد الذين آمنوا بمحمد وغيرهم من المستضعفين حتى لا ينتشر الإسلام وليكونوا عبرة ونكالاً لغيرهم، وكانت تود لو أن محمد ﷺ يساومهم على جميع ما يملكون ويتراجع عما جاء به ودعا إليه فكيف تتنازل قريش عن ملكيتهم لأبي بكر وتترك تعذيبهم، وما الذي يمنعها من تعذيبهم إذا أعتقهم أبو بكر أو غيره، في حين أنهم كانوا يتعمدون الإساءة لكل من ليس له عشيرة تمنع عنه بغيهم أو حليف يستجير به".[٣]

وفي مواضع كثيرة يتهم ـ الحسيني ـ أبا بكر ﷺ بالخوف والجبن، ويحاول تجريده من كل فضل ومكرمة، ففي هجرة الرسول ﷺ يسهب الحديث عن دور علي بن أبي طالب البطولي وكيف ضرب أروع الأمثلة في الفداء والتضحية.. ثم يقول عن أبي بكر ﷺ: **"في حين أن أبا بكر حين التجأ مع الرسول إلى الغار كان الرسول يطمئنه ويمنيه السلامة بواسطة الوحي ومع ذلك فلقد كان يبكي ويرتعش من الخوف وكان أن يفقد وعيه، والنبي يقول**

---

(١). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة"، ص ٦٧٣ ، ص ٦٨٢.

(٢). نفس المرجع، ص ١٢٠ ـ ١٢٣.

(٣). نفس المرجع، ص ١٤٧.

له: لا تحزن إن الله معنا"(١)**، وبعد هذا الاتهام يقول بخبث: "أقول ذلك مع تقديري لمكانة أبي بكر وصحبته المبكرة للرسول ﷺ".**(٢)

ويقول أيضاً: "فلم يحدث التاريخ عنه بأنه كان من ذوي البطولات والتضحيات الجسام في سبيل محمد ﷺ وقصة الغار واضطرابه الشديد وهو مع النبي يطمئنه ويخفف من جزعه واضطرابه خلال المدة التي قضاها مع النبي ﷺ في الغار تشهد بذلك"(٣)، وزعم ـ الحسيني ـ الخبيث أن أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما كانا من الفارين الذين التجأوا إلى الصخرة يوم أحد، وقال بعض من على الصخرة ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أُبي ليأخذ لنا أمانا من أبي سفيان، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم(٤)، وفي الفصل الخامس والعشرين يتحدث ـ الحسيني ـ عن جيش أسامة وأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا في جيش أسامة، فلماذا ضمهما الرسول ﷺ إلى هذا الجيش، وترك علياً في المدينة، مع أن تاريخهما معه في حروبه وغزواته لا يشهد لهما بالبطولات ولا يغنيان في ساعة الشدة عن شيء ؟!(٥)، ويجيب المؤلف على هذا السؤال زاعماً أن رسول الله ﷺ أبعدهما عن المدينة حتى لا يقع منهما توثب على الإمامة، ولذلك لم يجعل أمير المؤمنين علي في ذلك الجيش ليتم له الأمر بدون منازع".(٦)

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلط بين حياته قبل الإسلام وحياته بعده فقال: "كان حاد الطبع سريع لغضب ومن الأشداء في قريش على محمد وأتباعه"(٧)، وسخر ـ الحسيني ـ الحاقد من الروايات الصحيحة التي تتحدث عن مناقب عمر رضي الله عنه ومآثره الطيبة فقال: **"إن تاريخه قبل الإسلام وبعده خلال حروب النبي ﷺ وغزواته لا يعطيه شيئا من البطولات والتضحيات**

---

(١). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة"، ص ٢٥١.
(٢). نفس المرجع، ٢٥١.
(٣). نفس المرجع، ص ٢٥٤.
(٤). نفس المرجع، ص ٤٠٤.
(٥). نفس المرجع، ص ٦٨٩.
(٦). نفس المرجع، ص ٦٩٠.
(٧). نفس المرجع، ص ١٦٩.

في سبيل مصلحة الإسلام"[١]، ويستطرد المؤلف في الحديث عن موقف عمر بن الخطاب ﷺ بعد وفاة الرسول ﷺ فيزعم أنه لم يكن جاداً عندما قال إن الرسول ﷺ لم يمت، وقد استطاع بحيلته أن يسيطر على عدد كبير من الجماهير التي تنفعل بكل فكرة تعرض لها، وتستبد بها المحاكاة والتقليد الأعمى ويسقط العقل وسلطانه.. إن عمر بن الخطاب ﷺ كان أبعد الناس عن التعلل بمثل هذه الأوهام، ولم يتردد لحظة واحدة في وفاة النبي.. ولذا تخلف عن جيش أسامة، وحينما طلب النبي ﷺ دواة وقرطاسا ليملي عليهم عهده قال إنه ليهجر حسبنا كتاب الله.. ومضى ـ الحسيني ـ الحاقد في هذره عما أسماه مؤامرة دبرها عمر بن الخطاب ﷺ ليبعد الإمامة عن علي بن أبي طالب ﷺ، يضاف إلى هذا ما نقلناه من فقرات عند حديثنا عن أبي بكر يتهم فيها عمر بن الخطاب بالخوف والجبن.[٢]

أما عثمان بن عفان ﷺ فليس من السابقين الأولين، وليس صحيحاً أنه كان ينفق أمواله في سبيل الله، وفوق هذا وذلك فلقد كان جباناً ويذكر ـ الحسيني ـ المفتري أن عثمان ﷺ فر حينما بدأت معركة أحد حتى قطع شوطاً بعيداً ولم يرجع إلى النبي ﷺ إلا بعد ثلاث، كما كان ﷺ ـ على حد قول زعمه ـ مترفاً وقد سلط الأمويين والمروانيين على رقاب الناس يعبثون في الأموال والأعراض ويجاهرون بالمنكرات.[٣]

وعثمان ﷺ فر يوم أُحد لكن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [آل عمران:١٥٥] فلا يُضيره بعدما عفا الله عنه كلام آفاق رافضي أثيم.

وقصارى القول لم يسلم من تجريح الرافضي من الصحابة إلا علي، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وحمزة، وسلمان الفارسي ﷺ.. أما غير هؤلاء الصحابة فكان يهاجمهم بأسمائهم أو بتعميم حكمه وإطلاقه، ونختم بشهادة الأستاذ محمد سرور بن نايف زين العابدين في هذا الكتاب حيث فقال: "وإذن فلقد كذب ـ هاشم الحسيني ـ عندما زعم في مقدمة كتبه

---

(١). هاشم معروف الحسيني: سيرة المصطفى.."نظرة جديدة"، ص ١٧٢.

(٢). نفس المرجع، ص ٦٨٥ ـ ٧٠٣.

(٣). نفس المرجع، ص ١٤٠ ـ ١٤٢، وص ٤٢٠.

أنه سيكون في بحثه متجرداً حسن النية، ورغم ذلك كان يتهم كبار علماء الأمة من رجال القرون بعدم التجرد، كما كان يرميهم بسوء النية، ولله في خلقه شؤون!! إننا ــ أهل السنة ــ نتقرب إلى الله بحب علي بن أبي طالب ﵁ وعموم آل بيت رسول الله ﷺ، ولا يخالطنا شك بأن علياً أول من أسلم من الغلمان، ونعترف بشجاعته وعلمه وعدله وصدقه، ولا نفرق بين أحد من أصحاب رسول الله ﷺ إلا بالأسبقية والتقوى، أما الرافضة فلو كان يحبون رسول الله ﷺ لأحبوا أصحابه وآل بيته من نسائه أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وبعد كل هذا يقول الأستاذ محمد سرور زين العابدين: ومن المؤسف أن هاشم الحسيني ــ مع كل ما ذكره من أباطيل ــ ليس من غلاة المؤلفين الرافضة؟!".[1]

([1]). محمد سرور زين العابدين: دراسات في السيرة، ص ٣٥٠.

روح خميني[1] وكتابه كشف الأسرار:

من المفارقات العجيبة أن يعمد نفر ممن يتمتعون بلقب: **الكتاب الإسلاميين** يحاولون بكل نوع من أنواع التسويغ والتسطيح أن يجدوا الأعذار والمسوِّغات لخميني.. بل ويتجاهلون عن ـ عمد ـ كل هذه الحقائق والمعطيات والتي لا زالت تتوالى حتى الوقت الحاضر، ويحاولون أن يصوروا ثورة خميني ثورة الإسلام والمسلمين، ودولته دولة الحق والعدل والمساواة، والعجيب في هذا أن هؤلاء الكتاب لا يقرؤون إلا ظاهر السطور، ولا يرون ما بداخلها، وهم الذين عرفوا خطر الباطنية وأساليبها الماكرة الخبيثة التي تقوم على مبدأ التقية، الذي يعد عند القوم دين الآباء والأجداد، فيظهرون غير ما يبطنون، ويرفعون شعار الإسلام وهم أعداؤه، ويطالبون بالوحدة الإسلامية، وهم من دعاة العنصرية والشعوبية، ومن يقرأ التاريخ سيجد الشواهد العديدة التي تملأ كتب التاريخ عن هذا الأسلوب الخبيث الماكر، ورغم كل ذلك، لا يتفوَّهون بكلمة تنفي ما يعتقدونه، أو تبيِّن الرأي الجديد الذي خلصوا إليه..

فعلى سبيل المثال عمد الأستاذ فهمي هويدي في كتابه: (إيران من الداخل) إلى الزعم بأن خميني عندما كتب كتابه: (كشف الأسرار) كان متأثراً بأفكار الحوزة التقليدية الداعية إلى سب الصحابة وتكفيرهم ولعنهم، وكذلك الحال بالنسبة **لدعاء صنمي قريش**[2] وقد نشر في كتاب (تحفة العوام مقبول، مطبوع باللغة الأوردية، صفحة ٤٢٢) وعليه تواقيع (آيات الشيعة)؛ ومنهم خميني نفسه، وبدايته: "**اللهم العن صنمي قريش وجبتيهما وطاغوتيهما وأفكيها**

(١). روح الله خميني، وقد ولد في عام ١٣١٩هـ من أصل هندي، وصل خميني إلى العراق في عام ١٣٨٥هـ وبقي في النجف قرابة ثلاثة عشر عاماً حيث لم يغادرها إلا نهاية عام ١٣٩٨هـ إلى فرنسا، وعندما إنهار نظام حكم الشاه في أوائل ١٣٩٩هـ وُوفق عليه من قبل الجميع على أنه الزعيم الجديد للبلاد، غير أنه لا يشغل منصباً رسمياً في الدولة، وهو في الواقع الحاكم السياسي الوحيد الذي يفصل بين المراكز المختلفة للسلطة، وعلى أساس هذا الدور يظل خميني الزعيم الفعلي في إيران طيلة مدة حكمه الذي قاد إيران والمنطقة بأسرها إلى كارثة ليست بعدها كارثة ألا وهي حرب الثمان سنوات مع العراق. انظر: أحمد مهابة: إيران بين التاج والعمامة (الطبعة الأولى، القاهرة، دار الحرية، ١٤١٠هـ) ص ٢١٩، وآمال السبكي: تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (الكويت، عالم المعرفة، ١٤٢٠هـ) ص ٢٠٢.

(٢). فهو المصدر الوحيد الذي نشر صورة زنكوغرافية لصفحات من كتاب (كشف الأسرار) يلقب فيه مؤلفه الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما "صنمي قريش"، وهو الذي انفرد بإخبار القراء بأن المواطنين الشيعة إذا ما بدأوا رحلة بالسيارة أو عملاً يريدون مباركته استفتحوا بالصلاة على النبي؛ وقراءة الفاتحة ثم لعن الشيخين. انظر: فهمي هويدي: إيران من الداخل (الطبعة الرابعة، القاهرة، مركز الأهرام، ١٤١٢هـ) ص ١١٣.

وابنتيهما؛ الذين خالفا أمرك، وأنكرا وحيك، وعصيا رسولك، وقلبا دينك، وحرفا كتابك،"[١]، وقد حاول بعض الشيعة إنكار هذا الدعاء! ولكني أقول: أن آغا برزك الطهراني في كتابه (الذريعة، جـ٨، صفحة ١٩٢) ذكره، وقال: "إن شروحه بلغت إلى العشرة"، وهذا الكتاب مدحه خميني في كشف أسراره صفحة ١٠٦"[٢]، وليعلم القارئ أن من استحل لعن الشيخين رضي الله عنهما أو غيرهما من الصحابة ﷺ فهو كافر حلال الدم.

وكتاب خميني الآخر (تحرير الوسيلة) الذي لم يُجِزْ فيه الصلاة وراء الإمام السني.. وللإنصاف نقول: إن الأستاذ هويدي أشار في طبعات الكتاب بالعربية بعد عام ١٩٧٥م حُذِف فيها هذه الفتوى، ولكنه لم يذكر إن بقيت بالفارسية أم لا؟! وهل هذا من باب التقية[٣]؟! ويذكر الأستاذ هويدي أيضاً أن (كشف الأسرار) طبع بالفارسية في عهد الثورة وعليه صورة خميني! وعندما سأل رئيس مجلس الخبراء السابق علي المشكيني قال: "إنه طبع بدون موافقة الإمام خميني وعلمه؟! ونتساءل هنا: هل طبع دون موافقة المطبوعات؟ أو وزارة الإعلام؟ أو وزارة الأوقاف؟ على رسلكم أيها المتحمسون؟!

إن أحد المتحمسين لم يتعرض لآراء خميني في كتابه (الحكومة الإسلامية) عندما قال: "**إن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل؟!**"[٤] كم أعجبتني كلمة قالها الدكتور البوطي في أحدث كتبه عندما سأل عن هذه الأقوال، فقالوا له: إنها غلطة مترجم! وإذا بها تتكرر الطبعات، وتبقى غلطة المترجم! رويدكم أيها المتحمسون! ودعوا خميني يفسر أو يتلمس الأعذار لنفسه، ولا تكونوا ناطقين باسمه زوراً وبهتاناً..

إن لخميني بدعاً وضلالات كثيرة، كما أحيطت شخصيته بدعاوي ومظاهر لا صلة لها بالإسلام، وليس في المستطاع فضح كل هذه البدع في هذه الدراسة، ويكفي أن نشير إلى تلك المفتريات التي تجعل الخمينية بمثابة دين باطل جديد مثلها مثل البهائية والقاديانية والفرق

---

(١). ولعن الله مبغضهما والقادح في منزلتهما، بل هما السمع والبصر؛ رغم أنف خميني وأتباعه.

(٢). روح الله خميني: كشف الأسرار، ص ١٢٦.

(٣). التقية شريعة عند الشيعة، بل أصل الدين وهي فرض، ويعرفونها بأنها: "كتمان الحق وستر الاعتقاد به ومكاتمة المخالفين وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدنيا والدين". انظر: سامي محمد الصلاحات: معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء (الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٧هـ) ص ٧٠.

(٣). روح الله خميني: الحكومة الإسلامية، ص ٥٢.

الخارجة عن الإسلام بإجماع المذاهب الإسلامية، وأخيراً فإنني سوف أُركِّز في قراءتي لهذا الكتاب على أهم النقاط التي تعرض فيها لشخص النبي الكريم ﷺ، حتى نُكوِّن صورة واضحة عن عقيدة هذا الرجل في النبي الخاتم محمد ﷺ، ألا وهي:

ـ اتهام الرسول ﷺ بالفشل في تبليغ الرسالة!

ـ جبرائيل كان يأتي بأنباء الغيب لفاطمة بعد وفاة النبي ﷺ!

ـ الإمامة صنو النبوة!

ـ إحجام النبي عن التطرق للإمامة أدى إلى الخلافات بين المسلمين!

ـ ولاية الفقيه أو الحاكم في زمن الغيبة!

حقاً ـ وسحقاً له ـ إنه كشف للأسرار، ولكن لقوم يقرؤون ويعقلون ويفهمون...

أولاً: إتهام خميني للرسول ﷺ بالفشل في تبليغ الرسالة:

إن المتابع لفكر خميني وكتاباته وخطبه يدرك بسهولة أبعاد نواياه الباطنية، ويلمس دون شك أغراضه التي تتلخص في تكوين هالة من القداسة الكهنوتية المزعومة حول شخصه، وهو مقتنع بأن ما قام به يبلغ مستوى الرسالات السماوية، وأنه يعدُّ العُدَّة لاستقبال المهدي المنتظر، ثم هو موقن في داخل نفسه أنه هو المهدي أو نائبه الذي له ما للمهدي من منزلة وقداسة.

فقد تأسست الجمهورية الخمينية على فكرة تقديس خميني وإضفاء ألقاب عليه لا تجوز لبشر، وهذ متناقضة كلياً مع مبادئ الإسلام الحنيف، ولهذا يصل بهم الغلو إلى درجة يقول بعضهم لبعض حين ينادون خميني، أثناء ملاقاته: (يا أرحم الراحمين) وأن شعارهم هو (الله أكبر خميني رهبر) أي: خميني دليل ومرشد وهاد، ويلاحظ أن مجالس الخمينيين تهتز وتطرب عند ذكر خميني وترتفع أصوات التكبير والتبجيل، أما إذا ذكر اسم النبي الكريم ﷺ فإن هذه المجالس تبقى صامته، والأنكى من ذلك أنه يسمح لأزلامه بذكر اسمه في الأذان، وفي الإقامة مع اسم الله ﷻ ومع اسم نبيه الكريم محمد ﷺ، وهذا يعكس التربية السيئة التي تعود جذورها إلى التربية المجوسية أو الفارسية القديمة، وهي لا تمت بصلة إلى تربية الإسلام الحنيف[1]، فلا غرابة أن يلقي خميني خطاباً بمناسبة ذكرى مولد الإمام المهدي في الخامس من شهر شعبان ١٤٠٠هـ ضمنه

---

(١). أحمد مطلوب وآخرون: نهج خميني في ميزان الفكر الإسلامي، ص ٧٢.

أفكاراً تدل على أن خميني لا يؤمن باكتمال الرسالة الإسلامية بالقرآن العظيم، وبالرسول العظيم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ويؤكد فيه ـ حسب زعمه ـ فشل النبي ﷺ في إرساء قواعد العدل وإصلاح البشرية، قال لا رحم الله فيه مغرز إبرة: "لقد جاء الأنبياء جميعاً من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم، لكنهم لم ينجحوا، **حتى النبي محمد خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشرية، وتنفيذ العدالة، وتربية البشر لم ينجح في ذلك،** وأن الشخص الذي سينجح في ذلك ويُرسي قواعد العدالة في جميع أنحاء العالم في جميع مراتب إنسانية الإنسان وتقويم الانحرافات هو المهدي المنتظر.."[١]

لم يسلم النبي ﷺ من تهجم ـ خميني ـ عليه بما يفيد عدم تقديره لأدائه واجب التبليغ ولجهوده العظيمة في إظهار هذا الدين ونشره بين الناس وتربية اتباعه على تعاليم الإسلام واستجابتهم له وترى في كتاباته وخطبه ما يشير إلى مساواة أئمة أهل البيت العلوي بالنبي ﷺ بل ربما اكتفى بحرف (ص) بدلاً من الصلاة عليه وقليلاً ما يقرن هذه الصلاة بالتسليم عليه، أما عند ذكر الأئمة العلويين فالغالب ربط ذكرهم بالسلام عليهم كتابة لا إشارة وهو في ذلك كله لا يصرح بوضوح الانتقاص من تبليغ الرسول ﷺ والطعن في جهوده ولكن كتاباته تشير إلى ذلك بل وتصل الضلالة بخميني أن يتهم النبي ﷺ بالخوف والتهيب، فيزعم ويقول: **"وهكذا يتضح من مجموع هذه الأدلة ونقل الأحاديث أن النبي كان متهيباً من الناس بشأن الدعوة إلى الإمامة، وأن من يعود إلى التواريخ والأخبار بأن النبي كان محقاً في تهيبه إلا أن الله أمره بأن يبلغ ووعده بحمايته، فكان أن بلغ، وبذل الجهود في ذلك حتى نفسه الأخير، إلا أن الحزب المناوئ لم يسمح بإنجاز الأمر"**[٢]، ووصلت زندقة خميني أن يزعم ـ في كتابه هذا ـ بأن النبي ﷺ لم يبلغ الرسالة، بل ومحملاً النبي ﷺ جزءاً من مسؤولية ما حدث مع الأئمة من منع الأئمة العلويين من الإمامة بعد وفاة النبي بتقصيره في تبليغ الدعوة في قوله: **"وواضح أن النبي لو كان قد بلغ بأمر الإمامة طبقا لما أمر به الله وبذل المساعي في هذا المجال لما نشبت في البلدان الإسلامية كل هذه الاختلافات**

(١). أحمد مطلوب وآخرون: نهج خميني في ميزان الفكر الإسلامي، ص ٤٦.

(٢). روح الله خميني: كشف الأسرار، ص ١٥٠.

والمشاحنات والمعارك ولما ظهر ثمة خلافات في أصول الدين وفروعه".(١)

أما آخر اكتشافاته التاريخية فهو زعمه قاتله الله: "**إن جبرائيل كان يأتي بعد وفاة النبي ﷺ لفاطمة بأنباء الغيب، فيقوم أمير المؤمنين بتدوينها، وهذا مصحف فاطمة**"(٢)، بل ويعلق خميني على هذه الرواية فيقول: "ليست هناك أية صلة بين النبوة التي تعتبر تكليفاً من الله بسن القوانين، وبين الإمامة التي هي مهمة حفظ القانون وتلقينه للناس، وبين رؤية الملائكة وتعلم شيء من علم الغيب، فإذا ما قام رب العالمين بإرسال الملائكة ليعزوا ابنته بوفاة أبيها، وأن يبلغوها بأنباء من عالم الغيب، فإن العالم لن يصاب بمكروه"(٣)، ولنا أن نتساءل: بأي صفة كان يأتيها جبريل عليه السلام ؟! هل ليتمم نقصاً لم يبلّغه للنبي ﷺ ؟! وهل أنباء الغيب هذه التي يقوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بتدوينها، والتي قال عنها ـ خميني ـ بأنها مصحف فاطمة هي مكملة للقرآن الكريم؟! وبكل بساطة وسذاجة لا يرى خميني أي ضرر من القول بأن الوحي كان يتنزل على فاطمة رضي الله عنها بعد وفاة النبي ﷺ، وأي افتراء على الله بعد ذلك؟! فالجميع يعلم أن الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] تنص بشكل قطعي على كمال الدين وتمامه، فمن نصدق؟! لا شك أننا نكذب خميني ومن سبقوه، ونصدق رب العالمين، والرسول كما يزعم خميني لم يبلغ جميع ما أنزل إليه وإنما أخرج في حياته قدراً معيناً حسب حاجة الناس وأودع الباقي عند أوصيائه أهل السنة حينما تلقوا عن الصحابة لم يتلقوا الإسلام كاملاً لأنهم تلقوا ذلك القدر المعين وتركوا الباقي المودع عند أئمة الشيعة (الرافضة)، هذه خلاصة فكر خميني المجوسي الزنديق في النبي الكريم ﷺ اتهام بالفشل والتقصير وغمز ولمز كان المراد منه الانتصار لمنهج الباطنية السبئية في تشتيت وسحب جهود هذه الأمة المحمدية إلى الخلافات حتى يتمكن الباطنيون والشعوبيون من التغلغل داخل الصفوف.

إن ما جاء في أقوال خميني يُعَدُّ خرقاً فظيعاً لمبادئ الإسلام، وطعناً في شخص النبي الكريم

---

(١). روح الله خميني: كشف الأسرار، ص ١٥٥.

(٢). نفس المرجع، ص ١٤٣.

(٣). نفس المرجع، ص ١٤٥.

محمد ﷺ الذي جاء مصلحاً وهادياً للبشرية ومنقذاً لها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وهذا الرافضي الشعوبي الخبيث يقول لقد فشل محمد ﷺ في تبليغ الرسالة وإرساء قواعد العدل..

ثانياً: الإمامة صنو النبوة:

يقول خميني: "من يعرف شيئاً عن بدايات ظهور الإسلام، وأول أيام الدعوة النبوية، يوقن بأن الإمامة كانت منذ اليوم الأول وحتى آخر أنفاس رسول الإسلام صنواً[١] للنبوة"[٢]، وقد أمر الله رسوله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] فدعا النبي الأقربين إليه، وكانوا حوالي أربعين شخصاً، بينهم أعمامه، وقال مخاطباً إياهم: "يا أبناء عبد المطلب! والله لا أعرف في العرب من جاء إلى قومه بأحسن مما جئتكم به؛ لقد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فمن منكم يصبح وزيري. فأمسك النبي برقبة علي؛ وكان أصغر الجميع: يا رسول الله! أنا أصبح وزيرك. فأمسك النبي برقبة علي وقال: هذا أخي ووصيٍّ وخليفتي فيكم، فأطيعوه جميعاً، وأْتمروا بأمره، وعند ذاك نهض أقارب النبي، وضحكوا، وقال لأبي طالب: لقد أمرك أن تطيع ابنك وأن تأتمر بأمره[٣]، ومضى قائلاً: **"لقد تبين أن النبي بعد الساعات الأولى من إعلان نبوته، أعلن عن خلافة على وعن إمامة علي بن أبي طالب،** وأن أقاربه تلقوا هذا الكلام بالضحك والسخرية، وأنه سعى في آخر سنوات عمره لتثبيت ذلك، وجميع كتب التاريخ والحديث الخاصة بأهل السنة والشيعة تشهد بذلك، وتثبت بأن الإسلام لم يهتم بموضوع كالإمامة، ولم ترد في غيره عدة آلاف من الأحاديث، كما أن آخر حديث للنبي كان عن الإمامة، كما تحدث عنها كتب الحديث والتواريخ المهمة، بل إنها من المسائل المتواترة المشهورة.

---

(١). الصنو هو المثل المكافئ، وهكذا يجعل خميني الإمامة بمنزلة النبوة، بل أعلى وأرفع، فقد صرح في (حكومته الإسلامية) قائلاً: "فإن للإمام مقاماً محموداً، ودرجة سامية، وخلافة تكوينيه، تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون، وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل" تالله إن هذا لهو الكفر البواح، والشرك الصراح، ومن شك في ذلك فليلتمس إيمانه قبل أن يتلاشى. انظر: روح الله خميني: الحكومة الإسلامية، ص ٥٢.

(٢). روح الله خميني: كشف الأسرار، ص ١٧٣.

(٣). نفس المرجع، ص ١٧٣.

وقد جاء في صحيح البخاري ومسلم، ومسند أحمد بأن ابن عباس كان يبكي ويقول: يوم الخميس وما أدراك ما يوم الخميس، فقد قال النبي ائتوني بورق ودواة لأكتب لكم شيئاً حتى لا تضلوا. فقالوا: **إن النبي يهذي،** وتشير كتب التاريخ أن هذا الكفر صدر عن عمر بن الخطاب[(١)]، وأن البعض قد أيده في ذلك، ولم يسمحوا للنبي بأن يكتب ما يريد، **وباعتراف عمر أن النبي كان يريد أن يكتب شيئاً عن إمامة علي.**

وقد جاء في شرح (نهج البلاغة) لمحمد بن أبي حديد، وفي تاريخ بغداد لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر؛ أن ابن عباس احتج على عمر بهذا الشأن، **فقال له عمر: إن النبي أراد ـ وهو على فراش المرض ـ أن يصرح باسم علي بن أبي طالب في الإمامة، فمنعته من ذلك،** ويروي ابن أبي حديد عن العباس قوله: ذهبت مع عمر إلى الشام، فبدأ يشكو من علي بن أبي طالب، فآل الحديث بابن عباس إلى القول بأنه يعتقد بأن النبي كان يريد الخلافة لعلي، فقال عمر: يا ابن العباس: النبي كان يريد ذلك، ولكن مات العمل والله لم يرد ذلك؟**!**".[(٢)]

وللرد على هذه التخرصات والترهات أقول وبالله التوفيق وبه نستعين من كلام سيد الخلق أجمعين: روى البخاري بسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد، أن يقول القائلون ويتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون أو يدفع الله ويأبى المؤمنون"[(٣)]، وروى مسلم عنها أيضاً أنها قالت: "قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى، ويأبي الله والمؤمنون إلا أبا بكر"[(٤)]، وهذا الحديث الشريف يدل على أن الخلافة لو كانت بالنص لكانت لأبي بكر الصديق ﷺ، فهو الأولى بها، وتم ما قاله الرسول ﷺ، فقد أبى الله ﷻ والمؤمنون إلا أبا بكر ﷺ، وأرى أن الرسول ﷺ قد

---

(١). لماذا يتجاهل الكتاب الإسلاميون الغافلون هذه الصراحة الخمينية في تكفير الفاروق الراشد عمر بن الخطاب ﷺ فهل كانوا يأملون في كسب خميني وثورته المزعومة؟ أم أن سراب إيران خدعهم، فلم يعودوا يغارون على خير القرون الذين نصحوا الأمة وكشفوا الغمة، وجاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين؟!.

(٢). روح الله خميني: كشف الأسرار، ص ١٧٥.

(٣). صحيح البخاري، كتاب الأحكام: باب الاستخلاف، حديث رقم ٥٦٦٦، ص ١٧٥٨.

(٤). صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل أبي بكر الصديق، حديث رقم ٢٣٨٩، جـ١٥، ص ١٥٥.

مهد لخلافة الصديق ﵁ بعدة أمور، منها: جعله أمير الحج في العام التاسع الهجري، ولما أرسل أبا الحسن ﵁ براءة لم يرسله أميراً، بل جعله تحت إمرة الصديق ﵁.

ومنها خطبته ﷺ في مرضه الذي مات فيه، فقد أخرج البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: خطب النبي ﷺ فقال: "إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله. فبكى أبو بكر ﵁، فقلت في نفسي: ما يُبكي هذا الشيخ، إن يكن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عند الله، فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا. قال: يا أبا بكر لا تبك، إن أمنّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر"[١]، وأخرج البخاري ـ أيضاً ـ بسنده عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر"[٢]، وروى الخطبة كلٌّ من أحمد والترمذي بسند صحيح.[٣]

ومما مهد كذلك لخلافة الصديق ﵁ أمر الرسول ﷺ أن يؤم المسلمين في الصلاة عندما اشتد به المرض ولم يستطع ﷺ أن يؤمهم، واستمر المسلمون مأمومون خلف أبي بكر ﵁ إلى أن أنتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فإمامة الصلاة إذن مما مهد للإمامة الكبرى.

ثالثاً: إحجام النبي عن التطرق للإمامة أدى إلى الخلافات بين المسلمين:

يقول خميني: "بعد أن أوضحنا بأن الإمامة إحدى أصول الدين الإسلامي، وأن القرآن أشار إلى ذلك إلى حد ما، وأن المزيد من تلك الإشارة لم يكن في صالح الإسلام والمسلمين، فليس هناك ثمة حاجة لإطالة الحديث حول ذلك، لقد أثبتنا في بداية الحديث **بأن النبي أحجم عن التطرق إلى الإمامة في القرآن، لخشيته أن يصاب القرآن من بعده**[٤]

---

(١). صحيح البخاري، حديث رقم ٣٦٥٤، ص ١٠٨٨.

(٢). صحيح البخاري، كتاب الصلاة: باب الخوخة والممر في المسجد، حديث رقم ٤٦٧.

(٣). راجع المسند، جـ٤، رواية رقم ٢٤٣٢، والترمذي: كتاب المناقب: باب مناقب أبي بكر الصديق.

(٤). سبحان الله! وكأن القرآن الكريم من صنعه وتأليفه!!

بالتحريف، أو أن تشتد الخلافات بين المسلمين، فيؤثر ذلك على الإسلام"[١]، ويورد خميني ـ على حد زعمه ـ شواهد من القرآن تدل على ذكر إمامة بتحفظ خوفاً من المنافقين، فقد قالت الآية (٦٧) من سورة المائدة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وباعتراف أهل السنة، ونقلاً عن أبي سعيد، وأبي رافع، وأبي هريرة، وباتفاق الشيعة، فإن هذه الآية نزلت في يوم غدير خم، بشأن إمامة علي بن أبي طالب[٢]، وسورة المائدة هي آخر سورة نزلت، وإن هذه الآية، والآية الشريفة القائلة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة:٣]، نزلت في حجة الوداع، وهي آخر حجة للنبي، وكان نزولها قبل شهرين وعشرة أيام من وفاة النبي، وواضح بأن محمداً كان حتى ذلك الوقت قد أبلغ كل ما عنده من أحكام، كما أشار هو إلى ذلك في خطبة يوم غدير خم، إذن يتضح من ذلك أن هذا التبليغ يخص الإمامة، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ ﴾ [المائدة:٦٧] يريد منه أن يبلغ ما أنزل إليه، لأن الأحكام الأخرى خالية من التخوف والتحفظ[٣]، وهكذا يتضح من مجموع هذه الأدلة، بأن النبي كان متهيبا من الناس بشأن الدعوة إلى الإمامة، وأن من يعود إلى التواريخ والأخبار يعلم بأن النبي كان محقا في تهيبه، إلا أن الله أمره بأن يبلغ، ووعده بحمايته، فكان أن بلغ[٤] وبذل المجهود في ذلك حتى نفسه الأخير، إلا أن الحزب المناوئ لم يسمح بإنجاز الأمر، وتنفيذ القوانين وأحكام السماء لم يكن مقتصراً على عهد الرسول، بل إن تنفيذ هذه القوانين ينبغي أن يستمر من بعده أيضا، ولذا فإن الله ينبغي أن يعين من يقوم بتنفيذ أوامره، هو والنبي، واحدة واحدة، وأن لا يرتكب في ذلك خطأ أو خيانة، وأن لا يكون كاذباً وظالماً وانتهازياً وطامعاً وساعياً وراء الجاه والمال، ولا أن يخالف القوانين أو يدعو الناس إلى مخالفتها، ولا أن يبخل في سبيل دين الله بروحه ومصالحه، وهذا هو

---

(١). روح الله خميني: كشف الأسرار، ص ١٤٩.

(٢). حصر الخميني التبليغ في (الإمامة) وهو باطل من وجوه؛ منها: تقييد المطلق دون دليل باطل، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والآية تنص على وجوب التبليغ، وهو التصريح والبيان، وخميني يقول: إنها أشارت إشارة، وهذا اتهام خطير للرسول ﷺ.

(٣). روح الله خميني: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٤). حتى النبي ﷺ عند خميني وأمثاله يتخوف ويتهيب!! فيا سبحان الله.

معنى الإمامة، وممتلك هذه الخصال هو الإمام، وبشهادة كتب التواريخ المهمة، والأخبار المتواترة عن السنة والشيعة، فإن لا أحداً غير علي بن أبي طالب(١)ـ من بعد النبي ـ لم يمتلك مثل هذه الخصال والصفات.(٢)

ويقول أيضاً: "إن سن القوانين بدون وجود الإمامة يكون لغواً وهاء، بل وعملاً صبيانيّاً وخارجاً عن معايير العقل، **فبالإمامة يكتمل الدين، والتبليغ يتم**(٣)، وحتى نوضح إحدى آيات القرآن التي كانت قد نزلت بعد حجة الوداع، وعقب تنصيب أمير المؤمنين إماماً، وذلك بشهادة من الشيعة وأهل السنة، فالآية رقم (٣) من سورة المائدة تقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وواضح بأن النبي لو كان قد بلغ بأمر الإمامة طبقا لما أمر به الله، وبذل المساعي في هذا المجال، لما تثبت في البلدان الإسلامية كل هذه الاختلافات والمشاحنات والمعارك ولما ظهرت ثمة خلافات في أصول الدين وفروعه"(٤)، بل وحتى الخلافات الموجودة بين المجتهدين من الشيعة، إنما مردها إلى يوم السقيفة، ذلك أن اختلاف الآراء ناشئ من اختلاف الأخبار، وفي الغالب ناشئ من الأخبار الخاصة بالتقية، والتي أوردنا من قبل، ولو كانت الإمامة قد أعطيت لأهلها لما كان للتقية ثمة احتياج، **إذاً فإن كل ما يعاني منه المسلمون اليوم إنما هو من آثار يوم السقيفة، وأن جميع الخلافات التي نشبت بين المسلمين في مجمل الشؤون والأمور كان مصدرها يوم السقيفة، فلو لم يكن ذلك اليوم، لما حدثت بين المسلمين هذه الخلافات بشأن القوانين السماوية.**(٥)

---

(١). أشار خميني في كشف أسراره، إلى مخالفات الشيخين أبي بكر وعمر للقرآن حسب زعمه!، ص ١٣١.

(٢). هكذا يعمم خميني دائماً دون دليل ودون بينة.. والقول المجرد عن البرهان حقيق أن يرمي بوجه صاحبه.

(٣). روح الله خميني: كشف الأسرار، ص ١٥٤.

(٤). نفس المرجع، ص ١٥٤، ويذكر خميني فيما سبق في "كشف أسراره" أن النبي ﷺ كان متهيبا ومتخوفا، ولكنه بعد ذلك بلغ لأن الله أمره!، ثم يعود هنا ويؤكد بأن النبي ما بلغ، وما بذل المساعي، ولذلك نثبت الاختلافات والمشاحنات في أصول الدين وفروعه؟! فأي رأي من آراء خميني نصدق؟!

(٥). روح الله خميني: المرجع السابق، ص ١٣٠، وص ١٥٥.

رابعاً: ولاية الفقيه أو الحاكم في زمن الغيبة:

تولَّى خميني بنفسه توضيح نظريته المعروفة المسماة بولاية الفقيه في كشف أسراره وفي المحاضرات التي كرسها لهذا الغرض أثناء إقامته في النجف تحت رعاية الحكومة العراقية البعثية، وتعد هذه الفكرة تنظيراً أساسياً لأفكاره الخاصة بالحكم والسياسة، ومع أنَّها تستند في بعض الجوانب على بعض المسلمات المذهبية، فإنها في جُملتها بِدعة لا تمت إلى آراء من سبقه من المجتهدين في المذهب الإمامي بصلة، يقول أحد العلماء المعاصرين: "إنَّ فكرة ولاية الفقيه بدعة ابتدعها خميني وضلالاً أضلَّ به المجتمع، وإنه والله لا يُؤمن هو بها ولا زُمرته، بل اتخذها ذريعة للسلطة على رقاب المسلمين ظُلماً وعدواناً، وإن الله ورسوله بريئان منه ومن كُل من يحكم بالباطل، ويتخذ الظالمين إماماً وهادياً"[(١)]، فولاية الفقيه عند خميني وأتباعه هو التصور الكامل للحاكم المعصوم، أي أن خميني في منزلة النبي ﷺ..!! ـ وكما يقول الدكتور رشدي عليان ـ فإن خميني يرى أن تولِّي الفقيه لأمور إنما هو تنفيذاً للأمر الإلهي، وأداء للوظيفة الشرعية الواجبة، وذلك أن الأمام هو وصي النبي، وفي أثناء غيبته يكون الفقيه هو إمام المسلمين وقائدهم، وما كان يُناط بالنبي، فقد أُنيط بالإمام، ثم بالفقيه، فالفقيه هو المرجع في جميع الأحكام، ويمكن ترتيب هذه الفكرة، وفق المعادلة الآتية: (الله، النبي، الإمام، الفقيه).

وبثبات الطرف الأول (الله)..

ورحيل الطرف الثاني (النبي)..

وغيبة الطرف الثالث (الإمام)..

ووجود الطرف الرابع (الفقيه)..

يبقى من أطراف المعادلة طرفان فقط هما (الله ـ الفقيه) وهذا يعني أن الفقيه خميني في الوقت الحاضر هو مستودع العلم الإلهي، ونور النبوة، ووارث الإمامة، ومن ثم لا يصبح الله والفقيه أي وسيط، وفي ضوء هذه المعادلة: **يكون خميني نائب الله في الأرض، وحجته على عباده، له الأمر، وعلى الناس السمع والطاعة، ويكون الراد عليه راداً على الله**[(٢)]، إن سنده الرئيس هو حديث يرويه في كتاب (معاني الأخبار) للشيخ الصدوق، وفي كتاب (الفقيه)

---

(١). أحمد مطلوب وآخرون: نهج خميني في ميزان الفكر الإسلامي، ص ٥٥.

(٢). قحطان الدوري: في ولاية الفقيه (بغداد، مطبعة الإرشاد، د.ت) ص ٨.

وهما من أكبر كتب الشيعة، ذكر أمير المؤمنين "أنه قال: قال رسول الله: للهم ارحم خلفائي. قيل يارسول الله! ومن خلفاءك؟ قال: الذين يأتون بعدي، ويروون حديثي وسنتي فيعلمونها الناس من بعدي"[١]، لا شك في أن معنى الحديث على تقدير قطعيته واضح لا غموض فيه، يفهم منه أن الرسول الكريم ﷺ يدعو ربه أن يرحم الناس الذين يُواصلون دعوة الإسلام ويعلِّمون الناس مبادئه، فقد بعث محمداً ﷺ معلماً وهادياً، فطوبى للمعلمين الذين يبنون للناس مبادئ الإسلام الحقيقي، ويتضح بأن رواة سنة النبي وحديثه هم خلفاءه، وما يتوجب من إطاعة للنبي ولولايته وسلطته يتوجب ذلك لخلفائه أيضاً.

أما خميني؛ فقد وقف وقفة طويلة عند هذا الحديث واعتقد أنه وجد ضالته في كلمتين من الحديث هما (خلفائي)، (ويعلمونها الناس) فانتزع منهما ما هو في فكره السياسي بالمغالطة والتنطع، والسفسطة، وأوهم القارئ والمستمع معاً أن المقدمات التي انتزعها من الحديث المذكور تنتج المطلوب، والحقيقة إن المقدمات غير صحيحة، وعلى فرض صحتها فهي غير منطقية، وعلى فرض قطعيتها، فهي غير منتجة[٢]، ويروي حديثاً أخر فيقول: قال عمر بن حنظلة: "وفيها من كان منكم قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فلْيَرضوا به حكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا، فلم يقبله منه، فإنما استخفَّ بحكم الله، وعلينا ردَّ، والرادُّ علينا رادٌ على الله، وعلى حد الشرك بالله"[٣] ، **وفي هذه الرواية عُدَّ المجتهد حاكماً، وعُدَّ الردُّ عليه ردّاً على الإمام، والرد على الإمام رد على الله، والرد على الله يقع في حد الشرك بالله، هذه السلسلة من الإحالات؛ فالرد على المجتهد ردٌّ على الإمام، والرد على الإمام ردٌّ على الله مباشرة، لماذا تجاوز خميني رسول الله ﷺ ؟ أم أن الإمامة والاجتهاد الشيعي في منزلة دونها النبوة والرسالة؟!**

---

(١). روح الله خميني: كشف الأسرار، ص ٢٠٧.

(٢). أحمد مطلوب وآخرون: نهج خميني في ميزان الفكر الإسلامي، ص ٥٧.

(٣). روح الله خميني: المرجع السابق، ص ٢٠٧.

محمد كاظم القزويني[١] وكتابه علي عليه السلام من المهد إلى اللحد:

ألف محمد كاظم القزويني كتابه: (علي عليه السلام من المهد إلى اللحد)[٢] في الثمانينيات من ق١٤هـ، ولقي رواجاً واسعاً في أوساط الشيعة مما دعا المؤلف إلى إعادة طبعه أكثر من مرة، يقول القزويني في مقدمة كتابه الذائع: "حتى إذا اقترب شهر رمضان المبارك من سنة ١٣٨٦هـ وثارت في النفوس ثورة العبادة ونهضة الدين وانتبهت غرائز الإقبال على فعل الخير واستعد إخواننا الشباب لإعادة مجلسهم السنوي في ليالي شهر رمضان وكان لي شرف الخدمة والتكلم في ذلك المجلس الذي كانت الحياة تنفجر من نواحيه، وينبعث النشاط من جوانبه، ففكرت حول اختيار حديث إسلامي متسلسل، لله فيه رضى وللمستمعين فيه أجر وثواب.

وأخيراً: تقرر أن نتحدث حول شخصية الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ونجعلها محور كلامنا، وندور في فلكها لما في ذلك من فوائد دينية، علمية، روحية، تربوية، تنفع العباد والبلاد، فالتحدث عن أمير المؤمنين يشمل التكلم عن الإسلام الصحيح في جميع مجالاته وخاصة في دور التكوين والتأسيس وعن مدى تأثير التربية الإسلامية في النفوس وتبلورها ببركة تلك التعاليم وتكهرب النفوس بنفسية النبي صلى الله عليه وآله تلك النفسية القوية بالمبدأ الأعلى، نذكر في هذه الصحائف شيئاً عن حياة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ظل الإسلام وبعض مواقفه في المواطن الخطرة التي قل أن يثبت لها أحد، باستقبال الأخطار التي ارتعدت منها الفرائض وخفقت عندها القلوب خفقان الطير.

تبدأ تلك الحوادث المتسلسلة من أيام بعثة النبي ﷺ والشروع بالدعوة الصامتة، والناطقة والسرية والعلنية وأدوار تلك الدعوة وتطورها في مكة، وتنتهي بهجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وهنا يتطور الموقف إلى العمل بصورة أوسع وأصعب، ويبدأ دور الحروب والغزوات

---

(١). محمد كاظم بن إبراهيم بن هاشم الموسوي القزويني الحائري، ولد بكربلاء سنة ١٣٤٨هـ، توغل القزويني في دراسة العلوم الدينية في الحوزة الحسينية، وله باع طويل في الكتابة والتأليف، سافر القزويني حاملاً رسالة التشيع إلى أقطار عديدة من العالم منها: باكستان والهند وأندونيسيا واستراليا ومصر والمغرب وتونس والبحرين والسعودية والكويت وسوريا ولبنان، وقام بدوره في نشر المذهب الشيعي، وفي عام ١٤٠٠هـ استقر في إيران بعد انتصار الثورة الإسلامية واتخذ من مدينة قم موطناً له، مواصلاً نشاطه الديني، توفي في ١٤/٦/١٤١٥هـ. انظر: موقع معهد الإمامين الحسنين لإعداد الخطباء والمبلغين، على الرابط الالكتروني: http://www.m-alhassanain.com

(٢). محمد كاظم القزويني: علي عليه السلام من المهد إلى اللحد (الطبعة العاشرة، بيروت، دار العالم الإسلامي، ١٤٠١هـ).

والمجازر التي أجج الكفار نارها، فارتوت الأرض من الدماء وانقلبت البوادي إلى مقابر، نذكر مواقف الإمام عليه السلام في تلك المراحل المذهلة، واستعداده للتضحية في سبيل المبدأ بحيث ما كان يقف في طريقه شيء يغير اتجاهه وانطباعه عن الدين، وتنتهي فترة الجهاد بوفاة الرسول الأعظم، فيتطور الجهاد بنوع من السكوت والصبر أو الكلام بما يقتضيه الحال وما تفرضه المصلحة العامة للإسلام والمسلمين".[١]

عموماً الكتاب لا يختلف كثيراً عن كتب من سبقوه من الشيعة في السيرة النبوية وتحليل أحداثها، بل حاول ـ القزويني ـ إضفاء مسحة من القداسة على شخصية علي رضي الله عنه تعلو منزلة النبي ﷺ في أعلى مراتبها؛ ثم تهبط به فجأة بعد ذلك إلى أدنى المراتب وجعله جليس البيت مسلوب الإمكانيات ـ حسب تعبير الكاتب ـ ولكنه يختلف كثيراً في أسلوب الكتابة وطريقة العرض؛ فيمتاز بأسلوب أدبي رفيع، وجمال في التعبير، ودقة في التصوير، وجودة في الوصف، وقد كتب على شكل ليالي ومجالس ومسامرات رمضانية، ومن خلال المسح الأولي لموضوعاته في السيرة النبوية تظهر المواضيع التالية:

الليلة الأولى: علي عليه السلام وليد الكعبة.

الليلة الثانية: علي عليه السلام أول المسلمين.

الليلة الثالثة: علي عليه السلام ليلة المبيت.

الليلة الرابعة: علي عليه السلام والهجرة.

الليلة الخامسة: اقتران النورين.

الليلة السادسة: علي عليه السلام والجهاد.

الليلة السابعة: علي عليه السلام والقرآن.

الليلة الثامنة: علي عليه السلام والعلم.

الليلة التاسعة: علي عليه السلام والفضائل النفسية.

الليلة العاشرة: علي عليه السلام والخصائص.

الليلة الحادية عشرة: علي عليه السلام يوم الغدير.

---

(١). محمد كاظم القزويني: علي عليه السلام من المهد إلى اللحد، ص ١٠ ـ ١٢.

الليلة الثالثة عشرة: علي (عليه السلام) جليس البيت.

ولأن المجال لا يتسع لمناقشة ـ الكتاب كله ـ سوف أتعرض لثلاث ليالي؛ وهي: الليلة السابعة: علي (عليه السلام) والقرآن، والليلة الحادية عشرة: علي (عليه السلام) يوم الغدير، والليلة الثالثة عشرة: علي (عليه السلام) جليس البيت.

أولاً: علي (عليه السلام) والقرآن:

يقول القزويني في كتابه: "وفي القرآن آيات واضحات نزلت في شأن أهل البيت عليهم السلام وكان علي (عليه السلام) أحدهم بل سيدهم، كما في آية المباهلة وسورة هل أتى وآية التطهير وغيرها مما يطول الكلام بذكر تلك الآيات فلنذكر ـ بصورة موجزة ـ كلاماً حول آية التطهير والمباهلة وسورة هل أتى، ثم ننظر أين ينتهي بنا الكلام: **لقد أجمع المفسرون والمحدثون ـ إلا الشاذ النادر منهم ـ واتفقت كلمتهم على: أن آية التطهير نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)** وإن كان هناك اختلاف في ألفاظ الحديث فالمؤدى واحد"[(١)]، وخلاصة الواقعة: "أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ألقى رداء أو عباءة أو كساء أو ثوباً أو قطيفة على علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فقالت أم سلمة: يا رسول الله فأنا؟ وفي رواية: فأنا من أهلك أو: وأنا معكم؟ أو: ألا أدخل معكم؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسلم: إنك على خير، أو: مكانك، أو: تنحي وفي رواية: فرفعت الكساء لأدخل فجذبه من يدي وقال: إنك على خير وإنك من أزواج النبي. فنزلت الآية: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قال أبو سعيد الخدري: كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يأتي باب علي أربعين صباحاً فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرا، أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم"[(٢)]، ثم يجزم للمرة ثانية بقوله: **"أما المحدثون والمفسرون من الشيعة فكلهم متفقون على اختصاص آية التطهير بعلي وفاطمة والحسن والحسين، لا تشاركهم زوجات**

---

(١). محمد كاظم القزويني: علي (عليه السلام) من المهد إلى اللحد، ص ١٥٢.

(٢). نفس المرجع، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

النبي فيها".[١]

وللرد على كلام القزويني لا بد أن استعرض الآيات قبل آية التطهير في سورة الأحزاب، قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٣٤].

فهذه الآيات السبع في نساء النبي ﷺ كما يبدو، ولكن جدلاً واسعاً دار حول عجز الآية الثالثة والثلاثين: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٣٣] وهذا الجزء يطلق عليه اسم آية التطهير، ويرى الشيعة ـ والقزويني منهم ـ أنه لا صلة له بما قبله ولا بما بعده، وإنما هو خاص بالنبي ﷺ وابنته فاطمة الزهراء وزوجها علي وابنيهما الحسن والحسين ﷺ، وقد ذهبوا إلى أن المراد بأهل البيت هؤلاء الخمسة فقط مستدلين على شيئين:

الأول: الخطاب في قوله تعالى: ﴿ عَنكُمُ ﴾ و﴿ وَيُطَهِّرَكُمۡ ﴾ بالجمع المذكر يدل ـ كما يقولون ـ على أن الآية الشريفة في حق غير زوجات رسول الله ﷺ، وإلا فسياق الآيات

(١). محمد كاظم القزويني: علي عليه السلام من المهد إلى اللحد، ص ١٥٣.

يقتضي التعبير بخطاب الجمع المؤنث أي: (عنكن) و (يطهركن) فالعدول عنهما إلى الخطاب بالجمع المذكر يشهد بأن المراد من أهل البيت غير الزوجات.

الثاني: أخبار تدل على أنها في الخمسة الأطهار(١)، وبالرجوع إلى كتاب الله تعالى نجد قوله: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ [هود:٧٣] وهذا خطاب لامرأة إبراهيم عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ [القصص:٢٩] ومعلوم أن موسى سار بزوجته ابنة شعيب عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [القصص:١٢ - ١٣]، وقوله عز وجل: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٣]، وقوله جل جلاله: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٢٩] إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن الاستعمال القرآني لا يمنع أن يكون المراد بأهل البيت في الآية الكريمة نساء النبي مع الخطاب بالجمع المذكر، بل إن المذكر هو الذي يتمشى مع هذا الاستعمال، فلم أجد التعبير بالمؤنث مع كلمة الأهل ـ سواء أُريد بها الزوجات أم غيرهن ـ في القرآن الكريم كله، كما أن المعنى اللغوي للأهل لا يخرج الزوجات.(٢)

أما روايته ففيها نظر، لأن في سندها عطية عن أبي سعيد الخدري، وعطية هذا كان يأتي الكلبي فيأخذ عنه التفسير وكان يكنيه بأبي سعيد فيقول: قال أبو سعيد ليوهم أنه الخدري،

---

(١). علي أحمد السالوس: عقيدة الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية، ص ٥٩.

(٢). نفس المرجع، ص ٥٨ ـ ٦١.

وقد ضعفه أحمد والنسائي وغيرهما.[1]

ثانياً: علي عليه السلام يوم الغدير:

والتي قال فيها السيد القزويني: "قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧] أيها الأخوة كلامنا ـ الليلة ـ حول واقعة الغدير، تلك الواقعة التي أكمل الله فيها الدين وأتم فيها النعمة، **يوم تتويج الإمام المرتضى عليه السلام بتاج الخلافة العظمى والإمامة الكبرى،** وهذا البحث من أهم البحوث الإسلامية، وهنا مفترق الطرق بين المذاهب الإسلامية، ويمكن لنا أن نقول: إن الكتب والمؤلفات التي كتبت حول هذا الموضوع بالذات وحول الإمامة والخلافة بصورة عامة قد جاوزت العد والضبط والإحصاء، من إثبات أو رد أو مناقشة وما يدور في هذا الفلك، ولا تسألوا عن الأرواح التي زهقت في سبيل هذه الواقعة ومضاعفاتها في خلال أربعة عشر قرناً، وما هناك من مآسي وكوارث ومصائب ومجازر وفتن تتعب القارئ وتجهد السامع.

وحيث إن الإمامة ـ عندنا ـ تالية للنبوة من حيث كونها وظيفة إلهية ومنصب رباني ليس لأحد حق الانتخاب أو الرد فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب:٣٦] ولهذا لا بأس بذكر هذه الواقعة وما يتعلق بها من أقوال الصحابة وأهل البيت والتابعين وتابعيهم من المحدثين والمفسرين والمؤرخين والشعراء والأئمة والأعلام والحفاظ، ومن العجب أن عدداً من النصارى ذكروا هذه الحادثة نظماً ونثراً ولعلنا نشير إلى بعض أقوال هؤلاء بصورة موجزة رعاية للاختصار، ومن أعجب العجب أن بعض المسلمين بعد إقامة الأدلة الكافية والبراهين الشافية والحجج القاطعة على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وبعد المناقشة في سند الحديث ودلالة متنه ومفهومه قال: **إن عليا هو الأفضل ولكن غيره أصلح!! سبحان الله هذه كلمة تضحك الثكلى! لأن معناها، إن الله ورسوله ما كانا يعرفان الأصلح؟ أو كانا يعرفانه ولكنهما قدما غير الأصلح، نعوذ بالله**

---

(١). علي أحمد السالوس: عقيدة الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية، ص ٦٢.

من الباطل.

والأفضل أن نذكر الواقعة بصورة موجزة ثم ننظر أين ينتهي بنا الكلام؟ وأقوال المفسرين والمحدثين تختلف من حيث الإيجاز والتفصيل، ولكن المفاد واحد، وهذه صورة الواقعة: لما قضى رسول الله مناسكه وانصرف راجعاً إلى المدينة ومعه من كان من الجموع الغفيرة ووصل إلى غدير خم من الجحفة التي تتشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين وذلك يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة نزل إليه جبرائيل الأمين عن الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وأمره أن يقيم علياً علماً للناس ويبلغهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على كل أحد، وكان أوائل القوم قريباً من الجحفة فأمر رسول الله أن يرد من تقدم منهم، ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان ونهى عن سمرات خمس متقاربات دوحات عظام أن لا ينزل تحتهن أحد، حتى إذا أخذ القوم منازلهم فقام (كنس) ما تحتهن حتى إذا نؤدي بالصلاة صلاة الظهر عمد إليهن فصلى بالناس تحتهن، وكان يوماً هاجراً يضع الرجل بعض رداءه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء، وظلل لرسول الله بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فلما انصرف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من صلاته قام خطيباً وسط القوم على اقتاب الإبل وأسمع الجميع رافعاً عقيرته فقال: الحمد لله ونستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن ضل، ولا مضل لمن هدى وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله ـ أما بعد ـ : أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله، وإني أُوشك أن أُدعى فأُجيب، وإني مسؤول وانتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً.

قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق وناره حق وأن الموت حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: اللهم أشهد ثم قال: أيها الناس ألا تسمعون؟ قالوا نعم قال: فإني فرط علي الحوض، وانتم واردون علي الحوض، وإن عرضه ما بين صنعاء وبصرى فيه أقداح عدد النجوم من فضة فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين.

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله ﷻ

وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلوا، والآخر الأصغر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فسألت ذلك لهما ربي، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ثم أخذ بيد علي فرفعها حتى رئي بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ **فمن كنت مولاه فعلي مولاه، يقولها ثلاث مرات، وفي لفظ أحمد إمام الحنابلة: أربع مرات ثم قال: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من بغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب**، وقد ذكروا لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خطبة مفصلة جداً رواها الطبرسي في الاحتجاج، ورواها غيره في كتبهم بغير تفصيل، وكيف كان لما فرغ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من خطبته نزل وأمر المسلمين أن يبايعوا علياً بالخلافة ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين، فتهافت عليه الناس يبايعونه، وجاء الشيخان: أبو بكر وعمر إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقالا: هذا أمر منك أم من الله؟ فقال النبي: وهل يكون هذا عن غير أمر الله؟ نعم أمر من الله ورسوله فقاما وبايعا، فقال عمر: السلام عليك يا أمير المؤمنين بخ بخ لك لقد أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنه!! هذه الواقعة من أشهر الحوادث بين المفسرين والمحدثين والمؤرخين، وتعتبر عندهم من أصح الأحاديث لتواتر الروايات الواردة حول الحديث".[(١)]

أما الصحابة الذين شهدوا بالغدير فالمشهور منهم مائة ونيف ثم أخذ يعدد أسماؤهم حسب الحروف الهجائية بدءاً من: أبي هريرة ﷺ وانتهاءاً بـ يعلى بن مرة ﷺ.

مما سبق عرضه يتضح ـ من كلام القزويني ـ أن الله ﷻ أمر نبيه ﷺ بأن ينص على علي ﷺ وينصبه علماً للناس، وأن الرسول ﷺ امتثل للأمر وبلغ المسلمين عند غدير خم[(٢)] بعد منصرفه من حجة الوداع؛ أن وصيه وخليفته من بعده علي بن أبي طالب ﷺ، على أن بعض المفسرين ناقش الشيعة فيما ذهبوا إليه، وبين أنه قول لا يستقيم، قال الألوسي عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ

(١). محمد كاظم القزويني: علي عليه السلام من المهد إلى اللحد، ص ٣٣١ ـ ٣٣٨.

(٢). وللعلم فإن كاتباً شيعياً وهو: عبد الحسين أحمد الأميني النجفي ألف كتاباً يقع في ستة عشر مجلداً ليثبت به صحة حديث الغدير وشهرته، وعنوانه: الغدير في الكتاب والسنة والأدب.

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧] "أخبار الغدير التي فيها الاستخلاف غير صحيحة عند أهل السنة، ولا مسلمة لديهم أصلاً"[(١)]، وأيد هذا القول: ثم قال: ومما يبعد دعوى الشيعة أن الآية نزلت في خصوص خلافة علي كرم الله وجهه، وأن الموصول فيها خاص قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧] فإن الناس فيه وإن كان عاماً إلا أن المراد بهم الكفار، ويهديك إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧] فإنه في موضع التعليل بعصمته ﷺ[(٢)]: وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر، أي لأن الله تعالى لا يهديهم إلى أمنيتهم فيك. ومتى كان المراد بهم الكفار بعد إرادة الخلافة: بل لو قيل لم تصح، لم يبعد، لأن التخوف الذي تزعمه الشيعة منه ﷺ ـ وحاشاه ـ في تبليغ أمر الخلافة إنما هو من الصحابة ﷺ حيث إن فيهم ـ معاذ الله ـ من يطمع فيها لنفسه، ومتى رأى حرمانه منها لم يبعد منه قصد الإضرار برسول الله ﷺ، والتزام القول ـ والعياذ بالله ﷻ ـ بكفر من عرضوا بنسبه الطمع في الخلافة إليه، مما يلزمه محاذير كلية أهونها تفسيق الأمير كرم الله وجهه وهو هو، أو نسبة الجبن إليه وهو أسد الله تعالى الغالب، أو الحكم عليه بالتقية وهو الذي لا يأخذه في الله تعالى لومة لائم، ولا يخشى إلا الله ﷻ".[(٣)]

ولقد وفق الألوسي في الاستدلال عن طريق ربط الآية بعضها ببعض، وتأويل الآية كما ذهب إليه جمهور المفسرين لا يحتاج إلى دليل، لأنه أخذ بظاهر النص وعمومه، وبدلالة السياق، ولكن تخصيصها باستخلاف علي ﷺ هو الذي يحتاج إلى أدلة أصح وأكثر قبولاً من أدلة الجمهور، وهذا ما لم نجده، وقبل النظر في كتب السنة الثمانية التي حددت في منهجي الرجوع إليها، وهي: الموطأ، والمسند، والصحيحان، وكتب السنن الأربعة، نسترشد بما جاء في سيرة ابن إسحاق التي جمعها ابن هشام، فتحت عنوان: (موافاة علي في قفوله من اليمن رسول

(١). شهاب الدين محمود شكري الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (الطبعة الأولى، القاهرة، المطبعة الأميرية ببولاق، د.ت) جـ٢، ص ٣٤٩.

(٢). انظر مثل ما ذكره الألوسي هنا في الكشاف للزمخشري (القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٥هـ) جـ١، ص ٦٣١، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ) جـ٣، ص ٥٣٠.

(٣). شهاب الدين محمود شكري الألوسي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٥٢.

الله في الحج) ورد ما قاله ابن إسحاق عما أمر به الرسول ﷺ علياً رضي الله عنه من أمور الحج[١]، ثم ورد ما يأتي: "قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن يزيد بن طلحة بن ركانة، قال: لما أقبل علي رضي الله عنه من اليمن ليلقى رسول الله ﷺ واستخلف على جنده الذي معه رجلاً من أصحابه: فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حلة من البز الذي كان مع علي رضي الله عنه. فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم، فإذا عليهم الحلل قال: ويلك! انزع قبل أن تنتهي به إلى رسول الله ﷺ، قال: فانتزع الحلل من الناس، فردها في البز، قال: وأظهر الجيش شكواه لما صنع، قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن عبد الرحمن معمر بن حزم، عن سليمان بن محمد بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب وكانت عند أبي سعيد الخدري، قال: اشتكى الناس علياً رضوان الله عليه، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً، فسمعه يقول: أيها الناس، لا تشكوا علياً، فو الله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سبيل الله، من أن يشكى، قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ على حجه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التي بيَّن فيها ما بيَّن ... الخ.[٢]

وخطبة رسول الله ﷺ في حجة الوداع التي ذكرها ابن إسحاق، نرى معناها مبثوثاً في كتب السنة، ففي صحيح البخاري نجد شيئاً منها في باب الخطبة أيام منى من كتاب الحج، وفي آخر الباب "فطفق النبي ﷺ يقول: اللهم اشهد، وودَّع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع"، ونجد كثيراً منها في باب حجة النبي ﷺ من كتاب الحج من صحيح مسلم، وهذه الحجة يرويها الإمام الصادق عن أبيه الباقر عن جابر رضي الله عنه، كما أخرجها غير الإمام مسلم.[٣]

يتبين لنا أنه في يوم عرفة من حجة الوداع نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] ومن قبله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] ويرى الشيعة ـ والقزويني منهم ـ أن استخلاف علي رضي الله عنه كان يوم الغدير في الثامن عشر من ذي

---

(١). ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص ٦٠٢.

(٢). نفس المصدر، جـ٤، ص ٦٠٣.

(٣). محمد ناصر الدين الألباني: حجة النبي ﷺ (الطبعة السابعة، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ) ص ٣٦ ـ ٤٣، وص ٧١ ـ ٧٣.

الحجة، وهنا يأتي تساؤل وهو: **أفيمكن أن يُترك ركن من أركان الإيمان**[١] **لا يذكر، وقد أكمل الله ﷻ دينه، وخطب رسوله ﷺ، وودع الناس حجة الوداع؟! أظن هذا مستبعداً، ولكن ليس مستحيلاً!**

ثالثاً: علي عليه السلام جليس البيت:

ومما أثار فضولي واشمئزازي معاً ما قاله السيد القزويني في الليلة الثالثة عشرة تحت عنوان: (الإمام علي عليه السلام جليس البيت) جاء فيه: "حديثنا ـ الليلة ـ حول الفترة التي انقضت على أمير المؤمنين عليه السلام وهو جليس البيت مسلوب الإمكانيات وقد ابتدأت تلك الفترة من يوم وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وسلم واستيلاء أبي بكر على مسند الحكم ولما انقضت أيام أبي بكر أوصى من بعده إلى عمر بن الخطاب وكانت أيام حكمه عشر سنوات وشهوراً ولما طعن وأحس بالوفاة جعل الخلافة شورى ورشح ستة من الصحابة وأمرهم أن ينتخبوا واحداً من أنفسهم"[٢]، انتهى نص القزويني فشرع يروي أحداث الشورى حيث ظهر فيها علي رضي الله عنه لأول مرة على مسرح الحياة السياسية بعد أن أمضى ما يقارب ثلاثة عشر عاما جليس البيت مسلوب الإمكانيات.

إن جوابي على كلام القزويني سيظهر عليه شيء من الحدة كيف يسمح ـ القزويني ـ لنفسه أن يقول في علي رضي الله عنه بأنه جليس البيت مسلوب الإمكانيات؟!، بل كيف اسكت عن رواية تحجر علي رضي الله عنه جليس بيت مسلوب الإمكانيات في أخطر مرحلة تأسيسية في تاريخ الإسلام معزولاً عن المشاركة في الجهاد تاركاً لغيره لواءه، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه جليس البيت مسلوب الإمكانيات فيتحول المعصوم ـ في نظره ـ إلى معتصم في عقر داره ولم يحاول السيد القزويني أن يكسر هذا الاعتصام ليطل عليه لعل خبراً يأتينا من داخل معتصمه، إن الانطباع السائد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خطاب الشيعة هو دائماً هكذا **رجل منكسر ونفس محطمة مسلوب الإمكانيات لا يدافع عن نفسه ولا يدفع عنه شر خصومه مدة ثلاثة عشر عاما،** ويتكرر مشهده كلما رغب صانع الخطاب باستخراج قيح الكراهية والبغضاء بين الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فيجرده من عناصر القوة للاستدلال على رواية يخرج ـ القزويني ـ

---

(١). باعتبار أن الإمامة ركن من أركان الإيمان عند الشيعة؟!

(٢). محمد كاظم القزويني: علي عليه السلام من المهد إلى اللحد، ص ٤٠٥.

منها رابحاً جمهوره المخدوع وإن خسر الإمام في نظره وهو علي بن أبي طالب ﷺ، وإذا كان الناتج السلبي حاصلاً عن كون هذه الخطاب محسوباً في باب الغلو فهو ليس غلواً في حب علي بن أبي طالب ﷺ وقد كثر بل غلب هذا الميل عند الشيعة وتوزع على كافة أطيافهم وإنما يركز المنهج على الغلو في الكراهية.

إن ـ القزويني ـ يغلو في حب علي ﷺ كما يغلو في بغض عمر وكراهية الصحابة ﷺ ولا بأس عنده وهو مخمور بروح الكيد أو تكون الرواية والرأي اللذان يستدل بهما مسيئين لعلي ﷺ كما يحصل في كتابه هذا وفي كتب أخرى ـ للشيعة ـ تعبيراً عن هذا المنهج، وستعرض علينا لوحات يؤخذ فيها الفارس الذي لم يخسر معركة مكتوف اليدين مسلوب الحركة ليرغم على بيعة أو أن عمر بن الخطاب ﷺ يغتصب بالقوة ابنته الصغرى من فاطمة رضي الله عنها ليتزوج منها، وإذ لا نطوي صفحة الإخفاء غير النزيه لهذا المقطع الأساسي من تاريخ نشوء الدولة الإسلامية والإسلام نطل على صفحة أخرى من الكيد والإهمال والإغفال لعلي بن أبي طالب ﷺ في روايات وكتب ودراسات تنشر في المدرسة الشيعة، إذ يصدم المتابع أن بعض المصادر تتحدث في قضايا تمس مصادر الأمة وأحداث ساخنة فلا ترى فيها علياً ﷺ حاضراً وإذا ما حضر فليس لك أن ترى اسمه إلا بعدسة مكبرة للحروف، إن مساحة المدينة وتعدادها السكاني يجعلان من غير المعقول غياب شخصية بحجم علي بن أبي طالب ﷺ عن أحداث التاريخ، ففي وفاة أبي بكر استشار الخليفة عدداً من الصحابة لم يظهر علي بينهم والخليفة يحتضر ويستشير في لحظة مصيرية تتعلق بإمامة المسلمين.

إن هذه المرويات تكرس أمرين مثلهما مثل ـ الشيعة والقزويني منهم ـ الذين يركز في كتاباته على مقاطعة علي لأبي بكر رضي الله عنهما، أو أنها تؤكد للجانب الآخر عدم أهمية علي عند أبي بكر رضي الله عنهما وفي تلك الحالة فهناك غدر وظلم يلتقيان، وهذا يدخل في مذهب الإساءة والتنقيص.

الدشتي[١] وكتابه ٢٣ عاماً في دراسة السيرة النبوية المحمدية:

يشكل ظهور الإسلام وانتشاره ظاهرة تاريخية فريدة؛ تستحق البحث والدراسة، بل إن دراسة العصور السالفة للإسلام هي مهمة شاقة على الدوام، تقتضي البحث الشامل الدقيق لكشف الغطاء عن أوجه الحوادث التاريخية وإلقاء الضوء عليها والتحقق من أسبابها، مما جعل دراسة تاريخ الإسلام يسيرة جداً، بسبب وفرة الروايات الموثوقة، فلم تعد ثمة عقبات لا يمكن للباحث الجيد أن يذللها؛ شريطة أن يكون قادراً على التفكير بموضوعية وعلى أن يظل بعيداً عن التحيز والتحامل، فمن الأمور الضرورية أن ينفض الباحث عن عقله تلك الأفكار المتوارثة المغروسة.

كان لدعوة الإسلام التي جاء بها النبي محمد ﷺ في سيرته النبوية أن تسهم في تشكيل ثقافات أمم كثيرة وإحداث تغير ملحوظ في طرائق حياتها، وخلال المائة سنة التي سبقت صدور كتاب علي الدّشتي هذا! كانت قد ظهرت كتب كثيرة تتناول بالبحث والدراسة كلاً من سيرة النبي محمد ﷺ والقرآن الكريم وما تفرع عنهما من علوم ومعارف، وكان الباحثون الأجانب قد أنجزوا مهمات أساسية تمثلت بجمع المعطيات وتحليلها أما الباحثون المحليون فقد اقتصروا في معظمهم وصولاً إلى الفترة التي كتب فيها علي الدّشتي كتابه هذا ـ والتي لا تتعدى العام ١٣٩٤هـ ـ على الشروح والعروض وضروب الدفاع ولم يبدي كبير اهتمام بالمشكلات التي يطرحها أعداء الإسلام إلا في حالات استثنائية، يظهر على ـ الدشتي ـ تأثره الشديد بكتاب "حياة يسوع" للفرنسي أرنست رينان[٢] الذي وصفه بالعظيم فيقول: "لقد رسم ـ رينان

---

(١). ولد علي عبد الحسين الدشتستاني عام ١٨٩٦م في قرية من دشتستان القريبة من ميناء بوشهر على الخليج وأخذه والده وهو فتى إلى كربلاء ليدرس في الحوزات الشيعية، انتخب ممثلاً في البرلمان الإيراني أكثر من مرة، كان شخصية قيادية في حزب العدالة، عين سفيراً لإيران في مصر ولبنان كما عين وزيراً للخارجية لفترة وجيزة، ثم عين عضوا في مجلس الشيوخ وقد بقي في هذا المجلس حتى قيام الثورة الإسلامية في ١٩٧٩/٢/١١م، ولا تتوافر عنه بعد الثورة الإسلامية الإيرانية سوى معلومات زهيدة منقولة شفاهاً، توفي في ١٩٨١/١٢/٢٢م أو ١٩٨٢/١/٢٠م. انظر: علي الدشتي: ٢٣ عاماً في دراسة السيرة النبوية المحمدية (الطبعة الأولى، دمشق، بترا للنشر، ٢٠٠٤م) ترجمة: ثائر ديب، ص ٧.

(٢). مستشرق ومفكر فرنسي، عني خصوصاً بتاريخ النصرانية وتاريخ شعب إسرائيل، اشتهر بترجمته ليسوع التي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينية نقداً تاريخياً علمياً. انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٣١١.

ـ للمسيح لوحة واقعية بارعة ونابضة بالحياة، وبعد ذلك بحين، وقعت على كتاب آخر، عنوانه: "ابن الإنسان"، زعم كاتبه الألماني إميل لودفيغ[1] ـ الذي بذل غاية الجهد ـ أنه كتاب لا يضاهي في واقعيته أي كتاب آخر يمكن أن يُكتَب حول هذا الموضوع في ظرف يتسم بندرة الوثائق التاريخية ندرة بالغة".[2]

هذا الكتاب يأتي في أكثر من مئتين وسبع وثمانين صفحة، **ليس نتاجاً للبحث المعمق بل هو في أحسن الأحوال محاولة لرسم خطوط عريضة موجزة بل وبالغة العمومية للموضوعات البارزة في السيرة النبوية**، وتأتي أهمية الكتاب الذي بين أيدينا "ثلاثة وعشرون عاماً في دراسة السيرة النبوية" وبالفارسية: (بيست وسه سال) للكاتب الشيعي علي الدّشتي فيحاول في ـ هذا الكتاب ـ أن يقدم دراسة جديدة موجزة ومخالفة للكثير من الدراسات الشيعية التي سبقته في هذا الاتجاه عن السيرة النبوية، وعن نشوء الإسلام، بل ويقدم تصوره عن وصول الإسلام إلى بلاد فارس وكيف استقبلوه؟! فيها ولماذا آمنوا به؟! فأحاول إبراز أفكار الكتاب وأوجزها في النقاط التالية:

أولاً: الغاية من تأليف الكتاب من وجهة نظر الكاتب:

يقول الكاتب عن هدفه من تأليف هذا الكتاب: "لم أحاول في عملي الموجز هذا أن أقدم رواية كاملة عن السنوات الثلاث وعشرين من أصل السنوات الستين التي عاشها النبي محمد وبعيداً عن التواضع الزائف، فإنني لا أعدّ نفسي ممتلكاً ما امتلكه إرنست رينان من موهبة وحساسية أو ما امتلكه إميل لودفيغ من طول أناة وقدرة على البحث، وجميع هذه خصال لابد من توافرها إذا ما أردنا أن نقدم صورة وافية لرجل غيرت قوته الروحية والأخلاقية مجرى التاريخ البشري، غايتي من هذا العمل المقتضب أن أرسم الخطوط العريضة وأن أبدد وهماً، ذلك أن صورة هذا الكتاب كانت قد طرأت على ذهني من قراءة القرآن والتأمل في نشوء الإسلام، بغية المزيد من الدقة والصراحة، فإنني أعترف أن جزءاً من الدافع إلى كتابة هذا الكتاب كان قد تأتى

---

(١). كاتب ألماني، تخصصت معظم مؤلفاته في كتابة السيرة الذاتية لعدد كبير من القادة السياسيين والشخصيات التاريخية وبعض المفكرين. انظر: ويكبيديا الموسوعة الحرة: http://ar.wikipedia.org

(٢). علي الدشتي: ٢٣ عاماً في دراسة السيرة النبوية المحمدية، ص ٢٨.

عن النظرية النفسانية أو الملاحظة النفسانية بعبارة أدق، فالأفكار التي تُغْرس في ذهن الشخص في الطفولة تظلُّ، كما نعلم جميعاً، في خلفية تفكيره أو تفكيرها، وهذا ما سيدفعه أو يدفعها إلى السعي وراء جعل الوقائع مطابقةً للأفكار المغروسة ولو لم يكن لهذه الأخيرة أيّ سند واقعي، ولا ينجو حتى الباحثون المتفقهون، إلا في حالات استثنائية قليلة، من هذا العبء الذي يثقل كاهلهم ويعوقهم عن استخدامهم حسهم السليم؛ أو إنهم أذا ما استخدموه؛ فإن ذلك لا يكون إلا في الحالات التي يتوافق فيها مع أفكارهم الراسخة، وإذا ما كان لبشر قد وُهِبوا ملكتي الإدراك والاستدلال المنطقي التي تمكنان من حل المشاكل العلمية، فإن هؤلاء البشر متهيئون في قضاي الاعتقاد الديني والسياسي لأن يدوسوا بالأقدام ليس الأدلة العقلية وحسب بل الأدلة الحسية أيضاً". [١]

ثانياً: موقف الكاتب من النبوة والوحي:

بعد أن عدد الكاتب آراء كثير من الباحثين الغربيين والإسلاميين حول النبوة والوحي والمعجزات، وبعد عدة مقاربات طويلة استخلص الكاتب من هؤلاء موقفه من النبوة فقال: **"هكذا ينبغي أن تُقَارَب مسألة النبوة من زاوية أخرى، إذ ينبغي أن يُنظر إليها على أنها ضَرْبٌ من العبقرية الذهنية والروحية خاصٌ بفرد استثنائي".** [٢]

ثم أخذ يعقد مقارنات بين القادة العسكريين أمثال: كورش، والإسكندر، وقيصر، ونادر، ونابليون ممن أبدوا عبقرية في وضع الخطط وكسب الحروب، دون أن يكون لديهم ما يعلّمونه لأتباعهم أو يدعونهم إليه! وفي حقول العلم والفن، كان ثمة رجال أمثال: أرسطو، وابن سينا، ونصير الدين الطوسي، وأديسون، والفردوسي، والمعري ... الخ، ومئات سواهم ممن أضاءوا سماء الحاضرة باكتشافاتهم، واختراعاتهم، وروائع فنهم وفكرهم، فلماذا لا يمتلك كائن بشري مثل عبقريتهم في المجال الروحي؟! فليس ثمة أساس عقلاني لاستبعاد ظهور أفراد يحملون في أعماق عقولهم **فكرة الكينونة المطلقة** ويتوصلون بقوة تأملهم شيئاً فشيئاً إلى ضرْبٍ من الكشف أو الإلهام يدفعهم إلى هداية العالمين وتعليمهم. [٣]

---

(١). علي الدشتي: ٢٣ عاماً في دراسة السيرة النبوية المحمدية، ص ٢٨.

(٢). نفس المرجع، ص ٤٢.

(٣). نفس المرجع، ص ٤٣.

عجيب وغريب مثل هذا الكلام الذي يعبر عن سذاجة الكاتب حيث يرى أن النبوة بالاكتساب والمران وكثرة التأمل والتفكير ونسي قول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

ثالثاً: موقف الكاتب من المعجزات والخوارق:

لقد خلط الكاتب خلطاً كبيراً بين الأساطير والمعجزات، فالمعجزات في نظره لا تتعدى الأساطير بأي حال من الأحوال، فأخذ يقلب سور القرآن الكريم ويتنقل بين الآيات ثم يفسرها طبقاً لما يؤيد دعواه أو هواه، وخلص إلى استنتاج غريب فقال: "**يبلغ مجموع المواضع التي تفند القول إن على محمد، إذا ما كان نبياً، أن يأتي بمعجزة وألا يكون بشراً أكثر من خمسة وعشرين موضعاً في السور المكية، وقد تمثل رد محمد إما بالصمت أو بالتأكيد على بشريته،** فإذا ما كان قد تلقى وحي الله، إلا أنه بشرٌ فانٍ شأن أي بشر آخر، ونجد في الآية (٢٠) من سورة يونس بياناً ناصعاً لهذه الحقيقة (ويقولون) فمحمد مثل بقية القوم، لا علم له بغايات الرب المبهمة؟! أما في الآية (٧) من سورة الرعد فيرُدُّ على السؤال عن نبوة محمد بالقول إن مهمته الوحيده نقل أوامر ربه، دون أن يرُدَّ على وجه الدقة على السؤال عن غياب المعجزات: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرعد:٧] (فيقول الرب لمحمد) ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧] غير أن الآية تنطوي على أن اجتراح المعجزات ليس من مهام النبي".[1]

وفي نهاية المطاف بلغ به السفه أن يعلق بل وينتقد كلام الله المحكم، فيقول: "ونجد في الآية (٣٧) من سورة الأنعام تفسيراً مختلفاً لغياب المعجزات: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧] **ألا يفتقر مضمون هذه الآية إلى التماسك العقلاني والسياق المنطقي؟** لقد طالب المنكرون بمعجزة

(١). علي الدشتي: ٢٣ عاماً في دراسة السيرة النبوية المحمدية، ص ٦٧.

فقيل لهم أن الله قادر على أن ينزل معجزة، غير أن قدرة الله على فعل ذلك لم تكن محل شك؛ فإقرارهم بهذه القدرة هي التي تقف وراء مطالبتهم، فعلى الله ذي القدرة الكلية، أن يكون قد نزل معجزة، لكنه لم يفعل، وتقول الآية إن أكثرهم لا يعلمون، فما الذي لا يعلمونه؟ لا بد أنهم يعلمون أن الله قادر على كل شيء؛ وإلا لما طالبوا بمعجزة، وبذلك تكون الصلة بين الرد على المطالبة وهذه المطالبة صلة مبهمة وغامضة".[1]

رابعاً: هل الدشتي سرق الكتاب ولم يؤلفه؟!

قبل رمي تهمة السرقة على الأديب والدبلوماسي والسياسي علي الدّشتي علينا التأكد إذا كان قد قصد السرقة أم أنه أراد ترجمة النص وإصداره بالفارسية خالياً من اسم المؤلف؟ فهناك من أورد أدلة يؤكد فيها تورط الدّشتي بسرقة الكتاب؛ وبالمقابل هناك ما يشير إلى دوره كمترجم حاول إبعاد اسمه من على غلاف الكتاب خشية مما يُرمى به من تهمة التجاوز أو تخطي الحدود في كتابة السيرة النبوية على الرغم من أن كتاب الرصافي "الشخصية المحمدية" كان كتاباً هزلياً في حق شخصية الرسول ﷺ وليس فيه غير محاولة إنكار أو التشكيك في الروايات الواردة في سيرة ابن هشام أو السيرة الحلبية على الأقل، التي اعتمد عليهما في تأليف كتابه.

كتب الباحث العراقي الدكتور رشيد الخيون مقالة له بصحيفة الشرق الأوسط اللندنية بعنوان: **(علي دَّشتي ترجم بتصرف كتاب الرصافي "الشخصية المحمدية" ولم يؤلفه؟!)** وفيها اتهام واضح وصريح لمؤلف هذا الكتاب بالسرقة قائلاً: "هناك عدة أمور تقود الباحث أو القارئ إلى الشك في حقيقة عمل المؤلف منها الاهتمام نفسه فمن النادر أن يصنف ناقد أدبي كتاباً في الأديان والمذاهب أو يبرز ناقد سينمائي في كتاب حول طبقات الأرض مثلاً وهذا ما قاد إلى فضح سرقتين على صفحات جريدة "الشرق الأوسط" لفت تأليفهما خارج حدود اهتماميهما، وهذا ما يقود أيضاً إلى الشك في نسبة كتاب "٢٣ عاماً دراسة في السيرة النبوية المحمدية" إلى علي الدَّشتي فهو لم يُعرف طوال حياته في كتاب أو مقال أنه من المهتمين في التاريخ، بل مؤلفاته في الشأن الأدبي والتصوف كوجدان لا كتاريخ.

انتبه إلى هذه الحقيقة كاتب إيراني يعيش منفياً بالسويد، كتب بالفارسية في جريدة

---

(١). علي الدشتي: ٢٣ عاماً في دراسة السيرة النبوية المحمدية، ص ٧٥.

"نيمروز" التي تصدر بلندن: "**ان ما صدر باسم علي الدّشتي خال من الصحة فالكتاب لمعروف الرصافي وما الدّشتي إلا كان مترجماً، كان الدكتور محمد علي النجفي قد اطلع على نسخة من كتاب "الشخصية المحمدية" قبل نشره في كتاب مطبوع على الآلة الكاتبة استعارها من وزير عراقي سابق لم يسمح له بتصويرها بل قرأها على عجل وأعادها له، لكن لم يلتفت أحد إلى ما نبه إليه النجفي الذي كان يعرف علي الدّشتي وأفكاره عن قرب، لكن افتضح أمر الكتاب بعد ترجمته إلى العربية أخيراً**".

وبعد الاتصال بالدكتور نجفي حول ما كتبه في "نيمروز" أصر أن الدّشتي لم يسرق الكتاب بل لم يضع اسمه على الطبعة الفارسية الأولى، لكن الاسم ظهر على غلاف واحدة من طبعات الكتاب حسب ما توفر في مكتبة معهد الاستشراق البريطاني وكانت في حياة دَّشتي. وأن مترجم الطبعة الإنكليزية F.R.C. BAGLEY قال: إن الدّشتي طلب عدم نشر الكتاب إلا بعد وفاته لكنه لم يذكر أنه أوصى بعدم وضع اسمه على الكتاب وقد نشر تحت عنوان: TWENTY THREE YEARS عام ١٩٨٥م بلندن وسيدني وبوسطن.

ومما يُذكر أن علي تقي منزوي وهو نجل العلامة أغا بزرك الطهراني "صاحب الذريعة إلى تصانيف الشيعة" كان من المتحمسين لنشر الكتاب وهو أيضا من الذين ترددوا على سجون الثورة الإيرانية ليساريته وتربطه علاقة صداقة بعلي الدَّشتي، نفدت الخمسة آلاف نسخة داخل إيران وأخذ الكتاب يصدر تباعاً في الثمانينات من دون اسم دار نشر وبنسخ مصورة، وحسب النجفي أن الطبعة الأولى حملت اسم علي منزوي إلا أنه سارع إلى نفي هذه النسبة، وما لم يعلمه نجفي أن الطبعة الفارسية التي بين أيدينا حملت اسم علي الدّشتي مؤلفاً للكتاب لا مترجماً، وربما يعلل هذا العمل أنه حصل من دون علم دَّشتي فينقل عنه أنه صرح لمدير مجلة (ألمانية ــ فارسية): "بأنك لو وضعت اسمي (على غلاف الكتاب) فأنا سأكذبه"، بطبيعة الحال لا يخلو ما كتبه الدّشتي من بعد الآراء ومن إضافة نصوص واعتماد مصادر أخرى. وبغض النظر عن براءة أو تورط مؤلف كتاب "بيست وسه سال" أي "٢٣ عاماً" أن الكتاب بمجمله هو محاكاة دقيقة لكتاب الرصافي "الشخصية المحمدية" من ناحية الأسلوب والمعلومات والاستنتاجات وأن التقديم والتأخير في فصول الكتاب عما هو موجود في كتاب الرصافي لا تستر التشابه الشديد بين الكتابين، إن الأمر الأقوى الذي يضع كتاب المؤلف في محل الشك

هو لماذا لم يضع الدّشتي اسم الرصافي على الكتاب إذا كان قصده الترجمة وحسب وعندها ينتهي التساؤل فليس هناك مَنْ يبحث عن اسم المترجم، مات الرصافي ومات الدّشتي وظل السر مطوياً.

ومَنْ يدري فلربما أراد الرصافي الذي أوصى بعدم نشر كتابه إلا بعد وفاته لكتابه أن يكون بالفارسية ففيه ما فيه ضد بلاد فارس وضد التشيع الصفوي عموماً وهذا ما لم يظهره علي الدّشتي في "٢٣ سال"، وختاماً قد تقنع كلمة الناشر التي وردت على صفحة الغلاف الأخيرة غير المطلعين على كتاب "الشخصية المحمدية" في اعتبار علي الدّشتي مؤلفاً للكتاب لا مترجماً وناقلاً لكنه لا يقنع القارئ من أن المؤلف "يقدم تصوره عن وصول الإسلام إلى بلاد فارس وكيف استقبلوه فيها ولماذا أمنوا فيه"، فلا الدّشتي ولا الرصافي بحثا في هذا الموضوع والمصيبة أن يكون الناشر أو مَنْ كتب العبارة المذكورة لم يطلع على الكتاب حتى يجعل مثل هذه المعلومة جزءاً من الدعاية للكتاب".[(١)]

وللحقيقة وللتاريخ أرى في كلام رشيد الخيون تجني واضح على الكتابين والرجلين؟! فلا وجود لأي علاقة أو تشابه من قريب أو من بعيد بين الكتابين بل وحتى والأسلوبين، فكتاب الرصافي "الشخصية المحمدية" كُتب بالعربية وبأسلوب واضح وصريح لا مواربة فيه لكاتب يتقن بل ويتفنن بأساليب العربية نظماً وشعراً، بصرف النظر عما جاء به من آراء وتحليلات ووجهات نظر تُخالف المألوف بل والمتفق عليه بين المحدثين والمؤرخين في السيرة النبوية قديماً وحديثاً، أما كتاب علي الدشتي "٢٣ عاماً في دراسة السيرة النبوية المحمدية"، فهو كتاب كُتب بالفارسية ثم تُرجم للعربية، ومن وجهة نظري الشخصية فالترجمة تغتال النص في أحايين كثيرة، ومن خلال قراءتي للكتاب فهو **لا يعد دراسة علمية موثقة في السيرة النبوية، ولا بحثاً جاداً حولها، وإنما هي خواطر لكاتب أحب أن يدلي بدلوه في السيرة على لسان قومه،** واجتزأ منها جانباً رآه من زاوية محددة ليركز الضوء على جانب معين من شخصية النبي ﷺ يرى أنه يصلح لإنارة السبيل لمن يبغي الرشاد في المجتمع الإيراني المحتاج إلى ذلك، وخصوصاً وأنه من المشتغلين بالأدب والصحافة والسياسة، وليس له كبير ولع بالتاريخ أو السيرة النبوية.

(١). رشيد الخيون: علي دَّشتي ترجم بتصرف كتاب الرصافي "الشخصية المحمدية" ولم يؤلفه؟! (مقال، صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، العدد: ٩٧٠٤، بتاريخ: ١٧ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ).

ثانياً:

الاتجاه الصوفي في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال ق ١٤ هـ

كان الصوفية زهاداً وعباداً لا يعرفون سوى القرآن الكريم وعقائده، والتقوى أو الانقطاع إلى الله ﷻ، فأحبهم الناس كثيراً ومالوا إليهم، وهذا الميل استغله أهل الإبطان، فدخلوا صفوف أولئك الزهاد بعقائد باطنية؛ بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة لا عن طريق اتباع الوسائل الشرعية، ولذا جنحوا في المسار حتى تداخلت طريقتهم مع الفلسفات الوثنية: الهندية والفارسية واليونانية المختلفة.

يقول سفر الحوالي: "كلمة الصوفية مأخوذة من كلمة (سوفيا) ومعناها في اللغتين اليونانية والهندية القديمة: (الحكمة)، ومنها اشتقت كلمة (فيلا سوفيا) أو (فيلسوف)، ومعناها: (محب الحكمة)، كما أن كلمة (ثير صوفية) معناها: الحكمة المتعلقة بالإله، وهي مذهب معروف قديماً وحديثاً، والهندوس يطلقون كلمة الصوفية على رهبان البراهمة، وحكمائهم الروحانيين الذين يهيمون في الغابات عراة، باحثين عن الحكمة والمعرفة ـ بزعمهم ـ والغاية عندهم الاتحاد بالله والفناء في ذاته تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا"[(١)]، وهذه ــ الفلسفات ــ مخالفة لعقائد المسلمين؛ فانتشرت في الخفاء ولم تظهر إلا بعد حين، ولما عرفت حوكم أصحابها، وكان أبو منصور حسين الحلاج[(٢)] (ت ٣٠٩هـ) أول من جاهر بها وأظهر أمرها، ولم يطلع العلماء على نصوصها وما عرف عنه كان كافيا للحكم بقتله لخروجه على عقائد الإسلام.[(٣)]

---

(١). سفر الحوالي: أصول الفرق والأديان والمذاهب الفكرية المعاصرة، ص ٥٨.

(٢). الحسن بن منصور الحلاج، كان جده مجوسياً من أهل فارس، ونشأ بواسط ودخل بغداد، قال الخطيب البغدادي: "كان مشعوذاً متلوناً فهو مع كل قوم على مذهبهم إن كانوا أهل سنة، أو رافضة، أو معتزلة، أو صوفية، أو فساقاً، وغيرهم، وما زال يضل الناس حتى ادعى الربوبية فسجن في بغداد وأجمع الفقهاء على كفره وزندقته وأنه ساحر ممخرق، قتل ببغداد سنة ٣٠٩هـ بعد فتوى الفقهاء". انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص ١٣٨.

(٣). عباس العزاوي: تاريخ العقيدة الإسلامية في العراق في لما بعد العهود العباسية (الطبعة الأولى، الرياض، دار التوحيد، ١٤٣٢هـ) اعتنى به: عمر أحمد آل عباس، ص ٤٤٩.

الطرق الصوفية في العراق خلال ق١٤هـ:

١). الطريقة القادرية:

تنسب إلى عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني (ت٥٦١هـ) المدفون في بغداد، إذ تزوره كل عام جموع كثيرة من أتباعه للتبرُّك به، اطلع على كثير من علوم عصره، وقد نسب أتباعه إليه كثيراً من الكرامات.[١]

يقول عباس العزاوي عن عبد القادر الجيلاني: "اشتهر بالوعظ كما عرف بالزهد والتقوى، فصار من العلماء المعروفين، والوعاظ المقبولين، خلف أستاذه في التدريس بمدرسته فمالت إليه القلوب، ولهج به الناس، وحصل على الثقة من كافة الطبقات، ويعد سلوكه المرضي وزهده وصلاحه (طريقة) عاصر حضرة الشيخ عبد القادر جماعة من الزهاد الأكابر"، هذا عن بداية الطريقة؛ زهد وصلاح وتقوى، ونهجها اتباع الكتاب والسنة، ولكنها في النهاية دخلها الغلو، وقال العزاوي ـ أيضاً ـ : "ثم دخل كثيرون من أرباب الزيغ من غلاة التصوف هذه الطريقة فأفسدوا الكثير منها، ولم يعهد أن ذم أحد من الزهد والصلاح والتقوى إلا أن دخول أهل الإبطان بين صفوفهم أخرجهم عن نهجهم، وجعلهم فلاسفة من رجال الأفلاطونية الحديثة، لا من رجال العبادة والتقوى، ثم زاد الغلو فيها فيقول العزاوي: "وفي هذه الأيام شاع في أتباع هذه الطريقة ما هو أشبه بالخروج عن الإسلام لما دخلها من البدع والشذوذ".[٢]

وتقول الباحثة أسماء بن عفيف: "لما تحدث العزاوي في كتابه (عشائر العراق) عن الطريقة القادرية وصفها بأنها خالية من القول بالوحدة والحلول والاتحاد إلا أنها تابعة لرسوم تكاد تشغل المرء عن الفرائض الدينية، وفيها تكاليف لا تطاق، وذكر أن من أسباب ضعفها ـ في عصره ـ هو نشاط الطريقة النقشبندية التي كان ازدياد مريديها واضحا وبانتظام، حيث إن كلا الطريقتين مشهودة في بلاد الكرد".[٣]

ويذهب إلى ما ذهب إليه العزاوي من الحكم على بداية هذه الطريقة بعض الباحثين فيرون

---

(١). مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، جـ١، ص ٢٦٥.

(٢). عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٤، ص ١٤٨ ـ ١٥٣.

(٣). أسماء سالم بن عفيف: المؤرخ عباس العزاوي وجهوده في دراسة تاريخ العقيدة والفرق المعاصرة في العراق (الطبعة الأولى، الرياض، دار التوحيد، ١٤٣٠هـ) جـ٢، ص ٦٤٢، نقلاً عن: عباس العزاوي: عشائر العراق، جـ٢، ص ٢٢٥.

أن هذه الطريقة منسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني، وهو المؤسس الحقيقي للطريقة القادرية، والذي وضع مبادئها فيقول: "ويجب على المبتدئ في هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس فيكون على عقيدة السلف الصالح، وقد ذكر بعض البدع العملية، مثل الأوراد، والسماع، والتوكل الصوفي، والفقر، وصلوات الأيام والليالي وغير ذلك، ولكن الميزة العظمى التي تحلى بها الشيخ هي الاعتقاد الصحيح والرد على أهل البدع، وقد ذكر الأمور السابقة ظنا منه ثبوتها عن النبي ﷺ".[١]

وأما ما ذكره العزاوي عن الطريقة من أنه أشبه بالخروج عن الإسلام فلما نسبوه للشيخ من كرامات وأقوال فيها كثير من الغلو والتي تصل إلى الشرك في توحيد الربوبية، وفي توحيد العبادة، ونسبوا له قصائد شركية فيها دعوى الربوبية، ونسبوا إليه القول بالحقيقة المحمدية، ونسبوا للشيخ الورد المسمى (صلوات الكبريت الأحمر)، وهو في الصلاة على النبي ﷺ، و(الباز الأشهب) و(القصيدة العينية) وقد تضمنت عبارات حول وحدة الوجود، وكذلك ورد الجلالة ودعاء الجلالة وتضمنا دعاء أسماء أعجمية يظهر أنها أسماء جن، والسؤال بحقها وعبارات تدل على وحدة الوجود، بل صرح عبد الغني النابلسي ـ من أصحاب الطريقة القادرية ـ بوحدة الوجود وملأ بها كتبه.[٢]

٢). الطريقة الرفاعية:

تنسب إلى أحمد الرفاعي (ت٥٨٠هـ) وهذه الطريقة كانت قائمة على الذكر، ولم تكن معروفة بما نشر عنها بعد ذلك من أعمال المشعوذين، فهم يضربون أنفسهم بالسلاح، ويغمدون الخناجر والسيوف في بطونهم، ويأكلون النار بقصد إثبات الكرامات، قال عنهم الشيخ الألوسي: "وأعظم الناس بلاءً في هذا العصر على الدين والدولة مبتدعة الرفاعية، فلا تجد بدعة إلا منهم مصدرها، وعنهم موردها ومأخذها، فذكرهم عبارة عن رقص وغناء والتجاء

---

(١). عبد الله دجين السهلي: الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وآثارها (الطبعة لأولى، الرياض، كنوز أشبيليا، ١٤٢٦هـ) ص ١٨٤، وسعيد مسفر القحطاني: الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية (الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ) ص ٦١٣، وفهد سليمان الفهيد: نشأة بدع الصوفية (الكتاب بلا هوية) ص ١١٠.

(٢). أسماء سالم بن عفيف: المؤرخ عباس العزاوي وجهوده في دراسة تاريخ العقيدة والفرق المعاصرة في العراق، جـ٢، ص ٦٤٣.

إلى غير الله، وعبادة مشايخهم، وأعمالهم عبارة عن مسك الحيات".[(١)]

وإنما انتشرت هذه الأعمال بعد وفاة الرفاعي، أيام المغول وبعد دخولهم بغداد حيث زادت الرفاعية من هذه الأفعال، ويقدم العزاوي الدليل على سلامة طريقة الرفاعي المؤسس، بما ورد عند الذهبي في كتابه (العبر)، حيث يقول: "في هذه السنة ٥٧٨هـ توفي أحمد الرفاعي الزاهد القدوة أبو العباس بن علي بن أحمد، وكان أبوه قد نزل البطائح بالعراق بقرية أم عبيدة فتزوج بأخت الشيخ منصور الزاهد، فولد له الشيخ أحمد في سنة ٥٠٠هـ وتفقه قليلا على مذهب الشافعي، وكان إليه المنتهى في التواضع والقناعة ولين الكلمة والذل والإنكار، والإزراء على نفسه، وسلامة الباطن، ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء وقد كثر الدخل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذ التتار العراق من دخول النيران، وركوب السباع، واللعب بالحيات وهذا لا عرفه الشيخ ولا أصحابه فنعوذ بالله من الشيطان الرجيم".[(٢)]

ولكن صاحب الموسوعة الصوفية يورد هذا الإشكال، فيقول: "وكانت هناك محاولات تنفي عن الرفاعي أنه كان يمارس هذه المخاريق وأنها لم تَرُج إلا بعد مجيء التتار، إلا أن الواسطي في كتابه (ترياق المحبين) روى عن أصحاب الرفاعي من الفقراء أنهم كانوا يمرون مواكب أمامه في أرض البطائح، وأن الناس كانوا ينكرون هذه الفعال".[(٣)]

ولعل الاضطراب حول طريقة المؤسس الفعلية عائد إلى أنه لم يخلف كتاباً، وإنما جمع تلاميذه أقواله في عدة كتب[(٤)]، ومن هنا قد يكون نُسِب إليه ما لم يقل سواء بمدح أو غلو في الشيخ المؤسس بما يدخل في دائرة الذم، فينقل مثلا عنه أحد تلاميذ ـ الواسطي ـ أن الرفاعي أدعي المهدية، وادعى المهدية، وادعى أنه مجدد للقرآن[(٥)]، ومنهم من ينقل عنه أن شعاره في مدرسته "طريقي دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعلم بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا

---

(١). محمود شكري الألوسي: غاية الأماني في الرد على النبهاني (الطبعة الثانية، الرياض، ١٣٩١هـ) جـ١، ص ٣٧٠.

(٢). عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٣، ص ١٢٩.

(٣). عبد المنعم الحنفي: الموسوعة الصوفية (الطبعة الخامسة، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦م) ص ٣٠٣.

(٤). هذه الكتب هي (جمع أسرار الشريعة والحقيقة والطريقة) المشهور بالبرهان، (النظام الخاص لأهل الاختصاص) (رحيق الكوثر) وأهم تلاميذه: شرف الدين بن عبد السميع الهاشمي الواسطي، وابن المهذب، وهناك من صنف في الشيخ الرفاعي من غير تلاميذه. انظر: عبد المنعم الحنفي: الموسوعة الصوفية، ص ٢٩٧.

(٥). نفس المرجع، ص ٣٠٣.

شهوة"[١]، واتخذ علوم الشريعة أساسا في مدرسته، فهو يرى أن كل حقيقة خالفت الشريعة فهي خروج عن الدين وزندقة[٢]، وأما الرفاعية المتأخرين ففي كتبهم يتضح استعانة واستغاثة وتوجه للقبور، وعقيدتهم الظاهرة يتابعون فيها الأشعرية المتأخرة في تعريف التوحيد ونفي الغلو، وأن القرآن قديم وغير ذلك، كما تتبع الصوفية في المشي مع القدر، وفي الحقيقة المحمدية والنور المحمدي، وتتفق مع الشيعة في أمور عدة منها: إيمانهم بكتاب الجفر، واعتقادهم في الأئمة الاثني عشرية، وأن أحمد الرفاعي هو الإمام الثالث عشر، بالإضافة إلى مشاركتهم الحزن يوم عاشوراء، وغير ذلك.[٣]

٣) الطريقة النقشبندية:

تنسب إلى الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد البخاري الملقب بشاه نقشبند (ت٧٩١هـ) ويركز العزاوي على هذه الطريقة التي جددها أحمد السرهندي فيقول: "أصل النقشبندية من زاهد صالح في بلاد ما وراء النهر، شاعت في أقطار كثيرة، ومنها العراق في بغداد، والموصل والبصرة، أعني شاه نقشبند، والشاه بمعنى السلطان ويعبر عنه وبالسلطان عن الشيخ، أو عن أكبر شيخ، فيقال: "شاه نقشبند" و"سلطان العارفين" و"سلطان الأولياء".[٤]

لم يشر العزاوي إلى الجديد الذي أتى به شاه نقشبند في الوقت الذي يعتبر الشيبي أن ظهور شاه نقشبند ثورة صوفية سببها أن الصوفية قد لاحظوا أن التصوف في القرن السابع ارتبط كله بسلاسل شيوخ تنتهي بالنسب إلى علي بن أبي طالب ﷺ فلاحظ الصوفية ـ كما يصف الشيبي ـ أن التصوف يميل شيئا فشيئا إلى التشيع حتى خشوا أن يدمج فيه فيتعرضوا للأخطار وتؤول ولايتهم إلى العلويين وحدهم، ومن هنا ظهرت الطريقة النقشبندية فألغت كل تقاليد التصوف القديم من ذكر وخلوه وكرامات، وألغت ما هو أهم من ذلك وهي السلسلة

---

(١). عبد الحكيم قاسم : المذاهب الصوفية ومدارسها (الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠م) ص ١٦٧.

(٢). عبد المنعم الحنفي: الموسوعة الصوفية، ص ١٦٨.

(٣). مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان المذاهب والأحزاب المعاصرة، جـ١، ص ٢٦٦، وعبد الحكيم قاسم: المرجع السابق، ص ٣٠٣، وعبد المنعم الحنفي: المرجع السابق، ص ٨٩.

(٤). بينما يرى البعض أن معنى نقشبندية هو: (نقش بندر) أو (ربط النقش) والمقصود بالنقش انطباع القلب بالذكر، وربطه أي بقاؤه من غير محو، حيث تقوم هذه الطريقة في التصوف على الذكر أساسا، وتسمى أيضا (طيفورية) نسبة إلى البسطامي طيفور، فنسبتها تكون لإمام وقتها. انظر: عبد المنعم الحنفي: المرجع السابق، ص ٧٠٧.

التي كانت ترجع في مجموعها إلى علي بن أبي طالب ﷺ، فنفى شيخها أن تتصل سلسلته بأحد، ونفى أن يكون المعاصرون له من الصوفية أصلاً فقال: "ألم تصل إلى المتأخرين الطريقة من أحد من المشايخ وقد اعتبر محمد نقشبند لهذا السبب مجدد الدين على رأس المئة الثامنة وعادت تلاميذه بطريقتهم إلى الجنيد البغدادي وجعلوه ولياً يكلمهم ويوجههم".[(١)]

وتحدث العزاوي عن عقيدة أحمد السرهندي الفاروقي ناقلاً عن أبي الثناء حكمه عليه فقال: "إنه لا يقول بالوحدة والاتحاد والحلول، وعقيدته خالصة ويحض على العمل الصالح"[(٢)]، ويؤيد هذا الرأي صاحب (أبجد العلوم) الذي امتدح السرهندي بقوله: "وسعى في التفريق بين الشهودية والوجودية العارفان الجليلان الشيخ أحمد السرهندي والشيخ ولي الله الدهلوي قدس الله أسرارهما وإن لم يمهدوا له ضوابط وقد عرفناك فضل منفعته فذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون، أي من إفاداته أنه أوضح الفرق بين وحدة الوجود وبين وحدة الشهود، وبيّن أن وحدة الوجود تعتري السالك في أثناء سلوكه، فمن ترقى مقاما أعلى من ذلك تتجلى له حقيقة وحدة الشهود فسدّ بذلك طريق الإلحاد على كثير ممكن كان يتستر بزي الصوفية".[(٣)]

وعن رأي العزاوي في مجدد الطريقة النقشبندية وهو الشيخ خالد يقول: "وممن أنجب العراق من الكرد خالد النقشبندي[(٤)]، حيث امتاز بمزايا خلدت له فضلا جميلا، فلا يذكر التصوف ولا النقشبندية إلا ويبدو للخاطر اسمه، شغل الأفكار مدة بصلاحه، ودعا إلى التوحيد ومذهب السلف أمداً طويلاً فنال اسماً لامعاً، واقتدي به الناس، وكان من أهل العلم المشاهير"[(٥)]، ويقدم العزاوي أدلة على سلامة معتقد الشيخ خالد نقشبندي، فيقول: "وكنت قد رأيت كتب الشيخ خالد النقشبندي في فهرس كتبه في الخزانة الظاهرية، فوجدتها في العقائد،

---

(١). كامل مصطفى الشيبي: النزعات الصوفية في التشيع (الطبعة الثالثة، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٢م) ص ٢٩٥.

(٢). عباس العزاوي: تاريخ العقيدة الإسلامية لما بعد العهود العباسية، ص ٤٥٢.

(٣). صديق القنوجي: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م) تحقيق: عبد الجبار زكار، جـ١، ص ٣٩٨.

(٤). بهاء الدين، خالد بن أحمد بين حسين الشهرزوري الكردي، الشافعي، ولد سنة ١١٩٣هـ شيخ الطريقة النقشبندية، هاجر إلى بغداد، ورحل إلى دمشق وتوفي بها سنة ١٢٤٢هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٢، ص ٢٣٤.

(٤). عباس العزاوي: شهروز السليمانية (الطبعة الأولى، بغداد، المجمع العلمي العراقي، ١٤٢٠هـ) ص ٢٨٠.

وفي فقه الشافعية، وليس بينها من كتب الباطنية، أو غلاة التصوف، ومن ثم يدرك أنه دعا دعوة في الحقيقة كانت مصروفة إلى مذهب السلف وتأييده، فهو ذو دين وطريقة مستقيمة، وربما اختار هذه الطريقة لخلوها من الرموز والوصايا الخفية، ولذا نراه دائما في كافة وصاياه يأمر بالتقوى ويدعو إلى الله في السر والخفاء، ولزوم متابعة الأمور الدينية والأخذ بالعلوم ويحض عليها، ولم ينفر منها". [(١)]

الحقيقة المحمدية عند الصوفية:

حتى لا نتجنى على الصوفية؛ فهذه قطوفٌ من أقوالهم التي تغص بها كتبهم:

١. "الحقيقة المحمدية ضامة لجميع الذوات، هادية بأمر الله، لا تحدث أمراً إلا بإذنه، وهي قديمة قدم الخالق، وهي خلق دون إيجاء، إذ هي الوجه المتعين للنور الأول"[(٢)].

٢. "الحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل، فالإنسان صورة الحق من التنزيه والتنزيه والتقديس عن الشوب في حقيقته، فهو المألوه المطلق، والحق سبحانه هو الإله المطلق، وأعني بهذا كله: الإنسان الكامل"[(٣)].

٣. "الحقيقة المحمدية أو الروح المحمدي هو المظهر الكامل للذات الإلهية والأسماء والصفات"[(٤)].

٤. "اعلم أن الإنسان الكامل (الحقيقة المحمدية) هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصلة والملك، بحكم المقتضى الذاتي"[(٥)].

٥. "هي الذات مع التعيُّن الأول، ولها الأسماء الحسنى وهي اسم الله الأعظم"[(٦)]

فمحمد ﷺ عند الصوفية ليس بشراً، ولا رسولاً، وإنما هو الذات الإلهية في أسمى مراتبها!! فمن تصفح كتبهم وجد الكثير والكثير من مثل هذا الدجل المدبج بالألغاز الفلسفية

---

(١). أسماء سالم بن عفيف: المؤرخ عباس العزاوي وجهوده في دراسة تاريخ العقيدة والفرق المعاصرة في العراق، جـ٢، ص ٦٥٢.

(٢). عطية عدلان: حقيقة الرسول ﷺ بين الصوفية وأهل الحديث (الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ) ص ٢١.

(٣). نفس المرجع، ص ٢١، نقلاً: عن الفتوحات المكية لابن عربي، جـ٢، ص ٦٠٣.

(٤). نفس المرجع، ص ٢١، نقلاً: عن الفتوحات المكية لابن عربي، جـ٢، ص ٩٧.

(٥). نفس المرجع، ص ٢١، نقلاً: عن الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي، جـ٢، ص ٧٧.

(٦). عبد الرحمن الوكيل: هذه الصوفية؟! (الطبعة الرابعة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٤م) ص ٧٤.

والطلاسم اللاهوتية، واللافت للنظر أن الصوفية قالوا مثل هذا وأكثر منه عن الأولياء، بل إن الدارس لأقوالهم يشعر بأن كلامهم عن الأئمة والأولياء هو الأصل القديم وأن كلامهم عن الحقيقة المحمدية جاء لإحداث التوازن والتناسق في الصورة العامة، شأنهم في ذلك شأن الشيعة، وكأن الصوفية لم يستسيغوا أن يقال: "إن رسول الله ﷺ هو كما وصفه القرآن الكريم بشراً رسولاً، وهم جعلوا أقطابهم تتصف بما وصف الله به نفسه، فكيف برسول الله ﷺ، فابتدعوا ما أسموه (الحقيقة المحمدية)"

فهذا ولا ريب شعبة من شعب الغلو الذي وقعت فيه الصوفية بل من شعب الكفر، وهو مزيج من الغلو في رسول الله ﷺ والتأثر بالفلسفة اليونانية في تقريرها لأول مخلوق، والتأثر بالنصرانية التي أصفت صفات الربوبية على المسيح عليه السلام، والمشكلة أن هذه التي يسمونها (الحقيقة المحمدية) هي غموض كامل وعماء في عماء، ولأنها نشأت في الأصل في خيال مريض وأوهان ليس لها أي رصيد من الواقع، ولذلك نلاحظ أن أقوالهم في تعريفها أو الكلام عنها غامضة أيضاً، فالرسول ﷺ أول موجود وأول مخلوق وهو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو منه انشقت الأسرار ولا شيء إلا وهو به منوط، وهو عين الإيمان والسبب في وجود كل إنسان[1].

وكأن الصوفية لم يستسيغوا أن يقال: إن رسول الله ﷺ هو كما وصفه القرآن الكريم بشراً رسولاً وقد جعلوا أقطابهم تتصف بما وصف الله سبحانه وتعالى نفسه؟! فكيف برسول الله ﷺ فابتدعوا ما أسموه (الحقيقة المحمدية) وعلى أساس هذه النظرية ندرك مغزى ما يقول البوصيري[2]:

وإن من وجودك الدنيا وضرتهـــا	**ومن علومك علم اللوح والقلم**
فلذا إليك الخلق تفزع كلهم في	**هذه الدنيا وفي اليوم الأهـــــم**
وإذا دهتم كربة فرجتها حتـــى	**سوى العقلاء في ذاك انتظـــــم**
جد لي فإن خزائن الرحمن فـي	**يداك اليمنى وأنت أكرم من قسم**

---

(١). محمد العبدة وآخر: الصوفية نشأتها وتطورها (الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة الكوثر، ١٤٢٧هـ) ص ٦٩.

(٢). أبو عبد الله، شرف الدين، محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، نسبته إلى بوصير من أعمال بني سويف بمصر، أمه منها، وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيل يعرفون ببني حبنون، ووفاته بالإسكندرية، له ديوان شعر مطبوع. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٦، ص ١٣٩.

يا أكرم الرسل ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

وقوله:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها   فإنما اتصلت من نوره بهم

وقوله:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من   لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقول ابن نباتة المصري[١]:

لولاه ما كان أرض ولا أفق   ولا زمان ولا خلق ولا جبل

وقد كان الرسول ﷺ يخشى على أمته من الغلو فقال محذراً: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، وإنما عبد الله ورسوله"[٢]، ولكن الذي فعله هؤلاء هو أكبر من الغلو، إنه الشرك والضلال، وإلا كيف تفسر قول الشيخ الدباغ: "إن مجمع نوره لو وضع على العرش لذاب"[٣]، وقول أبي العباس المرسي: "جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة ونبينا هو عين الرحمة"، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] [٤]، فانظر إلى هذا الاستنتاج العجيب؟! إنها المضاهاة بعينها، فإذا كان المسيح ابن الله عند النصارى، فلماذا لا يخترع الصوفية الحقيقة المحمدية؟!، وهذا ناتج نظريتهم في وحدة الوجود[٥].

ومن المؤسف أن المستشرق نيكلسون يتكلم في كتابه كلاماً صحيحاً عن شخصية الرسول محمد ﷺ بينما غلاة الصوفية تاهوا في معمياتهم وسراديبهم حيث يقول: "إذا بحثنا في شخصية محمد في ضوء ما ورد في القرآن، وجدنا فرقاً شاسعاً بينهما وبين الصورة التي صُوِّر بها في ذلك العهد، وبين الصورة التي صُوِّر بها الصوفية أوليائهم، أو تلك الصورة التي صور الشيعة إمامهم

---

(١). أبو بكر، جمال الدين، محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري شاعر عصره، وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب، مولده ووفاته في القاهرة، له ديوان شعر مطبوع. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٧، ص ٣٨.

(٢). أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية. انظر: محمد ناصر الدين الألباني: مختصر الشمائل (الطبعة الثانية، المكتبة الإسلامية، عمان، ١٤٠٦هـ) ص ١٧٥ ،حديث رقم: ٢٨٤، وقال عنه: حديث صحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٣). عبد الرحمن الوكيل: هذه الصوفية؟!، ص ٨٧.

(٤). محمد العبدة وآخر: الصوفية نشأتها وتطورها، ص ٧١، نقلاً عن ابن عطاء الله السكندري في كتابه: لطائف المنن، ص ١٢.

(٥). عبد الرحمن الوكيل: المرجع السابق، ص ٨٥.

المعصوم، **وظهر من المقارنة أن صورة شخصية الرسول لا تَفْضُل عند الموازنة صورة الولي الصوفي، أو صورة الإمام الشيعي، إن لم تكن دونهما، ذلك أن الولي الصوفي أو الإمام المعصوم عند الشيعة، قد وصفا بجميع الصفات الإلهية، بينما وصف الرسول في القرآن الكريم بأنه بشر** فيه ما للبشر من صفات، وأنه ينزل عليه الوحي من ربه بين آن وآخر، ولكنه لا يتلقاه مباشرة عن الله، بل بواسطة الملك، وأنه لم يرى الله قط، أو يطلع على أسراره، وأنه لا يتنبأ بالغيب، ولا يفعل المعجزات، أو خوارق العادات، بل هو عبد من عباد الله ورسول من رسله"[1]، وقد بحثت في العديد من المكتبات العامة والخاصة عن كتب تمثل هذا الاتجاه، ولم أجد جعفر البرزنجي وكتابه: شرح المولد النبوي.

(١). عبد الرحمن الوكيل: هذه الصوفية؟!، ص ٨٥.

جعفر البرزنجي[١] وكتابه شرح المولد النبوي:

الطبعة التي بين يدي ـ لهذا الكتاب ـ بتقديم الأستاذ الدكتور علي محمد عبد الوهاب وكيل كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر، وقد أثنى في تقديمه على المؤلف والشارح فقال: "وهذا المولد الذي بين أيدينا للشيخ الجليل حسن بن جعفر البرزنجي طيب الله ثراه، وأثابه خير الجزاء ـ من قبيل هذا الحب العاقل الرشيد، ولقد كان لهذا المولد مع العارفين المحبين رحلة طويلة، ومدة مديدة، وتناقله الناس ينبئ عن صدق لهجة مؤلفه وعظيم وفائه..

يأتي نبته الصالح ليواصل مسيرة الحب والصدق، فأضاف إلى التقى زهداً، والشهد زبداً، وقلد لنا جواهر سلفه بلآلئ البيان بشرح مستفيض وتبيان، مقتنصاً الشوارد، ومقيداً الأوابد، عازياً الفروع إلى أصولها، والروايات إلى مصادر نقولها، حتى تعم الفائدة، ويعظم النفع، فجزى الله الجميع الخير والسعادة، وأنالنا بحب رسوله الحسنى وزيادة..".[٢]

وقد تناول الشارح وهو السيد جعفر البرزنجي، حفيد المؤلف بالشرح والتحليل ـ الكتاب ـ وبيَّن فيه كل ما هو جميل من نبينا ﷺ، وشرح كل غامض وأزال كل إشكال بالتفحيص والتمحيص، وبدأ بميلاد النبي ﷺ، وتعرض لأقوال العلماء والفقهاء، ثم شرح الإشكالات حول هذا الموضوع، ثم انتقل من حدث إلى حدث حتى وصل إلى نهاية الكلام عن هذا الأمر، ولم يكن البرزنجي بدعاً من المؤلفين حين ألف هذا المؤلف، وسبقه علماء في هذا الأمر، وعلى رأسهم الإمام السيوطي[٣][٤] فقد ألف: (حسن المقصد في عمل المولد)، ويعرض المؤلف في هذا الكتاب لكثير من أقوال العلماء حول هذا الموضوع، وذكر أول من ألف في هذا الموضوع، ولقد ذُكر الكتاب في كثير من المصادر والمراجع العربية، ولا ننسى أن المؤلف والشارح من أعلام الصوفية ـ حينذاك ـ في العالم الإسلامي، يقول الشارح: "وهو ـ وإن شُرِحَ ـ يحتاج إلى شرح يحرر مقاصده وينقح فرائده ويوضح ما فيه من مطويات الرموز ومخبآت الأسرار، ويكشف عن وجوه عرائس فوائده الأستار، ويُعْرِب عن عجائب تدقيقه ومحاسن تحقيقه، ويفصح عن

---

(١). تقدمت ترجمته في صفحة ١٨٩.

(٢). جعفر البرزنجي: شرح المولد النبوي (القاهرة، مركز بن العطار للتراث، د.ت) تحقيق: نادى فرج درويش، ص ٦.

(٣). جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، عالم موسوعي وُلد في القاهرة سنة ٨٤٩هـ له المؤلفات، توفي بالقاهرة سنة ٩١١هـ. انظر: الموسوعة العربية العالمية على الرابط الكتروني: http://www.mawsoah.net

جواهر تنميقه وبدائع تأنيقه، فاستخرت الله تعالى في شرح ذلك، وإن كنت بمعزل عما هنالك، موشحاً ذلك مما وقفت عليه من الأحاديث المر ضية عند العلماء، وما ظفرت به من الأقوال المستحسنة لدى الفضلاء، فوضعت عليه هذا الشرح اللطيف والأنموذج الشريف من غير أن يطلبه مني طالب، أو يرغب إليَّ في تصنيفه راغب، لكن تطلبت نفسي فيه مدح الأمين والمأمون، زكى المنابت طيب الأغراس، الذي ظهرت عند حمله وولادته ورضاعه آيات حيرت عقول ذوي الأنفاس، فأودعته نفائس كأنهن الياقوت والمرجان، وعرائس لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان، وسميته: "الكوكب الأنور على عقد الجوهر في مولد النبي الأزهر ﷺ".[١]

أولاً: موقف المؤلف في أصل عمل المولد:

قال الشارح: "اعلم أنه بدعة لأنه لم ينقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة الفاضلة التي شهد النبي ﷺ بخيريتها، لكنها بدعة حسنة لما اشتملت عليه من الإحسان الكثير للفقراء، ومن قراءة القرآن وإكثار الذكر والصلاة على النبي، وإظهار الفرح والسرور به ﷺ، ولأجل ذلك لما ظهرت بعد تلك القرون الثلاثة لم يزل أهل الإسلام في سائر الأقطار يحتفلون في شهر مولده ـ خصوصاً في ليلته ـ بعمل المولد، في ولائم مشتملة على كثرة المطاعم والإحسان والصدقات والمبرات، مع الإكثار من قراءة القرآن والذكر، وقراءة مولده وماورد فيه من الخبر الثابت، وما اشتمل عليه من كراماته ومعجزاته وأول من أحدث ذلك الملك المظفر صاحب إربل[٢]، وكان يحتفل فيه احتفالاً هائلاً ...".[٣]

ثانياً: حول المقصود بليلة المولد المفضلة:

يقول الشارح حول هذا ما نصه: "اختلف العلماء في تفضيل ليلة مولده الشريف على ليلة القدر، فقال بعضهم: إن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر، ذكره في (المواهب) وأقره، وتعقبه

(١). جعفر البرزنجي: شرح المولد النبوي، ص ١٦.

(٢). وهو أول من أظهر الاحتفاء بالمولد، وأحيا بذلك بدعة العبيديين في مصر، وكان يؤخذ عليه، أنه كان على طريقة مبتدعة المتصوفة، الذين يقيمون حفلات السماع، ويتواجدون ويرقصون، ويأتون أعمالاً ليست من الدين، والدين بريء منه، ومن هذه الأناشيد ما لا يخلو من كفر صريح، وسؤال الرسول ما لا يقدر عليه إلا الله، ووصفه بما لا يوصف به إلا الله، ومنها ما هو وقاحة وسوء أدب وغزل بالرسول ﷺ. انظر: علي الطنطاوي: رجال من التاريخ (الطبعة الثامنة، جدة، دار المنارة، ١٤١١هـ) ص ٢٧١.

(٣). جعفر البرزنجي: المرجع السابق، ص ١٦.

العلامة ابن حجر في (النعمة الكبرى) وقال: "وقد نص الشارع على أفضلية ليلة القدر ولم يتعرض لليلة مولده ولا لأمثالها بتفضيل أصلاً، فوجب علينا أن نقتصر على ما جاء عنه ولا نبتدع شيئاً من عند أنفسنا القاصرة عن إدراكه إلا بتوقيف منه ﷺ"(١)، قال الزرقاني(٢) في (شرح المواهب): "وهو وجيه، ثم قال: وإذا قلنا بأفضلية ليلة مولده وقلنا إن الولادة نهاراً فهل الأفضل يوم المولد أو يوم البعث؟ والأقرب كما قال شيخنا إن يوم المولد أفضل لمنّ الله به فيه على العالمين، ووجوده يترتب عليه بعثه، فالوجود أصل والبعثة طارئة عليه، وذلك قد يقتضي تفضيل المولد لأصالته".(٣)

وأما ليلة الإسراء: فقد قال بعض المفسرين: إنها أفضل من ليلة القدر لكن بالنسبة له ﷺ لأنه أوتي فيها ما لا يحيط به الحدّ، ولذا كان الإسراء بالجسم يقظة من خصائص نبينا ﷺ، قال الحافظ ابن حجر: "وهذا إنما يصح إن قام دليل على إنعام الله على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وهذا لا يعلم إلا بوحي، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيه بلا علم"، وظاهره أن الخلاف بين الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي ﷺ وبين ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن، وأما الليلة المعينة التي أسري به فيها فأفضل من ليلة القدر في كل عام، كما أن ليلة القدر في كل عام أفضل من نظائر الليلة التي أسري به فيها في كل عام لما ورد في أرجحية العمل فيها بخلاف ليلة الإسراء فإنه لم يأت فيها حديث صحح ولا ضعيف، والله أعلم"(٤)، والحق أن البحث في هذه المسألة ليس بكبير فائدة ولا يترتب على إنكاره أو الإقرار به ضرر أو خطر ولا يعارض ذلك شيئاً من أصول العقيدة، والحاصل أنني اعتقد أن هذه المفاضلة هي بين ليلة المولد الحقيقي، وبين ليلة القدر، وأن الليلة التي وقع فيها المولد النبوي والتي جرى فيها بحث المفاضلة والمقارنة قد مضت وانتهت ولا وجود لها اليوم ـ أما ليلة القدر فهي موجودة ومتكررة في كل عام ولذلك فهي أفضل الليالي لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ

---

(١). جعفر البرزنجي: شرح المولد النبوي، ص ٢١.

(٢). هو الحافظ محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقاني المصري الأزهري المالكي، خاتمة المحدثين بالديا المصرية، ولد سنة ١٠٥٥هـ بالقاهرة، وتوفي بها سنة ١١١٢هـ. انظر: الأعلام، جـ٦، ص ١٨٤.

(٣). جعفر البرزنجي: المرجع السابق، ص ٢١.

(٤). نفس المرجع، ص ٢٢.

فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ [القدْر: ١ - ٣].

والبحث في هذه المسألة وأمثالها جرى بين أئمة العلم وتكلم فيه كبار السلف، فهذا الشيخ الإمام ابن تيمية[1] يتكلم عن مسألة المقارنة بين ليلة القدر وليلة الإسراء ويبحث فيها بدقة وإتقان مع أنه لم يثبت أنه بحث فيها أو تكلم عنها أحد قبله من أئمة السلف وأهل القرون الأول فضلاً عن الصحابة فضلاً عن الرسول ﷺ.

فتوى ابن تيمية في الموضوع:

قال الإمام الشيخ ابن القيم[2]: سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل قال: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، وقال آخر: بل ليلة القدر أفضل فأيهما مصيب؟

فأجاب: الحمد لله، أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، فإن أراد به أن تكون الليلة التي أُسري فيها بالنبي ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر، فهذا باطل، لم يقله أحدٌ من المسلمين، وهو معلوم الفساد بالاطِّراد من دين الإسلام، وإن أراد الليلة المعينة التي أُسري فيها بالنبي ﷺ وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها من غير أن يُشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة فهذا صحيح". [3]

ثالثاً: حول قصة عتق ثويبة:

ولما فرغ الشارح من الكلام على ولادته ﷺ وما يتعلق بها، ذكر حول هذه القصة ما يلي: "وثويبة هذه هي التي أعتقها أبو لهب حين وافته عند ميلاده عليه الصلاة والسلام ببشراه، أي

---

(١). أبو العباس أحمد تقي الدين بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي، ولد سنة ٦٦١هـ في حرّان، كان داعية إصلاح في الدين، وآية في التفسير والفقه، مات معتقلاً في سجن القلعة بدمشق سنة ٧٢٨هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ١،ص ١٤٤.

(٢). أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زيد الدين الزُّرعي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية، ولد في سنة ٦٩١هـ وتوفي سنة ٧٥١هـ. انظر: عبدالرحمن الهرفي: ترجمة الإمام ابن القيم، بموقع الإمام ابن القيم، على الرابط الكتروني: http://www.ibnalqayem.com

(٣). ابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد (الطبعة الثالثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مقدمة الجزء الأول، ص ٥٧.

بالبشارة به ﷺ حيث أخبرته قبل غيرها بما يسره وهو حصول ولد لأخيه عبد الله، وذلك أنها قالت: أشعرت أن آمنة قد ولدت غلاماً لأخيك عبد الله، فقال لها: اذهبي فأنت حرة، كما في (الروض) وهذا صحيح، وقيل: إنما اعتقها بعد الهجرة، قال الشامي: وهو ضعيف، والجمع بأنه أعتقها حينئذ ولم يظهره إلا بعد الهجرة مما لا ينبغي؛ فإنه لما هاجر كان عدوه فلا يتأتى منه إظهار أنه كان فرح بولادته، وأيضاً فالقائل بالثاني لا يقول أنه أعتقها للبشارة بالولادة، وقد روى أنه أعتقها قبل ولادته بدهر طويل..". (١)

لقد صح أن ثويبة ـ مولاة أبي لهب ـ أرضعته، وثبت أن عمه حمزة بن عبد المطلب ﵁ أخوه من الرضاعة، والحاصل أن هذه القصة مشهورة في كتب الأحاديث وفي كتب السير، ورواها جملة من أئمة الحديث والسير، والحفاظ المعتمدون والمعتبرون، مثل: الإمام عبد الرزاق الصنعاني، والإمام البخاري، والحافظ ابن حجر، والحافظ ابن كثير، والحافظ البيهقي، وابن هشام، والسهيلي، والحافظ البغوي، وابن الديبع، والأشخر والعامري، ويكفي في توثيقها كون الإمام البخاري نقلها في صحيحه المتفق على جلالته ومكانته، وكل ما فيه من المسند صحيح بلا كلام، حتى المعلقات والمرسلات فإنها لا تخرج عن دائرة المقبول ولا تصل إلى المردود، وهذا يعرفه أهل العلم المشتغلون بالحديث والمصطلح والذين يعرفون معنى المعلق والمرسل ويعرفون حكمها إذا جاءت في الصحيح، ثم أن هذه المسألة في المناقب والفضائل والكرامات التي يذكرها العلماء في كتب الخصائص والسير ويتساهلون في نقلها ولا يشترطون فيها الصحيح بالمعنى المصطلح عليه، ولو ذهبنا إلى اشتراط هذا الشرط الشاذ لما أمكن لنا ذكر شيء من سيرة النبي ﷺ قبل البعثة وبعد البعثة.(٢)

رابعاً: حول عم النبي ﷺ أبو طالب:

قال الشارح: "جميع ما ذكر في أبي طالب من أنه يحب النبي ﷺ، ويمدحه، وأنه ربّاه صغيراً، وآواه كبيراً، وأنه كان يحوطه وينصره، ويعزره، ويوقره، ويعينه على تبليغ دينه، ويصدقه فيما يقول، ويذب عنه، ويأمر أولاده: كجعفر، وعليّ، باتباعه ونصره، وينطق بحقيقة دينه ـ كما تواترت الأخبار ـ دليل على أنه كان يعرف بنبوة النبي ﷺ، **وقد دلت أحاديث**

---

(١) جعفر البرزنجي: شرح المولد النبوي، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢). أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، جـ١، ص ١٠٢.

شفاعته ﷺ على أنه يشفع فيمن أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان، وأن الشفاعة لا تنال مشركاً، وقد نالت أبا طالب بنص الحديث، ونعلم قطعاً أنه كان يُصَدِّق بنبوة النبي وصدقه وحَقية دينه، وكفى بالظاهر دليلاً؛ فلا بد من القول بنجاته، وهو الظن بسعة رحمة الله وكرمه، وإن الظاهر مجرد المعرفة بالنبوة لا يستلزم الإسلام.. وبالله التوفيق".[1]

وقد ثبت في الصحيح أنه مات كافراً على الرغم من حمايته للرسول ﷺ طوال حياته.

---

(١) جعفر البرزنجي: شرح المولد النبوي، ص ٣٠٠.

ثالثاً:

الاتجاه العقلي في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال ق ١٤ هـ

أثار الاتجاه العقلي الجدل والنقاش بين الكتاب والباحثين، وقد عرَّف بعضهم الاتجاه العقلي من حيث آراء أعلامه: "كان لهم آراء كثيرة تخالف السلف، وشطحات ما كانوا ليقعوا فيها لولا مبالغتهم الشديدة في تحكيم العقل في كل أمور الدين، حتى جاوزوا الحق والصواب"[(١)]، ومنهم من عرفه بأنه: "اتجاه فكري عام يمجّد العقل الإنساني، ويغالي العقل وأحكامه اعتباراً فوق اعتبار النصوص الشرعية الثابتة على الله تعالى ورسوله ﷺ، ويجعل العقل وسيلة الإثبات، وأساس الحكم على الأشياء، وطريق القبول لها".[(٢)]

ومنهم من وصف المدرسة العقلية بأنها: "اسم يطلق على ذلك التوجه الفكري الذي يسعى إلى التوفيق بين نصوص الشرع وبين الحضارة الغربية والفكر الغربي المعاصر، وذلك بتطويع النصوص وتأويلها تأويلاً جديداً يتلاءم مع المفاهيم المستقرة لدى الغربيين، ومع انفجار المعلومات والاكتشافات الصناعية الهائلة في هذا العصر، وتتفاوت رموز تلك المدرسة تفاوتا كبيرا في موقفها من النص الشرعي، ولكنها تشترك في الإسراف في تأويل النصوص، سواء كانت نصوص العقيدة، أم نصوص الأحكام، أم الأخبار المحضة، وفي رد ما يستعصي من تلك النصوص على التأويل".[(٣)]

وسمي الاتجاه العقلي بذلك؛ لأن فيه ما يلي: "الاعتداد الواضح بالعقل، والوثوق بأحكامه، والدعوة المستمرة إلى توظيفه، واحترام نتائجه، ثم تقديمه على النقل عند التعارض، وتأويل النصوص الشرعية كي تتوافق معه".[(٤)]

---

(١). فهد عبد الرحمن الرومي: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (الطبعة الخامسة، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٢هـ) جـ١، ص ٧٠.

(٢). مفرح سليمان القوسى: الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية (الطبعة الأولى، الرياض، دار الفضيلة، ١٤٢٣هـ) ص ٣٣، و ١٠٣.

(٣). سلمان فهد العودة: في حوار هادئ مع محمد الغزالي (الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ) ص ٩، وشفيق شقير: موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف (الطبعة الأولى، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤١٨هـ) ص ١٥.

(٤). أحمد قوشتي عبد الرحيم: مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية بمصر في العصر الحديث (أطروحة دكتوراه غير منشورة، في كلية دار العلوم، بجامعة القاهرة، ١٤٢٣هـ) ص ٧٦.

اهتمام المستشرقين بالاتجاه العقلي:

رغم موقف المعتزلة الخاطئ من اعتبار العقل مقدما على القرآن الكريم والسنة النبوية، ومع ذلك فقد جلب مسلكهم هذا عطف الكثير من المستشرقين عليهم، فكالوا لهم شهادات الاستحسان والإكبار، وقد تعوّد الكثير من المستشرقين الإشادة بكل ما صار في ذمة التاريخ عند المسلمين من انحرافاتهم؛ حتى يُشَّعَر الأجيال الحاضرة أن لا شيء مما يتمسكون به يدعو إلى الإكبار وبالتالي إلى الاعتزاز، فهذا هنريش شتينر أطلق عليهم اسم: (المفكرون الأحرار في الإسلام)، وجعل من هذا اللقب عنوان كتابه عنهم[١]، ووصفهم آدم متز وهاملتون بأنهم: دعاة الحرية الفكرية والاستنارة[٢]، وقد بارك المستشرقون موقف المعتزلة من السنة النبوية، ورأوا أن وجهتهم في رد الأحاديث بالعقل هي الوجهة الصحيحة التي يجب أن تبقى وتستمر، فقد كان عميد المستشرقين جولد تسيهر يثني عليهم بقوله: "أما فيما يختص بالحديث؛ فإن المعتزلة كانوا يملكون تحت تصرفهم الوسيلة لرفض الأحاديث التي يلوح منها ما لا يصح أن يقبل من تجسيم أو تشبيه، أو التي تجعل لمثل هذا مكانا، وهذه الوسيلة هي الطعن فيها بعدم الصحة، وبذلك يتحرر الإسلام من مجموعة كبيرة من الأقاصيص التي تراكمت بمساعدة الاعتقاد الشعبي الشره إلى أساطير، بصفة خاصة فيما يتصل بالدار الآخرة وما فيها، والتي أيدتها دينيا صيغة الحديث"[٣]، وهكذا مجّد المستشرقون المعتزلة ومدحوا منهجهم العقلي؛ لأنهم وجدوا فيه تحقيقا لمآربهم السيئة التي تهدف لهدم السنة بطريق غير مباشر، وقد فتح لهم المعتزلة الباب على مصراعيه وأعطوهم سلاحاً قوياً ليفتكوا به الأحاديث الصحيحة الثابتة، إنه سلاح الشُبه العقلية التي يحكمها الهوى.[٤]

وقد أشار عدد من المستشرقين إلى المحاولات المتعددة لإحياء الفكر الاعتزالي، والاهتمام بدراسته، ونشر تراثه في العصر الحديث، وقد نشر بعض المستشرقين الكثير من المؤلفات

---

(١). أجناس جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام (الطبعة الثانية، القاهرة، دار الكتب الحديثة، د.ت) ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون، ص ١٠١.

(٢). علي الشابي وآخرون: المعتزلة بين الفكر والعمل (تونس، الشركة التونسية، ١٣٩٩هـ) ص ١٠٣.

(٣). أجناس جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص١١٠.

(٤). الأمين الصادق الأمين: موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، جـ١، ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦.

الاعتزالية الكبرى كالمغني، وشرح الأصول الخمسة، وكلاهما للقاضي عبد الجبار، والانتصار للخياط، وكتب الجاحظ، وغير ذلك كثير، ومع ما هو معلوم من مساوئ الفكر الاعتزالي فإننا نجد أن بعض الباحثين المعاصرين يشيد بالمعتزلة، ويثني على آرائهم، ويتحسر على اندثار الفكر الاعتزالي، ونجد هذا بصورة أو بأخرى عند كل من: أحمد أمين، وإبراهيم مدكور، وأمين الخولي، وتوفيق الطويل، ومحمود قاسم، وأحمد محمود صبحي، وعبد القادر محمود، ومحمد علي أبو ريان، وزكي نجيب محمود، ومحمد عمارة.

وثمة أسباب كثيرة كانت وراء هذا الاهتمام الكبير بالفكر الاعتزالي في العصر الحديث، ومن ذلك ظروف العصر الفكرية، **وشيوع الفلسفات العقلية، ومحاولة البحث عن مقابل لها في الفكر الإسلامي**، وطريقة تعامل المعتزلة مع الوافد الأجنبي، وتبنيهم لكثير من أفكاره، ومحاولة بعض الباحثين المعاصرين الاستفادة من ذلك في تعاملهم مع الحضارة الغربية الحديثة، والنزعة العقلية عند المعتزلة، وإعجاب الكثيرين بها كسبيل لمواجهة حالة الجمود التي تعاني منها الأمة الإسلامية.[1]

---

(١). أحمد قوشتي عبد الرحيم: مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية بمصر في العصر الحديث، ص ٨٠.

معروف الرصافي[١] وكتابه الشخصية المحمدية:

هذا الكتاب: الشخصية المحمدية؛ الذي أنجزه عام ١٣٦٠هـ في الفلوجة بالعراق، وصدر له عن منشورات الجمل وظهر في طبعته الأولى سنة ١٤٢٣هـ، والذي هو موضوع دراستنا في طبعته الخامسة سنة ١٤٣١هـ، ومما يؤكد نسبة الكتاب لمؤلفه أن نسخته المخطوطة محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي، قال المؤرخ العراقي نجدة فتحي صفوة: "ولعل أهم مؤلفات الرصافي المخطوطة وأخطرها كتابه الشخصية المحمدية، وهو بحث تحليلي لشخصية الرسول الكريم ﷺ، كان حصيلة دراسة طويلة وعميقة لكتب السيرة النبوية، وفيه كثير من النظرات الجديدة والآراء الجريئة، وقد راودت الرصافي فكرة تأليفه عام ١٩٢٩م، وشغل عنها زمناً، ثم كتبه خلال إقامته في الفلوجة بين سنتي ١٩٣٣ و١٩٤١م، وتوجد نسخة مصورة منه عن النسخة، التي كتبها الرصافي بخطه، محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي ببغداد".[٢]

ويؤكد المحقق العراقي عبد الحميد الرشودي على نسبته للرصافي حيث يقول: "كانت متداولة بين الاصدقاء وأكثرها منقولة من نسخة كامل الجادرجي، نسخة السنوي هي نسخة الرصافي نفسها، كانت لدى الرصافي شطحات لم يقرأها أحد بصورة كاملة في وقتها لأنها كانت تتألف من ٤٢ دفتراً مدرسياً، فوجئت عندما رأيت كتاب الشخصية المحمدية مطبوعة على هيئة كتاب لوجود آراء مخالفة لما ألف الناس من كتب السيرة وقد ذكر الرصافي أنها لا تنشر في حياته".[٣]

---

(١). معروف بن عبد الغني بن محمود البغدادي الرصافي ولد في بغداد سنة ١٢٩٤هـ، اشتغل معظم حياته في التعليم ومارس الصحافة والترجمة، فعُين معلماً للعربية في المدرسة الملكية، وانتخب نائباً عن المنتفق في مجلس المبعوثان العثماني، ثم عُين أستاذاً للأدب العربي في دار المعلمين بالقدس، وعاد إلى بغداد فعُين نائباً لرئيس لجنة الترجمة والتعريب، انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، وعُين مفتشاً في المعارف، فمدرساً للعربية وآدابها في دار المعلمين العالية، فرئيساً للجنة الاصطلاحات العلمية، واستقال من الأعمال الحكومية سنة ١٩٢٨م، عاش بعدها في شبه انزواء وعزلة اختارها لنفسه، إلى أن توفي بدارهِ في محلة السفينة في الأعظمية ليلة الجمعة في ربيع الثاني عام ١٣٦٤هـ. انظر: مير بصري: أعلام الأدب في العراق الحديث، جـ١، ص ١٠٤، وخير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٧، ص ٢٦٨.

(٢). فتحي نجدة صفوة: سلسلة الأعمال المجهولة معروف الرصافي (لندن، دار رياض الريس، د.ت) ص٤٧ و ١٠٦.

(٣). عبد الحميد الرشودي: رسائل الرصافي (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٤م) ص ١١٩.

ويؤيد الكاتب رشيد الخيون ما ذهب إليه مواطنيه أعلاه حيث نشر يقول: "ذكر مخطوطة الكتاب ميخائيل عواد في فهرس مخطوطات المجمع العلمي العراقي، وكتب الدكتور وليد محمود خالص مقالاً تحت عنوان: (كتاب الشخصية المحمدية للشاعر العراقي معروف الرصافي وقفة منهجية في قضية تحقيق النصوص ونشرها)، نشرته جريدة (الرأي الآخر) في عددها (١٤٧) نقلاً عن: بحث محمود العبطة المنشور في مجلة (المورد)، قال: "يقع الكتاب في (٤٣) كراسة. أودعه الرصافي بخطّه لدى صديقه المرحوم محمود السنوي، كما استنسخه مصطفى علي، واستنسخه كامل الجادرجي بخطّه، ويقع في أربعة مجلدات تضمّ ١١٥٤ صفحة، وعليه إجازة بخطّ الرصافي نفسه". [(١)]

جاء إيضاح عن النسخة الأصلية بالصفحة الرابعة كتبها كامل الجادرجي ناسخ هذه النسخة، يلي ذلك كلمة كتبها معروف الرصافي، بتاريخ ١٥ آب/ أغسطس ١٩٤٤م، هذا نصها: "اطّلعت على هذه النسخة التي استنسخها صديقي الفاضل كامل الخيام (الجادرجي) على النسخة التي كتبتها بخطّي من كتابي "الشخصية المحمدية" فرأيتها صحيحة كاملة خالية من الأغلاط في النسخ، فلذا أجيز له روايتها، والنقل عنها، والاعتماد على ما هو مكتوب فيها قبل طبع نسخة الكتاب الأصلية، ونشرها، وبما أنّي أثق بثقافة كامل الخيام، وبصدقه وإخلاصه في مسائل العلم والأدب، كتبتُ هذا إعلاماً بذلك"، يلي ذلك صورة المؤلف معروف الرصافي، مؤرخة في ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٤م، ثم وصية الرصافي، بعنوان: "إلى أصدقائي الأحرار الكرام" وذيلها "المؤمن بالله وحده لا شريك له معروف الرصافي". [(٢)]

ومن وجهة نظري الشخصية ما قرأت كتاباً فاسد المقدمة فاسد النتيجة مثل كتاب: (الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس؟!)، وبعد قراءة الكتاب أخذ يتنازع في ذهن متذوق الرصافي الشاعر وقارئ الرصافي المؤرخ والباحث بأسلوب مختلف عما حوته المكتبة الإسلامية، وكم كانت الكتابات المعاصرة لكتابه ـ الآنف الذكر ـ مثل: (حياة محمد) لمحمد حسين هيكل،

---

(١). رشيد الخيون: علي دَّشتي ترجم بتصرف كتاب الرصافي "الشخصية المحمدية" ولم يؤلفه؟!

(٢). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية (الطبعة الخامسة، كولونيا، منشورات الجمل، ٢٠١١م) ص ٧٦٨.

و(محمد رسول الحرية) لعبد الرحمن الشرقاوي، (محمد رسول الله والذين معه) لعبد الحميد جودة السحار، و("محمد والقوى المضادة) لمحمد أحمد خلف الله، و(فترة التكوين في حياة الصادق الأمين) لخليل عبد الكريم، وغيرهم ناقدة لكتب التاريخ، لكنها تبدو هادئة وتوفيقية إذا ما قورنت بما كتبه الرصافي، وما توصل إليه من نتائج إزاء الروايات.

إذن فقراءة السيرة النبوية بقلم الرصافي قد تدفع إلى إعادة النظر بل ونسف جميع ما كتب حول السيرة النبوية من الولادة وحتى الوفاة؟! لا يسعني الدخول في تفاصيل الجدل الذي كان يثيره معروف الرصافي حياً وميتاً، فقد عدّ بعض النقاد مؤلفه في السيرة تمريناً بلاغياً تنافس فيه أناقة الكتابة ادعاءات وافتراءات التحليل كما تتسم اللهجة التأليفية ـ لديه ـ بالنضالية والمسحة الانفعالية الوعظية، وهو مؤلف ضخم يقع في أكثر من سبعمائة وسبع وستين صفحة.

ومن المفارقة كانت الفلوجة الدار التي اختارها معروف الرصافي رغبة في الخلوة للتأمل والكتابة، لرحابتها ومجاورتها للفرات، وبعدها عن صخب بغداد، فكانت مهداً لارتياباته وتناقضاته التاريخية، أتاحت له تصنيف كتابه الإشكالي المريب ـ الذي بين أيدينا ـ الذي أعلن فيه ارتيابه من بعض المبشرين بالجنة، فاتحا غموض الروايات والتباسها، وتجاوز فيه كل مصنف في السيرة النبوية، إذ ليس هناك أكثر من اهتمام المؤرخين والباحثين في السيرة النبوية، وكان صاحب السبق في تسجيلها محمد بن اسحاق (ت١٥١هـ) وعبد الملك بن هشام (ت٢١٣هـ) ثم ظهرت في تاريخ الطبري (ت٣١٠هـ) وفي تواريخ من عقبهما من المؤرخين مثل: المسعودي، وابن الأثير، وابن خلدون، وغيرهم، إضافة إلى الكم الكبير من السير والتواريخ، ويكاد لا يخلو كتاب في السيرة وفي الطبقات، وقصص الأنبياء، والأنساب من الاستهلال بحياة الرسول ﷺ، سواء من المتقدمين أو المتأخرين على حد سواء.

يقول رشيد الخيون: "قلة ممن يعرفون الرصافي الباحث من قبل نشر الشخصية المحمدية، فقد عرف شاعراً، وذاع صيت ثنائيته مع جميل صدقي الزهاوي (ت ١٩٣٦م)، وكنا نسمع هنا وهناك، حول اهتمام الرصافي بسيرة النبي محمد ﷺ، وله رأي مغاير عما كتبه الآخرون، لكن ذلك ظل سراً، لا أحد يعلم مصير ما كتبه، وبدأ بتأليفه سنة ١٩٣٣م بالفلوجة، حتى ظهر في ما بعد أن جامعة هارفرد حصلت على نسخة من المخطوط ونشرته بنسخ معدودة".(١)

---

(١). معروف الرصافي: الرسالة العراقية (الطبعة الأولى، كولونيا، منشورات الجمل، ٢٠٠٧م) ص ٧.

وها هو ـ الكتاب ـ يصدر بعد بداية العمل به بسبعين عاما، وبعد وفاة الرصافي بسبعة وخمسين سنة، لم يترك بعده ورثة يؤذون بسببه أو ينتفعون من ريع الكتاب، فقد عاش ومات وحيداً معتزلاً، ولله في خلقه شؤون.

لعل رأي الرصافي السلبي من كتابة التاريخ جعله يستغني عن مصادر كثيرة، ويعكف على التحليل المدعوم بالبرهان العقلي، فكتب تحت عنوان: للحقيقة لا للتاريخ ما نصه: "باسم الحقيقة المطلقة اللانهائية، الحمد لها والصلاة والسلام منها علينا وبعد فقد كنت أكتب للتاريخ، وكنت أحسب للتاريخ حساباً، وأجعل له منزلة يستحق بها أن أكتب..."(١)، وكتب أيضا: "لئن أرضيت الحقيقة بما أكتبه لها لقد أسخطت الناس عليّ، ولكن لا يضرني سخطهم إذا أنا أرضيتها، كما لا ينفعهم رضاها إذا كانت على أبصارهم غشاوة من سخطهم عليّ، وعلى قلوبهم أكنة من بغضهم إياي... فإن كنت في قيد الحياة فسيؤذيني ذلك منهم، ولكن سأتحمل الأذى في سبيل الحقيقة، وإلا فليس لي أن أهتف باسمها، ولا أن أدعي حبها كما يدعيه الأحرار، وإن كنت ميتاً فلا ينالني من سبابهم خير، كما لا ينالهم منه خير، فإن سب الميت، لا يؤذي الحي ولا يضر الميت، كما قال محمد بن عبد الله عظيم عظماء البشر".(٢)

بادئ ذي بدء علينا أن نشير ـ أولاً ـ إلى أسلوب الرصافي في التهكم والسخرية من شخصية الرسول الكريم ﷺ والنيل منه ومن كتابه، حيث يقول: "من القصص القرآنية قصة سليمان بن داود أحد ملوك بني إسرائيل، وهو الذي يسميه اليهود بسليمان الملك، ولم يقولوا أنه نبي، ولم يذكروه في أنبيائهم، ولكن النبي محمدا قد جمع له بين الملك والنبوة كالجمع بين الضدين، وجاء عليه منهما بما جاء من العجائب والغرائب ما فيه، وصور ملكه في القرآن تصويراً خيالياً، فسخر له الريح تحمله حيث أراد، وأدخل في طاعته من الجن والشياطين من يعلمون له ما يشاء، وجنّد له من الإنس والجن والطير جنودا تقهر عدوه، وتظفره بما أحب، وذكر له في القرآن قصة خيالية مع الهدهد ...".(٣)

---

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ١٥.

(٢). نفس المرجع، ص ١٥.

(٣). نفس المرجع، ص ٦٣١.

(٢). نفس المرجع، ص ٦٣٢.

إن أسلوب التهكم والسخرية من الرسول محمد ﷺ ظاهرٌ باد؛ لا يحتاج إلى تعليق، ولكن التناقض الذي يقع فيه الرصافي ـ بعد هذا العرض ـ أمر يدعو إلى العجب؛ حيث يقول: "والذي نراه في مغزى هذه القصة الخيالية هو أنها لم تؤلف، ولم ترو إلا لأمر واحد، وهو تصوير ما للعلم من قدرة خارقة للعادة، وها نحن ـ اليوم ـ نرى للعلم من المعجزات ما لا يقل عن الإتيان بعرش بلقيس، في مدة كلمح البصر، فنسمع المتكلم في لندن ونحن في بغداد، وإذا تم بلوغ التلفزيون رشده نراه ـ أيضا ـ كما نسمعه، إلى غير ذلك من معجزات العلم، التي يطول الكلام بتعدادها".[1]

كيف جاز له أن يعتبر ما جاء في القرآن الكريم عن النبي سليمان عليه السلام مع الهدد وبلقيس، وإتيان العرش في لمح البصر، قصة خيالية من تأليف محمد ﷺ ـ حسب زعمه ـ ثم ما يلبث أن يعترف بأن المغزى من هذه القصة هو إظهار ما للعلم من قدرات فائقة، ومعجزات باهرة، وذلك ما أكده العلم الحديث في وقتنا الراهن، فمن أين استطاع محمد ـ وهو الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة ـ أن يتنبأ بهذا المدى الذي سيصل إليه العلم من المعجزات الخوارق مشاهدة في السماء والأرض.

ومن خلال التحليل التاريخي النقدي لصفحات الكتاب؛ ظهرت تأويلات فاسدة، ونتائج عجيبة وصلت إلى حد التناقض في مواضع كثيرة، سنكتفي بعرض بعضها كأمثلة:

التناقض الأول: حول موقفه من بعض المصادر:

حجة الرصافي في رفض الروايات التاريخية حول الشخصية المحمدية ﷺ هي أن العرب في الجزيرة كانوا أميين في معظمهم لذلك اعتمدوا الروايات الشفوية، ولم يبدأ التدوين عندهم إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة أي في العهد العباسي، لذلك فان معرفتنا بشخصية سيدنا محمد ﷺ تعود لمصادر كتبت بعد ما ينيف عن المائة عام من وفاته فأول كتاب في السيرة يعود إلي زمن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (ت١٥٢هـ) أي إلي ما وضعه محمد بن إسحاق (ت١٥١هـ)[2]، الذي كتب المغازي والأخبار في وقت كان فيه الخبط والخلط السمة الغالبة

---

(١). أحمد موساوي: رحلة الرصافي من المغالطة إلى الإلحاد (الطبعة الأولى، دمشق، دار الأوائل، ٢٠٠٦م) ص ٩٦.

(٢). تعرضت السيرة حسب الرصافي إلى الدس والتشويه، على يد المؤرخ والإخباري عبد الملك بن هشام صاحب السيرة الهشامية كما يحب أن يسميه. انظر: معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٥٣.

على الروايات المتداولة، فسادت الأهواء ولعبت المصالح الفئوية دورها، واللافت أنه لا يستثني القرآن الكريم من خضوعه إلي التعديل والتغيير، فهو وإن كان يستثنيه مما لحق الروايات من حيث تدوينها المتأخر باعتبار أن جمعه قد تم في عهد أبي بكر ﷺ وكتب في المصاحف زمن عثمان ﷺ فانه لم يخل هو أيضاً من التغيير والتبديل خاصة عبر تعدد القراءات غير أنه يعتبره مع ذلك أفضل مصدر يمكن أن ينبئنا بحقيقة الشخصية المحمدية ويساعد بالتالي على حل اللغز المقدس أما الأحاديث المنسوبة إلى محمد ﷺ فقد خضعت لأهواء الفرق ومصالحها المتباينة.[1]

وبالتالي فقد سلم الرصافي أن القرآن الكريم لم يتعرض لما تعرضت له الروايات المدونة في كتب السيرة النبوية، ويبقى الجدل حول مصدر هذا النص: أهو وحي من الله إلى الرسول ﷺ؟! أم هو من عند غير الله ﷻ؟! أم من عند محمد ﷺ انتجه بفضل مكوناته الشخصية، وتجاربه؟! فهل يمكن الإثبات بالأدلة الموضوعية أن توظيف المكونات الشخصية للرسول ينتج عنه صدق ما جاء في القرآن الكريم من حيث المعنى والمبنى؟![2]

يقول عن الرواية: "إن الخبر إذا تداولته الرواة وطال سيره بينهم من فم إلى أذن وطال عليه الأمد في سيره وانتقاله بينهم كان عرضة للتغيير والتبديل، بسبب ما يكون في الرواة من سوء فهم، ومن ضعف حفظ ومن ضيق وعي، وبسبب ما يعتريهم من ذهول ونسيان"[3]، لذا لم يقم شاعرنا للتاريخ المكتوب وزنا على الرغم من أنه اعتمد السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) لأبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم الحلبي (ت ١٠٤٤هـ)، التي كانت بين يديه أثناء تأليفه لكتابه، وهي من الكتب المتأخرة في السيرة النبوية، وقد وقعت الإشارة في هوامش الكتاب إلى السيرة الحلبية مئة مرة تقريبا، تليها سيرة ابن هشام، أما المصادر والمراجع الأخرى المختصة في هذا الموضوع مثل: كتب التفسير، وكتب الحديث المشهورة، فلم يعتمد عليها إلا قليلاً.

ويعمل الرصافي عقله في قراءة الأحاديث منتصراً للعقل فيعرض لما يتناقض منها مع المعقول قائلا: "فمما قبلوه وهو مخالف للمعقول حديث الذباب وهو وحاشا لمحمد أن يقول:

---

(١). أحمد موساوي وآخرون: رحلة الرصافي من المغالطة إلى الإلحاد، ص ٥٢.

(٢). نفس المرجع، ص ٥٢.

(٣). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٥٥.

"إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، ثم لينزعه فان في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء فيا سبحان الله إن الذباب الذي يتهافت على الجيف والقيوح ويقع على النجاسات والقاذورات ويغرز فيها خرطومه وترتطم فيها أرجله ثم يطير ناقلاً عنها أنواع الجراثيم المقززة لا يعد نجسا مضرا من هذه الجهة، إن هذا لعمر الله كلام لا يقوله عاقل فضلاً عن نبي"، فعن هذا الحديث الوارد في الصحيح، يقول سعيد حوى: "وهكذا يضع العلماء بأبحاثهم تفسيراً للحديث النبوي المؤكد لضرورة غمس الذبابة كلها في السائل أو الغذاء ليخرج من بطنها الدواء الذي يكافح ما تحمله من الداء" قد أكدت صدقه بحوث العلماء في العصر الحديث، كما بينت أضرار الخمر الخطيرة، والنهي عن اتخاذ الكلاب في البيوت وأكلها وشربها في آنية أصحابها، وكل هذا ـ مما أكدته هذه البحوث ـ يثبت صدقه ﷺ في أحاديثه الشريفة.

ويناقش ـ الرصافي ـ الكثير من الأحاديث مبيناً أنها موضوعة بينما ينظر لأحاديث أخرى نظرة قبول لتوافقها مع العقل ونبل مقاصدها، وهو يقف في آخر المطاف على الجانب السياسي فالفرقة التي تمزق الأمة العربية ناشئة عن تناقل الروايات الكاذبة والتأويلات الباطلة مما ولد التعصب والطائفية ويكمن الحل في تنقية الأحاديث مما هو موضوع، والنظر إليها بمقياس العقل وتأويل القران برهانيا، والنظر إلى الشخصية المحمدية نظرة عقلية لا نظرة أسطورية، فمحمد ﷺ برأيه من أعظم عظماء بني البشر فقد قاد ثورة وبني دولة وغير عادات قومه، وكان على قدر عال من الذكاء و المسؤولية التاريخية ومن المعيب اختزال شخصيته ﷺ في مجرد مردد وناقل لأقوال غيره.

إن كتاب الشخصية المحمدية بمجمله نقداً وتهذيباً للرواية التاريخية، وما لحقها من خرافات جعلت السيرة النبوية خارج المعقول ـ على حد زعمه ـ وبهذا وضع الرصافي الغاية من الدعوة الإسلامية بما نصه: "إن الغاية التي ينزع إليها محمد ليست بدينية محضة بل هو يريد أن يحدث نهضة كبرى، أو موجة عربية كبرى تكون دينية اجتماعية سياسية، يقوم بها العرب في بدء الأمر على أن تكون لهم السيادة فيها على غيرهم من الناس، ثم يكن نفعها عاما شاملا للناس أجمعين"[١]، ويلخص الرصافي هدفه من وضع

---

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٢٧.

كتابه فيقول: "إننا نريد أن نعرف محمداً كما هو، وقد تقدم أن القرآن أصح ما بلغنا عنه فيجب أن نعتمد عليه في معرفة محمد أكثر من غيره أما كتب الحديث والسير فلا يجوز الاعتماد عليها إلا بعد أن نضعها في غربال منسوج من المعقول ومن القرآن، فما سقط منها تركناه وما بقي في الغربال أخذناه".(١)

لقد أجاب الرصافي بعبارات دقيقة وواضحة، عن القيمة العلمية للروايات المدونة في كتب السير، والتي بنى عليها أحكامه عن الشخصية المحمدية من جوانبها كلها، وهذا يدفعنا إلى طرح السؤال الآتي: لماذا اعتمد الكاتب على المصادر المذكورة، وهو يعلم علم اليقين أنها روايات لا تفيد العلم؟!(٢)

لا وجود لإجابة موضوعية لهذا السؤال، وبالتالي فالتناقض واضح بين الاعتماد المفرط على الروايات في إصدار الأحكام وبين نفي القيمة العلمية عنها، فهل التناقض هو الوسيلة المناسبة للوصول إلى الحقيقة ...؟!

التناقض الثاني: حول موقفه من الشخصية المحمدية:

وصف الرصافي الرسول محمد ﷺ بمجموعة من الصفات المميزة لشخصيته أهمها: "محمد بن عبد الله عظيم عظماء البشر... وأعظم رجل عرفة التاريخ... وأن تلك الشخصية العظمى التي يمثلها شخص محمد بن عبد الله في بني آدم قد اجتمع فيها من عناصر الكمال البشري ما لم يعرف التاريخ اجتماعه في أحد قبله: عزم لا يرده راد، وتفكير عميق الغور بعيد المرمى، وخيال واسع قوي يكاد يقاوم الحقيقة بقوته، وطموح إلى العلا لا يعلو عليه طموح"(٣)، إن ما يجمع بين هذه الصفات الثلاثة للشخصية المحمدية، كما يصفها الكاتب، هي صفة الكمال البشري، الذي لم يعرف التاريخ شخصا أتصف به قبله، ولا يجادل أحد في أن صفة الصدق هي من أهم صفات ـ أو مكونات ـ الكمال البشري، بالإضافة إلى صفة الأمانة، وصفة العدل، وهي صفات عرف بها محمد ﷺ، وشهد له بها من عرفه حتى أعداؤه.

لنقارن هذه المجموعة من الصفات بمجموعة أخرى ذكرها الكاتب نفسه وهي: "اخترع

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٧٤.
(٢). نفس المرجع، ص ٥٣.
(٣). نفس المرجع ، ص ١٨.

محمد كلمة التوحيد"[١]، و"تفنن بآياته القرآنية ما شاء الخيال أن يتفنن في وصف الجنة"[٢]، و"كان يطلب الملك والسلطان لقريش من وراء دعوته الدينية"[٣]، و"يجزم الكاتب بأن الغاية التي يرمي إليها الرسول ﷺ من النبوة هي إحداث نهضة عربية دينية اجتماعية سياسية ـ وأن يكون الملك والسلطان للعرب القرشيين بالأخص[٤]ـ ثم تعمّ، وتشمل الناس أجمعين في النهاية".[٥]

ما يجمع بين عناصر هذه المجموعة الثانية هو صفة الكذب؛ لأنه اخترع كلمة التوحيد، واخترع القرآن بقوة خياله، وقال: هو وحي من الله، ولم يوح إليه بشيء: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾[الأنعام:٩٣] بل ويجزم الرصافي بأن الرسول ﷺ ادّعى النبوة والوحي من الله للتأثير على مشاعر قومه، من أجل تحقيق غايته[٦]، ولم يقدّم أي دليل ليؤكد هذا الادعاء، بل قدم مبررا ساذجاً، وهو أن إصلاح القوم وتوحيدهم يقتضي أن يقول لهم أنه رسول الله[٧]؛ حتى يؤثر فيهم، ويستطيع تحقيق غايته، ولم يقدم الرصافي أي تحليل نقدي للقرآن الكريم، يوضح ـ من خلاله ـ أنه ليس وحياً من الله إلى الرسول ﷺ.

فإذا كان الكمال البشري من صفاته: الصدق، والعدل، والأمانة وهي صفات مناقضة للكذب والظلم والخيانة، فكيف يكون محمد بن عبد الله ﷺ صادقا وعادلا وأمينا، ثم كاذبا وظالما وخائنا في آن واحد؟! هل يمكن للباحث عن الحقيقة أن يقع في هذا التناقض؟! وشخصية الرسول ﷺ ــ إضافة إلى ما ذكر ــ ذات جوانب عديدة، تعد الزعامة جانبا منها، فالزعامة في نظر الرصافي: "ليست ثوباً يلبسه الناس متى أرادو، ولا تاجاً يضعونه على رأس من أحبّوا، وإنما هي مما تأتي به الأقدار وتتمخض به الأجيال وتنجبه الأصلاب والأرحام، أي هي

---

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٢٢.

(٢). نفس المرجع، ص ٢٦.

(٣). نفس المرجع، ص ٣٠.

(٤). نفس المرجع، ص ٢٠.

(٥). نفس المرجع، ص ٤٥.

(٦). نفس المرجع، ص ٤٦.

(٧). معروف الرصافي: الرسالة العراقية، ص ٤٠.

ـ كالنبوة ـ من الجبلاّت التي لا تصدر إلاّ من طراز الله"(١).

والرصافي يرى مشكلة العالم الإسلامي ـ آنذاك ـ هي مشكلة الزعامة، ولا بد من وضع الحل الحاسم لهذه المشكلة حتى يفرغ المسلمون والعرب لرغبات التقدم والتطور، وبما أن المسلمين لا يختلفون على نبيهم، فعليهم أن يتخذوا منه زعيماً أو رئيساً فهي مسألة لفظية، وإن كان هناك فرق بين الزعامة والرئاسة كما يبين الرصافي: "إذا تصورنا الزعامة بأسمى معانيها جزمنا بأنه لا بد للزعيم من صفات تؤهله للزعامة، منها كونه السيد المحترم والآمر المطاع والناصح المخلص والمرشد الخبير الهادي إلى الطريق الأرشد، والمتفادي الذي ينسلخ من نفسه في مصلحة قومه، والصادق الذي ترتدف أقواله الأعمال، والهمام المقدام الذي يقتحم في مصلحة قومه المهالك والأهوال"(٢)، ثم يستطرد فيقول: "ليست الزعامة بمعناها المتعارف عليه اليوم من الأمور الاعتيادية بل هي من خوارق العادة في فطر الناس وسجاياهم، ولا بد لظهورها من أسباب غير اعتيادية ـ أيضاً ـ فقد تكون الصفات اللازمة لها كامنة في بعض أبناء الأمة فلا تظهر إلا بحوادث تفوق المعتاد من صروف الدهر ونوازل الأيام كالحوادث التي ظهرت بها زعامة مصطفى كمال في الأمة التركية وزعامة هتلر في الأمة الألمانية".(٣)

أفيعقل أن نساوي بين مقام النبوة والزعامة؟! بل والأدهى والأمر أن نضع مصطفى كمال وهتلر في مصاف الأنبياء والرسل؟! ثم تابع الرصافي في كتابه الشخصية المحمدية، تحرك المسلمين، وتفاقم أمرهم من قلة ضعيفة بمكة إلى دولة تجيش الجيوش لغزو القبائل والإمبراطوريات، فقد كان النبي محمد يقرب الصورة لقريش، ويخط لهم اتجاه الدعوة، وهم سيواجهون قوة عرش كسرى ويهدمها سيغنمون كنوزه ونساءه، راداً على أوهام الإخباريين في نقل الأخبار وتفسير المواقف، ولافتاً النظر إلى دور العباس بن عبد المطلب ﷺ، الذي ظل مشرك الظاهر مسلم الباطن، وهو عكس حال المنافقين بالمدينة تماما، فكان يبطنون الكفر ويعلنون الإسلام، فقد ساعد العباس، وهو مع قريش ظاهرا، المسلمين ببدر بمعلومات هامة.(٤)

---

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٣٩.

(٢). معروف الرصافي: الرسالة العراقية، ص ٤٠.

(٣). نفس المرجع، ص ٤٠.

(٤). نفس المرجع، ص ٥٤٢.

ارتاب الرصافي من شخصيات لها حضورها في التاريخ الإسلامي، مثل مؤرخ السيرة إسحاق كما أسلفنا، وكعب الأحبار، وغيرهما، كما لمح إلى عدم تجاوبه في محبة شخصيات أخرى نالت إعجاب ومحبة المسلمين جميعهم، وأبرز هؤلاء الخليفة علي بن أبي طالب ﵁ حيث قال: "وقضى أيام خلافته كلها لا يحارب إلا المسلمين، وقد قال لأصحابه يوم صفين: إن رسول الله علمكم كيف تحاربون الكفار، وأنا أعلمكم كيف تحاربون المسلمين، فقد مضت أيام خلافته كلها فتن ومشاحنات وحروب داخلية بين المسلمين، من يوم الجمل إلى يوم صفين إلى يوم النهروان، قتل في حروبه تلكم ما يزيد على مائة ألف نفس من شجعان العرب المسلمين البواسل، ولو كان موفقاً في خلافته لاستطاع أن يفتح بهؤلاء القتلى بلاد الدنيا في أيامه التي تعطلت فيها الفتوح الإسلامية، فلا جيش يزحف إلى الغرب كما كانت الجيوش تزحف إلى الجهات، وكانت الفتوح متوالية في أيام أبي بكر وعمر وعثمان الذين فتحوا بلاد فارس والروم وإفريقية بجيوش أقل من هؤلاء الذين قتلوا في أيامه سدى وبلا جدوى".(١)

كذلك لم يحب الرصافي الصحابي بلال الحبشي ﵁؛ لأنه تطاول على وجهاء العرب لشرفهم، وهو لا يملك سوى علو طبقات صوته ـ حسب تعبيره ـ وارتاب من الحسن البصري، وعده بالخطأ فارسياً، وهو من أهل دست ميسان العمارة حالياً، وهذه بحد ذاتها ليست سبة، وإنما جعلها شاعرنا سبة حين نسب لأبناء السبايا، فكان الحسن البصري عراقياً من ميسان، سبي والداه ووالدا مفسر الأحلام ابن سيرين، فلم يحل محل عبد الله بن سبأ في تجييش الفتن، إنما اختاره عمر بن عبد العزيز، وهو المنزه عند الرصافي، قاضيا على البصرة، وتملقه أرباب السلطة، وهو يبتعد.

لم يكن الرصافي متديناً، بل له فلسفته في الإيمان وما يراه في النبوة والإمامة مخالفاً للسواد الأعظم، فمثلما انتقد زيارات القبور ومراسم اللطم والبكاء الشيعية في الرسالة العراقية كذلك انتقد تقبيل الحجر الأسود والتبرك به في الشخصية المحمدية، وقسر سماويته بالقول: "إنه حجر سماوي سقط على الأرض من شهب ونيازك، ولكن لا يجوز خصوصاً في دين التوحيد أن يكون مقدساً بحيث يرى الناس تقبيله واستلامه عبادة لله".(٢)

---

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٥٤٢.

(٢). نفس المرجع، ص ٤٧٩.

وهو القائل فيمن نعت فتوحات عمر بن الخطاب ﷺ بالغزو والسبي: "فانظر إلى المذاهب والأديان كيف تمسخ الناس مسخاً حتى تجعلهم ألأم من القرود طباعاً، وأقبح منها فعالاً"(١)، وانتقد الرصافي السني غلظة عمر بن الخطاب ﷺ، وإن حاول تبريرها بمتابعة النبي محمد ﷺ، وغمز علي بن أبي طالب ﷺ بالأسلوب نفسه: " ثم إن عمر بن الخطاب قد أساء إلى بنات كسرى، وقد أغلظ لهن في القول والفعل، كما أنه أساء إلى العربية بتقسيمه تلك الغنائم، وتفريقها بين المسلمين بعد تمزيقها شر ممزق، إذ كان يجب عليه أن يحتفظ بتاج كسرى ومنطقته وبساطه لتكون عند العرب مفخرة لهم من مفاخرهم التاريخية، ولكن عمراً لم يكن فيما فعله من بيع البنات وتقسيم الغنائم إلا تلميذاً لمحمد، فإن محمداً هو الذي أباح سبي النساء في حروبه، وجعلهن ملكا تحت رق من سباهن إن شاء وطأهن وإن شاء باعهن، وهو الذي أحل الغنائم لأتباعه، وأوجب تقسيمها عليهم، بعد أخذ خمسها لله ولرسوله، فلا لوم على عمر فيما فعله، ولو كان علي مكان عمر لما فعل غير ذلك".(٢)

التناقض الثالث: حول موقفه من الوحي المنزل:

يتضح موقف الرصافي من الوحي من خلال العبارات الآتية:

ــ "كان محمد واسع الخيال، قويه جداً، وكان تفكيره وخياله فرسي رهان يجري أحدهما مع الآخر، فإذا تفكّر في أمر تخيّله وتصوّره وأخذ يصوره للعيان حتى يكون كأنه يراه بعينيه ويسمعه بأذنيه ويلمسه بيديه".(٣)

ــ "وأعظم دليل على سعة خياله وقوته ما جاء في القرآن وفي الأحاديث النبوية من وصف الجنة وجهنم ولا حاجة إلى إيراده هنا لأنه معلوم مذكور في الكتب، ولا ريب أن الجنة التي وصفها محمد بأوصافها الباهرة المعلومة إنما هي من بنات خياله الواسع القوي ...".(٤)

ــ "ومن الدليل على قوة خياله وإنه في طريق تفكيره إذا تخيل شيئاً تجسم له في ذهنه حتى يراه بعينه ويسمعه بإذنه ما جاء في الأخبار عن بدء الوحي من رؤيته جبريل في أفق

---

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٢٦٥.

(٢). نفس المرجع، ص ٢٦٥.

(٣). نفس المرجع، ص ٩٥.

(٤). نفس المرجع، ص ٩٥.

السماء".[١]

ــ "فلا ريب في أنه في خلوته بغار حراء كان لا يفكر إلا في أمر النبوة، وأن تفكره كان مقروناً بتخيل جبريل وتصوره كيف يأتيه وكيف يناديه ويوحي إليه، ولا يستطيع طبعاً أن يتخيله إلا بصورة إنسان، فهذه العوامل كلها من خلوته وطول تفكيره وتخيله وانطباع الصورة المخيلة في نفسه هي التي أثرت في أعصابه حتى اعترته حالة رأى فيها جبريل في أفق السماء، وهو في الحقيقة ليس في أفق السماء بل في ذهنه ونفسه".[٢]

إن هذه العبارات ــ تنفي صراحة ــ الوحي من الله ﷻ إلى الرسول ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام أو بأي طريقة أخرى، وتُرجِع ما جاء في القرآن الكريم إلى قوة خيال محمد ﷺ، ويستدل على صدق مقدماته ببعض الأمثلة على سعة خيال محمد وقوته، منها على سبيل المثال: وصف الجنة وجهنم، وتخيل جبريل عليه السلام، ويعد الرصافي هذه الأمثلة أدلة على قوة خيال محمد وسعته، فهو يرى المثال دليلاً، وهذا مرفوض لغوياً ومنطقياً.

إن ما قدمه الرصافي هي أمثلة توضيحية فقط، لما افترضه من قبل بالنسبة إلى قوة الخيال؛ ولكنه لم يثبت شيئا في النهاية، وبدلاً من القول أن محمدا ﷺ كاذب[٣]، انتقل إلى تعريف خاص للصدق والكذب، وهو: "أن الصدق ليس ما وافق الواقع[٤]، بل الصدق هو ما وافق المصلحة العامة، وإن خالف الواقع، والكذب هو ما خالف المصلحة العامة، وإن وافق الواقع".[٥]

وفي نظر الرصافي أن محمدٌ ﷺ صادق في كل ما أخبر به، ليس بمعنى أن أقواله وأخباره مطابقة للواقع بمفهوم الصدق المنطقي والعلمي، بل بمفهوم الصدق الموافق للمصلحة العامة؛ لأن محمدا ﷺ لم يكن يقصد إلا المصلحة العامة من وراء دعوته إلى توحيد الله، والنتيجة هي أن الكذب المبرّر بالمصلحة العامة يكون صدقا؛ أي أن القضية الواحدة تكون كاذبة بمخالفتها

---

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٩٥.

(٢). نفس المرجع، ص ٩٦.

(٣) أحمد موساوي وآخرون: رحلة الرصافي من المغالطة إلى الإلحاد، ص ٢٧.

(٤). معروف الرصافي: المرجع السابق، ص ٤٤.

(٥). نفس المرجع، ص ٤٤.

للواقع، وصادقة بموافقتها للمصلحة العامة.

ومن حقنا أن نتساءل.. من أين أتى الأنبياء قبل نبينا محمد ﷺ برسائل الهدى؟! ومن أين أتى موسى عليه السلام بتوراته، وإبراهيم عليه السلام بصحفه وعيسى عليه السلام بإنجيله؟! أليس مصدرهم الوحي، أعَلِمَ الناس قبل محمد ﷺ ماهية الوحي؟! بالطبع إن الناس قبل محمد لم يشككوا في الوحي، ولم ينكروه، ولعلنا نرى بعض الكلام المملوء بالعجب حول الوحي، عند هيكل ـ مثلاً ـ وهل النفس العالية المتيقظة، والعقل المفكر المتوثب هو مصدر الوحي، حتى يرى النبي ﷺ صوراً مما يملأ عقله في يقظته فيعتقد أنه نبي مرسل؟! أم أن ما أُلقي إلى النبي ﷺ كان من قبيل الوحي الذي يرسله الله إلى من اصطفى من أنبيائه ليكون رسولاً مبلغاً عنه؟ هل تخضع مسألة الوحي للتحليلات النفسية كما لجأ ـ هيكل ـ إلى ذلك؟ ولقد نقد ما كتبه ـ هيكل ـ محمد رشيد رضا في كتابه: (الوحي المحمدي) فعقد باباً طويلاً[(١)] حتى يحكم على ما كتبه ـ هيكل ـ عن وليم موير وقد جاراه في تسمية الكتاب: (حياة محمد) بأنه مجرد تخيل شعري من كاتب أعجمي لا يتقيد بالوقائع عند تسجيل الحقائق التاريخية المعلومة.

لم نعثر ـ على الأقل ـ في الصفحات التي درسناها، على ما يشير إلى ذلك، فما قام به الرصافي هو خروج عن الموضوع، فانطلق من إنكار نسبة القرآن الكريم إلى الله عز وجل، ونسبته إلى قوة خيال الرسول ﷺ، معتمداً في ذلك على تأويل الروايات المدونة في كتب السيرة المحمدية، رغم انتقادها ورفضها كمصدر للعلم[(٢)]، ولم يتناول الرصافي ـ لا من قريب ولا من بعيد ـ النص القرآني بالتحليل والنقد، كما تقتضي المنهجية السليمة التي أشار إليها القرآن الكريم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] ولم يثبت الرصافي أن القرآن الكريم من عند غير الله يتدبره؛ أي بدراسته دراسة تحليلية نقدية موضوعية، تبرز الاختلافات الموجودة ـ إن كانت موجودة فعلاً ـ بل خرج كلية عن مناقشة النص القرآني، معتمداً على تأويل بعض الروايات المطعون في صحتها.

قال الرصافي بدنيوية واجتماعية الدعوة الإسلامية، بما هو أكثر جرأة من شاعره الأثير أبي

(١) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي (الطبعة الثالثة، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٣٧٥هـ) ص ٨٦ ـ ٩٤.

(٢). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٥٣.

العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)، والذي يحلو أن يسميه بشاعر البشر وشاعر الحقيقة: "هذه الجنة التي جاء وصفها في القرآن وفي الأحاديث النبوية، هي من مبتكرات محمد التي لم يسبق إليها، وفيها دلالة على ما في خياله من سعة ومن قوة، ولم يعتبر الشهيد المقتول في سبيل الله ميتا بل جعله حيا يرزق إذ قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩][(١)]، لكنه في مكان آخر قال: "أنا ـ ولله الحمد ـ مسلم، مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله إيمانا صادقا لا أرائي فيه ولا أداجي"[(٢)]، لكل هذا فالرصافي الذي يخشى صولة العلماء، قال في وصيته: "أراهم يهيجون علي العوام باسم الدين، ولا أظنهم يتركونني حتى يعدموني في الحياة، وليس لي من ألتجئ إليه سوى الله"[(٣)]، فكان حريصاً أن لا ينشر كتابه الشخصية المحمدية في حياته، وذلك خشية تحريض العوام ضده من قبل فقهاء الدين، وقد سلم مخطوطته لمحمود السنوي كما أسلفنا.

ويحلو ــ لي ــ أن أختم بكلام رائع وحاسم للشيخ محمد الغزالي حول هذه المسألة حيث يقول: "لو كان الشر إفراز غدة في الجسم ينحسم بانحسامها، ولو كان الخير مادة يزود بها القلب كما تزود الطائرة بالوقود فتستطيع السمو والتحليق.. لقلنا: إن ظواهر هذه الآثار مقصودة، ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك، بل البديهي أنه بالناحية الروحية في الإنسان ألصق، وإذا اتصل الأمر بالحدود التي يعمل الروح في نطاقها، أو بتعبير آخر عندما ينتهي البحث إلى ضرورة استكشاف الوسائل التي يسيَّر بها الروح هذا الغلاف المنسوج من اللحم والدم، يصبح البحث لا جدوى منه، لأنه فوق الطاقة.

وشيء واحد هو الذي نستطيع استنتاجه من هذه الآثار، أن بشراً ممتازاً كمحمد ﷺ لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس، فإذا كانت للشر (موجات) تملأ الآفاق، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين ــ بتولي الله لها ــ لا تستقبل التيارات الخبيثة ولا تهتز لها، وبذلك يكون جهد المرسلين في (متابعة

---

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص٢٢.

(٢). نفس المرجع، ص ١٧.

(٣). نفس المرجع، ص ١٧.

الترقي) لا في (مقاومة التدني) وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه، فقد عافاهم الله من لوثاته".[١]

التناقض الرابع: حول موقفه من الشرك بالله:

يتحدد موقف الرصافي من الشرك بالله من خلال مجموعة من العبارات؛ منها:

ـ الشرك بالله جعل الناس منقسمين إلى أكثرية عابدة لأقلية معبودة، وهو نوع من السقوط الإنساني من طور أعلى إلى طور أدنى، ومن مضارّه شقاء العابد ونعيم المعبود.[٢]

ـ القضاء على الشرك بالله يستلزم التوحيد؛ أي لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، أي الرقي الإنساني من طور أدنى إلى طور أعلى، أو التحرر من عبودية المخلوق إلى عبودية الخالق، وهي عبودية شريفة، وفائدتها لا تكون إلا لهم[٣] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقد جعل ـ الرصافي ـ النتيجة هي الغاية المقصودة، والفرق بينهما واضح، وقد انطلق من حكم مسبق، وحاول تبريره بعوامل ذاتية، لا علاقة لها بالحقيقة، التي اعتبرها هي معبوده الوحيد[٤]، ولو تمسك الرصافي بما تقدم لكان موقفه من الشرك بالله واضحاً، لكن انتقاله المفاجئ إلى عبارات جدلية إشكالية، جعل موقفه من الشرك بالله غامضا، ولتوضيح ذلك سنعرض بعضاً من عباراته منها:

١. مهما كانت العبودية لله شريفة فإن هناك مرتبة أعلى منها، وهي مرتبة الفناء في الحقيقة اللانهائية، التي هي ذات الله، وعنوان هذه المرتبة (لا موجود إلا الله)، وهي المعبَّر عنها عند فلاسفة الإسلام بوحدة الوجود[٥]، إن الطابع الجدلي الإشكالي لهذه المقدمة لا يحتاج إلى توضيح، فهي محل جدل بين المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة، انقسموا حولها إلى فرق ومذاهب شتى، كفّر بعضهم بعضا؛ لأنها قد تؤدي إلى دعوى الحلول، أو الاتحاد، كما قد تؤدي إلى الشرك والعياذ بالله.

---

(١). محمد الغزالي: فقه السيرة (الطبعة الخامسة، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٩م) ص ٥١.

(٢). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ١٧.

(٣). نفس المرجع، ص ١٧.

(٤). نفس المرجع، ص ١٥.

(٥). نفس المرجع، ص ١٩.

٢. لقد عبّر محمد عن وحدة الوجود في القرآن بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، هذه المقدمة مبنية على تفسير خاص للآية القرآنية الكريمة، يجعلها تدعم مبدأ وحدة الوجود، وهي مقدمة ذات طابع جدلي؛ لأن هذا التفسير غير مقبول من قبل بعض المفسرين على الأقل.

٣. إن الغاية التي يرمي إليها محمد من الدعوة إلى توحيد الله.. هي إحداث نهضة عربية دينية اجتماعية سياسية[١]، ويستنتج الرصافي هذه العبارة من بعض الروايات المدوّنة في كتب السيرة النبوية، ومن المعلوم أن هذه الروايات لا تفيد العلم كما وصفها وبالتالي؛ فهي مقدمة جدلية.

٤. إذا علمت ما يريد محمد من وراء دعوة قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، علمت سبب تشديده عليهم إنكار الشرك بالله.[٢]

هذه المقدمة تجعل محاربة الشرك بالله وسيلة لخدمة الغاية السياسية والاجتماعية، وليست غاية "إرجاع النفس الإنسانية إلى أصلها، الذي تفرعت منه، وتحريرها من عبودية المخلوق"[٣]، وطابعها الجدلي واضح، لا يحتاج إلى شرح، أو تحليل، وبناء عليه يستنتج ـ الرصافي ـ نتيجة غريبة مناقضة لموقفه السابق من الشرك بالله، وما يترتب عنه من الأضرار المادية والمعنوية؛ إذ يقول: "**إن الشرك بالله لا يضر الناس شيئا، كما أنه لا يضر الناس مضرة مادية، وإن كان عبثا مزريا بهم**"[٤]**، وهو تناقض صريح؛ إذ ينفي ما تقرّر سابقاً بالنسبة إلى الشرك بالله، إن غضب الله أهون على الرصافي من غضب الناس، فالله ﷻ على أي حال غفور رحيم.**

---

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٢٠.

(٢). نفس المرجع، ص ٢١.

(٣). نفس المرجع، ص ٢١.

(٤). نفس المرجع، ص ٢١.

التناقض الخامس: حول الغاية من الرسالة المحمدية:

يقول الرصافي: "تتميز الشخصية المحمدية بالتفكير العميق الدقيق"(١)، ويستدل بما يلي: "جاء في كتب السير أنه كان دائم الفكر.. وجاء فيها أنه يحب الخلوة، فكان يذهب إلى غار، ويبقى وحده الأيام والليالي، ولا شك أنه لم يكن له في ذلك الغار شغل عن التفكير... فهذه الحالة منه، أعني طول تفكيره وخلوته لأجل التفكير، تدلنا على أنه من تغلب عقله الفطري على عقله المكتسب... هو ـ إذن ـ ذو عقلية ممتازة على من حوله من الناس"(٢)، "ولا ريب أنه كلما زاد تفكيره زاد شعورا، لكي يصل إلى الغاية التي عزم الوصول إليها، وكذلك فعل، وكذلك كان".(٣)

الرصافي لم يذكر أي دليل على اطلاع الرسول ﷺ على الكتب السماوية والاستفادة منها، قبل النبوة وبعدها، في وضع القرآن الكريم مع الإضافات الناتجة عن قوة التخيل والذكاء والتفكير العميق والتجارب، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولو سلّمنا بما ذكره لنتج عن ذلك تناقض واضح؛ لأن القرآن الكريم أنزل من أجل تخليص عقيدة التوحيد من التحريفات التي أدخلها عليها أهل الكتاب من يهود ونصارى، إذن؛ فلا يعقل أن يتم تصحيح التحريف بما هو محرف، كما لا يمكن إضافة الصحيح لما هو محرّف؛ مما يدل دلالة واضحة أن ما أصدره الكاتب ليس حكماً، لأنه يعلّل نفسه بنفسه.

ثم يقول: "تميز محمد ﷺ بخيال واسع قوي، يكاد يقاوم الحقيقة بقوته"(٤)، و"أعظم دليل على سعة خياله وقوته ما جاء في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبوية من وصف الجنة وجهنم، ولا حاجة إلى إيراده هنا؛ لأنه معلوم مذكور في الكتب، ولا ريب أن الجنة التي وصفها محمد بأوصافها الباهرة المعلومة هي من بنات خياله الواسع القوي"(٥)، لا يقدم الكاتب أي دليل على أن لمحمد ﷺ خيالاً قوياً واسعاً جداً، بل أصدر حكما مسبقاً، ولما حاول تبريره وقع

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ١٦.
(٢). نفس المرجع، ص ١٦.
(٣). نفس المرجع، ص ٧٦.
(٤). نفس المرجع، ص ٩٥.
(٥). نفس المرجع، ص ٩٥.

في مغالطة المصادرة على المطلوب، فهو يستدل على أن لمحمد خيالاً قوياً بما جاء في القرآن الكريم من أوصاف للجنة ولجهنم، ويستدل على أن الجنة الموصوفة في القرآن الكريم هي دليل على قوة خياله الواسع.

ويضيف إلى ما سبق: "تميزت الشخصية المحمدية بالذكاء"[(١)]، حاول الكاتب أن يستدل على صحة كلامه بمجموعة من النصوص المأخوذة من كتب السيرة النبوية، رغم انتقاده لها، وإقراره بأنها لا تفيد العلم[(٢)]، جاء في تلك الروايات مجموعة من المواقف والسلوك المنسوب إلى الرسول ﷺ، ومنها أن الرسول ﷺ تفطّن إلى بعض المحاولات التي قام بها بعض المنافقين لقتله، ومنها التنبؤ ببعض الحوادث التي وقعت فيما بعد، ولسنا في حاجة سردها مفصلة، لأنها معروفة في كتب السيرة.

يرى الرصافي أن الآية القرآنية الكريمة الواردة في سورة النحل ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣] هذه الآية ـ في نظره ـ ليست دليلاً كافياً على أن الرسول ﷺ لم يتعلم شيئا من الأعجمي؛ لأنه لم يكن يعلمه المعاني بلسان عربي مبين، بل كان يعلمه المعاني فقط؛ إذ أن تعلم المعاني ولو بلسان فيه لكنة أعجمية[(٣)]، فإذا كان تعلم المعاني ممكنا ولو بلسان فيه لكنة أعجمية، فهل هذا يعني أن الأعجمي علّم الرسول ﷺ المعاني بالفعل؛ أي في الواقع ؟!

إن إثبات ذلك يحتاج إلى دليل موضوعي واقعي، ولا يبنى على ما هو ممكن فقط، ولم يقدِّم الرصافي أي إثبات واقعي لهذا الحكم، وبالتالي؛ فهو حكم مسبق، ولا دليل على أن ما أخبر به الرسول ﷺ هو نتيجة لأسفاره خارج الجزيرة العربية، فكل ما قدّمه هو تعليل ضعيف لحكمه، مبني على الاحتمال فقط؛ أي أن ما أخبر الرسول ﷺ عن بلاد فارس ـ على سبيل المثال ـ هو: إما أنه سمع وصف بلاد فارس ممن رآها، وإما أنه سافر إلى بلاد فارس، فرأى تلك الأشياء[(٤)]، يلاحظ أن هذا الاحتمال ينفي الوحي، ولو على سبيل الاحتمال.

---

(١). معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ص ٦٠.

(٢). نفس المرجع، ص ٥٣.

(٣). نفس المرجع، ص ٧٨.

(٤) أحمد موساوي وآخرون: رحلة الرصافي من المغالطة إلى الإلحاد، ص ٤٦.

المبحث الثالث:

الاتجاه القومي في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال ق ١٤ هـ

يرى بعض علماء التاريخ والسياسة ومنهم ـ تشارلز وورث ـ أن الشخصية القومية تعني مجموعة الخصائص أو الصور التي تميز شعبا معينا عن الشعوب الأخرى[١]، ويعرف محمد أحمد خلف الله القومية بأنها: "مجموعة الروابط الثقافية الناجمة عن تعايش مجموعة بشرية في مكان واحد، ولها تاريخ واحد، ومصالح مشتركة"[٢]، ويعرف عبد القادر زبادية القومية العربية بأنها: "تشمل الإسلام والعرب.. ومن هنا فهي تقليد وعمل حضاري يمكن أن يشمل جميع المسلمين في حالة الشعور بالانتساب والاعتزاز به، كما يمكن أن تحتوي جميع المسيحيين واليهود العرب في حالة الشعور بهذا الانتساب والإخلاص له".[٣]

ويعرف نور الدين حاطوم العربي بأنه: "هو كل من يعيش في الوطن العربي الكبير من خليجه إلى محيطه، وينطق باللغة العربية، ويعتز به العرب، ويرتبط معهم بولاء العربي، ويقاسمهم عيشهم، ويرضى مصيرهم مهما كان دينه أو مذهبه أو نسبه، أو البلد الذي نزح إليه ما دام يشعر بشعور العرب، وبصلات العربي التي تربطه من أعماقه بهم".[٤]

أما ميشيل عفلق فيعرف القومية بأنها: "ليست نظرية بل هي وجود حي، وأنها من طراز الحقائق البسيطة البديهية التي يتعايش داخلها الإنسان، ولذا فقلما يفكر المرء بالأشياء البسيطة، ومن ذا يفكر باسمه ووجهه؟ القومية كالاسم الذي يلصق بنا منذ ساعة ولادتنا.. فمن الخطأ أن نحصرها في ساعة محدودة من الوعي، وأن نسجلها في تعريف كما فعل علماء الكلام بالدين قديماً"[٥]، لذا فرق حزب البعث ـ بحسب عفلق ـ منذ تأسيسه بين (الفكرة العربية) ويقصد بها القومية العربية، و(النظرية القومية) فقال: "إن (الفكرة العربية) بديهية وخالدة، وهي قدر محبب، حب قبل كل شيء، وأما (النظرية القومية) فهي التعبير المتطور عن

---

(١). إلياس فرح: ندوة القومية العربية في الفكر والممارسة (الطبعة الثالثة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣م) ص ٦٦.

(٢). محمد خلف الله: ندوة القومية العربية والإسلام (الطبعة الثالثة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣م) ص ٨٤.

(٣). نفس المرجع، ص ١١٢.

(٤). نور الدين حاطوم: محاضرات عن حركة القومية العربية (القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٧م) ص ١٥.

(٥). إلياس فرح : المرجع السابق، ص ٣٧٧.

هـذه الفكـرة الخالـدة بحسـب الزمـان والظـروف، أي أن النظريـة القوميـة تنصـب علـى المحتـوى لا علـى الإطـار، وهـذه النظريـة اليـوم ــ بحسـب عفلـق ــ في الحريـة والاشـتراكية والوحـدة، وهـو يـذهب إلى أن (القوميـة العربيـة هـي قوميـة وعربيـة)، قوميـة لأن فيهـا الشـروط الابتدائيـة لكـل قوميـة، وعربيـة بمعـنى أن فيهـا التطـور الخـاص بالأمـة العربيـة عـبر مختلـف العناصـر والحضـارات والأزمنة، وأن الصيغة العربية المشتركة التي وحّدت بين هـذه العناصر جميعاً هي التي استمرت دون انقطـاع، وحـين يوضـح ذلـك الاسـتمرار، يقـول: "وكانـت اللغـة العربيـة أبـرز عنـوان لهـذا الاستمرار بما تتضـمنه اللغة عادة من وحدة في التفكير وفي المبادئ والمثل، وبهذا المعنى فقط يأخذ التاريخ قيمته في قوميتنا، تاريخنا بالدرجة الأولى، والتاريخ العام بالدرجة الثانية"، وهو يرى أن التجزئة علّة المشاكل، وأن الوحدة هي العلاج لها، وأنها الإطار الذي تتحدد من خلاله بقية الأهداف في الحرية والاشتراكية، و يرى ــ عفلق ــ أنه: "لا يمكن تحقيق الوحدة العربية تحقيقاً جدياً ومتيناً وصامداً للزمن إلا إذا حدث انبعاث روحي في المجتمع العربي"، فـ "الوحدة العربية هي نتيجة الانقلاب الروحي في المجتمع العربي، وهي أيضاً في الوقت نفسه سبب من أسباب هذا الانقلاب"، فالوحدة العربية هدف المفكرين القوميين عامة، وينفرد عفلق بهذا التوجه[1].

إن هـذا العرض المـوجز ينطلق بنـا إلى حقيقـة أقرهـا القوميـون أنفسـهم، وهـي عجـزهم عـن إيجـاد تعريـف جـامع مـانع للقوميـة الـتي التزمـوا بهـا؛ لـذا كـان إقـرار الكثـيرين ممـن حضـروا نـدوة (القوميـة العربيـة والإسـلام) في بـيروت، والـتي أقامهـا مركـز الدراسـات العربيـة عـام ١٩٨٠م بـأن القوميـة العربيـة لم تظفـر إلى اليـوم بتعريـف يجتمـع عليـه دعاتهـا، ومـن ذلـك قـول أحمـد صـدقي الـدجاني: "نجـد أنفسـنا كعـرب في هـذه المرحلـة مـن تاريخنـا أمـام مصـطلحات نسـتخدمها يوميـا دون أن يكـون لهـا مـدلولات محـددة في أذهاننـا.. نأخـذ مثـالا علـى ذلـك مصـطلحات الأمـة، والشعب، والوطنية، والقومية، والإقليمية".[2]

أمـا قسـطنطين زريـق الـذي يعتـبر مـن دعـاة القوميـة العربيـة منـذ الثلاثينـات، فـيرى أن هنـاك "ارتباكـاً لا يـزال سـاطياً علينـا ـ القـوميين ـ في إدراكنـا للمفهومـات الأساسـية الـتي تـدور عليهـا

---

(١). عبد العزيز الدوري: ساطع الحصري في الفكر القومي (الطبعة الثانية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩م) ص ٢٧٩.

(٢). محمد خلف الله: ندوة القومية العربية والإسلام، ص ٤١.

أقوالنا، وأحكامنا، ومساعينا العلمية، ومناقشاتنا في هذه الندوة هي إحدى الدلائل على ذلك؛ ذلك أن القومية، والقومية العربية لها صور مختلفة في أذهاننا، فهذه الصورة لم تتضح ولا تزال مثارا للتشتت الذهني والعملي"(١)، ويتفق إلياس فرح في ندوة أخرى أقامها مركز دراسات الوحدة العربية مع الآراء السابقة في عدم وضوح المفهوم القومي، فيقول: "إن وضع القضية القومية في صيغة نظرية علمية شمولية ما يزال هما من هموم المفكرين العرب... وهذا يعني أن القومية العربية لم تستكمل بعد كل وعيها لطبيعة المرحلة التاريخية"(٢)، نذكر أقوالهم هذه وقد مضى على قيام الفكر القومي العربية عقود متواصلة من السنين؛ ولذا كان من نتائج دراسة السيد يسن أن: "الفكر القومي العربي اتسم بالتطور والتغير سواء على المستوى النظري أو العملي.. إن تنوع الاتجاهات، واستمرار الأزمات الاجتماعية في وقت لا تستطيع الحركة القومية مواجهتها، تثير موضوع الطبيعة الأيديولوجية للدعوة القومية".(٣)

كما يعبر صلاح الدين المنجد عن هذا بقوله: "هكذا أصبحت القومية العربية يستخدمها الكتاب، والمؤرخون والسياسيون، والحكام، لأغراضهم، فضاعت قدسيتها، وشوه جمالها، حتى بلغ القرف عند الكثيرين أن أصبحوا يشمئزون من سماعها وسماع الحديث عنها، وأصبحنا أمام هذا البحر من التأويلات والدراسات والتفسيرات، وتحت تأثير الأغراض المختلفة، لا ندري ما هي القومية، ولا نعرف أي قومية نريدها".(٤)

عناصر القومية العربية:

من نافلة القول بعد أن رأينا الغموض يكتنف كلمة القومية بين القوميين أن يختلفوا حول العناصر الأساسية للقومية العربية، وإن العجب لا ينتهي لاختلافهم حول محور أفكارهم الذي تجمعوا من حوله، ونادوا إليه، وكتبوا عنه، وسعوا إلى تطبيقه في الواقع الحياتي للأمة العربية، وسأذكر بإيجاز أبرز عناصر القومية لدى القوميين العرب:

١. **اللغة:** وأبرز دعاة اعتماد هذا العنصر هو ساطع الحصري.

---

(١). محمد خلف الله: ندوة القومية العربية والإسلام، ص ١٩٣.

(٢). إلياس فرح: ندوة القومية العربية في الفكر والممارسة، ص ٢٧٠.

(٣). السيد يسن: تحليل مضمون الفكر القومي العربي، ص ١٩٥.

(٤). صالح العبود: فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، ص ٢٨١.

٢. التاريخ: وقد اعتبره الحصري عنصراً متمماً للغة لأنه الذاكرة الحية للأمة، ويرى القوميون ضرورة تنقية التاريخ من النعرات والأحداث التي تصدع بناء الأمة.(١)

٣. الأصل الواحد: يربط بعض القوميين ترابطهم بوحدة الجنس تعبيراً عن قرابة الدم.(٢)

٤. الولاء للمستقبل: وقد نادى به شبلي العيسمي كما تقدم في تعريف القومية، وعبر عنه بعضهم بالمصالح المشتركة.

٥. الإقليم: وقد ذهب إلى هذا نور الدين حاطوم ـ كما تقدم ـ وقد ربطه بالولاء الاجتماعي في تعريف القومية.

حقيقة حزب البعث وتكوينه:

شهد القرن الرابع عشر الهجري، نشوء أحزاب تنادي بالفكر القومي، وتتوجه نحو الحكم على البلاد التي نشأت فيها لهذا الهدف، وتجذب البعض من الشباب العربي بجرأة شعاراتها وجدتها في العالم العربي؛ الذي لم يألف منذ عهد الخلفاء الراشدين ولاءً ولا نداءً إلا للإسلام وشرعته، فقد أسس ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي الذي ادعى في شعاراته أن للعرب رسالة خالدة، وعلى الأمة العربية أن تحقق هذه الرسالة؛ لأن لها قدرة على الخلق والإبداع، والتجدد المستمر، والنزوع نحو التقدم ويرى أن الرسالة هي "أن يتطلع العرب إلى بعث أمتهم من خلال واقع متحضر".(٤)

فما هي الرسالة؟ هي البعث! كيف يكون البعث، لما البعث، وبما البعث؟ لا جواب عليها عند ميشيل عفلق وحزبه، بل ويرى كذلك أن "العرب لا يريدون أن تكون قوميتهم دينية؛ لأن الدين له مجال آخر وليس هو الرابط، بل هو على العكس، يفرق بين القوم الواحد، والعرب لا يريدون أن تكون قوميتهم تاريخية؛ لأن القومية العربية لا تنفي التراث التاريخي، فالأمة العربية

---

(١). محمد حداد: الفكر القومي التربوي عند ساطع الحصري (الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، ١٤٢٦هـ) ص ٨٩.

(٢). سليم بركات: الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي (الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٧٩م) ص ٨٨.

(٣). المؤسس الثاني والعقل التنظيمي لحزب البعث من عائلة دمشقية عريقة، في عام ١٩٣٣م تخرج من السوربون، وعين مع عفلق في ثانوية دمشق للتدريس وقد استغل كل واحد منهما أعمال التدريس للدعاية للنظام الاشتراكي العربي والقومية العلمانية بشكل فاضح، تم اغتياله في باريس في ١٩٨٠/٧/٢١م. انظر: مطيع النونو: دولة البعث وإسلام عفلق (الطبعة الأولى، القاهرة، مطابع الأهرام، ١٩٩٤م) ص ٦٢.

(٤). السيد يسن: تحليل مضمون الفكر القومي العربي، ص ١١٣.

وارثة لتراث حضاري غني واسع يشمل سني الحضارات التي دخلتها، وتفاعلت معها من مصرية، وآشورية، وبابلية، وفينيقية وغير ذلك.. ويحدد أهداف حزبه: الحرية والاشتراكية والوحدة، كل لا يتجرأ، ولا يجوز فصل بعضها عن بعضها الآخر"[١]، وقد دعا حزب البعث إلى مفهوم خاص للقومية العربية؛ بأن يجعل قوامها الإيمان بالقيم الروحية الإنسانية، وأن تتحرر الدولة من الدين لتنطلق الحياة بين الأفراد والمجتمع.

يقول ليونارد بايندر: "مثل عرض عفلق للفكرة القومية من منظوره البعثي خليطاً من الفلسفات الغربية الشائعة، فهو يأخذ من هيردر مقولته: " أن لكل أمة رسالة خاصة بها، عليها أن تؤديها، وأن في وسع كل أمة أن تسهم عن طريق هذه الرسالة في تحقيق الانسجام العالمي"، ويضمّن عفلق عرضه ـ أيضاً ـ تأكيد هيجل على التاريخ وعلى الوجود القومي فيه، لكنه يستعيض عن جدل هيجل المنطقي، بمفهوم الحلقة التاريخية في الصعود والهبوط، وتظهر في كتابات عفلق ـ أيضاً ـ نظرية ماركس في الصراع الطبقي، كما يضمنها تأكيداً كبيراً على الأساس الاقتصادي للسياسة، ولكنه يرفض الحتمية التي تبناها ماركس، كما يرفض التفسير المادي رفضاً كاملاً، وكانت الاشتراكية التي تبناها عفلق جزءاً من فكرته القومية البعثية، تماماً كما كانت صهيونية بورسوف جزءاً من اشتراكيته، وأخيراً نجد في كتاباته شيئاً من "المذهب الحيوي" الذي نادى به برجسون[٢]"[٣]، ويشرح بايندر كيف قام عفلق بانتقاء وتلفيق مركب مذهبيته من هؤلاء الأربعة: فيقول: "ومن المفيد إلقاء بعض الضوء على نظرية عفلق القومية البعثية ما دام بصياغته هذه يكاد يخلو من المعنى ـ على حد تعبير الكاتب ـ وقد أخذ من هيجل مذهبه بعد تطويره، فالمذهب الجدلي عند هيجل فحواه: "أن الحياة العقلية منفصلة تمام الانفصال عن التاريخ الواقعي، ولذلك استعاض عنه بمفهوم "الحلقة التاريخية في الصعود والهبوط" وهذا المفهوم يمثل رؤية عفلق للتاريخ العربي وتمثيله بحلقات يبلغ فيها أوج مجده ثم ما يلبث أن يتردى إلى الحضيض، والمعيار لديه في هذا الارتفاع والانخفاض، هو نقاء العنصر

---

(١). إلياس فرح: ندوة القومية العربية في الفكر والممارسة، ص ٢٢٩.

(٣). هنري برجسون فيلسوف فرنسي من أصل يهودي، درس في كلية فرنسا للفلسفة، نال جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٢٧م. انظر: مراد وهبة: المذهب في فلسفة برجسون (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٠م) ص ٧.

(٣). ليونارد بايندر: الثورة العقائدية في الشرق الأوسط (القاهرة، دار القيم، ١٩٦٦م) ترجمة: جبرا حماد، ص ٣٢٣.

باعتباره المقياس الوحيد، ويلعب تفسيره هذا للتاريخ دوراً أساسياً في نظريته القوميّة البعثّية، ولذلك عارض التفسير المادي للتاريخ.

وبتلك التعبيرات والنظريات الملفقة المزيج عن "القومية العربية البعثية" استطاع عفلق أن يصوغ مذهبية الحزب بعد أن انتقى من تلك الأفكار انتقاءًا بحيث لواها كي تلتئم في نسيج واحد للتعبير عما أراده، فلقد لفق وطرح تصورات وحذف أخرى وحوّر وحرّف فيما حذف وفيما أخذ، نعم إنه فعل، ولكن في مثل هذا المجال، وهو مجال فلسفي هل يحق للفيلسوف أن يعرّف الشيء أو الحدث كما يريد أو يتصور؟ جواب عفلق: نعم، ولذلك تبنى عفلق هذه الفكرة وهي: "أن الفكر يتصلب فيعند، ومن يعند ينتهي إلى أن يلوي الأشياء، وفقاً لفكرته بدلاً من تنظيم فكره وفقاً للأشياء"[(١)] ، ولذلك فإن القائد المؤسس قد لوى عنق الفكر القومي كله ثم الفكر الإسلامي كله ليقدم لمن يغتر بفكره من أنصاف المتعلمين تلك الخلطة العجيبة المتنافرة من الأفكار يقول عفلق: "الأمة ليست مجموعة عدديّة وإنما هي أيديولوجيّة تتجسدّ في تلك المجموعة أو جزء منها، والجزء المقصود من المجموعة هو طلائع الأمة العربية أي الحزب الذي يقع على عاتقه عبء تعبئة الأمة وراء الفكرة القومية البعثية وقيادتها في أداء رسالتها الخالدة، وهنا يصبح الحزب هو الأمة، ودور الأمة لا يعدو أن يكون في جعلها تنكبّ على متابعة فكر الحزب صماً وعمياناً في حالة تقليد ومتابعة لا تبالي إذا كانت تلك المتابعة تحدث للأمة قناعة بذلك الفكر أو لا تحدث".[(٢)]

ويعلق ليونارد على ذلك بقوله: "ليس من العسير أن يكون وراء هذا الرأي إيمان بالجماعية الصارمة ونزعة سلطوية ترغم الناس على الحرية!! أو تجبرهم على إدراك مصائرهم الصحيحة مهما كانت معتقداتهم الواعية، فالمشكلة في رأيه مثل كل شيء حملُ العربيّ على الإحساس بطبيعته الأصلية، فهو يفترض القبول على أساس الإيمان"[(٣)]، إن عفلق وضع تصوراً جديداً للفكرة القومية البعثية ينسجم والمذهب القومي الخاص بالبعثيين الذي صاغه باقتباساته المشار

---

(١). مراد وهبة: المذهب في فلسفة برجسون، ص ٦٩.

(٢). هنا يستعير عفلق من الإسلام مفهوم الفطرة ويسقطه على عقيدته وأفكاره البعثية. انظر: ميشيل عفلق: في سبيل البعث (الكتابات السياسية الكاملة) على الرابط: http://albaath.online.fr

(٣). ليونارد بايندر: الثورة العقائدية في الشرق الأوسط، ص ٢٤٣.

إليها، والواقع أنه توخى بذلك نقطتين مهمتين في العقيدة البعثية هما:

أ) إعادة صياغة فكرة القومية العربية البعثية لتكون إطار مناسباً للمذهبية وخصوصياتها، ولفصل البعثيين عن بقية الفصائل القومية، فلا تنطبق عليها انتقادات المسألة القومية بعامة، فهي مختلفة عن القومية الغربية في شقيها الماركسي والتقليدي من ناحية، وغلق الباب أمام تحليل القوميين العرب الذين وصفهم عفلق بالرجعيين الذين يقحمون الدين عنصراً أو مقّوماً من مقومات هذه القومية.

ب) وأكد أن الطليعة هي وحدها التي تعي قوميَّتها في مرحلة الانحطاط، وتستوعب قيمها، وقد ألهمت الإيمان بدور قوميتها إلهاماً، فهي تتولى قيادة ثورة البعث، وثورة البعث هي إجراء البذل الفطري والخلقي.[1]

يتبين لنا من هذا العرض الوجيز أن مفهوم الأيديولوجية للبعث العربي الاشتراكي إنما هو مسألة قومية وأن هذه القومية ـ بمفهومها البعثي ـ هي العرق العربي ونقاؤه ثم تخدم بقية عناصر المذهب البعثي هذا الغرض، وقد ثبت من عرضنا لنشأتهم ومعتقداتهم، أنهم لا دين لهم ولا مذهب إلا دين حزب البعث ومذهبيته.

وسوف نتناول في هذا الاتجاه الشخصيات التالية:

١) ساطع الحصري ورؤيته للسيرة النبوية.

٢) ميشيل عفلق ومحاضرته في ذكرى الرسول العربي.

٣) عبد العزيز الدوري وكتاباته في السيرة النبوية ومصادرها.

---

(١). هذا النص مقتطف من محاضرة لجابر طه العلواني، على الرابط الالكتروني: http://www.alhewar.net

ساطع الحصري[١] ورؤيته للسيرة النبوية:

لقد درس الحصري الحركات القومية في أوروبا، ودرس الفكر القومي الأوروبي في القرن التاسع عشر، وبخاصة لدى الفرنسيين والألمان والإيطاليين، وهو كثيراً ما يستشهد لتوضيح آرائه أو تأييدها بأمثلة من التاريخ الأوروبي، كما أخذ الأوضاع العربية في الاعتبار، ويلاحظ الحصري أن الأمم تتميز من بعضها البعض باللغة، وأن أول من نبه إلى ذلك هم الألمان، واللغة مخزن التراث، وروح الشعب تكمن في لغته، ولعله أفاد أيضاً من ابن خلدون الذي يرى العربية الرابطة الدائمة للعرب.[٢]

ولعله وجد في النظرية الألمانية "اللغة" حجته للقومية العربية التي تعهد بالدعوة لها، وبثها ونشرها، وقد صرح لكليفلاند: "أنه وجد المفكرين الألمان بين جميع من قرأ لهم من المفكرين الأوروبيين ـ كما وجد المثال القومي الألماني ـ الأعظم نفعاً للحاجات العربية"[٣]، ولذا تراه يستشهد في أكثر المواطن التي يتحدث فيها عن اللغة بمعلمه فيخته[٤] الذي أعجب به أيما إعجاب إلى درجة أنه سعى لمضارعته في بذل الجهد الدعائي للقومية التي جعلها هدفاً لحياته، يقول فيه: "ولا نغالي إذا قلنا إن خطب فيخته لا تزال تعتبر من أناجيل القومية الألمانية"[٥]،

---

(١). ساطع بن محمد هلال بن السيد مصطفى الحُصْري، ولد في حلب سنة ١٢٩٨هـ، أكبر وأقدم دعاة القومية العربية ومنظرها بلا منازع، شغل مراكز هامة في وزارة التربية العثمانية، التحق بالحكومة العربية في دمشق وصار وزيراً للتربية في حكومة الملك فيصل الأول، ثم رافقه إلى العراق وكان له أكبر الأثر في تكوين فكر قومي في العراق، فقد عمل بعد وصوله إلى العراق في معية الملك فيصل الأول بمثابة مستشار في أمور المعارف، نُفي من العراق إثر فشل انقلاب الكيلاني وسحبت منه الجنسية العراقية، عمل مستشاراً فنياً لإدارة الثقافة في جامعة الدول العربية، تفرغ بعد استقالته للكتابة والتأليف؛ وفي عام ١٣٨٥هـ أُعيدت إليه الجنسية العراقية، وعاد في نفس العام إلى العراق، وعين أستاذاً غير متفرغ في جامعة بغداد، إلى أن توفي في عام ١٣٨٨هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٣، ص ٧٠.

(٢). عبد العزيز الدوري: ساطع الحصري في الفكر القومي، ص ٢٦٨.

(٣). ساطع الحصري: محاضرات في نشوء القومية، ص ٤٨ ـ ٥٠.

(٤). يوهان غوتليب فيختِه، فيلسوف ألماني، ومن أبرز دعاة القومية الألمانية التي تعتمد اللغة عنصرها الوحيد، في عام ١٨٠٩م، أُسِّست جامعة برلين، وعُيِّن عميداً لها عام ١٨١٠م، وأصيب لاحقاً بمرض التيفوس حيث تُوفِّيَ عن عمر يناهز ٥٢ عاماً. انظر: يوهان غوتليب فيخته: خطابات إلى الأمة الألمانية (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩م) ص ١٤.

(٥). ساطع الحصري: المرجع السابق، ص ٣٤.

حتى أن سليفيا حاييم قالت عن الحصري: "إن الحصري يستلهم فيخته لا القرآن".[(١)]

وهكذا عرف الحصري الأمة وحدة ثقافية أولاً، وليس وحدة سياسية، كما يرى أن الوحدة القومية شيء طبيعي، ولاحظ أن العروبة وجدت في التاريخ وأنها قديمة، ولكن الوعي بها واتخاذها وجهة سياسية هو الجديد، فاعتبر ـ الحصري ـ اللغة هي أصل القومية العربية الأعظم، وذهب إلى إشراك التاريخ مع هذا الأصل، غير أنه لم يكشف رأيه هنا في التاريخ، وإنما عرضه مصطلحا غير محدد الأهداف والزوايا والأبعاد الزمانية والمكانية والعقدية، غير أنه أسهب في الحديث عن تدريسه وتفسيره وطرق تناوله من وجهة عربية قومية؛ وسنجد الدليل على موقفه من تاريخ الإسلام وسيرة نبيه ﷺ التي سنعرضها في الفقرات التالية:

أ) **نظرة الحصري للسيرة النبوية:**

لقد وجه الحصري بصره إلى السيرة النبوية باعتبارها تاريخاً قومياً معجزاً؛ إلى حد أنه دعا إلى غض النظر عن كل التاريخ والاكتفاء بالنظر إلى الغزوات التي بدأت من الهجرة النبوية الشريفة، فتراه حين يتحدث عن ـ الأمة العربية ـ التي تعرضت لتطورات مختلفة يقول: "ولكنها شذت عن سائر الأمم بالاختلاف الهائل الذي بدا بين ماضيها وبين حاضرها خلال هذه التطورات، إنها كانت خارقة للعادة في وثبتها نحو المجد والاعتلاء، ولكنها صارت بعد ذلك خارجة عن المألوف في انحدارها السريع نحو مهاوي التقهقر.. ولنغض النظر عن الأدوار المهمة التي لعبتها في تاريخ الحضارة والشعوب التي نزحت عن الجزيرة العربية في مختلف العصور، ولنقف قليلا أمام الوثبة الكبرى التي قامت بها الأمة العربية بعد هجرة النبي ﷺ العربي العظيم".[(٢)]

ويستشهد على استمرار هذا التقدم الحضاري على مختلف الأمم والشعوب بقول بتراركا[(٣)]: "ماذا تقولون؟ استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموستين، وصار فيرجل شاعرا بعد هوميروس وأنتم تتوهمون مع ذلك بأنه لن ينبغ أحد بعد العرب! نحن قد ضاهينا اليونان حتى إننا سبقناهم في بعض الأحيان، وضاهينا وسبقنا بذلك جميع الأمم، وأنتم تقولون الآن:

---

(١). وليم كليفلاند: ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة، ص ١٤٢.

(٢). ساطع الحصري: آراء وأحاديث في القومية العربية (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م) ص ٩٣.

(٣). فرانشيسكو بتراركا شاعر إيطالي في ق١٤م. انظر: الموسوعة العربية: http://www.arab-ency.com

إننا لن نضاهي العرب؟ هل تخدرت عبقرية الطليان، وخبت إلى هذا الحد؟!"[١]، واستشهاد الحصري وإعجابه بتلك الصفحات الخالدة من تاريخنا إنما أراد منه استثارة الحماس لدى الشباب العربي لتغيير الواقع العربي المرير إلى واقع ناهض نحو المجد والعلياء، ولكن هل هُدي الحصري بذلك إلى الحق أم أنه تناسى بعض الحقائق، وغفل عن أهم المطالب التي تحقق ذلك؟! والحقيقة أن للتاريخ أثره، وللتاريخ صُناعه، وتاريخ الإسلام هو تاريخ العرب، وتاريخ العرب هو تاريخ الإسلام، ولو حذفنا منه الإسلام وما نشأ عنه لم يبق للعرب شيء، فالعرب وُلد مجدهم وتاريخهم يوم وُلد محمد ﷺ[٢]، إن التاريخ المنسي البعيد ليس له من أثر في الشعوب المسلمة كتاريخ الجاهلية العربية؛ إلا الاعتبار، ذلك لأن الإسلام جاء لتغيير أكثر ما فيها مع الإبقاء على الفضائل والمكارم، بعد هذا أليس للمُعتَقَدِ دوره في حركة تفسير التاريخ، وتحديد الموقف من أحداثه؟!

هنا يأتي الأستاذ محمد المبارك فيقول: "ليس المهم في موضوع التاريخ أحداثه فقط، وإنما المقاييس التي يُنظر بها إلى تلك الوقائع.. فهل لنا أن نجتزئ التاريخ لمبدأ قومي عصبي؟! ثم هل لنا أن نُفسر التاريخ الإسلامي الأول بعيداً عن الفهم القرآني؟! إن الغزوات النبوية في معظمها كانت مع العرب من قريش وغيرها في سبيل الله لنشر دين الله، وتحرير العرب، ثم تحرير الآخرين من الوثنيات والجاهليات إلى نور الإسلام وحرية الإيمان".[٣]

وشارك الحصري في مؤتمر الثقافة العربية الأول الذي عقد في بيت سري بلبنان عام ١٩٤٧م، وجاءت الدعوة فيه بمطالبة الدول العربية لتوجيه مناهجها اتجاها قوميا خاصة بالنسبة للدراسات الاجتماعية، والتاريخ من أهمها، حيث أكد: "أن تشمل هذه الدراسات في المسائل الاجتماعية والاقتصادية في الوطن المحلي والبلدان العربية ما يقوي الروح القومية..."[٤]، وهكذا يتبين لنا من خلال الوقوف على رأي الحصري في السيرة النبوية؛ ومقررات المؤتمرات الثقافية العربية بتوجيه التاريخ الإسلامي اتجاهاً قوميا، خطورة التناول التاريخي من مختلف المذاهب

---

(١). ساطع الحصري: آراء وأحاديث في القومية العربية، ص ٩٧.

(٢). علي الطنطاوي: صحيفة الشرق الأوسط، العدد: ٣٦٠٧، بتاريخ ١٩٨٨/١١/٢٥م، ص ٨.

(٣). محمد المبارك: الأمة والعوامل المكونة لها (الطبعة الثانية، دمشق، دار الفكر، د.ت) ص ٦٨ ــ ٧٦.

(٤). محمد إسماعيل علي: الوجيز في المنظمات الدولية (القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٢م) ص ١٤٢.

القومية والفكرية الأخرى في عالمنا العربي والإسلامي، لقد اطلعت على تناول الحصري للسيرة النبوية على أنها تاريخ عربي فقط وتناسى الحقيقة التالية وهي: أن السيرة النبوية التي يفتخر بها وينتسب إليها إنما قام بأحداثها نبي ورسول هو محمد بن عبد الله ﷺ ومعه كوكبة من الصادقين قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [الزُّمَر:٣٣]، ولم ينطلق في إنجازاته تلك من روابط المصالح المشتركة، والأرض الواحدة، أو الأصل الواحد، وعندما نمعن النظر في السيرة النبوية نجد أن العرب قبل الإسلام ـ وهم الذين ترجع دماؤهم إلى أصل واحد ـ لم يمكنهم هذا العنصر من القيام بدور تاريخي موحد يذكر بين العالمين كما تقدم، وأما المصالح المشتركة فالواقع التاريخي سجل تمزيقهم لها؛ فمنهم من احتمى بفارس، ومنهم من والى الرومان، ومنهم من تبع الأحباش، ومنهم من هدر دم ابن عمومته في الشهر الحرام، لكنهم ساعة اجتماعهم على صعيد العقيدة الواحدة إذا بهم غدوا أمة أخرى لا تلتقي على وحدة الأصل أو الأرض أو المصلحة، بل إنها تتسع بإنسانيتها وواقعيتها لتحتوي كل الأجناس والشعوب والبقاع في ظل العقيدة الواحدة، وهم يسجلون روائع التاريخ البشري بمدد رباني لم تعرفه البشرية من قبل ليقيموا العدل والحق والحرية، قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[آل عمران:١١٠].

نعم، قد تشترك أمتان لمصالح بينهما في فترة تاريخية محددة، غير أن هذا الاشتراك سرعان ما يتفكك بزوال المصالح، بل قد ينتهي الأمر على صراع طويل بينهما، يقول الشيخ محمد محمود الصواف: "ففي الحرب العالمية الأولى قاتلت ألمانية دول الحلفاء إلى جانب تركيا، وفي الحرب العالمية الثانية اشتركت أمريكا وروسيا كذلك في حرب ألمانيا النازية، وعند انتهاء الحرب بدأ الصراع بين هذه الدول جميعها بعد انتهاء مصالحها في اللقاء. مع العلم بأنها صنعت الغرائب في هذه الحقبة من تاريخ الأمم والشعوب.. ولكن التاريخ لم يجمع بينها ولم يكوّن منها وحدة قومية مشتركة"[1]، غير أن المسلمين الأوائل تحت راية الإسلام شيدوا تاريخهم في دائرة أخوة العقيدة والإيمان، تجمعهم وحدة الغاية والفكر ضمن إطار عقدي رباني واحد، الأمر الذي مكنهم أن يسطروا لنا الصفحات الناصعة لهذا التاريخ عبر أربعة عشر قرناً في قارات

---

(١). محمد محمود الصواف: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام (القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٧٧م) ص ٢٢.

العالم القديم الثلاث، فهل من الروح العلمية أن ننظر إلى صنيعهم من غايات مغايرة لغاياتهم، ولدوافعهم من دوافع مصطنعة في خيالات القوميين في عصرنا التي لو شهدها أولئك الرجال في أزمانهم لحملوا على دعاتها ابتغاء إصلاحهم وهدايتهم أو الحد من شططهم وعبثية تجاربهم.

يقول مالك بن نبي عن قوة الإسلام التي شيدت حضارته وتاريخه: "إن روح الإسلام هي التي خلقت من عناصر متفرقة ـ الأنصار والمهاجرين ـ أول مجتمع إسلامي، حتى كان الرجل في المجتمع الجديد يعرض على أخيه أن ينكحه من يختار من أزواجه بعد أن يطلقها كي يبني بذلك أسرة!! إن قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي موجودة بكل وضوح في الإسلام.. ولكن أي إسلام؟.... الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي، وقوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف حضارتنا المنشودة، وفي يدها ـ ضمانا لذلك ـ تجربة عمرها ألف عام، وحضارة ولدت على أرض قاحلة وسط البدو، رجال الفطرة".[١]

هؤلاء الرجال وأحفادهم وإخوانهم ممن انضموا إليهم برباط العقيدة التي منحتهم ثقافة عقدية واحدة مميزة هي الثقافة الإسلامية التي يريدها البعض أن تكون عربية الاسم، إلا أنها "بما تشتمل عليه من أفكار ومفاهيم وعقائد وأحكام وقيم، وما تفرع عنها من أدب وتاريخ وتراجم وسير إنما ترجع إلى عنصرين أساسيين:

١) اللغة العربية باعتبارها وعاء هذه الثقافة والمعبر عنها.

٢) والإسلام باعتباره المضمون الفكري والمعيار التقويمي لهذه الثقافة، وإنما تكوّن الفكر العربي في أجواء الإسلام دينا وثقافة وحضارة وتاريخا، ففيها نشأ ونما.. فالإسلام وما تفرع عنه.. هو المكون الأساسي للشخصية العربية في ماضيها وحاضرها، في ذاتيتها وأصالتها، فهو الأساس الذي لا بد منه لفهم الأدب العربي، نثره وشعره، ولفهم التاريخ تعليل حوادثه، وكشف خط سيره وأهداف فتوحاته، ومعرفة عظمة الشريعة ...".[٢]

---

(١). مالك بن نبي: شروط النهضة (الطبعة الثالثة، دمشق، دار الفكر، ١٩٦٩م) ص ٣٧.

(٢). محمد المبارك: ندوة الدراسات الإسلامية (القاهرة، اتحاد الجامعات العربية، ١٩٨٠م) ص ٥٥.

ب) موقف الحصري من مصادر السيرة النبوية:

انتقد الحصري طريقة ومنهجية المؤرخين الأوائل في كتابة السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، ويحبذ الطريقة الغربية في التاريخ على الطريقة العربية الإسلامية، فيقول مبرراً ذلك: "إن تاريخنا كثيراً ما يبدو من الكتب التي تتداولها تافها وهزيلا بالنسبة إلى التواريخ الغربية الناصعة المجيدة، ولكن السبب في ذلك لم يكن تفاهة تاريخنا نفسه، بل هو رداءة الكتب التي تعرض لنا ذلك التاريخ، فإن الكتب التي نقرؤها عادة عن تواريخ الغربيين مكتوبة بنظرة علمية ونزعة قومية في وقت واحد، على حين أن الكتب التي نقرؤها عن تاريخنا بعيدة وخالية من النظرات العلمية والنزعات القومية في وقت واحد.. إن أول الواجبات التي يتحتم علينا القيام بها لتقوية الإيمان القومي هو كتابة تاريخنا على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية"(١)، وتراه مع هذا كله ـ وكما تقدم ـ يستشهد من تاريخنا المكتوب على عظمة الإنجاز الحضاري لهذه الأمة(٢)، فإن كان تافها وهزيلا فكيف أفاد منه إلى درجة الاستشهاد به على دعواه، وانتصر لعثرات الأمة في تاريخها؟!

ويصف الطريقة الغربية للتاريخ والتي يحبذها لتاريخنا العربي بأنها: "أبحاث وجهود عدة أجيال من المؤرخين، وهؤلاء درسوا الوقائع التاريخية ووثائقها بتعمق وتوسع، وتأمل، واستقرؤوا الجزئيات ليتوصلوا إلى الكليات، بحثوا في المقدمات والنتائج، وتتبعوا سير التيارات السطحية والجوفية، واستكشفوا العوامل القريبة والبعيدة، ودونوا في مؤلفاتهم نتائج هذه الأبحاث والتنقيبات والاستقراءات والاستنتاجات والتأملات، إنهم عملوا على ذلك وفقا لخطط عملية، وبنظرات فلسفية واجتماعية؛ ولذلك عندما نقرأ تلك المؤلفات نطلع على الروابط والاتجاهات والتطورات دون أن نحتاج إلى بحثها واكتشافها بأنفسنا"، أما مصادر السيرة النبوية وتاريخنا الإسلامي المكتوب فيرى أنها: "مؤلفات قديمة سجلت الوقائع تسجيلاً كما تراءى للمؤلف، إما عن طريق المشاهدة، وإما عن طريق السماع دون أن يهتم كثيرا بالمقدمات والنتائج، ودون أن يتتبع التيارات السطحية، فضلا عن الجوفية العميقة".(٣)

---

(١). ساطع الحصري: دفاع عن العروبة (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م) ص ٤٨.

(٢). نفس المرجع، ص ٥٤.

(٣). نفس المرجع، ص ٦٤.

لقد وسم الحصري مصادر السيرة النبوية الأصلية وموسوعاتنا التاريخية الفريدة التي دوّنها علماؤنا الأفذاذ في وقت لم تعرف البشرية فيه التاريخ المكتوب والتاريخ المسند للرواة، بل كان العرف الشائع لدى سائر الأمم والشعوب كتابة بعض التاريخ على الجدران ونحوها، ورواية التاريخ عن طريق الحكايات والأساطير والأوهام والظنون ـ وهو الغالب ـ بأنه يبدو للمطلع عليه تافهاً وهزيلاً بخلاف التواريخ الغربية؛ ويرجع أسباب زعمه لتفاهة تدوين أحداث تاريخنا العربية والإسلامية لعدم التزام المنهج الغربي في ذلك الذي يعتمد العلمية منهجا ـ فأي علمية يقصد؟ وما هو مفهوم العلمية لديه؟ ـ والنزعة القومية إطارا تدور في فكله الأحداث التاريخية، ولعل سبب هذه النظرات الحصرية للسيرة النبوية يرجع إلى أمور ذاتية عدة:

أولها: أنه لم يطلع على تاريخنا طوال أربعين أو أكثر من سني عمره بحكم عجمته اللسانية ـ التركية والفرنسية ـ الأمر الذي مكنه من الاطلاع أولا على التواريخ الغربية، وهو المعجب المنبهر بكل ما لدى الغرب، والمزدري للكثير مما لدى أمته المسلمة.

وثانيها: أنه بحكم نشأته العلمانية وتطلعاته اللادينية لا يطيق النظر إلى ماضي أمته وحاضرها ومستقبلها من منظور ديني وإسلامي، مع العلم أن تاريخنا المدون بدءاً من تاريخ الأمم للطبري، وانتهاء بتاريخ الجبرتي دونه علماء الشرع الثقات بنظرات إيمانية لأحداثه ووقائعه، الأمر الذي دفع الحصري لأن ينفر منه وفق ما رُبِّيَ عليه وألفه، مع أننا لا ننكر ثغرات هنا وهناك ومآخذ عدة على كتابة تاريخنا الإسلامي.

ألا يحق التساؤل: لماذا التاريخ الذي يعرض من رؤية إسلامية وتشع من أطرافه وأبعاده ومضات إيمانية من قلب المؤرخ المؤمن تافه وهزيل؟ ألأنه لم يدر في فلك الفكر القومي الوافد الذي عبر مع المحتل إلى أمتنا بعد أحداث جسام، ناء باستيعابها والتغلب عليها أبناء أمتنا لتعثر مسيرتهم مع إسلامهم، ومكر الأعداء بهم، وكأن الروح العلمية العلمانية تحجب عن إدراك أي ميزة ظفر بها تاريخنا من دون التواريخ العالمية، ومنها الإسناد والرواية عند كثير من المؤرخين بدءاً من شيخ المؤرخين والمفسرين الإمام الطبري، الأمر الذي دفع المختصين إلى إنشاء ودراسة علم إسلامي فريد هو علم الجرح والتعديل.

مع العلم أنه لا بد من التنبيه إلى أنه لا يشترط في الخبر التاريخي أن يكون رجال سنده على أعلى الدرجات من الضبط والعدالة والإتقان، وإن كل هذا يمنح المختص ضوءاً ساطعاً

لمقدار الثقة بالخبر التاريخي المسند؛ وعدم اشتراط هذا يرجع إلى أن القدح في أحد رواة السند أو بعضهم من جهة العدالة مثلا أو الضبط التام لا يمنع من وقوع الحدث الذي أرخ؛ ذلك أنه وقع وانتهى في زمان مضى، ومن كذب مرة لا يتهم دوماً بالكذب، وغير الضابط لا يتهم في كل أحواله بفقدان الضبط إضافة إلى أن الخبر التاريخي لا يترتب عليه حكم شرعي، فإن جعل دليلاً لحكم شرعي اشترط فيه ما يشترط لذلك، وإلا فلا! وهذا الطرح الذي يراه الباحث إنما أراد به لفت أنظار الذين يدعون إلى كتابة التاريخ مرة جديدة وفق علم الرجال إلى عدم المغالاة والتشدد في هذا، لعدم استناد هذا الأمر إلى دليل شرعي ملزم فيما يرى، إن معظم المؤرخين لأسفار ماضي أمتنا كانوا ينظرون إلى تدوين السيرة النبوية والتاريخ ـ كما أشرنا ـ على أنه قضية أمانة ودين؛ ولذلك أسندوا الروايات إلى قائليها رعاية لحق الأمانة وهي أمر تعبدي، وكانوا على حذر في تسطير الوقائع التي عاشوها أو عاصروها، الأمر الذي دفعهم إلى التثبت أو التشكيك فيما يقال، وتجنب الزيادة والنقصان رعاية لجانب الصدق في الشهادة، وهي مسؤولية شرعية وأداء تعبدي أيضاً لا يستشعره إلا المسلم، وتراهم يعقبون على كل ذلك بالالتجاء إلى الله بالدعاء أن يتم النعمة، أو يكشف الغمة.

ج) تفسيره لأحداث للسيرة النبوية:

يذكر الحصري أنه يسلم بأن: "الأبحاث العلمية يجب أن تكون غايتها معرفة الحقيقة؛ معرفة مجردة عن كل الاعتبارات النفعية"[(١)]، ويؤكد على التزامه المنهج العلمي في تناوله القضايا التي يدعو إليها، ولكن هل التزم بهذه الدعوى في تفسيره للوقائع التاريخية؟! أم أصر على محاولة تطويع ما تناوله من أحداث ووقائع لأهدافه العقدية القومية؟! لقد دعا إلى كتابة السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بنظرات علمية وقومية في وقت واحد، ووجه النقد للمؤلفات التاريخية المعاصرة لبعدها عن مقتضيات البحث العلمي فيما يراه؛ وذلك لاعتمادها السرد الخبري، والتعليل غير العلمي، وعدم الالتزام بمقتضيات القومية في اختيار الوقائع، وترك عرضها بما يحقق تقوية الروح الوطنية، ويرجع أسباب هذا الخلل العلمي لدى المؤرخين العرب المعاصرين لسبب رئيسي هو اعتمادهم على المؤلفات التاريخية الغربية ـ اعتمادا أعمى ـ وتناسبهم تباين المصالح بينهم وبين الغربيين الذين انحازوا عن البحث العلمي تبعا لذلك.

---

(١). ساطع الحصري: (مجلة الرسالة، العدد: ١٣٧، السنة الرابعة، ١٣٥٤هـ) ص ٢٦٥.

وحمل الحصري على بعض المؤرخين المعاصرين الذين ادعوا الروح العلمية في تاريخهم، وذلك لإهمالهم الروح القومية في تفسير وعرض الأحداث النبوية، مع أن الكثيرين من المؤرخين والمؤلفين الغربيين عالجوا الكثير من الأحداث النبوية بنظرات قومية في مقدمات ونتائج الأحداث موضوع العرض والدراسة[(١)]، ذلك لأنه يرى "أن إهمال التاريخ القومي يكون بمثابة الاستسلام للذهول والكرى، وأما نسيان التاريخ المذكور فيكون بمثابة فقدان الشعور".[(٢)]

وإليك نموذجاً للتفسير التاريخي العلمي القومي عند الحصري لشخصية الصحابي الجليل والقائد الفريد خالد بن الوليد ﷺ وسيرته الجهادية في خطاب له أمام فريق الكشافة العربية في قاعة متحف بغداد عام ١٩٣٧م، يقول: "شعارنا يجب أن يكون تذكر الماضي مع التطلع إلى المستقبل على الدوام، كلكم تعلمون أن سيرة خالد بن الوليد من أجلّ السير التي سجل التاريخ، فيجب علينا أن ندرسها بكل اهتمام، ولكن لماذا، وبأي قصد؟ أبقصد الحصول على دروس في فنون التعبئة والحرب؟ كلا، فإن الخطط الحربية التي كانت تضمن النجاح والنصر في عصر خالد بن الوليد لا يمكن أن تفيد في هذا العصر بوجه من الوجوه، إن الحروب لا تتم بالوسائل والقوى المادية وحدها، بل إنها تحتاج إلى قوى معنوية متنوعة، علاوة على القوى المادية، أهمها: الوطنية الصادقة، والإيمان بإمكان النصر مع الإقدام على إحرازه بحزم وثبات ...

إن سيرة خالد بن الوليد مملوءة بأمثلة عليا للقوة المعنوية، وإذا ما أقدمنا على دراستها فيجب أن نستفيد من تلك القوى المعنوية، وإذا ما بحثنا فيها فينبغي أن نقصد استثارة قوى فاعلة كما يرى أنه بعد تفسير التاريخ من منطلق قومي ليتسم بالعلمية، ينبغي أن يستلهم المؤرخ القومي من هذا التاريخ "الإيمان بحيوية الأمة العربية، وبإمكان حصولها على مجد جديد لا يقل شأنا عن المجد الذي كانت نالته في سالف العصور".[(٣)]

وبهذا التفسير المنحرف الذي يعتمد الكذب وسيلة لنشر أفكار وافدة جديدة لا تتفق وحقائق الوقائع فسر ـ الحصري ـ شجاعة خالد بن الوليد ﷺ بأنها كانت لأسباب معنوية إضافة للأسباب المادية، وتتمثل هذه الأسباب المعنوية بالوطنية الصادقة، أي تلك الوطنية

---

(١). ساطع الحصري: حول القومية العربية (الطبعة الأولى، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦١م) ص ٢١٠

(٢). ساطع الحصري: (مجلة الرسالة، العدد: ٢٠٣، السنة الخامسة، ١٣٥٦هـ) ص٢٥١.

(٣). ساطع الحصري: مذكراتي في العراق، جـ٢، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٥.

كانت تدفع خالد ﷺ للقتال؟ وهو القائل: "لقد منعني كثيرا من القراءة (قال ابن نمير[١]: من القرآن) الجهاد في سبيل الله"، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: "لا تسبوا خالدا فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار"[٢]، أي تاريخ يريدونه بلا دين ولا عقيدة، وأين هذا التاريخ العربي الشامخ الذي أنشأته القومية العربية طوال القرون الماضية؟!

ومن هذه النماذج نخلص إلى أن التفسير الحصري للتاريخ يعتمد ضرورة ليّ أعناق كل أحداث التاريخ العربي والإسلامي للنظرة القومية ليحقق بذلك حياد البحث العلمي الموضوعي، وألا يعتمد كليةً على تاريخ الغربيين لحياة الأمة الإسلامية، ومع هذا يلتزم الصمت عن المصادر التي ينبغي أن يعتمد عليها؟، وأبى أن يطرح البديل، ولم يقل بصراحة: إن تاريخنا ينبغي ألا يؤخذ إلا من مراجعنا؛ لأن تاريخنا مدون موثق إلى حد كبير، وليس ثمة أي مبرر لأن ينقل عن مستشرقين لهم دوافعهم ونظراتهم المعروفة في مواطنها؛ لعرض التاريخ الإسلامي في المدارس أو في المسلسلات والمقالات، لنصون تاريخنا من خيالات الكاذبين، ومجون الفاسقين.

ولا بد أمام تفسير الحصري لأحداث تاريخنا الإسلامي وفق وجهة قومية غربية من التنبيه إلى أبرز العوامل التي تشكل الفكر الغربي الذي يدعو الحصري إلى استعارته لكتابة تاريخنا، وتتمثل في عاملين: الداروينية من جهة، والنفور من الدين بسبب طغيان الكنيسة من جهة أخرى التي كان يُدعى العصمة والسداد لها ولرجالها، لكن التفسير الإسلامي للتاريخ لا يعتقد بالعصمة إلا للنصوص القطعية وشبه القطعية في مصدري التشريع؛ ولذا ينظر إلى الاجتهاد والفعل البشري على أنه عرضة للخطأ والصواب، وكذلك الأحداث التاريخية، والفيصل في ذلك هو الحكم الشرعي الحق، وعلى هذا فالخلاف الأساسي بين التاريخ الإسلامي والتاريخ الغربي يظهر في أمرين رئيسيين: تفسير الوقائع من ناحية، وتقويمها من ناحية أخرى[٣]، فهل من ريب بعد هذا في أن التاريخ تعرض أحداثه، وتفسر وقائعه، وتربط بعض مقدماته ببعض نتائجه من منطلق عقدي؟!

---

(١). أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة (الطبعة الأولى، مكة المكرمة، جامعة م القرى، ١٤٠٣هـ) جـ٢، ص ٨١٤.

(٢). نفس المصدر، جـ٢، ص ١٠٢٧، حديث رقم ١٣٠٩.

(٣). محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ (جدة، المجموعة الإعلامية، ١٤٠٨هـ) ص ١٩.

د) رأيه في تدريس السيرة النبوية:

لا ريب أن الحصري وهو يتناول السيرة النبوية باعتباره منظراً للقومية العربية، يمهد بذلك السبل إلى تناول جديد لتدريس السيرة النبوية وباعتبارها من أخطر المواد الدراسية في منهج التاريخ المدرسي التي تشكل عقلية التلميذ العقدية والثقافية والانتمائية، ولذلك دعا إلى أن "ترمي دروس التاريخ إلى التربية الوطنية القومية..."[1]، وشدد على ضرورة إعادة "النظر في تاريخنا بنزعة قومية" والبحث عما يحقق مراميه القومية[2]، فوجه ـ الحصري ـ دعوته لانتخاب الوقائع التاريخية التي يراد تدريسها بما يقوي الشعور القومي، الأمر الذي يستلزم البحث في زواياه لتحقيق هذا الهدف، ولدفع عملية التجديد التي يدعو إليها، ويبرز هذه الدعوى الانتقائية "بأن أمهات الكتب الموضوعة فيه ـ التاريخ ـ مكتوبة بوجه عام بنزعة ذاتية تبتعد عن الحقيقة المحضة بعدا كبيرا، ويتمثل هذا البعد في نظره بالتأثر بالنزعة الدينية أكثر من النزعة القومية عند القدماء، أو أنه مقتبس من عند الغربيين لدى المعاصرين[3]، وجاء في توجيهاته لتدريس التاريخ في المدارس الابتدائية العراقية: "إن الغرض الأساسي في تدريس التاريخ هو تعليم التاريخ الوطني وماضي الأمة، والغاية من ذلك تقوية الشعور الوطني والقومي في أفئدة التلاميذ ولتحقيق هذا دعا إلى تناول تاريخ العراق والأمة العربية وعلاقاتها مع الأمم الأخرى بما يحقق هذا الهدف، كما دعا إلى تنبيه التلاميذ إلى أسباب انقراض الدولة العربية، ونتائج الفُرقة والاختلاف، وهو يرى أنه يمكن تعليم السيرة النبوية والتاريخ بمنهجية علمية في المدارس العالية، ولكن لا يتيسر ذلك في المراحل الابتدائية والثانوية، إذ لا بد من الانتقاء، ولذا يجب أن يُدرّس التاريخ من وجهة قومية عربية بحتة.[4]

والحصري حريص على تحديد مفرداته، وأهمها الوطنية، وتعني حب الوطن وارتباطاً باطنياً به، والقومية وتعني حب الأمة وارتباطاً باطنياً بها، وهناك صلة بين الوطنية والقومية حيث إن حب الوطن يعني حب الناس الذي يسكنونه، والعكس صحيح، ومن نماذج المقررات لمادة

---

(١). ساطع الحصري: حول القومية العربية، ص ١٢٣.

(٢). نفس المرجع، ص ١٢٣.

(٣). نفس المرجع، ص ١٢٢.

(٤). ساطع الحصري: مذكراتي في العراق (الطبعة الأولى، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٨م) جـ١، ص ٢١٥.

التاريخ في السنة الثالثة التي تحقق التوجه القومي الذي رسمه الحصري، نجد أنه تناول دراسة حضارة الكلدانيين والآشوريين والعرب ودولهم وآثارهم قبل الإسلام في الشام ومصر والعراق من حميريين وتدمريين وأنباط وغساسنة ومناذرة، وفي مقرر السنة السادسة، ولتحقيق الوعي الوحدوي القومي، نجد بحوثا عن اتحاد إيطاليا القومي، واتحاد ألمانيا القومي[١]؛ لتنشأ أجيال أمتنا الضائعة ـ وكأنها لم تعرف الاتحاد من قبل ـ على ضرورة الولاء والتكتل القومي لجمع شتاتها، ولم شعثها، وبناء مستقبلها!

إن تدريس السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بالغ الأهمية تربويا وثقافيا لحاضر الأمة ومستقبلها، وترجع أهميته لأهمية التاريخ الإسلامي ذاته، والتي يتمثل أبرزها في النقاط التالية:

١. أنه تاريخ لأعظم رسالة، ولأمة زكاها القرآن الكريم وكفلها ما استجابت له.

٢. التاريخ الإسلامي يغطي مدى زمنيا واسعا، ورقعة واسعة في العالم.

٣. أنه يشتمل على ثروة فكرية ومعرفية قيمة.

٤. أنه سِجل حافل لرسالة ربانية متكاملة حققت ذاتها في الواقع الإنساني.[٢]

ولتحقيق ذلك لا بد من مراعاة دقة اختيار المواضيع التي يحتويها المنهج الدراسي، أو الكتب الثقافية، وكما دعا لذلك ـ الحصري ـ ولكن من منطلق إيماني يسعى إلى تحقيق التكامل الهدفي لمادة التاريخ مع كل مفردات المنهج ومواده، لا إلى تناول قومي ضيق وافد يأتي بالمتناقضات مع مادة العقيدة والدين؛ حيث عاشت أجيال من أمتنا على شهود هذا التناقض؛ إذ "في درس الدين يتعلم الدارس أن الشرك والوثنية تخلف في الفكر، وتخلف في الإنسانية.. وفي درس التاريخ يجد الدارس إشادة ضخمة بالوثنية الرومانية، والوثنية الإغريقية، والوثنية الفرعونية، والوثنية العربية على أنها حضارات ملأت ساحة التاريخ بالأمجاد".[٣]

---

(١). ساطع الحصري: مذكراتي في العراق، جـ١، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢). سر الختم عثمان علي: أسس تدريس التاريخ الإسلامي في مراحل التعليم العام، ص ٢٣٤.

(٣). محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٢٧.

ميشيل عفلق[(١)] ومحاضرته: ذكرى الرسول العربي:

بلغت كتابات ميشيل عفلق الفكرية والسياسية المجموعة والمطبوعة (في سبيل البعث ـ الكتابات السياسية الكاملة) قرابة ألفي صفحة في خمس مجلدات، وذلك غير ما تناثر في كتاب (نضال البعث) البالغ ثلاثة عشر جزءاً[(٢)]، إذن فمشروعه الفكري والقومي هو من أشهر المشروعات القومية للقوميين العرب المعاصرين وأشدها ضرراً وفتكاً على المسلمين.

ولكن ما يعنينا ويهمنا في موضوع بحثنا ما ألقاه ميشيل عفلق من على مدرج الجامعة السورية بتاريخ ٥ نيسان/ أبريل ١٩٤٣م على شكل خطاب أو محاضرة تاريخية ـ أي قبل ما يقارب سبعة عقود ـ وعنونه: **"ذكرى الرسول العربي"** سلط الضوء على وجهة نظره التي تمثل نظرة قومية عربية خالصة للإسلام ولحياة الرسول ﷺ، وها نحن ننقل بعضاً منه[(٣)] ونورده هنا لنقوم بمناقشته وتحليل مضامينه حول الإسلام كعقيدة؛ وحول شخصية سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ، على ضوء ما تفوه به ـ عفلق ـ وألقاه على مسامع الحاضرين، رأي عفلق في ذلك الخطاب وكرره في محطات كثيرة في القرن الماضي وخصوصا في السبعينيات حين أعاد إنتاج رأيه في التراث الإسلامي، وكذلك في خطابه السنوي في بداية ق١٤هـ وحتى وفاته عام ١٤١٠هـ وقبل الستينيات وحتى اليوم ما زالت معظم الأمور والمشاكل والاختلافات

---

(١). ميشيل عفلق الذي ولد نصرانياً من طائفة الروم الأرثوذكس سنة١٩١٠م، سافر إلى باريس وأتم دراسة التاريخ واللغة العربية في السوربون، وبعد أن انهى عفلق دراسته في السوربون غادر فرنسا عائداً إلى دمشق حاملاً علبة أفكار استشراقية! كان يتردد على المكتبة الظاهرية، فيقرأ ما يتعلق بتاريخ الجاهلية وظهور الإسلام والتاريخ العربي والإسلامي؛ وكأنه كان يدرس هذا التاريخ ليعرف كيف يتآمر عليه وعلى الأمة الإسلامية وعلى الرسالة السماوية الخاتمة التي حملها سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ، أسس "حزب البعث" عندما عقد مؤتمره الأول في مدينة دمشق سنة ١٩٤٧م، ثم تولى وزارة المعارف في سورية سنة ١٩٤٩م، هرب ميشيل عفلق من سورية ودخل العراق عام ١٩٦٨م، وراح البعثيون العراقيون يتمثلون فكرياً وروحياً بالمرشد العقائدي والروحي، توفي ميشيل عفلق في يوم الجمعة ١٩٨٩/٦/٢٤م أثناء علاجه بباريس، ودفن ببغداد وفق التقاليد الإسلامية، حيث أعلنت القيادة القومية لحزب البعث عن "إسلام" ميشيل عفلق؟!. انظر: مجيد خدوري: عرب معاصرون، ص ٣٧٣، وذوقان قرقوط: ميشيل عفلق.. الكتابات الأولى (الطبعة الأولى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣م) ص ٣٣.

(١). محمد عمارة: التيار القومي الإسلامي (الطبعة الأولى، القاهرة، دار الشروق، ١٤١٧هـ) ص ١٠.

(٢). ميشيل عفلق: ذكرى الرسول العربي، الموقع الرسمي لكتابات ميشيل عفلق، "في سبيل البعث" على الرابط: http://albaath.online، والموقع تحت إشراف ابنه: إياد ميشيل عفلق.

متكررة وقائمة بصور متعددة وردت في ذلك الخطاب.

وقبل ذلك نود أن ننوه ونلفت النظر إلى أن ما ورد في ذلك الخطاب ما زال مهما وقد ميز رأياً لتيار فكري قومي ـ بعثي عن غيره وقد وجد في معين الإسلام الذي لا ينضب (عروبة الإسلام) ذلك متمثل في العروبة كهوية، وطبيعة، وأرض ولغة وتاريخ، ومجتمع، والعروبة كثورة فجرها الإسلام فأصبحت ثورة إنسانية عالمية بل أعظم ثورة في التاريخ البشري، والعروبة كرسالة خالدة لأن الإسلام وهو دين هداية للعالمين كان العرب أول من حمل مسؤولية نشره.. وعروبة الإسلام لا تتعارض مع إنسانيته وعالميته ومصدره السماوي..

إن أية أمة من الأمم يمكن أن تجنح إلى الإلحاد ما عدا الأمة العربية التي يدخل الإسلام في نسيج شخصيتها وتاريخها، والإسلام بالنسبة لها هو دين وقومية وحضارة.. ولهذا فالأمة العربية تجد حريتها في الفهم المتجدد للإسلام، والعرب إذا نسبوا إلى قوميتهم لا يزيدون ولا ينقصون عن سواهم من الأمم ولكن الميزة التي ترفع قدرهم هي ما انفردوا بتقديمه للحياة والأحياء من الإسلام وخيراته، هذه الرسالة التي حملها العرب أفاءت عليهم من الأمجاد والآلاء ما لا يحصيه عددا![١]، وبالتالي فإن ميشيل عفلق تحدث في هذا الخطاب عن النهضة العربية التي سبقت ولادة الرسول ﷺ وبعثته، وعن مقاومة العرب لاحتلال الفرس والرومان، ثم جاء محمد العبقري ـ على حدِّ زعمه ـ فحرر البلاد العربية ووحدها تحت راية قومية واحدة![٢]

عموماً أراد ــ عفلق ــ أن يُلبس ثورته وحزبه بعض لبوس الإسلام فيقول: "الإسلام هو في الأساس ثورة كلية شاملة روحية وقومية وحضارية واجتماعية وثقافية في حياة العرب والعالم، وبهذا الاعتبار كانت له مكانة خاصة من روح القومية العربية وحركة انبعاثها"[٣]، ويقول في التفاف وافتراء على الإسلام في حديثه عن الرسالة الخالدة: "الرسالة العربية بدأت منذ أن بدأ العرب، وبخاصة منذ أن بدأ الجيل الجديد يدرك بجرأة ووعي أن حياة الأمة العربية لا يمكن أن تستمر في هذا الطريق المعوج المنحدر ... لا بد من انقلاب شامل"[٤]، ويعبر عن مفهومه

---

(١). محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث (الطبعة الثالثة، القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠٥م) ص ٤٤.

(٢). ميشيل عفلق: ذكرى الرسول العربي، على الرابط: http://albaath.online.fr

(٣). محمد سعيد رمضان البوطي: يغالطونك إذ يقولون (الطبعة الثالثة، دمشق، دار الفارابي، ١٤٢١هـ) ص ٣١٥.

(٤). محمد الغزالي: المرجع السابق، ص ٤٨.

للإسلام والأمة العربية الذي يريده والذي لا يريده فيقول: "فهذه الأمة التي أفصحت عن نفسها وعن شعورها بالحياة؛ إفصاحاً متعدداً متنوعاً في تشريع حمورابي، وشعر الجاهلية، ودين محمد، وثقافة عصر المأمون، فيها شعور واحد يهزها في مختلف الأزمان، ولها هدف واحد بالرغم من فترات الانقطاع والانحراف.

ولكن هل يستتبع تبيننا لماضي الأمة واعتبارنا أنه يؤلف وحدة حية مع حاضرها ومستقبلها، أننا نوافق عليه وعلى كل ما جاء فيه، وهل حياة الأمة مُسيَّرة بقَدَرٍ خارج عن إرادتنا، وأن كل مرحلة هي نتيجة حتمية للمراحل التي سبقتها؟ إن على الأمة ن تسهم إلى حد بعيد في خلق مصيرها، فإذا انحرفت عنه وتلاشت مساهمتها في صنع قدرها فإنما ذلك لمرض طارئ تجب معالجته، فهذا الماضي كان يمكن أن يكون لبعضه خلاف ما كان، ولبعضه الآخر أن يكون أقوى وأكمل مما كان! نحن سادة مصيرنا وصانعو قدرنا، ندرك إدراكاً عميقاً أن الأمة الحية هي التي تحيا الآن والتي ينفسح أمامها مجال الحياة للمستقبل، وإنها الأمة التي تخدم ماضيها باستخدامها إياه لا باستسلامها له، والأمة الحية تنمو وتتكامل ويكون ماضيها مهما سما دون حاضرها، ويكون مستقبلها أمامها لا وراءها".[(١)]

إن هذه الكلمات من عفلق لتعبر عن نظرة لا تفرق بين جاهلية وإسلام، وتعبر عن التخلي التام عن الإسلام، وعن الاعتقاد بأن الإسلام نتيجة حتمية للجاهلية، فليس للوحي الإلهي فيه إعجاز ولا إرشاد؛ وكما يرى ـ عفلق ـ جاءت به عبقرية محمد ﷺ فحرر البلاد العربية ووحدها تحت راية قومية واحدة، وجعل عفلق العنصر الخلاق في شخصية محمد ﷺ يعود إلى انتمائه العربي، أما الغيبيات والمعجزات والاستسلام لأوامر الله ونواهيه فلم يذكرها لأنه لا يؤمن بها كغيره من المنصرين والمستشرقين[(٢)]، وهذه الرسالة المحمدية برغم أنف ـ ميشيل عفلق ـ هي مبادئ وقيم ومقاصد وأهداف وحضارة وتشريع، أي هي جميع المعاني التي يحاربها البعثيون عندما يتنكرون للإسلام ويرفضون وحيه ويردون عقيدته وشريعته، ثم وجد عفلق من أبناء المسلمين من يصفق له طرباً وإعجاباً ونورد على سبيل المثال مبدع التيار القومي

---

(١). محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث، ص ٥٠.

(٢). محمد سرور زين العابدين: دراسات في السيرة النبوية، ص ٢٠٠.

الإسلامي[١] محمد عمارة الذي دافع عن ميشيل عفلق وعن رسالته الخالدة فيقول: "فلقد أصبح الإسلام أكبر مكون من مكونات القومية العربية.. أصبح أباها الذي ولدت منه ولادة جديدة.. كما أصبح الإسلام الحضاري خيارا قائما بذاته ضمن خيارات النهضة الثلاثة، كما تحدث عنها ميشيل عفلق وهي: القومية، والتقدم، والإسلام الحضاري.. لقد كانت العروبة في المرحلة الأولى هي الأصل.. وكان الإسلام مجرد مُفْصِح عن رسالة الأمة العربية إبان ظهوره.. وكانت القومية ــ وليس الإسلام ــ هي المفْصِح عن رسالة الأمة في العصر الحديث... أما في المرحلة الثانية ــ مرحلة "الحقبة العراقية" في تطور ميشيل عفلق ــ فلقد تحدث عن الإسلام باعتباره الأب الشرعي للعروبة ــ وليس المفصح عنها ــ وباعتباره المكون لها، وجوهر مشروعها النهضوي، بل وباعتباره وطن الأمة والسياج الحامي لوحدتها، في الماضي والحاضر والمستقبل على السواء، لقد أصبح دينا، ووطننا، ووطنية، وقومية، وحضارة، وثقافة، بل ومبرر الوجود للأمة العربية..!".[٢]

ويزداد الأمر صراحة عند ــ عفلق ــ بإنكار الإسلام واستبداله بالعروبة التي لم يُعرف لها أي محتوى فكري وعقائدي عبر التاريخ ــ كما رأينا ــ وهنا نتساءل: هل هذا هو الإسلام الذي جاء به رسول الله محمد ﷺ وصحبه الأخيار؟

يصف الشيخ عبد العزيز بن باز إشكالية القومية والبعث في معرض التضاد بين الفكر القومي البعثي والفكر الإسلامي القويم فقال: "ومن زعم من دعاة القومية أن الدين من عناصرها، فقد فرض أخطاء على القوميين، وقال عليهم ما لم يقولوا لأن الدين يخالف أسسهم التي بنوا القومية عليها، ويخالف صريح كلامهم ويباين ما يقصدونه من تكتيل العرب، على اختلاف أديانهم تحت راية القومية، ولهذا تجد من يجعل الدين من عناصر القومية يتناقض في كلامه، فيثبته تارة وينفيه أخرى، وما ذلك إلا أنه لم يقله عن عقيدة وإيمان، وإنما قاله مجاملة لأهل الإسلام، أو عن جهل بحقيقة القومية وهدفها، وهكذا قول من قال: إنها تخدم الإسلام أو تسانده، وكل ذلك بعيد عن الحقيقة والواقع، وإنما الحقيقة أنها تنافس الإسلام وتحاربه في

(١). مصطلح "التيار القومي الإسلامي" من ابتكار المفكر الإسلامي محمد عمارة، جاء بهذا الكتاب مدحاً وتبجيلاً لعفلق، ودافع فيه عن إسلامه. انظر: محمد عمارة: التيار القومي الإسلامي، ص ٢٦ ــ ٢٨.

(٢). نفس المرجع، ص ١٥٥.

عقر داره، وتطلي ببعض خصائصه ترويجاً لها وتلبيساً أو جهلاً وتقليداً".(١)

ويقولون في صراحة: "إن الإسلام ليس إلا نهضة عربية، فاز بها هذا الجنس العظيم في القرون الوسطى، واستطاع في فورته العارمة أن يجتاح العالم بقيادة رجل عبقري، هو الزعيم الكبير: محمد ﷺ أي أن هذا الدين الجليل، نبت من الأرض، ولم ينزل من السماء"(٢)، وسأورد أبرز المحاور الأساسية في ذلك الخطاب من مصدره كما يلي:

أولاً: في مجال الشخصية العربية بين الماضي والحاضر:

أجاب ـ عفلق ـ على سؤال "ما هي قيمة الكلام؟" معتبراً أن تاريخنا الحاضر كثر فيه الكلام وطغى ومع ذلك فهو أقل العهود حيوية وإنتاجا.. واعتبر أن الانقطاع بل التناقض بين الماضي المجيد والحاضر المعيب حقيقة راهنة حيث ظاهرة طلاق بين الفكر والعمل ودعا إلى **"ألا نقول إلا ما نقدر على تحقيقه، حتى يأتي يوم نقدر فيه أن نحقق كل ما نقوله"**(٣)، ولكن ما هي القيم الجاهلية الجديدة التي عمل عفلق وطليعته على تجسيدها في العراق الذي ابتلي بحكمهم؟ وما هي طريقة التفكير القومية البعثية الجديدة التي حاول حزب البعث إرساء دعائمها في العراق المنكوب؟!

يتحدث مطاع صفدي في مؤلفه حزب البعث عن آراء عفلق بأنها: "تنصب على الوصف والمبالغة، وصف عظمة الأمة العربية، ورفعها إلى مستوى الوجود الخارق، وإضفاء مختلف القدرات الفردية والخطابية عليها، وتنزيهها عن أية مفسدة أو نقيصة، وقد مهد عفلق أذهان أتباعه للاعتزاز بمرحلة الجاهلية من تاريخ العرب خاصة، واعتبار هذه الجاهلية بمثابة الأصالة الكاملة للوجود العربي، والقائد المؤسس يبدو تلميذاً فاشلاً وهو يحاول إسقاط فكرة العصبية الخلدونية ويعبر عنها بأفكاره، وبالمقابل حاول فكر عفلق إضعاف المرحلة الإسلامية، ولو بطريقة غير مباشرة واعتبارها مرحلة تساهل أدت إلى خلط العرب بغيرهم وإضعاف بعض

---

(١). عبد العزيز بن عبد الله بن باز: نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، مقال في الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، على الرابط: http://www.binbaz.org.sa

(٢). نفس المرجع.

(٣). ميشيل عفلق: ذكرى الرسول العربي، على الرابط: : http://albaath.online.fr

خصائصهم إلى حد كبير"[١]، ولذلك أعاد تفسير الإسلام، وفسره كما فسر القومية العربية تفسيراً بعثياً يتناسب وذلك التوجه، فلم يكن لدى البعثي ما يتعارض مع انتمائه الإسلامي حسب ذلك التفسير حتى لو رفض الإسلام شريعة وعقيدة وتبنى الماركسية اللينينية بديلاً عنه، وتأمل قول شاعر البعث شفيق الكمالي[٢]:

آمنت بالبعث رباً لا شريك له وبالعروبة ديناً ما له ثاني؟!

أو ما قاله الكمالي ـ أيضاً ـ بحق صدام حسين يشبهه بـ (الله ﷻ):

تبارك وجهك القدسي فينا كوجه الله ينضح بالجـــلال؟!

ويقول القائد المؤسس: "إن تأثر الشباب بالأدب والحماسة الشعرية والأساليب الخطابية المباشرة أقوى من تأثره بالدراسة الجادة"[٣]، فانطلق المثقفون الثوريون من الصفر في تاريخ أمتهم، ومازال تاريخ العرب مجهولاً حتى اليوم عند هؤلاء المثقفين البعثيين.

ثانياً: وتحت عنوان الإسلام تجربة واستعداد دائم:

بين ــ عفلق ــ أن حركة الإسلام المتمثلة في حياة الرسول الكريم ﷺ ليست بالنسبة للعرب حادثا تاريخيا فحسب، فهي ترتبط ارتباطا مباشرا بحياة العرب المطلقة، فهي صورة صادقة ورمز كامل خالد لطبيعة النفس العربية وممكناتها الغنية، فيصح لذلك اعتبارها ممكنة التجدد دوما في روحها لا في شكلها وحروفها.. والإسلام هو الهزة الحيوية التي تحرك كامن القوى في الأمة العربية فتفيض على الأمم الأخرى فكرا وعملا، وعزا عفلق ما أثمر الإسلام من فتوح وحضارات إلى السنوات العشرين من البعثة فقبل أن يحكموا الأمم حكموا ذواتهم وسيطروا على شهواتهم وملكوا إرادتهم... "**فتجربة الإسلام وحياة الرسول العظيم ﷺ ليست حادثاً تاريخياً يذكر للفخر، بل هي استعداد دائم في الأمة العربية لتكرار ملحمة الإسلام وللانتصار للحق والإيمان**"[٤]، من هذا المنطلق فإن ــ ميشيل عفلق ــ يعارض آراء التقليدين والأصوليين معاً!!

---

(١). مطاع صفدي: حزب البعث: مأساة المولد ومأساة النهاية (بيروت، دار الآداب، أكتوبر ١٩٦٤م) ص ١٢٩.

(٢). كان وزيراً للشباب ثم وزير للإعلام أيام الرئيس أحمد حسن البكر، وأقيل من منصبه عام ١٣٩٢هـ ثم وضعه صدام رئيساً لاتحاد الأدباء العرب. انظر: حسن العلوي: العراق دولة المنظمة السرية، ص ١٧٣

(٣). ميشيل عفلق: في سبيل البعث (الكتابات السياسية الكاملة) على الرابط: http://albaath.online.fr

(٤). ميشيل عفلق: ذكرى الرسول العربي، على الرابط: http://albaath.online.fr

ولا يولي أهمية للشريعة الإسلامية في نظامه، ويرى أن تفسير الإسلام هو التفسير الصحيح، وأن نظرته إليه ترفض شيئاً اسمه العقيدة أو الشريعة الإسلامية كما يتجاهل النظم الإسلامية الأساسية كافةً، وكل ما بني عليها، والآراء المتعلقة بها، ويرى أن الإسلام ليس العامل الوحيد في تكوين أخلاق العرب الفردية، بل هو عامل من العوامل ذات الأثر السلبي ـ كما تقدم ـ وعموماً فإن عفلق لا يأخذ من الإسلام أية فرائض أو نظم أو سنن اجتماعية، ويرجع سائر المزايا التاريخية في المحيط العربي إلى القومية حسب تفسيره لها، وفي المحيط الإسلامي إلى تأثير العرب، بحيث لا تنتفي صفة العروبة عن غير المسلمين ولا يستطيع المسلمون الآخرون من غير العرب أن يدعوا لأنفسهم أية ميزة تجعلهم في مستوى العرب، فإن هم فعلوا، كانوا خونة لقيمهم الإسلامية.

ثالثاً: وتحت عنوان حياة الرسول خلاصة لحياة العرب:

أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فقد نزع ـ عفلق ـ عن رسول الله ﷺ صفتي النبوة والرسالة، واعتبره زعيماً قومياً، وكان عهده تجسيداً لآمال العرب، وعلى كل عربي أن يجسد محمداً، وقد لخص عفلق رؤيته في النبوة والرسالة بذلك الشعار الذي لا يزال البعثيون يرفعونه باعتزاز: **"كان محمد كل العرب، فليكن اليوم كل العرب محمداً!!"**.[١]

فاعتبر عفلق أن حياة الرسول ﷺ وهي ممثلة للنفس العربية في حقيقتها المطلقة لا يمكن أن تعرف بالذهن، بل بالتجربة الحية وفي هذا المجال فسر كيف تخلف العرب منذ مئات السنين، فهم يقرأون السيرة ويترنمون بها ولكنهم لا يفهمونها، لأن فهمها يقتضي شروطاً وموقفاً وجودياً يضع الإنسان أمام قدره وجها لوجه، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك برأي عفلق.

وفي مجال التعظيم للرسول الكريم ﷺ خشي عفلق أن يكون التعظيم معبراً عن القصور والعجز أكثر منه تقديرا للعظمة لأنه اعتبر أن التعظيم الحقيقي للبطولة إنما يصدر عن المشاركة فيها وتقديرها بعد المعاناة والتجربة، فلا يقدر البطل إلا الذي يحقق ولو جزءاً يسيراً من البطولة في حياته، وفي هذا السياق قارن بين النظر إلى حياة الرسول ﷺ من الخارج، والنظر إليها من الداخل، وهو الأمر الذي دعا إليه عفلق..

---

(١). ميشيل عفلق: ذكرى الرسول العربي، على الرابط: http://albaath.online.fr

لكي نحياها ولو بنسبة الحصاة إلى الجبل والقطرة إلى البحر، وفي هذا السياق ومن خلال جدلية متينة وعميقة فإن الأمة العربية حشدت كل قواها فأنجبت محمداً ﷺ أو بالأحرى ما دام هذا الرجل فرداً من أفراد الأمة التي حشد محمد ﷺ كل قواه فأنجبها فقد تلخصت حياة الأمة كلها في رجل واحد هو محمد ﷺ.

رابعاً: وتحت عنوان الإسلام تجدد العروبة وتكاملها:

في إطار هذا المحور والعنوان شرح عفلق ـ ببساطة وسذاجة قل نظيرها ـ أن رجلاً من العرب بلغ رسالة سماوية فراح يدعو إليها البشر، ولم يكن البشر حوله إلا عربا فاستجاب للدعوة نفرٌ قليل وقاومها أكثرهم فهاجر مع المؤمنين وحاربه المشركون إلى أن انتصر الحق فآمن به الجميع، بعد هذا الوصف فإن المسرح الطبيعي لملحمة الإسلام هو أرض العرب، وأن مشركي قريش ضروريون لتحقق الإسلام ضرورة المؤمنين له..

والذين حاربوا الرسول ﷺ ساهموا في ظفر الإسلام كالذين أيدوه ونصروه، فالله قادرٌ أن ينزل القرآن على نبيه في يوم واحد، لكن ذلك اقتضى أكثر من عشرين عاما، والله قادر أن ينصر دينه ويهدي إليه كل الناس في يوم واحد، لكن ذلك لم يتم في أقل من عشرين عاما، والله قادر أن يظهر الإسلام قبل ظهوره بعشرات القرون، وفي أية أمة من خلقه، لكنه أظهره في وقت معين، وفي حينه، واختار لذلك الأمة العربية، وبطلها الرسول العربي ﷺ وفي كل ذلك حكمة.. وكان الاستنتاج في إطار تجدد العروبة وتكاملها وأن الإسلام حركة عربية، فاللغة التي نزل بها كانت اللغة العربية، وكان منظار العقل العربي هو الوسيلة لفهم الأشياء...الخ، فالإسلام هو الدين الذي يمثل وثبة العروبة إلى الوحدة والقوة والرقي.[1]

خامساً: إنسانية الإسلام:

في هذا المحور وتحت هذا العنوان يبين عفلق أن الإسلام إنساني وعالمي، وليس مقصورا على العرب، لكنه يؤكد على أن العرب ينفردون دون سائر الأمم بأن يقظتهم القومية اقترنت برسالة دينية، أو بالأحرى كانت رسالة الإسلام مفصحة عن تلك اليقظة، وأن العرب أدوا تجاه الأمم والشعوب الأخرى واجبا دينيا لوجه الله، ولهذا فلا مجال للخوف من أن يشتط العرب في

---

(١). ميشيل عفلق: ذكرى الرسول العربي، على الرابط: http://albaath.online.fr

قوميتهم.. وأنهم لا يستطيعون أداء الواجب الديني إلا إذا كانوا أمة قوة ناهضة، فأول واجب تفرضه إنسانية الإسلام هو أن يكون العرب أقوياء، سادة في بلادهم.

ولأن الإسلام كائن حي وهو عام، وخالد، لكن عموميته لا تعني أنه يتسع في وقت واحد لشتى المعاني والاتجاهات، بل أنه في كل حقبة خطيرة من حقب التاريخ، وكل مرحلة حاسمة من مراحل التطور، يفصح عن واحد من المعاني اللامتناهية، الكامنة فيه منذ البدء، وخلوده لا يعني أنه جامد، لا يطرأ عليه تغيير، أو تبدل، وتمر من فوقه الحياة دون أن تلامسه، بل أنه رغم تغيره المستمر ومن استهلاكه للكثير من الأثواب تبقى جذوره واحدة، وقدرتها على النماء والتوليد والإبداع واحدة، لا تنقص، ولا تغني، هو نسبي لزمان، ومكان معينين، مطلق المعنى والفعل في حدود هذا الزمان وهذا المكان.[1]

سادساً: العرب والغرب وشرف العروبة:

في إطار هذين العنوانين ينقد عفلق الذين اعتبروا أن في الحضارة الأوروبية ما يغني عن حضارة العرب والإسلام، وندد بالذين أجهدوا أنفسهم ليكيفوا نصوص التاريخ العربي ونصوص القرآن والأحاديث ليظهروا الانسجام، أو عدم الاختلاف مع الحضارة الغربية، وأكد على أن أوروبا التي كانت تخاف على نفسها من الإسلام، ومن قوة الإسلام التي كانت في الماضي معبرة عن قوة العرب، هي الآن تحارب العروبة والقومية العربية، وتقبل أن تصادق (الإسلام) الذي يطرحه أمميون، باقتصاره على العبادة الشخصية، والمعاني العامة الباهتة الآخذة في التفرنج.

لذا يؤكد عفلق أن علاقة الإسلام بالعروبة ليست كعلاقة أي دين بأية قومية، ولهذا فإن المسيحيين العرب يؤمنون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية، يعتزون به كما يعتزون بعروبتهم، **"ولسوف يجيء يوم يجد فيه القوميون أنفسهم المدافعين الوحيدين عن الإسلام ويضطرون لأن يبعثوا فيه معنى خاصا إذا أرادوا أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء، وسوف يعرف المسيحيون العرب، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ويسترجعون طبعهم الأصيل، أن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم**، وإذا كان الواقع لا

(١). ميشيل عفلق: ذكرى الرسول العربي، على الرابط: http://albaath.online.fr

يزال بعيدا عن هذه الأمنية، فإن على الجيل الجديد من المسيحيين العرب مهمة تحقيقها بجرأة وتجرد، مضحين في سبيل ذلك بالكبرياء والمنافع، إذ لا شيء يعدل العروبة وشرف الانتساب إليها".(١)

كما أن القوميين العرب هم المستمرون بالدفاع عن الإسلام، فالإسلام لم ينفصل عن العروبة ولم يأت من خارجها، كما دخل الدين على أوروبا وغيرها من القارات والأمم، وهذا الفرق الجوهري بين علاقة العروبة بالدين وعلاقة الأمم الأوروبية وغيرها من القوميات كان وما زال أحد أهم منطلقات الاختلاف في الأسباب والنتائج، لقد نقل عفلق تقليد الإعجاب بالثقافة الغربية إلى البعثيين، وأصبح الإقبال على قراءة اندريه جيد، وبرجسون أساساً عقائدياً، ويلاحظ أن الكاتب مطاع صفدي رغم أنه كان من قيادات الحزب لم يستطع فهم هذه النزعة وتفسير دوافعها، فهو يقول: "إن عفلق ينادي بالبساطة وبذلك يمنع التعمق، وينادي بالإيمان فيمنع التحليل والمقارنة، ولذلك صار الثوريون يأنفون من طرح الأسئلة حتى على أنفسهم، لأن ذلك ـ في نظر عفلق ـ يوحي بالتشكيك".(٢)

ولكن لو عدنا لفلسفة عفلق في التاريخ وتفسيره للتاريخ العربي وتناولنا مقولته في أن التاريخ يتألف من حلقات تتراوح بين الصعود والهبوط لأدركنا على الفور أن تمجيده الحماسة والشعر والخطابة في الأدب لأنها كانت فعلاً بعض مميزات الجاهلية عهد ما قبل الإسلام، وأن إشاعته الثقافة الفرنسية، ودراسته فلسفة برجسون، لأن عفلق أخذ منه صياغة مذهبه في عدم الاعتراف بالتحليل، وبذلك يحقق عفلق عدة أهداف أولها: إحداث قطيعة بين الشباب العربي والإسلام والتراث الإسلامي، وتعويضهم عنه بالتراث الجاهلي، ثم العبور بهم من الجاهلية إلى ما انتقاه من فلسفة برجسون وهيغل وهيردر وماركس وامتزجت وتفاعلت مع آثار أبي العلاء المعري والمتنبي وإسماعيل مظهر وشبلي شميل وجورجي زيدان وغيرهم، **فالإسلام ملوم ـ في نظر عفلق ـ لأنه فتح الباب لخلط العرب بسواهم، ألم يكتب خير الله طلفاح خال صدام حسين والقيم على تربيته كتاباً يلوم فيه الخالق ﷻ لأنه خلق الفرس والأكراد والذباب،**

---

(١). ميشيل عفلق: ذكرى الرسول العربي، على الرابط: : http://albaath.online.fr

(٢). مطاع صفدي: حزب البعث: مأساة المولد ومأساة النهاية، ص ١٤٠.

وأنه ﷺ عمّا قال خال صدام علواً كبيراً كان مخطئاً في ذلك؟!(١)

ويرى عفلق أن مرحلة العهد الجاهلي قد شهدت اتحاد العرب ووحدتهم الحقيقية في مجموعات عرقيّة متجانسة عبرت عن نفسها على الصعيد الثقافيّ في الشعر واللغة والخطابة، وتحقق المثال العربي الأصيل لفترة قصيرة في صدر الإسلام ــ وهي فترة بني أمية في نظره ــ ولكن لما انتشر الإسلام بين الشعوب غير العربية اختفت الفروق بين الأجناس، وفقد العرب إحساسهم بالوحدة القومية، وتبع ذلك مرحلة الضعف، وشرع العرب في إضاعة وحدتهم القومية، يعلق ليونارد على هذه الرؤية الجديدة في التاريخ العربي قائلاً: "إن القومية ــ كما يفهمها عفلق ـ هي الأساس وإن عفلق يرى أن الدين هو الذي كان يقرر طبيعة الأمة العربية في وقت من الأوقات، ولكن هذا الاتجاه ــ المرجعية الدينية ــ أدى إلى كثير من المتاعب، فمن الواجب تطور الدين مع العروبة، فكلاهما ــ على حد تعبير عفلق ــ ينبعان من القلب العربي ويسيران طبقاً لمشيئة الله، لا سيما وأن الدين عبقرية الفكرة القومية البعثية، وفي هذا إنكار للوحي وللغيب وتكريس للرؤية الماركسية في وضعية الدين وبشريته، وتفسير الوحي بأنه انعكاس للمؤثرات المادية على دماغ ذلك الإنسان الذي يدعي بعد ذلك النبوة أو الرسالة بناءً على ذلك. فالدين ــ كما يفسره ــ ليس إلهي المصدر ولا وحي ولا نبوة ولا غيب في عقيدته البعثية، يمكن أن ينساب مع طبيعتها.(٢)

ويقول عفلق في كتابه (في سبيل البعث): "يجب أن لا تنغلق القومية أو الدين ضمن إطارات من التحديد الضيّق، كما حاول علماء الكلام أن يفعلوا في العصور السابقة، لا سيما وأن القومية العربية ترفض بعث الأمور التي لم يعد لها جدوى من أمور الماضي"(٣)، فهو كما تصرف في مفهوم القومية تصرف في مفهوم الدين ولعل القائد المؤسس بناءً على ذلك اختار أن يكنى "أبا محمد" فهو مسلم بمقتضى التفسير البعثي للإسلام.

سابعاً: الجيل العربي الجديد:

ثم يختتم خطابه بكلمات حماسية فيقول: أيها السادة: "إننا نحتفل بذكرى بطل العروبة

---

(١). طه جابر العلواني: حقيقة حزب البعث وتكوينه، على الرابط الالكتروني: http://www.alhewar.net

(٢). مطاع صفدي: حزب البعث: مأساة المولد ومأساة النهاية، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٧.

(٣). ميشيل عفلق: في سبيل البعث، على الرابط: http://albaath.online.fr

والإسلام، **وما الإسلام إلا وليد الآلام، آلام العروبة، وأن هذه الآلام قد عادت إلى أرض العرب بدرجة من القسوة والعمق لم يعرفها عرب الجاهلية فما أحراها بأن تبعث فينا اليوم ثورة مطهرة مقومة كالتي حمل الإسلام لواءها**، وليس غير الجيل العربي الجديد يستطيع أن يضطلع بها ويقدر ضرورتها، لأن آلام الحاضر قد هيأته لحمل لواء هذه الثورة، وحبه لأرضه وتاريخه قد هداه لمعرفة روحها واتجاهها(١)، نحن الجيل العربي الجديد نحمل رسالة لا سياسية، إيماناً وعقيدة لا نظريات وأقوالاً، ولا تخيفنا تلك الفئة الشعوبية المدعومة بسلاح الأجنبي، المدفوعة بالحقد العنصري على العروبة، لأن الله والطبيعة والتاريخ معنا، أنها لا تفهمنا فهي غريبة عنا، غريبة عن الصدق والعمق والبطولة، زائفة مصطنعة ذليلة، لا يفهمنا إلا المجربون والذين يفهمون حياة محمد من الداخل، كتجربة أخلاقية وقدر تاريخي، لا يفهمنا إلا الصادقون الذين يصطدمون في كل خطوة بالكذب والنفاق والوشاية والنميمة، ولكنهم مع ذلك يتابعون السير ويضاعفون الهمة، لا يفهمنا إلا المتألمون، الذين صاغوا من علقم أتعابهم ودماء جروحهم صورة الحياة العربية المقبلة التي نريدها سعيدة هانئة، قوية صاعدة، ناصعة تتألق بالصفاء، **لا يفهمنا إلا المؤمنون، المؤمنون بالله. قد لا نُرى نصلي مع المصلين، أو نصوم مع الصائمين، ولكننا نؤمن بالله لأننا في حاجة ملحة وفقر إليه عصيب، فعبئنا ثقيل وطريقنا وعر، وغايتنا بعيدة، ونحن وصلنا إلى هذا الإيمان ولم نبدأ به، وكسبناه بالمشقة والألم، ولم نرثه إرثاً ولا استلمناه تقليداً، فهو لذلك ثمين عندنا لأنه ملكنا وثمرة أتعابنا**".(٢)

إن هذه الكلمات الأخيرة من النص ذي الدلالة الكبرى تحتاج إلى أن توضع تحتها عشرات الخطوط وعلامات التعجب والاستفهام؟! فهو يتحدث فيها عن قصته مع الإيمان، وعن اكتسابه له بالألم والمشقة، وليس بالميراث والتقليد، ولقد وقفت أمام هذه العبارة حائراً متسائلاً أي إيمان ذلك الذي كان مفقوداً عنده، ثم اكتسبه بالألم والمشقة، ولم يرثه بالتقليد؟! أكان ملحداً، ثم تدين وآمن بالنصرانية في ذلك التاريخ المبكر من حياته الفكرية وفيها كان الحب والانتماء الحميم والهزة الروحية للإسلام ولرسوله الكريم ﷺ ؟! والحق أن هذا كلام مستغرب! ولا يسع المرء حين يسمعه أو يقرأه إلا أن يحملق دهشة! ويبتسم ساخراً!

---

(١). ميشيل عفلق: ذكرى الرسول العربي، على الرابط: http://albaath.online.fr

(٢). نفس المرجع.

عبد العزيز الدوري[١] وكتاباته في السيرة النبوية ومصادرها:

كان لعبد العزيز الدوري دور في خدمة المكتبة التاريخية العربية، وتزويد الباحثين العرب بمرجع جامعي حول حقل علمي جديد، هو حقل الكتابة في السيرة النبوية، ولا سيما بعدما صدر كتابه القيم: (**بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**)[٢]، الذي أعاد فيه تسليط ضوء القراءة والتحليل على لحظات تأسيسية في تاريخ الإسلام والأمة، معيداً كتابة تاريخها برؤية تشعبت بمعرفة تاريخية حديثة، وبمناهج علمية جديدة في استنطاق المادة التاريخية، فتحدث عن فلسفة التاريخ والحس النقدي عند العرب والمسلمين الأوائل، ومنهجه في تاريخ التأريخ وتحقيبه وضرورة ذلك للكتابة التاريخية النقدية، ونشأة الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين، ثم أهمية التاريخ ودوره في الحياة الثقافية العامة.

فيقول ــ الدوري ــ في نص قصير، لكنه واضح وعميق وشامل: "ويهمنا بصورة خاصة أن ننبه إلى تاريخ التاريخ أو تطور الكتابة التاريخية وما رافقها من مناهج وآراء تاريخية، ونحن بأمس الحاجة إلى دراسة وبث تاريخ التأريخ لدى العرب، ودونها تتعذر الكتابة التاريخية النقدية، إننا لن نستطيع فحص مصادرنا التاريخية ونقد رواياتها وتمييز القوي من الضعيف، والأول من التالي، والأصيل من الموضوع، ولن نميز الروايات التاريخية من القصص دون دراسة نقدية للمؤرخين ولتطور علم التاريخ عند العرب، إننا بحاجة لأن نفهم سبب نشأة الكتابة التاريخية عند العرب،

---

(١). عبد العزيز بن عبد الكريم بن طه بن حمد الدُّوْرِيّ ولد في العراق عام ١٩١٩م حصل على بعثة علمية في المملكة المتحدة، فحصل على الدكتوراه عام ١٩٤٢م، ولما عاد إلى بغداد عين مدرساً للتاريخ الإسلامي في دار المعلمين العالية، وأصبح رئيسا لقسم التاريخ في جامعة بغداد فعميداً لكلية الآداب والعلوم، ورئيسا لجامعة بغداد، كما عمل أستاذاً زائراً في جامعة لندن، وأستاذاً زائراً في الجامعة الأميركية في بيروت، واستقر به المقام أستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة الأردنية في عمان وهو عضو في المجمع العلمي العراقي، وعضو شرف في مجمع اللغة العربية الأردني، وعضو مراسل في مجمع اللغة العربية في دمشق والقاهرة، وعضو في جمعية المستشرقين الألمان، وعضو في المنظمة العربية للترجمة، توفي يوم الجمعة ١٤٣١/١٢/١٣هـ. انظر: مير بصري: أعلام الأدب في العراق الحديث، جـ٢، ص ٥٥٤، وقحطان عبد الرحمن الدوري: عبد العزيز الدوري: النشأة والتكوين (الكتاب بلا هوية).

(٢). وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من أساتذة التاريخ في الجامعات العربية الإسلامية قد اعتمدت كتاب الدوري مرجعاً جامعياً رئيسياً للطلاب في قسم التاريخ والسيرة النبوية. انظر: وجيه كوثراني: الحقول والأزمنة في أعمال عبد العزيز الدوري، الورقة الأولى ضمن كتاب: عبد العزيز الدوري مكرماً (الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩م) ص ٢١.

لنرى دوافع كتابة التاريخ واتجاهات المؤرخين، وآرائهم التاريخية، وأسلوبهم في تمحيص الروايات، وفي الكتابة، ونظرتهم إلى أهمية التاريخ ودوره في الحياة الثقافية وفي الحياة العامة"[١]، وذلك بهدف ضبط وقائعه وتحديد حقائقه؛ ولا سبيل إلى فلسفة حضارية للتاريخ ـ حسب وجهة نظره ـ من غير نشاط علمي يهدف إلى "تقييم المصادر ودراسة أساليب المؤرخين أو الرواة الذين دونوا ومناهجهم وميولهم واتجاهاتهم ليمكن الإفادة منهم بذهن مفتوح ونفاذ"[٢] يتيح لنا إمكانية دراسة التاريخ العربي والإسلامي متنقلين من الوقائع إلى الحقائق.

ثم يضيف ـ الدوري ـ عن تلك النشأة: "إن تاريخ العرب وإن يكن ما دوّن فيه كثير من التحري والتدقيق ومحاولة الضبط بشكل قد يفوق ما دُوّن عند الأمم الأخرى، إلا أنه يشكو من أدواء خطيرة بعضها قديم وبعضها يتصل بطريقة كتابته الآن، فقد عبث برواياته الاتجاهات الحزبية والدينية والمحلية، وربما ورث هذا من نشأته لأن تلك وثيقة الصلة بعلم الحديث وبالسياسة"[٣]، ويسجل الدوري "أن بدايات علم التاريخ عند العرب، سارت في اتجاهين أساسين:

الاتجاه الأول: الاتجاه الإسلامي في المدينة أو الاتجاه الذي ظهر عند أهل الحديث الذي أنتج محدثين (مؤرخين) للسيرة والمغازي، وكانوا مبدعين لطريقة جديدة في نقد الرواية وتسلسل الأحاديث وغربلتها وضبطها لكي يستقيم (إسناد قوي).

والاتجاه الثاني: الاتجاه القبلي في البصرة والكوفة أو اتجاه الأيام، الذي أنتج إخباريين (مؤرخين) للأنساب والأيام والقصص والأخبار عموماً، دون كبير اعتبار لقوة الإسناد أو ضعفه.. وهذان الاتجاهان يعكسان التيارين الكبيرين في مجتمع صدر الإسلام، وصار لكل اتجاه مدرسة تاريخية، وحصل تأثير متبادل بين المدرستين، ثم بان تفوق مدرسة الاتجاه الإسلامي أخيراً، حين غلب اتجاه أهل الحديث في الكتابة التاريخية".[٤]

---

(١). عبد العزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند المسلمين (بيروت، دار المشرق، ١٩٨٣م) ص ٩.

(٢). عبد العزيز الدوري: الوحدة هدف اتسع نطاق تأييده ليشمل فئات من كل التيارات (مقابلة فكرية، حاوره فيها: د. علي محافظة، مجلة المستقبل العربي، العدد: ٢٧٩، ٢٠٠٢م) ص ١٩.

(٣). عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام (الطبعة الثانية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧م) ص ١٩.

(٤). نفس المرجع، ص ٤٧.

والحاصل أنه من خلال عملية تلاقي هذين الاتجاهين، كان مؤرخو القرن الثالث الهجري الكبار الذين أثْروا الكتابة العربية الإسلامية وأثَّروا فيها تأثيراً مستداماً في الفترات اللاحقة، وقد لفت نظري تطرقه لمصادر السيرة النبوية في كتابه: (بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب) فقال: "وهنا تتمثل أمامنا سيرة ابن اسحاق، ومغازي الواقدي بوصفهما أقدم المصادر ثم ابن سعد، والطبري، وقد نرجع إلى مصادر متأخرة مثل ابن سيد الناس (عيون الأثر)، وابن كثير (البداية والنهاية)، ولكن هذا الاتجاه وإن بدا مقبولاً قد يوقعنا في مزالق خطيرة، فسيرة ابن اسحاق (التي هذبها ابن هشام) وهي أقدم سيرة وصلت إلينا، ويوازيها مغازي الواقدي، وعند فحص ابن اسحاق نرى أن رواياته وأخباره متباينة في الأهمية، فالعنصر التاريخي المتين يرجع بالدرجة الأولى إلى الزهري وبعض المحدثين، وقسم آخر من أخباره مأخوذ من القصص الشعبي، الذي يغلب عليه عنصر التسلية أو التقوي أو الفخر مع كثير من الشعر الموضوع، وقسم ثالث يرجع إلى الإسرائيليات وإلى قصص وهب بن منبه وأخباره في فترة ما قبل الإسلام خاصة، وعندئذ يتضح التباين في القيمة والأهمية بين هذه العناصر الثلاثة التي تكون مادة السيرة لدى ابن اسحاق، وليس من الممكن في بحث جدي الاكتفاء بذكر أخبار ابن اسحاق دون تمييز بين العناصر الثلاثة المذكورة.

ومن ناحية ثانية قد نقول إن ابن سيد الناس أو ابن كثير متأخر، ومعلوماته مأخوذة عن مؤرخين سابقين معروفين، فهي إذاً ثانوية في الأهمية، وقد يصح هذا على كثير من أخبارهما، ولكننا عند التدقيق نجد كلاً منهما يحوي على مادة أولية، ترجع إلى مؤرخين أقدم من ابن اسحاق كالزهري، وهي ليست موجودة في سيرة ابن هشام وبهذا نحصل على مادة تاريخية مهمة، وبعد هذا نستطيع بدراسة المصادر المبكرة، أن نرى تطور نظرة المؤرخين العرب في الكتابة عن السيرة حين نقابل مثلاً بين سيرة ابن هشام وعيون الأثر، **ونشهد الانتقال من الأخبار التاريخية البسيطة في المصادر المبكرة مثل: (عروة بن الزبير والزهري) إلى الأخبار التي تسيطر عليها التقوى والقدسية الدينية، والتي يختلط فيها الشعور الديني والاتجاه نحو المبالغة بالصورة التاريخية بصورة قوية**، وهكذا نستطيع أن نقوم بدراسة تاريخية للسيرة، تستند إلى تقدير لأصولها وإلى نقد تاريخي للروايات عنها.

ولكن دراسة هذا الموضوع عسيرة وقلقة؛ إذ إن المؤلفات التاريخية الأولى لم تصل إلينا

كاملة، وليس أمامنا منها إلا مقتطفات مبعثرة في تواريخ تالية، ومعنى هذا أننا بحاجة إلى أن نجمع هذه المقتطفات وأن نصنفها لأجل أن نحصل على هيكل تقريبي للمؤلفات المذكورة، ومثل هذه المحاولة تعني إعادة تصنيف المواد التاريخية التي وصلت إلينا للقرون الأولى الثلاثة للهجرة خاصة، بإرجاعها إلى أصولها، وهو عمل شاق وخطير وبطيء، وهناك مشكلة ثانية هي أن هذه المقتطفات تنسب عادة إلى أصحابها دون الإشارة إلى الكتاب الذي نقلت عنه، إلا في النادر، وهذا يضعنا في موضع لا يخلو من كثير من الافتراض والتخمين حين نحاول معرفة المصدر، ثم إننا قد لا نحصل بعد هذا الجهد إلا على خطوط عامة، قد تكون مترابطة أو غير مترابطة، بالنسبة للمؤلفات التاريخية، وعلى الرغم من هذه الصعوبات، إلا أننا نشعر بأنه لا يمكن دراسة التاريخ العربي دون هذه المحاولة، ودون إعادة تصنيف المادة التاريخية حسب أصولها وإلا اختلط التاريخ بالقصص والأدب، ووضعت الروايات المبكرة والأخبار المتأخرة في صعيد واحد، لا يقره منطق التاريخ أو أسلوب البحث التاريخي".[١]

اختيار هذا المثال لم يكن اعتباطياً في نظري، بل يدل على موقف علمي لدى ـ الدوري ـ يسعى إلى معرفة تاريخية حقيقية بالسيرة النبوية من خلال نقد مصادر الروايات عنها، فكتب السيرة النبوية هي نصوص تاريخية مثل غيرها من النصوص تخضع للبحث التاريخي، أي تخضع للرؤية والنقد التاريخي، وإن القيام بمقارنة بسيطة بين هذه الكتب التي تُدّون السيرة النبوية أو تدّعي ذلك، لتبين المقاصد والأهواء في الكتابة التاريخية عن السيرة النبوية، وزيغها عن النهج التاريخي العلمي الصحيح.

دراسة في سيرة النبي ﷺ ومؤلفها ابن اسحاق[٢] (كنموذج):

حاول عبد العزيز الدوري في هذه الدراسة التاريخية النقدية، أن يُعطي عرضاً موجزاً لنشأة ابن اسحاق، وأراد أن يبحث بعض المشاكل المتعلقة بحياته وسيرته، فتعرض للإشارات إلى ميول ـ ابن اسحاق ـ فقد عُدّ من القدرية ولكن البعض نفى عنه ذلك، إذ ليس في سيرته ما يشعر

(١). عبد العزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند المسلمين (بيروت، دار المشرق، ١٩٨٣م) ص ١٠ ـ ١٢.

(١). ورقة بحث قدمت إلى: ندوة مجمع اللغة العربية المنعقدة في بغداد في رجب ١٣٨٥هـ ثم طبعت بمطبعة العاني ببغداد، وأعاد مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت طبعها ضمن سلسلة الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري في الجزء الثامن تحت عنوان: أوراق في علم التاريخ (الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨م) ص ٥٣.

بميله إلى القدرية، ويحتاج الموضوع إلى دراسة أحاديثه ومقتطفات تاريخه عن الخلفاء للتثبت، وقيل أنه يتشيع وهذه ناحية تحتاج إلى تدقيق، ويمكن تفسير ذلك بأن دراسة السيرة تثير نبرة احترام وعطف على العلويين[1]، وقد سبق لي الإشارة ـ في التمهيد ـ وتحت عنوان: منهج المحدّثين والمؤرخين الأوائل في كتابة السيرة النبوية وتاريخ صدر الإسلام؛ أن من أبرز العلماء المعاصرين الذين تناولوا أقوال العلماء في ابن اسحاق، جرحاً وتعديلاً، سليمان بن حمد العودة، في مقدمة أطروحته للدكتوراه: "السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن اسحاق"، ومسفر بن سعيد دماس الغامدي في بحثه المنشور بمجلة البحوث الإسلامية، العدد رقم (٥٤)، سنة ١٤١٩هـ بعنوان: "إمام المغازي محمد بن اسحاق"، ثم تناول ـ الدوري ـ أسباب اختلافه مع بعض أهل المدينة وخروجه منها وصلة ذلك بأسلوبه في دراسة وكتابة التاريخ، ثم حاول تحديد الإطار الذي اتخذه للسيرة النبوية ومحتواها، وبحث منهج ابن اسحاق وأسلوبه التاريخي في السيرة النبوية، ثم ناقش دور ابن هشام في تهذيب سيرة ابن اسحاق، وتطرق في الأخير إلى ميوله ونزعاته التي أشرنا إليها آنفاً.

وقد استهل عبد العزيز الدوري مقدمة بحثه بعرض لما كتبه بعض الدارسين الذين تناولوا ابن اسحاق وسيرته، ضمن دارسة السيرة النبوية أو الحديث عامة، وهم كُثر ومن أبرزهم بعض الكتاب المستشرقين أمثال: ليون كيتاني، ووليم ميور، ولامنس، وكارل بيكر، ونولدكه، وليفي ديلا فيدا، وإدوارد سخاو، وجب، وبلاشير، ومن الكتاب العرب المسلمين: أحمد أمين، وجواد علي، وعبد العزيز الدوري ذاته، وحسين نصار، وخص ابن اسحاق باحثون آخرون بدراسات خاصة منهم: وستنفلد، وبروكلمان، ومرغليوث، وهذه جميعاً دراسات عامة مختصرة، ثم كتب فوك رسالة جامعية عن ابن اسحاق، فكانت أول دراسة علمية شاملة، وتلاه هوروفتس ببحث عن المغازي الأولى وخص ابن اسحاق بنصيب حسن منها، وقد عربه حسين نصار بعنوان: المغازي الأولى ومؤلفوها، ثم نشرت الدكتورة نابية أبوت قطعة من تاريخ الخلفاء لابن اسحاق مكتوبة على ورقة بردي وهي قطعة فريدة تعطي فكرة عن نهجه وأسلوبه.

وقام ألفرد غيوم بترجمة سيرة النبي لابن اسحاق، فحذف زيادات ابن هشام وأضاف مقتطفات باقية في كتب أخرى وخاصة الطبري، وتناول ابن اسحاق في مقدمة الترجمة، وبحث

---

(١). عبد العزيز الدوري: دراسة في سيرة النبي ﷺ ومؤلفها ابن اسحاق، ص ٧٥.

الأستاذ مونتغمري وات: "مواد سيرة ابن اسحاق"(١)، وعلق ـ الدوري ـ على تلك الدراسات وكتابها بقوله: "إن هذه البحوث تتباين في نتائجها، فبعضها مثل بحوث بيكر، ولامنس شككت في قيمة مواد السيرة، واعتبرت العنصر التاريخي فيها محدوداً، واعتبرت تأخر زمن ابن اسحاق دليلاً على ضعف الأساس التاريخي متعللة بتأخر التدوين وارتباك الأسانيد.

وحاول وات أن يبين أن مواد السيرة فيها من التاريخ أكثر مما ظن لامنس، وبيكر، واقتصرت بعض الدراسات على تلخيص الأخبار الواردة عن ابن اسحاق، كما فعل وستنفلد، ومرغليوث، وحاول البعض مثل جب، وهوروفتس، وسخاو وضع ابن اسحاق في إطار تطور كتابة السيرة، وأفاد كل من فوك وهوروفتس ـ أيضاً ـ من كتاب السيرة إلى حد ما في دراسة ابن اسحاق". (٢)

ثم توصل ــ الدوري ــ إلى نتيجة مؤداها: "أن هذه الدراسات كشفت الكثير عن حياة ابن اسحاق وجهوده ولكنها تركت قضايا أساسية تحتاج إلى توضيح، وبيَّن أن أسلوب دراسة أي مؤرخ أو مدرسة تاريخية يتطلب فحص الآثار التاريخية (النصوص) التي كتبها المؤرخ أو خلفتها مدرسته، ولا يمكن تكوين أي رأي علمي أو فكرة تاريخية دقيقة إذا اكتفينا بما أورده المؤرخون الآخرون عن موضوع الدراسة.(٣)

أ) مصادر سيرة ابن اسحاق عند الدوري:

يقول عبد العزيز الدوري: "تذكر مصادرنا أن ابن اسحاق كتب في المبتدأ، وفي السيرة، والمغازي، وفي تاريخ الخلفاء حتى أيام المنصور، وتؤيد ذلك المقتبسات الكثيرة من كتاباته في كتب التاريخ والطبقات والسيرة، وهي مقتبسات مهمة لتوضيح نطاق كتاباته التاريخية، وأول مشكلة توجهنا ـ حسب تعبيره ـ هي معرفة إطار ما كتبه ابن اسحاق، هل ألف كتاباً في ثلاثة أقسام: المبتدأ، والمبعث، والمغازي، أم أنه ألف أكثر من كتاب اعتمدها ابن هشام في تهذيبه؟". (٤)

---

(١). عبد العزيز الدوري: دراسة في سيرة النبي ﷺ ومؤلفها ابن اسحاق، ص ٥٥.

(٢). نفس المرجع، ص ٥٦.

(٣). نفس المرجع، ص ٥٧.

(٤). نفس المرجع، ص ٦١.

ويجيب ــ الدوري ــ على سؤاله فيقول: "يتجه أكثر الباحثين إلى أنه ألف كتابه في الثلاثة الأقسام المذكورة أعلاه، ثم يجب أن يلاحظ مبدئياً أن ــ ابن اسحاق ــ لم يكن واضع هيكل المغازي، بل إن أستاذه الزهري سبقه إلى ذلك في دراساته الواسعة، وفي الإطار الذي رسمه للسيرة، وفي التسلسل الزمني الذي اتبعه، ويمكننا أن نقول إن إطار السيرة ــ بمعنى إيراد معلومات عن حياة الرسول قبل البعثة وبعدها ــ كان واضحاً لدى الزهري، ومن ناحية ثانية فإن وهب بن منبه وضع مؤلفاً في المبتدأ، ورسم إطاره، وجمع مادة واسعة فيه، وكان من المصادر الأساسية لابن اسحاق في المبتدأ، وهذه الإشارات تدل على أن ابن اسحاق ألف كتابين متميزين المبتدأ والسيرة.[(١)]

ب) خلافه مع مدرسة المدينة التاريخية:

يقول عبد العزيز الدوري: "نشأ ابن اسحاق في المدينة حيث درس على شيوخها وجمع مادته في السيرة والمغازي فيها، ولم يترك المدينة إلى العراق إلا بعد الخامسة والأربعين، ومن ناحية أخرى فإن ثمانية عشر من تلاميذ ابن اسحاق الذين رووا مادته التاريخية كُلاً أو بعضاً، لا نجد إلا واحداً من المدينة، والباقين من العراق وإيران، وهذ يشعر بعدم تقبل المدينة لدراسته ولنهجه، ومما يؤكد ذلك أن الواقدي ــ وهو في خط مدرسة المدينة، والذي أفاد من دراساته كما يبدو ــ لم يشر إليه، وأن البلاذري الذي يعتمد على المدينة بالدرجة الأولى في روايته عن أحداثها، استند إلى الواقدي وشيوخ المدينة بالدرجة الأولى ولم يعط ابن اسحاق مكانته، في حين أن خليفة بن خياط والطبري استندا بالدرجة الأولى إلى ابن اسحاق.

يظهر إذن أن ابن اسحاق لم يلتزم بوجهة مدرسة المدينة التاريخية في دراساته، بل جمع مادته من جماعات متباينة تمثل مختلف اتجاهات الاهتمام بتاريخ ما قبل الإسلام ودور الرسالة، فأخذ من الإسرائيليات ومن القصص العربي القديم، ومن قصص القصاص، والقصص الشعبي ومن الحديث، واستعان بالآيات القرآنية وحتى بالشعر، لغرض التوثيق، وأضعف أقسام السيرة ذلك الذي يسبق المبعث، وفي هذا القسم يعكس ابن اسحاق الإسرائيليات والقصص العربي، فيورد قصص العرب عن شق وسطيح الكاهنين، ويورد معلومات عن انتشار الوثنية عن كعب

---

(١). عبد العزيز الدوري: دراسة في سيرة النبي ﷺ ومؤلفها ابن اسحاق، ص ٦٠.

بن مالك القرظي".[١]

ويضيف الدوري ـ أيضاً ـ فيقول: "لقد تعرض ابن اسحاق لنقد شديد، لاعتماده على أهل الكتاب في الرواية ولإيراده كثيراً من الشعر الموضوع ولأخطائه في الأنساب، ولأنه لا يمحص مصادره، كما ينقل من كتب الآخرين مباشرة دون سماعها، ولم يكن ـ ابن اسحاق ـ دقيقاً في الإسناد كما يتطلب أهل الحديث، فهو يبدأ رواياته بما يثير النقد والشك مثل قوله: (بلغني) و(ذكر لي) و(حُدِّثْتُ) و(حدثني من لا أتهم) و(حدثني بعض أهل العلم) و(حدثني بعض أصحابنا) و(كان هذا الحي من الأنصار يتحدثون)، وانتقد على استعماله الإسناد الجمعي مع أنه طور هذ الإسناد واستطاع أن يقدم قصة جذابة من رواياته".[٢]

جـ) تهذيب ابن هشام لسيرة ابن اسحاق:

يقول عبد العزيز الدوري: "ومن المناسب أن نرجع إلى مخطوطة ابن اسحاق علنا نجد فيها الإجابة القاطعة، ونلاحظ أن عنوانها هو **السير والمغازي**، وأن الموجود يبدأ برحلة أبي طالب إلى الشام واصطحابه للرسول ﷺ، وهو بداية الجزء الثاني، وتنتهي المخطوطة بالجزء الخامس الذي يبدأ بوفاة خديجة رضي الله عنها، ويبلغ عدد صفحات الأجزاء الأربعة ١٦٧ صحيفة، وهي تقتصر على الفترة المكية، ويقع كل جزء في حدود ٤٠ صحيفة، وإذا لا حظنا القسم الخاص بالفترة الأولى، أي مبعث النبي ويقع في ٤٤ صحيفة، نجد أن الموضوعات هي نفسها الموجود في سيرة ابن هشام التي تقع بين الصفحتين١٩٠ و٢٤٨، مع وجود فقرات وروايات في مخطوطة ابن اسحاق حذفها ابن هشام.

ومن ناحية أخرى فإن الجزء الأول من المخطوطة وهو الجزء المفقود، ولنفرض أنه في حدود ٤٠ صحيفة، لا يمكن أن يوازي الـ١٩٠ صحيفة في سيرة ابن هشام، ولنتذكر أن شؤون اليمن تشغل ص ١٥ ـ ٧٨، أي ٦٤ صحيفة والباقي يتعلق بنسب الرسول وبقريش وبالكعبة وبعبادات العرب، وهذا يعني بوضوح أن هذا المخطوط لا يمكن أن يكون تناول المبتدأ بحال من الأحوال، وأنه اقتصر على سيرة النبي وما يلقي ضوء على ظهور الإسلام في مكة والمدينة، وحين ننظر إلى نهج ابن هشام في تهذيب السيرة كما عرضه ـ والكلام للدوري ـ نجده تناول

---

(١). عبد العزيز الدوري: دراسة في سيرة النبي ﷺ ومؤلفها ابن اسحاق، ص ٦٤.

(٢). نفس المرجع، ص ٦٩.

نسب الرسول إلى إسماعيل في الخط المباشر ـ وترك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل ـ للاختصار، ثم تناول السيرة وحذف منها ما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر ... الخ.[١]

كما أن تسلسل الروايات في المخطوط يختلف أحياناً عما جاء في ابن هشام فمثلاً يرى الحديث عن الصحيفة والمقاطعة في المخطوطة قبل الهجرة إلى الحبشة، وهذا يدعو إلى الاعتقاد بتصرف تلامذة ابن اسحاق أحياناً في تنظيم الروايات، وقد أكد ابن هشام على دلالة الآيات القرآنية أو تفسيرها في إثبات الروايات أو حذفها كأساس في تدقيقه، وهذ وجهة مقبولة في عصر ابن هشام وصار لها أثرها في تدقيق مواد السيرة".

نص للدوري في السيرة النبوية:

هذا نص مختار بعناية ـ للدوري ـ وهو في الحقيقة توضح رؤيته للسيرة النبوية ولدعوة الرسول محمد ﷺ، وهو مأخوذ من كتاب (النظم الإسلامية)، ويحمل العنوان التالي:

دور الرسالة:

يقول الدوري: "**ظهر الرسول في مكة، وفيها سلطة حاكمة فاتخذ موقف واعظ دين ومصلح اجتماعي، وصار يمثل المعارضة للوضع القائم، ولكنه لم يعمل أية نظم سياسية لعدم تيسر المجال له**، وكانت هجرته إلى المدينة فتحاً في تاريخ الإسلام الديني والسياسي، إذ فسحت المجال لظهور عبقريته السياسية ومقدرته على التنظيم، فلم تكن في المدينة سلطة حاكمة، هذا مع اضطراب الوضع، وقوة العصبية القبلية التي كانت سبب الفوضى والارتباك الاجتماعي والسياسي، ولكن يجب أن يظن أن فعاليته السياسية تمثل تبدلاً في نظريته إذ أنه كان دائماً يسعى لتكوين (أمة) جديدة هو قائدها ومرشدها، فالدين والسياسة كانا وبقيا مجتمعين في دعوة الرسول.

كان الهدف الأول للرسول في المدينة هو حماية لمسلمين لقلّتهم، وحفظ الأمن والسكينة في موطنه الجديد، فبدأ سلسلة تنظيمات بضوء الظروف والحاجة، وكانت عاملاً مهماً في تثبيت قدم الإسلام ونشره، وقد فكّر قبل شيء ببناء مسجد ليكون مركز الحكومة ومحل المشاورات، فكان المسلمون يتداولون فيه في الشؤون العامة وترسل منه البعوث والغزوات،

(١). عبد العزيز الدوري: دراسة في سيرة النبي ﷺ ومؤلفها ابن اسحاق، ص ٦٣.

وبتعبير أعم أصبح المسجد قلب فعالية الأمة الجديدة.

ولما شعر الرسول ﷺ بقلّة المسلمين، وبفقر المهاجرين الذين تركوا أموالهم في سبيل دينهم، وضع نظام (المؤاخاة) وذلك بتوزيع المهاجرين على الأنصار، إذ جعل كل مهاجر يعيش مع أنصاري أخاً له حتى في الإرث، وبذلك حلّ مشكلة إعانة المهاجرين، ووثق التعاون بين المسلمين، لقد كان العرب يعرفون نظام المؤاخاة في الجاهلية إلا أن الرسول طبّقه بشكل واسع، وجعل له أساساً دينياً، وقد استمر تنفيذه حتى معركة بدر، وأُلغِيَ بعد أن قوي مركز المسلمين ولزوال الأزمة المالية، وهذا مثال يبيِّن كيف نشأت بعض المؤسسات الاجتماعية في الإسلام نتيجة ظروف خاصة، ثم اختفت بتغير تلك الظروف، وبعد معركة بدر قوي مركز المسلمين في المدينة، وصار لهم صوت مسموع لاتحادهم ولانقسام الجماعات الأخرى اليهودية والوثنية، وقد شعر الرسول بضرورة تنظيم جديد يناسب الوضع ويسنده في نضاله ضد قريش، فهدف إلى تكوين جماعة متكافئة من عناصر المدينة المتباينة، وقد أدرك أن سبب الاضطراب في المدينة قبل هجرته إليها كان روابط الدم، فاستبدل بها رابطة الدين، وأنشأ أمته على أساس ديني، وكتب (كتاباً) بين المهاجرين والأنصار واليهود بيّن فيه أسس الدولة الجديدة في المدينة، ومنه نستطيع معرفة التغييرات التي أحدثها (الكتاب) على الوضع القديم".[(١)]

بادئ ذي بدء وقبل الدخول في مناقشة كلام عبد العزيز الدوري، لابد من الإشارة إلى أن هناك الآلاف من المؤلفات التي اهتمت بمناقشة السيرة النبوية من المهد إلى اللحد على وجه العموم، ونثرت الأقلام الكثير عن شخصية الرسول ﷺ السياسية، فمنهم من رآه السياسي القدير الذي وهب من الذكاء الفطري، والحكمة الفياضة، والحنكة وبعد النظر ما يقصر عنه كل وصف، من حيث بناؤه للدولة، وسياسته الداخلية والخارجية، والاقتصادية والعسكرية، كما نرى بعض الكتاب قد قصر عقله أن يرى هذا فوجد أن الرسول ﷺ لم يكن حاكماً ملهماً لدولته؟! ويعد كتاب (النظم الإسلامية) عبد العزيز الدوري من الكتب التي عنيت بالقضايا السياسية في السيرة النبوية، ووفقا لآرائه حول التاريخ وكتابته، نجد أنه من العسير أن ينفصل الكاتب أو المؤرخ عن بيئته، ونشأته، وميوله، واتجاهاته، مما يؤثر مباشرة على إنتاجه، وهذا ما حصل للدكتور الدوري، وإذا نظرنا في تاريخ الدعوة منذ البعثة النبوية؛ وجدنا أنها كانت تسير

(١). عبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية (الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨م) ص ٢١.

ضمن عملية محكمة، بلغت في تخطيطها وسيرها شأواً بعيداً، يقول محمد آمحزون: "على أن التخطيط للدعوة في عصر النبوة بدأ من المنطلق الاستراتيجي الإحكامي البعيد المدى، مثل ما حصل في مرحلة الدعوة السرية، ومرحلة الدعوة الجهرية، وبوضع خطط ذات أهداف بعيدة تمكّن من بناء قاعدة صلبة، وإيجاد منطلقات آمنة للدعوة، وتمهيد الطريق لإقامة الكيان الإسلامي عبر آليات فاعلة، والاستفادة من الظروف والإمكانات المتاحة، وتوظيفها بشكل جيد ودقيق في التأثير السريع والعميق على مجريات الأحداث".(١)

لقد كان سيدنا محمد ﷺ في مكة نبياً ورسولاً، يدعو إلى دين جديد، يحرر العقول من الخرافة ويطهر القلوب من الشر، ويوطئ النفوس للتوادّ والتراحم، ويبشر ـ قبل كل شيء ـ بوحدانية الله ﷻ، ويحذر من الشرك وعبادة الأصنام، وقد استطاع أن يجمع حوله، برغم عداوة قريش الشديدة، عصبة من الرجال والنساء تحابوا في الله، وتألفت منهم أُسرة روحية واحدة، يُؤثر أفرادها إخوانهم في الإسلام على إخوانهم في الدم، وينكرون العصبية القبلية، لأن رابطة الدين أصبحت أقوى من رابطة العشيرة، لم يدع الرسول ﷺ قط خلال مقامه الأول في مكة إلى إنشاء حكومة إسلامية تحل محل السلطات القبلية، وإنما كانت دعوة دينية خالصة.

لقد تمنى عدد من المسلمين في مكة لو يسمح لهم بقتال لينتقموا لكرامتهم من المشركين، وظنوا أنهم بذلك يوقفون أذى المشركين ويجبرونهم على الاعتراف بوجود النبي ﷺ والمسلمين، وتركهم يمارسون حقهم في اختيار الدين الذي يريدون، ولكن النبي ﷺ منعهم بتوجيه من الله ﷻ والآيات توضح ذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧]، فهي تذكر أنهم منعوا من القتال ثم أُمروا به.. وقبل أن يُؤمروا به.. جاء الإذن به قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج:٣٩ ـ ٤٠] والآية تدل بوضوح على أنه لم يُسمح لهم بالقتال إلا بعد أن أُخرجوا من ديارهم ـ أي بعد الهجرة ـ ولم يكن لهم

(١). محمد آمحزون: منهج النبي ﷺ من خلال السيرة الصحيحة (الطبعة الثانية، القاهرة، دار السلام، ١٤٢٤هـ) ص ١٠٩.

ذنب إلا أن قالوا ربنا الله، فلم يمدوا أيديهم بأذى لأحد، والتزم المسلمون في مكة بهذه الخطة، وكانت التعليمات واضحة لدرجة أنه لم يحدث إلا حادث واحد شذَّ عن قاعدة (كفّ اليد) في مكة، وهو أن سعد بن أبي وقاص ﷺ كان مع نفر من المسلمين يصلون بشعاب مكة إذ ظهر عليهم بعض المشركين فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد ﷺ رجلاً من المشركين بلحي (أي عظم الفك) جمل فشجه فكان أول دم أُهريق في الإسلام، ونرى أن الصحابة ﷺ في مكة قد تشربوا روح الإحسان تأسياً بمحمد ﷺ الذي قابل كل الأذى بالصبر والعفو والدعاء لقومه بالهداية، وهو الأمر الذي تبلور من خلال سياسة تفادي المواجهة مع (الملأ)، مما فسح المجال للدعوة كي تسري في أعماق المجتمع دون أن يلتفت قادته إلى الآثار المستقبلية والتغييرات العميقة التي ستلحق به، فأخطأوا التقدير عندما ظنوا أن دعوة الرسول ﷺ لا تخرج عن نطاق الحنيفية التي كان لها وجود فردي محدود في المجتمع المكي[1]، فهل الدور الذي قام به الرسول ﷺ في مكة، دور واعظ ديني أو مصلح اجتماعي.. أم نبي ورسول موحى إليه من رب العالمين..؟!

---

(١). الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال المرحلة المكية (الطبعة الأولى، أمريكا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ) ص ٢٩٢.

المبحث الرابع:

الاتجاه العلماني في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال ق ١٤ هـ

العَلْمانية هي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل، ومراعاة المصلحة بعيداً عن الدين وعن تأثير الكنيسة والمؤسسات الدينية، وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العلم، وقد ظهرت إبان عصر التنوير والنهضة في أوروبا في مواجهة طغيان الكنيسة، وتنظيمه على أساس الانتماءات الدينية والطائفية، ورأى أن من شأن الدين أن يُعنى بتنظيم العلاقة بين البشر وربهم ـ هذا لمن أراد أن يؤمن بالدين ـ ولكنه نادى بقوة بفصل الدين عن الدولة، وأن تنظم العلاقات الاجتماعية على أسس إنسانية بحتة.(١)

فالعلمانية وترجمتها الصحيحة: اللادينية أو الدنيوية، وقد اساء المترجمون العرب ترجمتها لأن مقابلها غير موجود في حضارتنا..! أو لأمر ما..! فالعلماني في القاموس الأوروبي ترجمة رديئة للفظ Secular بالإنجليزية أو اللائكي Laiqua بالفرنسية وتعني الذي صار من رجال الدين أو كل ما ليس متخصصاً، فمثلاً إذا تكلمت أنا في الطب فهو كلام علماني لأن الكلام الرسمي أو الموثق هو كلام الطبيب، فلما نشب الصراع بين الكنيسة والدولة في أوروبا، وألغيت سيطرة رجال الدين، واستقل العلمانيون بإدارة الدولة وقام المجتمع العلماني الذي لا يحكمه رجال الدين(٢)، فالعلمانية ـ كما رأينا ـ من نماذج التزوير والتزييف عند المترجمين ـ وهم في الغالب نصارى بلاد الشام ـ فهم يخلطون بينها وبين العلم ويدعون أنهم هم دعاة العلم، والكلمة أصلاً لم تكن لها علاقة بالعلم عندما نحتت في أوروبا، فلا علاقة بين اللفظ والعلم إلا تأولاً، كما أنه لا علاقة حتمية بين العلم والإلحاد، وتدخل هذه الطريقة من الترجمة غير الأمينة في حقيقة الأمر ضمن المخادعة اللفظية الفكرية للجماهير، وأمثلتها كثيرة، ومنها: (الاستعمار) بدلاً من (الاحتلال) مثلاً.

وانتقلت إلى الشرق في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وانتقلت بشكل أساسي إلى

---

(١). مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، جـ٢، ص ٦٧٩، محمد علي البار: العلمانية جذورها وأصولها (الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، ١٤٢٩هـ) ص ٣٣.

(٢). محمد قطب: مذاهب فكرية معاصر، ص ٤٤٥، ومحمد جلال كشك: قراءة في فكر التبعية (الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، ١٤١٤هـ) ص ٤١٨، وعبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة (القاهرة، دار الشروق، ١٤٢٣هـ) جـ١، ص ١٥.

مصر وتركيا وإيران ولبنان وسوريا ثم تونس، ولحقتها العراق في نهاية القرن التاسع عشر، أما بقية الدول العربية فقد انتقلت إليها في القرن العشرين، وقد اختيرت كلمة علمانية لأنها أقل إثارة من كلمة لا دينية، وبالتالي فمدلول العلمانية المتفق عليه يعني عزل الدين عن الدولة، وحياة المجتمع وإبقاءه حبيسا في ضمير الفرد لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربه، فإن سمح له بالتعبير عن نفسه ففي الشعائر التعبدية والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة ونحوهما[١]، وتتفق العلمانية مع الديانة النصرانية المحرفة في فصل الدين عن الدولة، وهذا واضح فيما ينسب إلى السيد المسيح عليه السلام ـ زوراً وبهتاناً ـ من قوله: (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله).[٢]

أما الإسلام فلا يعرف هذه الثنائية والمسلم كله لله وحياته كلها لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، فإذا صحت دعوى العلمانيين في الغرب بالنسبة للدين الكنسي أنهم يتعايشون معه ويتعايش معهم دون تدخل من أحدهما في شؤون الآخر ـ وهي دعوى غير صحيحة ـ فإنها بالنسبة للإسلام لا تصح على الاطلاق.(٣)

وسوف نتناول في هذا لاتجاه الشخصيات التالية:

١) جواد علي وكتابه: تاريخ لعرب في الإسلام "السيرة النبوية".

٢) علي الوردي وكتابه: وعاظ السلاطين.

٣) صالح العلي وكتابه: الدولة في عهد الرسول ﷺ.

---

(١). محمد علي البار: العلمانية جذورها وأصولها ، ص ٢٦ ـ ٣٠.

(٢). مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، جـ٢، ص ٦٧٩.

(٣). محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، ص ٤٩٥.

جواد علي[١] وكتابه تاريخ العرب في الإسلام:

أصدر الباحث والمؤرخ العراقي جواد علي كتابه: (تاريخ العرب في الإسلام) في طبعته الأولى سنة ١٣٨١هـ ببغداد، والذي صدر منه الجزء الأول حتى اعداد هذه الرسالة، والذي بين أيدينا الطبعة الثانية لدار الشؤون الثقافية ببغداد، لعام ١٤٢٣هـ، وقد اقتصر فيه على بحث السنين الثلاث ودراستها، أو الأربع من النبوة، سني التحفظ والاستخفاء، وقد استهل الدكتور جواد علي مقدمة كتابه قائلاً: (هذا كتاب تاريخ العرب في الإسلام، جعلته صلة وتكملة لكتابي: "تاريخ العرب قبل الإسلام"، وهو مثله في أجزاء، سيتوقف عددها على الزمان الذي ستقف ضربات قلبي عنده، وعلى البحوث التي سأتطرق إليها ولهذا فسوف لا أتطرق لأمور الجاهلية إلا بقدر ما للجاهلية من صلة بالإسلام، وبقدر ما لها من علاقة بعصر النبوة وبأيام الرسول، لذا فسأدخل في موضوع عصر النبوة رأساً، دون مقدمة ولا تمهيد).[٢]

فرغم الاتفاق على أهمية ـ جواد علي ـ وفرادته في كتابة التاريخ العربي إلا أن خلافاً حول منهجيته التاريخية ما يزال حتى اليوم يشكل مادة خصبة للآراء والأفكار والطروحات، ويكاد بعض الاجماع ينعقد على مراوحة المنهجية الخاصة بالدكتور بين قواعد البحث العلمي التاريخي المجرد؛ وخاصة المدرسة الألمانية وما يسميه العرب بعلم البصائر أو الحدس التاريخي[٣]، ويمكن طرح ومناقشة أهم التصورات التي وردت في كتابه في النقاط التالية:

---

(١). ولد جواد بن محمد علي سنة ١٩٠٧م، نال شهادة الدكتوراه عام ١٣٦٠هـ في جامعة هامبورغ، عمل أمين سر لجنة التأليف والترجمة والنشر، واختير عضواً مراسلاً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفي عام ١٣٧٧هـ اختارته جامعة هارفارد أستاذاً زائراً فيها، وبعد التقاعد منحته جامعة بغداد لقب أستاذ متمرس، أعيد تعيينه عضواً بالمجمع العلمي العراقي إثر إعادة تأليفه في عام ١٣٩٩هـ مرض جواد علي وطال مرضه، وتوفي في بغداد في ١٩٨٧/١/٤م. انظر: مير بصري: أعلام الأدب في العراق الحديث، جـ٢، ص ٥٢١.

(٢). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ٦.

(٣). نفس المرجع، ص ٦.

أولاً: موقف الكاتب من مصادر ومرويات السيرة النبوية:

لم يشأ ـ جواد علي ـ أن يكون داعية أو مبشراً بدين على حد تعبيره فلا حاجة للدين لرأيه أو مساعدته، فالأديان كلها من منبع واحد، وبعضها يتمم بعضها الاخر، ومن وجهة نظره لا يضير الإسلام ولا يثيره قول من يقول أنه مأخوذ عن يهودية أو عن نصرانية قبل تحريفها! وما دامت هذه الأديان من اللّه رب العالمين، ومن منبع واحد، فلا بد من أن يكون فيها ما تقتضيه طبيعة الوحي والإلهام من ذلك المصدر الذي ألهم هذه الأديان.

هذه الملاحظة مركزية عند ـ جواد علي ـ ومهمة للغاية وهي كذلك إلى حد ما ولذلك يفتش جواد علي عن موارده في كل ما يمكن أن يفيد تكوين الصورة للماضي موضوع البحث وهنا السيرة تحديدا وكلما توسع المؤرخ وتبسط في مراجعة مظان موضوع بحثه وموارده، كانت احاطته بأحواله أشمل وأعم، وفي السيرة ـ تحديداً ـ المصادر عند جواد علي هي: القرآن وكتب التفاسير وأسباب النزول، والحديث حديث الرسول ﷺ، وكتب السير والمغازي والتواريخ العامة والخاصة، وكتب الأدب والأمثال العربية والقصص الجاهلي والإسلامي، بل ما كتبه غير العرب مما يمكن أن يفيد، إذا كان ينتمي إلى تلك الحقبة أو أقرب ما يكون إليها زمنياً[(١)]، ولكن سند جواد علي وملاذه بالدرجة الأساس في معرفة تاريخ الاسلام وأحوال العرب في ذلك العهد هو القرآن، أما المصادر والموارد الأخرى فهي ثانوية بالنسبة إليه.[(٢)]

ويعتقد ـ جواد علي ـ أن المؤرخ للسيرة النبوية، لو سار بموجب وحي آيات القرآن لجنب نفسه الوقوع في المزالق والمآخذ، وجعل السيرة النبوية سيرة حية، بعيداً عن القصص الاسرائيلي الذي أدخل على السيرة وعلى الإسلام، أُناس قضوا معظم حياتهم أو بعض من حياتهم وهم على دين يهود؟ وبخاصة عند أصحاب السير المتأخرين، تلك القصص التي أثارت التشكيك بصاحب الرسالة والمرسلين[(٣)]، وبالتالي فإن الدكتور جواد علي يرى أن كتاباً واحداً فقط ثابت

---

(١). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ٢١ ـ ٥٢.

(٢). نفس المرجع، ص ٥٠.

(٣). لعل من أوائل المحْدثين المعاصرين الذين شككوا في كتب السيرة النبوية محمد عزة دروزة؛ ومثل لذلك بسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد! وبناءاً عليه يشكك دروزة في كثير من مرويات السيرة النبوية، بحجة أن هذه المرويات تختلف حول الحدث الواحد، إضافة إلى كونها تناقض النصوص القرآنية. انظر: محمد عزة دروزة: سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم، جـ١، ص ٧.

الصحة يمكن أن يخبر الناس عن الزمن الاسلامي الأول وهو القرآن الكريم، لقد سلم ــ الدكتور جواد علي ــ بقدسية القرآن الكريم وصحته وعدم تحريفه، وأخذ على المسلمين التشويه الذي لحق بالقرآن الكريم على أيدي المسلمين أنفسهم وذلك من خلال الكثير من التفاسير التي لا يمكنها استنطاق الروح الحضاري والمدني للإسلام واعتمادها الكثير من الاسرائيليات وتركيزها على الخوارق والمعجزات، وقد عبر ــ جواد علي ــ نفسه عن أزمة الكتابة في الدراسات الإسلامية والمبكرة منها خاصة بسبب قلة الوثائق والنصوص حول هذه الفترة، ويؤكد أن التفريط في وثائق هذه المرحلة قد طال حتى القراطيس والألواح التي دون كُتَّاب الوحي عليها آيات الله، لم يبق منها شيء، مع أهميتها وقدسيتها، فيقول: "أما نسخة القرآن الكريم التي كانت لدى حفصة بنت الخليفة عمر بن الخطاب، أو نسخة عثمان وبقية النسخ التي أمر بتوزيعها على الأمصار، فلم يبق منها شيء كذلك، ولم يبق أي أثر لنسخ المصاحف الأخرى التي كان الصحابة قد كتبوها لأنفسهم، ومنها نسخ كتبت في أيام الرسول، وأما ما يقال عن وجود نسخة أو نسخ مكتوبة بخط الإمام علي أو نسخة عثمان، فكلام يحتاج إلى دليل مقنع، وإلى حجة دامغة تقوم على أساس من الاقناع والبرهان".(١)

اضافة إلى ما ذكر يضيف قائلاً: "وليس في يد أحد هذا اليوم أصل من أصول كتب الرسول إلى الملوك والرؤساء وإلى القبائل والعمال الذين بعثهم إلى اليمن أو الأماكن الأخرى، ولا نملك كذلك أصلاً لكتابة من الكتابات المدونة في أيام النبي وخلفائه؛ وهو أمر يبعث الأسف حقاً أما أيام الرسول؛ وأيام الخلفاء الراشدين، فلم يرو أحد أن أحداً قد ألف فيها أو دون وجمع، وكل ما وصل إلينا هو يخص جمع كتاب الله، وأما ما يخص جمع حديث رسول الله، فتكاد تجمع الروايات على أن الناس كانوا يتهيبون تسطيره في كتاب، وجمعه في أجزاء، خوفاً من أن يكون مع كتاب الله كتاب آخر، كالذي حدث عند يهود، وشفقة على المسلمين من أن يتخذوا حديث رسول الله قرآناً ثانياً يقرؤونه، ثم يقولون بعد ذلك إنه وحي أُوحي إليه، تنزل به الروح الأمين من عند الخالق رب العالمين".(٢)

وكل ما وصل إلينا عن أيام الرسالة، مكتوب بعربية القرآن الفصحى التي نزل بها الوحي،

---

(١). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ١٩.

(٢). نفس المرجع، ص ١٩ ــ ٢١.

فيما لا وجود لأي نص مكتوب بلهجة عربية أخرى، الاسوأ من ذلك فقدان كل ما جرى تأليفه في العصر الأموي حول سيرة الرسول، فقدان الأصول التاريخية هذا، يسمح بكتابات بعيدة عن الواقع ويتيح اختلاق تاريخ مزور يحمل من الأضاليل أكثر من الحقائق.[(١)]

ثانياً: موقف الكاتب من تدوين السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي:

يلقي جواد علي الضوء على كون قراءة التاريخ الاسلامي وتدوينه، جاءا على أيدي رجال دين نصارى في الزمن القديم، ومستشرقين في العصر الحديث، وهي كتابات يرى الكاتب أنها تفتقر إلى الكثير من الموضوعية وتحمل في ثناياها آثار التعصب الطائفي والصراع الذي دار خلال الفتوحات الإسلامية والسيطرة على مناطق وشعوب كانت تقول بالمسيحية أو اليهودية، فيوحنا النيقي اعترف بارتداد المصريين عن النصرانية والتحاقهم بالإسلام الذي يراه دين اعداء الله وعبدة الاصنام، وفسر يوحنا الخلقدوني انتصار الاسلام على النصرانية بأنه عقاب من الرب للنصارى لابتعادهم عن دينه القويم، والقديس يوحنا الدمشقي كرس أبحاثا كثيرة لإرشاد النصارى إلى دينهم الصحيح ورد الشبهات الناجمة عن انتشار الإسلام في بلاد الشام، ووسم الإسلام بالهرطقة، واعتبر أن الرسول محمد ﷺ تعلم من التوراة والانجيل، أما المستشرقون فقد أخذوا بالروايات الاسرائيلية حول الرسول وانتشار الإسلام وابتعدوا عن النقد العلمي في كتابة التاريخ عن العرب والمسلمين.

وتتمثل رؤيته في أن التاريخ الاسلامي يعاني معضلة كتابته وتدوينه أيضاً[(٢)]، وخصوصاً منه السيرة النبوية؛ وتتنوع الكتابات حول السيرة وتتناقض في مضمونها ومراجعها بين مؤرخين قدامى ومحدثين، بعدما خضعت لشتى أنواع الاجتهادات، وادخلت عليها مظاهر كثيرة لا تمت إلى الواقع التاريخي بشيء، وغلّبت الأسطورة وأحياناً الخرافة حول النبي ﷺ وتجربته، بما أساء إلى شخصية الرسول ﷺ تحت حجة المبالغة في تعظيمه وتمييزه عن سائر الأنبياء والبشر.

يدور صراع منذ قرون على الوجهة التي يجب اعتمادها في كتابة التاريخ العربي زمن الاسلام، ويشدد المؤرخون الموضوعيون على ضرورة الحذر في اعتماد المراجع، واخضاعها

---

(١). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ٢٠.

(٢). تناول جواد علي قضية التدوين وكتابة التاريخ وشروط المؤرخ، كما عالج مسألة موارد التاريخ الإسلامي ومشكلات التعاطي معها، ومدى توثيقها واستنباط حقائق التاريخ منها. انظر: جواد علي: المرجع السابق، ص ٩ ـ ٥٢.

للتمحيص العلمي **من أجل الوصول إلى كتابة تاريخية قريبة إلى العقل والمنطق ولا تسيء إلى الإسلام ورسوله**، وتكمن المعضلة الأساسية في هذا التاريخ ــ من وجهة نظر جواد علي ــ ومعه تاريخ النص الديني وسيرة الرسول منها، في فقدان الوثائق التاريخية التي يمكن الاستناد اليها في التدوين، ويفتقر المؤرخون ــ أيضاً ــ في أبحاثهم إلى وجود نصوص تعود إلى زمن الدعوة الإسلامية الأولى في القرنين السادس والسابع الميلاديين، لها علاقة بسيرة الرسول ﷺ وبكيفية انتشار الإسلام في تلك المرحلة.

ويعتبر ــ جواد علي ــ أن أخطر ما في موضوع الكتابة التاريخية هو فقدان ما جرى تأليفه حول السيرة النبوية في العصر الأموي، وقد فقدت أصول كل ما أُلف في العهد الأموي، وفي جملة ذلك ما أُلف في سيرة الرسول، ولم يبق منها غير اقتباسات ونتف؛ تجدها في بطون كتب السير والمغازي، وفي بطون كتب التواريخ والأدب، وقد اعتبر هذا الفقدان للأصول التاريخية هو الممر والمنفذ للكتابات البعيدة عن الواقع والسبب في اختلاق التاريخ المزور الذي ينوء بحمله المسلمون حتى الآن بسبب كثرة الأكاذيب والتضليل فيه، وروح التعصب الطائفي التي سجلت بعد ذلك متغيرات التاريخ الإسلامي، يعبر عن ذلك فيقول: "وقد أجهد المؤرخون أنفسهم في البحث عن نصوص مكتوبة تعود إلى القرنين السادس والسابع الميلاديين، فلم يعثروا على نص مدون بأي لغة له علاقة بسيرة الرسول وبكيفية انتشار الإسلام في زمنه، وكل ما وصل إلينا هو مما يعود إلى انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى، فهو إذن من النوع المتأخر".[(١)]

هذا التشكيك تارة يتذرع بكون مرويات هذه الكتب تخالف القرآن الكريم، وتارة باختلافها حول الحدث الواحد، وتارة بزعم تأخر تدوين هذه الكتب وتارة أخرى باتهام مصنفيها بالكذب والتدليس والعمالة للأمويين..!، وجوابا عن فقدان الأصول التاريخية والمراجع الموثوق بها لكتابة سيرة الرسول محمد ﷺ، ورداً على اتهامات المؤرخين غير المسلمين، يرى ــ الدكتور جواد علي ــ أن هناك كتاباً ثابت الصحة يعود إلى الزمن الإسلامي الأول، أي القرآن، فهو الكتاب الوحيد يُسلِّم العرب والمسلمون بصحته ويعتمدونه المرجع الأساس في معرفة العقائد وبوصلة الهداية الدينية، لأن الأحاديث النبوية التي يصنفها المسلمون مرجعاً أساسياً في الدين الإسلامي خضعت للكثير من التأويلات والتشويه الناجم عن اختراع الفرق

---

(١). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ١٨.

والقوى السياسية المتصارعة بعد وفاة الرسول ﷺ، لذا يبقى القرآن المرجع الوحيد يمكن الاعتماد عليه في تدوين سيرة الرسول ﷺ من دون تلفيق ولا تزوير ـ حسب زعمه ـ فالرسول ﷺ نبي وبشر مثل سائر البشر، وهو لا يختلف إلا في النبوة ونزول الوحي عليه.

فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] وعلى هذه الآية وبوحيها يجب السير في تدوين السيرة النبوية وتأريخها، ولو سار المؤرخ بموجبها وبموجب وحي آيات القرآن الأخرى، لجنب نفسه الوقوع في المزالق والمآخذ، وجعل السيرة النبوية سيرة حية: سيرة نبي مرسل بالمعنى الإسلامي الصحيح الذي نجد روحه في الآية المذكورة، ولو جنب أصحاب السير المتأخرون سيرهم القصص الاسرائيلي الذي أدخل على السيرة وعلى الإسلام، الذي لا يتفق مع هذه الآية ومع أحكام القرآن، لأراحوا السيرة وجنبوا الناس الأخذ بهذا القصص الذي بنى عليه المستشرقين أحكاماً وآراء أساءت كثيراً إلى الإسلام، وأرادوا بها التشكيك بصاحب الرسالة وبالمسلمين".[(١)]

ونحن نتفق مع جواد علي في اعتبار القرآن الكريم المصدر الأوثق للسيرة النبوية، بحيث يرد كل ما يعارضه مما ورد في مصادر السيرة الأخرى، لكن لا نتفق معه في منهج التشكيك هذا الذي اعتمده بإطلاق، وحاول به نسف مرويات السيرة، لأن ما تذرع به لا يكفي للطعن فيها، إذ إن اختلافها حول الحدث الواحد؛ والتناقض فيما بينها لا يعني ردها كلها، بل فيها الصحيح والضعيف والراجح والمرجوح، فنقبل الأول ونرد الثاني وفق قواعد المحدثين، هذا إذا تعذر الجمع فيما بينها، بوجه من الوجوه، أما إذا أمكن ذلك فالجمع مقدم على الترجيح كما هو معلوم عند أهل الشأن.

هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم لم يعرض لكل أحداث السيرة، بل عرض لبعضها فقط، أما تفاصيل الأحداث فمظنتها كتب الحديث والسيرة النبوية، ولو سلمنا بدعوى ـ جواد علي ـ لافتقدنا كثيرا من أحداث السيرة، وكثيرا من تفاصيلها، وإذا كان القرآن يشكل المرجع الأساس في كتابة التاريخ العربي والإسلامي وعلى الأخص منه سيرة الرسول ﷺ، فإن ـ جواد علي ـ ينبه إلى التشويه الذي أصاب القرآن على يد المسلمين أنفسهم، من خلال تفسير الكثير من

(١). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ١٠٩.

آياته بما يناقض الحقائق الدينية والإنسانية التي قال بها، بل ويؤكد على ضرورة مناقشة الحوادث التاريخية وسيرة الرسول في ضوء القرآن[١]، وأن يفهم المؤرخ الحادث من منابعه ومجاريه، وأن يتقصاه ويفهم روحه من فهم الإسلام له.[٢]

ثالثاً: موقف الكاتب من االمعجزات والخوارق:

يقول جواد علي إن: "النبي العربي هو "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وهو عبد الله ورسوله، ونبي وبشر مثل سائر البشر، وهو لا يختلف إلا النبوة ونزول الوحي عليه فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]

وانطلاقاً من هذه الرؤية يتحدد موقف ـ الدكتور جواد علي ـ مما ألحق بالرسول ﷺ من كتابات حول الخوارق والمعجزات التي أتى بها، فهو يرى أنها روايات مخالفة لما جاء في نص القرآن الكريم عن الرسول ﷺ، ولحديث الرسول ولروح الإسلام، ثم إن القرآن الكريم كتاب إلهي، نزل هادياً ونذيراً، ولم ينزل ليعلم الناس الكيمياء والفيزياء والطب وما إلى ذلك من علوم[٣]، وهذا هو الموقف بشكل عام، أما تفصيلياً فلم يتسن للدكتور جواد علي التعليق لأن بحثه لا يغطي سوى جزء يسير من حياة النبي ﷺ، ولكن ثمة موقف تفصيلي تبدو هذه الرؤية فيه بشكل واضح وسافر، إنه الموقف تجاه ما يعرف بأصحاب الفيل واندحارهم وهزيمتهم، فقد رد ذلك إلى انتشار وباء خبيث بين الجيش فتك فيهم وأهلك أكثرهم واضطر الناجون منه المتغلبون عليه إلى الفرار، وكان ذلك في السنة التي عرفت عند مكة بـ (عام الفيل).[٤]

وفي مجال التعليق على هذا الموقف نتساءل: لماذا يعدل الدكتور جواد علي عن ظاهر القرآن الذي هو سنده الأول في فهم تاريخ الإسلام وأحوال العرب قبل الإسلام؟! فهل تحدث القرآن عن وباء خبيث، وهل ثمة معطيات تاريخية عثر عليها جواد علي عدلت به عن الاخذ بهذا الظاهر؟! اعتقد ـ والله أعلم ـ أن هذا التفسير يخالف رؤيته ومنهجه باعتماد القرآن الكريم

---

(١). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ٤٣.

(٢). نفس المرجع، ص ٤٥.

(٣). نفس المرجع، ص ٤٧.

(٤). نفس المرجع، ص ١٠٧.

فقط؟! ولكنه يعتمد العقل فيرد ما لا يقبله عقله أو يستسيغه.. والغريب أن هذا التفسير الذي تبناه جواد علي هو نفسه عابه داخل جملة ما عابه على من يفسر القرآن بالأهواء أي ما يطلقون عليه الطريقة العصرية للموافقة بينه وبين العلم الحديث؟!

وهذا ميدان زلت فيه أقدام كثير ممن كتب في السيرة النبوية في هذا العصر، وكان من أبرز من تولى كبر ذلك رواد المدرسة العقلية الحديثة، أو ما يمكن تسميته بالاتجاه التوفيقي في كتابة السيرة النبوية، وهو الاتجاه الذي حاول التوفيق بين معطيات الدين الإسلامي ومعطيات الحضارة الغربية الحديثة، ولقد كانت مسألة المعجزات من أكثر قضايا السيرة النبوية التي برز فيها هذا الاتجاه، تارة بإنكارها وعدم ذكرها أصلاً، وتارة بالتشكيك فيها، وتارة أخرى بتأويلها حتى تصبح من قبيل المألوف، فالطير الأبابيل تؤول بالجراثيم والملائكة التي أمد الله تعالى بها المؤمنين في غزوة بدر تفسر بالمدد المعنوي ورحلة الإسراء والمعراج تؤول بوحدة الوجود وسياحة الروح، بل إن بعضهم أوَّل المعجزات النبوية كلها على أنها ضرب من الحظ الذي رافق النبي ﷺ.[(١)]

واعتبر هؤلاء القرآن الكريم المعجزة الوحيدة والقطعية التي تثبت نبوة محمد، وحتى هذا الاعتبار من هؤلاء فيه نظر، إذ حتى المعجزات و الغيبيات التي أوردها القرآن الكريم كالإسراء والمعراج ومدد الملائكة يوم بدر أعملوا فيها التأويل العقلي حتى توافق المألوف، وتساير العقلية الغربية، فهذا الشيخ رشيد رضا وهو من أشهر تلاميذ الشيخ محمد عبده ومن رواد هذه المدرسة يرى أنه لولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال الأحرار عليه أكثر واهتداؤهم به أعم وأسرع؟! ويرى كذلك أن العجائب الكونية والمقصود بها المعجزات النبوية هي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها إضافة إلى أنها من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر؟![(٢)]

وقد سرت عدوى هذا الإنكار والتعسف في التأويل إلى كثير ممن كتبوا في السيرة النبوية من المحدثين المعاصرين، ولعل أبرز من يمثل هذا الاتجاه الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة الفيل، الذي جوز أن تكون الطير الأبيل هي ما يسمى اليوم بالميكروبات، كما جوز أن تكون

(١). فهد عبد الرحمن الرومي: منهج المدرسة العقلية في التفسير، جـ٢، ص ٥٤٥ ـ ٥٩٦.

(٢). محمد رشيد رضا: تفسير المنار (الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة المنار، ١٣٦٩هـ) جـ١١، ص ١٥٥.

الحجارة هي جراثيم بعض الأمراض، وذلك حتى يجعلها أمراً مألوفاً تستسيغه أذهان من لا يؤمنون بالخوارق والمعجزات(١)، وكذلك الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه: (حياة محمد)، وممن سار في ركاب هيكل منهم شيخ الأزهر الأسبق عبد الحليم محمود الذي ترجم كتاب: (محمد رسول الله) للفرنسي المسلم إيتين دينيه، وعلق على بعض كلامه قائلا: "على أن بعض المعجزات التي تنسب إلى محمد ليست من نصوص القرآن وإنما قد نسبها إليه مؤرخو العصور المتأخرة تقليدا للمعجزات التي تنسب إلى المسيح فهي ليست من الدين في شيء؟!" (٢)، ومنهم عبد المنعم ماجد الذي كتب يقول: ".. لكن محمداً لم يرض أن ينسب إليه معجزة غير معجزة نزول الوحي عليه من قبل الله فكان يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٣]، ومع ذلك لم يحل رفض النبي الإتيان بالمعجزات من أن ينسب إليه صفات خارقة، فبعضهم يؤكد أنه حين ولادته خرج نور أضاء الشام وأنه وهو صغير شقت الملائكة بطنه وغسلوا قلبه بالثلج.. وأيضا فسروا سورة الإسراء بأن الله رفعه إلى السماء، وأنه قطع رحلة سماوية في بضع ساعات من الليل".(٣)

ومحمد جميل بيهم في كتابه: (تاريخ فلسفة محمد)، وتحت عنوان: (هل قام الإسلام على المعجزات) يقول: "..الواقع أن ثقات العلماء من المسلمين كابن رشد في كتابه: (مناهج الأدلة) أجمعوا على أن محمدا كان في دعوته إنما يعتمد على الإقناع والإيمان، وكان كما وصفه حسين هيكل في كتابه حياة محمد حريصا على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن؟! وأنكر هؤلاء الثقات على أمثال البيهقي وأبي نعيم والقاضي عياض تكديسهم المعجزات فيما وضعوه من أسفار(٤)، وكان استناد هؤلاء الثقات

---

(١). محمد عمارة: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده ، جـ٥، ص ٥٢٨ ــ ٥٢٩.

(٢). ناصر الدين دينيه: محمد رسول الله ﷺ، حاشية ص ٦٢.

(٣). عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية (الطبعة السابعة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢م) جـ١، ص ١٠١.

(٤). أما هؤلاء الذين ذكرهم الكاتب وأنكر عليهم تكديس المعجزات فيما وضعوه من أسفار كأبي نعيم والبيهقي والقاضي عياض فهم علماء ثقات مشهود لهم بالعلم والعدالة، وإذا كانت كتبهم التي ألفوها في دلائل النبوة قد شابها الضعيف والموضوع ،فإن الصحيح فيها هو الغالب، والمنطق السليم يقضي بأن نميز هذا عن ذاك، لا أن نلغي الكل جملة وتفصيلاً.

يقتصر على القرآن الذي بين أيدينا وعلى الحديث الصحيح وهما وحدهما المرجع في هذا الشأن والحكم"[١]، وليت هؤلاء ـ جواد علي منهم ـ يصدقون في هذه الدعوى، فقد تضمن القرآن الكريم الإشارة إلى بعض المعجزات، كالإسراء وانشقاق القمر والإخبار بالغيبيات، وحفلت كتب الصحاح وعلى رأسها البخاري ومسلم بالأحاديث الوفيرة عن معجزاته ﷺ، فإذا كان القرآن الكريم والحديث الصحيح هما حقا مرجع هؤلاء الثقات في هذا الشأن فلا سبيل إلى إنكار ما ورد فيها من معجزات أو التعسف في تأويلها بما لا يقبله الشرع.

فهل صحيح ما ادعاه ـ جواد علي ـ أن الرسول كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة؟! إذن لكان نهى أصحابه عن رواية الأحاديث التي تشير إلى ذلك، ولوصلنا ذلك النهي، كما وصلتنا نواهيه الأخرى، ولما وصلتنا تلك المعجزات إطلاقا، فلما لم يصلنا من ذلك النهي شيء ووصلنا من معجزاته الشيء الكثير، تبين لكل عاقل أن كلام هيكل الذي تبناه الدكتور جواد علي مجرد دعوى لا تستند إلى دليل.

رابعاً: قدرة الكاتب على مناقشة المستشرقين وإفحامهم:

من الأهمية بمكان الإشارة والإشادة إلى أن من أهم ما يلاحظه الناقد على كتاب الدكتور جواد علي هو عنايته الشديدة ومتابعته الجادة لمقولات المستشرقين في حقل السيرة النبوية، وقد بذل جهدا مشكوراً في الحديث عن تاريخ الاستشراق ودوافعه والاخطاء المنهجية التي ارتكبها المستشرقون، كما ناقش بشكل تفصيلي مقولات عدد منهم من أمثال: (شبرنكر، وكيتاني) وغيرهما، وكانت مناقشاته غاية في الدقة، ترتكز إلى محاكمات علمية وموضوعية، وتكشف عن احاطة تامة بواقع المستشرقين من جهة، وحقائق التاريخ من جهة أخرى، وانتقد ـ جواد علي ـ أساليب المستشرقين في تناول السيرة النبوية، وذكر أنهم اجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة، وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول ﷺ، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي ﷺ، وطريقة مثل هذه دفعتهم إلى الاستعانة بالشاذ والغريب فقدموه على المعروف المشهور، واستعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً أو كان من النوع الذي استغرب النقدة وأشاروا إلى نشوزه، وتعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ، هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك.[٢]

---

(١). محمد جميل بيهم: تاريخ فلسفة محمد (بيروت، الدار الجامعية، د.ت) تقديم: حسان حلاق، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٨.

(٢). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ١٣.

يشير ــ جواد علي ــ الى النظرة السائدة عن الاسلام بوصفه ديناً عاجزاً عن مواكبة الحضارة والعصر، ومسؤولاً مسؤولية مباشرة عن تخلف المجتمعات العربية والاسلامية، وبقائها أسيرة التقاليد والموروثات الخارجة عن التاريخ، تتركز هذه النظرة لدى المستشرقين والكتّاب الغربيين، الذين يصدرون عن نظرة عنصرية أكثر منها قراءة موضوعية للإسلام وعلاقته بمجتمعاته، لكن الدكتور جواد علي لا يهرب من تحميل التاريخ العربي والإسلامي والأشكال التي كتبت به، من بعض المسؤولية عن النظرة السائدة حول تاريخ العرب في الإسلام، ويمكن اعتبار الحياة العلمية لجواد علي محاولة مستمرة للوصول إلى التاريخ العلمي إذا جاز التعبير أي التفسير الذي لا يأخذ بالعصبيات في تفسير الوقائع ولا بالطائفيات أو القوميات في الحكم عليها، وملخص فلسفته العامة كما في كل كتاباته هي أن المجتمعات عموماً والعربية الإسلامية خصوصاً تكوينات إنسانية تعتمد في تحققها وصيرورتها على انتاجها الروحي والمادي، وأن العلاقات التي تنشأ في ظروف الانتاج هذه هي التي تصنع قوانين التاريخ بالتظافر مع المؤثرات الخارجية، ومن الملامح المنهجية الأخرى الترابط في كتاباته في تأثير الطبيعة على تاريخ المجتمع خاصة في البيئة العربية الصحراوية التي تفاعلت مع بقية العوامل في انتاج الثقافة والحياة العربية والإسلامية.

لقد كانت الضرورات المنهجية الحاكمة في ذهن الدكتور جواد علي متطابقة مع الضرورة الفلسفية والأخلاقية التي يراها في ضرورة بناء التاريخ في العقل العربي والاسلامي كمصفوفة متكاملة تؤرخ لكفاح الإنسان العربي المسلم في سبيل الحياة الحرة الكريمة.

خامساً: <u>تفرد الكاتب في الكتابة عن تاريخ العرب قبل الإسلام</u>:

إن خبرته وتمرسه في التاريخ وتضلعه فيه جعلاه متفرداً في تحقيق عدد من المسائل المهمة شديدة الصلة بتاريخ النبي ﷺ وسيرته، وبخاصة تلك التي تنتمي إلى عصر ما قبل الإسلام، فقد تحدث بإسهاب غير مخل عن مكة وأحوالها الدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، كما تحدث عن رجالها ممن اسهموا في تدعيم موقعها ايضاً.

وفي هذه المسألة بالذات كان ــ جواد علي ــ منهجياً للغاية، في تمايز واضح عن كتاب السيرة المتأخرين في ذلك، فقد أماط اللثام عن مصادره وموارده التاريخية بشكل تفصيلي، لتكون صوره التاريخية التي ينحتها مرهونة بصحة هذه الموارد والمصادر، وبعضها كما نعرف وهو

ما أشار إليه جواد علي من مرويات الإخباريين، وهي مرويات لا يمكن الاطمئنان إليها بنسبة يعتد بها منهجياً، يقول: "ولسنا نملك مرجعاً نرجع إليه للوقوف على أحوال مكة في هذا العهد إلا القرآن الكريم والحديث وكتب التفسير والسير، أما موارد كتابية ونصوص مدونة من أيام الرسول، فلم يصل منها إلينا شيء حتى الآن، وأما ما قبل ذلك، فلم يرد فيها عن مكة شيء، لم يرد منها أي شيء عثر عليه في الحجاز ولم يرد أي خبر في المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى، ولهذا لا نعرف من شأن مكة شيئاً ورد في نصوص مكتوبة في أيام الجاهليين ونحن لا يعنينا هنا من تاريخ مكة إلا ما كان له صلة بتاريخ الإسلام وبالأيام التي ولد فيها الرسول، أما قبل ذلك فليس له شأن في هذا المكان ولهذا سنطوي الحديث عنه آسفين ولمن يريد العلم به أن يرجع إلى الكتب الأخرى فقد تكون فيها فائدة للمستزيد".[1]

وهذا ما يظهر في حديثه عن قصي وهاشم وعبد المطلب ووالد الرسول ﷺ، وفي حديثه عن بعض المظاهر الدينية من قبيل التحنث[2]، بل إن ذلك مما ينطبق على أخبار أبي طالب عم الرسول ﷺ، الشخصية القريبة إلى عهد الإسلام[3]، فكانت تفسيرات ـ الدكتور جواد علي ـ لعدد من المقولات التاريخية معقولة وبعيدة عن المغالاة، ويظهر ذلك في تفسير حلف الفضول والدوافع التي أفرزته، حيث يقول: "ويظهر من دراسة الأصول القديمة لروايات حلق الفضول أن الحاجة إلى الأمن والاستقرار بعد تلك الحرب ـ يقصد حرب الفجار ـ هي التي دفعت قبائل من قريش إلى الاجتماع في دار عبد الله بن جدعان، للتفاوض في أمر إحلال الأمن والسلام في مكة، وحياة أهل مكة على الوافدين إليها من الحجاج والتجار، وأن الذي دعا إلى ذلك نفر من قريش، وأن الذي تزع الدعوة وتبناها وجمع بين الرؤوساء هو عبد الله بن

(١). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ٥٣، و ص ٥٥.

(٢). نفس المرجع، ص ٥٧ وما بعدها.

(٣). نفس المرجع، ص ١٥١ وما بعدها.

جدعان من أثرياء مكة".[١]

وفي تفسيره ـ أيضاً ـ لما تناقله أهل الأخبار في ظاهرة الأحناف، وقد أكد على أنها قناعات شخصية لم تتجاوز حدود الذات، فيقول: "وقد اكتفى الأحناف، على ما يظهر من روايات أهل الأخبار، بالابتعاد عن المجتمعات وبالنفرة من تقديس الأوثان، فلم يتقربوا إليها، واكتفوا بذلك ورضوا بعقيدتهم هذه وباقتناعهم بفساد معتقدات قومهم، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الجهر بآرائهم والمناداة بها علناً في المحلات العامة، ظلوا على ذلك إلى مماتهم".[٢]

وعلى هامش تحقيقاته التاريخية المعمقة اشتمل بحثه على استطرادات لا تقل عن تحقيقاته روعة ودقة، ومن ذلك إشارته إلى القصص الاسرائيلي الذي أسهم مسلمة أهل الكتاب في ادخاله إلى التراث، وتعمدهم الكذب على التوراة والانجيل على سبيل التودد الى المسلمين والتقرب اليهم، كما أشار إلى ظاهرة ربط أكثر سند القصص الاسرائيلي بابن عباس ـ وهي ظاهرة جديرة بالبحث والدراسة ـ والغريب أننا نجد في معظم الأحيان أن رواة هذا القصص الذين رووا أنهم سمعوه من فم ابن عباس، وأنهم أخذوه منه، هم مسلمة يهود، فهل يعقل أخذ هؤلاء قصصهم من ابن عباس؟! ثم ما الذي ربط بين القصص وابن عباس؟! وهل كان ابن عباس راوية حقاً لهذا القصص الاسرائيلي؟ ومن أين جاء به؟ وهل كان ابن عباس من القارئين للعبرانية وللسريانية ولكتب اليهود والنصارى؟![٣]

كما أشار إلى شخصية ورقة بن نوفل وقيمة الروايات التي نقلها أهل الأخبار في شأنه كما أشار إلى دور عداس النينوي الذي يرد ذكره في السيرة في هجرة النبي ﷺ إلى الطائف وحادثة نزول الوحي حيث أعطت له بعض المرويات في هذا الصدد دور ورقة بن نوفل[٤]، وعدد آخر غير قليل من هذه الاستطرادات التي أشار إليها في مواضعها من الكتاب.

(١). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام "السيرة النبوية"، ص ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢). نفس المرجع، ص ٧١.

(٣). نفس المرجع، ص ٤٩.

(٤). نفس المرجع، ص ٢٠٨.

ومع ذلك فقد يكبو الجواد، فقد تناقض باحثنا في كتابه: (تاريخ العرب قبل الاسلام) غير مرة، نشير إلى موقفه من أبي طالب فقد ذكر أن جوابه للرسول حين دعاه إلى الإيمان به وهجر الأوثان وترك عبادة الأصنام كان: "أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله، لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت" أو هو قال: "هذا حسن، ولكن لا أفعله أبداً، إني لا أحب أن تعلوني أستي"، أو هو قال أيضاً: "أما دين آبائي فان نفسي غير مشايعة على تركه وماكنت لأترك ما كان عليه عبد المطلب، ولكن انظر الذي بعثت به فأقم عليه، فو الله لا أسلمتكما ما كنت حياً حتى يتم الذي تريد"(١)، وكان قد ذكر في مورد آخر أن عبد المطلب كان أول من تحنث بحراء، مما يؤكد على أنه لم يكن يدين بعبادة الأصنام كما هو المشهور عند الإخباريين(٢)، وإذا اختلف رموز هذا الاتجاه في رؤاهم الفكرية وهمومهم الثقافية، فلا شك أنهم يجتمعون في اختيار ما يسمى بالمنهج العلمي العلماني؛ إن استجابة لصرعة العصر أو اقتناعا منهم بمقولاته، وأنهم يجمعون على التصدي لمحاولات المستشرقين خاصة تلك المحاولات السافرة والدنيئة، إنه التصدي المنطلق من القناعة بالإسلام فكراً وحضارة وإن نأى بعضهم عنه التزاما.

سادساً: جواد علي وموارد تاريخ الطبري في السيرة النبوية:

بتكليف من إدارة المجلة العربية الصادرة في الرياض، قام محمد بن صامل السلمي أستاذ السيرة النبوية بجامعة أم القرى، بوضع تقديم للمقالات التي كتبها جواد علي تحت عنوان: (موارد تاريخ الطبري)، ونشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي، على أربع حلقات متباعدة من: سنة ١٣٦٩هـ إلى: سنة ١٣٨٠هـ، وما يهمنا هي الحلقة الثالثة وقد خصصها ـ جواد علي ـ لموارد تاريخ الطبري في تاريخ العرب قبل الإسلام **وفي موارده في السيرة النبوية**، والتي نشرها في الجزء الأول من المجلد الثالث لسنة ١٣٧٣هـ وتقع في إحدى وأربعين صفحة، من: صفحة ١٦ إلى: صفحة ٥٦، وها أنا أنقل بعضاً منها:

كتب السلمي فقال: "أما قسم السيرة النبوية فقد بدأه بالحديث عن تدوين السيرة والرواة الأوائل الذين أسهموا فيها من أمثال: عروة بن الزبير، وأبان بن عثمان، وشرحبيل بن سعد،

(١). جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام " السيرة النبوية"، ص ٢٢٣.

(٢). نفس المرجع، ص ٧١.

وعاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وموسى بن عقبة، وسليمان بن طرخان، ومعمر بن راشد، وقد دخلت روايات هؤلاء إلى تاريخ الطبري عن طريق السيرة لابن اسحاق، ومغازي الواقدي، وطبقات ابن سعد، وروايات أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي.

ثم قدَّم دراسة تحليلية لموارد الطبري في السيرة النبوية بالعودة إلى هذه الأسماء، والتعرف على مشايخهم وتلاميذهم وكيفية انتقال مروياتهم، وطريقة الدكتور جواد هي الاستطراد والمتابعة للأحداث والرواة، فنجده في أثناء حديثه عن مرويات عروة بن الزبير يذكر مرويات ابنه هشام، وأن الطبري أخذ أخبار هشام في الردة عن طريق سيف بن عمر التميمي.

ثم يبسط الحديث عن سيف بن عمر ومروياته في الردة، والأحداث والفتن، مثل فتنة ابن سبأ، ومقتل عثمان، ومعركة الجمل، ويشير إلى أن الطبري اعتمد رواية سيف في الموضوعات وفضلها على رواية الواقدي".[(١)]

---

(١). جواد علي: موارد تاريخ الطبري (الطبعة الأولى، الرياض، سلسلة كتاب العربية: ٤٢، ١٤٣٣هـ) ص ٣٩.

علي الوردي[1] وكتابه وعاظ السلاطين:

أصدر علي الوردي كتابه: (وعاظ السلاطين) قبل أكثر من خمسين عاماً من الزمن؛ يدور الكتاب حول إطار البحث الاجتماعي ـ التاريخي وفهم الطبيعة البشرية المترفة؛ وكذلك تحليل لبعض الأمور ذات الطابع الاجتماعي، ويتناول الكاتب فيه أحداث التاريخ الإسلامي على ضوء المنطق الحديث ـ حسب زعمه ـ وموقف قريش من دعوة الرسول ﷺ وتطورات المفاهيم الاجتماعية بعد ظهور الدين الإسلامي وأثره على قريش وما تلاها من صراع على الخلافة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ ـ حسب تعبيره ـ وأيضا مقتل عثمان بن عفان ﷺ وما رافق مقتله من خلاف ما بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، مما أدى إلى قيام خلاف سرعان ما تطور إلى صراع قائم بين السنة والشيعة إلى يومنا هذا حول هذا الأمر، وقد أثار الكتاب ضجة كبرى في حينه وأخذت تلك الضجة أشكالاً عديدة بالرد، فصدر ما يزيد عن خمسة كتب ترد على هذا الكتاب عدا المقالات، يقول الوردي: "وقد قرأت هذه الكتب والمقالات بإمعان، ولعلني أعدت قراءة بعضها أحياناً، ويحتم علي الواجب أن أشكر أصحابها على ما تجشموا من عناء البحث، وأخص بالشكر منهم: السيد محمد صالح القزويني، والأستاذ عبد المنعم الكاظمي، والسيد مرتضى العسكري، فقد وجدت في كتبهم كثيراً من الالتفاتات القيمة والآراء الصائبة، ولست أدعي أني أصح منهم فكراً، فالحكم في هذا أمر صعب، وليس لدينا مقياس عام يقبل به الجميع لنحتكم إليه، والمستقبل هو الذي سيكشف عن مبلغ الصواب في تفكير كل فريق، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد:١٧]".[2]

---

(١). ولد علي بن حسين بن محسن بن هاشم أبي الورد البغدادي في الكاظمية سنة ١٩١٣م، عيّن مدرّسا في كلية الآداب سنة ١٣٧٠هـ، ثم رقي إلى أستاذ مساعد سنة ١٣٧٣هـ، ثم أردفه بعد تسع سنوات بلقب الأستاذية سنة ١٣٨٢هـ، ليمنح بعدها لقب أستاذ متمرس من جامعة بغداد سنة ١٣٩٠هـ، واعتزل التدريس في نفس العام منصرفاً إلى الكتابة والتأليف، قضى العقد الأخير من حياته في شبه عزلة، وأصابه مرض عضال؛ حتى وافته المنية في ١٩٩٥/٧/٣م. انظر: مير بصري: أعلام الأدب في العراق الحديث، جـ٢، ص ٥٥٠، وعلي طاهر الحلي: علي الوردي، جهوده الفكرية وآراؤه الإصلاحية (رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ١٤٢٧هـ) ص ١٨.

(٢). علي الوردي: مهزلة العقل البشري (الطبعة الثانية، لندن، دار كوفان، ١٩٩٤م) ص ٨، وص ١٩.

أولاً: تأويل الوردي في تعامل الرسول ﷺ مع قضية الفقر:

يقول علي الوردي في كتابه الآنف الذكر حول معالجة الرسول ﷺ للفقر والتفاوت الطبقي: "لقد حارب محمد أغنياء قريش وحارب معهم الربا والاستغلال والاستعباد، ونجح في القضاء على ذلك إلى حد بعيد، وقد أمر في سنيه الأخيرة أن تصادر جميع الأموال التي استثمرت في الربا حيث لم يُبق في أيدي أصحابها إلا رؤوس أموالهم التي بدأوا بها أعمالهم في أول الأمر، ولا يخفى أن هذا العمل الذي قام به النبي لم يقض على الملكية نهائياً، إنه كان قضاءاً مؤقتاً، إذ كان اللازم أن تستمر تلك السياسة المحمدية بعد موته وتُتخذ إزاءها الاجراءات الايجابية التي تقتضيها الظروف المستجدة جيلاً بعد جيل، قضى محمد على الاغنياء في عهده، فنشأ بعده اغنياء من طراز جديد، وذلك نتيجة انهيال الغنائم على المسلمين بعد فتح الممالك، وهؤلاء الاغنياء الجدد لم يتعاطوا الربا على صورته التي حرمها محمد، إنما ابتكروا لهم طريقة جديدة، فهم لم يُقرضوا أموالهم بالربا كما كان يفعل أغنياء مكة، بل استثمروا أموالهم على شكل آخر لم يأت فيه تحريم.

وظن المسلمون الأولون أن النبي كان يقصد بتحريم الربا القضاء على الربا بحد ذاته، والواقع أن النبي كان يريد بتحريم الربا القضاء على الاستغلال وتكديس الثروات في أيدٍ قليلة، **فتحريم الربا كان وسيلة لا غاية، ولكن المسلمين الأولين، سامحهم الله، اعتبروه غاية.. كما يفعل اغنياء المسلمين في العصر الحاضر**[1]، ثم يمضي فيقول: إن كل تشريع هو عبارة عن وسيلة للوصول إلى هدف اجتماعي معين، والمشكلة أن الناس يهتمون بحرفية التشريع ويهملون روحه وهدفه الأساسي، أخذ المسلمون الأولون يستثمرون أموالهم الفائضة بطرق ثلاث:

الطريقة الأولى: شراء العبيد واستخدامهم في التجارة والمهن المختلفة وفرض نوع من الضريبة عليهم يؤدونها لهم كل يوم.

الطريقة الثانية: اعطاء الأموال إلى التجار في سبيل استثمارها ثم تقسيم الربح بين المعطي والمعطى إليه بنسبة معينة.

الطريقة الثالثة: البيع المؤجل، بحيث يقرض أحدهم بضائع إلى الناس بسعر أعلى من سعر

(١). علي الوردي: وعاظ السلاطين (الطبعة الثانية، لندن، دار كوفان، ١٩٩٥م) ص ٧٣.

السوق، وقد أطلقت السيدة عائشة على هذا البيع المؤجل اسم (الربا العاجل)، وكأنها اعتبرته تحايلاً على الشرع، وبهذه الوسائل وغيرها استطاع أغنياء المؤمنين أن يجمعوا من الثروات ما لم يكن يحلم بها أغنياء المشركين من قبل".[١]

ولمناقشة وتفنيد ما قاله الوردي بادئ بدء علينا أن نؤكد أولاً بأن نصوص الدين الصريحة، وقواعده العامة، تتضافر على تحقيق وحدة الأمة في ظل الإيمان الصادق والعدالة الشاملة، ونستطيع أن نرى مصداق ذلك نصوصاً في آيات القرآن الكريم وتطبيقاً في عهد النبوة وعصر الخلافة الراشدة، التي يصح اعتبارها امتداداً لعهد النبوة، فالإسلام جاء ليحقق فكرة التوازن في التوزيع بين الناس بفرض حق للفقراء في أموال الأغنياء، ورفع الظلم عن المظلومين، وبذلك يتحقق التوازن عن طريق توزيع الثروة بما يكفل للجميع العيش الكريم ــ اشتراكية المال حسب ما يُفهم من كلام الدكتور الوردي ــ وهذا بدوره ينعكس على الجانب الاجتماعي، ذلك ما فعله الرسول محمد ﷺ الذي قام أكثر الخلق ليطفئوا نوره ويضادوا دعوته ويعادوا أصحابه، ومن للناس يرد الأمور لنصابها، ويلغي الفوارق الطبقية..؟!، وقد اعتمد الرسول ﷺ مجموعة من المعالجات التي تؤدي إلى القضاء على الفقر، وتذويب الفوارق بين الطبقات، ومن هذه العلاجات: العمل، والزكاة، والصدقة، والجزية، والخراج ... الخ.

مما أدى إلى تقارب مستويات المعيشة، وهذا الانقلاب الذي حدث في المدينة المنورة أدى إلى تدهور نفسية الأغنياء ــ من غير المسلمين تحديداً ــ وما انطوت عليه من الغضب والحنق وذلك لأنهم وجدوا تغيراً كبيراً في الجهة الاقتصادية والاجتماعية، فهم يرون أن طبقة أغنياء المدينة المسلمين ينافسونهم في الثروة، وبالتالي فإن الأسلوب الجديد في العلاقات بين الأغنياء والفقراء ليشكل خطراً مباشراً عليهم؟!.

وقد تبينت مؤامرات تلك الطائفة الثرية التي كان يقودها عبد الله بن أبي سلول، فهو يحاول دائماً أن يبث الفرقة في صفوف المسلمين خاصة الأوس والخزرج، ولكن الرسول ﷺ استطاع أن يواجه هذه المؤامرات بحسن تدبيره الاقتصادي، وبالمعاني الروحية السامية التي غرست في نفوس مسلمي المدينة حتى آمنوا بها ونفوذها، واستطاعوا تدريجياً التغلب على أغنياء اليهود، الذين مازالوا سادة الحياة الاقتصادية بتملكهم مصارف الذهب والتجارة والزروع، فاستطاع النبي ﷺ

---

(١). علي الوردي: وعاظ السلاطين، ص ٧٤.

أن يجمعهم في وحدة ألفت قلوبهم مع المسلمين حين كتب (الصحيفة) ووقع عليها اليهود والمسلمون، إنه ﷺ ليريد أن يؤكد في كل القلوب دائماً أن القربى منه ليست سبباً للاستعلاء، وأن الإنسان بعمله..!!

ولما كان ــ ولا زال ــ الفقر من المشاكل العالمية المعقدة، وهو داء عضال يُقَوِّضَ صرح النظام الاقتصادي بين المجتمعات والشعوب، فقد جاءت الدعوة المحمدية بالعلاج الناجع لهذا الداء العضال، والمتأمل في نصوص الكتاب والسنة ومبادئ الدين الإسلامي وآدابه الحكيمة يراها قد أعلنت الحرب على الفقر، وسلكت في سبيل القضاء عليه جميع الأسباب، وأوصدت دون أضراره كل الأبواب، **وأن الإسلام جعل الإحسان إلى الفقراء والمساكين كفارة للخطايا والذنوب، فكفارة اليمين إذا ما حنث فيه الإنسان هي إطعام الفقراء والمساكين، وكذلك كفارة الظهار تكون أيضاً بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، وكفارة الإفطار في نهار رمضان تكون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين.**

إن الرسول ﷺ قد وضع أساس النظام الاقتصادي للمجتمع الإسلامي الجديد، وهذا النظام، وهذا النظام يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، فقد جعل للفقراء حقهم المعلوم في أموال الأغنياء، وجعل الزكاة ركناً من أركان الإسلام لا يقوم الدين بغيره، وأوجب الله الزكاة على المسلمين القادرين وحذر من كنز المال، وبين أن الإنفاق في سبيل الله هو التجارة الرابحة، وبهذا تكون مواجهة الفقر بالعمل وإخراج الزكاة والصدقة وغيرها، مما يحقق التوازن الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع، فالإسلام لا يحارب الفقر بدعوة الأغنياء والموسرين إلى البر والإحسان فحسب، ولكنه يحاربه ــ كذلك ــ بدعوة الفقراء إلى العمل، ونبذ البطالة والكسل، وبالعمل يكون العلاج السليم لمسألة الفقر، ويكون هذ الأساس الذي وضعه الرسول ﷺ لإصلاح المجتمع من الناحية الاقتصادية هو القضاء على الفقر، وتذويب الفوارق بين الطبقات، والتجاوب الكامل بين الأغنياء والفقراء كما بينا.

أما ما يزعمه علي الوردي في الطريقة الأولى من شراء العبيد واستخدامهم في التجارة والمهن المختلفة وفرض نوع من الضريبة عليهم يؤدونها لهم كل يوم، فهذا محض كذب واختلاق ولا أساس له من الصحة، فلقد بعث الله محمد ﷺ بشريعته التي تقضي على الأغلال والعبودية، وتهدي إلى النور الحق.

فقد كان باستطاعة الرسول ﷺ أن يمتلك العبيد والجواري ولكنه حررهم، وكان بإمكانه أن يقطن أعالي القصور ولكنه فضل العيش الخشن؛ والحياة البسيطة مما ألب عليه زوجاته رضي الله عنهن، فلو كان محمد ﷺ طالب لذة ـ كما زعم أعداؤه ـ لاستجاب لطلب نسائه، وتتمثل إنسانيته أيضاً في خوفه على قومه من أن يدب الشقاق بينهم، وقد قضى على الخلاف قبل البعثة حين أحسن التصرف في إشراك القبائل في رفع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة المشرفة، لقد حرر الإسلام في كتابه الحكيم الذي جاء به الرسول الأمين ﷺ المستضعفين في الأرض، ومحا الاستعباد السياسي والاجتماعي، وقرر مسؤولية الحاكم؛ وأنه خادم الشعب ولا طاعة له على أحد إذا خرج عن طاعة الله تعالى، وأن أول واجب عليه حماية دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم وألغى الألقاب ونظام الطبقات الجائر، وهدم الفروق الواسعة الظالمة بين الناس، أما مراحل التاريخ الإسلامي بعد ذلك، فإن بعض نظم الحكم لم تكن وفق مُثل الإسلام العليا، قد تقترب منها قليلا فتستريح الأمم وتهدأ أنفاسها، وقد تبتعد فتصاب الجماهير بالعنت، وربما كان المسلمون في ظل دينهم أحسن من غيرهم حالاً إلا أن ابتعاد الدين الصحيح عن الحكم في بعض الفترات ترك أثره في الأمة فقد اكتنفتها فتن مزعجة ومظالم دامية، وعملت هذه السياسات الغاشمة عملها في بعض الفترات، لكي تصرف المسلمين عن لباب دينهم، وتشغلهم بقشور خفيفة الوزن من تعاليمه، فأصبح علمهم بدينهم يكاد لا يتعدى الزبد الذي يذهب جفاء، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧] أما الحقيقة الخالدة التي تنفع الناس وتعمر بها أخلاقهم فقد فرطوا فيها.

أما قضية التعامل مع المال الحرام (الربا) فإن الإسلام يصل إلى رفع الإنتاج مع الحفاظ على الإنسانية، أما المذاهب المادية الصرفة فتزيد الإنتاج والربح وحدهما، ولقد أدى ذلك إلى بهيمية لا أول لها ولا آخر في عصرنا الحديث، وكما حدد الرسول ﷺ الموارد التي تعين على بناء الاقتصاد الإسلامي إعانة متوازنة سليمة، ذكر ما في الربا من مضار عظيمة، لا تضر بالفرد فحسب، ولكنها تعود بالضرر على المجتمع، ولذلك حرص الرسول ﷺ على بيان ما في الربا من إفساد للنظام الاقتصادي، وضرورة أن يقوم هذا النظام الاقتصادي على أسس روحية وخلقية تصل بالناس إلى السعادة فيأبى المسلم أن يرى أحداً شقياً أو محروماً.

وفي هذا المجال أرى لازماً علي أن أنقل كلاماً رائعاً للشيخ محمد الغزالي يصب في هذه المسألة حيث يقول: "ولا بد من كلمة تشرح جرثومة هذا النظام، السرف في المعيشة تجاوز الحد في النفقة وإجابة مطالب النفس كلها، سُئل أبو جهل: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسى رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه!! وحدث أن أبا جهل صافح النبي ﷺ فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟ فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لنبي ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا؟!

إنه كفر جحود واستكبار فلا غرو إذا قال الله في جزائهم: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٤] عيب هؤلاء أن تفكيرهم مادي حيواني ـ الأكثر مالا والأشد قوة هو الأجدر بالحياة والصدارة ـ ويستحيل أن يقوم على ذلك مجتمع أو تنهض حضارة، لذلك يرى القرآن وجود الطبقات المترفة، خطرا داهما لا يفتأ يتهدد الحياة الإنسانية، ويملأ مستقبلها بالغيوم والرُّجوم، ويرى أن تأمين الشعوب على سعادتها وحقها، يتطلب اتخاذ الوسائل الممكنة، للحيلولة دون الترف والمترفين، وقد ذكر القرآن أسباب عديدة لتسويغ هذه الخطة الحاسمة منها:

تقرير القرآن الكريم أن المترفين أعداء كل إصلاح، وأنهم خصوم الحق المتألبون ضده في كل زمان ومكان، تكاد لا تنبت دعوة للحق والشرف حتى ينأوا عنها متخذين نحوها صفة أحزاب "المعارضة" المعارضة الخسيسة التي تريد أن تكبت حديث الخير والعدل بحديث الثروة والمال، وتهجر مطالب العقل، المتطلع إلى الهدى، إلى مطالب الجوف المتكالب على الشهوات، وتهبط بطموح الروح إلى الحرية والكمال إلى حضيض المادة المتعلقة بالرفاهية الناعمة، والجمود البليد.

والمتأمل في حياة المترفين يجد أن حرصهم على ما هم فيه يغريهم بطلب المال من كل وجه، حَلَّ أو حَرُمْ، ذاك لا يهم، المهم هو كيف تستدام هذه المتع وتيسر أسبابها ولو على أنقاض المغصوبين والمحرومين، ثم هم يعبدون هذه الدنيا التي انغمسوا في فتنها وذاقوا حلاوتها، ومن هنا فقلما ينهضون إلى نصرة حق أو الدفاع عن عقيدة، أو التضحية من أجل مبدأ كريم، ولقد خشي النبي ﷺ أن تنغمس أمته في الترف، فتصرفها شهوات الدنيا عن رسالتها وتتهاوى

بها في موارد الردى، كان يحس أن الأزمات التي تمر بالمسلمين طارئة، وأن الدين الحق سيهزم العوائق التي تعترضه، وأن أتباعه المطاردين اليوم سيكونون رءوس الناس غدا فخطب يحذر المسلمين أن يفتتنوا بسعة الغنى وكثرة المال.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله فقال: "إنما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها !! فقال رجل: يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشر ؟!"، فسكت النبي ﷺ فقيل له "للرجل": ما شأنك؟ تكلم النبي ولا يكلمك؟! فرأينا أنه ينزل عليه الوحي فمسح عنه الرحضاء(١) فقال: أين السائل؟ ـ وكأنه حمده ـ فقال: "إنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل أو يلم(٢) إلا آكلة الخضراء(٣) حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت(٤) ورتعت.

وإن هذا المال خضرة حلوة فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل" أو كما قال النبي ﷺ "وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ويكون شهيدا عليه يوم القيامة".(٥)

ورسالات الإيمان والإصلاح، التي حمل لواءها الأنبياء وعلى رأسهم محمد صلوات ربي وسلامه عليه، تهدف إلى المساواة بين الناس، أمام إله واحد، يدين له الجميع بالطاعة، ويصدع الجميع بما يأمر به وينهى عنه ثم يساهم الجميع ـ على سواء ـ في إقامة صروح العدالة والفضيلة والدفاع عنه".(٦)

---

(١). العرق الذي يتصبب منه عند الوحي.

(٢). يعني أن الدابة قد يغريها الزرع الزاهر، فلا تزال تلتهم منه حتى تصاب بالتخمة فإما أهلكها الشره، وإما قاربت الهلاك لكثرة ما تناولت..

(٣). الدابة التي ترعى القليل وتهضمه وترمي فضلاته هي التي تنمو وتصح.

(٤). تخلصت مما في جوفها، والمثل المضروب في الحديث الشريف يفيد أن النهم في طلب الدنيا يعرض للهلاك، وأن الذين ينطلقون في عرض الحياة لا غرض لهم إلا التهام ما يقع في أيديهم واختزانه لأنفسهم قد يصابون بتخمة مالية قاتلة! إن الاكتناز قد يكون سبب الدمار، وإن للمال دورة اجتماعية يتداول بها هنا وهناك، فإذا احتبس دون اتمامها تعرض المجتمع لثورات غاضبة معطبة، كما يموت الحيوان أحياناً لاكتظاظ أمعائه، وعجزه عن تصريف ما لديه!

(٥). من حديث مطول صحيح، أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي في سننه وابن ماجه تحت رقم: ٢٣١٧ صحيح الجامع عن أبي سعيد الخدري.

(٦). محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية (الطبعة الثالثة، القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠٥م) ص ٢٩ ـ ٣٣.

ثانياً: تفسير الوردي لبعض أعمال الرسول ﷺ:

وفي موضع آخر من كتابه يورد ـ الوردي ـ كلاماً آخر أشد ضراوة من الذي قبله فيقول: "كان الإسلام في بدء أمره، ثورة كبرى على طغيان قريش، كما كانت المسيحية ثورة كبرى على طغيان القياصرة، إن دخول قريش في الإسلام أفاده من ناحية وأضرّ به من ناحية أخرى، فقريش جعلت من الإسلام دولة فاتحة منتصرة تعنو لها الرقاب، ولكنها جعلت منه في الوقت ذاته نظاماً للطغيان والفتح لا يختلف عما شهدنا من قبل في نظام القياصرة والأكاسرة، حاربت قريش النبي محمداً حرباً لا هوادة فيها، واضطهدت أتباعه اضطهاداً قاسياً، يقول المؤرخون: إنها حاربت محمداً من أجل آلهتها، والواقع أنها حاربت من أجل مصالحها ومنزلتها الطبقية وكرامتها القبلية، إنها ظنت بأن الدين الجديد سوف يقضي على الكعبة وعلى الحج وعلى الأسواق والتجارة.

كانت قريش القبيلة الوحيدة بين قبائل العرب كلها، فكانت تشجّع الحج وترعى الأسواق الأدبية والتجارية التي كانت تقام في موسم الحج، فنالت بذلك ثروة طائلة ومنزلة اجتماعية عليا، يقول الزمخشري: "كانت لقريش رحلتان، يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتهم آمنين، لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته، فلا يُتعرض لهم، والناس غيرهم يُتخطّفون ويُغار عليهم..."، جاء النبي محمداً أخيراً يسب أوثان الكعبة ويصلِّي باتجاه بيت المقدس، فرأت قريش في ذلك خطراً كبيراً على مصلحتها ومنزلتها، فحاربت الدين الجديد حرباً عنيفة من أجل ذلك، استطاع محمد في النهاية أن يدخل قريشاً في دينه الجديد، وساعده في هذا أمور ثلاثة:

١). **حول محمد القبلة من جهة القدس إلى جهة الكعبة،** ثم سن لأتباعه الحج إلى الكعبة باعتبار أنها بيت الله، فأصبح هدف محمد القضاء على أوثان الكعبة فقط، أما الكعبة ذاتها فبقيت مصونة مقدسة لديه.

٢). **شرع محمد لأتباعه شرعة الحرب واشهار السيف دفاعاً عن الدين،** وقد أدت هذه الشرعة الجديدة إلى انتصاره على قريش انتصاراً حاسماً، فالتفت إليه أنظار القبائل البدوية وأخذت تفد إليه أفواجاً أفواجاً.

٣). **أخذ محمد يتألف رؤساء قريش ويجذبهم إلى جانبه بشتى الوسائل،** فقد صار

يسميهم "المؤلفة قلوبهم" ويعطيهم من الغنائم حصة كبرى ويعيِّنهم في المناصب الجديدة والقيادات.

عندما فتح محمد مكة جاء إلى الكعبة فحطم أوثانها في نفس الليلة التي تلت يوم الفتح، واستيقظت قريش من نومها في الصباح التالي فوجدت أوثانها المقدسة مهشّمة في التراب بشكل مزرٍ، فلم تكترث لهذا المنظر الهائل، ودخلت في الدين الجديد فوراً، إن من المدهش حقاً أن نجد قوماً يحاربون النبي نيفاً وعشرين سنة من أجل أوثانهم ثم يرونها فجأة مطروحة في التراب وهي مهشمة، فلا يبالون ولا يحزنون.

إن هذه ظاهرة عجيبة، وهي تشير إلى أن قريشاً لم تكن مخلصة لأوثانها في محاربتها محمداً، إنها كانت بالأحرى مخلصة لمصلحتها وكرامتها، فلما وجدت مصلحتها مصونة وكرامتها موفورة في الدين الجديد، تركت آلهتها حالاً وانضمت إلى صفوفه...".(1)

ونحن بادئ ذي بدء نتفق مع ـ علي الوردي ـ تمام الاتفاق في تغلغل الدين الوثني في نفوس قريش، إضافة لإعلان الرسول ﷺ بطلان آلهتهم، وخوفهم أيضاً على مكانتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن لا بد من مناقشة المزاعم الذي أوردها الكاتب وتفكيكها واحدة تلو الأخرى:

١) تحويل القبلة إلى الكعبة:

في معرض رديِّ على ـ الوردي ـ أورد كلاماً جميلاً ومحبباً إلى النفس كتبه الشيخ محمد أبو شهبة في كتابه الرائع: (السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة) حيث كتب حول هذه المسألة فقال: "لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة أمره الله ﷻ بالتوجه إلى بيت المقدس، تأليفاً لليهود وتحبباً لهم للدخول في الإسلام، ولكن اليهود لم تثمر معهم هذه السياسة، واتخذوا من توجه النبي ﷺ إلى بيت المقدس ذريعة للطعن فيه فقالوا: يخالفنا ويتبع قبلتنا..؟! فآلم النبي ﷺ ذلك، وكان يحب أن تكون قبلته هي الكعبة قبلة أبيه إبراهيم ﵇، ومفخرة آبائه وأجداده، فكان كثيراً ما يرفع بصره إلى السماء داعياً وراجياً، وقد مكث على استقبال بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم أجابه الله تعالى على سؤاله، وحقق أمنيته فوجَّهه إلى الكعبة البيت الحرام،

---

(١). علي الوردي: وعاظ السلاطين، ص ١١٩ ـ ١٢١.

قال عز شأنه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤]، وبذلك تحقق للنبي ﷺ والمسلمين شرف التوجه إلى القبلتين.

وقد شنَّ اليهود ــ ومن ورائهم المنافقون ــ حملة دعائية ضد الإسلام وأكثروا من الطعن في النبي ﷺ والمسلمين بسبب هذا التحويل، ولهجوا بقالة السوء، مع علمهم من كتبهم أن هذا سيكون، وأن توجهه ﷺ إلى بيت المقدس لن يدوم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى موقفهم هذا في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٢ ـ ١٤٣].

ثم بين سبحانه وتعالى أن هذا التحويل كان بلاءً واختباراً ليتميز عند الناس المؤمنون المخلصون من الشاكين المرتابين، فقال جل جلاله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣].

ولما كان نسخ القبلة أول نسخ وقع في الإسلام، وقارنه إرجاف اليهود والمنافقين، أكَّد الله عز وجل الأمر بالتوجه إلى الكعبة في ثلاثة مواضع متقاربة، فقال سبحانه وتعالى أولاً: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة:١٤٤].

وقال ثانياً: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٩].

وقال ثالثاً: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ

﴿وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠]، وقد روى تحويل القبلة إلى الكعبة الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث.

ويتبادر في الذهن سؤال محيِّر **وهو لماذا أُمر المسلمون في البداية التوجه إلى بيت المقدس في صلاتهم؟!** إذن ـ لا شك ـ بأن في الأمر حكمة إلهية هامة.. نعدد بعضاً منها على سبيل التأمل والتفكر، ومن أراد التوسع فليعد إلى تفسير الآيات في سورة البقرة:

أ) كان الأمر في البداية لتحرير النفوس من الارتباط بالوطن ورموزه والقبيلة ومقدساتها، ولقد ارتبطت قريش بالبيت العتيق وكانت تمتاز على كل القبائل بسدانة هذا البيت المقدس.

ب) أراد الله أن يُمحص قلوب المؤمنين ﴿لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [البقرة:١٤٣] وينبغي أن تكون الأولوية في قلب المؤمن لطاعة الله ﷻ.

ج) كأنها لفتة للعرب ـ والله أعلم ـ الذين كانوا يعيشون في صحرائهم لا يعرفون شيئاً عن الأمم من الأخرى.. لأن يفتحوا الجسور وينطلقوا لرؤية ما عند الآخرين، فهناك مقدسات غير مقدساتهم وهناك أديان سماوية جديرة بالاحترام.

د) كان الأجدر باليهود الذين ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة:١٤٦] ويعرفون أن قبلة النبي المنتظر ستكون إلى الكعبة، أن تميل قلوبهم للإسلام بعد أن صلوا إلى قبلتهم (بيت المقدس) وفي ذلك تعبير عن احترامهم؛ لكنهم لخبثهم ولفساد طويتهم عجزوا عن الاستفادة من فرص الهداية وحولوها إلى مادة للطعن والسخرية، وأخيراً فإن في الخبر تصوير بديع وفريد لمقدار الطاعة عند المؤمنين حيث تحولوا أثناء الصلاة إلى القبلة الجديد.

٢) تشريع الجهاد في الإسلام:

هذا موضوع كبير ويحتاج إلى تأمل عميق، وقبل الحديث عن ما ادعاه ـ الوردي ـ بأن الإسلام قام على حدِّ السيف، وإنه لم يدخل فيه معتنقوه بطريق الطواعية والاختيار، وإنما دخلوا فيه بالقهر والإكراه، وقد اتخذوا من تشريع الجهاد في الإسلام وسيلة لهذا التجنِّي الكاذب الآثم، وشتان ما بين تشريع الجهاد وما بين إكراه الناس على الإسلام، فإن تشريع الجهاد لم يكن لهذا، وإنما كان لحكم سامية وأغراض شريفة.

وهذه الدعوى الباطلة الظالمة كثيراً ما يرددها المنصرون والمستشرقون، الذين يتأْكلون

بالاختلاق على الإسلام ونبي الإسلام، ويسرفون في الكذب والبهتان، فيتصايحون قائلين: أرأيتم؟!! هذا محمد يدعو إلى الحرب، وإلى الجهاد في سبيل الله، أي إكراه الناس بالسيف على الدخول في الإسلام! ولم ينظروا ـ قبل ذلك ـ إلى خطة الرسول ﷺ في مكة ثم المدينة:

أ) صبر الرسول ﷺ والصحابة ﷺ واحتمالهم الأذى وتصميمهم على الاستمرار في الدعوة طاعة لله وليست للكافر قال تعالى: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء:٧٧]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق:١٩].

ب) لم يُكره الرسول ﷺ أحداً على الدخول في دينه، ولم يسمح للآخر أن يُكرهه على دينه، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٦٥] وقال ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩].

جـ) ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فُصِّلَت:٣٤] التزم المسلمون في مكة بهذه الخطة وكانت التعليمات واضحة إلى درجة أنه لم يحدث إلا حادث واحد تجاوز فيه الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص ﷺ، ونرى أن الصحابة في مكة قد تشربوا روح الإحسان تأسياً بمحمد ﷺ الذي قابل كل الأذى بالصبر والعفو والدعاء لقومه بالهداية.

د) كان القتال في مكة ممنوعاً حتى تشكلت الحكومة النبوية في المدينة بقيادة الرسول الحاكم محمد ﷺ، ولقد تشكلت هذه الدولة دون أن تُراق قطرة دم واحدة، فلقد بايع وجهاء المدينة رسول الله ﷺ واختاروه حاكماً لبلدهم، وقد أقرَّ بذلك كل بطون الأوس والخزرج، بل واعترف اليهود بالرسول ﷺ حين وقعوا العهد معه.

هـ) ما كان المشركون ليسكتوا على ذلك بل إنهم صمموا على القضاء على مجتمع المسلمين الوليد في المدينة قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الحج:٣٩ ـ ٤٠] والآية تذكر سبقهم إلى القتال ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ فالمسلمون كانوا يُقاتَلون ظلماً وعدواناً، وقد أُخرجوا من ديارهم بغير ذنب إلا أنهم خالفوا قومهم في الدين.. ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج:٤٠].

و) قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٤٠] لقد كان الأسلوب الوحيد لحماية حرية الدين الجديد في ذلك العصر هو السماح للمجتمع المسلم أن يقاتل حماية لهذا الكيان الجديد وصيانة له كي ينمو ويكون نواة حضارة عالمية أنعشت الأخلاق والعدل والعلم في الأمم، وكنت مصدر إشعاع حضاري للناس على مدى قرون طويلة.

ولقد تأملت ثم أدركت قول علي بن الحسين: (كنا نُعلِّم مغازي النبي ﷺ كما نُعلِّم السورة من القرآن) فأدهشتني هذه المبالغة ـ وإن كانت ثقافة عصره تبررها ـ ورأيت المؤرخين يمشون على أثره، فيا سبحان الله.

٣) امتصاص الحقد وتأليف القلوب وتطييبها:

لقي الرسول ﷺ نفوساً مريضة حاقدة عديدة، وكانت تلك النفوس تناصبه العداء سراً وجهراً، وإنا لا ننسى مواقفه المشهودة مع عبد الله بن أبي سلول رأس النفاق، وكيف صبر عليه، وكيف صبر على إيذاء عمرو بن هشام المعروف بأبي جهل، فقد أكد للمشركين عملياً أن الإسلام لا يذل أحداً، وإنما يزيد العزيز عزاً، وهذا ما أعلنه ﷺ لأبي سفيان بن حرب رضي الله عنه الذي كان يحب الفخر، فقال يوم فتح مكة: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" فكان رفعة من أبي سفيان يزيل ما بنفسه من حقد نحوه حتى إنه أسلم بعد ذلك، وموقفه الكريم مع أهل مكة جميعاً حين أظهره الله عليهم، فقد منحهم حريتهم، وأعلن أنهم طلقاء أحرار.

وقد كان ﷺ يصفي أحقاد الجاهلية من النفوس التي لم يتمكن الإيمان منها، فكان يغدق عليهم الأموال، ويحسن إليهم حتى انتزع الحقد من قلوبهم، ولا عجب فالقلوب تستعبد بالإحسان إليها، وبهذا أعطى الرسول ﷺ مثلاً عظيماً ودرساً عملياً في تأليف القلوب، وما من موقف يُساء فهمه حتى يعمد الرسول ﷺ لإجلائه وكشفه حتى تطمئن القلوب.

ويختلف تأويل الكرم من كاتب لآخر، فالكرم في الإسلام طريق إلى الجنة، والبخل طريق إلى النار، وقد كان كرمه ﷺ لا يُجارى ولا يُبارى، ويعلم المسلمون أن خمس الغنائم يخصص للرسول ﷺ، وقد حصل المسلمون على غنائم كثيرة وأموال طائلة، ولو أن الرسول ﷺ أراد مالاً لكان من أغنى الناس، وإن خمس الغنائم في حُنين كان ثمانية آلاف من الغنم وأربعة آلاف وثمان مائة من الجمال، وثمانية آلاف أوقية من الفضة وألف ومائتان من السبي، وقد كان هذا

من حق الرسول ﷺ وآله، ولكنه كان يستغني ويستعفف، وفي هذا يقول سعيد حوى: "فإذا ما علمنا مقدار حق رسول الله ﷺ المعطى له من هذه الأموال فقط مثل هذا، وإذا عرفنا أنه كان بالإمكان استثماره وتنميته علمنا بعد ذلك أنه ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي وأنه أمر أن يوزع ميراثه إن كان على المسلمين".[١]

وهذا موقف آخر وهو موقف سعد بن عبادة رضي الله عنه في الجعرانة حين دخل على الرسول ﷺ ليعلن عدم رضا الأنصار عن الفيء الذي قسمه النبي في أهل مكة دون الأنصار، فقال: يا رسول الله ﷺ إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك ـ يريد أهل مكة ـ وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيئاً، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ﷺ، ما أنا إلا من قومي، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة..

فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم، ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، والله ورسوله أَمَنّ وأفضل. قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدقتم ولصُدقتم؛ أتيناك مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك (أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا). أوجِدُّتم يا معشر الأنصار في أنفسكم علي لعاعة[٢] في الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، (وسمع الأنصار كلمة النبي ﷺ، فوقعت في نفوسهم، وحدّرت دموعهم فصاحوا قائلين: رضينا برسول الله قسماً وحظاً).[٣]

---

(١). سعيد حوى: الرسول ﷺ، ص ١٤٣.

(٢). اللعاعة: بقلة حمراء ناعمة أي الهندباء وأية نبتة رخوة رقيقة، شبه زهرة الدنيا ونعيمها ويعير بها عن ضآلة الشيء.

(٣). ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص ٢٧٨ وما بعدها.

ثالثاً: حول الشورى والمعارضة السياسية في الإسلام:

انتقل الوردي بعد ذلك إلى الحديث عن نظام الحكم في الإسلام فقال: "لقد كان من سوء حظ الدين الجديد أن مؤسسه مات في إبان انتصاره، وقد يصح القول إن محمداً لو كان باقياً مدة أطول لوجدنا قريشاً تتبع طريقاً آخر غير الطريق الذي اتبعته بعد موت النبي، لا نكران أن محمداً ألّف قلوب القرشيين بالأموال، ولكننا لا ندري ماذا كان يصنع بهم بعد ذلك، إن شخصية محمد كانت بعيدة الغور ثاقبة البصر ـ من طراز فذٍ عجيب ـ ولعله كان ينوي أن يجذبهم إلى الدين أول الأمر ثم يروِّضهم على تعاليمه أخيراً، لقد كان موت محمد في تلك السن المبكرة خسارة للإسلام لا تعوّض، وأحسب أن أحداً لم يشعر بتلك الخسارة الفادحة على حقيقتها، فقد بكى المسلمون محمداً بكاءاً لا ريب فيه، ولكن أمر الخلافة أشغلهم فجعلهم ينسون أهمية فقده بعض النسيان.

جاء إلى الخلافة صاحب النبي المفضّل (أبو بكر)، وكان هذا الرجل من قريش، لا مراء في ذلك، ولكنه كان ذا شخصية لا تشابه ما كان معروفاً عند القرشيين من كبرياء وطغيان وقسوة، كان أبو بكر متواضعاً لين الجانب، فلم يتعال على أحد قط في جاهلية أو إسلام، وهذه الصفة قلما نجد لها مثيلاً بين أقرانه من القرشيين، وكان أبوبكر أو رجل من شرفاء قريش دان بالإسلام، وإني لأظن بأن أبا بكر كان يضمر لقبيلة قريش شيئاً من الكراهية، وذلك لما كان بين مزاجه ومزاجهم من تباين، فهم متكبرون يصعّرون خدودهم على الناس ولا يراعون لمن دونهم من الناس حرمة ولا تأخذهم رحمة، أما هو فكان، كما وصفته ابنته عائشة، غزير الدمعة حزين القلب أسيفاً.

أرسل إليه عمرو بن العاص برأس قائد من قتلى الأعداء أثناء غزوة طريق الشام، فأنكر أبو بكر ذلك أشد إنكار، وحاول أحد أصحابه أن يخفف عليه الأمر فقال عن الأعداء: "إنهم يصنعون ذلك بنا" فقال أبو بكر: "أيستنّسون بفارس والروم؟ لا يُحمل إليَّ رأس ..."، ولو قارنا هذا بما صنع القرشيون بعد ذلك من حمل للرؤوس وسبي للنساء وانتهاك للحرمات لرأينا تبايناً في المزاج كبيراً، والظاهر أن قريشاً كانت تبادل أبا بكر العداء والكراهية، فعندما تولى أبو بكر الخلافة غضب خالد بن الوليد وغضب أبو سفيان، وهما، كما لا يخفى، من رؤساء قريش.

جاء خالد إلى علي بن أبي طالب يثيره على أبي بكر قائلاً: "يا أبا الحسن.. يا بني

عبد مناف.. أُغلبتم عليها؟" فأجاب عليّ: "أمغالبة ترى أم خلافة؟!"، وغضب أبو سفيان ـ أيضاً ـ من خلافة أبي بكر قائلاً: "يا علي.. وأنت يا عباس.. ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها؟ والله لو شئت لأملأنها عليه ـ على أبي بكر ـ خيلاً ورجلاً وآخذنها عليه من أقطارها". فأجابه عليّ جواباً يشبه من بعض الوجوه جوابه لخالد بن الوليد.

ثم راح ـ الوردي ـ يحلل هذه المواقف تحليلاً نفسياً واجتماعياً مسقط النظريات العلمية الحديثة عليها وقد سرح به الخيال بعيداً وكأنه يكتب قصة من وحي الخيال فيقول: "من المحتمل جداً أن يكون أبو سفيان في دخيلة نفسه حاقداً على الإسلام كارهاً له، فليس من السهل على أبي سفيان أن ينسى كفاحه الطويل ضد محمد، وليس من المستبعد أن تكون قد نشأت في عقله الباطن عقدة نفسية ضد الإسلام وأهله، والعقد إذا تكونت في النفس صعب زوالها في مدة قصيرة.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: "ظل أبو سفيان إلى ما بعد إسلامه زمناً يحسب غلبة الإسلام غلبة عليه". وهذا قول لا يخلو من صواب! فالرجل الذي يحارب حزباً من الأحزاب نيفاً وعشرين سنة حرباً لا هوادة فيها، يصعب عليه أن ينسى ذلك حالما يُقسر على الدخول فيه، شاهد أبو سفيان جيوش المسلمين وهي تدخل مكة فاتحة فقال لصديقه العباس بن عبد المطلب: "والله يا أبا الفضل.. لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً". فهو يظن أن محمداً طالب ملك وقد نجح في طلبه، إن القيم المدفونة في اللاشعور لا تزول بسرعة، ولعلها تبقى في الإنسان حتى ساعة الموت، فأبو سفيان كان يتصور بأن محمداً منافس له في طلب الرئاسة على العرب، ولا شك أن تألم عندما غلبه منافسه في ذلك.

نظر أبو سفيان إلى النبي ذات يوم نظر الحائر المتعجب، وهو يسأل نفسه: ليت شعري بأي شيء غلبني هذا الرجل؟ فلم يخف على النبي معنى هذه النظرة، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال: "بالله غلبتك يا أبا سفيان!"، يقال أن أبا سفيان كان يود من صميم قلبه أن ينهزم المسلمون في واقعة حنين التي تلت فتح مكة، ذكروا أنه هتف عندما رأى من المسلمين ينهزمون أول الأمر وقال: "ما أراهم يقفون دون البحر"، ولعله كان يود أن يُرمى المسلمون في البحر بعد هزيمتهم تلك. وعندما وقعت معركة اليرموك كان أبو سفيان يهتف لجيوش الروم، ويود أن تنتصر على جيش غريمه محمد، ونحن لا نستبعد هذا سيما إذا علمنا أن أبا سفيان كان

ذا قيم بدوية تعتز بمجد الفرد والعائلة أكثر مما تعتز بمجد دين أو انتصار مبدأ، ومن يطلع على عادات العشائر العربية في الوقت الحاضر يجد على هذا أمثلة كثيرة، فلفرد العشائري يذبح الأنبياء والأولياء في سبيل أن لا تهان كرامته أو كرامة عائلته، إنه مسلم في عقله الظاهر بدوي في عقله الباطن".[(١)]

من المعروف أن مبدأ الشورى في الإسلام هو مبدأ أصيل، وقد كان هو منهاج الرسول ﷺ خلال حياته، ومبدأ صحابته، وإن اختلف نظام الحكم فيما بعد حين اعتبر ملكاً لصاحبه يستأثر به دون غيره، إن الشورى في الإسلام هي الشورى الحقيقية حيث تبحث الهيئة الاستشارية، وتقول رأيها في حرية كاملة غير خائفة من عنت السلطان أو من سخط القيادات، فهل خلافة أبي بكر الصديق ﷺ التي ذكرها الدكتور الوردي كانت تطبيقاً صحيحاً لمبدأ الشورى ونظرية الحكم في الإسلام؟!

فلو تدارسنا دساتير الشعوب ومواثيق الثورات وشعارت حركات الإصلاح الديني والاجتماعي لاتضح لنا أن التطبيق كثيراً ما يسيء إلى النظرية ولا يتفق معها، وأن حيلاً التمست لتأويل الدساتير وخداع الناس، لكن حكم الخلفاء الراشدين كان ترجمة حقيقة للحكم النبوي، ولا شك أن الحكومات الإسلامية بعد عهد الخلفاء الراشدين بعدت عن الشورى والهدي النبوي بعداً واسعاً أو بعداً محدوداً.

ثم إن علي الوردي مع احترامنا لما يتمتع به من أسلوب شيق في العرض والتحليل، إلاَّ أن من العيوب التي قد لا يلاحظها إلا القليل من الباحثين هو **اعتماده الرواية التاريخية في بحثه الاجتماعي من دون تدقيق،** ولكثرة استنباطاته لتحليلاته الاجتماعية من دفائن التاريخ هناك من عده مؤرخاً، وهو ليس كذلك، ولربما سيجيب لو سئل عن ذلك بأنه ليس مختصاً في التاريخ ولا هو بالمحقق، وكثيراً ما يأخذ الرواية على ذمة المؤرخ، من دون مقابلتها وفحصها، **فتعامله مع أخبار التاريخ بهذه الطريقة يُعَدُّ حاطب ليل، ويحتاج كل خبر يورده في تحليلاته الاجتماعية التأكد من صحته، وبعضها لا شك في وضعه مثل كلامه في التشكيك في عدم صحة إسلام وإيمان أبي سفيان ﷺ.**

---

(١). علي الوردي: وعاظ السلاطين، ص ١٢١ ـ ١٢٤.

رابعاً: موقف الكاتب من المعجزات والخوارق:

علي الوردي يؤمن إيماناً جازماً بالخوارق والمعجزات فقد جاء في كتابه: "أسطورة الأدب الرفيع" ما يلي: "يعتقد المسلمون أن لكل نبي معجزة يتفوق بها على أهل زمانه، فالنبي موسى جاء بمعجزة العصا التي عجز عن مجاراتها سحرة فرعون، وعيسى جاء بمعجزة شفاء المرضى ففاق بها جميع الاطباء الذي كانوا في زمانه، أما محمد فقد جاء بمعجزة القرآن حيث أفحم به العرب الذين كانوا مشهورين بالفصاحة وحسن البيان، ولقد تحداهم محمد بالقرآن مرة بعد مرة على أن يأتوا بمثله فعجزوا..".[1]

ويضيف فيقول: "يطلب الناس من النبي أن يأتي لهم بمعجزة ليستدلوا على نبوته، والغريب أنهم حين يرون المعجزة يستهينون بها ويقولون عنها أنها سحر وشعوذة.

يقول القرآن: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٩ - ٩٦].

كان النبي يدعوهم إلى النظر في تعاليمه، وهم يريدون منه المعجزة، ويقال إنه حين جاء لهم بما يريدون مطّوا شفاههم استنكاراً، وقالوا عنه إنه ساحر أو مجنون، يقول الغزالي: "إننا يجب أن ننظر في سيرة النبي قبل أن ننظر في معجزته، فالمعجزة في رأي الغزالي يستطيع أن يأتي بها

---

(١). علي الوردي: أسطورة الأدب الرفيع (الطبعة الثانية، بيروت، دار كوفان، ١٩٩٤م) ص ١٣٧.

الساحر أو أي إنسان له مقدرة خارقة، ولكن الساحر رجل دنيء يقصد من المعجزة الغش والتضليل، أما النبي فهو يريد أن يهدي بها الناس ويصلح أحوالهم".

لعل كثيراً من المسلمين لا يرضون بهذا القول الذي جاء به الغزالي، وهو في الحقيقة خير معيار نستطيع أن نفهم به كُنه النبي والنبوة، وهذا هو الذي يدعونا إلى النظر في القرآن من حيث تعاليمه ومبادئه الثورية، لا من حيث لغته وأسلوبه، فهل هناك من يسمع؟!".(١)

وهذا كلام غير صحيح فالساحر مقدرته محدودة، فلا يمكن أن تصل إلى ما يصل إليه النبي من التأييد مثل: إنزال المطر، وتكثير الطعام، وفهم كلام الدواب ... الخ، وللعلماء في هذا كلام طويل في الفرق بين المعجزة والسحر ليس هنا مجال الحديث عنه.

---

(١). علي الوردي: أسطورة الأدب الرفيع، ص ١٣٧.

صالح العلي[1] وكتابه الدولة في عهد الرسول ﷺ:

أقام الرسول ﷺ دولة تتكون من أرض ذات حدود جغرافية، وأمة ذات خصائص مميزة، ينظمها دستور عام (صحيفة المدينة)، وتحتكم إلى قانون يطبق بالعدل والمساواة، ويحميها جيش يدافع عن كيانها ويجاهد في سبيل إعلاء شأنها؛ دولة مستقلة ذات سيادة.

وتميزت هذه الدولة بخصائص واضحة كتبت لها الخلود وعلو الشأن والتميز الدائم وفق حقيقة قرآنية خالدة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

دولةُ الرسول ﷺ هي مرحلةٌ مفصلية من مراحلِ سيرته العطرة، فهل أقام الرسول ﷺ دولة بالمفهوم المتعارف عليه للدولة؟ أم أنه كان ﷺ رسولاً مبلغًا فقط؟

وهل يُحمِّلُ بعضُ الدارسين الأمور أكثر مما تحتمل عندما يتناولون دولة المدينة باعتبارها الأنموذج الأول للدولة الإسلامية؟ أم أنَّ هذه الدَّولة فعلاً أنموذجاً يستحق الدراسة والبحث؟ لتكون نبراساً مرشداً ونوراً هادياً نحو خصائص الدولة الحديثة التي نريد ونبتغي!

يجيب على هذه الأسئلة وغيرها صالح العلي في مؤلفه القيم: (الدولة في عهد الرسول ﷺ) الذي صدر عام ١٤٠٨هـ عن المجمع العلمي العراقي أثناء رئاسته له، ويقع في خمسة أقسام، ولكل قسم عدة فصول، في حدود ٤٢٧ صفحة حيث يقول في مقدمة كتابه: "يضم هذا الكتاب دراسات عن قيام دولة الإسلام في المدينة وتطور تنظيمها وتوسعها وتثبيتها في شبه

---

(١). صالح بن أحمد بن علي بيك بن محمد بيك بن عثمان، وُلد في الموصل عام ١٩١٨م، درّس في جامعة بغداد وشغل فيها رئاسة قسم التاريخ لعدّة سنوات، عُيّن عميدًا لمعهد الدراسات الإسلامية العليا، ورئيسًا لمركز إحياء التراث العلميّ العربيّ، ثم رئيساً للمجمع العلمي العراقي، كما كان عضوًا في: مجلس جامعة بغداد، ومجمع اللغة العربية في دمشق، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، والمعهد الأسباني العربي في مدريد، والجمعية الاركيولوجية في الهند، درّس في جامعات عربية وعالمية منها جامعة هارفرد، شارك في عدد كبير من المؤتمرات والندوات العلمية، انتقل إلى جوار ربه في ٢٥/١٢/ ٢٠٠٣م. انظر: مير بصري: أعلام الأدب في العراق الحديث، جـ٢، ص ٥٥٥، وناصر عبد الرزاق الملا: صالح أحمد العلي شيخ المؤرخين الأكاديميين العراقيين (مقال، منشور بجريدة الجريدة العراقية) على الرابط: http://www.aljaredah.com.

جزيرة العرب إبان حياة الرسول ﷺ، وما هو وثيق الصلة بها مما حدث في زمن خلافة أبي بكر الصديق وهو مكمل لدراستنا التي نشرناها منذ عدة سنوات عن تاريخ العرب قبل الإسلام، والدعوة الإسلامية في مكة، وممهد لدراسة تالية عن امتداد الدولة وتطوراتها في صدر الإسلام، فهو حلقة من سلسلة الغرض من كتابتها متابعة تطور تاريخ العرب.

ويكتسب هذا الجزء أهمية خاصة لأنه يبحث في حقبة اتسمت بتطورات عميقة وشاملة شملت مختلف جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية والإدارية، مما جعلها متميزة أساسياً عما سبقها، وكان لها الأثر الأكبر في توجيه مجرى الحياة بعدها.

وهذه الدراسة تشمل جانباً مهماً من حياة الرسول ﷺ منذ أن هاجر إلى المدينة، وهي حادثة فاصلة في مجرى التاريخ أدرك المسلمون الأولون أهميتها المتميزة فاتخذوها دون غيرها من الأحداث بداية للتقويم في تاريخهم، ولم يحدث على قرارهم في ذلك أي اعتراض أو تغير وهذا مظهر لإدراكهم العميق الصائب لأهميتها في مجرى الأحداث..

إن هذه الدراسة الحالية تقدم صورة عامة لمجرى الحوادث في حياة الرسول ﷺ، وبُعيد وفاته، وكثير من الحقائق التي وردت فيها معروفة في ما نشر من كتب ودراسات سابقة، وقد روعي فيها إظهار الأحوال القائمة التي كان لها أثر في مجرى الأحداث، وبذلك استهدفت ربط الحوادث المنفردة بالأحوال العامة، مما يُعين على فهم أسلم لمكانتها وأهميتها ومساراتها، ومن مظاهر عظمة الرسول ﷺ إدراكه الثاقب لتلك الأحوال، وأعماله الناجحة في الإفادة منها في تحقيق الإنجاز الباهر الذي وصل إليه، فالدراسة راعت متابعة الأحداث وتلاحمها مع الأوضاع العامة القائمة، ولم تقتصر على سرد الحوادث السياسية والحربية، وإنما امتدت إلى تقدير أهمية الحوادث، وإلى معالجة الجوانب الاجتماعية والإدارية والأخلاقية التي أبرزت بعد دراسة دقيقة وتأمل هادئ، ومحاولة للنظر في الأحداث والأحوال كم كانت في حينها، مع تجنب المبالغات التي أضافها عدد من المتأخرين، والتوجهات المقولبة التي حاول البعض صب الأحداث فيها، وكان رائدنا فيها عرض الحقيقة كما تراءت، ولا ندعي الإحاطة بكل جوانب التطور الهائل وسيرة الرسول ﷺ وصحبه الذين أسهموا في ذلك التطور، كما لا نزعم الكمال، وإنما نرجو أن نكون قد قدمنا صورة صادقة للجوانب التي بحثناها من التطور ترضي المعنيين بهذه الفترة

والطامحين إلى المعرفة والتأمل".[١]

أولاً: موقف الكاتب من مصادر السيرة النبوية:

عدد صالح العلي ثمان من مصادر السيرة النبوية وهي كالتالي: القرآن الكريم وكتب التفسير، كتب السيرة، كتب الحديث، كتب الفقه، كتب الشمائل، كتب الأنساب وتراجم الرجال، كتب تاريخ البلدان، المؤلفات الحديثة عن الرسول ﷺ.

ولا شك أن من أهمها على الإطلاق القرآن الكريم فقد نزل قرابة ثلثي آياته في المدينة بعد الهجرة، وذكرت في كثير منها صراحة عدداً من الحوادث التي مرت بالمسلمين في المدينة، وأشارت إلى عدد آخر منها، وما ذكره القرآن الكريم هو الأساس المعتمد لسيرة الرسول ﷺ، غير أنه لا بد من توضيحه وتفصيله وإكمال بما ذكره المعنيون بالسيرة والتاريخ، وقد شرح المفسرون هذه الآيات عموماً، وخص بعضهم الكلام عنها في ذكر أسباب نزولها، والفّوا في ذلك كتباً اختصت بهذا الجانب، ومن أشهرها: كتاب "أسباب النزول" للواحدي، ولا ريب في أن أوسع التفاسير المعتمدة هو "تفسير الطبري" الذي يتميز بسعته وشموله وعنايته بذكر أسماء ومساند من اعتمد عليهم.[٢]

ونحن لا نريد التطرق إلى المصادر الأخرى ـ فهي ليست موضوع بحثنا ـ ولكن الذي يهمنا منها هي مصادر السيرة النبوية، حيث يقول صالح العلي: "وأقدم كتاب واسع وصلنا عن حياة الرسول ﷺ هو "سيرة الرسول" التي كتبها ابن اسحاق (ت ١٥٠هـ)، واعتمد فيها على عدد ممن سبقه، وذكر كثيراً منهم، وأشار إلى بعضهم، وجمع أحياناً روايات عدة رواة، إلا أن الكتاب لم يصلنا بالصورة التي كتبها، وإنما بروايات رواة يبلغ عددهم أربعة وخمسون، نصفهم من أهل الكوفة، ومنهم ثمانية من أهل البصرة، وأربعة من أهل المدينة، وثلاثة من أهل كل من الريِّ، وواسط، وحرّان ورواة منفردون من الجزيرة، والشام، وأيلة، ومصر، ومرو، وبخارى.[٣]

غير أن أكثر الروايات شيوعا هي رواية عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨هـ) عن زياد البكائي (ت ١٨٣هـ)، ويونس بن بكير، وسلمة بن الفضل الرازي؛ وقد اعتمد الطبري في

---

(١). صالح أحمد العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ (بغداد، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٨م) ص ٣ ـ ٧.

(٢). نفس المرجع، ص ٨.

(٣). نفس المرجع، ص ٩.

تاريخه على رواية سلمة بن الفضل ونقل في تفسيره عنه وعن يونس بن بكير، غير أن أكثر الروايات شيوعاً عند الناس هي رواية ابن هشام الذي يبدو أنه كان دقيقاً في النقل، ولكنه هذّب فيها، فحذف بعض الأخبار وأبدى شكوكه في أصالة بعض القصائد التي رواها ابن إسحاق[(١)].

خصص ابن سحاق القسم الثالث الذي عنونه (المغازي) من كتابه في السيرة بالحوادث التي واجهت الإسلام في المدينة، تحدث فيها عن اتصال أهل المدينة بالرسول ﷺ ثم الهجرة، فالمؤاخاة، فالصحيفة، فموقف اليهود والمنافقين، وذكر تفاصيل عن غزوات الرسول ﷺ وسراياه، والوفادات عليه، ثم وفاته وبعض المعلومات المرتبة عن سيرته، وكان كتاب ابن اسحاق المصدر الأساسي لما ذكرته كتب التاريخ المرتبة معلوماتها حسب السنين، ومن أقدم ما وصلنا منه تاريخ كل من خليفة بن خياط، واليعقوبي، وابن قتيبة، ولكن أوسعها تاريخ الطبري الذي عني بترتيب الحوادث حسب السنين وذكر المصادر التي نقلها وأكثرها من ابن اسحاق، والمعلومات التي قدمها واسعة وغنية، وكانت المعتمد الأساس في العدد الكبير من الكتب التي أُلِّفت بعده إلى الأزمنة الحاضرة، وأبرزها هذه الكتب القديمة "المغازي" الذي ألفه محمد بن عمر الواقدي ومعلوماته لا تختلف كثيراً عما كتبه ابن اسحاق سوى أنه أورد بعض التفاصيل الفرعية، ومعلوماتها جغرافية عن مواقع الأماكن التي ذكرت في ثنايا السيرة، وكان كتاب الواقدي معتمد تلميذه محمد بن سعد عن سيرة الرسول ﷺ، في الجزئين الأول والثاني من كتابه (الطبقات).[(٢)]

ومن الكتب القديمة المعتمدة في سيرة الرسول ﷺ كتاب "أنساب الأشراف" للبلاذري، الذي خص الجزء الأول منه ويبلغ ستمائة صفحة أكثرها عن حياة الرسول ﷺ في المدينة، وفصل في صفة الرسول ﷺ وزوجاته ولباسه وسلاحه ورسله وكتّابه وعمّاله، ونقل عن الزهري ٢١٥ موضعاً، والواقدي ١٧٠ موضعاً، وابن اسحاق ٥٢ موضعاً، بالإضافة إلى عدد من الرواة الآخرين وأخصهم الشعبي، والمدائني، ولم يُفصِّل في الغزوات، ويبدو أنه اعتمد في ما فصل على علي بن محمد المدائني الذي ذكر ابن اسحاق اسماء كتب ألفها في هذه المواضيع التي لم يعن بها ابن اسحاق، ونقل عنه خمسين موضعاً، وذكر ابن النديم عدداً من المؤلفات القديمة في سيرة

(١). صالح أحمد العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ، ص ٩.

(٢). نفس المرجع، ص ١٠.

الرسول ﷺ، ولكنها مفقودة الآن، ولم يبق إلا بعض مقتطفات متفرقة ومختلف في طولها".[١]

أما المؤلفات الحديثة في السيرة النبوية، فقد نشرت كتب ودراسات كثيرة عن حياة الرسول ﷺ مستقلة أو جزءاً من تاريخ عام، كما نشرت أبحاث عن جوانب متعددة من حياة الرسول ﷺ وأعماله، وعقدت ندوات متعددة ومشتركة خصصت لدراسة السيرة النبوية، وألقيت في كل منها أبحاث كثيرة أعدها المشاركون فيها من مختلف الجنسيات والاتجاهات، وكان لعدد من الأحزاب والتيارات السياسية دور في الدفع إلى كتابة ما يتصل بالسيرة النبوية، وأثمر كل ذلك عن نشر الآلاف من الأبحاث التي لا يتسع المجال لسردها وبيان اتجاهاتها، وتقدير قيمة كل منها، وهي تتباين في مدى سعتها وتفاصيلها وعمقها ودقتها.[٢]

ثانياً: موقف الكاتب من المعجزات الخوارق:

لقد حاول صالح العلي وضع السيرة النبوية بأسلوب يعتمد على النواميس الطبيعية التي تربط الأسباب بالمسببات وترتب النتائج على المقدمات، وأرجع نجاح دعوة محمد ﷺ إلى أسباب تتصل بهذه النواميس، **لكن ما ينتقد عليه أنه اتخذ هذه النواميس تكأة لإنكار المعجزات**، وأغفل أسبابا أخرى تتصل بعالم الغيب كان لها أثر حاسم في هذا النجاح، فهناك عناية الله ﷻ ورعايته ونصره الذي يتنزل، وجنوده التي لا ترى..

فلم نجد أثراً للخوارق والمعجزات في كتابه هذا نهائياً، ففي الهجرة مثلا اتخذ النبي جميع الاحتياطات الممكنة لتأمين هذه الرحلة المباركة، وتربص المشركون بالرسول ليقتلوه فخرج من بينهم وقد أعمى الله أبصارهم فلم يروه، وفي الغار هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه وقد وقف المشركون على حافته حتى لو أبصر أحدهم موضع قدميه لرآهما، لكنها العناية الإلهية تحوط نبيه الكريم وصاحبه، وفي طريقهما إلى المدينة المنورة يطاردهما سراقة بن مالك رضي الله عنه فتتدخل العناية الإلهية مرة أخرى، وتغوص قوائم فرسه في الرمال! وما أكثر الأمثلة في السيرة النبوية التي تبرز فيها هذه الحقيقة واضحة للعيان، ولا يردها إلا معاند مكابر وكم مرة حاول الكفار قتله واغتياله، وكانت عين الله تحوطه وترعاه، أليس قد قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ

---

(١). صالح أحمد العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ، ص ١٠.

(٢). نفس المرجع، ص ١٧.

ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧].

يقول خالد الغيث حول هذا الكتاب: "الدكتور صالح العلي، وهو مؤرخ عراقي معاصر له كتابات جيدة في التاريخ الإسلامي، لكن تأثره بالتفسير المادي للتاريخ يحتم على القارئ توخي الحذر عند القراءة له، يؤخذ عليه تأثره بالتفسير المادي للتاريخ ومن ذلك ما ورد في كتابه (دولة الرسول ﷺ في المدينة)، حيث إن من يقرأ غزوة بدر في كتابه لا يجد أي إشارة للملائكة وقتالهم مع المسلمين في بدر مع ثبوت ذلك في القرآن والسنة، ومن ذلك أيضاً كلامه عن سبب انسحاب قريش في غزوة الأحزاب، فإنك لا تجد أي إشارة للملائكة في انسحاب قريش ومن معها من الأحزاب، بل يعزو ذلك إلى مشاكل وصعوبات في التموين، مع ثبوت دور جند الله في هزيمة الأحزاب، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩]، لقد كان للملائكة في غزوة الأحزاب دور في إلقاء الرعب في قلوب المشركين وتخذيلهم، كما أن للريح دوراً في ذلك، وهي ريح الصبا ، قال عليه الصلاة والسلام ، في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه: (نُصِرت بالصبا، وأهلِكت عاد بالدَّبور)، وقد ثبت أن الريح لم تصل إلى معسكر المسلمين بل كانت خاصة بمعسكر الأحزاب، وهذا من آيات الله ﷻ، وقد فعلت الريح الأفاعيل بمعسكر الأحزاب فاقتلعت الخيام ودفنت القدور، وأطفأت نيرانهم، فارتحلوا مخذولين مرعوبين، وعن الحكمة من نصر الله لنبيه ﷺ بريح الصبا دون ريح الدبور المهلكة وهي التي سلطت على عاد، يقول الحافظ ابن حجر: "ولما علم الله رأفة نبيه ﷺ بقومه رجاء أن يسلموا سلط عليهم الصبا، فكانت سبب رحيلهم عن المسلمين لما أصابهم بسببها من الشدة، ومع ذلك فلم تهلك منهم أحداً ولم تستأصلهم".

والعجيب كيف ينكر الدكتور صالح العلي هذه المعجزات المتواترة، التي تواترت رواياتها في كتب الحديث وفي مقدمتها الصحيحان، وأجمعت عليها كتب السيرة؟ فالسيرة النبوية أعظم مواطن القدوة بالنسبة للأمة المسلمة قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٢١] لذلك فقد نالها من الهجوم من جيوش المستشرقين ما لم ينل أي سيرة في الدنيا، وإن كنا لا نستغرب ذلك فأغلب المستشرقين

إنما هم رأس حربة للحملات الصليبية، لكن عندما تتسرب سموم المستشرقين إلى كتابات أبناء المسلمين، بوعي أو بغير وعي، فهذا ما ينبغي التنبيه عليه والتحذير منه".[١]

فالله ﷻ يعرض موقعة الأحزاب بعرض الواقعة على النحو التالي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩]، عندما هاجمتهم جنود المشركين وحلفاؤهم من اليهود، كانت النتيجة أن أرسل الله عليهم ريحاً قاسية شاتية أثارت الرمال، فأضحى الإنسان معها لا يرى صاحبه، ما أفقدهم التماسك، وجعل أبو سفيان يأمر جنوده بالرحيل، ويحدّثنا الله ﷻ أنه أرسل جنوداً لم يروها، وهي كناية عن الملائكة التي عملت على إيجاد نوع من التوازن في الموقف، ولم يبين الله لنا الطريقة، لأنه غيب من غيب الله أخبرنا الله به ولا نملك تفاصيله، ولذلك فإن علينا أن نؤمن به وإن لم نعرف كلَّ مفرداته ودقائقه.

إنّ المشكلة الحقيقية التي قد يعيشها المسلمون وغيرهم من الناس أنهم يرتبطون بالجانب الحسي من الأشياء، يعني دائماً أننا نُدخل في الحسابات ما يملك العدو وما نملك نحن، العدو أقوى منّا سلاحاً ونحن أضعف منه، العدوّ يملك امتدادات في الساحة الدولية ونحن لا نملك مثل هذه الامتدادات، العدو يجتمع على باطله ونحن نتفرق عن حقنا، فالله ﷻ لا يمنعنا من أن ندخل في الحسابات المادية، ولكنه يعرّفنا أن هنالك حالة غيبية إلهية، يجب أن ننفتح من خلالها على الله، ولكن بعد أن نصبح على أتمّ حالات الاستعداد لنقول له انصرنا على القوم الكافرين، لنقول له أعطنا من غيبك، كما فعل المسلمون في بدر: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ [الأنفال:٩].

ومن هنا علينا كمسلمين، ومن خلال إيماننا بالله ﷻ في كل تاريخ صراعاتنا، أن لا نغفل الإمداد الغيبي الذي يمد الله به عباده المؤمنين إذا أخلصوا له، ولو فكّر كل واحد منّا في كل تاريخ حياته، لرأى أن الله ﷻ كان يرعاه بطريقة لم يحسب لها حساباً، وكان يرزقه من حيث

---

(١). خالد الغيث: الغزو الفكري في السيرة النبوية "نماذج تطبيقية" (مقال، منشور في ١٤٣٢/٦/٢٧هـ بموقع التاريخ) على الرابط الالكتروني: http://www.altareekh.com

لا يحتسب، وكان يحرسه من حيث لا يحترس، وكان يخلّصه من البلاء في الوقت الذي يظن فيه أنه ليس هناك خلاصٌ من البلاء، فلو درس كل واحد منا تاريخ حياته سيجد أن في حياته إمداداً غيبياً إلهياً لا يعرف من أين أتى وكيف تحرك؟! هذا الإمداد الغيبي الإلهي هو أمرٌ يمثل الحقيقة، إن على مستوى واقع المسلمين الفردي، أو على مستوى واقعهم الجماعي، ولهذا نجد أن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٢ - ٣]، قد يبتلينا الله، ولكنّه في الوقت نفسه يخرجنا من مآزق كثيرة ومن مشاكل كبيرة، لا ندري عوامل نشوئها والمؤثرات التي تركتها؟!

لقد أودع الله في الحياة سنناً كونية وقوانين طبيعية، ولكن الله لم يجعل الناس يعيشون تحت ضغط هذه السنن والقوانين بشكل قسري بل إنه ﷻ يهيء لهم سبيل الفرج والرحمة ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧]، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح:٦]، ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر:٥٣]، ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، ويركّز ﷻ دائماً على هذا المعنى، وأن على الإنسان أن يعيش على أساس أن لا تضغط عليه الأشياء المادية فقط، بل يتقين ويُسلِّم بفرج الله حتماً ولا ريب، فالله لا يمكن أن يبتلينا دون أن يوجد لنا حلولاً؟! لكنه ﷻ لا يتصرف في الكون على أساس مصلحة الفرد، وإنما يتصرف على أساس المصلحة العامة والحكمة العامة للناس، وقد يرى ﷻ أن من المصلحة العامة أن يبتليك دون أن يحل لك المشكلة، وفي هذا الإطار لا تستطيع أن تقول إن هذه المشكلة لا حلّ لها؟! لأن الله على كل شيء قدير، وأن يعمل الله أو لا يعمل فهذا راجع إلى حكمته جل شأنه.

لكن وللأمانة العلمية نجد في آخر كتاب لصالح أحمد العلي وهو: (تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية) ذكر بعض المعجزات ومنها:

١) إيمان الجن:

ففي طريق عودته ﷺ من الطائف إلى مكة، وصل إلى نخلة فوقف يصلي، وقد سمعه نفر

من الجن فآمنوا به، كما ذكر القرآن في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن:١]؛ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٢٩ ـ ٣٢].

ولا بد أن إيمان الجن بالرسول ﷺ ورسالته قد عوّض له بعض ما لقيه في الطائف؛ كما شجّعه على عدم قصر بثّ الدعوة في مكة وحدها، بل على محاولة نشرها بين القبائل.(١)

٢) الإسراء:

وبعد رجوع الرسول ﷺ إلى مكة، أسري به الله تعالى، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] ويروي الطبري أن آيتين أخريين نزلتا في الإسراء: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦)﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٦]؛ ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء:٦٠]. (٢)

---

(١). صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية (الطبعة الأولى، بيروت، شركة المطبوعات، ٢٠٠٠م) ص ٤٠٦.

(٢). نفس المرجع، ص ٤٠٦.

المبحث الخامس:

الاتجاه الماركسي في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال ق ١٤ هـ

هو تيار فكري فلسفي مادي يقوم على اعتبار المادة أساس كل شيء، ويفسر أحداث التاريخ الإنساني بصراع الطبقات؛ وبالعامل الاقتصادي، وهو منسوب إلى الماركسية التي وضع أسسها الفكرية النظرية كارل ماركس، وبدأ ينتشر هذا الفكر في البلاد العربية بعد نجاحه في استلام السلطة في روسيا عام ١٣٣٧هـ بتخطيط من اليهود، وتوسعت على حساب غيرها بالحديد والنار، وقد تضرر المسلمون منها كثيراً، وهناك شعوب محيت بسببها من التاريخ، ولكن الماركسية وأختها الشيوعية أصبحت الآن في ذمة التاريخ بعد أن تخلى عنها الاتحاد السوفياتي، الذي تفكك هو بدوره إلى دول مستقلة، تخلت كلها عن الماركسية، واعتبرتها نظرية غير قابلة للتطبيق.[١]

أصبح التيار الماركسي من التيارات الفكرية القوية المعاصرة، له دعاته وأنصاره في العالم العربي والإسلامي، ولعل من أبرز من يمثل هذا التيار اليوم: حسين مروة، وجلال العظم، وطيب تيزيني، ومحمود أمين العالم، وعبد الرحمن الشرقاوي، ومحمود إسماعيل، ورفعت السعيد، وخالد محيي الدين، وخالد بكداش، وحسن حنفي، ومحمد شحرور، ونصر أبو زيد، وخليل عبد الكريم، وحسين أحمد أمين، وغيرهم.[٢]

وقد تطور موقف الشيوعية الماركسية العربية من الإسلام من خلال مرحلتين:

أ. مرحلة المهادنة مع الإسلام، وذلك للتمكن من التغلغل في أوساط المسلمين، وهذه المرحلة لم تدم طويلا، لأنها لم تحقق النتيجة التي كان يتوقعها الشيوعيون.

ب. مرحلة التحالف مع الإسلام والحديث من خلاله، وانتهت هذه المرحلة بمحاولة مركسة الإسلام، أو أسلمة الماركسية، وهو الشيء الذي لا يمكن قبوله بحال من الأحوال.[٣]

وأما الفكر الماركسي الذي أخذ طابع الفلسفة، فقد انتقل إلى العالم العربي والإسلامي عن طريق الأحزاب الشيوعية التي انتشرت فيه، واعتنقها الكثير من المسلمين.[٤]

---

(١). مانع حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، جـ٢، ص ٩١٩.

(٢). مفرح القوسى: الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية، ص ٧٨ ـ ٩٥، وص ٤٧٧ ـ ٥٨٤.

(٣). محمود محمد حسين علي: دعوى الفهم اليساري المعاصر للإسلام (رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر بالقاهرة) ص ٣١، وعلي جريشة: الاتجاهات الفكرية المعاصرة (الطبعة الثالثة، المنصورة، دار الوفاء، ١٤١١هـ) ص ١٥٨.

(٤). محمود عبد الحكيم عثمان: جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي (الرياض، ١٤٠١هـ، مكتبة

حيث دأب مستشرقو أوروبا المنتمون للإيدلوجية الشيوعية الماركسية على تصدير هذه النحلة إلى العالم الإسلامي عن طريق الطلبة الذين أشرفوا عليهم في مرحلة الدراسات العليا، ولم تقتصر هذه الظاهرة في جامعات أوروبا الشرقية سابقاً ـ وبخاصة في موسكو وبرلين الشرقية ـ فإننا نجد لهذا الاتجاه رواجاً في أوروبا الغربية الرأسمالية كذلك..، ولعل الفرنسي مكسيم رودنسون أشهر مستشرق ماركسي غربي كتب في السيرة النبوية وأخضعها للتفسير المادي للتاريخ؛ فقد نشر رودنسون ثلاث دراسات متعلقة بالسيرة النبوية وهي:

"حياة النبي والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام" عام ١٣٧٧هـ و"محمد" عام ١٣٨١هـ ومادة "محمد" في دائرة المعارف الكونية بالمجلد الخامس عشر.

لعل أول من تطرق ـ على حد علمي ـ إلى التحذير من الاتجاه الماركسي المنحرف في دراسة السيرة النبوية هو الكاتب محمد سرور بن نايف زين العابدين في كتابه: (دراسات في السيرة النبوية) في معرض حديثه عن مناهج وزارة المعارف باليمن الجنوبي سابقاً فقال: "جاء في الصفحة الرابعة عشر من كتاب (السيرة والبحوث الإسلامية) المقرر في الصف الثالث الإعدادي عن الرسول ﷺ ما يلي: "وكان يرفض عبادة الأصنام التي كانت شائعة بين بني قومه وكثيراً ما كان يعتزل وحيداً في الجبل متأملاً مفكراً، ذهب مع عمه في تجارة إلى الشام وكان لهذه الرحلة أثر هام في حياة الشاب محمد، فقد مر بكثير من البلدان والمدن التجارية الحضرية وتعرف إلى الراهب بحيرا في مدينة بصرى الشام الذي كان على درجة عالية من الثقافة والاطلاع على الأساطير القديمة وأخبار الشعوب وتاريخها والأديان السماوية وكتبها المقدسة وقد أشار هذا الراهب إلى مواهب الشاب العربي وتوقع له قيادة العرب".[1]

لعلي أُشير ـ في هذا السياق ـ إلى واقعة غريبة حدثت في العراق في العهد الملكي، رواها كاظم المشايخي في كتابه: "الإمام أمجد بن محمد سعيد الزهاوي[2].. فقيه العراقين والعالم

المعارف) ص ٢١٠.

(١) محمد سرور زين العابدين: دراسات في السيرة النبوية، ص ٣٣٩.

(٣). أبو سعيد أمجد بن محمد سعيد بن محمد فيضي الزهاوي، ولد في بغداد عام ١٣٠٠هـ وقد كرس حياته لطلب = العلوم الشرعية، بعد وفاة مفتي العراق الشيخ قاسم القيسي، أنيطت به مهام الفتوى إلا إنه رفضها رسمياً، وعند اشتداد طغيان الشيوعية في العراق هاجر إلى المدينة المنورة، ثم عاد إلى بغداد، توفي يوم الجمعة ١٥/٨/١٣٨٦هـ. انظر: عبد الله العقيل: سماحة الشيخ العلاَّمة أمجد الزهاوي، على الرابط: http://www.ikhwanwiki.com

الإسلامي":

"لقد غمز الدكتور نجيب اليعقوبي[١] في إحدى محاضراته في الكلية الطبية في الرسول محمد ﷺ، فلما علم الشيخ بذلك تأثر تأثراً شديداً، وكان في مقر رابطة العلماء، فطلب من أحد الحاضرين أن يطلب له هاتفياً رئيس الديوان الملكي الأستاذ محمود شريف، وكلمه قائلاً:

"أفندي: تريد مقابلة الملك، فلما أجابه وضع السماعة من دون أن يقول له أي كلمة، وفعلاً قابل الملك، وعوقب الدكتور نجيب اليعقوبي".[٢]

وتناولت عدة أقلام ماركسية السيرة النبوية بالبحث والدراسة، بعضها كان على هامش دراسة قضايا ذات صلة بالسيرة النبوية، وبعضها الآخر تناولها على نحو مستقل، وليس ثمة ما يوحي بالغرابة فللماركسيين نظرتهم الخاصة ورؤيتهم الفكرية المميزة، فلا عجب أن يسجلوا موقفهم من ظاهرة النبوات بشكل عام، ونبوة محمد ﷺ ورسالته، تلك التي لا زالت حاضرة بقوة في العالم الإسلامي المترامي الأطراف الواسع الأرجاء.

وكما كتب المستشرقون ـ على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والإقليمية والدينية ـ في حقل السيرة، فقد كتب مستشرقو الماركسية في هذا الحقل الهام أيضاً، ومثلما كان معجبون ومقلدون للمستشرقين الغربيين، فقد كان للمستشرقين الماركسيين معجبون ومقلدون أيضاً، وهؤلاء المعجبون متحمسون جداً لا للاستشراق الماركسي وحسب، بل وللاستشراق بكل أنواعه، وتنوعاته، ما دام يحقق هدفاً نبيلاً من وجهة نظرهم، وهو ردّ الإسلام ونبوة محمد ﷺ إلى

---

(١). نجيب بن عبد المجيد بن عمر اليعقوبي، تخرج في الكلية الطبية الملكية في جامعة آل البيت في بغداد سنة ١٩٣٦م، انتخب نائبا في مجلس النواب عن مدينة كركوك، ثم عاد استاذاً في الكلية الطبية، وكان مديراً للمستشفى الجمهوري، توفي في بغداد سنة ١٩٨٠م. انظر: انظر: عصمت رفيق صارى كهية: تراجم نواب كركوك التركمان في برلمان العهد الملكي، بموقع: موسوعة تركمان العراق، على الرابط: http://www.alturkmani.com.

(٢). وقد رواها كاظم المشايخي عن الشيخ ياسين منصور السعدي: "وقال لي: لقد كنت قريباً من الشيخ؛ وسمعت جواب رئيس الوزارة، وكان في منتهى الأدب والاحترام". انظر: كاظم أحمد ناصر المشايخي: الإمام أمجد بن محمد سعيد الزهاوي.. فقيه العراقين والعالم الإسلامي (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ١٤٢٧هـ) ص ٤٢٦.

معطيات دينية سابقة: النصرانية واليهودية بل المانوية.. أو معطيات بيئية.

وكان من الطبيعي أن تنطلق المدرسة الماركسية في تفسير ظاهرة النبوة بشكل عام وظاهرة الإسلام ونبوة محمد ﷺ بشكل خاص من منطلقات ماركسية وبأدوات ومقولات ماركسية، ولذلك تبدو مقولات الاقتصاد وتقسيم المجتمع الى بروليتاريا وبرجوازية.. الخ حاضرة بقوة وذات كثافة أيضاً، وسبق لي مناقشة هذه المقولات أو مدى صحة تطبيقها في هذا الحقل في المبحث الأول من الفصل الأول من هذه الرسالة، إنما نحدد المعالم الرئيسية لهذا الخطاب وآلياته مما يساعد على الكشف عن الأهداف المحركة للبحث.

لعل آخر ما صدر للماركسيين العرب في حقل السيرة ما كتبه سيد القمني في كتابه: (حروب دولة الرسول) من جزئيين، وما كتبه الدكتور طيِّب تيزيني في كتابه: (مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر)، وهما لا يدخلان في إطار البحث والدراسة بسبب أن الأول مصري والثاني سوري، وسوف نقتصر على كتابات التراثي الماركسي هادي العلوي، وكتابه: فصول من تاريخ الإسلام السياسي.

هادي العلوي[١] وكتابه فصول من تاريخ الإسلام السياسي:

أجد من العسير جداً ـ عليَّ ـ لملمة ملامح هذا الكتاب، وما يريد المؤلف قوله أو بالأحرى ما يقصد من تأليفه لهذا الكتاب؟ فقد استغرق كثيراً كعادته في دوامة المصطلحات التي عودنا عليها هو وزملائه الماركسيين الجدليين أمثاله، والتي لا نود الخوض فيها بغية البعد قدر الإمكان عن السفسطة والفلسفة الجدلية ـ إلا بقدر ما يفيد البحث ويوضح الفكرة ـ وما يهمنا هنا ما يتعلق بموضوع دراستنا حيث ضمَّن مقدمته أهم فصول كتابه فقال:

"في محاولة للسير على النهج المنشود في دراسة تاريخنا السياسي تأتي الكتابات التي يضمها المجلد الحالي، وهي تشتمل على الكتب الثلاثة التالية:

ـ **في السياسة الإسلامية** وقد صدر في عام ١٩٧٤م عن دار الطليعة ببيروت.

ـ **الاغتيال السياسي في الإسلام** عن مركز الدراسات الاشتراكية في العالم العربي ١٩٨٨م.

ـ **من تاريخ التعذيب في الإسلام** عن نفس المركز ١٩٨٦م.

واجهت الكتب الثلاثة ردود أفعال مختلفة ترجع إلى التباين في الاتجاهات السياسية والفكرية، وقد شن رجال الدين الشيعة حملات مركزة على الكتاب الأول الذي صدر قبل هجرتي الاضطرارية من العراق، وعقد خطباء الحسينيات مجالس مطولة للرد عليه".[٢]

ويضيف ـ أيضاً ـ فيقول: "من هنا لم نجد حاجة في دراسة التاريخ السياسي للإسلام إلى التعريج على النبوة كموضوع للوحي، وحيثما وردت الإشارة إلى هذا الموضوع فمقصودنا المدلول السياسي للنبوة، وفيما عداه، يثير إقحام النبوة كموضوع للوحي في التاريخ السياسي مشكلات تمنع من تقييم إنجازات مؤسسي الإسلام وإخفاقاتهم كما عرضها المؤرخون لا كما يريدها

---

(١). هادي بن نوري بن سلمان بن خلف العلوي ولد في بغداد سنة ١٩٣٢م ونشأ في (كرادة مريم)، تخرج من كلية التجارة والاقتصاد بتفوق سنة ١٩٥٤م، حاول المزاوجة بين الماركسية والتراث وهو جوهر مشروعه، وحاول العلوي أقلمة الماركسية وكان جزءاً من مراميه الاخيرة أن أقترب من التصوف في أواخر حياته، ترك العلوي إرثاً ونتاجاً معرفياً، اهتم وأنشأ مشروع المشاعية اخريات عمره بعد ان هجر الأيديولوجيات الحزبية، توفي هادي العلوي في مستشفى الشامي بدمشق يوم ١٩٩٨/٩/٢٧م ودفن فيها.

(٢). هادي العلوي: فصول من تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة الثانية، نيقوسيا، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٩٩م) ص ١٧.

المؤمنون، ونذكّر هنا بالتناقض الذي وقع فيه سبينوزا بتجريده موسى من صفة القائد السياسي ودعوته إلى النظر إليه من زاوية الوحي السماوي، ومع أن سبينوزا قد يكون مرفوع بالتقية فإن مصادرته هذه تعزز الاتجاه في الأوساط المحافظة إلى دمج السياسة في النبوة، مع ما يترتب عليه من صعوبات في الفهم للتردد في استعمال وسائل النقد التاريخي للمجتمعات والممالك التي أقامها الأنبياء".(١)

بغية تفسير ظاهرة الإسلام يكثّف هادي العلوي أدوات الماركسية ومقولاتها وبطريقة لا تخلو من مهارة، ويعمد إلى تكثيف نصه ومحاولة تحشيده بالاصطلاحات الحديثة بل والاشتقاقات المحدثة أيضاً، وهنا نعترف للعلوي بالاطلاع الواسع على التراث العربي الإسلامي وكتب السيرة النبوية تحديداً، على خلاف عادته في بحوث أخرى يبدو فيها ساذجاً وسطحياً إلى درجة كبيرة، ومع ذلك فإنّ تعاطيه مع هذا التراث المترامي الأطراف يشي بضعف منهجي وتدنٍ ظاهر في حقل التراث وقيمته وطرق الوثوق به أو التعاطي معه، **وهذا ما لاحظته في الفصل الأول الذي وضع له عنواناً غريباً على ـ كتب المتقدمين والمتأخرين ـ بل ويثير الريبة والشك في نوايا الكاتب وهو: حول تكتيك الدعوة الإسلامية (من النبوة إلى السلطة)**.

انطلاقاً من القاعدة الماركسية ـ لهادي العلوي ـ يدور بحثه الأول حول قضية مركزية للكتاب، هذه القضية التي يمكن أن توجّه كل المسائل التفصيلية باتجاهها وعلى ضوئها، وبفضلها يمكن تقديم صياغة نظرية لنشأة الإسلام وتأسيسه على يد نبي الإسلام محمد ﷺ، تنسجم والرؤى الماركسية وتفسيرها للظواهر الدينية والاجتماعية.

أولاً: علاقة الرسول ﷺ بالوثنية الجاهلية:

من وجهة نظر ـ هادي العلوي ـ تُعد الجاهلية مقدمة للإسلام وليس ثمة مصدر رئيس وهام سواها، فالإسلام ـ إذن ـ نشأ وولد من أحشاء ما قبل الإسلام والمصطلح عليه بالعصر الجاهلي، وبكلمة أخرى فإن الجذر الأساس لظاهرة الإسلام ونبوة محمد ﷺ هو التوحيد ذو الطابع (القومي العربي) الذي حمل واكتسب تعبيراً خاصاً عرف بالحنيفية، وليس ثمة اختراق

(١). هادي العلوي: فصول من تاريخ الإسلام السياسي، ص ١١.

خارجي لمكة دعاها إلى هذا التوحيد، بل هي اختراع داخلي لغرض ردم العوائق التي أخذت تهدد حاضرة مكة اقتصادياً وتنذر بسقوطها، كان نتيجته العثور على صيغة توحيدية تلبي حاجة الاقتصاد المكي.

إن هادي العلوي عبقري من الطراز النادر.. ولعله وصف فكره ـ الماركسي الخبيث ـ فأبدع عندما قال: "ابتدأ محمد دعوته بأقرب الناس إليه، ممن تجمعه بهم صلة شخصية كان يقدر بسببها عدم المخاطرة واحتمال التأييد، فعرض على خديجة زوجته ثم على ابن عمه عليّ وربيبه فخادمه زيد بن حارثة ثم صديقه الحميم أبو بكر، وكان هؤلاء أول الناس إسلاماً، **وبتأثير أبو بكر دخل في الدعوة مجموعة من التجار الصغار تنتمي إلى بعض الأسر القوية في مكة**، وكان تقدم الدعوة بطيئاً بسبب النهج الذي اختاره محمد وهو العمل السري.

ونظراً إلى الظروف التي بدأت فيها الدعوة، فإن العمل السري هو النهج الوحيد الذي كان مقدوراً على انتهاجه، وكان دخول الأفراد في الدين الجديد مشفوعاً بتكتم مبالغ فيه، فكان الرجل يخفي إسلامه عن سرته؛ والديه أو إخوانه أو زوجته، وقد اتخذوا من دار أحد الدعاة وهو الأرقم بن أبي الأرقم مخبأ يجتمعون فيه إضافة إلى اجتماعاتهم في بعض شعاب مكة.

إلى أن قال: "وقد تألف من هذا العدد نواة الكتلة التي أصبحت قادرة على الإعلان بالدعوة، وعندها قرر محمد الانتقال إلى النشاط العلني، **وقد اعتمد محمد في الدعاية لدينه على الوعظ وكانت وسيلته إلى ذلك القرآن، الذي روعيت في صياغة آياته ميول العرب الجاهليين الأدبية مع تفرد بلاغي أريد به أن يكون من دلائل النبوة**..

وينهي كلامه بتعليلات ماركسية أشبه بالهرطقة: **"لم يكن مقدراً لمحمد على الرغم من طول الأمد الذي قضاه في مكة أن يكون مسيحاً ثانياً**، إن الدور الذي رشحته المرحلة لأدائه لا ينهض به واعظ ديني، وسيكون من التعقيد والاتساع بحيث لا يتحدد في إطار الدين المحض، ورغم الطابع الوعظي لنشاطاته في مكة، فإننا نجد في الآيات المكية نفسها جملة من الموضوعات التي ليس من اختصاص رجل دين، كالتنديد بأغنياء قريش والدعوة إلى إسعاف المساكين والتواضع لهم وكاتهام المترفين بالفساد ومعاداة الصالحين وبأنهم سبب الدمار الذي

يلحق الأمم..."[١]، هذا الإبداع الذي توفر عليه العلوي وإن لم يكن يصرِّح بأنه كان بتأثيرات المستشرق الألماني كارل بروكلمان وبوحي منه، فإنه لم يخف إعجابه بأفكاره التي حملها كتابه: (تاريخ الشعوب الإسلامية)، وبخاصَّة تلك التي فسرت ظاهرة الحنيفية ـ بروكلمان ـ ليس وحده الذي ترك بصماته واضحة في بحث العلوي، فثمة أسماء لامعة لمستشرقين معروفين سجلت حضورها بقوة في بحثه من أمثال: فلهاوزن، وميور، ومرجليوث، وجريمه، وجب.. وإن أوتي العلوي القدرة على الإيحاء لقرائه وبلباقة بجدة بحثه وطراوة أفكارة ورؤاه المبتكرة.

ولغرض تمرير هذه الفكرة الأساسية لبحث العلوي يحاول التأكيد على عمق الاتجاه التوحيدي في مكة باعتباره تياراً أو فرقة دينية ذات كيان متميز ومستقل، بل وينفي أن يكون في مكة ترسانة وثنية، ويرفض أن تكون كذلك، والحال أن مكة ـ من وجهة نظره ـ كانت مزدهرة بالاتجاه التوحيدي المعبّر عنه بالحنيفية، وإذا كان الحجاز ـ ومكة تحديداً ـ مزدهرين بالاتجاه التوحيدي فلا غرابة بظهور دعوة النبي محمد ﷺ إلى التوحيد وتبني الإسلام، فهو حينذاك إفراز طبيعي لهذه الاتجاه ونتيجة حتمية له.

هنا لا يقدم ـ هادي العلوي ـ معطياته وشواهده المكثفة على قوة حضور هذا الاتجاه ومدى تجذره في مكة على الأقل، بل على العكس تماماً ينساق مع المصادر التاريخية التي تؤكد حضور الوثنية بقوة ثقتها في مكة وخارج مكة، بل يؤكد ـ بناء على أخبار غير ذات قيمة ـ أن النبي محمد ﷺ كان على ملة قومه يعبد الأوثان، من غير أن تبدو المفارقة لعلوي أو يحتملها.

هنا أشير إلى طبيعة المنهج الانتقائي لهادي العلوي الذي يحاول التشبث بأي معطى دون أن يلتفت إلى المعطيات الأخرى، بل واستنتاجاته منها أيضاً، فهو في الوقت الذي يؤكد على الطابع المحلي للحنيفية ونفي أو التقليل من التأثيرات الخارجية، لا يجد غضاضة في تفسير بعض حالات النبي ﷺ في الحقبة الإسلامية الأولى بناءاً على تأثيرات خارجية بعيداً عن الحنيفية الصافية، بل تبدو الحنيفية عنده في هذا المقطع إفرازاً خارجياً ومظهراً من مظاهره، وغاب عن ـ العلوي ـ وهو يعرف المدلول الحقيقي لدعوة النبي محمد ﷺ، ماذا تعني هذه الدعوة بالنسبة لزعماء مكة ولأوضاعهم ومصالحهم وسلطانهم، وإلى ذلك نَّبه ورقة بن نوفل بعد سماعه خبر نزول الوحي لأول مرة فقال: "ليتني أكون حيّاً إذا يُخرجك قومك"، فيسأله النبي ﷺ: "أو

---

(١). هادي العلوي: فصول من تاريخ الإسلام السياسي، ص ٢٣.

مخرجي هم؟!" فيقول ورقة: "لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي"[(١)]، يلاحظ على ـ العلوي ـ حديثه عن مؤامرات خطيرة ومخططات كبيرة حاكها ورقة بن نوفل بمعونة السيدة خديجة رضي الله عنها لاستدراج النبي محمد ﷺ، وحديثه عن تأثيرات ورقة، وعداس، وبحيرا.. كل ذلك بناء على معطيات غير مسلّمة وغير واضحة! بل شكك فيها وقلّل من شأنها مستشرقون لا تهمهم نبوة محمد ﷺ إن لم يهمهم هدم الإسلام والنيل من نبيه ﷺ.

وننوه هنا إلى الطريقة الالتقاطية والانتقائية التي اتبعها العلوي في تعامله مع الأخبار، وهي طريقة تذكّر بأسوأ ما عرفه تاريخ الاستشراق من تعصب وكذب واستهتار بالمنهج العلمي، فيعمد إلى التهويل ومحاولة إسباغ القيمة العلمية المرموقة على مصادر عرفت بالاختراقات الإسرائيلية لها وتأثرها بالطابع الأسطوري، ومن ذلك كتاب: (الأصنام) للكلبي الذي نقل منه عبادة النبي ﷺ للأوثان! وكتاب: (السيرة الحلبية) الذي ازدحم بالغث والسمين، وفيه حشو وقصص إسرائيلي نبه عليه العلماء، فكان عليه أن يُدرك ذلك، ولكنه لم يتنبه؟! أو لعله كان يقصد ذلك ويتحراه بل ويبحث عما يخدم هدفه المرسوم مسبقاً؟!

ولم يأخذ بوجوب تطبيق أصول النقد العلمي عليها، فوقع ويالالأسف عمداً في أغاليط وحبائل جماعة من المستشرقين أمثال: شبرنكر، وكيتاني، ولامنس، بتعويلهم على الأخبار الضعيفة والغريبة دونما اعتبار لموازين الصحة والسقم التي اعتبرها العلماء ومدى اختلافهم فيها ـ أيضاً ـ وربما فاقهم في إدعاءاته الكبيرة وتهويلاته الضخمة كما في قصة الغرانيق، وقصة بحيرا، بل وقصة عداس التي عدَّها من القضايا المتواترة، وهي قضية لم يرد فيها حديث صحيح.

ثانياً: موقف الكاتب من دولة الرسول ﷺ في المدينة:

ومن عقدة اللقاحية الجاهلية يقول ـ هادي العلوي ـ في بداية كتابه حول شخصية الرسول ﷺ القيادية مايلي: "**أول سياسي في الإسلام هو محمد، وهو أيضاً أول قائد وأول حاكم، وقد أقام دولته الناشئة على أسس روعيت فيها اللقاحية الجاهلية**، واستمر على نهجه اللقاحي خليفتاه أبو بكر وعمر".[(٢)]

وحول الهجرة من مكة إلى المدينة، وبناء الدولة الإسلامية فيها يهرف ـ العلوي ـ بما لا

(١). البخاري: الجامع الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب حدثنا يحي بن بكير، جـ٤، ص ٣.

(٢). هادي العلوي: فصول من تاريخ الإسلام السياسي، ص ٩.

يعرف فيقول: "مع اليأس من أهل مكة صوّبَ محمد نظره إلى الخارج فعرض دينه على أهل الطائف فلم يلق استجابة، ثم فكر في استغلال موسم الحج لبث الدعوة في صفوف القادمين إلى مكة من حجاج القبائل العربية، ولم يوفق إلى استمالة أحد، ومن المرجح أن يكون قد درس في هذه الأثناء أوضاع يثرب، ثانية مدن الحجاز من حيث الأهمية، حيث توصل إلى إمكان الحصول على موضع قدم في هذه المدينة بفضل الملابسات التي كانت تعتمل في داخلها، وقد ساعده موسم الحج على الاتصال بحجاج من أهل يثرب فأسلموا على يديه وكان ذلك بداية المرحلة الثانية، والحاسمة في حياة الدعوة، **بل إن القرآن ليذهب إلى أبعد مدى حين يعد المستضعفين بدولة يرثون فيها الأرض ويكونون فيها أئمة (حكاماً)، وتتكرر هذه الموضوعات على حساب روحانية الكتاب المقدس بما يغري في العصور اللاحقة بإخراج القرآن من عائلة الكتب المقدسة**، وهكذا ما إن أسلمت يثرب حتى قرر محمد الهجرة إليها ليتخذ منها مركزاً لنشاطاته، وفي يثرب لم يعد محمد مع بقائه نبياً مجرد واعظ ديني، لقد أصبح فضلاً عن ذلك القائد السياسي والعسكري للجماعة المؤلفة من المهاجرين والأنصار، وكان تطور هذه الجماعة إلى مجتمع سياسي مؤهل لإنجاز مهام الدعوة، رهناً بتمتع محمد بسلطة آمرة على جماعته، أي جمعه بين صفة النبي والحاكم، وتصدق هذه الصفة بشكل خاص على زعامته للمهاجرين، حيث ساعد انقطاعهم عن عشائرهم المقيمين في مكة على تيسير انضوائهم تحت زعامة جديدة، خارج الوضع القبلي، **في حين كان للأنصار ولاء مزدوج لمحمد والقبيلة، وكان الولاء القبلي عائقاً دون وحدة الزعامة، كما كانت الأعراف القبلية هي القانون السائد، ولما بدأ يمارس صلاحياته ضمن هذه الحدود أصبحت يثرب مسيَّرة بقوتين هما: النظام القبلي مشيخة وأعرافاً**.[(١)]

ثم أخذ يستعرض نقاط الالتقاء بين المهاجرين والأنصار، فيقول: "سعى محمد بعد الهجرة إلى تصيير يثرب معشراً واحداً يلتف حوله، وسلك إلى ذلك طريقين:

١) إحلال الأخوة الدينية محل الأخوة القبلية بين المهاجرين والأنصار والأوس والخزرج، وقد حقق هذا التوجه نجاحاً ساحقاً وفَّر لمحمد قوة ضاربة اعتمد عليها في تنفيذ مخططاته

---

(١). هادي العلوي: فصول من تاريخ الإسلام السياسي، ص ٢٤.

المقبلة.

٢) وضع ميثاق للعمل المشترك بين المسلمين ويهود يثرب يعتمد على المبادئ المشتركة للفريقين، وتتصل هذه المحاولة في الأساس بمسألة الارتباط بين التفكير الديني لمحمد والتقاليد اليَهمسيحية (هكذا وردت).

يعكس هذا النهج، رغم أنه لم يحقق كامل أهدافه، مرونة النبي محمد وقدرته على العمل من خلال نقاط الالتقاء، أي ما يعرف في الأدب السياسي المعاصر بالعمل الجبهوي، ويمكننا في ضوئه أن نرفع بعض الريبة عن حكاية الغرانيق؟!

لا شك في أن عقيدة محمد كانت من الإخلاص بما لا يفسح مجالاً في التشكيك في جدَّيتها، وكان تصميم الرجل على تنقية دينه من آثار الشرك ثابتاً، وبوصف الدين الجديد مرحلة متقدمة في تطور الدين السماوي كان لابد أن ينهض على عقيدته توحيدية أكثر تنزيهاً، وهو ما يميز الإسلام عن الأديان السابقة، وقد تكون حكاية الغرانيق مع ذلك محاولة لاستدراج الخصم بإيجاد نقطة مشتركة لا تمس جوهر العقيدة، وقد وردت الحكاية في مصادر الحديث والتفسير وكتب أسباب النزول وأشير إليها في الآية (٥٢) من سورة الحج، وبعد فتح مكة سجلت أحداث السيرة ممارسات أخرى لا تختلف في جوهرها عن حكاية الغرانيق، ومن أمثلتها البارزة الابقاء على الحجر الأسود كأثر مباشر من آثار الشرك، وتحويله إلى منسك إسلامي، على أن تكتيك نقاط الالتقاء قد يخرج عن دائرة العقيدة ليغدو نهجاً سياسياً وليس مجرد تكتيك، والجبهوية في السياسة أدق سلكاً منها في العقيدة، وبالتالي أخطر عائداً، ويحدث هذا عندما تتحول المرونة إلى مساومة، من الثابت أن العقيدة الإسلامية لم تتعرض لامتحان عسير يمس مبادئها الأساسية ولكن الموقف الاجتماعي للدعوة واجه منذ فتح مكة على الأقل، تغيرات جذرية تمثلت في التنازلات التي حصلت عليها الارستقراطية القرشية لقاء ارتدادها عن الشرك وقبولها بالإسلام، وتفصيل ذلك يخرج عن غرض هذا الكتاب، ويبقى مع هذا التحفظ، لتكتيك (نقاط الالتقاء) أهميته كعامل ذي أثر كبير في إعطاء الدعوة قدرة أكبر على التحرك وينقذها من الانكماش الذي يهددها بخطر التوقف عن مواصلة السير نحو تحقيق أهدافها

العريضة".[(١)]

ثم أخذ يستعرض العلاقة بين المهاجرين والأنصار المشوبة بالحيطة والحذر! وكأن المهاجرين والأنصار في المدينة ـ من وجهة نظر العلوي ـ عبارة عن أعضاء في المكتب السياسي لأحد الأحزاب الشيوعية الحديثة؛ فتحت عنوان جانبي: (مع الأتباع) يستعرض ـ العلوي ـ فيقول: "تحمل تركيبة كتلة الدعوة المحمدية درجات متفاوتة الشدّة من عدم الانسجام، فهناك المهاجرون والأنصار، الخطّان العريضان للصحابة، وبينهما هوة شبه ناشئة عن انحدارهما بين بيئتين شديدتي الاختلاف؛ فالأولى من مكة وقبلياً من قريش، والثانية من يثرب وقبلياً من الأوس والخزرج، وتغلب على الأولى حرفة التجارة بينما يعمل أكثر أهل يثري في الزراعة بين ملاكين ومزارعين، ويختلف المهاجرون فيما بينهم؛ ثراءً وفقراً وجاهةً وخمولاً، وكذلك الأنصار الذين يفرق بينهم فضلاً عن ذلك انقسامهم إلى قبيلتين يجمع بينهما عداء قديم، وفي مجرى الكفاح الذي خاضته الدعوة بعد هجرتها إلى يثرب، بدأ الانقسام إلى أجنحة متضاربة الاتجاهات يتضح أكثر فأكثر، فكانت هناك جماعة علي بن أبي طالب التي تضم أمثال عمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي، وجماعة عثمان بن عفان من التجار الصغار الذين علا نجمهم مع تقدم الدعوة، وكان عماراً مصدراً خصباً للمناوشات بسبب تعرضه للازدراء الناجم عن كونه من العبيد السابقين، أما عليّ فكان مكروهاً من قريش ـ مشركيهم ومسلميهم ـ ولكلا الرجلين حجم كبير في نشاطات الدعوة كان يضاعف من فرص الاحتكاكات بالعناصر الأخرى، بهذه الكتلة المشتتة، كان على محمد أن يكافح في سبيل دعوته، وربما كان لشخصيته الخاصة بوصفه نبياً تأثير روحي عميق في أوساط الكتلة، ويعطي الإيمان بهذه الصفة وزاعاً ذاتياً للتسليم بالأمر القرآني: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]".[(٢)]

وما مضى من آثار المصادر الشيعية، ومن خلال اللعب بالكلمات يتوصل ـ العلوي ـ إلى نتيجة مؤداها: "وفي مثل هذا الوسط لم يكن التفكير في السلطة بعيد عن هذا النبي خلافاً لما يستنتجه بعض المستشرقين من بقاء النظام القبلي محافظاً على قوته بعد الهجرة ومع الانتصارات

(١). هادي العلوي: فصول من تاريخ الإسلام السياسي، ص ٢٦.

(٢). نفس المرجع، ص ٢٨.

التي أحرزها محمد في حربه مع قريش ومع القبائل الأخرى في الحجاز والجزيرة تعزز وضعه كحاكم". [(١)]

والحقيقة أن النبي ﷺ عند وصوله إلى المدينة واجه حالةً سياسية واجتماعية تشبه إلى حدٍّ كبير تلك التي واجهها بمكة، فقد آمنت به فئة أكثرها من قبيلة الخزرج، في حين تحالفت بقية الخزرج مع نصف الأوس واليهود ضدّه، وكان على الرسول ﷺ من جديد أن يفكك التضامن القبلي المعادي من جهة، وأن يصل إلى هدنة مع يهود من جهة ثانية، وفي هذا السياق يمكن فهم محاولات الرسول ﷺ الجادة والبناءة عبر بناء المسجد النبوي، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكتابة الصحيفة بين قبائلها ويهود، والحق أن حالة من الحيرة هذه التي تجلت في محاولة توحيد المؤمنين المكيين والمدنيين على غير أساس قبلي، وضرب التضامن القبلي المعادي في الوقت نفسه، أبرزت فئات جديدة تكاثرت بدل أن تقسم المجتمع إلى فئتين اثنتين كما حدث في مكة، لقد كان المجتمع المكي موحداً قبلياً في الأساس، أما في المدينة فقد كان هناك الأوس والخزرج ويهود، ولم تكن هذه المجموعات الثلاث نفسها موحدة داخلياً! وأساس هذه الوحدة أو الجماعة هو الدين الواحد أو الشريعة الواحدة التي بشر ونادى بها الرسول محمد ﷺ، لا الانتماء العصبي القبلي.

ثالثاً: النبي محمد ﷺ بين الأخلاق والسياسية:

بعد أن استعرضنا قدرات الرسول ﷺ السياسية في إقامة دولة الإسلام في المدينة ـ من وجهة نظره ـ يبدأ العلوي في المقارنة بين أخلاق الرسول ﷺ وما تطلبه السياسة من مكر ودهاء وحنكة وقدرات الرسول ﷺ في التوفيق بينهما فيقول: "ومن السهل أن نتصور كيف يكون تصرف جماعة دينية تجاه شخص مقدس يتلقى الوحي من السماء، ولكننا نعلم أن سلوك الإنسان لا يخضع لوازع معين، فهو أسير اعتبارات متعددة قد لا يكون الإيمان الديني أشدها بأساً، ومن هنا فإن النظر إلى مركز محمد الديني كعامل حاسم، قد لا يبدو مقبولاً على وجه الإجمال، **وإذا كان محمد لم يغفل الاستفادة من مزايا وضعه الخاص لضمان هيمنته على أصحابه،** فإن ذلك يأتي ضمن معرفة كافية بشروط الزعامة وسيكولوجية الأتباع،

(١). هادي العلوي: فصول من تاريخ الإسلام السياسي، ص ٢٥.

ويكشف تاريخ المغازي عن دور كبير لعبته النفعية إلى جانب الحماس الديني في الحروب التي خاضها محمد، وكانت قسمة غنائم الحرب قد صممت بطريقة ترضي هذا الحافز، وفي كل الحروب كان المقاتلون المسلمون يخرجون من المعركة بنتيجتين:

ـ **القتيل** يُرسَّم شهيداً يدخل في عالم القديسين وتضمن له الجنة.

ـ **والمقاتل** العائد يحصل على نصيبه من الغنيمة، وقد ضمن محمد من الجهة الأخرى لذوي القتلى معيشتهم فكان المقاتل يذهب إلى الجهاد وهو مطمئن إلى مصير أسرته من بعده.

وفي حقل المعنويات أبدى محمد مهارة فائقة في استخدام بعض أجزاء الايدلوجيا الدينية لتعميق الحماسة وغرس روح التضحية في أوساط المجاهدين من أتباعه، ونلفت النظر في هذا الخصوص إلى: القضاء والقدر، حتمية الموت، قدرية الرزق وإحالة تقسيمه إلى الخالق، ربط ما يصيب الإنسان من مصائب بإرادة الله (الصبر ـ التوكل)، مشاركة الملائكة في القتال... الخ.

نأتي إلى المشكلات التي كان يثيرها الصراع بين الأجنحة المختلفة للمهاجرين والأنصار فنجد محمد يؤكد على أصحابه ضرورة الرجوع إليه في أي خلاف ينشب بينهم، ويأتي ذلك في سياق الآية التي حاولت إعطاءه سلطة آمر في يثرب، وكان ف قضائه بينهم يتصرف بعدم انحياز ويمارس تذكيراً متواصلاً بالرابطة العريضة التي تتسع الجميع وهي أخوة الإسلام، وأظهر محمد في سائر معالجاته للقضايا الناشبة بين أصحابه، أو المثارة ضده، مهارة دهائية تعززها موهبة بلاغية كثيراً ما كانت تسعفه في اللحظات الحرجة، ومن المفيد أن نكتب المثال التالي من سيرة ابن هشام حيث وجه انتقاد شديد لطريقته في توزيع غنائم معركة حنين، قال ابن هشام ما ملخصه: إن رسول الله لما أعطى من تلك العطايا قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجدوا أنفسهم عليه حتى اتهموه بالتحيز إلى قومه، ودخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت، في قومك وأعطيت عطايا في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي.. وهنا طلب منه أن يهيء له اجتماعاً خاصاً يحضره الأنصار وحدهم، إلا نفراً من المهاجرين سمح لهم بالحضور، فخطب النبي: يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم وجِدَة وجدتموها عليّ في أنفسكم ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين

قلوبكم؟ قالوا: بلى... الله ورسوله أمنّ وأفضل. ثم استدرك: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالو: بماذا؟ قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدَقتم ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلاً فآسيناك. **أراد بهذا الاعتراف أن يفتح قلوبهم عليه بعد أن صدمهم بالمن عليهم في بداية الخطبة؟!** ثم خلص إلى غرضه: أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟

مفارقة فاضحة يضعها النبي بين أيديهم: أناس اشتريتهم بالمال، وآخرون يؤمنون لأجل الإيمان. ويستطرد: ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ ماذا سيقول الأنصار وهم مخيرون بين أن يمتلكوا الشاة والبعير أو أن يمتلكوا رسول الله؟ وبعد أن ضرب رسول الله هذه الضربة المحكمة واصل خطابه: والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً سلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، **وهنا بكى الأنصار حتى اخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ولم يكن أمام الساخطين وهم يواجهون هذه المناورة الخطابية الذكية إلا الرضا.**

لا نملك بعد التعليقات التي وضعها ـ العلوي ـ وكأنه شاهداً بنفسه لموقف النبي محمد ﷺ من الأنصار، فيرى أنه موقف محكوم بتطور تجربة النبي محمد ﷺ وخبرته وتعمق هذه الخبرة، ففي وقت من الأوقات رأى محمد في الأعراب الكفر والنفاق، ولكنه في وقت آخر ـ وبتعمق التجربة المحمدية ـ يلاحظ أن التعميم لم يكن صحيحاً، فوجد فيهم من يؤمن باللّه ورسوله ﷺ، وقد تحدث عن النسخ الذي كان محكوماً هو الآخر بتطور هذه التجربة وتعمقها.

هنا قد يبدو للقارئ أن الآيات التي تحدثت عن الأعراب متفرقة ونزلت على فترات متقطعة، ليوحي ذلك بتطور الموقف أو تعمق التجربة المحمدية على رأي العلوي، إلاّ أنّ الآيات كما هو الواقع ـ للأسف ـ لم تكن كذلك وهي نزلت دفعة واحدة وفي سورة واحدة وهي سورة التوبة، والتي تحدثت لا عن الأعراب ـ كبدو ـ ونفاقهم بل عن الحضر ونفاقهم ممن كان في المدينة وفي الوقت ذاته.[1]

(١). هادي العلوي: فصول من تاريخ الإسلام السياسي، ص ٢٨ ـ ٣١.

الفصل الثالث

تقييم جهود مؤلفي السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر الهجري:

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مدى الالتزام بالأمانة العلمية والموضوعية في الكتابة والنقل.

المبحث الثاني: قيمة نتاجهم العلمي.

المبحث الأول:

مدى الالتزام بالأمانة العلمية والموضوعية في الكتابة والنقل

لا ريب في أن للتاريخ أهميته وتأثيره في حياة الشعوب والأمم، ولكن تاريخ نبينا محمد ﷺ يبقى هو الأعظم أهميةً، والأقوى تأثيراً ــ خصوصاً بالنسبة للمسلمين ــ عبر العصور، على اختلاف أجناسهم، ولغاتهم، وانتماءاتهم، ويرجع ذلك إلى طبيعة العلاقة التي تربط المسلمين بالإسلام بما له من شمولية، ودقة متناهية، ثم بنبي الإسلام ﷺ، الذي يمثل التجسيد الحي، والأسوة والقدوة للناس، في أدق الأمور وأقلها، وأعظمها خطراً وأجلها، قال ﷻ: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] وقال ﷻ: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾ [الأحزاب:٢١].

فمن الطبيعي إذن، أن يكون لسيرته ﷺ تأثير أساسي ومصيري في كل الواقع الذي يعيشه الناس، وفي مختلف جهات وجودهم في الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية، وفي التكوين النفسي، والفكري للإنسان المسلم، وفي خصائص شخصيته وحالاتها، حتى على مستوى العواطف والمشاعر، ثم في طبيعة النظرة للأمور، وأسلوب التعاطي معها، بل في طموحات الإنسان ورغباته، وآماله القريبة والبعيدة منها على حد سواء.

إن أي شيء يسجله التاريخ لنا عن نبينا محمد ﷺ، قد تكون له أبعاد ودلالات مختلفة ومتفاوتة كماً وكيفاً، فقد نجده مرتبطاً ــ كلاً أو بعضاً ــ بالسلوك، وبالفقه، وبالموقف السياسي، وبالتعامل التربوي، وله دلالات اعتقادية، وتأثيرات عاطفية، وارتباط بالعلاقات الاجتماعية، وكذلك بتفسير القرآن، وبالرجال، والدراية، وباللغة، والأنساب، والجغرافيا، والطب ... الخ، وهذا ما يؤكد لنا صعوبة البحث في السيرة النبوية وكتابتها، على صعيد تحقيق النصوص وتمحيصها، ثم الاستفادة منها في الموقع المناسب، وبالطريقة المناسبة، فالبحث في السيرة النبوية هو الأشد حساسيةً وخطراً؛ لأن أي خطأ أو إفراط أو تفريط فيه سيترك آثاره على عقائد وسلوك الناس، ومجمل حياتهم، وشخصيتهم الفردية والاجتماعية.

وإن مما لا شك فيه هو أننا نملك ثروة تراثية هائلة، لم يتسنّ لأية أمة أن تملك مثلها لشموليتها ودقتها، وتوفر عناصر الصحة فيها، وهي تكفي ــ لو أعطيت حقها من الدراسة والتمحيص ــ لإعطاء صورة واقعية، متقاربة الملامح، ليس في الخطوط العامة وحسب، وإنما في كثير من التفاصيل الدقيقة لحياة نبينا ﷺ، وحتى بالنسبة للكثير من الأحداث التي مرت

بالمسلمين، بل بالأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام.

ويعتبر القرآن الكريم هو المصدر الأوثق والأصدق والأصفى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو التدوين الأول الصحيح لنصوص سيرة النبي ﷺ، ولغيرها من شؤون وقضايا، ثم هناك ثروة هائلة من النقول ـ وكثير منها يرتقي إلى درجة التواتر القطعي ـ خصوصاً ما يحكي لنا منها مواقفه ﷺ، وأقواله، وأفعاله، ومناسكه، وعباداته، وسياساته، وغير ذلك من شؤون تنوعت واتّسعت لتستقطب كافة مناحي الحياة ومجالاتها، وهذه السعة والشمولية قد انتجت انتشار المادة التاريخية في مختلف الكتب والموسوعات، مثل: كتب العقائد، والرجال، والفقه، والأنساب، والتفسير، وعلوم القرآن، واللغة، والشعر، والأدب، والجغرافيا، وغير ذلك من علوم إنسانية إسلامية، كتبت بعد ظهور الإسلام، هذا فضلاً عن كتب التاريخ والسيرة، وكان ما نقله الناقلون خاضعاً في دقته وعمقه لمستويات ادراك، وتوجهات واهتمامات الناقلين، ونوع ثقافاتهم، وقد تلمس في بعضها درجة من السذاجة والسطحية تفقدها صلاحية الاستدلال بها، أو الاعتماد عليها في بلورة صورة واقعية، منسجمة المعالم عن الحدث الذي يراد التاريخ له.

أما كتب التاريخ؛ فإنها قد اكتفت بعرض الروايات للوقائع، وفق تسلسل زمني وحولي، أو وفق هيكلية معينة ــ إن صح التعبير ــ من دون أن تهتم بدوافع الحدث ومحفزاته القريبة، فضلاً عن ربطه بسائر المؤثرات والأسباب، أو الظروف والمناخات التي انتجته، أو أثرت فيه بصورة أو بأخرى، أما النتائج والآثار، فهي غائبة كلياً أو تكاد عن ذهن الراوي، أو المؤرّخ، إلا فيما شذ وندر، وحيث لا يجد أي حرج أو تثريب في الإشارة إلى شيء من ذلك.

أما بالنسبة للوسائل والمعايير التي يفترض بالباحث أن يعتمدها في حصحصة الحق؛ فهي نفسها تلك التي يعتمدها عقلاء البشر كافة، على اختلاف نحلهم واتجاهاتهم ومذاهبهم، فالبحث الإسنادي مثلاً، معتمد لدى الجميع، فيحاول ــ قدر المستطاع ــ التحري والتثبُت، فكُتب الحديث تحوي قدراً كبيراً من أخبار السيرة النبوية وإن كانت لا تغطي كل أحداثها، وليست كلها على درجة واحدة من الالتزام برواية الصحيح، فكما هو معروف كان على رأس من التزم الصحة في مروياته الإمامان الشيخان البخاري ومسلم، ومن هنا تبرز أهمية النقد

الحديثي لروايات كتب السيرة والتاريخ.[١]

لذا يتعين على المرء أن ينظر في أسانيد كتب السنن والمسانيد والمستدركات وغيرها من كتب الحديث التي التزمت الإسناد، فيقبل ما هو صحيح أو حسن، فيحتج به، وإذا استأنس بالضعيف فيما دون ذلك، فعليه أن يكون عالماً بذلك منبهاً عليه[٢]، فكبار المحدثين أمثال: الحافظ ابن سيد الناس في كتابه (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير)، والحافظ الذهبي في كتابه (تاريخ الإسلام) عندما كتبا السيرة النبوية اعتمدا على الكتب الستة (البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه) لكنهما لم يتمكنا من الاستغناء عن كتب السيرة والتاريخ[٣].

وليس من معيار علمي دقيق أحسن من منهج أهل الحديث في النقل والرواية، لأنه منهج موضوعي يحكم على الرواية من خارجها، فلا يهتم بدعمها لهذه الرؤية أو تلك، مادامت قد وردت بسند متصل من الرواة العدول، ولم تشتمل على شذوذ بيِّن أو علة قادحة، وقواعد النقد عند علماء المسلمين تشمل جانبين أو مبحثين من مباحث الحديث النبوي الشريف وهما:

١) مبحث الإسناد ويسمى بعلم "الرواية".

٢) مبحث المتن ويسمى بعلم "الدراية".[٤]

وكانت الحربة التي واجهت بها قوى الدس والتضليل من المستشرقين والمستغربين وأذنابهم ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم ـ الأمة الإسلامية ـ هي التشكيك في قيمها ومقدساتها بشراسة وعنف، وكان أيسر ذلك وأخطره هو محاولة تشويه التراث وتهجينه، أو على الأقل التشكيك فيه، تمهيداً لفصل الأمة عنه، وإقامة الحواجز بينها وبينه، ولكن الأخطر والأمر الأدهى من ذلك هو أنه قد تبعهم عن قصد أو عن غير قصد أصحاب الطموحات الزائفة، والاتجاهات الباطلة، الذين يعانون من الضعف والخواء العلمي؛ حيث سّهل عليهم ـ بل ليس

---

(١). مهدي رزق أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، جـ١، ص ٢٠.

(٢). نفس المصدر، جـ١، ص ٢٢.

(٣). أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، جـ١، ص ٤١.

(٤). محمد صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ١٣٧.

ثمة أسهل ـ من أن يقوم شخص ما برصد بعض نقاط الضعف بنظره، وإثارة جوٍ من التشكيك بإثارة مشكلة هنا، وإطلاق شبهة هناك، ثم تضخيمها وتهجينها بطريقة غوغائية هي أشبه بأسلوب التهريج منه إلى النقد، أو بالبحث العلمي المنصف والرصين.

أما الذين كتبوا في السيرة من المعاصرين عموماً والعراقيين خصوصاً، فقد وقعوا في محذوري الإفراط والتفريط، حينما اهتم فريق منهم بالتأويل الباطل الذي لا تحتمله أساليب اللغة العربية، أو بالقول بأن لكل ظاهراً باطناً، كما ادعى أصحاب الاتجاه الشيعي، أو بإنكار المعجزات والكرامات، وإنكار الملائكة والجن، وإنكار القضاء والقدر، كأصحاب الاتجاهات المنحرفة من العقلانيين والقوميين واليساريين، أو باعتماد الأوهام والظنون والمكاشفات وخواطر النفس، كأصحاب الاتجاه الصوفي، أو بالالتزام بأساليب المنطق الصوري ذي الحدين والفلسفة اليونانية القديمة، كما فعل أصحاب الاتجاه العلماني.

مما سبق يتضح أن الاتجاهات المختلفة في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر لم تهدف إلى أن تصل إلينا سليمة ولا قويمة، بل تعرضت للتحريف وللتزييف، والدس وللتشويه عن عمد أو عن غير عمد، حيث لم يقتصر الكُتاب بمختلف انتماءاتهم واتجاهاتهم ـ عدا أهل السنة والجماعة ـ على نقل ما تيقنوه من أحداث وشؤون، بل أضافوا إليه الكثير من المظنونات، والحدسيات، أو المختلقات التي صنعتها الأهواء، والعصبيات، والمصالح الخاصة، التي رأت أن من مصلحتها نسبة ذلك إلى الرسول ﷺ، ليكتسب بذلك شرعية وقداسة، تبعده عن الريب، وتجعله يحظى بالرضا والقبول من مختلف الفئات والطبقات، ومضت السنون والأيام بما فيها، وصار الكثير من ذلك جزء من حياة الناس اليومية وتأثر به تفكيرهم، ومفاهيمهم وعاداتهم ثم أصبح جزء من تاريخهم الذي اعتبروه سديداً ومجيداً.

ثم إنه على أساس ما ينشأ عن ذلك من مناخ نفسي مضطرب وضاغط، يشن أصحاب الاتجاهات المنحرفة والمخالفة هجماتهم الشرسة، والكاسحة على الثوابت الأساسية، التي ترتقي إلى درجة الضرورة والبداهة، بل والمساس بصورة صريحة أحياناً بأقدس المقدسات وأسماها، دونما مبرر أو دليل معقول ومقبول، بهدف خلخلة ثباتها، وزعزعة وجودها، وتدمير حالة الحصانة والمناعة لدى عامة الناس، الذين تبهرهم الادعاءات، وتستخفهم الطنطنات الخاوية، من قبل

ذلك الذي يعرف متى، وأين، ومن أين تؤكل الكتف؟!

ثم يقدم باسم الدين، وباسم الفكر والوعي البديل الممسوخ، الذي هو في الحقيقة مجرد هجين مركب من آراء وتصورات، هي في كثير من الأحيان بعيدة عن المنطق السوي، وعن روح الشريعة والدين، إن لم تكن متنافرة مع أصوله وثوابته، وليصور نفسه أمام الناس على أنه باعث حركة إصلاحية، ورائد نهضة فكرية وحضارية.

إن آفة الكثير من الكُتاب العراقيين ممن كتبوا في السيرة النبوية خلال القرن الرابع عشر هي عدم الالتزام بالموضوعية في الكتابة والتحري في النقل، فقد ورثت أجيال المسلمين تراثاً ضخماً من الروايات المختلفة، **فأصبح جل الباحثين والكاتبين ينتقون الروايات التي تناسب رؤيتهم، دون اعتماد معيار موضوعي في النقل والكتابة، والغريب والعجيب في آن واحد، هو أن بعض الكتاب ممن يدعون الالتزام بالموضوعية والمنهج العلمي لا يلزمون أنفسهم به إلا نظرياً أو يشيرون إليه في مقدمة كتبهم بغية استدرار حب عامة المسلمين لنبيهم ﷺ، فهم يهاجمون الكذابين والمتساهلين في النقل، ثم يسمحون لأنفسهم بكل أنواع التساهل إذا كانت بعض الروايات تدعم وجهتهم في النظر والتحليل.**

وقد مر بنا عدد من الدراسات لكتاب عراقيين، بذلوا جهداً رائعاً في نقد الروايات وبيان صحيحها من سقيمها، وهو جهد يحتاج الباحثون القادرون على التحليل إلى الاستفادة منه، إذا ما أرادوا الأخذ عن هؤلاء المؤرخين، لكن هذه الدراسات عانت من خلل في جانبين:

ـ **أولهما**: أن مؤلفيها لم يبذلوا جهداً كبيراً في استقراء الروايات الواردة في كتب الحديث والسيرة، ولو فعلوا ذلك بتوسع كافٍ، لما احتاجوا إلى روايات المؤرخين إلا قليلاً، وهذا تقصير غير لائق خصوصاً من المتخصصين في السيرة وعلومها.

ـ **وثانيهما**: أنهم لم يلزموا أنفسهم بمقتضى المنهج الذي دعوا إليه، فحالما انتهى كل منهم من نقد روايات المؤرخين، وبدأ تحليل الأحداث، نسي كل قواعد التحديث، وغدا يسرد نقول المؤرخين التي تدعم تحليله بمن فيهم المعاصرين، فرب مبلغ أوعى من سامع.

إن المبادرة إلى تحليل النص قبل ثبوته، وقبل التوثق من صحته وسلامته، ثم الاستنتاج والاستفادة العملية منه تصبح أمراً غير عملي، ولا منطقي، كما إن الاستدلالات الساذجة والسطحية المحكومة بمقدمات ذهنية خاطئة تصبح هي الأخرى غير مقبولة ولا معقولة أيضاً،

هذا بالإضافة إلى أنه لا يجوز أن يصبح التراث، وخصوصاً السيرة النبوية المباركة، عرضة لتطفل من لا يملك المؤهلات الكافية لإنجاز عمل تحقيقي وافٍ وعميق، يميز الصحيح من المزيف، والسليم من المحرف لأن أي خطأ، أو إفراط، أو تفريط في ذلك معناه الاستهانة بمستقبل هذه الأمة، وتعريضها لخطر كبير وأكيد.

وقد نجحوا فيما أرادوه أيما نجاح، وأصبح نقل جبل من مكان أسهل وأيسر من اقتلاع أباطيلهم من فكر الناس ومن حياتهم، لاسيما بعد أن تقادم عليها الزمن، واصبحت جزءاً من تاريخ أحاطوه بهالة من القداسة، واعتبروه من أمجاد الأجداد ـ السلف الصالح بزعمهم ـ للأولاد والأحفاد الذين سلكوا طريقهم بكثير من حسن النية، وسلامة الطوية لدى الكثيرين منهم، والذي ساعد على ذلك أيضاً أن هؤلاء الأحفاد لم يكونوا مؤهّلين للتعامل مع هذا الواقع من موقع الخبرة الواسعة، والهيمنة العلمية، والوعي الصافي والكافي لاستشعار الخلل، وتلمس آثاره ثم مواجهته بمسؤولية وثبات.

ومهما يكن فإن الطامح إلى دراسة السيرة النبوية الشريفة ـ دون مجازفة في النقل ـ يحتاج إلى أن يكون صبوراً، فيسيح في كتب الصحاح والسنن والمسانيد دون كلل أو ملل، ثم يتجه إلى كتب التراجم التي كتبها أهل الحديث، والتي تتضمن تصحيحاً لكثير من الروايات في السيرة النبوية، وطعناً في الدخيل والمعلول منها، ويكون ممن يملكون قدرة منهجية تركيبية تمكنه من ضم هذه الأخبار المتناثرة في سياق محكم واحد، وبناء صورة كلية منها ـ دون أن يكون عالة على تبويب الأقدمين واهتماماتهم ـ ثم استنباط دلالة تلك الصورة في الماضي وعبرتها في المستقبل.

ومهما يكن من أمر، فإن في كتب الحديث غُنْية، وكلما تمرس الباحث في التعامل معها، وغاص في كنوزها، اقتنع أن فيها من التفصيلات عن حياة خير البشر محمد ﷺ كفاية لكل راغب، فإن أراد التوسع فلن يحتاج من المؤرخين إلا إلى تفصيلات بسيطة تسد ثغرات في صرحه النظري الذي بناه على الروايات الصحيحة، وربما لا يحتاج إلى ذلك أصلاً.

وخير المؤرخين هم أهل الحديث ـ أيضاً ـ فقد جمع عدد من العلماء بين العلمين، وأتقن الصنعتين، ومن هؤلاء الذهبي، وابن كثير، وابن حجر، وغيرهم، فهؤلاء وإن لم يلتزموا منهج الجرح والتعديل في كتاباتهم التاريخية، إلا أن تمرسهم بالصحيح والسقيم، وخبرتهم في نقد المنقول

نقداً مقارناً، يجعلهم ينتبهون في الغالب إلى الروايات المنكرة والشاذة والمكذوبة، التي خالفت ما يعرفونه من الروايات الصحيحة، فينبهون على نكارتها أو شذوذها أو انتحالها، وفي ذلك عون جليل للباحث الحريص على التزام الأمانة العلمية في صحة النقل، وموضوعية الكتابة.

المبحث الثاني:

قيمة نتاجهم العلمي

إن العناية بالسيرة النبوية والاهتمام بها قد تناوله الكُتاب العراقيون خلال القرن الرابع عشر من كافة الاتجاهات المختلفة، فكثيراً من الكُتاب بذلوا غاية جهودهم فألفوا كتباً في سيرة النبي الأمين ﷺ وأقاموا حججاً بالغة على عظمة رسول الإسلام ﷺ واعترفوا بما للنبي الكريم من الفضل في تحرير المجتمع من مظاهر الشرك والوثنية، بل إن دعوته عليه الصلاة والسلام رفعت الأمة من حضيض الشقاء إلى أوج السعادة في سنين معدودة، **وإن كانت بعض دراساتهم وكتبهم لا تخلو من دسٍ وسمْ، ولذا فإنه لا ينبغي خلع الثقة المطلقة عليها.**

ومهما كتب الكتّاب وملؤوا بطون الأسفار والمجلدات بفضائله ـ التي لا تعد ولا تحصى ـ فهم عاجزون ومقصرون في حصر جميع ما لحضرته ﷺ من الأوصاف الحميدة والخصال الطيبة الطاهرة، فهو ﷺ قد بلغ أوج الكمال الإنساني حيث اصطفاه ربه لتبليغ رسالته الإلهية فكان لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وقد أثنى عليه ربه جَلَّ جَلَالُهُ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] وأمثال هذا كثيرة في أعظم كتاب وأفضل بيان فخارج عن الطوق إحصاء كمالاته بتمامها:

كملت محاسنه فلو أهدى السنا ... للبدر عند تمامه لم يخسف

وعلى تفنن واصفيه بوصفه ... يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

فجدير بنا أن نفخر بسيرته ﷺ، ونستمد منه المثل العليا، ونتخذه منطلقاً للنهوض من كبوتنا، واسترداد مكانتنا، **ولما أراد أعداء الإسلام محو ذاكرة، وقطع صلتها بتاريخ نبيها المجيد أَوْلُوْا هذه الدائرة اهتماماً كبيراً، واعتبروا السيرة النبوية الشريفة أحد المنابع التي يجب تجفيفها، ليحولوا بين المسلمين وبين أحد أهم مصادر شموخهم ونهضتهم.**

ومنذ بعث رسول الله ﷺ وحتى يومنا هذا والمؤامرة عليه وعلى المنهاج الذي جاء الناس به من قبل رب العالمين مستمرة، وقد اتخذت صوراً شتى وأساليب متنوعة، ومنها: الكتابة والتأليف فالمؤلفات العربية عموماً والعراقية خصوصاً خلال القرن الرابع عشر؛ التي تناولت سيرة النبي محمد ﷺ من كافة جوانبها ـ وهي كثيرة جداً ـ تعزّ على الحصر، وتربو على العدّ، وقد لقي بعضها إقبالاً في عصره وبعد عصره من لدن علماء المسلمين وعامتهم، وكانت تُتداول وتُقرأ

للطلاب، ويرجع إليها الباحثون والدارسون، وبعضها قد تشرب وانتشى بالثقافة الغربية والاتجاهات الحديثة التي حملت إلينا معاداة الكتب القديمة والتراث حتى أصبح ذكرها ينتفخ له سَحْرُ(١) الكثيرين، فقد وجد كثير من الكتب الحديثة والمعاصرة في السيرة النبوية، ولست بصدد بيان المآخذ عليها ونقدها بعمق وإحاطة بل في كلمة مجملة، وإشارة معبِّرة.

لقد كان أهم ملامح الكتابة التاريخية السنية في العراق خلال القرن الرابع عشر، المطالبة بتنقيح وتصفية التاريخ الإسلامي عموماً، والسيرة النبوية خصوصاً، ليعمل عمله المرتقب في إحياء عز الإسلام؛ والتمكين للمسلمين، وظهرت بواكير الاستجابة في عديد من المحاولات الجادة؛ في هذا المضمار **والتي امتازت باعتمادها منهج المحدثين دون غيره ميزاناً للحكم على الروايات التاريخية سنداً ومتناً**، ومن أمثلتها: "الرسالة المحمدية" للشيخ عبد العزيز الثعالبي، و"نبوة محمد من الشك إلى اليقين" للدكتور فاضل السامرائي، و"السيرة النبوية الصحيحة" للدكتور أكرم العمري، و"دراسة في السيرة" للدكتور عماد الدين خليل ... الخ.

وألخص قيمة نتاجهم العلمي في إبرازهم وتأكيدهم على النقاط التالية:

١) إن سيرة رسول الله ﷺ أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل، **فقد وصلت إلينا عن أصح الطرق العلمية توثيقاً وأقواها ثبوتاً من مصادرها ومظانها الأصلية**، مما لا يترك مجالاً للشك وقائعها البارزة وأحداثها الكبرى، ووما يسر لنا معرفة ما أُضيف إليها في العصور الحديثة والمعاصرة من أحداث أو معجزات أو وقائع أوحى بها العقل الجاهل الراغب في زيادة إضفاء الصفة المدهشة على رسول الله ﷺ أكثر مما أراد الله لرسوله أن يكون عليه من جلال المقام وقدسية الرسالة، وعظمة السيرة.

٢) إن حياة الرسول ﷺ واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها، منذ زواج أبيه عبد الله بأمه آمنة إلى وفاته ﷺ، فنحن نعرف الشيء الكثير عن ولادته وطفولته وشبابه، ومكسبه قبل النبوة، ورحلاته خارج مكة، إلى أن بعثه الله رسولاً كريماً، ثم نعرف بشكل أدق وأوضح وأكمل كل أحواله بعد ذلك سنة فسنة، مما يجعل سيرته ﷺ واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، كما قال بعض النقاد الغربيين: **"إن محمداً ﷺ هو الوحيد الذي ولد على ضوء**

---

(١). السَّحر والسَّحَر: الرئة، وقيل: ما التزق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن. انظر: موقع معاجم اللغة العربية، معنى وشرح كلمة: "سَّحر" على الرابط الكتروني: http://www.maajim.com

الشمس".

٣) إثبات الوحي الإلهي والرسالة النبوية لرسول الله ﷺ، فقد كان عليه السلام، كما أخبر القرآن الكريم أُميّاً، وقد علم التاريخ ورجاله أنه لم يقصد إلى أحد من أحبار اليهود أو رهبان النصارى يسمع منهم أخبار عيسى وموسى وغيرهما من الأنبياء السابقين عليهم صلوات الله وسلامه، ولو فعل ذلك، لما كتمه عن الناس، **وكيف وقد عُرف بين قومه طوال أربعين سنة من العمر بالأمانة والصدق؟!**، فلما جاء القرآن الكريم بقصص الأنبياء السابقين والأمم الغابرة، على نحو يتفق جملة وتفصيلاً مع ما أثبته التوراة والإنجيل من عرض تلك الأخبار والقصص، كان ذلك دليلاً لا يقبل الشك بأن القرآن الكريم ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١].

٤) التنبيه إلى أن الدين الذي بعث به الرسول ﷺ دين سماوي، وأن رسالات الرسل والأنبياء واحدة لا تعارض فيها ولا اختلاف، ولا شك أن ذكر أخبار الأنبياء قبله وما كابدوه من إيذاء قومهم، ثم نصر الله عز وجل لهم، فيه تثبيت لفؤاد الرسول ﷺ في مجال الدعوة، وحمله على الصبر على ما قد يراه من أذى قومه له، **فقد دعا فأوذي، وبلّغ فأصبح له الأنصار، واضطر إلى الحرب فحارب ... الخ.**

٥) إن سيرة الرسول ﷺ تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، فلم تخرجه عن إنسانيته وبشريته قال تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٣] ولم تلحق حياته بالأساطير، ولم تضف عليه الألوهية قليلاً ولا كثيراً، وإذا قارنا بما يرويه النصارى عن سيرة عيسى عليه السلام، وما يرويه البوذيون عن بوذا، والوثنيون عن آلهتهم المعبودة، بل وما يرويه الشيعة عن أئمتهم لاتضح الفرق جليّاً بين سيرته ﷺ وسيرة هؤلاء.

أما في الاتجاه المنحرف والمخالف فقد حظيت سيرة النبي ﷺ بحظ وافر من التدليس والتزوير، وانطلق الكيد ضدها أول ما انطلق من اليهود والفرس في القرون الأولى، أما اليهود فإن مهنتهم التي يحترفونها سجية تلك فيهم غير مُحدثة، وأما الفرس المجوس فقد ملأ الحقد على صحابة رسول ﷺ قلوبهم، لأنهم الذين كسروا ظهر الكسروية، وأطفأوا نار المجوسية، ومحوا الدولة الفارسية، ورأوا أن كيد الإسلام على الحيلة أنجع؟! فأظهر بعضهم الإسلام، واستمالوا

أهل التشيع، وأشعلوا نار الفتنة، وراهنوا على تمزيق الأمة إرباً إرباً، إن الشيعة ـ كما أسلفنا ـ أكذب فرقة عرفها التاريخ الإسلامي كله، وهم في الأصل أخلاط من اليهود والنصارى والمجوس الملاحدة الباطنية الذين اتخذوا (التشيع) ستاراً ليحققوا أغراضهم في تحريف الإسلام وهدمه من الداخل، وهم أكذب الفرق على خصومهم، ولذلك كان لهم جيش من الرواة والإخباريين الذين تولوا نشر أكاذيبهم ومفترياتهم، ولقد تلقف هذا التاريخ المزوَّر فئات من المؤرخين والأدباء في القديم والحديث الذين هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، فراحوا يزيدونه تحريفاً وتدليساً باعتبارهم وكلاء لأعداء الأمة ونواباً عنهم في تخفيف منابع الإسلام المتمثل في سيرة المصطفى ﷺ.

ثم تلقف ذلك كله كوكبة من المستشرقين شغلها الشاغل الانتقاص والازدراء من التاريخ الإسلامي كله وفي الأوج منه السيرة النبوية الشريفة، وقد حذر العلماء المسلمين الغيورين على تراث الأمة من قراءة كتب المستشرقين في السيرة، ولا نقص في ذلك ولا جمود، بل هو هذا عين المنهج العلمي وهذه سبيله؛ لأن السيرة لا تصنع في معامل الغرب، ولا تركب في مخابر برلين ولندن أو موسكو وروما، بل إن المستشرقين يرجعون إلى مصادرنا الأصلية وتراثنا، وليس لهم شيء فريد سوى تحليلاتهم المادية المغرضة المشبوهة، ونظرتهم الصليبية الحاقدة إلى جناب النبي الكريم ﷺ، وقد رأيت من ـ الكتاب والمؤلفين المحدثين ـ من يَأْلَفُ قراءة كتب المستشرقين والأخذ منها ممن لم يتمكنوا في الثقافة الإسلامية ويتضلعوا فيها، رأينا من يألف ذلك يستخفُّ بالمقام النبوي الشريف، ويسهل عليه جداً الغض من الصحابة الكرام، الذي شادوا بناء الحضارة الإسلامية، وهذا يردي صاحبه ـ والعياذ بالله ـ في حمأة النفاق، ومن أمثلة ذلك عند الشيعة على وجه الخصوص:

١) **طعنهم في القرآن الكريم،** حيث تصرح بعض كتبهم المعتمدة بأنه حُرِّف وبُدِّل وذهب أكثره ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧].

٢) رفض حجية السنة النبوية الشريفة، لأن رواتها من الصحابة ﷺ ـ في نظرهم ـ كفرة زنادقة مرتدون عن الإسلام، وأعلام الأمة وأئمتها كذلك، **فمِن ثم لا يعترفون بكتب الصحاح، ولا السنن، ولا المسانيد ... الخ.**

٣) الالتفاف حول علم برز من أعلام المسلمين ومحاولة تعظيمه، وتضخيم شأنه، وليس

ذلك حباً في هذا العَلَم، إنما توصلاً إلى النيل من الإسلام، وإسقاط رايته، إطفاء نوره على نحو ما صنع هؤلاء عندما **تعلقوا بفاطمة بنت النبي ﷺ وزوجها علي ﷺ ونسلهما، ورفعوهم فوق ما ينبغي**.

٤) حقدهم عل خير من طلعت عليه الشمس بعد الأنبياء، أفضل أولياء الله على الإطلاق أبي بكر وعمر وسائر الصحابة ﷺ الذين هم خير أمة أُخرجت للناس، وزعموا أنهم ارتدوا عن الإسلام عدا خمسة منهم، **وتطاولت بالسب واللعن لهم، وتفضيل ذلك على التسبيح والتهليل والتكبير، ووصفهم بالكفر والزندقة والنفاق والكذب**، لا يستثنون السابقين الأولين، ولا أصحاب بدر، وبيعة الرضوان، ولا المهاجرين والأنصار ممن عاشوا بعد وفاة سيد الأنام ﷺ، بل والتفنن في اختلاق الأكاذيب التي تشوه سيرتهم، وتبدل مناقبهم مثالب قال عز من قائل: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

فنسأل الله ﷻ أن يلهمنا رشدنا، ويلهمنا الأنصاف من أنفسنا، ويشرح صدورنا للحق الذي فيه يختلفون، ويختم لنا بالحسنى، وصلى الله على النبي المصطفى الكريم وآله الطيبين الطاهرين، وصحابته المخلصين، ومن تبعه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

الخاتمة:

عرض النتائج والحقائق الذي توصلت إليها في نهاية الدراسة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله الطيبين الأطهار وأصحابه المجاهدين الأبرار، الذين أغاظ الله بهم الكفار، وبسط بهم رحمته على جميع الأقطار، وبعد ...

إن هذا البحث قد يكون مفيداً في إعطاء صورة متقاربة للملامح العامة عن اتجاهات الكتابة في السيرة النبوية في العصر الحديث، ومعرفة الوسائل أو العناصر الضرورية للبحث المفيد والعميق فيها، فقد وجدت في كل فصول البحث أنني أقف أمام شخصية بهرت الدنيا بأسرها، بل وأن كل اتجاه من اتجاهات الحياة يأخذ بيده قبس من سيرة النبي ﷺ ليهتدي به، ومن هنا انبعثت اتجاهات الكتابة في السيرة النبوية، فالموضوعية والعلمية والحيدة التي حاولت البحث عنها في آراء الكتاب ونظراتهم، اتضحت في بعض الجوانب وغيبت في جوانب أخرى، وقد سبق أن ذكرت شبهات وأباطيل بعض الاتجاهات الحديثة كمنهج وطريقة في التناول والبحث وكذلك في التحليل والكتابة، بل واختلاف الباحثين حولها.

قد يكون من المفيد الإشارة إلى ضرورة البحث الدؤوب والجاد في حقل السيرة النبوية بعيداً عن الانتماءات المذهبية ومرجعياتها الفكرية الضيقة وتراثها، والانفتاح على المصادر الأصلية؛ إذ أنها هي الوحيدة التي تُؤرخ لأحداث السيرة النبوية ووقائعها، فهي أقرب للصدق واليقين لتوثيقها وقُرب عهدها بوقائع السيرة النبوية.

فهذا البحث يمثل عرضاً نقدياً، وتحليلاً علمياً، وتصنيفاً لشتى الاتجاهات التي ظهرت في كتابة السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر الهجري وهو لم يعرض لكل المؤلفات التي نشرت، لأن ذلك في حكم المستحيل لعدة اعتبارات أبرزها: الكثرة والتنوع...

لكن جميع ما كتب في الموضوع لا يكاد يخرج عن الاتجاهات المنّوه عنها ـ عدا الاتجاهين الشيعي والماركسي ـ تشترك جميعها في الدفاع عن الإسلام ونبوة محمد ﷺ، وإن اختلفت في مدى مصداقية هذا الهدف وصدقية الآليات المستخدمة، ولولا بعض الملاحظات هنا وهناك على هذا الاتجاه أو ذاك لأمكن القول بضرورتها منهجياً وعملياً، فإنها أكسبت حقل السيرة النبوية تنوعاً ـ في المحصلة ـ يعود بالنفع عليه ويخدمه، ومع هذا التنوع برزت كأروع ما تكون إنسانياً وإسلامياً، تاريخياً وحركياً، تحقيقاً وتأليفاً..

لكن مع ذلك لابد من الإشارة إلى بعض المفارقات والإشكاليات هنا وهناك التي تفتقر إلى إعادة النظر والدراسة الموضوعية النزيهة، أما النتائج التي خلصت إليها هذه الرسالة فهي تتلخص في الآتي:

أولاً: تبقى ولا تزال سيرة النبي محمد ﷺ بمصادرها الأصلية المختلفة؛ والتي في أساسها مادة تاريخية حية بؤرة إشعاع يتناولها الكتاب من كل طرف ـ بمختلف الاتجاهات والانتماءات ـ وهذه الاتجاهات وإن حاولت التزام الحيدة والموضوعية، فإنها تمثلها في بعض الأحيان، أو تتمسح بها في أحايين كثيرة، أي أن الكتاب وإن حاولوا تنحية شخصياتهم وثقافاتهم أثناء كتابتهم للسيرة النبوية فإنهم لم يتوصلوا إليها، والخلاصة أن حب الحقيقة هو الذي يجلي الحقيقة في السيرة النبوية وغيرها من المعارف والعلوم إن خلصت النوايا والأهداف.

ثانياً: إن الكتابة والتأليف في السيرة النبوية في العراق خلال القرن الرابع عشر منه ما هو محمود ومقبول؛ ومنه ما هو مذموم ومخالف؛ وهذا القسم الثاني يرجع إلى أسباب عدة كانت دافعاً لظهوره وبروزه منها: الجهل بحقائق الدين والنبوات، والانصياع التام والذليل للغرب ولمناهج المستشرقين، واتباع خطواتهم سواءً كانت مادية أم علمانية أم عقلانية ... الخ.

ثالثاً: إن الكتابة والتأليف في السيرة النبوية في العراق ظل خلال قرون وفياً لغرض أساس وهو خدمة هذا العلم، إلا أنه خلال القرن الرابع عشر ظهرت نزعات مخالفة بل ومنحرفة ـ سرعان ما تحولت إلى اتجاهات ـ حاولت استغلال التأليف في السيرة؛ لأجل الترويج لشتى الغايات المذهبية الضيقة والطائفية الممقوتة.

رابعاً: بروز الطابع الطائفي المقيت في مؤلفات وأبحاث السيرة النبوية ما أثقلها بظلال الطائفية وشوّه بعض أبحاثها، بل وأهم مفاصلها أحياناً، ويبدو ذلك في عدد من المقولات التاريخية التي لا ينفك بعض كتّاب السيرة في إعادة تحريرها واجترارها دونما تحقيق أو تمحيص، وقد أشرنا إلى بعضها في مطاوي البحث، وفي الوقت نفسه تغيب وقائع تاريخية هامة أو تذكر بطريقة هامشية، أو التشكيك فيها بل ويصل الأمر إلى إنكارها، ولعلَّ أوضح مثال على ذلك: "ظاهرة الوحي"، و"الخوارق والمعجزات" قبل النبوة وبعدها كمعجزة الطير الأبابيل، ومعجزة شق الصدر، ومعجزة تسليم الحجر، ومعجزة الإسراء والمعراج ... الخ، التي تعدُّ من أهم الوقائع التاريخية في حياة رسول اللّه الأولى ﷺ أو على الأقل في السني الأولى لعمر الدعوة الإسلامية.

خامساً: ثمة عدد كبير من المؤلفين العراقيين ـ مما هو يرتبط بموضوعنا ـ **ازدوجت اتجاهاتهم الفكرية مع انتماءاتهم المذهبية بإزاء طريقتهم العلمية** في الكتابة، أمثال: الدكتور جواد علي فهو شيعي المذهب، لكنه أسرف في استنتاجاته العقلية على حساب طريقته العلمية، وكذلك الدكتور علي الوردي ـ وهو أيضاً شيعي المذهب ـ الذي أخذ يسقط النظريات العلمية الحديثة على وقائع السيرة النبوية وكأن السيرة علم تجريبي يقوم على التجربة والمشاهدة، ليخرج لنا بنتائج فيها الكثير من السفسطة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد أكد لي المحدث الدكتور صبحي السامرائي ـ في اتصال معه ـ حول الحياد العلمي الذي يدعيه الدكتور علي الوردي في كتاباته، فقال: "كنت دائماً ما ألاقيه في مكتبة المثنى ببغداد، واتضح لي بأنه **شيعي متعصب** يخفي عصبيته المذهبية تحت دثار من الحيادية والموضوعية المزعومة".

ونأتي للدكتور عبد العزيز الدوري وهو سني المذهب ـ لكنه أخف ضرراً من سابقيه ـ فقد غلبت عليه نزعته القومية، فأخذ يعظم من شأن القومية العربية ويعلي من شأنها، فأضفت على جميع كتاباته التاريخية مسحة قومية واضحة، أما الدكتور أحمد صالح العلي ـ وهو سني المذهب أيضاً ـ الذي اعتمد اعتماداً كلياً على المناهج الغربية فأخذ يؤول الأحداث تأويلاً مادياً أدى به إلى خلو كتابه: **الدولة في عهد الرسول ﷺ** من المعجزات التي جرت بين يدي رسولنا ﷺ.

وأخيراً نصل إلى شاعرنا المعروف معروف الرصافي الذي أغلق عليه داره في الفلوجة ردحاً من الزمن، ثم خرج علينا كالمارد من قمقمه فضرب بجميع مرويات السيرة النبوية ومصادرها عرض الحائط، وجعل من نفسه شاهد نفي لأغلب الروايات، وأخذ يسرح ويمرح في أحداث السيرة النبوية ما شاء له هواه.. وغير هؤلاء كثر، لا يسعنا ملاحقة نتاجاتهم الفكرية ودراساتهم التاريخية، وإنما نكتفي برصد بعض هذه الدراسات ومحاولة اكتشاف المعالم العامة لها وقيمتها المعرفية والعلمية.

سادساً: لا زالت كتب السيرة أسيرة المنهج التقليدي الحولي، وهو منهج ـ إن كان يخدم السيرة في بعض الحالات ـ فهو يؤدي إلى تمزيق أوصالها، وتبدو معه الوقائع غير مترابطة، ونسيجاً مفكّكاً لا يجمعه جامع، ولم يشذ عن هذا المنهج سوى عدد محدود قد يكون في مقدمتهم الدكتور عماد الدين خليل في دراسته للسيرة.

سابعاً: غياب أو تغييب المنهج القرآني في دراسة السيرة النبوية، وقد ألحق هذا الغياب أو التغييب ضرراً فادحاً بأبحاث السيرة ومصداقيتها، خاصة تلك المرتبطة بالعقيدة بشكل مباشر، وقد يكون في مقدمتها ظاهرة الوحي ـ كما أشرنا ـ وكيفية نزول الوحي على النبي محمد ﷺ، فقد ظهرت روايات وأخبار كان يفترض في الباحثين دراستها وتمحيصها على ضوء الكتاب والسنة، غير أنها ـ وللأسف ـ مرَّت من دون أن تعرض عليه، ولا زالت تلحق الأذى بالسيرة وبنبوة نبينا ﷺ، خاصة أخبار "إسلام أبي طالب" و "واقعة الغدير" وغيرها، وللأسف أصر عدد من الشيعة على هذه الروايات التي لا نجد شاهداً عليها من الكتاب والسنة، كما لم تصل إلى حد الاستفاضة أو التواتر، ولغرض الدفاع عن المذهب الشيعي يلجأ بعض المتعصبين للتشبث بها وإن كانت مما يضرُّ بالإسلام والنبوة، نشير ـ في السياق نفسه ـ إلى أن بعض الباحثين تنبَّه إلى ذلك وكشف ضعف الرواية وأنها ليست صحيحة بل مختلقة وموضوعة؟!

وثمة شواهد أخرى لا تقل خطورة عما ذكرناه، وفي هذا الصدد أشير إلى حادثة "شق الصدر" التي تعرض لها النبي ﷺ فإنها في الوقت الذي وردت في بعض كتب الصحاح عند أهل السنة والجماعة، لم ترد في أية رواية عن الشيعة؟! وفي هذا السياق نفسه أشير إلى ضرورة دراسة السيرة بعيداً عن الروايات الشيعية، لأنها كفيلة بإرباك أبحاث السيرة، خاصة تلك المرتبطة بالنبوة وحياة النبي ﷺ ما قبل نبوته.

ثامناً: إن الدراسة العلمية الصحيحة للسيرة النبوية اليوم تقوم على تجريد صحيح الآثار والأخبار أولاً؛ ثم على حسن فهمها واستيعابها والوقوف على فقهها ودلالتها بعد صياغتها بأسلوب علمي رصين.

تاسعاً: إن كثرة المؤلفات المتعلقة بالسيرة النبوية تبرز أهمية التمييز بين الكتابات السديدة الأصيلة وبين مختلف الكتابات المختلقة حول هذا الموضوع، يدفعها الحقد على نبي الإسلام ﷺ، أو الجهل بمقام النبوة، أو الرغبة في الشهرة والنجومية؟! على مبدأ "خالف تُعرف!".

وأخيراً فالسيرة النبوية هي المادة الغنية التي إن قصدتها عقول البشر أدرت شهداً يفوح شذاه، وإن تناولتها أقلام الكتاب أقرت مجداً وسؤدداً لن يزول، وستكون كنزاً لا ينضب أبداً، وإن آراء الكتاب ونتاج قرائحهم في فهمهم للسيرة النبوية ـ لا شك ـ انعكس إيجاباً على الحركة الفكرية الإسلامية، فانبرت تقدم المنهاج الشافي للإنسانية جمعاء في جميع ما تعانيه

من مشكلات وأدواء، وإن الاتجاهات الصحيحة المقبولة في تفسير وقائع السيرة النبوية تعين على توجيه المسلمين إلى مكامن الخلل والزلل التي من شأنها أن تعكر صفو حياتهم.

فأمام هذا الكون الإنساني المحشود بالفضائل، الموصول بالله انطلقت العاصفة ملؤها العاطفة والحب الإيماني تنصر دينها في رسولها، وتشيد بفضائله ﷺ، منطلقة من تمسكها بدينها في ظل هذه الهجمة الصليبية الشرسة من أصحاب القلوب الحاقدة المريضة، التي تحيك المؤامرات الدنيئة وتنفذ المخططات المريبة، وستظل هذه العاطفة في عين العاصفة صداحة مغردة تهفوها القلوب، وتلهج بها الألسنة، وتتلألأ بها المآذن، حتى سماع المنادي من مكان قريب.

ومهما يكن من أمر، فقد يجد القارئ الكريم في هذا البحث ما يجدي وينفع، أسأل الله تعالى أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وأن يلهمنا الصواب والسداد في القول وفي العمل، إنه ولي وذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، عليها نحيا وعليها نموت وعليها نبعث يوم الدين،،،،،

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

١-القرآن الكريم.

٢-كتب الصحاح.

٣-ابن الجوزي: المنتظم، بيروت، دار الكتب، ١٩٩٢م.

٤-ابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، ط٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط.

٥-ابن تغري: النجوم الزاهرة، القاهرة، دار الكتب، ١٩٣٢م.

٦-ابن تيمية: مجموع الفتاوى، بيروت، دار العربية، ١٣٩٨م، ترتيب، عبد الرحمن بن محمد الحنبلي.

٧-ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، المدينة المنورة، مكتبة دار التراث، د.ت، تحقيق وتخريج وتعليق، محمد العيد الخطراوي وآخر.

٨-ابن قتيبة الدينوري: تأويل مختلف الحديث، القاهرة، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٢هـ.

٩-ابن منظور: لسان العرب، الطبعة الثالثة، بيروت، دار إحياء التراث الإسلامي، ١٩٩٩م.

١٠-أبو جعفر الكليني: الكافي، الطبعة السابعة، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٣، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري.

١١-أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ط١، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ.

١٢-أبو عمرو الكشي: معرفة أخبار الرجال، طبعة حجرية، إيران، المطبعة المصطفوية، د.ت.

١٣-أبو نعيم: دلائل النبوة، الطبعة الثانية، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٦هـ.

١٤-أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ط١، مكة المكرمة، جامعة م القرى، ١٤٠٣هـ.

١٥-أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٩م، تحقيق وضبط، عبد السلام هارون.

١٦-البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ ، تحقيق: عبد المعطي قلعه جي.

١٧-خير الدين الزركلي: الأعلام، الطبعة الخامسة عشرة، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

١٨-الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.

١٩-الزمخشري: الكشاف، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٥هـ.

٢٠-الشهرستاني: الملل والنحل، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٢١هـ.

٢١-الشوكاني: فتح القدير، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، د.ت.

٢٢-عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ.

٢٣-الفيروز آبادي: القاموس المحيط، الطبعة الثالثة، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٣٠١هـ.

٢٤-القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة، بيروت، دار العربية، د.ت: تحقيق، عبد الكريم عثمان.

٢٥-القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ومباينتهم لسائر المخالفين، الدار التونسية، تونس د.ت، تحقيق: فؤاد السيد.

٢٦-المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٥م.

٢٧-الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب، ١٣٨٧هـ.

ثانيا: المراجع:

١-إبراهيم الوائلي: الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٧٨م.

٢-إبراهيم عوض: اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ١٤٢٠هـ.

٣-أجناس جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ط٢، القاهرة، دار الكتب الحديثة، د.ت، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون.

٤-أحمد الصراف: الشبك من فرق الغلاة في العراق، ط١، بغداد، مطبعة المعارف، ١٣٧٣هـ.

٥-أحمد النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ.

٦-أحمد أمين: فجر الإسلام، الطبعة التاسعة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤م.

٧-أحمد جوُد: علم الملل ومناهج العلماء فيه، ط١، الرياض، دار الفضيلة، ١٤٢٥هـ.

٨-أحمد بن محمد فكير: الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية، قضايا وملاحظات، بلا هوية.

٩-أحمد زكي تفاحة: حوار بين الفكر الديني والفكر المادي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٢هـ.

١٠-أحمد صبحي: في فلسفة التاريخ، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، د.ت.

١١-أحمد عبد الحميد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق، سلسلة البيان، ٢٤، الرياض، د.ت.

١٢-أحمد عبد الرحيم السايح: الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، ط١، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٧هـ.

١٣-أحمد قوشتي عبد الرحيم: مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية بمصر في العصر الحديث، أطروحة دكتوراه غير منشورة، في كلية دار العلوم، بجامعة القاهرة، ١٤٢٣هـ.

١٤-أحمد مطلوب وآخرون: نهج خميني في ميزان الفكر الإسلامي، ط١، عمان، دار عمار،

١٤٠٥هـ.

١٥-أحمد مهابة: إيران بين التاج والعمامة، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الحرية، ١٤١٠هـ.

١٦-أحمد موساوي وآخرون: رحلة الرصافي من المغالطة إلى الإلحاد، ط١، دمشق، دار الأوائل، ٢٠٠٦م.

١٧-أحمد نظمي عبد الحميد وآخر: النظام الاشتراكي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٦م.

١٨-إدوارد كارل: ما هو التاريخ، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٦م، ترجمة: ماهر وبيار عقل.

١٩-إسحاق النقاش: شيعة العراق، بيروت، دار المدى، ١٩٩٦م، ترجمة: عبد الإله النعيمي.

٢٠-أسماء سالم بن عفيف: المؤرخ عباس العزاوي وجهوده في دراسة تاريخ العقيدة والفرق المعاصرة في العراق، ط١، الرياض، دار التوحيد، ١٤٣٠هـ.

٢١-إسماعيل بك جول: اليزيدية قديماً وحديثاً، تحقيق وتقديم، قسطنطين زريق، بيروت، المطبعة الأميركية، ١٩٣٤م.

٢٢-إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٦هـ.

٢٣-أصلان عبد السلام: قراءة نقدية في السيرة النبوية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.

٢٤-أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ط٧، الرياض، العبيكان، ١٤٢٨هـ.

٢٥-أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى، ط١، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٠٣هـ.

٢٦-أكرم ضياء العمري: دراسات تاريخية، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ١٤٠٣هـ.

٢٧-ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، الطبعة الثالثة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨م .

٢٨-إلياس فرح: ندوة القومية العربية في الفكر والممارسة، الطبعة الثالثة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣م.

٢٩-آمال السبكي: تاريخ إيران السياسي بين ثورتين، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٤٢٠هـ.

٣٠-إميل درمنغم: حياة محمد، ط٢، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٨هـ.

٣١-الأمين الصادق الأمين: موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، ط١، الرياض، مكتبة

الرشد، ١٤١٨هـ.

٣٢-أنور الجندي: عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٤م.

٣٣-أنور الجندي: كتاب العصر تحت ضوء الإسلام، القاهرة، دار الفضيلة، ١٩٩٧م.

٣٤-أنور معاوية الأموي: اليزيدية، ط١، السويد، ٢٠٠١م.

٣٥-تشارلز تريب: صفحات من تاريخ العراق، ط١، بيروت، الدار العربية للعلوم، ١٤٢٧هـ ترجمة: زينة جابر إدريس.

٣٦-توفيق برو: القومية العربية في القرن التاسع عشر، دمشق، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٥م.

٣٧-توماس كارلايل: الأبطال، بيروت، دار الكاتب العربي، د ت، ترجمة، محمد السباعي.

٣٨-ج، بليخانوف: تطور النظرة الواحدية في التاريخ، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٩م، ترجمة: محمد مصطفى.

٣٩-جاسم سلطان: فلسفة التاريخ، ط١، المنصورة، مؤسسة أم القرى، ١٤٢٦هـ.

٤٠-جعفر البرزنجي: شرح المولد النبوي، القاهرة، مركز بن العطار للتراث، د.ت، تحقيق: نادى فرج درويش.

٤١-جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، جامعة بغداد، ١٤١٣هـ.

٤٢-جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، ط٢، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٤م.

٤٣-جواد علي: موارد تاريخ الطبري، ط١، الرياض، كتاب العربية، (٤٢) ١٤٣٣هـ تقديم: محمد صامل السلمي.

٤٤-جورج انطونيوس: يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٢م، ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس.

٤٥-جورج جبور: الفكر السياسي المعاصر في سورية، ط١، لندن، دار رياض الريس، ١٩٨٧م.

٤٦-جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د ت.

٤٧-جوردون شايلد: التاريخ، القاهرة، الدار المصرية للكتب، د.ت، ترجمة، عدلي برسوم عبد الملك.

٤٨-جوستاف بفانموللر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ط١، البحرين، مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٦هـ.

٤٩-حسن العلوي: العراق دولة المنظمة السرية، لندن، الشركة السعودية للأبحاث والنشر،

١٩٩٠م.

٥٠-حسن جميل: العراق شهادة سياسية ١٩٠٨ ـ ١٩٣٠م، دار السلام، لندن، ١٩٨٧م.

٥١-حسن ضياء الدين عتر: وحي الله، ط١، دمشق، دار المكتبي ، ١٤٢٩هـ.

٥٢-حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٦م.

٥٣-حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ط١، القاهرة، دار الرشاد، ٢٠٠١م.

٥٤-حسين مؤنس: الحضارة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٣٩٨هـ.

٥٥-حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤م.

٥٦-حمدي صادق الجمال: اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر في النصف الأول من ق١٤هـ، ط١، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤١٤هـ.

٥٧-خضير الجميلي: قبيلة قريش وأثرها في الحياة العربية قبل الإسلام، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

٥٨-خليل الدليمي: صدام حسين من الزنزانة الأمريكية، هذا ما حدث!، ط٢، الإمارات العربية المتحدة، دار الواضح ، ٢٠١٠م.

٥٩-داوود سلوم: تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي، بغداد، ١٩٥٩م.

٦٠-رشيد الخيون: الأديان والمذاهب بالعراق، الطبعة الثانية، كولونيا، منشورات الجمل، ٢٠٠٧م.

٦١-رضا زكريا حميدة: حديث السحر النبوي بين حجة النقل وجدل العقل، ط١، القاهرة، دار الطباعة المحمدية، ١٤١٩هـ.

٦٢-رفعت فوزي عبد المطلب: أحاديث السراء والمعراج، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٠هـ.

٦٣-روح الله خميني: الحكومة الإسلامية، ط٦، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، ١٤١٢٥هـ.

٦٤-روح الله خميني: كشف الأسرار، ط٣، عمان، دار عمار، ١٩٨٨م.

٦٥-ريتشارد سوذرن: صورة الإسلام في أوربا في العصور الوسطى، ط١، بيروت، معهد الإنماء العربي،١٩٨٤م، ترجمة وتقديم: رضوان السيد.

٦٦-زاهية قدورة: عائشة أم المؤمنين، القاهرة، نشر لجنة البيان العربي، ١٣٦٦هـ.

٦٧-زهير كاظم عبود: لمحات عن اليزيدية، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٩٥م.

٦٨-زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار النهار، ١٩٧٩م.

٦٩-ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ط١، مالطة، مركز دراسات العالم الإسلامي، ١٩٩٢م.

٧٠-ساطع الحصري: آراء وأحاديث في القومية العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م.

٧١-ساطع الحصري: حول القومية العربية، الطبعة الأولى، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦١م.

٧٢-ساطع الحصري: دفاع عن العروبة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م.

٧٣-ساطع الحصري: محاضرات في نشوء الفكرة القومية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م.

٧٤-ساطع الحصري: مذكراتي في العراق، الطبعة الأولى، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٨م.

٧٥-سامي عامري: محمد رسول الله ﷺ في الكتب المقدسة، ط١، القاهرة، مركز التنوير الإسلامي، ١٤٢٦هـ.

٧٦-سامي محمد الصلاحات: معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، ط١، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٧

٧٧-سعد موسى الموسى: تاريخ الحياة العلمية في المدينة النبوية خلال القرن الثاني، الطبعة الأولى، الرياض، دار القاسم، ١٤٢٨هـ.

٧٨-سعيد حوى: الخمينية شذوذ في العقائد شذوذ في المواقف، ط١، عمان، دار عمار، ١٤٠٧هـ.

٧٩-سعيد مسفر القحطاني: الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية، ط١، ١٤٢٨هـ.

٨٠-سفر الحوالي: أصول الفرق والأديان والمذاهب الفكرية، القاهرة، دار العلماء، د.ت.

٨١-سلمان فهد العودة: في حوار هادئ مع محمد الغزالي، ط١، ١٤٠٩هـ.

٨٢-سليم بركات: الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي، ط١، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٧٩م.

٨٣-سليمان الندوي: الرسالة المحمدية، الطبعة الأولى، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٢هـ، ترجمة: محمد ناظم الندوي.

٨٤-سليمان فيضي: مذكرات سليمان فيضي، ط٣، بيروت، ١٩٩٨م، تقديم: باسل فيضي.

٨٥-سهير الفيل: اليزيدية، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المنار، ١٤١٠هـ.

٨٦-سهيل قاشا: اليزيدية، الطبعة الأولى، لبنان، مكتبة السائح، ٢٠٠٤م.

٨٧-سهيل قاشا: تاريخ نصارى العراق، الطبعة الأولى، بيروت، الرافدين للطباعة والنشر، ١٤٣٢هـ.

٨٨-سهيل قاشا: مسيحيو العراق، الطبعة الأولى، لندن، دار الوراق للنشر، ٢٠٠٩م.

٨٩-السيد ياسين: تحليل مضمون الفكر القومي العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٠م.

٩٠-شامل عبد القادر: عبد الكريم قاسم البداية والنهاية، ط١، عمان، الأهلية للنشر، ٢٠٠٢م.

٩١-شبلي العيسمي: العلمانية والدولة الدينية، ط٤، بغداد، دار الشؤون الاقتصادية، ١٩٨٩م.

٩٢-شفيق شقير: موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف، ط١، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤١٨هـ.

٩٣-شهاب أحمد الحميد: تاريخ الطباعة في العراق، بغداد، مطابع القطاع الخاص، ١٩٦٧م.

٩٤-شهاب الدين محمود شكري الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الطبعة الأولى، القاهرة، المطبعة الأميرية ببولاق، د.ت.

٩٥-شوقي أبو خليل: موضوعية فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب المطول، ط١، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٦هـ.

٩٦-صالح أحمد العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ، بغداد، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٨م.

٩٧-صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ط١، بيروت، شركة المطبوعات، ٢٠٠٠م.

٩٨-صالح الخرفي: عبد العزيز الثعالبي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥م.

٩٩-صباح نوري المرزوك: معجم المؤلفين والكتاب العراقيين، بغداد، بيت الحكمة، ٢٠٠٢م.

١٠٠-صباح ياسين: الفكر والقضايا القومية في الصحافة العربية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٢م.

١٠١-صبري فالح الحمدي: الصراع الدولي في الخليج العربي، ط١، لندن، دار الحكمة، ٢٠١٠م.

١٠٢-صديق القنوجي: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م.

١٠٣-صفي الرحمن المباركفوري وآخرون: وإنك لعلى خلق عظيم، جدة، شركة كندة، ٢٠٠٦م.

١٠٤-صلاح الدين الإدلبي: منهج النقد عند علماء الحديث النبوي، ط١، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٣هـ.

١٠٥-صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان، ط١، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨م.

١٠٦-طارق الحمداني: التدوين التاريخي في العراق، ط١، لندن، دار الوراق للنشر، ٢٠١٠م.

١٠٧-طارق الحمداني: العدوان الفارسي على البصرة وصمودها في العصر الحديث، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩م.

١٠٨-طرهوني: صحيح السيرة النبوية المسماة، السيرة الذهبية، الطبعة الأولى، القاهرة، دار ابن تيمية للطباعة والنشر، ١٤١٠هـ.

١٠٩-طه جابر العلواني: أدب الاختلاف في الإسلام، أمريكا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د.ت.

١١٠-طه حامد الدليمي: هذه الحقيقة الأعداد والنسب السكانية لأهل السنة والشيعة في العراق، مركز الرافدين للدراسات الارتيادية، ٢٠٠٩م.

١١١-طه حسين: على هامش السيرة، الطبعة العشرون، القاهرة، دار المعارف.

١١٢-الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال المرحلة المكية، ط١، أمريكا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ.

١١٣-عادل غنيم وآخر: في منهج البحث التاريخي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠١١م.

١١٤-عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٩٨٦م.

١١٥-عباس العزاوي: الكاكائية في التاريخ، بغداد، شركة التجارة المحدودة، ١٣٦٨هـ.

١١٦-عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٤م.

١١٧-عباس العزاوي: تاريخ العقيدة الإسلامية في العراق في لما بعد العهود العباسية، ط١، الرياض، دار التوحيد، ١٤٣٢هـ.

١١٨-عباس العزاوي: شهروز السليمانية، ط١، بغداد، المجمع العلمي العراقي، ١٤٢٠هـ.

١١٩-عباس القمي: كحل البصر في سيرة سيد البشر، ط١، بيروت، دار الصفوة، ١٤١٣هـ.

١٢٠-عبد الحفيظ ملك المكي: موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية، ط١، القاهرة، دار السلام، ١٤٠٩هـ.

١٢١-عبد الحكيم قاسم: المذاهب الصوفية ومدارسها، ط٢، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠م.

١٢٢-عبد الحميد الرشودي: رسائل الرصافي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٤م.

١٢٣-عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، ط١، الكويت، دار القلم، ١٤٠٠هـ، ترجمة: كاظم

الجوادي.

١٢٤-عبد الرحمن السهيلي: الروض الأنف، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ١٤١٠هـ، تحقيق وتعليق وشرح: عبد الرحمن الوكيل.

١٢٥-عبد الرحمن الشيخ: مدخل إلى علم التاريخ، الرياض، دار المريخ، ١٤٠٥هـ.

١٢٦-عبد الرحمن الوكيل: هذه الصوفية؟!، الطبعة الرابعة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٤م.

١٢٧-عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤م.

١٢٨-عبد الرحمن دمشقية: حقائق خطيرة عن النقشبندية، ط١، الرياض، دار المسلم، ١٤١٩هـ.

١٢٩-عبد الرزاق الحسني: البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم، بغداد، دار الحرية، ١٩٨٤م.

١٣٠-عبد الرسول الموسوي: الشيعة في التاريخ، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢م.

١٣١-عبد السلام البكاري وآخر: الشُبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم، الطبعة الأولى، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ١٤٣٠هـ.

١٣٢-عبد الطيف الشواف: عبد الكريم قاسم وعراقيون آخرون، ط١، لندن، دار الوراق، ٢٠٠٤م.

١٣٣-عبد العزيز الثعالبي: الرسالة المحمدية من نزول الوحي إلى وفاته ﷺ، دمشق، دار ابن كثير، ١٩٩٧م، تحقيق، صالح الخرفي.

١٣٤- عبد العزيز الدهلوي: مختصر التحفة الاثنى عشرية، القاهرة، المكتبة السلفية، ١٣٧٣هـ، تلخيص: محمود شكري الألوسي.

١٣٥-عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية، ط٢، القاهرة، دار المستقبل العربي، ١٩٨٥م.

١٣٦-عبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨م.

١٣٧-عبد العزيز الدوري: أوراق في التأريخ العربي الإسلامي، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩م.

١٣٨-عبد العزيز الدوري: أوراق في التاريخ والحضارة، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩م.

١٣٩-عبد العزيز الدوري: أوراق في الفكر والحضارة، ساطع الحصري في الفكر القومي، ط٢،

بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩م.

١٤٠-عبد العزيز الدوري: أوراق في علم التاريخ، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨م.

١٤١-عبد العزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند المسلمين، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٣م.

١٤٢-عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧م.

١٤٣-عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٤م.

١٤٤-عبد العزيز المحمود: عودة الصفويين، ط١، الإسماعيلية، مكتبة الإمام البخاري، ١٤٢٨هـ.

١٤٥-عبد العزيز رفاعي: أصول الوعي القومي العربي، القاهرة، مؤسسة المطبوعات الحديثة، ١٩٦٠م.

١٤٦-عبد العظيم محمود الديب: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى، قطر، سلسلة كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤١١هـ.

١٤٧-عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، الطبعة الأولى، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٤م.

١٤٨-عبد الكريم علي الباز: افتراءات فيليب حتِّي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي، ط١، جدة، تهامة للنشر، ١٩٨٣م.

١٤٩-عبد الله الريماوي: المنطق الثوري للحركة القومية العربية، ط١، القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦١م.

١٥٠-عبد الله دجين السهلي: الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وآثارها، ط١، الرياض، كنوز أشبيليا، ١٤٢٦هـ.

١٥١-عبد الله محمود شحاته: منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم، القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة، ١٤٠٤هـ.

١٥٢-عبد المتعال الجبري: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ط١، القاهرة، مكتبة وهبة، د ت.

١٥٣-عبد المجيد محمود عبد المجيد: الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في ق٣هـ، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م.

١٥٤-عبد المنعم الحنفي: الموسوعة الصوفية، ط٥، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦م.

١٥٥-عبد المنعم الحنفي: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية،

ط٢، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م.

١٥٦-عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ط٧، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

١٥٧-عبد الوهاب الكيالي وآخرون: موسوعة السياسة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥م.

١٥٨-عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، القاهرة، دار الشروق، ١٤٢٣هـ.

١٥٩-عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، بيروت، دار النصر، د.ت.

١٦٠-عبدالرزاق قسوم: مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر، ط١، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤١٨هـ.

١٦١-عرفان عبد الحميد: نظرية ولاية الفقيه، عمان، دار عمار، ١٩٨٩م.

١٦٢-عطية عدلان: حقيقة الرسول ﷺ بين الصوفية وأهل الحديث، ط١، ١٤٢٨هـ.

١٦٣-علي أحمد السالوس: عقيدة الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية، ط١، القاهرة، دار الاعتصام، ١٤٠٧هـ.

١٦٤-علي الشابي وآخرون: المعتزلة بين الفكر والعمل، تونس، الشركة التونسية، ١٣٩٩هـ.

١٦٥-علي الطنطاوي: ذكريات علي الطنطاوي، ط٢، جدة، دار المنارة، ١٤٠٩هـ.

١٦٦-علي الطنطاوي: رجال من التاريخ، ط٨، جدة، دار المنارة، ١٤١١هـ.

١٦٧-علي الوردي: أسطورة الأدب الرفيع، ط٢، بيروت، دار كوفان، ١٩٩٤م.

١٦٨-علي الوردي: الأحلام بين العلم والعقيدة، ط٢، بيروت، دار كوفان للنشر.

١٦٩-علي الوردي: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ط١، قم، المكتبة الحيدرية، ١٤١٦هـ.

١٧٠-علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ط١، لندن، دار الوراق، ٢٠٠٧م.

١٧١-علي الوردي: مهزلة العقل البشري، ط٢، لندن، دار كوفان، ١٩٩٤م.

١٧٢-علي الوردي: وعاظ السلاطين، ط٢، لندن، دار كوفان للنشر، ١٩٩٥م.

١٧٣-علي جريشة: الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ط٣، المنصورة، دار الوفاء، ١٤١١هـ.

١٧٤-علي طاهر الحلي: علي الوردي، جهوده الفكرية وآراؤه الإصلاحية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ١٤٢٧هـ.

١٧٥-علي علاء الدين الألوسي: الدرر المنتثرة في رجال القرن الثاني والثالث عشر، تحقيق: جمال الدين الألوسي وعبد الله الجبوري، بغداد، دار الجمهورية، ١٩٦٧م.

١٧٦-عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٨م.

١٧٧-عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، بحث منشور ضمن مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية، الرياض، مكتب التربية لدول الخليج العربي، ١٤٠٥هـ.

١٧٨-عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ط١٥، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ.

١٧٩-عماد عبد السلام رؤوف: التاريخ والمؤرخون في العهد العثماني، ط١، لندن، دار الوراق، ٢٠٠٩م.

١٨٠-غضبان الرومي: مذكرات مندائية، بغداد، دار المدى، ٢٠٠٧م.

١٨١-فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ط١، دمشق، دار القلم، ١٤٢٥هـ.

١٨٢-فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ط١، عمان، الأهلية للنشر، ١٩٩٨م.

١٨٣-فاضل السامرائي: نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين، ط٣، عمان، دار عمار، ١٤٣١هـ.

١٨٤-فاضل بيات: الدولة العثمانية في المجال العربي، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧م.

١٨٥-فالح حنظل: أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق، ط٣، لندن، دار الحكمة، ١٤٢٨هـ.

١٨٦-فتحي نجدة صفوة: سلسلة الأعمال المجهولة معروف الرصافي، لندن، دار رياض الريس، د.ت.

١٨٧-فريد الدين العطار: تذكرة الأولياء، ط١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ترجمة: منال اليمني عبد العزيز.

١٨٨-فريد مصطفى سليمان: محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، ط١، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤١٤هـ.

١٨٩-فهد سليمان الفهيد: نشأة بدع الصوفية، الكتاب بلا هوية.

١٩٠-فهد عبد الرحمن الرومي: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ط٥، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٢هـ.

١٩١-فهمي جدعان: أسس التقدم العلمي عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط١، بيروت، ١٩٧٩م.

١٩٢-فهمي هويدي: إيران من الداخل، ط٤، القاهرة، مركز الأهرام، ١٤١٢هـ.

١٩٣-فوزية عاشور المشتولي: الاتجاه العقلي في تفسير المنار، رسالة ماجستير غير منشورة، في

كلية التربية والآداب والعلوم للبنات، بجامعة عين شمس بالقاهرة.

١٩٤-فيليب حتي: تاريخ العرب المطول، ط٤، بيروت، دار الكشاف، ١٩٦٥م، ترجمة: إدوارد جرجي.

١٩٥-فيليب ويلارد، آيرلند: العراق وتطوره الدستوري، بيروت، ١٩٤٩م، ترجمة: جعفر الخياط.

١٩٦-قحطان الدوري: في ولاية الفقيه، بغداد، مطبعة الإرشاد، د.ت.

١٩٧-قحطان عبد الرحمن الدوري: عبد العزيز الدوري، النشأة والتكوين، الكتاب بلا هوية.

١٩٨-قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ط٦، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٥م.

١٩٩-كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ترجمة، عبد الحليم النجار.

٢٠٠-كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ط٧، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٧م نقله للعربية: نبيه فارس وآخر.

٢٠١-كارين آرمسترونج: سيرة النبي محمد، ط١، القاهرة، كتاب سطور، ١٩٨٨م.

٢٠٢-الكافيجي: المختصر في علوم التاريخ، بغداد، مكتبة المثنى، ١٣٨٣هـ.

٢٠٣-كامل مصطفى الشيبي: الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق المعاصر، ط١، بغداد، مكتبة النهضة، ١٣٨٦هـ.

٢٠٤-كامل مصطفى الشيبي: النزعات الصوفية في التشيع، ط٣، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٢م.

٢٠٥-كريستوفر كودويل: الناس والطبيعة، دراسة في التاريخ البرجوازي، بيروت، دار الفارابي، ١٩٧٩م، ترجمة: فاضل لقمان.

٢٠٦-لويس غارديه: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، بيروت، دار العلم لملايين، د ت، ترجمة: صبحي الصالح.

٢٠٧-الليدي دراوور: الصائبة المندائيون، بغداد، دار المدى، ٢٠٠٧م.

٢٠٨-ليونارد بايندر: الثورة العقائدية في الشرق الأوسط، القاهرة، دار القيم، ١٩٦٦م، ترجمة: جبرا حماد.

٢٠٩-ماجد عرسان الكيلاني: الأمة المسلمة، ط١، مكة المكرمة، مكتبة دار الاستقامة: ١٤١٥هـ.

٢١٠-مارلين نصر: التصور القومي العربي في فكر عبد الناصر، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٠م.

٢١١-مالك بن نبي: شروط النهضة، ط٣، دمشق، دار الفكر، ١٩٦٩م.

٢١٢-مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٨٣م.

٢١٣-مجموعة من الباحثين: المنجد في الأعلام واللغة، ط ٣٥، بيروت، دار المشرق، د.ت.

٢١٤-محمد خير يوسف: تتمة الأعلام، ط٢، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٢هـ.

٢١٥-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ط٢، القاهرة، مطبعة المنار، ١٣٦٩هـ.

٢١٦-محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ط١، الرياض، مكتبة المعارف، د.ت.

٢١٧-محمد ناصر الدين الألباني: مختصر الشمائل، ط٢، المكتبة الإسلامية، عمان، ١٤٠٦هـ.

٢١٨-محمود شكري الآلوسي: بلوغ الأرب في أحوال العرب، القاهرة، ١٣٤٣هـ.

٢١٩-مجموعة من المؤلفين: الشيخ خزعل أمير المحمَّرة، ط٢، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٩م.

٢٢٠-مجموعة من المؤلفين، عبد العزيز الدوري مكرماً، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩م.

٢٢١-مجيد خدوري: العراق الجمهوري، ط١، بيروت، الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤م.

٢٢٢-مجيد خدوري: عرب معاصرون، ط١، بيروت، الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٣م.

٢٢٣-محب الدين الخطيب: الخطوط العريضة للأسس التي قامت عليها دين الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، ط١، عمان، دار عمار، ١٤٢٠هـ.

٢٢٤-محمد إبراهيم شريف: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، الطبعة الأولى، القاهرة، دار التراث، ١٩٨٢م.

٢٢٥-محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، الدوحة، طبع على نفقة أمير دولة قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، عناية، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

٢٢٦-محمد أبو ليلة: محمد ﷺ بين الحقيقة والافتراء، ط١، القاهرة، دار النشر للجامعات، ١٤٢٠هـ.

٢٢٧-محمد إسماعيل علي: الوجيز في المنظمات الدولية، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٢م.

٢٢٨-محمد الأعظمي: دراسات في الحديث النبوي، المكتب الإسلامي، بيروت، د ت.

٢٢٩-محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط٤، القاهرة، مكتبة

وهبة، د.ت.

٢٣٠-محمد الخير عبد القادر: نكبة الأُمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، ط١، الدار السودانية للكتب، ١٤٠٥هـ.

٢٣١-محمد الدرديري: التأويل الفاسد وأثره السيئ على الأمة، القاهرة، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ١٤٢٣هـ.

٢٣٢-محمد الزهراني: تدوين السنة النبوية، ط٢، الرياض، مكتبة دار المنهاج، ١٤٢٨هـ.

٢٣٣-محمد العبدة وآخر: الصوفية نشأتها وتطورها، ط١، الرياض، مكتبة الكوثر، ١٤٢٧هـ.

٢٣٤-محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ط٣، القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠٥م.

٢٣٥-محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث، ط٣، القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠٥م.

٢٣٦-محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ط٧، القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠٥م.

٢٣٧-محمد الغزالي: فقه السيرة، ط٥، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٩م.

٢٣٨-محمد المبارك: الأمة والعوامل المكونة لها، ط٢، دمشق، دار الفكر، د.ت.

٢٣٩-محمد المبارك: ندوة الدراسات الإسلامية، القاهرة، اتحاد الجامعات العربية، ١٩٨٠م.

٢٤٠-محمد آمحزون: تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ط١، الرياض، دار طيبة، ١٤١٥هـ.

٢٤١-محمد آمحزون: منهج النبي ﷺ في الدعوة، ط٢، القاهرة، دار السلام، ١٤٢٤هـ.

٢٤٢-محمد آمحزون: منهج النبي ﷺ من خلال السيرة الصحيحة، ط٢، القاهرة، دار السلام، ١٤٢٤هـ.

٢٤٣-محمد أمين زكي: تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور وحتى الآن، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣٩م، ترجمة، محمد علي عوني.

٢٤٤-محمد أمين شيخو: حقيقة سيدنا محمد ﷺ تظهر في القرن العشرين، دمشق، دار نور البشير، ١٤٢٠هـ.

٢٤٥-محمد بشير حداد: الفكر القومي التربوي عند ساطع الحصري، ط١، دمشق، دار القلم ١٤٢٦هـ.

٢٤٦-محمد بن صامل السلمي: مسائل في منهج دراسة السيرة النبوية، الرياض، دار ابن الجوزي، د.ت.

٢٤٧-محمد تقي العثماني: ماهي النصرانية، مكة المكرمة، مطابع رابطة العالم الإسلامي، د.ت.

٢٤٨-محمد جلال كشك: الحوار أو خراب الديار، ط١، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، د.ت.

٢٤٩-محمد جلال كشك: الماركسية والغزو الفكري، الكويت، مكتبة الأمل، ١٣٨٨هـ.

٢٥٠-محمد جلال كشك: قراءة في فكر التبعية، ط١، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، ١٤١٤هـ.

٢٥١-محمد جمال الدين القاسمي: قواعد التحديث، ط١، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٧هـ، تحقيق: محمد بهجة البيطار: وتقديم، محمد رشيد رضا.

٢٥٢-محمد جميل بيهم: تاريخ فلسفة محمد، بيروت، الدار الجامعية، د.ت، تقديم، حسان حلاق.

٢٥٣-محمد جميل بيهم: قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، ط١، بيروت، مطبعة الكشاف، ١٩٥٠م.

٢٥٤-محمد حامد الناصر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، ط٢، الرياض، مكتبة الكوثر، ١٤٢٢هـ.

٢٥٥-محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ط٢، دمشق، دار القلم، ١٤١٩هـ.

٢٥٦-محمد حسين هيكل: حياة محمد، ط١٩، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

٢٥٧-محمد خلف الله: ندوة القومية العربية والإسلام، ط٣، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣م.

٢٥٨-محمد خير رمضان: معجم المؤلفين المعاصرين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٥هـ.

٢٥٩-محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، ط٣، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٣٧٥هـ.

٢٦٠-محمد زرندي: مطالع الأنوار، تاريخ الأنوار عن وقائع الأيام الأولى للأمر البهائي، الاسكندرية، مطبعة المستقبل، ١٩٤٠م.

٢٦١-محمد سرور زين العابدين: دراسات في السيرة النبوية، ط١، برمنجهام، دار الأرقم، ١٤٠٨هـ.

٢٦٢-محمد سعيد البوطي: المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة، ط٢، دمشق، دار الفكر، ١٤٣٠هـ.

٢٦٣-محمد سعيد رمضان البوطي: يغالطونك إذ يقولون، ط٣، دمشق، دار الفارابي، ١٤٢١هـ.

٢٦٤-محمد صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ط١، الرياض، دار طيبة، ١٤٠٦هـ.

٢٦٥-محمد طلس: عصر الانبعاث، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٣م.

٢٦٦-محمد عابد الجابري: مدخل إلى القرآن الكريم، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦م.

٢٦٧-محمد عزة دروزة: سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم، ط١، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٤٨م.

٢٦٨-محمد عزة دروزة: نشأة الحركة العربية الحديثة، ط٢، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ١٣٩١هـ.

٢٦٩-محمد علي البار: العلمانية جذورها وأصولها، ط١، دمشق، دار القلم، ١٤٢٩هـ.

٢٧٠-محمد عمارة: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، ط١، القاهرة، دار الشروق، ١٤١٤هـ.

٢٧١-محمد عمارة: التفسير الماركسي للإسلام، ط٢، القاهرة، دار الشروق، ١٤٢٢هـ.

٢٧٢-محمد عمارة: التيار القومي الإسلامي، ط١، القاهرة، دار الشروق، ١٤١٧هـ.

٢٧٣-محمد عمارة: الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية، ط٢، القاهرة، دار الرشاد، ١٤١٨هـ.

٢٧٤-محمد فارس الجميل: النبي ﷺ ويهود المدينة، ط١، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٧هـ.

٢٧٥-محمد فاروق الخالدي: التيارات الفكرية والعقدية في النصف الثاني من القرن العشرين، ط١، عمّان، دار المعالي، ١٤٢٣هـ.

٢٧٦-محمد قاسم المنسي: اتجاه التفسير الفقهي، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٦م.

٢٧٧-محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، جدة، المجموعة الإعلامية، ١٤٠٨هـ.

٢٧٨-محمد قطب: كيف كتب التاريخ الإسلامي، الرياض، دار الوطن للنشر، ١٤١٢هـ.

٢٧٩-محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، ط١، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ.

٢٨٠-محمد قطب: واقعنا المعاصر، ط٢، جدة، مؤسسة المدينة للصحافة، ١٤٠٨.

٢٨١-محمد كاظم القزويني: علي عليه السلام من المهد إلى اللحد، ط١٠، بيروت، دار العالم الإسلامي، ١٤٠١هـ.

٢٨٢-محمد كامل ضاهر: الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي الحديث والمعاصر، ط١، بيروت، دار البيروني، ١٤١٤هـ.

٢٨٣-محمد محمود الصواف: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، القاهرة، دار الاعتصام للنشر، ١٩٧٧م.

٢٨٤-محمد مفيد آل ياسين: الحركة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري، بغداد، ١٩٧٩م.

٢٨٥-محمد مهدي البصير: تاريخ القضية العراقية، ط٢، دار اللام، لندن، ١٩٩٠م.

٢٨٦-محمد ناصر الدين الألباني: السلفية، ط١، طنطا، دار الضياء، ١٤٢٨هـ.

٢٨٧-محمد ناصر الدين الألباني: حجة النبي ﷺ كما رواها جابر ﷺ، ط٧، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ.

٢٨٨-محمد هليل الجابري: الحركة القومية في العراق ١٩٠٨ ـ ١٩١٤م، أطروحة دكتوراه غير منشورة في التاريخ الحديث، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٠م.

٢٨٩-محمد ياسين صديقي: الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، ط١، القاهرة، رابطة الجامعات الإسلامية، ١٤٠٨هـ.

٢٩٠-محمود الصاوي: كتابات جورجي زيدان دراسة تحليلية في ضوء الإسلام، ط١، القاهرة، دار الهداية، ١٤٢٠هـ.

٢٩١-محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط٢، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٤هـ.

٢٩٢-محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، القاهرة، دار الشروق، ١٤٢١هـ.

٢٩٣-محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ط٢، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٦٠م.

٢٩٤-محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ط٦، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢هـ.

٢٩٥-محمود عبد الحكيم عثمان: جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠١هـ.

٢٩٦-محمود محمد حسين علي: دعوى الفهم اليساري المعاصر للإسلام، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر بالقاهرة.

٢٩٧-مراد وهبة: المذهب في فلسفة برجسون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٠م.

٢٩٨-مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، ط٤، بيروت، دار الوراق، ١٤٢٤هـ.

٢٩٩-مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ط٢، بيروت، دار الوراق، ١٤٢٣هـ.

٣٠٠-مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ط١، بيروت، دار الوراق للنشر،

١٤١٩هـ.

٣٠١-مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.

٣٠٢-مصطفى محمود: أكذوبة اليسار الإسلامي، القاهرة، دار المعارف، ١٤١٥هـ.

٣٠٣-مصطفى محمود: الشفاعة، القاهرة، دار أخبار اليوم، د.ت.

٣٠٤-مطاع صفدي: حزب البعث، مأساة المولد ومأساة النهاية ، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٤م.

٣٠٥-مطيع النونو: دولة البعث وإسلام عفلق، ط١، القاهرة، مطابع الأهرام، ١٩٩٤م.

٣٠٦-معروف الرصافي: الرسالة العراقية، ط١، كولونيا، منشورات الجمل، ٢٠٠٧م.

٣٠٧-معروف الرصافي: الشخصية المحمدية، ط٥، كولونيا، منشورات الجمل، ٢٠١١م.

٣٠٨-مفرح سليمان القوسى: الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية، ط١، الرياض، دار الفضيلة، ١٤٢٣هـ.

٣٠٩-مقداد يالجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، رسالة ماجستير ،كلية دار العلوم، جامعة.

٣١٠-منصور أبو شافعي: مركسة التاريخ النبوي، القاهرة، نهضة مصر، د.ت.

٣١١-منير العجلاني: عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ط١، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٥هـ.

٣١٢-مهدي رزق أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ط٢، الرياض، دار إمام الدعوة، ١٤٢٤هـ.

٣١٣-موسى الموسوي: الشيعة والتصحيح، ط١، أمريكا، المجلس الإسلامي الأعلى، ١٤٠٨هـ.

٣١٤-مونتجمري وات: محمد في مكة، صيدا، المكتبة العصرية، د، ت، ترجمة، شعبان بركات.

٣١٥-مير بصري: أعلام الأدب في العراق الحديث، ط١، لندن، دار الحكمة، ١٤١٥هـ.

٣١٦-مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث، ط١، لندن، دار رياض الريس، ١٩٨٧م.

٣١٧-ميض نظمي وآخرون: التطور السياسي المعاصر في العراق، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، ١٩٨٦م.

٣١٨-ميض نظمي: الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق، المكتبة العالمية، بغداد، ١٩٨٥م.

٣١٩-ناصر الدين دينيه: محمد رسول الله، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، ترجمة: عبد الحليم محمود وآخر.

٣٢٠-نبيل ياسين: الشيعة والدولة التجربة العراقية، الكتاب بلا هوية.

٣٢١-نجيب العقيقي: المستشرقون، ط٤، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

٣٢٢–نذير حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، ط٢، جدة، دار المنارة، ١٤٠٦هـ.

٣٢٣–نور الدين حاطوم: محاضرات عن حركة القومية العربية، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٧م.

٣٢٤–نوري عبد البخيت: الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ط١، لندن، دار الوراق للنشر، ٢٠٠٨م.

٣٢٥–هادي العلوي: فصول من تاريخ الإسلام السياسي، ط٢، نيقوسيا، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٩٩م.

٣٢٦–هادي عليوي: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية، ط١، لندن، دار رياض الريس، ٢٠٠١م.

٣٢٧–هنري فوستر: نشأة العراق الحديث، ط٢،الأهلية للنشر، عمّان، ٢٠٠٩م، ترجمة: سليم التكريتي.

٣٢٨–هوراس دافيز: القومية نحو نظرية علمية معاصرة، ط١، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية،١٩٨٠م، تعريب: سمير كرم.

٣٢٩–واديث وَائي، أيف، بينروز: العراق دراسة في علاقاته الخارجية وتطوراته الداخلية ١٩١٥ - ١٩٧٥م، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٩م، ترجمة: عبد المجيد القيسي.

٣٣٠–وليام أندرسن وغاريث ستانفيلد: عراق المستقبل، ط١، لندن، دار الوراق ، ٢٠٠٥م، مراجعة وتقديم وتعليق، ماجد شُبّر.

٣٣١–وليد الأعظمي: ديوان وليد الأعظمي "الأعمال الشعرية الكاملة"، ط٢، دمشق، دار القلم، ٢٠٠٤م، تقديم المستشار: عبد الله العقيل.

٣٣٢–وليد الأعظمي: السعيد والصراع مع عبد الناصر، ط١، بغداد، المكتبة العالمية، ١٩٨٨م.

٣٣٣–وليد الأعظمي: محمد في قلوب أصحابه، ط٣، عمان، دار الفرقان ١٤١٨هـ.

٣٣٤–وليم تيودور سترنك: خزعل بن جابر واحتلال إمارة عربستان، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٦هـ، ترجمة: عاد الجبار ناجي.

٣٣٥–وليم كليفلاند: ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة، ط١، بيروت، دار الوحدة، ١٩٨٣م، تعريب: فيكتور سحاب.

٣٣٦–يوسف القرضاوي: تاريخنا المفترى عليه، ط٥، القاهرة، دار الشروق، ٢٠١٠م.

٣٣٧–يوسف السلوم: اللواء الركن محمود شيت خطاب، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٤هـ.

٣٣٨-يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ط٣، لندن، دار الوراق، ٢٠٠٦م.

٣٣٩-يوهان غوتليب فيخته: خطابات إلى الأمة الألمانية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩م.

ثالثا: الدرويات:

أ- المجلات:

١-جعفر عباس حميدي: التيار القومي في العراق ١٩٢١ ـ ١٩٥٨م، مجلة آفاق عربية، السنة التاسعة، حزيران/ يونيو ١٩٨٤م.

٢-صالح أحمد العلي: تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع عشر، بغداد، ١٩٦٩م.

٣-عباس العزاوي: الشيخ خالد النقشبندي، مجلة الرسالة الإسلامية، العدد الأول، صفر ١٣٨٨هـ.

٤-عبد الرزاق إسماعيل هرْماس: الاتجاهات المعاصرة في كتابة السيرة النبوية، الكويت، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة، (٥٥) العدد، (١٨) شوال ١٤٢٤هـ.

٥-عبد العزيز الدوري: الوحدة هدف اتسع نطاق تأييده ليشمل فئات من كل التيارات، مقابلة فكرية، حاوره فيها، د. علي محافظة، مجلة المستقبل العربي، العدد، ٢٧٩، أيار/ مايو ٢٠٠٢م.

٦-عبد العزيز سليمان نوار: ثورة العراق ١٨٣٢م في العراق، مجلة الهلال، العدد الثاني، السنة ٧٣، ١٩٦٥م.

٧-محمد جمال الدين محفوظ: العقيدة العسكرية الإسلامية، مجلة الأمة القطرية، السنة الأولى، العدد، السادس، ربيع الآخر ١٤٠١هـ.

٨-محمد جمال الدين محفوظ: تحليل نوعي وكمي لغزوات الرسول ﷺ، مجلة الأمة القطرية، السنة الأولى، العدد، السابع، جمادى الآخرة ١٤٠١هـ.

٩-مسفر سعيد دماس الغامدي: إمام المغازي محمد بن إسحاق، بحث منشور بمجلة البحوث الإسلامية، العدد رقم (٥٤)، سنة ١٤١٩هـ.

١٠-مجلة عالم المخطوطات والنوادر: المجلد، العاشر، العدد، الثاني، رجب ـ ذو الحجة ١٤٢٦هـ.

ب- الجرائد والصحف:

١-رشيد الخيون: علي دَّشتي ترجم بتصرف كتاب الرصافي "الشخصية المحمدية" ولم يؤلفه؟!، مقال، صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، العدد، ٩٧٠٤، بتاريخ، ١٧ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ.

٢-كوركيس عواد: علي الوردي الشخصية العراقية في تجلياتها المتباينة، صحيفة الخليج الإماراتية، العدد، ٧٧٩٩، في ٢٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠م.

رابعا: المواقع الإلكترونية:

١-أحمد حسن البكر، موقع الرائد نت على الرابط: http://www.al-raeed.net

٢-إسراء أسد: الكاكائية، مقال بموقع معهد الأبحاث والتنمية الحضارية، في: ٢٠٠٧/٨/٧م، على الرابط:http://www.alhadhariya.net

٣-جعفر سبحاني، مقال بعنوان: المراكز الثقافية الشيعية، بموقع: ميزوبوتاميا، على الرابط: http://www.mesopot.com

٤-حسين السيد إسماعيل الصدر: مسيحيو العراق: لمحات عن تاريخهم وواقعهم، على الرابط: http://www.husseinalsader.org

٥-خالد الجريسي: العصبية القبلية من المنظور الإسلامي، منشور بموقع مركز دراسات العصبية القبلية: www.asabia.com

٦-خالد الغيث: الغزو الفكري في السيرة النبوية.. نماذج تطبيقية، مقال منشور في ١٤٣٢/٦/٢٧هـ بموقع التاريخ، على الرابط: http://www.altareekh.com

٧-خليل الصغير: برنارد لويس: بطريرك الاستشراق: http://www.bintjbeil.com

٨-رشيد الخيون: الكاكائية وحيرة المؤرخين في تقصي تاريخها ومعرفة أحوالها الراهنة، موقع وطن الجميع، في ٢٨ /٢ / ٢٠١١م: http://www.wattan٤all.org

٩-الشبك، موقع الراصد، العدد العشرين، صفر ١٤٢٦هـ: http://www.alrased.net

١٠-صالح مهدي عماش، معجم البابطين لشعراء العربية: http://www.almoajam.org

١١-صباح كعدان: محمد كريم خان زند، الموسوعة العربية على الرابط: http://www.arab-ency.com

١٢-طه جابر العلواني: حقيقة حزب البعث وتكوينه: http://www.alhewar.net

١٣-عبد الرحمن البزاز: http://www.al-raeed.net

١٤-عبد الرحمن محمد عارف، موقع الرائد نت: http://www.al-raeed.net

١٥-عبد العزيز بن عبد الله بن باز: نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، مقال في الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: http://www.binbaz.org.sa

١٦-عبد العزيز صالح المحمود: جهود علماء السنة في الرد على الشيعة، القسم الأول، موقع الراصد الالكتروني، العدد الخامس والخمسون، محرم ١٤٢٩هـ، على الرابط: http://www.alrased.net

١٧-عبدالرحمن الهرفي: ترجمة الإمام ابن القيم: http://www.ibnalqayem.com

١٨-فاطمة حسن الشبكي: الشبك: http://www.mesopot.com

١٩-فرانشيسكو بتراركا الموسوعة العربية، على الرابط: http://www.arab-ency.com

٢٠-الكاكائية من فرق العراق، موقع الراصد، العدد ٢١، ربيع الأول، ١٤٢٦هـ: http://www.alrased.net

٢١-لقاء مع الدكتور فاضل السامرائي، بمجلة الرائد الإلكترونية، العدد: التاسع، في ١٣/٩/ ٢٠٠٦م، على الرابط: http://www.al-raeed.net

٢٢-مازن لطيف: الباحث والمحقق عبد الحميد الرشودي، مقال بموقع الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق على الرابط: http://www.iraqiwritersunion.com

٢٣-مازن مطبقاني: بحث بعنوان: الاستشراق: http: // medina center.org

٢٤-محمد أمين نجف: مركز آل البيت العالمي للمعلومات: http://www.al-shia.org

٢٥-محمد حامد الأحمري: محمد أركون ومعالم أفكاره: www.saaid.net.

٢٦-محمد فاروق البطل: اللواء الركن محمود شيت خطاب، مقال منشور في ٢/٥/٢٠٠٥م، بموقع رابطة أدباء الشام، على الرابط: http://www.odabasham.net

٢٧-منقذ محمود السقار: أدب الخلاف، على الرابط:http://www.saaid.net

٢٨-الموسوعة العالمية للشعر العربي، على الرابط: http://www.adab.com

٢٩-الموسوعة العربية العالمية على الرابط: http://www.mawsoah.net

٣٠-موسى الحسيني: الشيعة والحكم في الدولة العراقية: http://www.mafhoum.com

٣١-موقع مجلس الأقليات العراقية: http://www.minoritiescouncil.org

٣٢-موقع معهد الإمامين الحسنين لإعداد الخطباء والمبلغين: http://www.m-alhassanain.com

٣٣-ميشيل عفلق: ذكرى الرسول العربي، على الرابط: http://albaath.online.fr

٣٤-ميشيل عفلق: في سبيل البعث (الكتابات السياسية الكاملة) على الرابط: http://albaath.online.fr

٣٥-ناصر عبد الرزاق الملا جاسم: الدكتور صالح أحمد العلي شيخ المؤرخين الأكاديميين العراقيين (مقال، منشور بجريدة الجريدة العراقية، د.ت): http://www.aljaredah.com

٣٦-ناظم كزار، مدونة نور الحقيقة:http://nooralhaqiqa.blogspot.com

٣٧-ويكبيديا الموسوعة الحرة على الرابط: http://ar.wikipedia.org

الفهرس


تم بحمد الله